

٥ صفحات من تاريخ مصر
تاريخ مصر
من عهد المماليك
إلى نهاية حكم إسماعيل
تأليف: المستر جورج يانج تعريب: علي أحمد شكري
الناشر: مكتبة مدبولي القاهرة


mohamed khatab

تاريخ مصر

من عهد المماليك
إلى نهاية حكم إسماعيل

الطبعة الثانية

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

الناشر

مكتبة مدبولي

ميدان طلعت حرب بالقاهرة - ج م ع

تليفون ٥٧٥٦٤٢١

صفحات من تاريخ مصر

(٥)

تاريخ مصر

من عهد المماليك
إلى نهاية حكم إسماعيل

تأليف

المستر جورج يانج

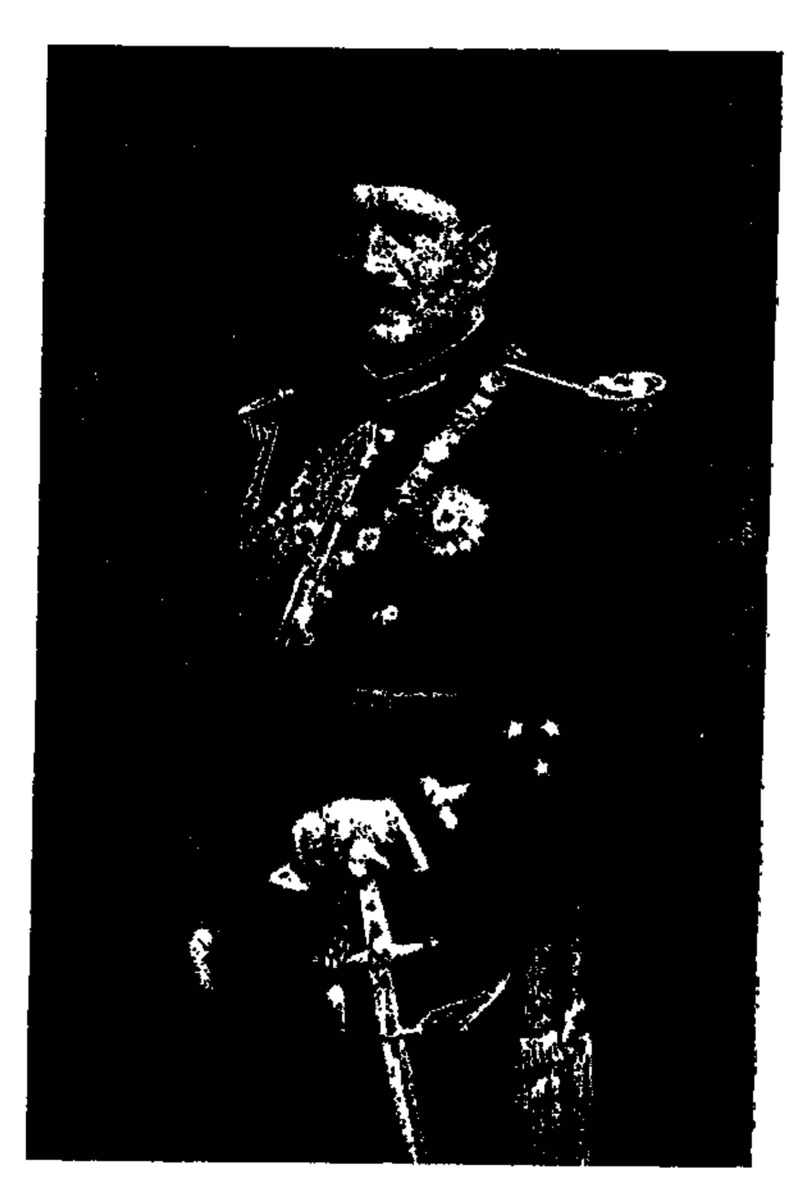
تعريب

على أحمد شكري

وبهامش الكتاب أهم ما وقع من الأحداث في مصر
إلى نهاية حكم إسماعيل باشا مقرونة بالصور
من سنة ١٧٦٠ - ١٨٨٠

مكتبة مدبولي
القاهرة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



الملك فؤاد الاول ملك مصر



الأمير فاروق أمير الصعيد



محمـــد على باشا مؤسس الأسرة المحمدية العلوية
بملابسه المصنوعة فى مصر



بطل حروب الاستقلال ابراهيم باشا
فى لباسه العسكرى



الخديو اسماعيل باشا



السلطان حسين كامل

مصر

من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل

مقدمة المعرب

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين وصلى الله على سيدنا محمد رسوله الأمين من بعث بالحق وفصل الخطاب وعلى آله وأصحابه أجمعين . وبعد فقد كثرت الكتب التى تعالج المسألة المصرية من بعض نواحيها . وهذا الاكثار دليل على أن تاريخ مصر مايزال موضع اهتمام العالم فى الخارج وهو فى نظرنا علامة طيبة . لأن الاهتمام بقضيتنا يفيدنا كثيرا إذ أنه يذكر الرأى العام فى البلاد المتمدينة بأن هناك أمة عريقة على ضفاف النيل تنشد الحرية والاستقلال شعارها « أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا » لا تبغى الاعتداء على أحد من جيرانها كما أنها تنتظر منهم ألا يتطلعوا إلى الاعتداء عليها ، أمة وادعة تريد التخلص من قيودها لتأخذ مكانها بين الأمم الأخرى ولتكون همزة وصل بين مصر الفراعنة ومصر القرن العشرين .

وفضلا عن تنوير الأذهان فى الخارج فان للتاريخ أهمية أخرى تزيد عن هذه بأضعاف فهو من الأمة بمثابة المرآة يبصر فيها الانسان ماقطعته أمته فى الماضى من شتى المراحل وماطرأ عليها من التطورات كما أنه درس يتعلم منه الانسان

كيف يعد للمستقبل عدته مع اتقاء مواطن الزلل واجتناب العثرات. ومن هنا كانت دراسة التاريخ حافزة للهمم الراكدة. ومن هنا أيضاً ترى اعتزاز الشعوب العريقة بتاريخها وحرصها على تعليمه الأبناء والأحفاد.

ولن تجد أمة ضربت بسهم فى المدنية والحضارة إلا منكبة على دراسة تاريخها جيلاً جيلاً وتكشف غوامضه مرحلة مرحلة إلى اليوم الذى تعيش فيه. وبعكس هذا ترى الأمم المتأخرة قانعة بترديد مفاخر الأسلاف مستكنة إلى مجدها التالد.

فالاهتمام بالتاريخ فى أمة من الامم هو إذن دليل رقيها ورمز نهضتها وباعث همتها. ويدخل فى هذا طبعاً العناية بنشر هذا التاريخ فى داخل البلاد وخارجها.

اهتمام جلالة الملك فؤاد بتاريخ مصر

ونحسب أن جلالة الملك كان يؤمن بهذه العقيدة حتى قبل تبوؤ العرش. ولذا صرح مرة وهو بعد أمير بتلك الجملة الذهبية الخالدة وهى:

« إن مجدنا الماضى وتقاليدنا المقدسة مما يشجعنا على السير ببلادنا فى وقت نهضتها الجديدة فى طريق الكمال البشرى الذى كان يبدو من خلال سلسلة جهود الأمم ومن مغامرات الفلاسفة فى كل عصر وفى كل موطن ومنذ عهد ارسطاطاليس إلى أيام ليو تولستوى - بأنه الحلم الذهبي الذى علقت به القرون التى يخطئها العد أو المنار القائم وسط الأفق الأسمى للجنس البشرى.»

وقال سموه فى موطن آخر:

« متى حرصت الأمة على تنمية شعور الأجلال نحو أسلافها والأكبار من أعمال أبطالها تستطيع أن تتعلم سر مستقبلها وتقدره حق قدره لأنها تكون وقتئذ قد وصلت إلى أسمى مراتب المدنية. »

ومن هنا كان اهتمام جلالة الملك فؤاد بتاريخ مصر منذ أقدم العصور

وتشجيعه لبعض العلماء الذين يقومون بكتابة ذلك التاريخ. ولسنا بحاجة إلى أن نذهب بك بعيدا فى هذه الناحية. فلقد سمعت أن جلالته كلف المسيو هانوتو — وزير خارجية فرنسا سابقا — بكتابة تاريخ مصر منذ بدء الخليقة إلى العصر الحاضر فى سبعة مجلدات وقد أخرج فعلا الأجزاء الثلاثة الأول وأصبح الباقى وشيك الظهور.

ثم كتاب « الوجيز فى تاريخ مصر » ويشمل تاريخ مصر القديم إلى نهاية حكم اسماعيل باشا ويقع فى أربعة أجزاء ظهر منها ثلاثة إلى الآن.

وكتاب « الفن المصرى فى عصور التاريخ » الذى قامت لجنة باشراف السير دنيسن روس باخراجه بايعاز وتعضيد جلالة الملك.

هذا فيما يختص بتاريخ مصر العام. ولكن الأمم المتحضرة كما قلنا تعنى بتاريخها إلى اليوم الذى تعيش فيه. وهذه الحقيقة لم تفت جلالة الملك. فان ظهور محمد على باشا يعتبر مرحلة فاصلة فى تاريخ مصر أو هو حقا بمثابة نقطة التحول من التاريخ القديم إلى التاريخ الحديث. لذلك أولاه جلالته ما يستحقه من العناية والاهتمام.

ومن هنا ترى جلالته لا يستكثر نفقة ولا يستعظم مجهودا فى سبيل جمع شتات الوثائق والمستندات الخاصة بعهد محمد على وما تلاه من العهود إلى اليوم. ونحسب أنك سوف تدهش إذا سمعت بما يبذله جلالته فى هذه الناحية من جهود ونفقات وهو بعد الربان الذى لا يتسع له الوقت ولا يستطيع أن يغفل لحظة واحدة عن ملاحظة دفة سفينة الدولة خشية ارتطامها بالصخور والشعاب.

وعلى سبيل التدليل — لا على سبيل الحصر — نقص عليك طرفا من هذه الجهود الجبارة لتدرك أهمية العمل الذى يقوم به أبو الفاروق.

فالوثائق والمعلومات الخاصة بمصر منذ عهد محمد على إلى نهاية حكم

اسماعيل موزعة بين لندن وباريس وايطاليا وفينا ووشنطن ووارصوفيا وبتروغراد وآثينا عدا ما هو موجود منها بمصر . فهل تظن أن جلالته تراجع أمام مايقتضيه الحصول على تلك المستندات من جهود ونفقات ؟ كلا وربك .

بل عهد إلى المسيو دوان من كبار مديرى شركة قناة السويس بجمع الوثائق بين لندن وباريس وتبويبها وطبعها على نفقة الجيب الخاص . وقد وفق المسيو دوان فى مهمته وحصل على كافة المستندات ونشرت الجمعية الجغرافية بعضها وسيظهر قريبا باقيها .

ولم يكتف المسيو دوان المذكور بهذا المجهود بل وضع كتابا عن تاريخ اسماعيل فى خمسة أجزاء وهو تحت الطبع فى ايطاليا وقد ظهر منه الجزء الأول .

ثم عهد إلى السنيور أنجلوسان ماركو من أساتذة التاريخ فى المدارس الايطالية بجمع المستندات الموجودة فى ايطاليا وهى تقتضى مجهودات خاصة لانقسام الدولة الأيطالية وقتئذ إلى عدة دويلات صغيرة لكل منها دار محفوظاتها ولأن هذه الدور لم تتحد بعد فى دار واحدة . ولذا كانت الصعوبة فى الحصول على تلك المستندات مما يفوق التصور .

وبرغم هذه المصاعب فان الأستاذ سان ماركو قد وفق إلى جمع هذه الوثائق وطبع منها إلى اليوم حوالى خمسة أو ستة مجلدات ولا يزال باقيها تحت الطبع . وهو جاد فى الحصول على محفوظات النمسا .

ووثائق وشنطن وقد نسخت فى نحو ٢٠ مجلد وتشمل كل ما كتب عن مصر منذ عهد محمد على إلى نهاية عهد اسماعيل .

ثم وثائق بولونيا ويقوم بجمعها بايعاز جلالته أحد كبار الأخصائيين وتشمل الفترة الواقعة بين سنتى ١٨٣٣ — ١٨٣٦ وهى الفترة التى

نشبت فيها الحرب السورية ووقع فيها اختيار محمد على على بعض كبار الضباط البواونيين لتدريب جيشه .

والوثائق الروسية ويقوم بجمعها رينيه قطاوى بك مدير عام شركة كوم امبو .

ووثائق آثينا وقد شرع المسيو انسطاس بوليتيس من رجال السلك السياسى اليونانى فى طبعها .

وعدا هذا كله توجد مجموعة كتب تاريخية ورسائل قيمة وضعها أعلام التاريخ خاصة بمصر وطبعتها الجمعية الجغرافية على حساب الجيب الملكى الخاص نذكر منها على سبيل المثال (١) كتاب « ميناء السويس » لمؤلفه المسيو جونديه (٢) «وأطلس تاريخى خاص بمدينة اسكندرية وميناثها » للمؤلف السابق (٣) « وعمارة نابليون البحرية فى شواطىء مصر » بقلم المسيو دوان (٤) « وصحراء مصر الشرقية — أو من النيل إلى البحر الأحمر » بقلم المسيو ريموندى (٥) « واكتشاف افريقيا فى العصور الوسطى » لمؤلفه المسيو دى لارونسيير الخ الخ . عدا سلسلة كتب قيمة أخرى خاصة بأهم ماوقع من الأحداث فى عهد ساكن الجنان الحاج محمد على باشا الكبير وكلها قد طبعت على نفقات الجيب الخاص .

وزيارة واحدة يقوم بها الباحث إلى إدارة المحفوظات بالسراى الملكية تبين له الحركة الدائمة فى جمع وترتيب شتى المستندات والوثائق التاريخية الخاصة بمصر وهى حركة تستمد الهمة والنشاط من جلالته رأسا .

وليس شك فى أن هذه المجهودات تنطق عن نفسها بنفسها . وإنه لما يثلج صدر المصرى أن يرى كل هذا الاهتمام بتاريخ مصر من جلالة صاحب العرش .

وإذا كان جلالته قد سن لشعبه هذه السنة الطيبة فلا أقل من أن يقتدى الكتاب بمثله السامى وأن يعنوا على الأقل بنقل مايدونه أعلام

المؤرخين الأجانب عن مصر . ومن هنا اتجهت نيتنا إلى ترجمة كتاب المستر يانج الذى وإن كان قد توخى إنصاف المصريين كأمة ، إلا أنه قد أثار غبار الجدل حول عدة مسائل بعضها دينى وبعضها سياسى وكان فى كلا الحالين يصدر عن رأى غير ناضج يتأثر بظواهر الأشياء وقشورها دون العناية باللباب أو تحرى بواطن الأمور .

وكما أنك لا تستطيع استيعاب الصورة من كافة نواحيها وتقدير ماأودعه فيها الفنان من معجزات الفن إلا إذا تراجعت عنها إلى الوراء قليلا كذلك ليس يسعك الحكم على الحوادث التاريخية حكما صحيحا مجردا من التحيز والهوى أو أن تربط الأسباب بمسبباتها والعلل بمعلولاتها إلا إذا باعد الزمن بينك وبينها حتى يتلاشى أو يخف — على الأقل — تأثرك بها . هنالك — وهنالك فقط — يمكن اعتبار حكمك على الأشياء حكما نزيها بعيدا عن الغايات .

ويدخل فى هذه الملاحظة ماتواضع عليه أعلام المؤرخين إلى يومنا هذا وهو ألا يكتب تاريخ الأمم فى حياة الأشخاص الذين قاموا بالأدوار الرئيسية فيه . وإلا كان المؤرخ فى أغلب الأحيان واقعاً تحت تأثير أولئك الأشخاص فيكون حكمه عليهم غير حكمه عما لو انتظر حتى يصبحوا فى ذمة التاريخ .

ولعل الحكمة فى ذلك أن هناك أسرارا خطيرة تكتنف حياة أبطال الرواية وتلقى ضوءاً باهراً على أعمالهم وتصرفاتهم ويغلب ألا ترى ضوء النهار إلا بعد انتقالهم إلى الدار الأخرى . ومن هنا كان تواضع المؤرخين على ألا ينشروا تاريخ أمة معاصرة إلا بعد أن يصبح أبطال الرواية فيها فى ذمة التاريخ وبعد أن تصبح المستندات والوثائق الخطيرة فى متناول الأيدى وبذا تجتمع لديهم المادة التى يستطيعون بالاعتماد

عليها ان يمضوا فى سرد تاريخ تلك الأمة وهم عالمون أنهم يكتبونه بالطريقة النزيهة التى ينبغى أن يكتب بها .

ولكن صاحبنا المستر يانج حاول لسوء الحظ تخطى ما اصطلح عليه جمهرة المؤرخين وأن يكتب تاريخ مصر فى أثناء حياة أبطال الرواية ولذا لم يأمن الشطط والوقوع فى الخطأ فى أكثر من موضع وبخاصة فى تاريخ مصر منذ نشوب الحرب العالمية .

ولقد كانت النية متجهة فى بداية الأمر إلى إخراج ترجمة كتابه جملة واحدة ولكنا عند مارأينا أن معظم ما كتبه فى السنوات التى تلت نشوب الحرب فضلا عن أنه حديث العهد وحاضر فى الأذهان فهو مشوش وينقصه الاتئناس بالمستندات والشواهد التى لم تكن فى متناول المؤلف عند ماوضع كتابه .

لهذا رأينا أن نكتفى بذكر ماأورده عن أمراء مصر إلى نهاية عهد ساكن الجنان اسماعيل باشا . لكن لما كان ماأورده خاصا بعهد منشىء مصر الحديثة الحاج محمد على باشا الكبير وعهد حفيده اسماعيل باشا فى حاجة إلى شىء من الأسهاب رأينا أن نضيف اليه من الحواشى المتضمنه من المعلومات القيمة ماهو كفيل بأن يملأ كل مصرى فخرا ويجعله يتيه إعجابا بتاريخ هذه الأسرة العلوية المجيدة التى اصطفتها العناية الآلهية لنقل مصر من مجرد ولاية عثمانية خاملة إلى دولة مستقلة ذات سيادة .

ونسارع إلى الاعتراف بأن هذه الحواشى لم يكن لنا أى فضل إلا فى اقتباسها عن المصادر التى أشرنا إليها فى السياق . فهى ليست من عندنا . وقد أوردناها لتكون أكثر دلالة وأبعد أثراً فى الاقناع على صحة نظريتنا عما لو اكتفينا بسرد أقوالنا وحدها .

نظرة إجمالية فى تاريخ مصر

كأنما اختصت العناية السماوية الأسرة المحمدية العلوية بتلك المهمة النبيلة الشاقة مهمة الانتقال بمصر من مجرد ولاية تركية خاملة إلى دولة مستقلة ذات سيادة . ويظهر أن هذه المهمة قد حرص على الاضطلاع بها الأبناء والأحفاد بعد الأجداد والآباء .

محمد على باشا

فلقد ظهر ساكن الجنان الحاج محمد على باشا الكبير على المسرح السياسى ومصر عبارة عن إحدى ولايات الأمبراطورية العثمانية فما لبث أن ولى وجهه شطر العمل على استقلالها وتوسيع حدودها وانتزاع هذا الاستقلال على ظبي السيوف . وما كانت حروبه فى الشام وبلاد العرب والسودان إلا تمهيداً لهذه الغاية النبيلة وائن كانت الدول الأوربية قد تالبت عليه فى موقعة نافارين كما تألبت عليه بعد حروب الشام وأبت إلا حرمانه من جنى ثمار انتصاراته التى اهتزت لها أوربا فان ذلك لم يمنعه من أن ينال لمصر استقلالها الداخلى مع بقاء السيادة العثمانية الأسمية بمقتضى معاهدة لندن المعقودة فى ١٥ يولية سنة ١٨٤٠

ونظرة واحدة إلى صرامة الشروط الواردة فى تلك المعاهدة تقنعك بما تنطوى عليه من ميل إلى الانتقام من هذا الرجل العظيم الذى أقضت حركاته مضجع أوربا وجعلتها تتربص به الفرص للتخلص من نفوذه المتغلغل فى سواحل البحر الأبيض المتوسط .

ويأبى سوء الحظ إلا أن يرفض محمد على هذه المعاهدة ارتكاناً إلى مساعدة فرنسا . ولو قبلها برغم ما انطوت عليه من الأجحاف لفاز بحكم سوريا مدة حياته ولوفر على الجيش المصرى المرابط فى الشام ما تكبده

من الخسائر المادية والمعنوية الفادحة بسبب استئناف القتال لا بين مصر وتركيا بل بينها وبين تركيا وحلفائها .

وعلى كل فقد تم الاتفاق فيما بعد بين محمد على وبين الكومندور نابيير الأنجليزى على الانسحاب من سوريا ورد الأسطول التركى إلى الباب العالى وإخلاء أدنة وبلاد العرب وكريت فى مقابل تخويل محمد على ملك مصر الوراثى بضمانة الدول .

وقد تشبثت تركيا بطلب خلع محمد على بسبب انقضاء المهلة المشار إليها فى المادتين الأولى والثانية من معاهدة لندن وشجعها فى تشبثها هذا لورد بونسونبى سفير بريطانيا فى الاستانة ولكن اللورد بالمرستون وزير الخارجية رأى أن يفض الأزمة باجازة الاتفاق الذى توصل إليه الكومندور نابيير .

اسماعيل باشا

وكأنما أراد اسماعيل أن يحذو حذو جده العظيم فى الوصول بمصر إلى دولة مستقلة ذات سيادة بعد أن وقفت بها الخطى فى عهد عباس وسعيد.

ولكنه وإن اتحد مع جده فى الغاية إلا أنه اختلف عنه فى الأسلوب والوسيلة . فلقد أراد أن يجرب حظه لقطع الصلة التى تربط بلاده بتركيا وإعلان استقلال مصر فى أثناء الاحتفال بافتتاح قناة السويس . وفى سبيل هذه الغاية ابتاع المدافع والبنادق وسائر معدات القتال ليدافع عن مصر إذا ماهاجمتها تركيا . وفى سبيلها أيضاً تجاوز عدد الجيش الحدود المنصوص عليها فى الفرمانات السابقة فأصبح ١٨٠٫٠٠٠ بعد أن كان ١٨٫٠٠٠ كل ذلك ليكون على قدم الاستعداد إذا حزب الأمر . وإذ رأى أن الجو السياسى لايساعد على تحقيق أمنيته أيقن — وهو ذلك الرجل العملى العظيم — أن محاولة انتزاع استقلال مصر من تركيا بحد الحسام مع ما تقتضيه هذه المحاولة من التضحيات المادية والمعنوية تعتبر خاسرة حتما .

ولم يفته الدرس القاسى الذى تعلمه جده العظيم محمد على عند ماتألبت عليه أوربا وحرمته ثمرات انتصاراته . فرأى أن يلجأ إلى ماهو أقل كلفة من ضياع الأرواح ألا وهو المال باعتباره أخف الأمرين هذا فضلا عن أن لغته أشد فعلا فى النفوس وأدنى للنجاح من لغة الحسام والمدفع .

فراح ينفق المال كما قرره المسيو دى فريسينيه لاستخلاص حقوق مصر عن طريق الفرمانات . ولم يكن الطامعون فى أمواله قاصرين على رجال الاستانة من السلطان فما دونه كلا بل كان كثيرمن ساسة الدول الأوربية وكبار رجال صحافتها لايتحركون خطوة فى سبيل الموافقة على رد بعض الحقوق إلى مصر إلا إذا تذوقوا الشهد من بين أصابع اسماعيل وأجزل لهم العطاء .

ولطالما أنفق رسوله فى الاستانة ابراهام بك الأرمنى آلاف الجنيهات فى سد أبواب الدسائس ضد اسماعيل بسبب نظام الوراثة المتبع وقتذاك وفى سبيل حمل الدول وتركيا على إصلاح النظام القضائى فى مصر وإنشاء المحاكم المختلطة التى تعد فى طليعة مفاخر العهد الأسماعيلى . لأنها تحقق أمنية طالما طمحت إليها نفس اسماعيل وهى أن تتولى الفصل فى المنازعات بين رعايا الدول الأجنبية الموجودين فى مصر محاكم مصرية تحكم باسم أمير البلاد .

بل إن الحفلات الرائعة التى أقيمت بمناسبة افتتاح قناة السويس وما أنفق فى خلالها من النفقات لتعتبر قبل كل شىء بمثابة « هدية » قدمها اسماعيل لأصحاب التيجان ليضمهم إلى جانبه في جهاده المتواصل لتحقيق استقلال مصر .

وليس يستطيع من يستعرض عهد اسماعيل الزاهر أن يمر سراعا دون أن يقف برهة أمام تلك السحابة المظلمة التى حاول خصوم ذلك الرجل العظيم أن تظل متجمعة فى الأفق حول اسمه وهى خاصة بالديون

أو القروض التي قالوا إنه اقترضها فأنفقها في أي شيء؟ في إشباع شهواته !!

ولكن إذا كانت دولة الباطل ساعة فان دولة الحق إلى قيام الساعة . ذلك أن ما افتراه خصوم اسماعيل خاصاً بهذه القروض أخذ يذوب الآن ذوبان الجليد تحت أشعة الشمس بما يتكشف للعالم كل يوم من بطون المحفوظات والسجلات التي كانت مجهولة لدى جمهرة الكتاب الذين حملوا حملتهم المغرضة على اسماعيل اعتماداً على الأوهام والاستنتاجات الخاطئة دون أن يدعموا اتهاماتهم بالأدلة والبراهين .

ولقد أغرق المغرضون من كتاب الأفرنج في الطعن على اسماعيل وتشويه سمعته وتسميم عقول المصريين من ناحيته حتى أصبحت أية محاولة من كاتب مصري كصاحب هذه السطور لنقض ما علق حول اسم ذلك الخديو من الأباطيل تقابل بالاستغراب والدهشة بل ويعتبر البعض مثل هذه المحاولة بمثابة عمل جريء يقوم به الأنسان ضد التاريخ !! كأنما ينبغي أن يعتبر مانسجه كتاب الأفرنج من الترهات حول اسم اسماعيل حقيقة تاريخية لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها !!

ولكننا رأينا بعد طول البحث والتقصي أن هذا الخديو كان مظلوما حقا وأن التاريخ لم ينصفه مطلقا . وإذا كان كتاب الأفرنج قد أوسعوه النقد ظلما وعدوانا فلا أقل من أن يتسع صدر القراء الكرام لتتبع ما أوردناه في هذا الكتاب خاصا باسماعيل — وكثير منه لم يطلع عليه قراء العربية قبل الآن — ليتبينوا مبلغ ما أصاب خديوهم المعظم من حيف وإذن يصبح اسماعيل موضع فخارهم وإعجابهم باعتباره الرجل الذي حاول في سنوات قلائل أن يجعل مصر قطعة من أوربا .

وإذا كان ما أوردناه في هذا الجزء بأكمله عن اسماعيل لا يعتبر في الواقع إلا تاريخا موجزا فمن المعقول ألا تتسع هذه الكلمة لتفصيل

إصلاحاته المتشعبة التى ماتزال مصر مدينة له بها إلى اليوم .

ولعل أسوأ ماأصاب البلاد بعد أن أولاها اسماعيل ظهره هو الثورة العرابية التى لا نبالغ إذا قلنا إنها ربما كانت لا تقع لو ظل اسماعيل على عرش مصر . لأنه بفضل ما حبته به الطبيعة من إصالة الرأى وبعد النظر والقدرة على تصريف الأمور تصريفا عمليا كان جديراً بان لايدع أسبابها تنزلق فى الطريق الذى أدى بالبلاد إلى الهاوية الخطرة فى النهاية بل لاستطاع إزالة أسباب التذمر أولا بأول ولكان أجدر على تسيير الحوادث فى غير الاتجاه الذى اتجهت فيه وانتهت بما انتهت إليه من النتائج المحزنة التى مازلنا نعانى كربها إلى اليوم .

جلالة الملك فؤاد

ولقد كان نشوب الحرب العالمية الماضية مرحلة من مراحل الانتقال فى تاريخ مصر . وإذا كانت هذه المرحلة قد امتازت بظهور القومية المصرية بمظهرها الرائع فانها كذلك امتازت بظهور الربان الأعظم الذى تسلم الدفة فى وقت قامت فيه الأعاصير الهوجاء حول السفينة وكادت تدفعها إلى الارتطام بالصخور القائمة فى طريقها . هذا الربان الماهر لا تغمض له جفن بينما الآخرون نيام ولا يفتأ يرقب السماء بلا ضجر ولا ملل ليتبين ما عسى أن تخطه يد القدر فى أفق مصر ممـا فيه الخير والأسعاد لهـذا البلد الأمين .

هذا الربان هو جلالة الملك فؤاد الأول الذى حمل الراية بعد أبيه العظيم وسار مترسماً خطواته وخطوات جده الـكبير فى سبيل الانتقال بمصر من مجرد ولاية تركية ممتازة إلى دوله مستقلة ذات سيادة .

ولسنا نذكر إلا الواقع إذا قلنا إنه كم من مرة اكفهر فيها جو السياسة

المصرية وعصفت بالبلاد العواصف فلم تجد الأمة من تشخص إليه بابصارها ليخرج بها من الظلمات إلى النور سوى سيد البلاد وملاذها الأسمى جلالة الملك فؤاد .

وسل العارفين ببواطن الأمور ينبؤوك بحديث تلك العواصف مما لم يتصل نبأه بالجمهور وكيف ساعد الربان على دفع الضر وكشف المكروه دون أن يأخذ لنفسه ولو نصيبا ضئيلا من فخر تخليص البلاد من المحنة وفى هذا المثل الأعلى على إنكار النفس .

بعض أعمال جلالة المليك

ولسنا نحسبها بجرد صدفة أن الملك فؤاد يترسم خطوات أبيه فى كل مامن شأنه رفع مصر . فكما كان هم اسماعيل أن يجعلها موضع نظر العالم فى الخارج والداخل مما أشرنا اليه فى سياق الكتاب إذا بعاهلها الحالى يحرص على أن تكون ممثلة خير تمثيل فى الخارج مع جعلها تتجلى كالعروس ليلة الزفاف فى الداخل . وليست المفوضيات السياسية والمؤتمرات الدولية العديدة التى اشتركت وتشترك مصر فيها بل وليست رحلات جلالة الملك فى أوربا ـ نقول ليس هذا كله سوى إعلان عن مصر أمام العالم المتمدين ومحاولة حميدة لأفهام أمم الأرض طرا أن مصر فؤاد هى سليلة مصر الفراعنة .

فأينما أدار الانسان بصره وجد آثار المليك . ولا تكاد تسير فى ناحية من نواحى الحياة فى مصر إلا وجدت طابع فؤاد عليها كأنما كان يقيم الدليل العملى على تصريحه وهو بعد أمير للمسيو بيرتى مارت مكاتب جريدة جيل بلاس « ليس شيئاً أن تكون أميراً بل الشىء الكثير أن تكون نافعا . »

ولا نخالك تطالبنا بأن نسرد عليك فى صفحات معدودة أعمال المليك قبل اعتلائه الأريكة المصرية وبعدها لأنها خليقة بمجلد ضخم . ولكننا لانرى محيصا من إلقاء نظرة عاجلة عليها للتذكير والعظة .

فمن ذا الذى لم يسمع «بالأمير» فؤاد وولعه — حتى قبل اعتلائه العرش — بما يفيد البلاد من الناحية العلمية . وإذا ذكرنا تاريخه فى هذه الناحية كانت الجامعة المصرية أول مايواجه الباحث فى حياة ذلك « الأمير » النشيط .

فكلنا نعرف الحركة القومية التى كانت ترمى فى سنة ١٩٠٦ إلى انشاء جامعة أهلية لسد ظمأ البلاد وتعطشها إلى العلم . وإنما جأرت الأمة بطلب جامعة أهلية لتكون بعيدة عن تأثير سياسة التعليم التى كانت قاصرة وقتذاك على تعليم النشء القشور دون اللباب .

فما كادت الفكرة أن تختمر حتى اتجهت الأنظار إلى اختيار « الأمير » فؤاد لرآسة المشروع كضمان لاستمرار سيل التبرعات لأنشاء هذا المعهد القومى . ونحسب أن التوفيق فى اختيار « سموه » لهذا المنصب العلمى كان بمثابة ضمان للسير بالمشروع إلى نهايته الطبيعية حتى أينع وأصبحت قطوفه دانية وصارت البلاد الآن تتفيأ ظلاله فى عهد أبى الفاروق .

فلقد ظل « الأمير » فؤاد رئيسا للجامعة إلى سنة ١٩١٣ حيث كاد عرش ألبانيا أن يظفر بسموه لولا أن قدر الله لمصر أن يظل لها أميرها ليلعب دوره المهم فى مستقبلها السياسى .

وحكاية الانتقال بالجامعة من مرتبتها المتواضعة السابقة إلى مكانتها المزدهرة الحاضرة منذ جلوس جلالة الملك فؤاد على العرش قريبة العهد بنا بحيث نستطيع الاكتفاء بنظرة عاجلة نلقيها عليها قبل الانتقال إلى سرد أعمال جلالته الأخرى .

ففى ١١ مارس سنة ١٩٢٥ عنى جلالته بتوسيع نظام الجامعة وجعلها معهدا أميريا ليكفل لها الحياة الطيبة . ثم تفرع عن الجامعة أقسام أربعة

أو كليات اربع وهى كليات الآداب والعلوم والقانون والطب

وفى سنة ١٩٢٧ تم تنظيم الجامعة نهائيا واحتفل فى العام التالى بوضع الحجر الأساسى لبنائها الحاضر فى الجيزة.

ولا يفتأ جلالته يعنى بأمرها ويتعهدها برعايته حتى أصبحت وهى أحدث الجامعات عهدا تعد فى طليعتها قدراً.

وإلى جانب الجامعة تجد الجمعية الجغرافية التى أنشأها اسماعيل باشا فى سنة ١٨٧٥ وكان أهم أغراضها ارتياد القارة الأفريقية واكتشافها. فلقد كادت هذه الجمعية أن تصبح فى عالم النسيان فى سنة ١٩١٤ لولا أن تداركها الأمير فؤاد فنفخ فيها من روحه وأنشأها نشأة أخرى.

ومعهد الأحياء المائية الذى ابتكره فى سنة ١٩١٢ وجمعية الاقتصاد السياسى وهو واضع برنامجها ثم جمعية مقاومة الحشرات والجمعية الملكية لعلم أوراق البردى ومشروع معهد الصحراء الذى بدأ ينهض الآن رويدا رويدا وتم بناؤه فى ضاحية هليوبوليس، كل هذه المعاهد تنطق بما لجلالته من يد بيضاء عليها.

وإذا انتقلنا إلى المعارف العمومية وفضل المليك عليها رأينا العجب العجاب. فلقد كان أول ما اتجهت إليه العناية الملكية تعميم التعليم الابتدائى وجعله إلزاميا ومجانا. وهى نعمة ستذكرها الأجيال المقبلة لفؤاد الأول بالحمد والثناء وحسبك أنها تؤدى إلى القضاء على الأمية فى وادى النيل.

وكما عنى محمد على الكبير بارسال البعثات إلى الخارج فقد أولاها الملك عنايته أيضاً حتى أصبح لكل وزارة أو مصلحة من مصالح الحكومة بعثة فى الخارج. كذلك اقتدى بجده الأعظم فى إنشاء مدرسة للبحرية هى المدرسة الفاروقية.

وقد تدهش عندما تعلم أن عدداً عديدا من رجال البعثات تدفع نفقاتهم من الجيب الملكى الخاص.

وما دمنا بصدد المعارف العمومية فلا بد من الوقوف هنيهة لأنعام النظر فيما تقوم به إدارة الأوقاف الملكية فى هـذه الناحية وما تسنه فى مدارسها من سنن صالحة سوف تبقى غرة ناصعة فى جبين نظام التعليم فى الجيل الحاضر .

فنظرا لأن هذه المدارس منسوبة إلى جلالته فقد شاءت إرادته أن تكون المثل الأعلى بين كافة مدارس القطر لافرق في ذلك بين المدارس الأميرية أو الأهلية وأن يتضمن برنامجها بين مايتضمنه تعليم طلبتها اللغة الفرنسية وعلم الأخلاق فكانوا بذلك أسبق طلبة مدارس القطر إلى تعلم هاتين المادتين .

وتحقيقا لرغائب جلالة المليك عنيت الأوقاف الملكية بفتح عـدة مدارس أخرى منها مدرسة ثانوية وهى مدرسة الخديو اسماعيل الملكية وقد افتتحت بعد ارتقاء عظمة « السلطان » فؤاد الأريكة باشهر (سبتمبر سنة ١٩١٨)

وناحية طريفة تدل على اهتمام المليك بكل شىء مما لم يسبقه إليه أمير آخر هى اهتمامه بالخط العربى وتحسينه . ولذا انشأ مدرستين لتعليمه كما أمر بادخال حروف التاج فى المدارس والمصالح الأميرية . وفى نهاية سنة ١٩٢٥ أمر بتعليم الطلبة فى المدرستين الأخيرتين فن التذهيب .

ولمدارس الأوقاف الملكية بعثاتها فى الخارج كما لها فرقها الكشافة التى أصبحت ثلاثاً . ولعله يدهشك أن تعلم أن أول فرقة كشافة قامت فى مصر هى التى أنشئت فى سنة ١٩١٨ فى مدرسة الخديو اسماعيل الثانوية بايعاز جلالته كما أنشئت فرق كشافة أخرى فى جميع مدارس الديوان وفرقة للمرشدات والزهرات بمدرسة البنات . وتمتاز هذه المدارس بحسن نظامها ودقة إدارتها . وحسبك دليلا على اهتمام سيد البلاد بالكشافة برغم كثرة شواغله الأخرى أن أصبح سمو أمير الصعيد كشاف مصر الأعظم

ولهذا الاختيار مغزاه الخطير كما لا يخفى .

وما فتئت إدارة الأوقاف الملكية تعنى بشؤون التعليم حتى بلغ ماتحت اشرافها من المدارس مايأتى :

مدرستان ثانويتان وأربع ابتدائية للأولاد وواحدة للبنات وواحدة لتحسين الخطوط الملكية وقسم لتحفيظ القرآن الكريم.

وبعد أن كان عدد الطلبة فى جميع هذه المدارس ٢٠٢١ فى سنة ١٩٢٢ إذا به يرتفع إلى ٣٤٦٩ فى سنة ١٩٣١ . وكأن هذه الجهود الجبارة وما تتطلبه من نفقات هائلة تقوم بها إدارة الأوقاف الملكية لم تكف فى إشباع رغبة أبى الفاروق فى تعليم أبناء شعبه فرأى أن يقرب مناهله من أبناء الطبقة الدنيا ولذا ترى نسبة المجانية بلغت فى سنة ١٩٣١ فى مدارس الديوان ٣٩ ٪

ولعل مما تقر له عين جلالته أن يرى هذه النفقات الهائلة تؤتى ثمرها. فان المدارس المذكورة برغم حداثة عهدها كانت نتيجتها الأولى فى معظم السنوات فى امتحان شهادة الدراسة الثانوية بقسميها لامن حيث نسبة الناجحين فقط بل ومن حيث تفوقهم على أقسام المدارس الأخرى مما جعلها فى طليعة مدارس القطر بلاجدال .

وليس يسع الانسان أن يغفل نصيب الأزهر من عناية صاحب العرش . فان تلك الجامعة العظيمة التى هى بلاريب أقدم وأعظم جامعات الأرض طرا قد أخذت تتطور بسرعة مدهشة كما أنها بدأت تسد حاجة قاصديها من طلاب العلم من الأقطار الاسلامية .

وقد تظن أن مشاغل الملك فؤاد العديدة التى سردنا عليك طرفا منها قد أنسته الناحية الانسانية . ولكن الواقع غير ذلك .

فاذا ذكرت الانسانية ومبلغ حنان جلالته عليها فأمامنا جمعية

الأسعاف. فسل القائمين بشؤونها يخبروك بما فعله « الأمير » فؤاد لأجلها.

فلقد تولى رئاستها فى سنة ١٩١٠ وهى تسير حثيثا فى سبيل التلاشى والفناء ولا يسمع بها إلا قليلون . فما هو أن التفت إليها حتى دبت فيها الروح من جديد وأصبحت الآن ملء الأفواه والأسماع .

وقد كان من أثر جهوده الحميدة المتواصلة عقب توليته رئاستها أن منحتها الحكومة وكذا وزارة الأوقاف إعانة . ثم إذا بهذه الجهود تتمخض عن دار ومستشفى وعيادة أقامتها الجمعية المذكورة التى ما لبثت أن افتتحت لها فرعا فى ضاحية هليوبوليس وآخر فى حلوان وثالث فى الجيزة . هذا عدا المراكز العديدة فى كافة أنحاء القطر .

ولكيما تدرك مبلغ اتساع نطاق هذه الجمعية فبحسبك أن تعرف أن مجموع حالات الأسعاف فى سنة ١٩٠٨ بلغت نحو ١٦٣٨ فصارت ٣٩٩٫٦٩٩ فى سنة ١٩٣١ ثم ٤٢٦٫٧٩٨ فى سنة ١٩٣٢ وهذا بين إسعافات مستعجلة ونقل مرضى وعيادات وعمليات بسيطة وكشف أشعة وزيارات طبية الخ الخ هذا عدا إعطاء مصل الدفتريا لنحو ١٦٫٠٠٠ طفل .

إزاء هذا كله كان طبيعياً أن تشعر الحكومة بأهمية هذه الجمعية وتؤمن بضرورتها للبلاد وخاصة بعد اعتلاء جلالته الأريكة . فوحدت جمعيات الأسعاف فى الأقاليم واندمجت فى اتحاد كبير يشرف على الجميع .

وفى سنة ١٩٢٧ افتتح جلالته قسم الجراحة التابع للجمعية وتبرع له بمبلغ ٥٠٠ جنيه كما تبرع فى سنة ١٩٣١ بمبلغ ١٠٠٠ جنيه لتوسيع إدارة الجمعية هذا عدا مبلغ ٥٠٠ جنيه تبرع به جلالته بمناسبة احتفال الجمعية بيوبيلها الفضى فى ١٩ ابريل سنة ١٩٣٣ وقد أصبحت عيادتها تعالج يوميا مالا يقل عن ١٠٠٠ شخص ولا تقوم بالعلاج فى أثناء النهار فقط بل هنالك خدمة خاصة بمعالجة المرضى وإسعافهم ليلا . هذا عدا الأجهزة

الخاصة المستعملة فى حالة الوضع فى دور الحوامل أنفسهن .

فلا عجب اذا رأينا الأنسانية فى شخص جمعيتى الاسعاف والهلال الأحمر التى تولى جلالته رئاستها فى سنة ١٩١٦ تشكر للمليك بره بهما وعطفه عليهما .

وناحية أخرى من النواحى الأنسانية التى لم يسبق أحد جلالته إليها . ولهذه الناحية طرافة خاصة لأنها قامت فى بلد لم يدرك بعد أهمية الأعمال الاجتماعية .

ففى سنة ١٩١٦ اهتم سمو « الأمير » فؤاد بانشاء دار فى الاسكندرية لتعليم البنات الفقيرات الأشغال اليدوية . وتعميما لفائدة المشروع لم يجعله قاصراً على بنات جنسية دون أخرى بل جعله عاما لكافة الجنسيات بلا فرق بين المذاهب والأديان .

وكانت غاية هذا المشغل تعليم البنات صناعة شريفة يكتسبن بها القوت وتنمية مواهبهن الفنية وبخاصة شغل الدنتلا والتطريز مع مراعاة النماذج التى كانت شائعة فى عهد ازدهار الفن الرومانى واليونانى أو المصرى القديم أو الفن القبطى أو العربى .

وكم توجس الناس خيفة من فشل هذا المشروع . ولكن عزيمة أبى الفاروق لا تعرف الفشل إذ ما من مشروع أولاه عنايته حتى نما وترعرع وآتى ثمره .

وما هو أن دار الفلك دورته حتى بلغ عدد البنات ١٦٤ بعد أن كان ١٠ ومن ثم أخذت الأدلة تترى على نجاح المشروع وسيره الحثيث فى طريق النجاح إذ بلغ عدد نزيلاته فى سنة ١٩٣٤ نحو ٢٨٠

ولا تزال أسر عديدة أخنى عليها الدهر وكتم اسمها عن الناس تدعو بالخير لجلالة المليك وتشكر له عنايته بتعليم بناتها صناعة شريفة يكسبن بها العيش .

وكأنما شاءت العناية الآلهية أن تبرهن للملأ على أن سمو « الأمير» فؤاد كان موفقا فى مشروعه. فلقد أقيم فى سنة ١٩١٧ فى حديقة رشيد بالأسكندرية معرض عام للأشغال اليدوية المقدمة من هذا المشغل. وقد أم المعرض أعيان الثغر ورجال السلك السياسى وغيرهم.. ولشد ما كانت دهشتهم لطرافة النماذج المعروضة فاقبلوا عليها متسابقين إلى اقتنائها. وقد بلغ مقدار المبيعات فى هذا المعرض ٤٠٠٠ جنيه دخل خزانة المشغل فكان بمثابة نواة صالحة تضمن نموه المطرد ونشاطه فى خدمة الغاية التى أنشىء من أجلها.

وضمانا لمستقبل هذا المشغل أمر جلالته أخيراً بضمه إلى الأوقاف الملكية فتحول إلى مدرسة تسير مع بقية مدارس الديوان فى معارج الفلاح والنجاح.

ولا ننس فى النهاية فضل جلالة الملك على الآداب والفنون الجميلة ولا مابلغته الموسيقى العربية فى عهده الزاهر وحسبك أمره الكريم بعقد مؤتمر فى سنة ١٩٣٢ جمع كبار الأخصائيين من بلاد أوربا والشرق العربى للاستنارة برأيهم فى رفع شأن الموسيقى العربية.

هذا وغيره هو بعض ماوسعه المقام. ونعتذر للقارىء إذا كنا لم نحط بكافة أعمال المليك فلم نخصص هذه الصفحات إلا لألقاء نظرة عامة عليها ولتذكير الشعب بما يفعله مليكه من أجله. ويطيب لنا فى هذا المقام أن نقول إن جلالته أنفق من جيبه الخاص منذ اعتلائه العرش إلى نهاية سنة ١٩٣١ ما يزيد عن ٤٠٠,٠٠٠ جنيه مصرى فى الشؤون العلمية والتبرعات الخيرية. وبحسبنا أن نقول إن مصر الملك فؤاد يصح من حيث الحضارة والعلوم أن تقارن بكثير من الدول الأوربية بل قد لا نكون مبالغين إذا قلنا إن فى حياة مصر العامة كثيراً من النواحى تحسدها عليها دول أوربية عديدة.

ويأتى بعد كل هذا أو قبله على الأصح انتقال البلاد فى عهد أبى الفاروق من سلطنة إلى دولة مستقلة ذات سيادة تتمتع فى الداخل بالنظام البرلمانى كما تتمتع فى الخارج بالتمثيل السياسى .

نعم إن استقلال مصر ما زال مقيداً بالتحفظات الأربعة . ولكن قضية مصر قد خطت بلا شك فى عهد الملك فؤاد خطوات واسعات إلى الأمام لم تخطها لا فى عهد محمد على ولا فى عهد اسماعيل . فبالرغم من انتصارات محمد على الباهرة وقرب استيلائه على الاستانة أجمعت كلمة الدول فى معاهدة لندن على إبقاء مصر تحت السيادة العثمانية .

أما اسماعيل باشا فان الدول رفضت موافقته على إعلان استقلال مصر . ولكن هذا الاستقلال قد تحقق فى عهد الملك فؤاد وأصبحت دول الأرض جميعاً تعترف باستقلال مصر كما هو مشاهد الآن .

ونقف الآن عند هذا الحد وندعو الله أن يمد فى عمر جلالة الملك فؤاد ليصل بسفينة البلاد إلى شاطىء السلامة وأن يقر عينيه بولى عهده الأمير فاروق أمير الصعيد وأن يوفق مواطنينا إلى الهدى والصواب إنه نعم المولى ونعم النصير ؟

مصر فى مارس سنة ١٩٣٤ — على أحمد شكرى

الفصل الأول

مولد مصر الحديثة

نابليون — محمد على — بالمرستون

« وأغلق على المصريين فى يد مولى قاس فيتسلط عليهم ملك عزيز »
« يقول السيد رب الجنود — أشعيا الاصحاح التاسع عشر الآية الرابعة . »

مصر الحديثة كأمة تبدأ من الحرب العالمية فقط ، ولكنها كدولة تحكم نفسها بنفسها فانها تبدأ من الحرب العظمى التى وقعت منذ قرن مضى . ولهذا يمكن القول بأن مغامرات صاحبتنا كليوباتره مع صديقها أنطونيوس التركى ومع قيصرها البريطانى جاءت فى ربيع سياسة يومنا الحاضر أى عند ما التهم لهيب الثورة الفرنسية كافة الأنظمة السياسية المعمول بها فى القرن الثامن عشر وأذاب ما حولها من الجليد . وليس يخفى أن كلاب الربيع — ونعنى بها جيوش نابليون — هبطت الشرق يصحبها وابل من الأفكار والمعاهد الجديدة فأنعشت بها موات الولايات التى لفحها الهجير فى الأمبراطورية العثمانية التى كانت وماتزال تشغل شرقى أوربا وشمال أفريقيا . ومن ثم بدأت تزدهر تحت هذا المطر المخصب أمة جديدة وشرع أناس مسلحون يحتشدون حيث لم يكن من قبل سوى سكون الصحراء ووديان العظام النخرة . وماذا عسى أن يكون أدل على قوة سحر بطلتنا « مصر » من أن يسعى اليها نابليون العظيم محاولا اقتناص قلبها ؟

فمنذ تدهور مدنية الفراعنة وانقراضها ومصر خاضعة للفاتحين الأجانب . وقد صار زمام الحكم الأجنبى بعد الفتح العربى إلى أيدى طائفة المماليك وهم الجنود الخدم . لأن لفظة « مملوك » كان معناها فى الأصل الرقيق الأبيض الذكر . والشرقيون فى أوج عزهم — أى فى عهد صلاح الدين — هم أول من أدخل المماليك إلى مصر . وقد كانوا بادىء بدء ميليشيا ذليلة

ثم تحولوا إلى طبقة عسكرية وأخيرا أصبحوا الطبقة الحاكمة. ثم جاء الأتراك فاقتفوا آثار الشرقيين فى جنودهم الانكشارية. وفى الواقع كان الشرق منذ بزوغ شمس الأسلام أخصر طريق إلى الحول والسلطة. وهذا هو صلاح الدين نفسه بدأ حياته كرقيق مثل كثيرين غيره من السلاطين الأولين. وفى مصر شهدنا أغرب الأمثال على تطور طائفة أجنبية وانتقالها من حراسة الرقيق إلى أن أصبحت الطبقة الأرستقراطية القابضة على ناصية الحكم. ومن الغريب أيضا أن هذه الطائفة لم تصل إلى ماوصلت إليه إلا بفضل عدم اندماجها فى الأهالى الوطنيين وابتعادها عن الاحتكاك بهم. ولقد بلغ من قوة المماليك فى سنة ١٢٥٠ أنهم اغتالوا أحد السلاطين الفاطميين وتولوا بعده ترشيح السلاطين من بين زعمائهم.

أما كيف استطاع هؤلاء المماليك أن يبسطوا سلطانهم الأجنبى على مصر نحواً من خمسة قرون فيرجع إلى كونهم كانوا يغذون صفوفهم بأرقى عناصر الأرقاء المحررين من أجناسهم البيضاء فى القوقاز والتى لاجدال فى أنه لايوجد مايفوقها فى كافة أنحاء العالم.

وكان معظمهم من جورجيا — أو الخرز — وهم يعرفون بالخرز (بضم الخاء) ولايزال المصريون يصفون حكمهم بحكم «الغز» وهو تحريف للفظة الخرز. وقد كان المماليك يحرصون على التزاوج فيما بينهم وبين أنفسهم ولما لم يكن هذا وحده كافياً لأنقاذ جنسهم واستمرار استبدادهم اضطروا إلى إدخال دم جديد فى عنصرهم. لأن عائلاتهم كان مثلها كمثل عائلات كل من استولى على مصر من الأجناس «الآرية» الأخرى التى انقرضت فى الجيلين الثانى والثالث. وقد عجز المماليك عن تكوين طبقة وراثية بالرغم مما كان لهم من سيطرة مالية ونظام إقطاعى فى البلاد. ثم إن سلطانهم الأجنبى يضاف إلى اختلافهم مع الأتراك — وهم أغراب مثلهم — كانت نتيجته ماجمع شمل العرب المتمصرين والنوبيين بل والأقباط برغم ما كان بينهم من اختلاف فى الجنس والعقيدة الدينية لأنهم كانوا جميعاً تحت نير واحد.



الأوطه باشى (أبو طبق) ووراءه الجنود فى طريقه إلى القلعة
لأعلان الوالى بقرار العزل *

وبفضل ما فرضه المماليك على أرض مصر الخصبة وعلى فلاحيها الوادعين من الضرائب وما حصلوه من المكوس على تجارة « الترانسيت » بين أوربا وآسيا — استطاعوا أن يكون لهم من الحول ما يكفى للدفاع عن سلطانهم حتى بسط الأتراك سيطرتهم على البواغيز وانشأوا لهم إمبراطورية شاسعة فى شرق أوربا وغرب آسيا . أما آخر سلاطين المماليك فقد شنقه السلطان سليم فى سنة ١٥١٧ . وقد ورث سلاطين آل عثمان عن المماليك فى الشرق هيبتهم ومكانتهم ولم يمسوا نفوذهم السياسى فى مصر بشىء بل اقتصروا على جعل هذا النفوذ خاضعا لسلطة الباشا العثمانى واستبدلوا الانكشاريين أرقاءهم المشاة بفرسان المماليك . ولكن سرعان ما أخذ زعيم المماليك بصفته « بيك » القاهرة

(*) إذا لم يحز الوالى ثقة شيخ البلد وأعوانه يقرر هذا عزله ويبعث إليه برسالة العزل مع رسول يدعى أوطه باشى (ويسمى أبو طبق لأنه يلبس قبعة تشبه الطبق) . فيركب الأوطه باشى حمارا (لعدم سماح القانون بركوب الخيل أو البغال). ويذهب إلى القلعة فى موكب من المتفرجين حاملا فرمان العزل وهناك يقول للوالى « انزل يا باشا » فينزل فى الحال وتزول كل سلطته ولا يعارض الباشا فى الفرمان المذكور حتى ولو تعدى أمر عزله إلى قتله .

ينافس الباشا سلطته وكان ديوان مصر مكونا وقتئذ من بيكوات المماليك باعتبارهم ممثلين لاربع وعشرين مديرية ومن قادة السبعة الفيالق الانكشارية. فلما أخذت سلطة العثمانيين فى أسباب الضعف والوهن شرع المماليك يحدون من نفوذ الباشاوات فى مصر حتى صار عدما . فكان أشبه شىء بما صنعه الانجليز فيما بعد مع الخديو . لابل أن سلوك المماليك مع من لا يلائمهم من الباشاوات كان سلوكا مختصراً وقاسياً أكثر من سلوكنا . فقد كانت عادتهم فى مثل هذه الاحوال أن يرسلوا الى الباشا المذكور مندوبا فى عباءة سوداء تنذر بالنحس فيصيح به « انزل » فينزل صاغراً من على العرش . وانما ولى الباشا وقتئذ وجهه فانما يترتب ذلك فقط على ما يكفيه من الوقت لمغادرة البلاد . ويلاحظ بهذه المناسبة أن جنود الانكشارية بسبب عدم مراعاة التدقيق فى اختيارهم ونظراً لتفرقهم فى طول البلاد وعرضها ، لم يستطيعوا الاحتفاظ بنشاطهم الأدبى وكفايتهم العسكرية كما فعل المماليك من قبل

ولما كانت سلطة المماليك وإدارتهم أجنبية فمن المهم أن نقارن بينها وبين إدارتنا لنتبين هل السر فى بقاء حكمهم زهاء الخمسة قرون - بينما لم يمكث حكمنا سوى خمسة عقود - يرجع إلى أنهم لم يقتصروا على الاحتفاظ بحامية عسكرية وبحكومة . أم لأنهم عرفوا فوق ذلك كيف يكونون طبقة من الحكام والأعيان فى بلاد لا مجال لمحو الجنس الأبيض منها . ثم أن هبة المماليك لمصر كانت فنية بينما كانت هبتنا لها علمية . وإلا فمن ذا الذى يسعه أن ينكر أن لما أنشأناه من سدود النيل وبنوك الأراضى أو لخبرائنا الزراعيين، فوائد تفوق قصور المماليك ومساجدهم وتقاليدهم الفنية ؟ نعم إن قطننا كان سببا فى جلب التجارة الأجنبية إلى مصر، ولكن التوفيق فى رواج حركة السائحين يرجع إلى ثقافة المماليك وهم الذين لا يجادل أحد

فى أنهم أبهظوا عاتق الأهالى المصريين أضعاف ما أبهظناهم . فلقد كانت الضرائب توازى تاج الأرض ماخلا النزر اليسير مما لايكاد يكفى لسد رمق الفلاحين ثم إن المكوس على تجارة الترانسيت كانت معادلة لثمن البضائع الأساسى مما حال دون مزاحمة طريق البحر حول رأس الرجا الصالح . ولقد أدى شجارهم مع الأتراك على استقلال مصر إلى استمرار القلاقل وجاء اعتناقهم الاسلام ضغثا على إبالة إذ قطع صلة البلاد بحركة الترقى الأوربى.

ولقد تبادر إلى الأذهان حيناً من الدهر أن نظام المماليك هذا الذى بسط الأرقاء البيض ظله على شعوب آسيا وافريقيا قد يخضع العالم للدولة الأسلامية الشرقية فيكون أشبه بما عملناه نحن فى صدد النظام الاستعمارى التجارى . فقد أخضعنا به العالم لمدنية أوربا الصناعية . ومن غرائب الصدف أن أسطول المماليك - فى نفس الوقت الذى هدم فيه الأتراك نفوذهم - كان ينازع البرتغاليين مستقبل الأمبراطورية الهندية . وقد غلب على أذهان الناس فى نهاية القرن الثامن عشر ان المماليك برياسة على بك سوف يخلفون الأتراك فى الأمبراطورية العثمانية ، ولكن وفاة على بك المذكور كانت خاتمة مجدهم . وقد حل فى امبراطورية العالم رقيق الأجور محل رقيق الحروب . ثم إن فن المماليك العسكرى قد صار عتيقا . أما جيوشهم فكانت ماتزال مؤلفة من فصائل اقطاعية يشرف عليها رئيسها . وهذه الفصائل تتألف بدورها من بعض باشاوات أو بكوات المماليك العديمى الأهمية أو من رجال السلاح وعدد عديد من الجنود المشاة والأتباع . وأما فنهم العسكرى فانه كان قريب الشبه بفن الصليبيين وبعضها أخذ فعلا عنهم . ولقد كان المماليك وأيم الحق مبدعين حتى فى أيام الحراب والبنادق العتيقة ولكن هذه الأدوات قدفات أوانها فلم تعد صالحة للحرب .

ونحن الذين مازلنا نحتفظ بالفرق الراكبة التى تكلفنا نفقات


أحد جنود المماليك وهو بملابسه الثمينة

باهظة ونجعل من معركة « بلا كلافا » قاعدة للفنون العسكرية قد نشعر بشيء من العطف على ما أظهره المماليك من الاقدام والبسالة عند مهاجمتهم لنابليون.

ولا جدال فى أن المماليك بين كافة من استولى من الأجانب على مصر يعتبرون أكثرهم نفقات وأقلهم كفاية. فان كل فارس من فرسانهم الاثنى عشر ألفاً أو الخمسة عشر ألفاً بلغ متوسط نفقاته نحو ١٠٠٠ جنيه فى العام بينما بلغت نفقات غزواتهم لسوريا بقيادة على بك فى سنة ١٧٦٩، ٠٠٠ر٠٠٠ر٢٦ جنيه. وكان مقبض خنجر على بك يساوى ٠٠٠ر٢٠٠ جنيه. وبما أن عدد سكان مصر وقتئذ كان يتراوح بين مليونين أو ثلاثة ملايين فقد كان بديهياً أن كافة ما كان يجمعونه ثمناً لانتاج التربة المصرية الخصبة ابتلعه أولئك المماليك وأعيانهم. وقد حال كبرياء هؤلاء السادة وجهلهم دون التأثر بأى ضغط نشأ بسبب اتجاه المدنية نحو الشرق.

كان هذا الابتزار سيأ فى ان مصر لم تعد بعد طريقا بين أفريقيا وأوربا، كما انحطت الاسكندرية الى مدينة حقيرة لصيد الاسماك يقطنها نحو ٨٠٠٠ نسمة. والغريب ان المماليك بالرغم من ذلك كله لم يستعينوا بالاجانب فقد منعوا الانجليز من شق الطريق البرى لتوصيل مياه البحر الابيض بمياه البحر الأحمر. وطردوا الجالية الفرنسية وهى التى كانت تحرك دولاب التجارة المحلية (سنة ١٧٧٩).

ولطالما تربصت فرنسا ولبثت ترقب بانتباه ماكان فى الطريق البرى من الفرص الملائمة لها فى النزاع الذى كان قائماً بينها وبين انجلترا حول الاستيلاء على الامبراطورية الهندية . ولقد اقترح ليبنتز الألمانى فعلا على لويس الرابع عشر احتلال مصر وكان قصده من ذلك أن يصرفه عن التوسع نحو الرين (كما ورد فى كتاب أعمال فون ليبنتز المجلد الثانى)

وبعد ذلك بقرن كامل كتب فولنى يقول ما ملخصه : إن إستيلاء الفرنسيين على مصر كفيل باعادة الامبراطورية الهندية إلى أحضان فرنسا، وإن قوة المماليك ليست إلا حديث خرافة فلم يكن ثمة محيص والحالة هكذا من أن تدور رحا الحرب العالمية عاجلا أم آجلا بين الثورة الفرنسية والنظام العتيق فى هذا الدهليز الواقع خلف عرش آسيا .

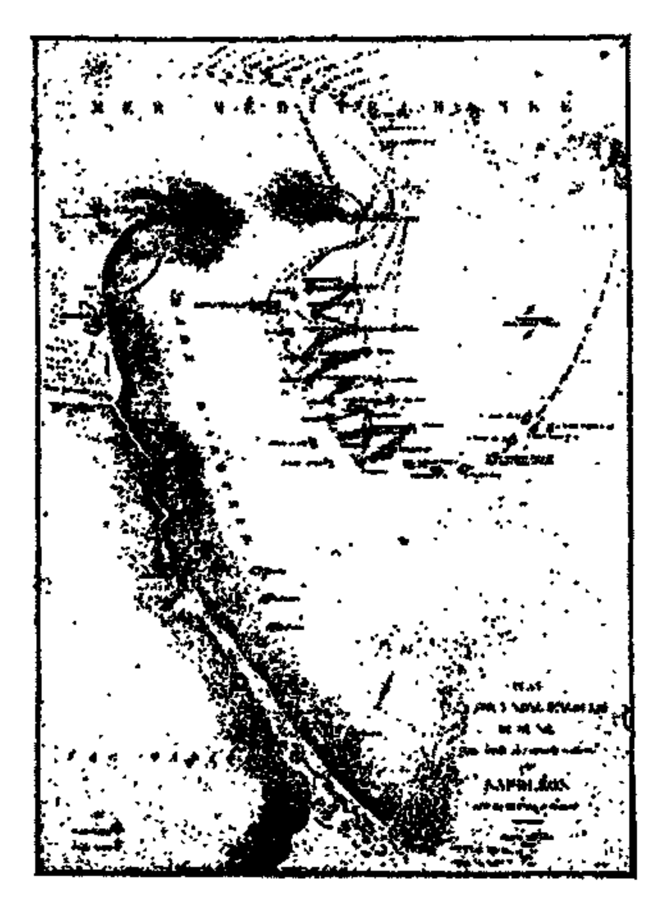
وكانت مهاجمة الامبراطورية البريطانية هى الغاية التى جاهر بها نابليون من حملته التى أرسلها إلى مصر فى سنة ١٧٩٨ . فقد وصفها المجلس الديركتوار بأنها بمثابة الجناح الأيمن للغارة على انجلترا . أما غايته الحقيقية فكانت ترمى إلى اتخاذ مصر ميداناً للقتال فإما أن يخرج منها إلى امبراطورية الغرب أو يتخذها — فى حالة حبوط مساعيه — قاعدة لتأسيس امبراطورية شرقية . ومع إن مستقبله السياسى فى باريس كان وقتئذ غامضاً ومحفوفاً بالشكوك ، فان مجلس الديركتوار ابتهج ايما ابتهاج بتركه يستخدم موارد فرنسا فى مغامرات نائية تريح بال الجمهورية من فاتح إيطاليا غير المرغوب فيه ومن قواده المتمردين وفعلا كان تجهيزها — وهى التى اشتملت بين ما اشتملت عليه على ١٢٢ أخصائياً وعالماً مصرلوجياً — يدل على أن المسألة كانت مسألة انشاء امبراطورية أكثر مما كانت مجرد نزهة عسكرية . وقد كتب تالليران إلى مجلس الديركتوار فى ١٠ يونية سنة ١٧٩٨ بأنها « الحملة التى سوف تهدم سلطان بريطانيا فى الهند » . ولكن

يغلب على الظن أن تالليران كان أكثر اهتماماً بالتخلص من نابليون منه



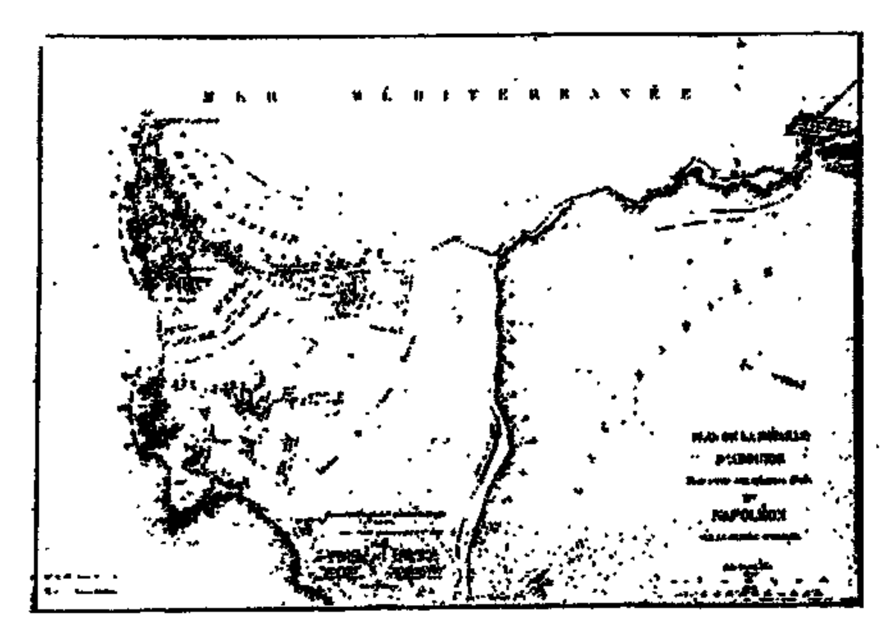
نابليون بونابرت

بهزيمة بريطانيا . ومع أن نابليون كان قد بدأ يراسل « تيبو صاحب » وقبائل مراتا الذين كانوا فى قتال معنا ، فانه كان يصعب على الانسان أن يتصور كيف أن مجرد إرسال تجريدة فرنسية إلى مصر تستطيع بدون السيطرة على البحر اخراجنا من الهند . فان مواصلاتنا كانت حول رأس الرجا الصالح . ثم ان سيطرتنا على البحر الأبيض حالت دون أى



معركة النيل أو معركة أبو قير

المعركة الفاصلة بين الأسطول الانجليزى بقيادة الأميرال « نلسون » والأسطول الفرنسى بقيادة الاميرال « برويه » . وقد وقفت السفن الفرنسية وعددها ١٣ عداأربع فرطاقات أمام العمارة الانجليزية التى كانت مكونة من ١٣ ماعونة وسفينة تحمل ٥١ مدفعاً. وبلغت قوة الجانب الفرنسى ١١٩٦ مدفعاً و ١١٢٣٠ ملاحاً فى حين أن الجانب الانجليزى كان ١٠١٢ مدفعاً و ٩٠٦٨ ملاحا . ومع أن الغلبة كانت فى الجانب الفرنسى فان نلسون لم يتردد فى الاشتباك بخصومه قائلا « قبل أن تحين هذه الساعة من يوم غد سأكون قد حصلت على رتبة لورد أو على مكان أدفن فيه فى كتدرائية وستمنستر » . واستمرت المعركة إلى حوالى منتصف الليل ودارت فيها الدائرة على العمارة الفرنسية التى تفرقت أيدى سبا . وقد قتل الأميرال برويه وهو على جسر سفينته التى كانت تحمل راية الأميرال بينما أصيب نلسون بجرح فى الرأس عاقه عن العمل .

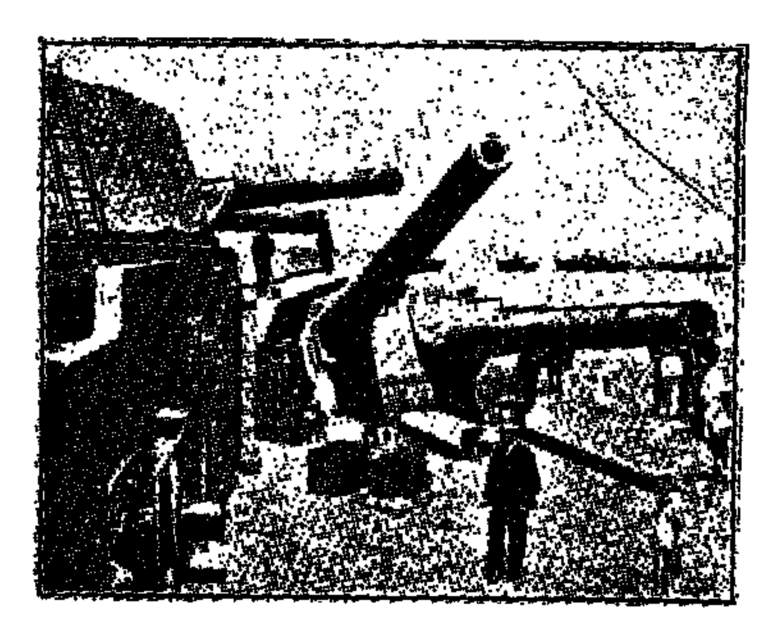


معركة أبو قير

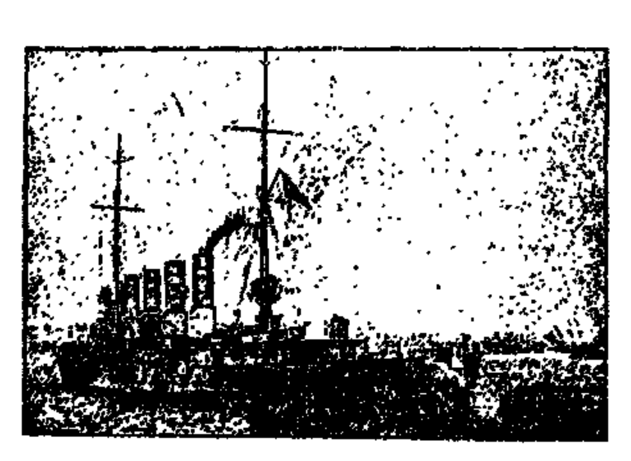
وقد وقفت الحامية الفرنسية على اليابسة بينما أمطرتها السفن البريطانية وابلا من القنابل

« هاتان الصورتان أهداهما سمو الامير عمر طوسون المعرب
أما الشرح فنقول عن جريدة الايجيشيان غازيت . »

اتصال منظم بين فرنسا ومصر اللهم إلا ما ندر . وفى الواقع لقد أفلتت الحملة الفرنسية من المدافع الانجليزية لأن وزارة البحرية لم تسمح للأميرال نلسون إلا ببارجة واحدة فقط مما أدى إلى وصول الأسطول البريطانى إلى مالطة بعـد رحيل العمارة الفرنسية منها ببضع ساعات فقط . كذلك وصل متأخراً إلى كريد وأيضاً إلى الاسكندرية ولـكنه استولى فعلا على أدوات المصرلوجيين المائة والاثنين والعشرين وهى كارثه وإن اعتبرت وقتئذ أنها نذير النحس إلا أنها لم تكن مما لا يعوض . ولئن وجد الآن بيننا من يخامره الشك فيما عسى أن يكون الفرق بين سيادة بريطانيا البحرية مع وجود مثل نلسون وبينها مع عدم وجوده فما علينا إلا أن نقارن بين ما حدث عندما سمح الأسطول البريطانى بأن يفلت الفرنسيون من



البارجة جوبن



البارجة برسلاو

قبضته إلى القاهرة وما حدث بعد ذلك بنحو قرن تقريباً عند ما سمح للألمان بأن تفلت البارجتان جوبن وبرسلاو إلى الاستانة. ولما لم يكن نلسون بالشخص الذى يدع فرصة ثانية تمر دون انتهازها فقد صمم من فوره على اقتفاء أثر الأسطول الفرنسى حيث كان رابضاً فى خليج أبى قير وهناك قضى عليه القضاء المبرم فى أول أغسطس سنة ١٧٩٨ .

ولما أن رأى نابليون نفسه معلقاً فى «الهواء» لم يشأ اضاعة الوقت سدى. فاحتلال مصر عسكرياً لم يكلفه متاعب كبيرة لأن الجيش الفرنسى وعدده ٤٠٫٠٠٠ زحف بطريق الصحراء بشكل مربع مجوف على القاهرة وكان رسل المدنيـة الحديثة المائة والاثنان



الاميرال نلسون قائد الاسطول البريطانى



بونابرت فى معركة إيلاو بالقرب من امبابه

والعشرون فى قلب الجيش بينما عسكر أقطاب الاسلام القدماء فى عرض الأفق ووقفوا يرمقون العدو بنظرة الاحتقار والازدراء وأخيراً برر

أحدهم ظاناً أن عصر الفروسية ما يزال باقياً . وقد لبس عدة الحرب الكاملة المطرزة بالحرير وتقدم إلى الفرنسيين حتى صار على بضع خطوات منهم . وهنالك طلب مبارزة الكولونيل . ولكن الفرنسيين وقد أضناهم الحر والجوع والعطش — لأن البدو المجتمعين كانوا قد قطعوا عليهم طريق الاتصال بسفن المؤونة — أجابوا على طلب المبارزة باطلاق الرصاص من بنادقهم فتركوا صاحبنا نصير الفروسية مجرد سلب ملطخ بالدماء .

وما كانت معركة الاهرام التى نشبت على أثر ذلك وحاول فيها المماليك منع دخول الفرنسيين إلى القاهرة سوى تكرار لهذا الحادث ولكن على مقياس أكبر فقد اشترك فيها نحو ١٠٫٠٠٠ من فرسان المماليك وبضعة آلاف من مشاة الانكشاريين وعدد من الجنديين المصريين. ولكن كان نصيبهم جميعاً الهزيمة ثم الغرق فى مياه النيل . هذا فى حين أن خسائر الفرنسيين لم تتجاوز المائة [1]

نابليون وجنوده فى معركة الاهرام

---

(١) معركة ايلاو أو معركة امبابة أو معركة الاهرام تلخص فيما يلى : فى يوم ٢١ يولية سنة ١٧٩٨ نزل الفرنسيون على بعد ميلين من امبابة فكان النيل عن يسارهم والاهرام وسلسلة جبال ليبيا عن يمينهم وامبابة أمامهم وفيها مراد بك وجنوده وهم بدروعهم البراقة وملابسهم الزاهية. فلما رأى بونابرت حسن استعدادهم التفت الى جنوده وقال جملته المأثورة « اعلموا أن خمسين قرنا تنظر اليكم من قمم هذه الاهرامات وتراقب حركاتكم تنظر ما يأول اليه أمركم مع هؤلاء المماليك » ثم أمر فرقة الجنرال ديزيه =

على أن بكوات المماليك لم يجيدوا الكر والفر فقط بل كثيراً ما اقتحموا مربعات ديزيه ورينييه . ولكن هذا الاستبسال كانت نتيجته الفناء الاكيد . ومنذ ذلك الحين لم يصبح لهذه الشركة الحرة القوقازية باعتبارها قوة عسكرية شأن يفوق مالفياق الباشبوزق من الالبانيين أو فصائل الانكشارية التركية . أما بصفتهم حزبا سياسيا فقد ظل المماليك محتفظين بسيطرتهم إلى أن هدمها محمد على . وأما بصفتهم أعياناً فان من ذريتهم من لا يزال



الجنرال ديزيه

بين زعماء أحد الأحزاب البرلمانية الى اليوم . وليس معنى هذا أن لهم أهمية كطبقة كلا ، بل لأنهم بعد أن انتهت طريقتهم الخاصة فى التجنيد أخذت عملية الانحطاط والفناء تفعل فيهم فعلها بسرعة .

وما أن دخل الفرنسيون القاهرة (٢٧ يوليو سنة ١٧٩٨) حتى بادر نابليون من فوره بتأسيس جنين الامبراطورية فى عاصمة الخلفاء

= بالتقدم نحو اليمين والفرق الاخرى نحو اليسار . ولكن مراد بك أدرك سر هذه المناورة فأمر أيوب بك الدفتردار باطلاق النار على ديزيه وجماعته وحملهم على الوقوف بشكل مربع . ثم هجم أيوب بك ورجاله وهو يصيح « ويل لكم أيها الكفار الملاعين قد ساقكم كبرياؤكم الى أرضنا مهلا اننا سنملأ القبور باجسادكم ونجعل هذا اليوم يوما تذكره أعقابكم من بعدكم . اما نحن فاذا مات أحدنا فانه يذهب شهيداً الى النعيم والذى يبق حيا فله السعادة الى آخر أيامه » . ثم التحم الجيشان بعد تقدم ميسرة الفرنسيين ودارت المعركة الى أن تقهقر المماليك وقتل أيوب بك وفر مراد بك الى الصعيد واستولى بونابرت على امبابة .

القديمة . وقد بذلت مساع هائلة لتخفيف حدة التعصب الديني ولتعليم المبادىء الثورية . وكان نابليون يبدأ منشوراته بالديباجة الاسلامية المألوفة. بل أنه جعل ينحو نحو الحكام المسلمين فى الكتابة [1] . وقد طرحت على بساط البحث فعلا فكرة اعتناق الحملة الفرنسية بأسرها ونابليون نفسه العقيدة الاسلامية . وكانت أول دفعة فى سبيل تنفيذ هذه الفكرة أن « مينو » وهو ثالث قواده اعتنق الاسلام فعلا وأنشأ له ضريحاً ثم بدأ بانشاء مسجد .

---

(١) بعد دخول بونابرت القاهرة جمع العلماء وطلب إليهم اختيار عشرة مشايخ لتأليف ديوان منهم . فوقع اختيارهم على هؤلاء المشايخ العشرة : عبد الله الشرقاوى وخليل البكرى ومصطفى الصاوى وسليمان الفيومى ومحمد المهدى الكبير وموسى السرسى ومصطفى الدمنهورى واحمد العريشى ويوسف الشبرخيتى ومحمد الدواخلى . ثم اختار هؤلاء رئيساً لهم الشيخ الشرقاوى واحتفل بونابارت بافتتاح الديوان وأكرم أعضاءه وأمر المصورين بأخذ صورة كل منهم على حدة . وهذه الصور ما تزال محفوظة فى معرض فرساى . وترى بعض الصور فى ص ٣٨ . وهو أول ديوان وطنى ويعتبر فاتحة السلطة النيابية الانتخابية .

ولد الشيخ الشرقاوى الشافعى فى سنة ١١٥٠ هـ وكان من أعلم أهل عصره وكان فقيراً فى باديء الأمر ثم اتسعت حاله واكتسب مالا عظيما فاشترى الأبنية والقصور والحمامات الخ . وتوفى سنة ١٢٢٧ هـ

والسيد خليل البكرى من سلالة أبى بكر الصديق تولى نقابة الأشراف بمصر ومشيخة السجادة وتأيد منصبه فيها بعد مجيء بونابرت فاستولى على أوقافها . كان وافر الحرمة مقبول الشفاعة عند الفرنسيين حتى أن أمراء المماليك الهاربين كانوا يوسطونه لدى الفرنسيين فى العفو عنهم . وبعد خروج الفرنسيين عادت نقابة الأشراف إلى السيد عمر مكرم وتوفى سنة ١٢٣٢ هـ

أما الشيخ محمد المهدى الكبير فقد ولد قبطياً وأبوه اسمه ايفانيوس فضل الله. ولما ولد سمى هبة الله . كان ابوه كاتباً فى بيت سليمان كاشف فلما ترعرع هبة الله أعجب به الكاشف وأراد جعله من مماليكه ولم تكن نزعته عسكرية فأدخله الأزهر وهنا اعتنق الاسلام وسمى محمد المهدى وكان زكياً وما زال يرتقى حتى صار من كبار العلماء ثم أصبح من أهل الثراء حتى جاء الفرنسيون فأصبح صاحب الحظوة عندهم حتى لقبوه بكاتم السر .



الديوان الخصوصي وهو أول مجلس شوروى وطنى فى مصر أنشأه نابليون سنة ١٧٩٨



الجنرال مينو أو الحاج عبد الله مينو

وكانت ألقاب الشرف توزع بالتساوى فى كافة الاحتفالات والأعياد الرسمية . وكأنما أراد الفرنسيون أن يسبقوا شيوعيي روسيا فلقبوا أنفسهم بمحررى مصر من نير الأجنبى سواء المماليك الشراكسة أم الباشوات الاتراك . وانتحلوا لأنفسهم الفضل فى القضاء على أعداء الاسلام القدماء وهم على التوالى البابا وفرسان مالطة . ثم أنهم أسموا أنفسهم رسل الحضارة


الشيخ عبد الله الشرقاوى


الشيخ خليل البكرى

الأوربية وقد بدأ المصرلوجيون والاخصائيون أعمالهم فأسسوا معهد مصر على طراز معهد فرنسا ووضعت التصميمات فعلا لشق قناة عبر برزخ السويس وأعيد تنظيم الادارة . وسرعان ما بدأ العمل بالنظام المالى الاسلامى تحت اشراف الفرنسيين بكفاءة كانت رابحة أكثر مما كانت محبوبة من الشعب .


الشيخ محمد المهدى

أما الثورة التى لم يكن مناص منها فان كفاءة النظام المالى قد عجلت بنشوبها بقدر ما عجزت الدعاية الاسلامية عن منعها طويلا . وكان الشعور الوطنى فى مصر إلى ذلك الحين موجودا فعلا ، ولكنه اتخذ شكل نفور سلبى من تلك الادارة الغير مصرية التى هيمن عليها أجانب كفار . وسرعان



مرادبك

ما تبين للفرنسيين بعد وقوع فتنة القاهرة (٢١ اكتوبر سنة ١٧٩٨) [1] انهم لم يفتحوا مصر بعد بالرغم من أنهم قضوا على مستعبديها. وعلى أن هذه الفتنة قد قمعها «جينو» بشدة أوقعت الرعب فى كل من كانت تحدثه نفسه بالاقدام على مثلها. وقد كتب نابليون بهذه المناسبة إلى «مينو» (٣١ يوليو سنة ١٧٩٨)

---

(١) هذه الثورة من الاهمية بحيث ينبغى ذكر قصتها هنا. وتتلخص فى انه فى يوم ٢١ اكتوبر سنة ١٧٩٨ جاء الى الشيخ البكرى جمع كبير من أولاد الكتاتيب والفقهاء والعميان والمؤذنين وارباب الوظائف والمستحقين من خدمة الأوقاف وغيرهم وشكوا من قطع مرتباتهم وخبزهم لان الاوقاف تعطل ايرادها واستولى على نظارتها غير المسلمين. فوعدهم بالمساعدة على نيل حقوقهم ان قدموا شكواهم الى الديوان. واجتمع المشايخ فى الازهر فى اليوم التالى وأرسلوا القراء يطوفون الاسواق ويقولون «فليذهب كل من يوحد الله إلى الجامع الازهر هذا يوم الجهاد فى محاربة الكفار وأخذ الثار» فاحتشدت الجماهير أمام الجامع الأزهر ويمموا شطر بيت القاضى وبدأت أعمال النهب والتخريب. فذهب الجنرال ديبوى قائمقام القاهرة يستطلع الخبر فرماه بعضهم من النوافذ بحربة كانت القاضية على حياته. وتفاقمت الحالة والفرنسيون لايستطيعون دخول المدينة إلى أن ركب نابليون فى مقدمتهم وتوجه شطر الأزهر وطلب من العلماء وقف الرعاع عن التجمهر. ولكنهم لم يصدعوا لأمره وكان قد بلغه نبأ عزم بعض العربان على دخول القاهرة. فأرسل إلى العلماء أحد أركان حربه ولكن الثائرين قتلوه. وفى تلك الاثناء وصل كليبر من الاسكندرية بجيشه. فهجم الفرنسيون وأطلقوا فى الساعة الثالثة بعد الظهر مدافعهم على خط الازهر وظلت القنابل تتساقط إلى المساء. فأجمع رأى =



حفلة فتح الخليج فى يوم ١٣ مسرى أيام بونابرت. وقد اشترك فيها نابليون مراعاة للعادات الوطنية. وكان الخليج نهرا يصل ما بين النيل والبحر الأحمر فكانت السفن فى البحر المتوسط تصعد إلى النيل ثم تدخل الخليج ومنه الى البحر الأحمر

يقول انى أطيح خمس أو ست رؤوس يومياً فى شوارع القاهرة . ولا ريب



نابوليون بونابرت بلباسه الشرق

فى أن هذه الفتنة كانت من أشد ما عاناه الفرنسيون منذ هبوطهم أرض مصر . أما فى حصار الأزهر — مركز الثقافة الاسلامية — فان خسارة المصريين بلغت من الفداحة ما بلغته خسارة المماليك فى موقعة الأهرام .

= المشايخ على التسليم وذهبوا إلى نابليون يستعطفونه فعفا عنهم بعد أن وبخهم أشد توبيخ . ثم دخلت فرسان الفرنسيين الى صحن الجامع الازهر وكسروا قناديله ومحوا ما على جدرانه من الآيات القرآنية . وفى يوم الثلاثاء ٢٤ أكتوبر خرج الناس للصلاة فاذا بالخيل تهاجمهم . وفى صباح الاربعاء بعث المشايخ يطلبون من بونابرت اخراج الخيل من الجامع فرفض طلبهم الا اذا جاؤوه بزعماء الثورة . ثم جعل يقتص من كل من تقع عليه الشبهة رجالا ونساء حتى قتل من المشايخ ١٢ دفعة واحدة ووضع جثثهم فى أكياس ألقاها فى النيل وصمم على اتباع الصرامة مع المصريين ومنع المشايخ من المباحثة فى الديوان وحصر عملهم فى بث المنشورات بين الشعب لتهدئة ثائرته .

وهكذا تبين لأول مرة ان المصريين يقاتلون من أجل غاية وطنية ظلت منذ ذلك الحين حجر الزاوية فى حركتهم القومية .

أجل أن مصر قد خضعت فيما بعد ، ولكن كان لايزال على نابليون أن يحسب حساب الامبراطوريتين البريطانية والعثمانية . نعم كان فى وسعه التغلب على كل منهما بمفردها ، أما وقد تألبتا عليه فقد كانتا فوق طاقته على التحقيق . ولم تجد السياسة البريطانية — وهى التى عرفت بالجنوح دائماً إلى التقلب مع الدول الأخرى دون أن تعنى عناية خاصة



نابليون وحاشيته يحتفلون بمولد النبي وكان المشايخ قرروا عدم اقامة الاحتفال لعدم وجود المال فأعطاهم نابليون ٣٠٠ ريال وأمر باقامة الاحتفال كالمعتاد واشترك فيه الجنود الفرنسيون وأحرقوا الصواريخ أمام دار البكرى والذى قلد فى ذلك اليوم فروة وتقلد نقابة الاشراف

باختيار حلفائها — أية صعوبة فى أثارة نخوة الأتراك وتحريضهم



بونابرت يحضر حفلة وفاء النيل



بركة حديقة الازبكية من جهة الجنوب قبل تجفيفها وهي من بعض الاصلاحات التي عنى بها الفرنسيون



نابوليون يحتفل بعيد الجمهورية فى القاهرة

على استرجاع أخصب ولاية فى امبراطوريتهم فى (سبتمبر سنة ١٧٩٨). وإذ خيل إلى نابليون أنه سوف يقاتل الأتراك وحدهم شرع من فوره فى غزو سوريا (مارس سنة ١٨٩٩) والزحف على الاستانة. وفى يافا قتل أحد الجنود الفرنسيين من حاملى الراية البيضاء فذبح ألف من الاسرى الاتراك انتقاماً لهذا العمل مما صبغ الحملة الفرنسية بوحشية كانت على التحقيق سبباً فى هزيمة الفرنسيين فى نهاية الأمر. ثم اجتيحت يافا ولكنها انتقمت من الجيش الفرنسى بتفشى الطاعون بين صفوفه [1].

(١) تتلخص قصة قتل حامية يافا فى أن بونابرت عند ما وصل المدينة أمر بمهاجمتها فى ٤ مارس سنة ١٧٩٩ وكانت حاميتها أخلاطاً من الأتراك والمغاربة والأرانطة والأكراد. فلما اخترقوا أسوارها تتبعوا حاميتها إلى أن أعلن الأرانطة ومنهم تتألف أغلبية


الشيخ السادات *

وبدا الهجوم على عكا حيث كان يقيم أحد المماليك المدعو « أحمد الجزار » وهو رجل طالما عاث فى البلاد السورية فسادا . وهنا تدخلت فى الأمر قوة بريطانيا البحرية بوصول عمارة السير سدنى سميث التى كانت تحاصر الاسكندرية. فان « الجزار » بعد أن كادت موارده أن تنضب قد زود بالمؤن

ـــــــــــــــــــــــــــــــ

= الحامية « نحن نسلم لكم أنفسنا إذا أمنتمونا على حياتنا » فوعدهم أركان حرب بونابرت بهذا . فاستسلوا فقادهم موثقين وعددهم ٤٠٠٠ حتى أتى بهم المعسكر الفرنسى . فلما رآهم بونابرت قال للقادم « ماهذه الجماهير ؟ » قال « هى حامية المدينة قد سلمت وجئنا بهم إليك » قال « ماذا تريدون أن أفعل بهذا العدد أعندكم زاد يكفيهم أو مراكب تنقلهم إلى مصر أو فرنسا وإذا أرسلناهم فى البر فمن يتولى خفارتهم ؟ »

فأجابه قائلا « إنا قبلنا تسليمهم حقناً للدماء » فقال بونابرت « نعم يجب أن تفعلوا ذلك ولكن مع الأطفال والنساء والشيوخ وليس مع مثل هذا القدر من الرجال الأشداء المجندين » . ثم أمرهم بالجلوس مكتوفى الأيدى أمام المعسكر . وفى اليوم التالى فرقوا عليهم شيئاً من البقسماط الجاف والماء .

وعقد نابليون مجلساً فى خيمته للتفكير فى أمر الأسرى وبعد عدة جلسات وكثير من التردد قرر إعدامهم جميعاً . وفى ١٠ مارس سنة ١٧٩٩ خرجوا بهم بعد الظهر إلى الصحراء خارج يافا وقسموهم فرقاً وأطلقوا عليهم الرصاص فقتلوهم جميعاً . فلما بلغت هذه الفعلة مسامع « الجزار » فى عكا صمم على الاستبسال فى القتال خوفاً من أن يصيبه مثل ما أصاب أهل يافا .

* فى سنة ١١٩٩ هـ جاء الجيش التركى وهزم المماليك فجمع القائد التركى قبطان باشا أمتعتهم ونساءهم وعرضهم للبيع فى قصر العينى . وهنا تصدى له الشيخ السادات فمنعه من بيع النساء قائلا : « قد أرسلت إلينا لمعاقبة ابراهيم بك ومراد بك وليس لهتك شرائعنا والطعن فى عاداتنا » فاستثنى قبطان باشا المحظيات الحوامل من البيع . ولما جاء نابليون مصر استدعى الأعيان ومنهم الشيخ السادات فأهداه خاتماً من الماس .



جيش ديزيه يصل الى أسوان متعقبا جنود مراد بك وهو آخر ما وصل اليه الفرنسيون فى الصعيد



حيفا وخليج عكا

وأرسلت اليه النجدات والضباط الذين شرعوا فى تنظيم خطط الدفاع . وفى الوقت نفسه اجتاز جيش تركى نهر الأردن وأخذ يهدد مؤخرة الفرنسيين . فكر عليه نابليون بمساعدة قائديه كليبر وجينو وهزمه فى موقعة جبل كابور واستولى بعد ذلك عنوة على أسوار عكا (ابريل سنة ١٧٩٩)[1] .

ولكن عكا كانت آخر ماوصل اليه نابليون فى سبيل إنشاء أمبراطوريته الشرقية لأنها (عكا) رأت أن لامخلص لها من الكارثة التى حلت بيافا من قبل إلا بالمقاومة العنيفة . وقد استبسل الأهالى فى القتال حتى طردوا الفرنسيين من داخل المدينة بعدما أضناهم قتال الشوارع . وإذ فشلت الهجمة الرابعة عشر رفع الفرنسيون الحصار بعد أن فتك فيهم الطاعون شر فتك وأصبحوا مهددين بجيش تركى جديد . ولم يكن الفشل وحده نصيب نابليون بل خدشت سمعته أيضاً لأن حنقه الشديد على الانجليز دفعه إلى

(١) بعد أن قتل نابليون حامية يافا قصد إلى عكا حيث كانت قد تحصنت تحصيناً منيعاً بهمة واليها أحمد باشا الجزار وهو الرجل الوحيد الذى كان يعتمد عليه الباب العالى فى سوريا . ثم أمر بونابرت بتسيير الجنود إلى المدينة . وكانت عمارة السيرسدنى سميث قد زادت الجزار تمسكا بالدفاع . وفى ٢٠ مارس سنة ١٧٩٩ بدأ القتال واستبسل الجزار واستنجد بقوات صيدا ودمشق وحلب بينما كانت المدرعات الانجليزية تشد أزره .

وضرب بونابرت الحصار على عكا وأرسل بعض جنوده إلى صفد وصور وطبريا وغيرها فعادوا بالخيرات والمؤونة . ثم وصلت المدرعات الفرنسية من اسكندرية ومعها المؤن . وفى يوم ٩ مايو وهو اليوم الخمسون للحصار هجم الفرنسيون هجوماً عاما ولكن الحامية بمساعدة العمارة الانجليزية والنجدة التركية بقيادة حسين بك ، صدت هجومهم هذا وهجوم اليوم التالى . فيئس بونابرت من فشله هذا وخرجت عليه المدن السورية الأخرى وانضمت إلى الباب العالى . ووزع السر سميث منشورات على مشايخ لبنان يستفزهم فيها ضد بونابرت مما حملهم على الكف عن توريد البارود والخمور للفرنسيين . وهنا قر رنابليون العودة إلى مصر وهو يسحب ذيول الانكسار .

رفض اقتراح سدنى سميث بترحيل الجرحى الفرنسيين وعددهم ١٢٠٠٠ وأن يؤثر تركهم تحت رحمة الأتراك الذين أفنوهم على بكرة أبيهم . على أن قائديه «لان» و «مورات» ما عتما أن أنقذاه مرة أخرى بانتصار باهر أحرزاه فى جهة أبى قير (١٤ يوليو سنة ١٧٩٩) بجيشهما البالغ عدده ٦٠٠٠ ضد جيش الانكشاريين وكان يبلغ ١٨٠٠٠



معركة أبو قير ٢٥ يونيه سنة ١٧٩٩

وبعد استيعاب الصحف التى حرص الانجليز على ارسالها إليه بمهارة سياسية قرر نابليون العودة إلى فرنسا . وفعلا أقلع إليها فى ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٩ بصحبة معظم قواده تاركا زمام الأمور لكليبر[1] . ولكن مصر

---

(١) بعد عودة بونابرت من حصار عكا تسلم رسائل عديدة من فرنسا باضطراب الحالة فيها والحاح من مجلس الديركتوار بعودته حالا الى باريس . فكتم بونابرت الامر عن رجاله ماعدا الامير ال غانتوم الذى كلفه باعداد بارجتين لنقله . ولكيما لايشتبه المصريون فى الامر عاد الى القاهرة فى موكب الظافرين لخرج الاعيان الى لقائه تصحبهم الموسيقى . وبعد قليل نزل الى الاسكندرية متظاهراً برغبة التجول فى الوجه البحرى ثم كتب =

وامبراطورية الشرق ظلت إلى آخر أيامه متسلطة على عقله وكثيراً ما علقت أحلامه بحراس المماليك وبالجياد العربية والدسائس الشرقية كما أنه كان بعد ذلك يقرب إليه كل من اشترك معه فى الحملة المصرية (١)



الجنرال كليبر

وكانت عكا هى خاتمة المشروع المصرى من حيث علاقته باوربا. ولعلها كانت أيضا خاتمته فى مصر لو لم ترفض الحكومة البريطانية إبرام اتفاقية العريش (٢٤

= الى كليبر واليه على الغربية يوليه القيادة العامة على مصر ويبين له وجوب المحافظة على الاحتلال خيفة أن تأتى دولة أخرى فتختطف ماجنته فرنسا من الثمار ووعده بارسال نجدة اليه من فرنسا وأسر اليه بالسبب الذى دعاه الى ترك مصر بهذه السرعة وكتب الى جنوده يأمرهم باطاعة كليبر وأوهمهم بانه سيعود من فرنسا بعد ثلاثة أشهر.

ثم عهد بقيادة الاسكندرية الى الجنرال مينو. وفى ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٩ قرر السفر من الاسكندرية فركب جواده وسار بمن معه الى جهة العجمى فنزل هو ورجاله الى البارجتين حوالى الساعة العاشرة مساء فاقلعتا بهم فى صبيحة اليوم التالى عائدين الى فرنسا.

(١) للوقوف على ما خطر بعد ذلك من الاحلام الخاصة بالفتوحات الشرقية راجع كتاب فاندال المسمى «نابليون واسكندر الاول» المجلد الاول باريس سنة ١٨٩١ وكتاب دريو المسمى «سياسة نابليون الشرقية» باريس سنة ١٩٠٤ وكتاب رولوف المسمى «سياسة نابليون الاول الشرقية» ويمار سنة ١٩١٦.

يناير سنة ١٨٠٠) التى وضعها سيدنى سميث ونص فيها على ترحيل الجيوش الفرنسية فى السفن التركية . فأدى هذا الرفض إلى إطالة أجل الاحتلال الفرنسى مدة أخرى . وفى هليو بوليس (٢٠ مارس سنة ١٨٠٠) هزم ١٠٫٠٠٠ جندى فرنسى نحو ٨٠٫٠٠٠ جندى تركى ونشبت فى القاهرة بعد ذلك فتنة أخرى اخمدت بعد حصار أسابيع بشدة مصحوبة بهدر دماء غزيرة.ولعل ثورة مصر وقتئذ كانت تدل على مافى نفوس الأهلين من حرارة . وكأنما شاءت المقادير أن تحدث فى ذلك الحين مأساة كالتى حدثت بعد ذلك بقرن كامل إذ أن أحد الطلبة الأزهريين اغتال كليبر ذلك الجندى الصلب الرأى الشديد الوطأة . وأخيراً أعادت السلطة والأدارة الفرنسية الأمور إلى مجاريها واستأنف المصرلوجيون ممن عاشوا بعد الفتنة أعمال التبويب وجمع الآثار[1] . وقد ولى الأمر مينو

---

(١) لما كانت الحوادث التى انتهت بانسحاب الفرنسيين من مصر وما تلا ذلك من ظهور محمد على باشا الكبير على جانب عظيم من الاهمية رأينا أن نجمل ماذكره عنها صاحب كتاب « تاريخ مصر الحديث » فى مايلى « المعرب »

بعد انسحاب بونابرت من مصر

كان بونابرت يرمى بحملته على مصر أن تأخذ شكل احتلال دائم . ولكن كليبر كان على عكس هذا الرأى تماما ولذا لم يتردد بعد سفر نابليون فى أن يصارح ولاة الامور فى فرنسا بجلية الأمور فكان مما قاله«إن أعداء فرنسا فى مصر لايقتصرون على المماليك بل قد انضمت اليهم تركيا وانجلترا وروسيا هذا بينما القوات الفرنسية هبطت الى نصف ماكانت عليه وهم متفرقون فى أنحاء البلاد تنقصهم المعدات والملابس هذا فضلا عن خسارة ١٢ مليون فرنك بسبب تضمين الضرائب غير الاعتيادية بأمر بونابرت . ولئن كان المماليك قد تشتتوا فلا ينبغى اغفالهم من الحساب كلية لان مراد بك مايزال فى الصعيد مع قوة كبيرة ، هذا بينما الصدر الاعظم يسير لمحاربتنا فى حملة عظيمة . وقد غادر دمشق الى عكا . ثم ان حصوننا ضعيفة وافضل ما أراه مخابرة الباب العالى لعلنا نصل الى وفاق فيه خير لنا . وقد علمت أن عمارة عثمانية رست أمام دمياط » .

وانصرف كليبر الى الاصلاحات برغم انه كان يستصوب الانسحاب من مصر =

المسلم فجعل باكورة أعماله وضع نظام يتضمن المصالحة والتساهل مع

= نهائيا . وكانت تركيا قد أرسلت صدرها الاعظم يوسف باشا فى جيش كبير وحشدت فى الوقت نفسه عمارة لمرافقة عمارة السير سدنى سميث بحرا . فرست العمارة العثمانية فى دمياط وأخرجها الفرنسيون منها .

ولما قدم يوسف باشا الى يافا بدأ بمفاوضة كليبر فاسفرت المفاوضة عن اتفاقية العريش ٣ديسمبر سنة ١٧٩٩ ولكن الاتراك عبثوا بها فى ٢٣ ديسمبر ودخلوا العريش مما جعل كليبر يعنف السير سميث على هذا العمل .

اتفاقية العريش الاولى

ثم عقد مؤتمر ثان فى العريش فى ٢٤ يناير وأسفر عن معاهدة العريش وتقضى بانسحاب الفرنسيين بمؤنهم وذخائرهم عن طريق رشيد والاسكندرية وأبى قير فقرنسا.

ولشد ما كان ابتهاج كليبر والفرنسيين بهذه الاتفاقية كما ابتهج بها الشعب والمماليك وكان من أثرها أن المماليك المعسكرين فى أقاصى الصعيد عادوا بأسرهم وذراريهم الى القاهرة بينما الصدر الاعظم كان يسير قاصدا العاصمة . فلما وصل الى بلبيس خرج العلماء والمشايخ باذن كليبر لملاقاته وتقديم فرائض الطاعة لجلالة السلطان .

نقض الاتفاقية

وبينما كان كليبر وجنوده يعدون العدة للرحيل من مصر اذا بالسير سدنى سميث يبعث إليه كتابا يتضمن نقض الاتفاقية بناء على أمر تركيا ومطالبة الفرنسيين بتسليم أنفسهم وسلاحهم كما يفعل أسرى الحرب مع التخلى عن كل ما لهم من المراكب والمؤن فى الاسكندرية .

فاستشاط كليبر غضبا وأعد العدة لاستئناف الكفاح واتهم الانجليز بنقض الاتفاقية وطلب الى جنوده الاستبسال فى القتال قائلا لهم — كما يرى فى الصورة المنشورة فى صفحة ٥٣ — « لستم تملكون فى مصر الا بقعة الارض التى تقفون عليها فان تقهقرتم خطوة واحدة حق عليكم الفناء .»

ثم اصطدم بجنود الصدر الاعظم وقهقرهم الى الصالحية هذا بينما ناصيف باشا قائد جيش الصدر الاعظم تمكن من دخول القاهرة هو وبعض المماليك فاستثاروا الاهالى وحدثت مذبحة. وتمكن كليبر بعد عودته الى القاهرة من تسكين الحالة بعد معارك شديدة اختفى فى أثنائها ناصيف باشا. وأمر كليبر أن ينادى فى الناس « وما النصر الا من عند الله وهو سبحانه وتعالى قد أمر الظافرين بالصبر . وعليه فان الصارى عسكر يعفو عن أهل القاهرة وسائر البلاد المصرية عموميا ولو اتحدوا مع الاتراك فليرجع كل الى شأنه »=

الشعب . ولـكن هذا الرجل التابه البدين ما كان ليحتمل أن ينجح برغم شرقيته المصطنعة أكثر مما نجح من جاء بعدهم بقرن كامل من الأحرار

ــــ ولما كف الناس عن القتال أمر كليبر بتنظيف الاسواق ورفع جثث القتلى من الطرق العامة والحارات وانارة المدينة ثلاثة أيام احتفالا بالنصر وأعد للعلماء والمشايخ وليمة فخمة . وجعل يعنفهم على خيانتهم فأجابه الشيخ المهدى : « اننا لم نأت خيانة وما كان اتحادنا مع الاتراك الا بأمر منك . »

ولما علم مراد بك بانتصار الفرنسيين جاء الى ضواحى القاهرة للانضمام اليهم ومالبث أن اجتمع بكليبر وتعاهدا على الاتحاد وتهاديا الهدايا الفاخرة وكافأه كليبر على صداقته بأن عينه واليا على مصر العليا .

مصرع كليبر

ولما اطمأن بال كليبر من ناحية مصر وخاصة بعد اتحاده مع المماليك انصرف من جديد الى أعمال الاصلاح . وفى ١٤ يونيه سنة ١٨٠٠ دعاه أركان حربه الجنرال داماس الى تناول الغداء فى داره بأول شارع بولاق قرب الازبكية . وبعد الغداء خرج كليبر مع مهندس الحملة المسيو بروتين يتمشيان فى الرواق الممتد من بيت الجنرال الى ديوان الجيش . وبينما هما يتحادثان فاجأهما من آخر الرواق رجل فى ثياب خلقة شاهرا خنجره ، فطعن كليبر فى صدره فصرخ مناديا الحرس . وما كاد يهجم عليه بروتين حتى طعنه كما طعن كليبر . حتى اذا سقط المهندس الى الارض عاد الرجل الى كليبر فطعنه مرتين حتى أجهز عليه . ولما سمع ضجيج الحرس اختبأ خلف الحائط ثم اختفى . ولم يجد الحرس الا هذين الرجلين يتخبطان فى دمهما فعادوا بهما الى الدار ولـكن كليبر فاضت روحه فى الحال . أما المهندس فقد ظل أياما تحت العلاج .

وانطلق المنادون فى المدينة ينادون بالقبض على القاتل ومالبث أن قبض عليه فعرض على المهندس بروتين فتعرف عليه .

ولما أخذت أقواله اعترف بأن اسمه سليمان الحلبى وقد التقى به أحد الانكشارية فى القدس وكان قد ذهب اليها للبحث عن رجل يقتل كليبر . فطاوعه سليمان على تنفيذ رغبته فى مقابل أعفاء أبيه من الضرائب الفادحة التى يتقاضاها منه والى الولاية . فجاء به الى غزة وزوده بكتاب توصية من أغا غزة الى علماء الازهر . ثم برح سليمان غزة فى ٨ مايو ووصل الى القاهرة فى ١٤ منه ونزل فى بيت مصطفى أفندى ليلة . ولما تمشى بعض العلماء وفاتحهم فى الامر أبوا مشاركته فى الجريمة ولـكنه ظل يتربص بكليبر ــــ

البريطانيين فى أمثال هذه المداعبات . وفى الواقع يوجد تشابه غريب بين



الجنرال كليبر يخطب فى جنوده ويستحثهم على القتال

تجارب الفرنسيين فى حقبة الحرب هذه وبين تجاربنا فيما واجهنا من الكوارث فى خلال الحرب العالمية بحيث يصعب على الانسان ألا يصدق

=الى أن سنحت الفرصة المؤاتية . ثم عين الجنرال مينو لفحص القضية وصدر الحكم باعدام ثلاثة من المشايخ لتقصيرهم فى التبليغ عن نية القاتل بعد معرفتها . أما سليمان نفسه فقد حكم عليه بالاعدام على الخازوق وكان اعدامه هو والمشايخ الثلاثة بعد دفن القائد كليبر .

من مقتل كليبر الى انسحاب الحملة الفرنسية

(١) وعين الجنرال عبد الله مينو قائدا عاما بدلا من كليبر وولد له غلام اسماه سليمان=

أنه وجد فى مصر منذ قرن روح وطنى يقظ بالرغم من أنه لم يتجل بشكل معين .

وسرعان ما انتهت التجربة الفرنسية بانزال تجريدة انجليزية بقيادة آبر كرومبى فى الاسكندرية قوامها ١٦٠٠٠ جندى فالتحمت بجيش مينو فى موقعة كانوباس ودحرته . ولكن آبر كرومبى نفسه سقط قتيلا وجرح السير جون مور . وتلت ذلك معارك عديدة كانت فيها الحرب سجالا بين

سليمان الحلبى قاتل كليبر

—— ولما كانت انجلترا ما فتئت تعمل على اخراج الفرنسيين من مصر صيانة لمصالحها فى الهند فقد أرسلت عمارة بحرية مؤلفة من ١٧٥ سفينة و ١٦٠٠٠ جندى بقيادة السير رلف آبركرومبى فوصل الى أبى قير فى ٢ مارس سنة ١٨٠١ وشاهد آثار العمارة الفرنسية التى حطمها الاميرال نلسون . ومالبث الانجليز أن نزلوا الى البر واصطدمت طلائعهم بحامية الاسكندرية بعد أن انضمت اليها حامية الرحمانية . وفى ٤ مارس وصلت العمارة الانجليزية . وفى ١١ منه احتل الانجليز أبا قير وهاجموا الاسكندرية . فاسقط فى يد مينو وبرح القاهرة فى ١٢ منه قاصدا الى الاسكندرية فلم يصلها الا فى ١٩ وكان الانجليز قد تحصنوا بجوارها أشد تحصين .

وفى ٢١ مارس هجم مينو برجاله على الانجليز حوالى الساعه ثلاثة صباحا ولكن الانجليز كانوا قد أعدوا للامر عدته . فدارت معركة حامية وارتد الفرنسيون ولكن الجنرال آبركرومبى أصيب بجرح قتال لم يمهله الا بضعة أيام وتولى قيادة العمارة الجنرال هتشنسون .

الفريقين . وأخيراً وبعد مفاوضات معقدة سلم الجيش الفرنسي فى القاهرة سلاحه (٢٧ يونيه سنة ١٨٠١) وسلم بعده بشهرين جيش مينو فى

= وارتاح الفريقان الى يوم ٢٥ منه حيث وصلت للانجليز نجدة عثمانية بقيادة حسين قبطان باشا . ومن ثم ذهبت قوة انجليزية بقيادة الكولونيل سبنسر فاحتلت بور سعيد بعد أن استنجدت حاميتها بالجنرال بليار فى القاهرة فاعتذر بقلة جنوده فاستغاثت بمينو فى الاسكندرية فامدها بما استطاع .

واصبحت الجيوش الفرنسية مقسمة الى قوات لاتقوى على الدفاع . فالجنرال بليار فى القاهرة وقوته تبلغ ٥٠٠٠ وهو يتأهب لصد القوة العثمانية الزاحفة على القاهرة بطريق الصحراء بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا . وحامية الرحمانية وقد خارت قواها بعد سقوط رشيد . والجنرال مينو المحصور فى الاسكندرية وقد قطع عنه الانجليز المياه كما قطعوا الجسر الفاصل بين الملاحة وبحيرة مريوط .

وفى ٨ مايو زحف الاتراك والانجليز بطريق النيل فاستولوا على العطف ثم على الرحمانية . وفرت حاميتها الى القاهرة . فعقد بليار مجلسا حربيا للبت فى الامر بعد ما كادت أن تحيط بهم جيوش الاعداء . فهتشنسون من جهة والصدر الاعظم من الجهة الاخرى . وكان هذا قد استولى على دمياط وزحف على القاهرة فى ٣٠٠٠٠ حتى عسكر فى بلبيس فى ١١ مايو .

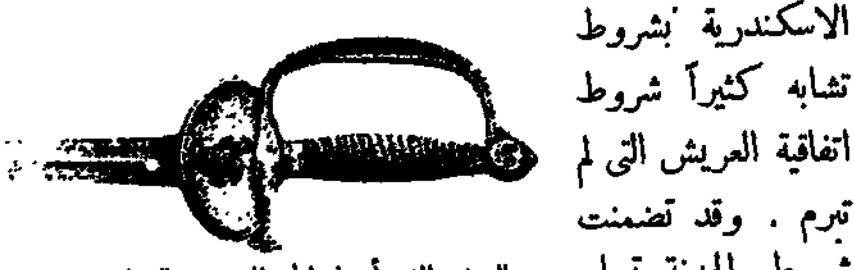
وكان مراد بك بعد محالفته للفرنسيين قد ذهب الى جوار ربه فتولى مكانه على الصعيد عثمان بك البرديسي . فلما علم بقدوم الاتراك والانجليز نقض المحالفة .

وبحث المجلس الحربى برئاسة بليار فى الامر من جميع نواحيه . فرأى أن الجيش وهو لا يزيد عن ١٢٠٠٠ نصفهم جرحى ومرضى لايترك أمامهم الا أحد أمرين . أما السير بهذا الجيش بطريق النيل لملاقاة مينو أو السير الى دمياط باعتبارها صالحة للحصار اذا طال .

ثم حدثته نفسه بمحاكاة كليبر وخرج فى ٥٠٠٠ مقاتل فى ١٦ مايو لملاقاة الاتراك والانجليز ولكن مالبث أن تقهقر أمامهم .

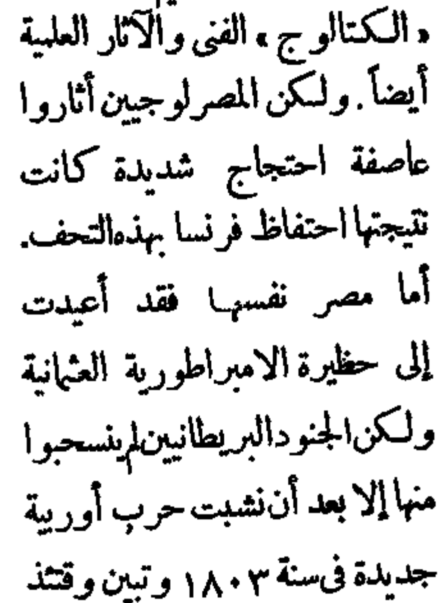
وفى ٣ مايو وصل هتشنسون بطريق فرع رشيد الى الجيزة بينما وصل يوسف باشا من الجهة الاخرى . فلما رأى بليار نفسه محصورا فى القاهرة عقد مجلسا حربيا أقر على تسليم المدينة والانسحاب نحو الاسكندرية أودمياط . ثم بعث برسولا الى المعسكر الانجليزى وبعد المفاوضة تقرر سحب الجيوش الفرنسية فى القاهرة انسحابا قانونيا بما لديهم من المهمات والاسلحة الى فرنسا وأن يكون ذلك على نفقة الانجليز . وكتبت بذلك معاهدة أمضيت فى ٢٥ يونيه ثم أبرمت فى ٢٦ منه على أن تنفذ بعد ١٠ يوما =

الاسكندرية بشروط تشابه كثيراً شروط اتفاقية العريش التى لم تبرم . وقد تضمنت شروط الهدنة تسليم



السيف الذى أهداه الجنرال ديزيه للمعلم يعقوب

« الكتالوج » الفنى والآثار العلمية أيضاً . ولكن المصرلوجيين أثاروا عاصفة احتجاج شديدة كانت نتيجتها احتفاظ فرنسا بهذه التحف. أما مصر نفسها فقد أعيدت إلى حظيرة الامبراطورية العثمانية ولكن الجنود البريطانيين لم ينسحبوا منها إلا بعد أن نشبت حرب أوربية جديدة فى سنة ١٨٠٣ وتبين وقتئذ



المعلم يعقوب القبطى

وفى ١٠ يولية برح بيليار القاهرة ومعه ١٣٧٣٤ جندى قاصدين الى رشيد على أن يسافروا منها الى فرنسا . وفى ٧ أغسطس ركبوا السفن عائدين الى بلادهم .

وفى ٢ نوفبر عقد مينو ومن معه من الجنود فى الاسكندرية معاهدة الانسحاب وانسحبوا فى خلال الشهر نفسه كانسحاب زميلهم بيليار .

وليس شك فى أن هذه المعاهدة لاتختلف فى شىء جوهرى عن معاهدة العريش السابقة التى عقدت فى ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ أى بما يقرب من العامين . ولم تكن نتيجة تأخير تنفيذ المعاهدة الاولى الا زيادة سفك الدماء.

وعلى هذه الصورة انتهت الحملة الفرنسية بعد أن لبثت فى مصر نحو ثلاث سنوات ونيف اكتظت بالحروب والثورات والفتن . وقد عاد الفرنسيون بخفى حنين تاركين المصريين وهم أشد ما يكونون تمسكا بعقيدتهم الوطنية . وبعد أن فتح بونابرت أعين انجلترا الى خطورة طريق الهند .

ولد المعلم يعقوب القبطى فى سنة ١٧٤٥ فى ملوى ودخل خدمة سليمان باشا كبير

أن الشجار مع تركيا من أجل مصر عمل بعيد عن الحكمة السياسية .

فى هذا الفصل الأول من قصة مصر الحديثة يرى الانسان كيف أدركت عبقرية نابليون أهمية مركز مصر من الوجهة الدولية وكيف كان تشبثه بفتحها سبباً فى تغير مجرى التاريخ الاوربى فلولم تمنع قوة بريطانيا البحرية نابليون من إعادة انشاء الامبراطورية اللاتينية الشرقية لما تعرضت الحضارة الاوربية فى القرن التاسع عشر لهزة قيام الامبراطورية الفرنسية الفجائى ولا لعبء تدهور الامبراطورية العثمانية البطىء .

وقد قال نابليون بهذه المناسبه وهو فى منفاه فى جزيرة القديسة هيلانة « لو أننى استوليت على عكا لوصلت إلى الأستانة ولأسست أسرة فيها » . ولعله كان من سوء حظ انجلترا ومصر وأوربا جميعاً أنه أخفق فى مشروعه هذا .

على أن ما أحدثه نابليون من الفراغ سرعان ما امتلأ بمجازف آخر نهج منهجه واحتذى حذوه الا وهو محمد على [1] الذى أجمع المؤرخون

═ الانكشارية لجمع ثروة عظيمة وقد حارب إلى جانب مولاه وكثيراً ما دخل فى المنازعات والحروب التى وقعت بين حزب مراد بك وجيش قبطان باشا سنة ١٦٨٦ ولهذه الصفات الحربية والادارية دخل يعقوب فى خدمة الفرنسيين بعد نزول بونابرت الى مصر . فالتحق بجيش الجنرال ديزيه وأبدى من ضروب البسالة ماجعل الجنرال يقلده سيف الشرف ثم دعاه كليبر لتنظيم مالية البلاد . ثم تسلم قيادة الفرقة القبطية بوظيفة رئيس ثم صار مستشارا لمدير الايرادات العامة وأخيرا منحه الجنرال مينو رتبة جنرال مساعد لبليار فى مارس سنة ١٨٠١ للدفاع عن القاهرة ضد الجيوش الانجليزية التركية فاصابه ما أصاب جيش بليار وسلم مع الفرقة القبطية عند تسليم المدينة فى يونية سنة ١٨٠١ وغادر القاهرة مع الفرنسيين إلى فرنسا . والمعلم يعقوب هو الذى وضع مشروع استقلال مصر وقد وجدت منه نسخة فى محفوظات وزارة الخارجية البريطانية تحت رقم ٧٨ مجلد ٣٨

(١) قد رأيت كيفية انسحاب الحملة الفرنسية من الاسكندرية والآن نقص عليك باختصار الادوار التى اجتازتها البلاد الى أن ظهر فيها محمد على ملخصا عن بعض ═

بلا استثناء على أنه منشىء مصر الحديثة بالرغم من أنه كان فى خلقه ونشأته أقرب الى أهل العصور الوسطى . وقد حقق للامة المصرية المقبلة — كما

= المصادر العصرية وأخصها كتاب « تاريخ مصر الحديث » « المعرب »

فقد تسلم يوسف باشا الصدر الأعظم زمام الحكم فى القاهرة باسم جلالة السلطان ومساعدة الجنرال هتشنسون بينما ظل حسين قبطان باشا قائد العمارة العثمانية حاكم الاسكندرية . وعسكر الانجليز فى مصر القديمة بينما عسكر بقية المماليك تحت زعامة كبيريهم عثمان بك البرديسى ومحمد بك الالفى فى الجيزة .

ودبر الصدر الأعظم وقبطان باشا مكيدة للتخلص من المماليك وأوهماهم باعداد وليمة لهم فى أبى قير فلما لبى المماليك الدعوة مالبثوا أن أدركوا الشرك الذى نصب لهم فحاولوا الفكاك منه فنجا البرديسى واثنان آخران وقتل بعض الزعماء هذا فى حين أن الصدر الأعظم فى القاهرة أرسل من رجاله من هاجم المماليك فى الجيزة وأحرقوا بيوتهم فالتجأوا الى الانجليز فلم يضنوا عليهم بالحماية .

وانسحب الجنود الانجليز من مصر نهائيا وبقيت البلاد يتنازعها العثمانيون والمماليك ولما كان لابد من تعيين وال فقد اتفق الصدر الأعظم وقبطان باشا على مطالبة الباب العالى بتعيين خسرو باشا واليا على مصر بصفته كخيا قبطان باشا . فلبى الباب العالى طلبهما » .

وما أن تولى خسرو باشا حتى حاول القضاء على بقية المماليك وقد أصبحوا تحت زعامة البرديسى والالفى . ولكن محاولته فشلت لان المماليك كانوا أصحاب الكلمة فى الصعيد بينما لم يكن يدين للباب العالى بالطاعة سوى القاهرة والاسكندرية .

ولما عجز خسرو عن دفع رواتب الجند ثاروا عليه فى ٢ مايو سنة ١٨٠٣ وأحاطوا بالخازندار فى بيته . فامر خسرو باطلاق النار عليهم فتوسط أركان حربه طاهر باشا فى الأمر وحاول حل النزاع بالحسنى . ولكن خسرو اتهمه بممالأة الثائرين . فاغتاظ طاهر وانضم الى العصاة فعلا وأمرهم بهدم الأسوار . فاستولى الرعب على خسرو وفر بحاشيته وأسرته على ضفة النيل الشرقية الى المنصورة ومنها الى دمياط . وإذ ذاك خلا الجو لطاهر باشا فجمع القضاة وأعضاء الديوان فاختاروه قائمقام على مصر الى أن يبت الباب العالى فى تعيين الوالى بدلا من خسرو باشا .

وفى ٢٥ مايو سنة ١٨٠٣ ذهب اثنان من الأغوات وهما موسى واسماعيل يشكوان الى طاهر باشا من تأخر مرتباتهما فاخذ يعنفهما فلم يطيقا على ذلك صبرا . فلما اشتد الخصام بينهم استلا سيفيهما وقطعا رأسه وألقياه من النافذة واشعلا النار فى القصر =

حقق من قبل معاصراه منشئآ أمتى الصرب واليونان — أول مرحلة فى سبيل السيادة الوطنية ، الا وهى الانفصال الأدارى عن الامبراطورية العثمانية . إلا أنه اختلف عنهما فى أنه لم يكن من أبناء الأمة الجديدة ولذا



المعلم يعقوب ومعه اثنان من كبار الطائفة القبطية

كانت سياسته شخصية أكثر مما كانت قومية وكان مثله كمثل نابليون عند ما طمح إلى اتخاذ مصر قنطرة لايجاد امبراطورية شرقية . لأن القاهرة كانت عاصمة الخلافة إلى أن نقلها السلطان سليم إلى الاستانة . فلم يك ثمة ما يحول سياسياً وجغرافياً دون اتخاذها — بسبب اشرافها على البرزخ بين آسيا وأفريقيا ولتحكمها فى المواصلات البحرية بين أوربا وآسيا — بدلا من الاستانة المشرفة على البرزخ بين أوربا وآسيا والمتسلطة على الممر البحرى بين الامبراطورية الروسية وأوربا . ولكن محمد على لم يكن يطمح حتى إلى هذا ولا كان اهتمامه بمصر ليبلغ إلى هذا الحد . وأغلب الظن أنه لو استطاع فتح الاستانة لجعلها كما أراد أن يجعلها نابليون مركز امبراطورية جديدة هناك بدلا من القاهرة .

وهكذا انتهى أمر طاهر باشا صديق محمد على على يدى هذين الاغوين لا كما ذهب اليه المستر يانج .

وهنا أصبحت مصر بلا وال فسنحت الفرصة لمحمد على ليحتل القلعة برجاله ومن ثم بدأ نجمه فى الصعود وأخذ نوره يفيض على هذا القطر الذى مزقته الخلافات كما مر بك .

وقد فشل محمد على فى الوصول إلى الاستانة كما فشل سلفه نابليون وللسبب عينه . وكان محمد على كلما قارب الاستانة ازداد مركزه فى مصر حرجا وازدادت معارضة انجلترا له اشتداداً . على أنه كان أدنى إلى النجاح من سلفه لأن جيوشه وصلت فعلا إلى الاستانة بينما لا تزال ذريته ملوكا مستقلين يجلسون على عرش مصر . أما تعليل نجاحه بالرغم من نقص استعداداته إذا قيست باستعدادات نابليون فيرجع إلى ثلاثة أسباب رئيسية : أولها أنه كان مسلماً صميما ولم يك مجرد أحد المتشيعين للاسلام كما كان شأن نابليون . ثانياً أن الدول والباب العالى كانوا جميعاً منهمكين إبان زحف محمد على فى الكفاح النهائى للتخلص من نابليون . ثالثاً أن محمداعليا اكتسب ثقة المصريين وتأييدهم .



ارناؤوط محمد على

ويلوح أن ماروى عن مخاطرات محمد على لم يراع فيه ما أصابه من التوفيق فى توحيد صفوف الشعب وجعلها كتلة متراصة خلفه تمهيداً لانشاء دولة مصرية مستقلة عن الباب العالى وعن الدول . فمن أجل هذا يصح أن يقال أن مصر الحديثة أوجدت محمداً علياً بقدرما أوجدها هو .

وكان محمد على كبقية المصلحين الحديثين فى الامبراطورية العثمانية من مسلمى مكدونيا . وقد كان أبوه من رجال الأرانطة . وكان مولده فى «قوله» فى سنة ١٧٦٩ فعنى الباشا التركى بنشأته وشرع يدربه على أساليب الادارة التركية[1] . وقد أبلى أحسن بلاء فى جباية الخراج وأصاب بعض الثروة من

(١) لعل القارئ قد لاحظ فى كتاب المستر يانج أن المؤلف قد أجمل فى شرح بعض الشؤون التى يهم المصريين الاطلاع على تفاصيلها واسهب من الناحية الأخرى.

الاتجار بالتبغ . ثم ما عتم أن ألحق بخدمة خسرو باشا الذى صار فيما بعد من ألد أعدائه وقد وفق إلى قيادة إحدى الفصائل الالبانية . ولما كان

فى بعض المواقف التى لا تعنيهم كثيرا ، ولذلك رأينا أن نفصل بعض ما أجمله ليكون الكتاب الحالى صورة صحيحة لتاريخ مصر فى العصر الحديث .

ولما كانت نشأة محمد على مؤسس الأسرة العلوية وسيرته المجيدة الباهرة وكيفية تغلبه على خصومه إلى أن أصبح والياً على هذا القطر الذى أصبح منذ ذلك الحين يتظلل برعايةهذه الأسرة الكريمة مايهم المصريين جميعاً الاطلاع عليه فقد رأينا أن نقتبس مرة أخرى عن « تاريخ مصر الحديث » الترجمة الآتية : « المعرب »

محمد على باشا مؤسس الاسرة العلوية

١٨٠٥ — ١٨٤٨

نشأته وشيبته

ولد محمد على باشا فى مدينة قوله من أب اسمه إبراهيم أغا وكان له من الأولاد سبعة عشر وقد توفوا جميعاً ماعدا صاحب الترجمة . وفى سنة ١٧٧٣ توفى الوالد وزوجته تاركا محمداً علياً وله من العمر أربع سنوات .

وسرعان ما كفله عمه طوسون أغا ولكنه قتل بعد ذلك فأصبح الغلام يتيما . ثم كفله « جربتجى براوسطة » صديق أبيه فلبث بين أولاده وأهله يتعلم ما يتعلمه الصغار فى ذلك الأوان كألعاب السيف والجريد وغيرهما حتى إذا بلغ أشده انخرط فى سلك الجهادية تحت إدارة مربيه . فأظهر فى جباية الضرائب ضروباً شتى من المهارة والبسالة جعلت جربتجى يرقيه الى رتبة بلوك باشى ويزوجه احدى السيدات ذوات الحطام والنشب . فترك الجهادية وتعاطى التجارة وخاصة تجارة التبغ باعتبارها أروج السلع وأكثرها انتشاراً فى بلاده . وأغرم بالتجارة وبرع فيها حتى اكتسب شهرة واسعة وثقة عظمى لدى عملائه وهذا سر عنايته بها وتشجيعه إياها عند ماولى أمر مصر فيما بعد .

وظل يزاول التجارة حتى سنة ١٨٠١ عند ماصمم الباب العالى على إخراج الفرنسيين من مصر بمساعدة انجلترا . فبعث اليهم عمارة حسين باشا قبطان كما بعث لهم تجريدة الصدر الأعظم على نحو ما مر بك .

وكان محمد على بين رجال العمارة وقد تجند فى جملة من تجند فى براوسطة بصفته معاونا لعلى أغا بن مربيه على ثلثمائة جندى البانى (أرناؤوط) .

ولما وصلت العمارة إلى أبى قير وهزمها الفرنسيون عاد على أغا إلى بلاده تاركا تحت قيادة محمد على الذى كان قد ترقى إلى رتبة بيكباشى .

الجنود الالبانيون بمثابة السلسلة الفقرية في الجيش العثماني وهم الدعامة التي كانت سلطة الأتراك في مصر ترتكز عليها ، فقد كان من يتولى قيادة

= وأخيراً تمت للعثمانيين بمساعدة الانجليز الغلبة على الفرنسيين وشرعوا يهتمون بتوطيد سلطة الباب العالي في البلاد .

وكان بين رجال التجريدة العثمانية جماعات من الأرناؤوط والانكشارية والغليونجية فتفرقت هذه الجماعات لحماية مصر السفلى وبعض مدن الصعيد . أما الانجليز بقيادة هتشنسون فظلوا في الاسكندرية ريثما يولى الباب العالي والياً عثمانياً يكبح جماح المماليك الذين كانوا لايزالون يحاولون الاستقلال . فعين الباب العالي محمد خسرو باشا وكان في الأصل من مماليك حسين قبطان باشا وهو الذي سعى له في هذه الولاية . وكانت معه أوامر سرية باعدام المماليك بأية وسيلة فشرع في محاربتهم وكانوا في الصعيد فاستغاثوا بالفرنسيين فلم يغيثوهم .

محمد علي وخسرو باشا

وعادت حملة خسرو من الصعيد بالفشل . ثم حاربهم مرارا في أماكن مختلفة وفي جملتها واقعة بعث اليها حملة من جنده وكان محمد علي قد ترقى إلى رتبة « سر ششمة » وأصبح قائدا لأربعة الاف من الألبانيين . فأمره خسرو بمد حملته ، ولكن محمدا علياً وصل بعد أن كانت حملة خسرو قد دارت عليها الدوائر . ونسب قائدها هزيمته إلى تأخر وصول محمد علي لحقد خسرو عليه وأصر على إعدامه سرا . فطلب اليه بموافاته في منتصف الليل لمباحثته في بعض الشؤون الهامة فأدرك محمد علي الحيلة ورفض الدعوى .

ورأى محمد علي أن ينجو من اشراك خسرو بالاتحاد مع المماليك وتمكن بواسطتهم من ارغام خسرو على الفرار إلى دمياط وعين بدله طاهر باشا . ولما قتل هذا احتل محمد علي القلعة برجاله فقام احمد باشا والي الشرطة يطلب الولاية ولكن المماليك أخرجوه من القاهرة ذليلا وسار الجميع متحدين إلى دمياط فأسروا خسرو وجاءوا به إلى القلعة حيث حجروا عليه .

ولما بلغ الباب العالي ماحدث في مصر ولى عليها علي باشا الجزائرلي فلما وصل القاهرة بدأ يكيد للماليك ولمحمد علي فما لبث أن دارت الدائرة عليه .

الألفي والبرديسي

وكان النزاع على أشده بين الألفي والبرديسي وكان أولهما محبوباً لدى الانجليز وقد سافر إلى انجلترا فعلا . فلما عاد إلى مصر حاول البرديسي الكيد له ولكنه سافر إلى الصعيد . وماكاد يخلوا الجو للبرديسي في القاهرة حتى أثار محمد علي ضده الجنود الألبانيين فطالبوه بمرتباتهم وجعلوا يتهددونه إلى أن غادر القاهرة الى الصعيد في سنة ١٨٠٤ =

إحدى فصائلها يعتبر فى الواقع — وإن لم يكن بصفة رسمية — صاحب الكلمة المسموعة فى السياسة المصرية .

وما كاد الفرنسيون ينزحون عن الديار حتى بدأت الأحزاب السياسية المختلفة فى مصر تتشاجر فيما بينها على الزعامة . وكانت الأحزاب وقتئذ ثلاث شيع : المماليك والألبانيون والأتراك . وكانت انجلترا تؤيد الحزب الأول بينما كانت فرنسا تعضد الثانى . أما المصريون أنفسهم فكانوا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء بل كانوا يوالون هذا الحزب حيناً ويشيحون عنه حيناً آخر .

أما المماليك فمع ذهاب هيبتهم ظلوا محتفظين بأبهتهم وبعددهم كاملة . كذلك كان لهم نفوذهم السياسى نظراً لاستيلائهم على الأراضى من جهة ونظراً لما ورثوه من الجهة الأخرى من الكفاية السياسية من عنصر الخرز الذى كان منه معظم زعمائهم ولكن سطوتهم كحزب قائم بنفسه كانت فى حكم الانتهاء . لأن الخرز كانوا بغيضين إلى المصريين . وقد كان مما يدعو إلى

= وبفرار هذين الأميرين خلا الجو لمحمد على وأصبح مستقلا عن المماليك ومساعدتهم فرأى الاستعانة بالأهالى على تحقيق أمانيه الأخرى . فجمع العلماء والمشايخ وقرروا الافراج عن خسرو باشا وإعادته إلى منصبه . ولكنه لم يمكث فيه إلا يوماً واحداً أخرج بعده إلى رشيد ومنها إلى الآستانة .

خورشيد باشا

ثم أشار محمد على بتنصيب وال عثمانى فوافقه العلماء على فكرته واختاروا خورشيد باشا وكان وقتئذ فى الاسكندرية على أن يكون هو (محمد على) نائباً عنه فى الأحكام بصفته قائمقام . وأرسلوا إلى الباب العالى يسترحمونه باقرار ما أبرموه فأجاب طلبهم بفرمان مؤرخ فى مارس سنة ١٨٠٤

وشرع محمد على فى القضاء رويداً رويداً على قوات المماليك فى عدة نواحى القطر إلى أن أصبحوا لا يزيدون عن ٥٠٠٠ — ٦٠٠٠ فارس بينما أخذت ماليتهم فى التدهور =

الدهشة أن السياسة البريطانية اختارت هذه الارستقراطية الفانية لتكون حليفة لها . أما الشخص الذى رشحه الانجليز ليكون « باشا » مصر فقد كان من أشد بكوات المماليك جشعاً وأكثرهم حباً للرياسة الا وهو ألفى بك وقد حدثنا « دياباستى » فى كتابه (الحوادث التاريخية المجلد الثامن) أن ألفى كان يمتاز بالكشك المتنقل الذى كان يحمله فى أسفاره وتشييده قصراً فخما فى القاهره ليهدمه فيما بعد على أن يعيده بعد ذلك سيرته الأولى مرة أخرى وقد تركت أبهته هذه أثراً كبيراً فى دوائر لندن حتى أنه تألفت شركة لتمويله مؤقتاً . ولكن محمداً علياً صادر الأموال وأنفقها فى ضم الألبانيين إلى جانبه وإقصائهم عن خسرو « باشا » مصر وقتذاك (مايو سنة ١٨٠٣) . وفى الوقت نفسه أغرى الضباط الألبانيين بقتل طاهر صديقه ومنافسه الوحيد .

ولا حاجة بنا إلى الاسهاب فى تفصيل ما قطعه محمد على من المراحل للانفراد بحكم مصر . وقد يستحسن أن نجمل هنا ما قام به من جلائل

= وكان الجنود الألبان مطيعين لمحمد على مما أدخل الهم والحسد فى قلب خورشيد وجعله يستقدم جندا من الدلاة أو المغاربة ليكونوا عدته إذا جد الجد . واتفق ان كان محمد على فى الصعيد منهمكا فى مقاتلة المماليك فأدرك مراد خورشيد فعاد إلى القاهرة مما جعل خورشيد يتوجس منه خيفة . وأخذ الدلاة يعيثون فى البلاد فسادا حتى ضج الأهلون بالشكوى لخورشيد على غير طائل . فلما طفح الكيل أخذ العلماء والمشايخ يفكرون فى التخلص من خورشيد ومغاربته وعقد الولاية لمحمد على .

وفى يوم ٢ صفر سنة ١٢٢٠ هـ ورد لمحمد على مكتوب شريف بولاية جدة فألبسه خورشيد باشا الفروة والقاووق المختصين بهذه الرتبة وهو يعلل نفسه بقرب التخلص منه . ولما أخذ محمد على يتأهب للخروج إلى جدة إذا بالجند تجتمع لتطالبه « بالعلوفة » فقال لهم « هاهو الباشا طالبوه بها » . وتولى عنهم عائدا إلى داره فى الأزبكية (بالقرب من أوتيل شبرد) وهو ينثر الذهب على الناس فازدادوا حبا له بقدر ما ازداد كرههم لخورشيد باشا .



ساكن الجنان محمد على باشا منشىء الاسرة العلوية

الأعمال للتخلص من مزاحميه الرئيسيين . فلقد كانت قد تمت له قيادة القوة العسكرية الوحيدة التي كان يمكن الاعتماد عليها ألا وهي الفصيلة الالبانية ولكن لم تكن تمت له بعد السيطرة على الحزب السياسي الوحيد الذي يعتد به الا وهو حزب المماليك . فرأى أن يكلف البرديسي زعيمهم بمضاعفة الضرائب ليتسنى دفع مرتبات الالبانيين . فثار أهل القاهرة عليه فهدأ محمد على ثورتهم بان أمر البرديسي برد أموالهم إليهم . وبعد أن أصبح بعمله هذا بطلا محبوباً من الشعب طرد البرديسي ومن معه من المماليك وحل هو محلهم . فهال الأتراك ازدياد نفوذه هذا فأمروه بمغادرة مصر هو ومن معه من الالبانيين ولكن سرعان ما أثار فتنة جديدة اضطر معها الوالى الجديد « خورشيد باشا » الى سحب هذا الأمر . على أن خورشيد دبر حيلة لابعاد محمد على عن القاهرة بأن كلفه الخروج لمقاتلة المماليك فى الأرياف . ثم انتهز فرصة تغيبه واستولى على العاصمة بمساعدة

= وبعد أيام ثلاثة ذهب رهط من العلماء والمشايخ الى دار محمد على منادين بصوت واحد « لانقبل خورشيد واليا علينا » فقال لهم « ومن تريدون إذن » ؟ فقالوا « لانريد أحداً سواك » فتظاهر أولا بالامتناع وجعل يكرر لهم النصح بالاذعان والتزام السكينة فلما ازدادوا إلحاحا واصرارا لم يسعه إلا القبول . فأحضروا له الكرك والقفطان وألبسوه إياهما وبعثوا الى خورشيد بأن يغادر القلعة فأبى فحاصروه فيها وكتبوا الى الباب العالى بما أجمعوا عليه من الرأى . فورد الفرمان بولاية محمد على بتاريخ ١١ ربيع آخر سنة ١٢٢٠ هـ الموافق ٩ يولية سنة ١٨٠٥ وبعزل خورشيد الذى سرعان ما غادر القلعة راجعا الى الاستانة .

رواج الدسائس لخلع محمد على

على أن المماليك وعلى رأسهم ألفى بك لم ينفكوا عن الدس لمحمد على . وقد حاول زعيمهم أن يغرى انجلترا بالتدخل فى شؤون البلاد للتخلص من محمد على ووعدها بوضع مفاتيح القطر فى يدها اذا ارتاح باله من هذا المزاحم الخطير . فراحت تلح على الباب العالى بارجاع سلطة المماليك الى البلاد ضامنة أمانة الالفى وخضوعه لأوامر الدولة . فأصغى الباب العالى لاغرائها وعفا عن المماليك باسم كبيرهم الألفى . وكان ذلك =

فصيلة من الجنود الأكراد. ولكن هؤلاء الجنود كانوا قساة القلوب غلاظ الأكباد لهم وجوه هي أشبه بوجوه الطيور الجارحة وسرعان ما جعلوا أهل القاهرة يترحمون على أيام الالبانيين مستعبديهم السابقين. وقد ذهب وفد المطالبة بارجاع محمد على إلى العاصمة فأجيب إلى طلبه. ثم طلب عزل خورشيد وفعلا انتخب محمد على والياً مكانه. فحاصر خورشيد فى القلعة ولكن هذا الأخير صدرت الأوامر باستدعائه واحتل محمد على القلعة فى (أغسطس سنة ١٨٠٥) ثم صدر فرمان بجعله والياً على مصر. وقد أعلن هذا وسط الهتاف والسرور العام (نوفمبر سنة ١٨٠٥) وسرعان ما انقلب هذا الهتاف إلى رضى صادر من أعماق القلوب عند ما افتتح محمد على أعماله بحل مشاكل الدولة المالية بالاستيلاء على أملاك الأقباط الذين أثروا اثراء كبيراً بعد أن كانوا يقومون للمماليك بوظيفة جباية الضرائب واقراضهم النقود.

= فى غرة ربيع آخر سنة ١٢٢١ ﻫ وبعد أسبوعين وصلت عمارة عثمانية تقل موسى باشا واليا على مصر ومعه خط شريف الى محمد على بالانتقال الى ولاية سلانيك واعادة المماليك المصريين الى مراكزهم فى الامارات والأحكام.

على أن محمدا علياً صمد للأمر بحزمه المعروف لجمع العلماء والمشايخ وبعض المماليك الذين انضموا اليه واستكتبهم كتابا الى الباب العالى بالتماس بقاء محمد على واستدعاء موسى باشا وأرسلوا نسخة من هذا الكتاب الى قائد العمارة التى جاءت بموسى باشا. ولكن القائد رفض الكتاب وأصر على اخراج محمد على باشا. وهنا سعى سفير فرنسا فى الاستانة حثيثا ومازال بقبطان باشا حتى أقنعه بوجوب بقاء محمد على. فأرسل الى العلماء يكلفهم بتكرار الطلب وارساله مع ابراهيم بك بن محمد على. وفى ٥ شعبان سنة ١٢٢١ أقلعت العمارة الى الاستانة وعلى ظهرها قبطان باشا وموسى باشا وابراهيم بك.

وفى أواخر هذا الشهر أى فى نوفمبر سنة ١٨٠٦ وردت ارادة شاهانية بتثبيت محمد على باشا على ولاية مصر مع عدم التعرض للمماليك. وفى الشهر التالى مات عثمان البرديسى. وفى ١٩ القعدة سنة ١٢٢١ مات محمد الألفى واذ ذاك تولى شاهين بك رئاسة المماليك. ولكن شوكتهم أخذت فى الضعف والانحلال وبذا خلا الجو لمحمد على.

وكانت الامبراطورية العثمانية بحيث أنه إذا سهل على أحد تجار التبغ أن يصير والياً لاحدى الولايات فى خلال سنوات قلائل لم يكن من السهل عليه الاحتفاظ بهذا المركز مدة ستة أشهر. لأن قبطان باشا ما لبث أن جاء ذات يوم تصحبه عمارة تركية ويحمل فى جعبته فرمانا شهانياً بنقل محمد على الى سلانيك. ولكن أهالى الاسكندرية والقاهرة أظهروا شدة تمسكهم به مما جعل الباشا يقنع بأخذ رشوة قدرها

محمد على يسير فى شوارع القاهرة بعد توليته الحكم

الانجليز يقاومون محمدا عليا

= على أن الحكومة البريطانية ما لبثت أن رأت فى تثبيت محمد على باشا مساسا بمصالحها فى مصر فجردت حملة من ٥٠٠٠ جندى بقيادة الجنرال فريزر لاعادة سلطة المماليك وكانوا قد تشتتوا فى طول البلاد وعرضها . فوصلت التجريدة الى الاسكندرية فى ١٧ مارس سنة ١٨٠٧ واستولت على المدينة بعد بضعة أيام ومكثت فيها زهاء ستة أشهر لا تستطيع التقدم خطوة واحدة الى الامام. ثم أرسلت فرقة منها الى رشيد فانقض عليها الارانطة ومزقوها شر ممزق وجاءوا بالاسرى الى القاهرة.

وفى يوم ٥ جمادى الآخرة سنة ١٢٢٣ بويع السلطان محمود الثانى بالخلافة بدلا من السلطان مصطفى . وسرعان ما انسحبت الحملة الانجليزية (١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧) =

٤٠٠٠ كيس وهى الشطر الأكبر من ثروة المدعو جرجس الجوهرى المالى القبطى وأحد الزراع الذين يؤدون الضرائب وقد سبق أن جرده محمد على من أملاكه . ويدل هذا العمل على أن الاستانة لم يكن يهمها من أمر القاهرة سوى الحصول على نصيبها من سلب مصر واعتقادها أن مجال الربح فى عهد محمد على قد يكون أوسع مما كان فى عهد المماليك .



صورة المعلم جرجس الجوهرى

وبعد أن توصل محمد على إلى اتفاق عملى مع الأتراك وجه اهتمامه إلى تخليص مصر من الانجليز وهم الذين كانوا ما يزالون يمدون بأموالهم زعيمى المماليك البرديسى والألفى فى غزواتهما ، الأول فى الصعيد والثانى فى الدلتا . ومن الغريب أن الزعيمين المذكورين توفيا فى ساعة واحدة « بعسر الهضم » كما قيل . . فلم يبق للانجليز بعد ذلك إلا أن يعتمدوا فى القتال على أنفسهم . وقد حاولوا مفاجأة الأستانة بعمل جرىء ففشلت محاولتهم . وإذ ذاك قصد الفيس أميرال لويس ثغر الاسكندرية ومعه قوة عسكرية صغيرة تبلغ ٤٠٠٠ جندى بقيادة الجنرال فريزر (١٧ مارس

= من مصر بعد عقد اتفاق الصلح مع محمد على الذى رضى عنه جلالة السلطان وأدخل الاسكندرية ضمن ولايته .

وتوسط بعضهم فى الصلح بين محمد على وبين المماليك فتم ذلك وجاء شاهين بك الى القاهرة يحمل الهدايا فأكرمه محمد على وشيد له قصرا فى الجيزة وتبودلت الزيارات مع المماليك .


ساكن الجنان السلطان محمود

سنة ١٨٠٧) ولكن المماليك فى الدلتا كانوا قد تشتت شملهم كما تقهقر من كان منهم فى الصعيد إلى أسيوط . ومع ذلك فان الانجليز أنزلوا جنودهم إلى البر واحتلوا رشيد . ولكن سرعان ما أرغمت حاميتهم على تسليم سلاحها بينما أجهز محمد على فى ميدان القتال على باقى الحملة وقتل نصف رجالها . ثم ساق إلى سوق الرقيق فى القاهرة نحو ٥٠٠ من الأسرى وسط عواميد خشبية علقت فوقها خمسمائة من رؤوس القتلى الانجليز. وأخيراً جلا الانجليز عن الاسكندرية (١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧) وعقدوا مع مصر صلحا منفرداً . وهكذا فان محمد على الذى ساعد الانجليز فى سنة ١٨٠١ على قهر الفرنسيين تمكن الآن وبدون أية مساعدة من أن ينزل بالانجليز خزيا لا يذكر بجانبه ما نزل بالفرنسيين من قبل . ومنذ ذلك الحين أصبح يلقب بحامى الأسلام وهازم الأجانب الذين دوخوا الأتراك والمماليك من قبل . ولكن السيادة البحرية جعلت هذه الهزيمة عديمة الأثر فى الموقف الأوربى العام فلم تعرف أنباؤها فى الخارج بسبب الحصر البحرى . ولقد حدثنا « دريو » عن هذه التقارير التى كان يبعث بها قناصل فرنسا فى مصر فيما بين ابريل واكتوبر سنة ١٨٠٧ ولكنها لم تفقد بل هى بلا شك محفوظة فى هويت هول .

والآن وقد خلا بال محمد على من كافة أعدائه فقد رأى أن يتخلص أيضا من العدو الأخير ألا وهو المماليك الذين لم يطردوا نهائياً من الصعيد

إلا فى سنة ١٨١٠ ، ولما كان محمد على قد اعتزم بعد ذلك أن يخرج فى إحدى غزواته فى بلاد العرب فقد عقد نيته على الاجهاز أيضاً على المماليك جملة واحدة بصفتهم حزبا[1] ، فأرسل يدعو رؤساءهم ويبلغ عددهم ٤٠٠ للحضور إلى القاهرة لمشاهدة الحفلة التى سوف تقام بمناسبة رحيل

---

(١) مذبحة المماليك من الحوادث التى كان لها أثرها فى تاريخ مصر ولذا رأينا أن نبين تفاصيلها .

مذبحة المماليك

ما كاد الأمر يستتب لمحمد على فى مصر حتى بدأ ينظم شؤون البلاد الداخلية وينشىء جيشاً محترماً قوى العدد والعدد . وبينما هو ماض فى اصلاحاته إذا بالسلطان محمود يكلفه بارسال تجريدة عسكرية إلى شبه جزيرة العرب لقمع الحركة الوهابية التى كانت قد استفحلت وعظم خطرها حتى أصبح يخشى منها على كيان الامبراطورية العثمانية نفسها.

فصدع محمد على بالأمر وأخذ فى اعداد المهمات اللازمة للحملة التى تقرر أن يرسلها تحت قيادة ابنه طوسون باشا .

بيد أنه فكر فى أمر المماليك وخشى على أمن البلاد منهم فيما لو سارت الحملة قبل أن يفرغ من أمرهم ولذا بيت رأيه على اهلاكهم جميعاً قبل مسير الحملة .

وأنت تعرف أن المماليك بعد أن اضمحل شأنهم كانوا قد قنعوا بالتمتع بأرزاقهم وممتلكاتهم وتفرقوا فى أنحاء القطر فنهم من سكن الصعيد ومنهم من أقام فى القاهرة . وكان زعيمهم شاهين بك قد أذعن لمحمد على وتصافيا فأقطعه محمد على أرضاً بين الجيزة وبنى سويف والفيوم فالتجأ اليها .

أما قواد الحملة المراد تسييرها ضد الوهابيين فقد غادروا القاهرة فى فبراير سنة ١٨١١ وعسكروا فى الصحراء بالقرب من قبة العزب ولبثوا ينتظرون اتمام تجهيز الحملة ومعها طوسون باشا .

ثم تحدد يوم الجمعة لوداع طوسون والاحتفال بخروجه ورجاله إلى قبة العزب ونادى المنادون فى المدينة معلنين ذلك الخبر ودعى الأعيان والوجهاء ومن ضمنهم المماليك لمشاهدة حفلة الوداع وطلب إليهم الحضور بالملابس الرسمية .

وفى اليوم المحدد وهو يوم الجمعة أول مارس سنة ١٨١١ احتشد الناس عند القلعة وحضر شاهين بك فى جمع من مماليكه فبالغ محمد على فى استقبالهم والترحيب بهم .

التجريدة العربية (فبراير سنة ١٨١١) ولكن ابراهيم زعيمهم المسن كان أحرص من أن يترك حصنه فى بنى سويف ، بل كان أشبه بالثعلب المذكور فى الخرافة . ذلك أنه اكتفى بارسال الرد مصحوبا بقائمة بأسماء من جرتهم خطواتهم إلى عرين الأسد . ولكن شاهين الشاب خليفة ألفى بك خدع بأمل العودة لرؤية مباهج القاهرة بصحبة حاشيته وعددهم ٤٠٠ من البكوات . فبالغ محمد على فى استقبالهم فى القلعة وقدم لهم اقداح القهوة وأكب على مباسطتهم بأطيب الحديث والسمر . ثم بدأ الموكب بعد ذلك

= ثم أديرت أقداح القهوة . ولما حانت الساعة المعينة أمر محمد على بالمسير فسار الموكب وكل فى مكانه منه جاعلين المماليك إلى الوراء يحيط بهم الفرسان والمشاة .

ولما اقتربوا من باب العزب وهو أحد أبواب القلعة فى مضيق بين هذا الباب والحوش العالى أمر محمد على فأغلقت الأبواب وأشار إلى الجنود الألبان (الأرناؤوط) فهجموا بغتة على المماليك فذعروا وحاولوا الفرار بالتسلق على الصخور ولكنهم أخفقوا فى هذه المحاولة لأن الألبان كانوا أسبق منهم ففوتوا عليهم غرضهم لتعودهم على تسلق الصخور .

أما المشاة فقد اقتحموا مؤخرة المماليك وفتحوا عليهم وابلا من الرصاص لحاول هؤلاء الفرار بخيولهم من طرق أخرى ولكن تعذر عليهم ذلك لصعوبة المسلك على الخيول . ولما ارتج عليهم ترجل بعضهم وحاولوا الفرار سعياً على الأقدام والسيوف مشهرة فى أيديهم . ولكن الجنود تداركوهم بالرصاص من النوافذ فقتل شاهين بك أمام ديوان صلاح الدين .

ثم نودى فى المدينة بطلب القبض على المماليك وكان كل من جىء به إلى القلعة يلقى حتفه فى الحال .

وبلغ عدد من دعى من المماليك إلى الوليمة ٤٠٠ لم ينج منهم إلا اثنان أحدهما أحمد بك زوج ابنة ابراهيم بك الكبير وكان متغيباً فى إحدى القرى . والثانى أمين بك وقد حضر إلى القلعة متأخراً فانتظر عند باب العزب ريثما يخرج الموكب . فلما أغلقت الأبواب وسمع اطلاق الرصاص أدرك الحيلة فهمز جواده وطلب الصحراء قاصداً سوريا .

والشائع على الألسن أن أمين بك هذا كان داخل القلعة فلما نشبت المعركة همز جواده فوثب به من فوق السور لجهة الميدان فقتل جواده وسلم هو وقد صوروا تلك الاشاعة بالرسم المذكور فى (ص ٧٣) . ولكن الأقرب إلى الحقيقة أن هذه الاشاعة مبالغ فيها =



أمين بك المملوك الشارد

= ثم نودى فى الأسواق بأن شاهين بك زعيم المماليك قد لقى حتفه وراح الناس ينهبون بيوت المماليك .

وفى اليوم التالى نزل محمد على من القلعة وطوسون معه وطاف المدينة آمرا الناس بوقف النهب وانذار من يخالف الأمر بالقتل . وقد قتل فى ذلك اليوم ٢٣ من بكوات المماليك عدا مئات من قتل منهم فى الأقاليم .

ونزل طوسون باشا فى اليوم التالى إلى الأسواق ومعه بعض الجنود لتسكين القلوب ووقف حركة النهب بينما دفن قتلى المماليك فى حفرة حفرت لهم فى القلعة .

فسار فيه المماليك وسط صفين من الألبانيين والأتراك حتى وصلوا إلى درب لافكاك لداخله . وهنا أطلق الجنود النار عليهم فاستبسل بعضهم وخلعوا معاطفهم وحايهم وصمدوا للقتال الى أن خروا مضرجين بدمائهم بينما تلقى البعض الآخر ما حل بهم بجلد ووقار وقد وافاهم حتفهم وهم فى الصلاة وهكذا قتلوا على بكرة أبيهم . وبينما كان هذا يجرى هنا طاحت رؤوس الف منهم فى القاهرة وفى الأرياف وانتهبت قصورهم . ألاان للشرق حقا طريقته المختصرة الناجعة للتخلص من الطبقات الحاكمة التى ينزلها القضاء عن كراسى الحكم ! وقد دخل على محمد على وهو فى مخدعه الخلفى طبيبه الخاص فألفاه ينتظر وصول الأنباء فحياه بقوله : « إن هذا اليوم حقاً ليوم جليل الشأن لسموكم » . فلم يرد محمد على إلا بأن طلب قدحاً من الماء دون أن يفوه بكلمة واحدة لأن الرجل لم يكن يوماً رجل أقوال بل رجل أفعال .



محمد على بعد مذبحة المماليك

وبعد أن تم إبعاد الفرنسيين والبريطانيين والأتراك والمماليك عن مصر لم تبق فيها إلا سلطة أجنبية واحدة هي الجنود الألبان الملتفون حوله. وسنرى فيما بعد كيف أنه تخلص منهم بدورهم بمجرد أن أصبح في وسعه أن يحل محلهم أورطا مصرية وسودانية . ولقد تدم محمد على خدماً جليلة أخرى لا تقل عن سابقاتها بأن خلصها بسرعة وبلا مجهود شاق من المخاطرين الاغراب ممن كانوا قد توطنوا فيها . وهؤلاء الأغراب مع أنهم لم تمتد إقامتهم فى مصر بصفتهم طبقات مختلفة، ومع أن الباشوات الأتراك



خروج موكب محمد على باشا من القلعة

والمماليك وحثالة الشراكسة والباشبوزق الألبان لم يكونوا فى البلاد بعد ذلك كطبقات تتنازع السلطة فيما بين بعضها وبعض ، فان من ظل من بقاياهم على قيد الحياة سرعان ما اندمجوا فى بعض لتكوين طبقة حاكمة جديدة . لذلك صار زمام الحكم فيما بعد فى السياسة المصرية بيد أوتقراطى يستند أولا الى تعضيد طبقة أرستقراطية شرقية نسميها للسهولة «الارستقراطية التركية» وقوامها الطبقات الوسطى من الأرمن واليهود والأقباط . وسنرى

أنه بمعرفة أخلاق من جاء فيما بعد من الساسة المصريين ينبغى أن نعرف بالضبط إلى أى عنصر من هذه العناصر كانوا ينتمون مع العلم بأن الناس كثيراً ما يسمون أهالى جورجيا بالجراكسة مع أنهم فى الواقع عنصران مختلفان اخلاقا وكفاءة.

وقد اعتاد الناس أن يعزوا الى محمد على أنه مدن مصر على النمط الأوربى. ولا ريب فى أنه استغل التجارب الأوربية — بقدر ما كان



زوجة محمد على باشا وأم ابراهيم باشا تصل الى مصر آتية من قوله

يفهمها — لتعزيز مركزه وتوطيده. ولكنه ظل مع ذلك أوتقراطيا اسيوياً كما أن نظام حكومته كان شرقياً بحتاً اللهم إلا إذا استثنينا العنصر الشعبي الوحيد وهو حق التصويت على النمط الاسيوى — وهو عدم إقامة العراقيل فى سبيل الاتصال بالحاكم وعرض الأمر عليه. ولذلك

تعلم محمد على القراءة والكتابة العربية فيما بعد ليكون على اتصال مباشر بأرباب الحاجات . وقد قال عن نفسه مرة « ان الكتب الوحيدة التى تهمنى مطالعتها هى وجوه الناس وهى لا تخدعنى أبداً » وكان يتكلم التركية باعتبارها لغة الطبقة الحاكمة . ثم أنه كان شديد التمسك بفضائل ونقائص الجنس الألبانى وهو الجنس الذى مد أوربا بعدد من رجالها السياسيين. وكان من حيث التعصب كالاتراك سواء بسواء يضاف إلى ذلك أنه كان يمقت العرب كعنصر ويحتقر الأقباط من أجل دينهم .

أما الدستور الذى أدخله فى سنة ١٨٢٦ فلم يكن شيئاً آخر عدا الديوان المعروف بعد أن أعيد تنظيمه فصار فى وقت واحد مجلساً للدولة ومجلساً خصوصياً ومجلساً للوزراء(١) . ولقد خفض عدد المديريات إلى ١٢

---

(١) ليس من المستطاع طبعاً أن نأتى على كل ما قام به هذا العبقرى النابغة من الاصلاحات وجلائل الاعمال ولكن هذا لا يمنع من الاشارة هنا الى بعض تلك الاصلاحات ونبدأ بحديث الاصلاح الادارى تلخيصاً عما كتبه مؤلف « تاريخ مصر الحديث »

الاصلاح الادارى

فبعد أن دانت لمحمد على الامور شرع فى انشاء الدواوين ومنها ما يسمونه ديوان المعاونة وكانت مهمته النظر فيما تعرضه عليه الدواوين الاخرى والمديريات وسائر الجهات . ثم يأتى بعد ذلك ما يسمونه بالديوان الخديوى وكانت مهمته خاصة بأعمال ديوان الداخلية والخارجية والضابطة. وأنشأ بعد ذلك ديوان الاشغال وديوان المبيعات وديوان الفردة كما أنشأ ديوان الخارجية خاصة وديوان العسكرية ثم الخزانة المالية وما يتعلق بها وديوان الأوقاف وديوان المعامل وديوان التفتيش والحقانية والترسخانة والابنية وديوان المدارس . وقد عهد رحمه الله بادارة معظم هذه الدواوين الى مديرين أورؤساء مصريين وكانت جميعها ترجع فى أحكامها الى الديوان الرئيسى وهو ديوان المعاونة .

وأنشأ للقضاء مجالس ونظم البريد وقضى بحمله برا على يد السعاة وبواسطة السفن بحرا . وأنشأ ما يقوم مقام التلغراف الآن من الاشارات بواسطة أبنية مرتفعة ممتدة على خط واحد بين المدن الكبيرة مع جعل المسافة بين البناء والآخر قصيرة ليتسنى فهم الاشارة .

وصارت بمثابة حكومات. ولكن المدير وصاحبه المأمور لم يكن بينهما وبين لقبيهما الفرنسيين الجديدين وهما الحاكم ومدير الشرطة أى شبه مطلقاً. وكان الموظفون العاملون هم عين الموظفين الوادعين الذين لاغنى للادارة عنهم ألا وهم الأقباط. وقد ظلت الحكومة كما كان العهد بها من قبل أى حكومة مالية قضائية. أما النظام المالى فقد سار سيرته المألوفة من قبل أى بالكرباج الممزوج أحياناً بالبقشيش. وليس ريب فى أن إحدى مزايا النظام الجديد الكبرى كانت أن حل محمد على واحد محل عشرين من المماليك.

على أن المعاهد السياسية إذا كان لم يطرأ عليها تغيير ما فان الشؤون الاقتصادية قد أدخلت عليها تجديدات مهمة. فارتكانا على قواعد النظام الاسلامى القديم الذى لا يميز بين ما هو ملك للفرد وبين ما هو ملك للمجموع ولا بين ماهو نصيب المنتج من المكسب وبين نصيب الدولة منه، كان محمد على نفسه المالك الاسمى الوحيد والزارع دافع الضريبة الوحيد والتاجر الوحيد الذى كان يعامل الأجانب. وهكذا تحول نتاج البلاد وممتلكاتها إلى يد الحكومة التى أحلت لنفسها حق الاشراف عليه.

والعجيب أن هذه الثورة الاقتصادية التى لا يوجد ما يشابهها فى الأزمان الحديثة إلا ما هو حادث فى روسيا الشيوعيه الآن لم تحدث إلا استناداً إلى أصح تعاليم الشريعة الاسلامية. ولا نقصد بهذا أن محمداً علياً كان يسمح بأن تقف تلك التعاليم فى سبيل تحقيق غاياته العلمانية. خذ

= أما الامن العام وتوطيده فقد أنشأ له فرقة الضابطة ووزعها فى أنحاء البلاد لتأمين السبل. وبذا اطمأن الأجانب على أرواحهم. لا بل لقد أصبحت المواصلات التجارية سهلة ومأمونة وخاصة بين انجلترا والهند عن طريق البحر حتى استعاضت بها بريطانيا عن طريق رأس الرجا الصالح.

مثلا على ذلك أنه أبعد العلماء عن إدارة الأوقاف التى أصبحت فيما بعد ملكا لأفراد أسرته. ومن الناحية الأخرى امتدت يد الاعتداء إلى الممتلكات الشخصية من جهة المبدأ ولكن الاعتداء لم يكن بليغاً من الناحية العملية. ولقد صودرت بطبيعة الحال أملاك المماليك الشاسعة. ولكن كل ما كان مطلوباً من أرباب الأطيان الاخرين هو أن يسلموا إلى الدولة كل ماتمتلكه أيديهم فتعوضهم عنه بملك قيم جديد يدفعون عنه ايجاراً تافها جداً. وقد ظل للنواحى زمامها ومسحت الأرض مسحاً عاماً من جديد مما ترتب عليه تحديد زمام كل قرية على أن يوزع العمدة هذا الزمام بين الأهالى.

وكانت النية متجهة بادىء ذى بدء الى استخدام مايتجمد من هذه العملية التجارية من الارباح فى سبيل استمرار التحسن الزراعى والصناعى. ولكن الشؤون العسكرية التهمتها كلها فى النهاية. ولا جدال فى أن الفلاح وهو آمن على ماتمتلكه يداه وعلى حصته فى المحصول كان أيسر حالا مما لو كان يبيع غلته بنفسه ويدفع ماعليه نقداً.

على أن أهم ماقام من المصاعب فى سبيل تسيير دفة هذه الدولة الاشتراكية كان فى العثور على الاشخاص الملائمين لهذه الادارة الجديدة. لان محمدا عليا لم يحاول أن يمرن أحداً من المصريين ولكنه لجأ فى أعماله التجارية مع الخارج الى الاشتراك مع قناصل الدول الاجنبية الموجودين فى مصر. وبديهى أن من آثار هذه الطريقة انها جعلت مندوبى الدول المحليين طوع بنانه. وقد نصت معاهدة سنة ١٨١٨ المعقودة بين الدول العظمى والباب العالى على ترك تجارة مصر حرة ماعدا بعض مكوس تافهة ظلت على مقدارها الاصلى ولكن محمدا عليا بمساعدة شركائه القناصل ابتكر عدة حيل مكنته بأن يزج بما لدولته من احتكارات بين سطور المعاهدة.

وغير خاف أن تنميته صناعات جديدة لم يكن بالعمل الهين إذا قيس بالتملص من التعهدات الدولية . فالمصانع التي انشئت لتكون كانموذج ينسج على منوالها كانت منبع خسارة هائلة منذ أنشائها ولو أن هـذه الحقيقة لم تدرك بادئ ذى بدء لعدم وجود طريقة منظمة لرصد الحسابات. وقد عدل عن المشروعات التي تكلف الخزانة نفقات طائلة واحدا بعد الآخر لان الحرب كانت تستنفد أموال الدولة أولا بأول . على أن التحسينات الدائمة المهمة قد أدخلت على الزراعة وهي بلا ريب صناعة مصر الحقيقية[1]

---

(١) لمـا كانت أعمال محمد على فى هذا الباب مما يشهد بعبقريته فلنجمل هنا بعض ما قام به رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه

الاصلاح الزراعى

كانت بكورة أعمال محمد على فى هذا الباب أنه أمر بمسح كافة الأراضى المزرعة فى مصر وقسمها إلى مديريات وقسم كل مديرية إلى مراكز وأقسام وهذه إلى نواح وعين فى كل منها من يقوم بادارة أمورها هذا عدا من عينهم لجباية الضرائب . وقد وزع أراضى كل ناحية على سكانها وبذا أصاب كل فلاح قادر على العمل نصيباً يقوم بأوده .

وجعل لمشايخ البلاد جانبا من الأرض أعفاه من الضريبة فى مقابل نفقات ضيافة جباة الأموال الأميرية الذين كانوا يمرون فى بلادهم وما كانت تكلفهم به الحكومة من المهام والشؤون .

وقد رأى بعد أن ارتاح باله من الاعمال العسكرية أن يلحظ الفلاحين بعين رعايته . فعهد إلى ضباط الجيش القدماء بأمر البلاد من الناحية الزراعية وفوض اليهم تعميرها واصلاحها بأنفسهم . ومع ذلك لم يشأ حرمان الفلاح من ثمرة أتعابه بل قضى أن لا تسلم الاراضى للضباط أو المتعهدين متى كانت رائجة وقادرة على أداء الاموال المستحقة للخزانة فى مواعيدها . أما الاطيان الكاسدة فهى التى تحال إلى هؤلاء المتعهدين باختيار أربابها والمتعهد هو الذى يقوم بأداء المطلوب للحكومة . فراجت الزراعة بهذه الواسطة وتحسنت تحسناً عظيما وظلت الاراضى فى أيدى المتعهدين إلى زمن عباس باشا الأول وهو الذى استردها منهم .

وقد زادت بهذه الطريقة مساحة الاراضى الزراعية فى أيامه عما كانت عليه فى عهد المماليك . فقد كانت فى العهد الأخير لا تزيد عن المليون وبعض المليون فدان ولكنها



يوسف أفندى مدير حدائق شبرا
وهو الذى أدخل زراعة اليوسف أفندى
فى مصر فسمى باسمه *

مثال ذلك ان صانعا ميكانيكيا فرنسياً جيء به لانشاء الأنوال فاقترح زراعة القطن الأجنبى وقد بلغ فعلا ما صدرته مصر فى سنة ١٨٣٨ نحو ٦٠٠٠٠ بالة . ثم أن أحد الهنود أدخل إلى مصر زراعة الأفيون والنيلة. ونشط الأرمن فى زراعة تيل القنب الذى كان يستعمل إلى ذلك العهد كمخدر. ولكن محمدا عليا خصص الايراد الناتج من هذا لأسطوله . وقد

= بلغت فى عهد محمد على فى سنة ١٨٢١ نحو المليونى فدان . على أن الامر لم يقف عند هذا الحد . بل أخذت المساحة تتسع تدريجا بما ابتكره محمد على من الوسائل لتسهيل الرى وشق الترع وأنشاء الجسور والقناطر والسدود الخ . وبهذا بلغت مساحة الأراضى المزروعة فى سنة ١٨٤٠ نحو ٣٫٧٩١٫٢٢٦ فدان كما فصله الدكتور كلوت بك فى كتابه عن محمد على .

ثم رأى خصب التربة المصرية فشرع يزرع فيها المحاصيل التى لم تكن معروفة فيها من قبل . فجاء إليها بتقاوى القطن الامريكى ثم نبات النيلة من الهند ونبات الأفيون من أسيا الصغرى وجاء بالخبراء العارفين بزراعتها وأكثر من غرس الحدائق والاشجار فى القاهرة وضواحيها تلطيفا لحرارة الجو واستزاده للغيث — مثال ذلك مغارس الليمون فى شبرا والحدائق فى الروضة وحديقة الازبكية مكان البركة المعروفة .

وأنشأ السدود فى أبى قير وغيرها من الجهات وشق كثيرا من الترع وعمل على تطهيرها وأنشأ الترع الصيفية لتنمية الزراعة الصيفية وعهد إلى المهندسين بأعمال الرى وأرسل عدداً من الشبان إلى أوروبا لدراسة فن الزراعة واتقانه .

وليس ريب فى أن أهم مشروعاته فى هذه الناحية القناطر الخيرية . وقد دفعه إلى بنائها =

* هذه الصورة مهداة للمعرب من سمو الأمير عمر طوسون .

تضاعفت أجور صغار العمال أربعة أمثالها بينما لم ترتفع أسعار الحاجيات إلا قليلا . نعم إن أثمان الواردات تضاعفت بسرعة فبلغ ثمن البن مثلا ضعفى ما كان عليه بينما ارتفع ثمن السكر إلى عشرة أضعافه ولكن ثروة البلاد العامة تضاعفت أيضا بسرعة . خذ مثلا على ذلك أن ضرائب الأطيان التى بلغت فى سنة ١٨٢١ نحو ٦٥٠٫٠٠٠ جنيه فانها قد بلغت ضعفيها فى خلال عشرة أعوام من ذلك التاريخ . كذلك تضاعفت إيرادات الجمارك وازدادت أرباح التجارة [1] من ١٠٠٫٠٠٠ جنيه إلى أربعة أمثالها فى خلال المدة



لينان باشا دى بلفون مهندس القناطر الخيرية *

= ما رآه من ضياع مياه فرعى النيل هدرا . ففرع رشيد تذهب مياهه فى أراض غير صالحة للزراعة . بينما فرع دمياط لا تكفى مياهه لرى الاراضى الصالحة التى يمر بها فى أيام التحاريق . ثم أن الصعيد تشح فيه المياه فى وقت التحاريق لارتفاع أرضه وقد لا ترتوى إلا فى زمن الفيضان . فأمر بانشاء القناطر الخيرية على عرض فرعى النيل وأن تجعل لها بوابات حديدية تغلق وتفتح عند الاقتضاء . وهى وسيلة للانتفاع بها بما يزيد من مياه فرع رشيد باضافته إلى مياه فرع دمياط . ثم إذا جاء الفيضان قليلا أغلقت قناطر الفرعين فترتفع المياه فى الصعيد فترتوى أراضيه . وفى أيام التحاريق تفتح القناطر فتفيض المياه والارض متعطشة إليها .

الاصلاح التجارى

(١) بعد أن كثرت حاصلات البلاد عنى محمد على بتنشيط التجارة ورأى أن لابد من إنشاء ميناء تأوى اليه السفن التجارية فآثر الاسكندرية على دمياط ورشيد وشق فيها ترعة المحمودية نسبة للسلطان محمود الثانى . فعظمت حركة نقل البضائع بين الاسكندرية وداخل القطر وأصبحت لهذه الميناء أهمية كبيرة وقصدها التجار من كافة أنحاء العالم . ثم أصلح مرفأ بولاق وسهل أمام الأجانب سبل التوطن فى مصر مما زاد حركة التجارة نشاطا =

* هذه الصورة مهداة للمعرب من سمو الأمير عمر طوسون .


بوغوص بك *

الآنفة الذكر أما إيراد الدولة الذى كان فى سنة ١٨٢١ دون المليون جنيه فقد أصبح الضعف فى خلال العشرة الأعوام التالية ثم بلغ ضعفى ذلك أيضاً بعد خمسة أعوام أخرى .

على أن ما وضعه محمد على من نظام محتكرات الدولة أدى إلى تنمية طرق جديدة للانتاج دون ان يثبط ذلك من المشروعات الفردية (١) ولم يختل هذا النظام إلا بعد أن ضربت الرشوة أطنابها وبعد أن اضطرت الدولة بسبب ما تكبدته من نفقات الحروب الأجنبية إلى انتهاز الفرص

= وقد رأى توطيدا لاعماله التجارية هذه أن ينشىء مجلسا تجاريا مؤلفا من وطنيين وأجانب للحكم فى القضايا التجارية.

احتكار حاصلات البلاد

(١) وقد عمل محمد على على تصريف حاصلات البلاد بنفسه فاحتكر الحاصلات والمصنوعات وتولى بيعها رأسا للتجار السوريين والاوروبيين واليونان والارمن . وكان يتتبع حركة الاسعار فى الأسواق كسائر التجار فتارة يكون الكسب من نصيبه وطورا يكون بالعكس.وكان يبيع البضاعة تسلم الاسكندرية وينقلها على نفقته بواسطة السفن فى وقت الفيضان.وكانت له فى بولاق وكالات تخزن الأقطان والسكر والكتان والحناء وعلى تلك المخازن وكلاء لايسلمون منها شيئا إلا بأمر الباشا . وكان يدون أرباحه من هذه التجارة فى دفاتر حكومته .

وقد ذكر كلوت بك أن ميزانية سنة ١٨٣٣ بلغ الدخل فيها ٦٢٫٧٧٨٫٧٥٠ فرنكا منها نحو ١٥٫٠٠٠٫٠٠٠ فرنكا من التجارة وبلغ الخارج ٤٩٫٩٥١٫٥٠٠ فرنكا ثلثها لنفقات الجيش وكان من أكبر أعوان محمد على فى المسائل التجارية والمالية بوغوص بك الارمنى المتوفى سنة ١٨٤٤ .

* هذه الصورة مهداة للمعرب من سمو الأمير عمر طوسون .

للعمل بالربا الفاحش. كذلك شرع الفلاح يحدد نتاجه بعد أن هبطت حصته فيه إلى السدس وبعد أن دفع إبراهيم ثمن هذا السدس بدلا من النقود عسلا أسودا رديئا جاء به من مصانع السكر الخاصة به وبعد أن اختلت الموازين وتلاشت الثقة بسبب الغش.

وهـذا ما حـدا بمحمد على إلى تسخير عمال الزراعة فى العمل فى مزارع الحكومة وهو حل منطق يحتمله المصريون بصبر لا تقوى عليه اية أمة أوربية. ولم يكن محمد على برغم ما أسداه إياه شركاؤه الأجانب من المساعدة فى تنمية ما طمحت إليـه الدولة من مشروعات تجارية عظيمة موفقا كل التوفيق. بل أنه تعرض بين آن وآخر إلى خسائر فادحة. مثال ذلك أنه باع فى سنة ١٨١٦ مليون بوشيل من القمح (والأردب يعادل ١٠ بوشيل) بسعر البوشـيل ٣ شلن ونصف. على أن عجزه عن تسليم القمح للمشترين إلا بعد هبوط سـعر البوشيل إلى شلن ونصف جعل ربابنة السفن يرفضون تسلمه بل تركوه عرضة للتلف على الميناء. ولـكن كان النظام على وجه العموم مفيداً للدولة وغير مرهق للفلاح. وكان بين ما أدت إليه من نتائج هـذه التجارة التى باشرتها الحكومة شق ترعة المحمودية لتصل نهر النيل بالاسكندرية مما وفر على سفن الغلال مؤونة السفر إلى رشيد للوصول منها بطريق البحر إلى الاسكندرية.

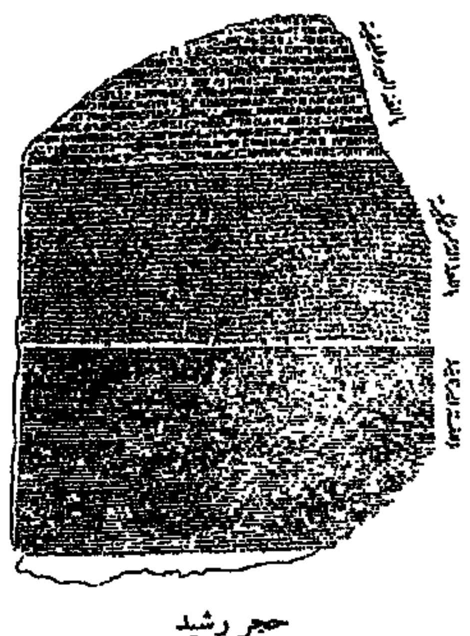
ومن الغريب أن هذه الاشتراكية التى لا تجد حتى فى وقتنا الحاضر أى تأييد فى الخارج متى كانت وليدة ثورة شعبية قد استقبلتها الصحف الأوربية منذ قرن مضى أحسن استقبال وعدتها من أكبر آثار ذلك الملك المجازف ولا زلنا نذكر تلك الرنة المألوفة التى كانت تجرى فى البلاغات الرسمية لذلك العهد. خذ مثلا ما كتبه القنصل باركر فى سنة ١٨٣١ اذ قال مانصه: «عند ماهبطت مصر سنة ١٨٢٦ كان من رأى الجميع أن الوالى

لن يظل على العرش أكثر من ستة أشهر أخرى وأنه سائر حتما إلى الخراب بسبب ما يقدم عليه من مشروعات جنونية لا تتناسب بتاتا مع موارده. ومع ذلك فان ما كان يظن وقتئذ أنه مشروعات مستحيلة التنفيذ لم تبلغ ضخامتها خمس ضخامة ما نفذ فعلا من المشروعات منذ ذلك الحين كلا ولا بلغت عظمتها عشر عظمة ما هو معروض الآن على بساط البحث من المشروعات . ولما كنا والحالة هكذا قد شهدنا انجاز بعض المشروعات كما شهدنا تقدما كبيراً فى سبيل إنجاز البعض الآخر مما كان يعتبر إلى أربع سنوات خلت ضربا من المستحيلات أو حلما من أحلام رجل مسلوب العقل فان من الانصاف أن نسلم بأننا نجهل كل الجهل مدى ما لدى هذا الرجل من موارد يلوح إلى أنها تكفي لتنفيذ مشروعاته » [1]

أما المساعدة الفنية الأجنبية فكان اعتماد محمد على فيها على الفرنسيين وهم الذين كانت امبراطوريتهم فى شمال أفريقيا حتى ذلك الحين عبارة عن مجرد حملة تأديبية موجهة ضد الجزائر بعكس سلطة بريطانيا البحرية التى كانت واقفة على الدوام بالمرصاد عند مدخل مصر الأمامى وهو الاسكندرية ومدخلها الخلفى وهو السويس ولكن الفرنسيين رغم ذلك كله ما برحوا يهتمون بمصر إهتماماً عديا . فلا تنس علو كعبهم فى فن الحرب

---

(١) لعلك سمعت الشيء الكثير عما أنشأه محمد على من الصناعات المختلفة التى عفت آثارها مع ما توخاه رحمه الله من إنشاء المعامل واستجلاب الصناع من الاقطار الاوربية . وكان مما أنشأه معامل عديدة لحليج القطن ونسجه وللنيلة وصنع الطرابيش التونسية والورق والغزل وأنواع الاقمشة من الحرير والكتان والقطن والصوف ومعامل الاسلحة المختلفة . « المعرب »



حجر رشيد

وهكذا صار شمبليون [١] أبا المصرلوجيةبدلا من منافسه يانج ، بينما أن

(١) قد رأيت مما مر بك أن بونابرت عند ما هبط مصر اصطحب معه عددا من المصرلوجيين الذين يرجع إليهم الفضل فى وضع أساس نهضة بلاد النيل من الناحية العلمية والثقفية . كذلك رأيت أنهم ظلوا يواصلون أعمالهم فى مصر حتى بعد انسحاب الحملة الفرنسية . بقى أن تعلم أن أولئك المصرلوجيين وجهوا اهتمامهم إلى دراسة اللغة القبطية ليتوصلوا عن طريقها إلى حل الرموز الهيروغليفية . وقد نحا شمبليون نحوهم فى سنة ١٨١٨ فى دراسة تلك اللغة ودراسة جغرافية مصر القديمة وكل ما كتب قديماً عن مصر والمصريين . وبينما هو جاد فى دراسته عثر على الكتابةاليونانية المرسومة على المسلة المصرية التى وجدها بلزونى الايطالى فى جزيرة البربة وأرسلها إلى أوروبا لفك طلاسمها . فتبين لشمبليون أن الكتابة اليونانية هى ترجمة الكتابة المصرية . ومما لفت نظره فى الكتابة اليونانية أعلام وأسماء أعلام لا تترجم بينما وجد فى الكتابة المصرية نقوشاً محاطةبخط اهليلجى.وقرأ فى الكتابةاليونانية اسم بطليموس مكررامراراً فحكم بأن النقوش الهيروغليفية المذكورة هى اسم بطليموس . ثم ازداد اقتناعاً برأيه هذا عند ما رأى اسم بطليموس هذا واردا فى الكتابة اليونانية على الحجر الرشيدى ويقابله فى الكتابة الهيروغليفيةهناك نقوش محاطة بخطاهليلجى كالنقوشالتى على المسلةتماماً =

الـكولونيل سيف الذى حاربنا ملاحا فى موقعة الطرف الأغر ثم قاتلنا

ومن ثم أخذ شمبليون يتوسع فى مقابلة النقوش الهيروغليفية بما على المسلة من الكتابة اليونانية مستعيناً بمادرسه من اللغة القبطية إلى أن توصل إلى حل الرموز الهيروغليفية وأصبح هو صاحب الفضل الأول فى حل طلاسم تلك اللغة. هذه هى خلاصة ماأورده صاحب «كتاب تاريخ مصر الحديث». «المعرب»

وإليك ترجمة ماهو منقوش على الحجر الرشيدى نقلا عن كتاب «تقويم النيل» لمؤلفه سعادة المربى الكبير أمين باشا سامى.

ترجمة الكتابة التى على الحجر

فى اليوم الرابع من شهر خانيكس من السنة التاسعة الموافق لليوم الثامن عشر من شهر امشير عند المصريين قد صار بطليموس (ايفانيس) الصغير ملكا وظهر بمظهر والده على سرير ملكه وهو سيد البلادين البحرية والقبلية المتصف بالقوة والبأس المدبر لأمور بلاد مصر المسدى إلى أهلها النعم الكثيرة صاحب الاحساسات الشريفة بالنسبة لآلهة البلاد بما أظهره من علامات الاحترام والتعظيم لها وفعل الخيرات فى معابدها. وهو الذى ظفر بأعدائه وصير الناس سعداء. كما أنه صاحب الأعياد التى استمرت ثلاثين سنة. وقد اختاره الاله (يتاح) (فتاح) وقواه الاله (رع) ولذا ظهر بمظهرهما فى البلاد البحرية والقبلية. وهو صورة الاله (آمون) وابن الاله (رع) بطليموس ايفانيس دامت حياته محبوباً من الاله (فتاح) بن بطليموس وارزينا كاهن الاسكندر والآلهة المدافع عنهم (حورس) الذى أخذ بثأر والده (أوزيرس).

هذه الكتابة هى صورة محضر كتب بحضور رؤساء كهنة البلاد وحضور كتاب اللغة المقدسة (الهيروغليفية) والكهان المصريين وغيرهم تذكاراً لجلوس الملك بطليموس المحبوب عند الاله (فتاح) على كرسى الملك وحصل اجتماع فوق العادة فى مدينة منفيس وشهد الحاضرون بفضل بطليموس ونوهوا باحترامه للآلهة وافاضته الخير على المعابد وأهل البلاد القبلية والبحرية. ولذا رأوا من الضرورى كتابة هذا المحضر على حجر صلب وأن تكون كتابته بلغة الآلهة (الهيروغليفية) ولغة المكتوبات الاعتيادية (الديموتيكية) ولغة اليونان وان يوضع فى معابد الدرجة الأولى والثانية والثالثة بجوار تمثال الملك بطليموس وبجوار تماثيل كبراء الآلهة.

فيما بعد جنديا فى موقعة ووتارلو قد صار اسمه سليمان باشا [1].
فشرع فى تنظيم الجيش المصرى وكاد يزج بنا فى حرب أخرى مع الفرنسيين .

وثمت رجل فرنسى قدير آخر هو كلوت بك الذى أخذ على عاتقه القيام بمشروع بعيد المدى وهو



سليمان باشا الفرنساوى *

---

(١) الكولونيل سيف أو الجنرال سليمان باشا الفرنساوى (كما أصبح يعرف بهذا اللقب فيما بعد) هو صاحب الفضل بلا مدافع فى تدريب الجيش المصرى على النظام الفرنسى فى عهد محمد على . ولا بد قبل الخوض فى حديث الكولونيل سيف أن نقف بك قليلا أمام الاصلاحات العسكرية التى أراد مؤسس مصر الحديثة أن يدخلها على جيشه قبل أن تتيح له الفرصة للتعرف بالكولونيل سيف . وقد كتب بهذه المناسبة صاحب « تاريخ مصر الحديث » فصلا شيقا فى هذا الموضوع نلخصه فيما يلى :

« المعرب »

لقد رأيت أن القوة العسكرية التى تولى محمد على أمرها عند ما هبط مصر كانت خليطا من الألبان (الأرناؤوط) والدلاة (المغاربة) والانكشارية والغلونجية وغيرهم ولم يكن لهؤلاء نظام عسكرى عدا النظام العتيق الذى انتقل مع الزمن من الاجداد والآباء إلى الابناء والاحفاد . وكم كابد محمد على من المصاعب فى حمل أولئك المرتزقة على اتباع التدريب العسكرى الفرنسى الذى ابتكره بونابرت . ولكن الأرانطة عدوا ما أقدم عليه محمد على من البدع وهو لذلك ضلاله وكل ضلالة فى النار فثاروا عليه فرأى من الحكمة أن يلجأ إلى تنفيذ رغائبه فيهم تدريجاً .

فاختار بعض فتيان المماليك وأرسلهم إلى الصعيد لتعلم أساليب الفن العسكرى الحديث على بعض الأساتذة الافرنج . وفى سنة ١٨٢٥ أنشأ فى قصر العينى مدرسة أعدادية أسماها المدرسة التجهيزية الحربية أدخل فيها نحو ٥٠٠ طالب من أبناء المماليك وأبناء الاتراك والاكراد والالبان والارمن واليونانيين دون أن يكون فيهم ابن وطنى واحد . =

* هذه الصورة مهداة للمعرب من سمو الأمير عمر طوسون .



سليمان باشا يؤنب المماليك لأنهم أخفقوا فى اصابة صدره
ويلح عليهم فى إطلاق النار عليه مرة أخرى

= فتعلموا القرآن والنحو وآداب اللغة التركية والفارسية والعربية بينما كانت لغة التدريس هى التركية . وتعلموا أيضاً الحساب والهندسة والجبر والرسم واللغة الايطالية لأن ساتذتهم كانوا إيطاليين .

وقر قرار محمد على على أن يرسل بعض أولئك الطلبة إلى ليفورن وميلانو وفلورنسا وروما لدرس الحركات العسكرية وصناعة بناء السفن والطباعة والهندسة وغيرها من الفنون الحربية . كما أرسل طلبة آخرين إلى انجلترا لدرس الميكانيكا وسلوك البحار ونواميس السوائل . وإذ نظم الجند رأى أن الضرورة تقضى بانشاء مدرسة طبية لاخراج أطباء الجيش. فأنشأ تلك المدرسة فى سنة ١٨٢٥ واختار تلاميذها من أبناء الأرياف أو تلامذة الأزهر خلافا للمدرستين الحربية والتجهيزية .

وأراد محمد على استعجال ثمار جهوده فى هذا الصدد فأرسل فى سنة ١٨٢٦ أربعين تلميذا من تلامذة المدرستين التجهيزية والطبية إلى فرنسا لاتقان الفنون الحربيه والطب والادارة الملكية والعسكرية وغير ذلك مما يجعله يستغنى فيه عن المعلمين الأجانب لأن الوطنيين كانوا إلى ذلك الحين قاصرين على درس العلوم فى الأزهر وهى لا تعدو العلوم الدينية واللغوية . ثم أنشأ مدرسة الطوبجية وأنشأ فى القاهرة مصانع لصب المدافع وكافة حاجيات الجند .

وفى هذه الأثناء ظهر على المسرح الكولونيل سيف وهو من أهل ليون وقد ولد =

فيها فى سنة ١٧٨٧ وسمى يوسف سيف. وكان أبوه صانعاً رقيق الحال فأراد الاستعانة فى صناعته بولده يوسف . ولكن هذا كان ميالا إلى العمل من نوع آخر أرق من ذلك. فتمرد على أبيه فعاقبه هذا بادخاله فى سلك الملاحة الحربية فى سنة ١٧٩٩ وهو بعد فى سن الثالثة عشرة . وكم كان اغتباط يوسف بركوب متن الأخطار وعبور البحار إلى أن وقعت معركة الطرف الأغر فى سنة ١٨٠٥ بين الأسطولين الانجليزى والفرنسى . وقد أظهر الفتى يوسف من ضروب البسالة ما دل على حسن استعداده للشؤون العسكرية . وبدلا من أن ينال مكافأة على بسالته هذه حكم عليه بالاعدام لأنه تشاجر مع أحد رؤسائه فانتقل العتاب إلى الملاكمة . وكان يوسف خشن الطبع عنيف الخلق فصبر حتى اعتدى عليه رئيسه وجرحه فانهال عليه يوسف ومازال يضربه حتى كاد أن يقضى عليه .

على أن المقادير بعثت إلى يوسف بالمدعو الكونت بولدى سيغوريقال، وكان يوسف خلصه من الموت مرة فتوسط فى الغاء الحكم العسكرى وإرسال الشاب إلى صفوف الجيش الفرنسى بإيطاليا .

ووقع سيف أسيراً بأيدى النمساويين فى أثناء الحرب الفرنسية النمساوية وظل عامين فى الغربة . ثم انخرط فى حملة نابليون على روسيا وأظهر من الشجاعة والاقدام ما لفت إليه نظر بونابرت بصفة خاصة. فأراد مكافأته بنيشان الليجيون دونور. فلما دعاه إليه لمح منه استخفافا بهذا النيشان فحنق عليه وحرمه منه . على أنه ما لبث أن رقاه إلى رتبة كولونيل بعد عودة تلك الحملة المنكودة الحظ .

ولما أفل نجم بونابرت وطوحت به يد القدر إلى جزيرة القديسة هيلانة خرج سيف من الجندية وعكف على التجارة التماساً للعيش وكان حظه منها قليلا . ومالبث أن سمع بأن العجم فى حاجة إلى ضباط حاذقين فى تدريب الجند فذهب إلى صديقه الكونت السالف الذكر يستكتبه كتاب توصية إلى الشاه فنصح له الكونت بالتوجه إلى محمد على باشا فى مصر .

فجاء إلى القاهرة فى سنة ١٨١٩ مزودا بكتاب توصية. فأكرم محمد على وفادته وبعث به إلى السودان للبحث عن بعض المعادن . ولكنه عاد بلا جدوى إلى القاهرة فى يوم عودة الجيوش المصرية مظفرة من الحرب الوهابية .

وإذ ذاك عهد محمد على إلى سيف بتدريب الجيش المصرى على أسس النظام العسكرى



محمد على باشا فى موكبه
وخلفه سليمان باشا الفرنساوى ثم ابراهيم باشا


كلوت بك *

ان نظام التعليم فى مصر لم يكن فى سنة ١٨٣٠ يختلف كثيرا عنه فى غرب أوربا فقد كانت هناك وزارة للمعارف وإدارة باهرة تضم مدارس ابتدائية وثانوية وفنية ويقال أن عدد تلاميذ هذه المدارس الأخيرة بلغ على الأقل ٩٠٠٠ تلميذ (١)

بيد أنه يلوح أن قيمة محصول هذه الادارة كانت موضع شك . فان

= الفرنسى . فقام الكولونيل بهمته أجل قيام وحارب تحت علم الحكومة المصرية فى حروب المورة و سوريا وتوفى بمصر سنة ١٨٦٠

على أن محمداً عليالم يكتف بما تقدم من الاصلاحات العسكرية بل أنشأ فى الاسكندرية ترسانة جاء إليها بالسفن والدوارع من مرسيليا والبندقية وأسس فيها مدرسة جلب إليها الأساتذة من فرنسا وانجلترا وبنى حول الاسكندرية حصنا منيعاً كما بنى الحصون فى مختلف الجهات .

(١) الآن وقد وصلنا إلى ذكر كلوت بك فلا نريد أن نعتذر للقراء عن كثرة الاقتباس مما كتبه الغير عن محمد على باشا . فقد رأينا ورأى القراء معنا أننا أمام سيل جارف من الاصلاحات قام بها ذلك العبقرى اكثر مما لم يتسع له كتاب المستر يانج الذى عربناه هنا . فانصافا للحقيقة وتنويراً للاذهان لم نر مناصا من استخراج هذه المعلومات النفيسة التى ظلت مدفونة فى بطون الكتب مهما اتهمنا البعض بالتطويل . وإليك صفحة أخرى من صفحات محمد على الناصعة عثرنا عليها فى كتاب « مشاهير الشرق » للمرحوم مؤسس الهلال بمناسبة ذلك العصامى الكبير كلوت بك رأينا أن نلخصها هنا لا لمعرفة بعض ما أسداه محمد على من الفضل لهذه البلاد فحسب بل وليرى القارىء مثلا صالحا من أمثلة الاعتماد على النفس يضربه لنا كلوت بك « المعرب »

عند ما رأى منشىء مصر الحديثة محمد على الكبير أن ما وضعه المصرلوجيون فى إبان الحملة الفرنسية من البذرة الصالحة فى تربة مصر لاسبيل إلى نموه ان لم يتعهده بالسقاية — وقد رأيت فيما مر بك مبلغ عنايته بها — التفت إلى الناحية العلمية فرأى =

* هذه الصورة مهداة للمعرب من سمو الأمير عمر طوسون.



كلوت بك يلقى أول درس فى التشريح على تلاميذه فى مدرسة الطب بمصر سنة ١٨٢٧

أن يستقدم من أوربا للاصلاح العلمى النطاسى الشهير الدكتور كلوت بك وكان قد أراد فى بداية الامر أن يعنى الدكتور بتطبيب الجيش منعاً لتفشى الامراض وما لبث ان امتد نشاطه إلى نواح أخرى .

ولد أنطون برطلى كلوت فى مدينة جرينوبل بفرنسا فى سنة ١٧٩٣ من أبوين فقيرين ونشأ نشأة الشظف والعسر واغرم منذ نعومة أظفاره بتشريح الحشرات ودرس طبائعها . وفى سنة ١٨١١ توفى والده بعد أن نزح إلى برينول . وكان للوالد صديق اسمه الدكتور سايه فلمح مخايل النجابة على الغلام انطون فاتخذه مساعداً له فى أعماله الطبية وللتمرن على الجراحة. فانكب أنطون على كتب الطب والجراحة يستوعب مافيها فى أوقات فراغه ثم رأى أن برينول تضيق بما يجيش فى نفسه فسافر إلى مرسيليا برغم نصيحة والدته إذ كان وحيدها . ولكنه لم يصادف فيها إلا الخيبة فهم بالالتحاق باحدى السفن بصفته جراحا لملاحيها وسدا لحاجته وكان ذلك وهو فى سن التاسعة عشرة. ولكن لحسن حظ انطون رفضه الربان وغرقت السفينة فى تلك الرحلة .

فدفعت الفاقة أنطون كلوت الى تعاطى مهنة الحلاقة فجعل يتردد على حلاق يعالج بالفصد والجراحة الصغرى. ثم عاد إلى بلده راغماً والتحق بالمستشفى بعد كثرة الالتماس

الفصول كانت تغص بتلاميذ باكين انتزعوا عنوة من أحضان والديهم الساخطين. ثم لا يعرف بالضبط ماذا كان مصير هؤلاء التلاميذ بعد مغادرتهم المدرسة ويجوز أن يعزى إلى ما قام به محمد على من التجارب التهذيبية قسم كبير من سرعة التطور السياسى فى مصر إذا قورنت بغيرها من الولايات الأفريقية التابعة للامبراطورية العثمانية.

على أن الفضل يعود بلا ريب للجيش فى أن هذه القوة المستبدة تقدمت بأكبر خدمة لايجاد أمة مصرية. وإذا كانت مصر قد ظلت طيلة

= وانكب على المطالعة حتى بز أقرانه وان كان الفقر مازال يصاحبه.

وفى سنة ١٨١٧ أتم دروسه وعين طبيباً صحياً بعد أن درس العلوم بنفسه وأتقن اللغة اللاتينية على أحد القسس ونال درجة بكالوريوس فى العلوم.

وفى سنة ١٨٢٠ أحرز درجة الدكتوراه بعد عناء ليس بعده عناء. ومن ثم أصبح قابضاً على المفتاح الذى يستطيع التعيش به. فعاد إلى مرسيليا وعين طبيباً ثانياً بمستشفى الصدقة ومستشاراً جراحياً بمستشفى الأيتام. ولكن أرباب السعايات تسببوا فى إقالته من هذا المنصب. فأكب على العمل مرة أخرى والف كتاباً عن استعمال آلات الولادة فى الأحوال الخطرة. ومن ثم أصبح دكتوراً يشار اليه بالبنان فى فن الجراحة وطبقت شهرته مرسيليا.

وفى سنة ١٨٢٥ اجتمع به المسيو تورنو أحد تجار الفرنسيين بمصر وكان قد عهد إليه محمد على باختيار طبيب بارع يليق بمنصب طبيب لجيشه. فحبب اليه الذهاب إلى مصر فاجاب عن طيبة خاطر. فلما هبط مصر رأى أمامه باباً واسعاً للعمل الصالح والاصلاح الطبى. وكان موضع ثقة محمد على الذى لم يكن يتأخر عن تلبية مايشير به عليه. فأسس بمشورته مجلساً صحياً ليستعين باعضائه على الاجراء والتنفيذ وبث الوصايا الصحية مرتبة على مثال المجالس الصحية الفرنسية. واتماماً للنظام العسكرى أنشأ المستشفيات العسكرية ومصلحة الصحة البحرية. ولما كانت المستشفيات تحتاج إلى أطباء وتمورجية وغيرهم عن كانت تفتقر البلاد اليهم أضطر كلوت بك أن يعلم كلا من هؤلاء واجباته من التطبيب وملاحظة المرضى وغير ذلك. واشهر المستشفيات التى بنيت بمشورته مستشفى أبى زعبل وكان مقر الجند. وأنشىء فى المستشفى بستان للبنات.

القرون الوسطى كمجرد ولاية لا أكثر ولا أقل فسبب ذلك أن المصرى لم يألف القتال منذ نشأته كلا ولا خطر ببال غيره بتاتا أنه سوف يضطر يوماً ما إلى القتال . بيد أنه كان لابد من إيجاد جيش على الطراز الأوربى كدعامة أولى لتوطيد النظام الجديد .وهو ما شرع محمد على فى تحقيقه

= وفى سنة ١٨٢٨ أسس المدرسة الطبية فى القرية المذكورة . وقد أراد أن لايقصر الطب على الجيش بل أن يتعلمه أبناء البلاد . وكان فى أول عهد هذه المدرسة يقوم هو بالقاء الدروس بواسطة المترجمين. وبذلك ترجمت عدة كتب نفيسة فى الطب والجراحة والعلوم الطبيعية وغيرها . ولئن كان التشريح أمراً منكرا فى نظر الأهالى إلا أن كلوت بك حصل على إذن بالتشريح سرا وإن كان ذلك لم ينجه من محاولة أحد الأهالى قتله خلسة بخنجر ولكنه لم ينجح .

وفى سنة ١٨٣٢ سافر كلوت بك فى ١٢ من تلامذة مدرسته هذه لامتحانهم فى باريس فامتحنتهم الجمعية العلمية الطبية وخرجوا من الامتحان بأرقى الشهادات وأسماها . وها هى أسماؤهم .

أحمد الرشيدى وحسن الرشيدى ومحمد منصور وابراهيم النبراوى وحسين الهياوى وعيسوى النحراوى ومصطفى السبكى ومحمد الشباسى ومحمد السكرى ومحمد الشافعى وأحمد بخيت ومحمد على البقلى .

ولشد ما كان سرور كلوت وابتهاجه بنجاح تلاميذه لأنهم كانوا بمثابة النواة فى نشر الفوائد الصحية والطبية فى مصر . وها نحن ننشر فى الصفحة التالية صورة أحدهم المرحوم محمد على باشا البقلى الجراح الشهير .

وفى سنة ١٨٣٨ نقلت المدرسة الطبية من أبى زعبل إلى القاهرة وهى المعروفة بمدرسة قصر العينى . وأنشئت فيها فصول درس القبالة يتعلمها النساء مراعاة للتقاليد الشرقية . وأنشأ لهن مستشفى خاصا بهن مما كانت له أكبر فائدة فيما بعد نظرا لتحجب النساء وعدم السماح للأطباء بالكشف عليهن عند الوضع .

وأنشأ بعد ذلك الاستشارات الطبية فى القاهرة والاسكندرية وألحق بكل منها « أجزاخانة » ولشد ما كانت عناية كلوت بك بدفع غائلة وباء الكوليرا فى سنة ١٨٣٠ مما جعل محمداً علياً ينعم عليه برتبة « بك » فكان أول من نال هذه الرتبة من الأجانب. كذلك أنعمت عليه الحكومة الفرنسية برتبة أوفسييه دى ليجيون دونور . كما أهدته =

بادىء ذى بدء باستخدام رجاله الألبانيين باعتبارهم أقرب العناصر الحربية إليه . ولكن سرعان ما تبين أن تدريب الباشبورق الألبان أشق بمراحل من تنظيم طلبة المدارس الأقباط . فلا غرو أن محاولته تنظيم هؤلاء المأجورين

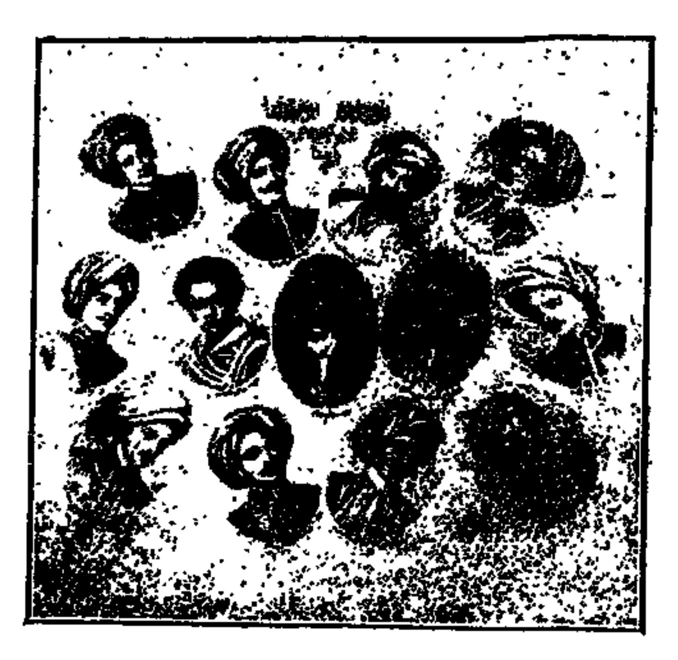


الدكتور محمد على باشا البقلى الجراح الشهير

وجعلهم جنودا نظاميين كان نصيبها من الخيبة والفشل نصيب المحاولة الأولى التى قام بها السلطان محمود الثانى لتنظيم الجنودية الانكشارية . من أجل هذا لم يتمكن محمد على من كبح جماح الفتنة التى سببتها محاولته هذه إلا بهدم السدود وغمر القاهرة بالمياه . على أنه بعد توزيعه الألبانيين بين حاميات الجهات وتشتيت صفوفهم فى حملات الصحراء ومزجهم ببعض بقايا المماليك — بعد هذا كله حاول من جديد أن يشكل منهم جنوداً نظاميين فاستطاع

= الدول الأخرى عدة نياشين لمعالجته رعاياها أثناء الوباء المذكور .

وعاد إلى باريس سنة ١٨٤٠ بعد مرافقته لابراهيم باشا فى غزوة سوريا . ثم رجع إلى مصر وظل بها إلى أن انتقل محمد على إلى الرفيق الأعلى وتوفى ابراهيم فعاد إلى مرسيليا فى سنة ١٨٦٠ وتوفى بها فى سنة ١٨٦٨



أول بعثة أرسلها محمد على إلى أوروبا وترى أسماؤها فى الهامش *

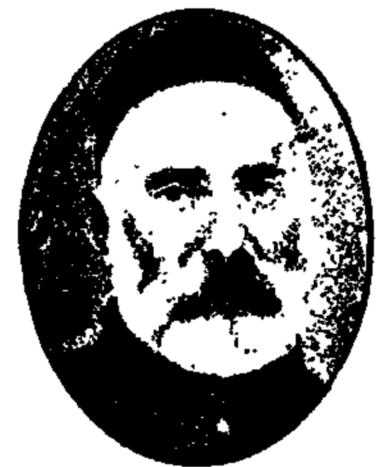
أن يكون بعض أورط من هذا الخليط فعلا . على أن وجود أولاده وسط

والآن وقد وصل بنا الحديث إلى ذكر الارسليات فمن ذا الذى لم يسمع بالارساليات العلمية العظيمة التى أوفدها عزيز مصر محمد على إلى الأقطار الأوربية للاغتراف من معين معارفها وعلومها ؟ وإذا كنا قد اقتبسنا بعض ماخطه المنصفون عن أعمال محمد على وضروب اصلاحاته فترانا مسوقين هنا إلى أن تتمم الفائدة ونضع أمام القارىء صورة من أعماله فى سبيل رفع شأن العلم ملخصاً عما كتبه صاحب « تاريخ مصر الحديث » . ونحسب أننا لسنا فى حاجة إلى الاعتذار عن الاسهاب فى الاقتباس فان ما أسداه محمد على إلى مصر من الناحية العلمية جدير بأن يسجل بماء الذهب وهى والحق يقال صحيفة من نور باقية أبد الآبدين. فالق الينا بالك لتشهد هذه المعجزات التى قام بها ذلك العبقرى الكبير « المعرب »

* فى الصف الأعلى من اليمين الى اليسار : مصطفى محرمجى مهندس قناطر وجسور ورفاعة بك رافع ناظر مدرسة الألسن وحسن بك ناظر البحيرة ومحمد بيومى مدرس بمدرسة المهندسخانة والصف الثانى محمد على مدرس بمدرسة الطب ومحمد شباسى مدرس بمدرسة الطب وعلى باشا مبارك (فى الوسط) ووادى بن كلبهو ولد فى نيمو ومختار بك ناظر المعارف والصف الأسفل محمد بك السكرى مدرس بمدرسة الطب وأمين بك ناظر الكهرجلات ومظهر بك مهندس قناطر دجوه ومحمد شافعى ناظر المدرسة الطبية



مصطفى مختار بك
وهو أول ناظر للمعارف من تلامذة
بعثة سنة ١٨٢٦ بفرنسا



يوسف بك حكيكيان
ناظر مدرسة المهندسخانة من سنة ١٨٣٤
الى سنة ١٨٣٨ بفرنسا

الصفوف بمرتبة جنود بسيطة لم يمنع
استمرار أزيز الرصاص بالقرب
من آذان المدربين الفرنسيين . لهذا
رؤى أنه يستحسن أن يحل محل
الألبان سودانيون . وقد جعل
ابراهيم يسوقهم أمامه إلى القشلاقات
حيث ظلوا معتقلين فيها إلى أن
ماتوا ميتة الضوارى فى أقفاصها .
ويقال أنه من بين ٢٠٠٠٠ سودانى
وجد نحو ٣٠٠٠ ارتضوا حياة



رفاعة رافع بك أول ناظر لمدرسة اللغات والالسن

ـــ ألف محمد على مجلساً للمعارف العمومية غايته تعليم خدمة الحكومة الملكيين والعسكريين مايؤهلهم للقيام بأعمالهم . وفتح عدة مدارس لتعليم الشبان من أهل البلاد وبعث بعضهم إلى أوربا لاتمام دروسهم وبلغ عدد من أرسلهم إلى أوربا فى زمنه ٣١٩ تلميذا أنفق عليهم ٢٢٤٠٠٠ جنيه .



لمبير بك ناظر مدرسة المهندسخانة من سنة ١٨٣٨ الى ١٨٤٩



حسين باشا الاسكندرانى ناظر البحرية من تلاميذ بعثة سنة ١٨٢٦ بفرنسا

= وقد رأيت أن المدارس فى مصر كانت فى بداية أمرها تابعة للعسكرية فاغتنم محمد على فرصة عودة بعض طلبة أحدى الارساليات من أوربا فى سنة ١٨٢٦ وأنشأ مجلساً خاصاً بالمدارس سماه ديوان المدارس برئاسة مختار بك أحد الطلبة العائدين من أوربا . وكان من أعضائه : كلوت بك وكيانى بك وأرتين بك (والد يعقوب أرتين باشا) وهكيكيان بك وأرين بك ورفاعة بك وبيومى أفندى ولمبير وهامون وروزل (سكرتير)

وليس يفوتنا هنا أن نذكر أن محمدا عليا ساوى فى هذا المحل بين الفرنسيين والأرمن والمصريين وكان هم هؤلاء متجها نحو انشاء دولة اسلامية عربية فى مصر عدا الدولة الاسلامية التركية .

وبعد أن تألف ديوان المدارس استأذن أعضاؤه محمدا عليا فى الاكثار من المصريين فى المدارس فأذن لهم ، فأنشأوا مدارس ابتدائية وثانوية فى كافة انحاء القطر على نمط المدارس الفرنسية حيث كانوا يعلمون المواد الآتية : القرآن والخط واللغة العربية والتركية والفرنسية ومبادىء الحساب والتاريخ والجغرافيا والرسم .

وكانت اللغة العربية هى طبعا لغة التدريس . وبعد سنوات قلائل أصبح عدد المدارس التابعة للديوان المذكور ٧٠ مدرسة منها ١٦ مدرسة كبرى وهى :

الجيش واستمروا يخدمون فيه . فلما أعيت محمدا عليا الحيل التجأ فى النهاية إلى تجنيد المصريين فجىء إليه بفقراء الفلاحين أو بالمغضوب عليهم من العمد وسيقوا طوائف طوائف إلى القشلاقات وفى أيديهم الأغلال. وقد توفى كثيرون منهم فى أثناء الطريق ولكن اقوياءهم صاروا فيما بعد خيرة الجنود المشاة . فلما أبصر زعماء الالبانيين ذات يوم ست أورط



عبدى شكرى باشا ناظر المعارف من سنة ١٨٥٠ الى ١٨٥٤ وهو من تلاميذ بعثة سنة ١٨٢٦ بفرنسا

إسم المدرسة	تاريخ تأسيسها	اسم المدرسة	تاريخ تأسيسها
مدرسة الموسيقى العسكرية	١٨٢٤	مدرسة طب الحيوان	١٨٣١
« الحربية فى قصر العينى	١٨٢٤	« التعدين	١٨٣٤
« الطب والصيدلة	١٨٢٧	« الهندسة	١٨٣٤
« الكيمياء العملية	١٨٢٩	« الزراعة	١٨٣٧
« المشاة	١٨٣١	« الولادة	١٨٣٧
« الفرسان	١٨٣١	« الادارة الملكية والحسابات	١٨٣٧
« الطوبجية	١٨٣١	« الألسن والترجمة	١٨٣٧
« البحرية	١٨٣١	« الصنائع والفنون	١٨٣٩

وبلغ عدد التلاميذ فى هذه المدارس ٩٠٠٠ كانت الحكومة تنفق على تعليمهم وطعامهم ولبسهم وسكناهم وكان التلاميذ يدخلون المدارس كرهاً .

هذا فيما يتعلق بالتعليم الثانوى أما التعليم العالى فان ديوان المدارس قرر عجز مصر عن القيام به لعدم وجود الاساتذة القادرين من جهة ولخلو اللغة العربية من الكتب اللازمة لهذه العلوم من جهة أخرى، ومن ثم قررت الحكومة ارسال البعثات الى أوربا مع اشتراط معرفة لغة البلاد التى يرسل اليها الطلبة. ولهذه الغاية أنشئت مدرسة مصرية فى باريس تولى ادارتها مصرى اسمه اسطفان بك ووكيله الارمنى خليل افندى جرا كيان=



المرحوم الدكتور درى باشا الأستاذ الأول فى الجراحة بالقصر العينى

من الجنود النظاميين المصريين تجوب شوارع القاهرة يصحبهم ضباطهم الفرنسيون ايقنوا أن يومهم قد فات فغادروا مصر فى التماس مرعى صالح جديد .

وفى سنة ١٨٢٣ كان لدى محمد على ٢٠٠٠٠ جندى نظامى بلغوا فى سنة ١٨٢٦ نحو ٩٠٠٠٠ جندى. أما الطوبجية وهيئة أركان الحرب فقد رفعها المدربون الفرنسيون إلى المستوى الأوربى . ثم ان مصر بفضل المساعدة الفرنسية أصبح لها أسطول فى مياه البحر الأحمر وآخر فى البحر

=وأخذت الحكومة الفرنسية تعين اساتذتها . وذهب الى هذه المدرسة نحو ٤٠ طالب منهم بعض أمراء الاسرة الخديوية كالامير حليم والأمير حسين ابنا محمد على والامير احمد والامير اسماعيل (الخديو) ابنا ابراهيم. وقد اتوى ابراهيم باشا الاهتمام بأمر هذه المدرسة ولكن عاجلته المنية بعد عودته الى مصر من باريس فأغلقتها فرنسا فى سنة ١٨٤٨

وليس يفوتنا أن نذكر هنا أن محمدا عليا هو الذى أنشأ المطبعة الاهلية ببولاق على انقاض المطبعة التى جاء بها بونابرت كما أنه هو الذى أنشأ « الوقائع المصرية » وديوان المهندسخانة وأمر بترجمة عدة كتب مفيدة فى لغات عديدة كالفرنسية والتركية والفارسية .



معركة نافار بريشة المصور اليونانى كوستاس رومانيدس

المتوسط . وقد كانت السفن الحربية فى مظهرها على الأقل جديرة باسطول إحدى دول الدرجة الثانية . وبينما كانت قطع الاسطول الأول الذى حطم فى موقعة نافار مشتراة من الخارج كانت قطع الأسطول الثانى من صنع مصر . وقد بلغ عدد قطع الأسطول المصرى فى سنة ١٨٣٢ ثمانى مدرعات و١٥ بارجة بينما كان عدد الملاحين ١٢٠٠٠ . أما عمارة البحر الأحمر التى حملت الابل أخشابها عبر البرزخ فهى والحق يقال أول من قطع دابر القرصان فى تلك المياه .

وهكذا اجتازت مصر ثورة رفعتها من مجرد ولاية محتقرة تابعة لأمبراطورية مضمحلة إلى مستوى دولة عسكرية تخطو خطوات واسعات فى سبيل التقدم والرقى . فلا غرو إذا هاج هائج أوربا عند ماشهدت ماقام به هذا الشرق الأوتقراطى من تجارب اشتراكية . وأمامنا صورة بهيجة لهذا الباشا العنيف ذى الحواجب الكثة واللحية البيضاء المدببة والطربوش المعمم والسراويل الفضفاضة وقد شدت إلى حيازيمه أسلحته المرصعه

بالجواهر وهو مطرق الرأس يصغى إلى ما كتبه أرميا بنتام من خطابات مطولة فى فلسفة السياسة بقصد تنويره وتثقيفه . إلا أنه برغم هذا كله لم يسمح للساسه الفرنسيين بأن يغيروا شيئاً من أساليبه. فاذا ماجاءه مثلا خباز يشكو حيفاً أصابه من العمدة أمر بالقاء هذا فى فرن الخباز ليحترق. ولكنا إلى جانب هذا نراه يصفح عن بائس عضه الجوع فحاول اغتياله (محمد على). وقد كان الصفح من أن الاستيثاق أن استغاثته الماضية ذهبت أدراج الرياح . وقد مضى محمد على معظم أيامه على ظهور الجياد بينما كان نومه على سجادة بجوار سريره الفرنسى ذى الأعمدة الأربعة[1]



محمد على باشا يستقبل سفراء الدول

صفات محمد على وأخلاقه

(١) هذا ما يقوله المستر يانج عن صفات محمد على ومناقبه وإليك صورة صحيحة عن أخلاق هذا العبقرى الكبير كما ذكرها صاحب «تاريخ مصر الحديث» وهى صفات جديرة بأن توحى إلى صاحبها باتيان ما أتاه من المعجزات «المعرب»

كان محمد على متوسط القامة عالى الجبهة أصلع الرأس بارز القوس الحاجبى اسود العينين غائرهما صغير الفم مع ابتسام كبير الأنف متناسب الملامح مع هيبة ووداعة=

ولم يقتصر ما تركته هذه الثورة المصرية من الأثر فى نفس اوربا على ما أثارته من الاهتمام بها بل كان لها فعلا أثر معين فى سير الحوادث



قواد جيش محمد على يقسمون على القرآن بالتفانى فى خدمته

= أبيض اللحية كثيفها مع استدارة وسعة جميل اليدين منتصب القامة جميل الهيأة ثابت الخطوات منتظمها سريع الحركة. كان بعيداً عن التأنق ولذلك كان لباسه على طراز المماليك أى العمامة أو الطربوش. ثم ابدل اللباس العسكرى فى أواخر أيامه بلباس واسع بسيط لايميزه عن لباس أتباعه.

كان يكره التفاخر بالحاشية ولهذا لم يكن يخفر بابه إلارجل واحد. وإذا استوى فى مجلسه لايتقلد السلاح بل يجلس وفى يده حق السعوط والمسبحة. وكان ولعاً بلعبة البليارد والداما ولا يتعالى عن مجالسة صغار الضباط. أما جلساؤه العاديون فالقناصل وكبار السياح وكانوا يحبونه ويحترمونه ويلقبونه بمبيد المماليك أو مصلح الديار المصرية. وكان سليم القلب مع دهاء وسياسة سريع التأثر لايعرف الكظم وكان كريم النفس سخى العطاء إلى درجة الاسراف فى بعض الأحايين. وكان شديد التفاخر بعصاميته ويرتاح للتكلم عن سابق حياته. وكان شديد الولع بالاطلاع ولا سيما على الأخبار السياسية. وكان يجل الصحف ويؤمن بتأثيرها فى الهيأة الاجتماعية ولذلك كانوا يترجمونها له فيطالعها بتمعن.

الأوربية. وكادت تسبب حربا عامة فى تلك القارة. ولما كنا لا نروى تاريخ أوربا بل تاريخ مصر فلن نفسح مجال الكلام عن هذا الجانب من نشاط محمد علي ونجاحه لأن غزواته فى بلاد العرب والأناضول وبحر ايجه وما أحرزه من انتصارات ضد متعصبي الأعراب وثوار اليونانيين وما أصيب به على أيدى أمراء البحر الانجليز وارستقراطييهم من الهزائم — كل ذلك لم يكن له أى أثر فعلى فى تاريخ مصر.

وقد اتخذ محمد على مبدأ جعله قاعدة لسياسته الخارجية الاوهو رشوة السلطان تارة والتشاجر معه تارة أخرى ليحمله على الاعتراف بسيادته وسيادة ذريته من بعده على مصر المستقلة استقلالا داخلياً. أما مبدأ جعل مصر مستقلة عن الدول فقد كانت سياسته لتحقيق هذه الغاية ترمى إلى إيقاع هذه الدول بعضها فى بعض أو تحريضها على الباب العالى. وكان من رأيه أن

= وكان يستيقظ حوالى الساعة الرابعة صباحا ويقضى نهاره فى شئون الدولة. وكان بارعا فى الحساب بغير تعلم لأنه شرع يتعلم القراءة والكتابة فى سن الخامسة والأربعين (وهذا ما ينطق بفضله وبعد نظره وصفاء ذهنه ويبرهن على ما حبته به الطبيعة من قوة الادراك والحذق والمقدرة على تصريف المعضلات السياسية). وكان حازم المعاملة مع لين ورقة وحسن أسلوب، وكان شديد التمسك بالاسلام مع شدة احترامه لتعاليم الأديان الأخرى وبخاصة الدين المسيحى فكان يقرب أصحابها منه ويعهد إليهم بأهم أعماله كما قام الدليل على ذلك فى كثير مما مر بك.

وبالجملة فلقد كان الرجل أبا حنونا لرعيته وصديقاً مخلصا ونصيرا مسعفا لذوى قرباه وأبا حقيقيا لأولاده. وهل أدل على ذلك من الحزن الذى لازمه حتى اللحد بعد ما اختطفتهم يد المنون منه، ولعمرك لا تلتفت يمنة أو يسرة سواء أفى مصر أم فى الشام أم فى السودان أم فى شبه جزيرة العرب إلا وجدت آثاراً ناطقة بمآثر ذلك الرجل الذى كان غرة فى جبين الدهر والذى أنشأ من العدم دولة كادت لولا الظروف المعاكسة أن تسير فى طليعة الدول الأخرى وأن تتبوأ المركز اللائق بها تحت قرص الشمس.



الشيخ محمدعبدالوهاب
مؤسس المذهب الوهابى

أنجع وسيلة للحصول على ما يشاء من الآستانة هى فى التظاهر بالقوة من جهة وبحاجة تركيا اليه فى الوقت نفسه من الجهة الأخرى . ولما كانت أمام زميله فى الاصلاح الا وهو الخليفة السلطان محمود مصاعب تربو على مصاعبه فانه كان لا يفترعن المطالبة بكل مايستطيع أن تقدمه اليه مصر من المساعدة المالية أو الحربية . وكان محمد على بصفته من أكبر أنصار الجامعة الاسلامية لا يضن بتقديم هذه المساعدة طالما كان فى امكانه التوفيق بينها وبين مصالحه الخاصة .

وقد كانت أول حرب أجنبية خاض بالجيش المصرى غمارها هى الحرب العربية : فان الأعراب قد صاروا خطراً يخشى منه على الامبراطورية العثمانية ومصر . لان العودة الى التمسك بمبادىء الدين الاسلامى الصحيحة واقتفاء أثر السلف الصالح بما كان يبشر به محمد بن عبد الوهاب (١٦٩٥ — ١٧٩١) قد أدى الى جمع شمل العشائر فى بلاد العرب ووحدها تحت زعامة أسرة ابن السعود [1] وفعلا وصلت هذه الحركة الى أوجها فى عهد

(١) لعبت الحرب الوهابية دوراً مهما فى العلاقات بين مصر وسلاطين نجد مما لايزال أثره موجودا إلى اليوم ، ولما كان المذهب الوهابى لايعرفه إلا القليلون خارج الجزيرة العربية فقد رأينا أن نلق عليه ضوءا بسيطاً لتتسنى معرفة نشأة هذا المذهب وكيفية انتشاره .

ولسنا نرجم بالغيب فيما نكتبه هنا . فلقد وقع اختيار حكومة جلالة ابن السعود على معرب هذا الكتاب فى ربيع سنة ١٩٢٩ لمرافقة مستشار جلالته (الشيخ حافظ وهبه) كسرتير له فى إبان انعقاد مؤتمر البريد الدولى فى لندن . ثم انتهزت الحكومة الحجازية الفرصة وعهدت إلى مستشارها المذ كور باجراء مفاوضات مع الحكومة البريطانية=

ابن السعود الثانى وهو الذى استولى على الاماكن المقدسة وصار يهدد بغداد ودمشق. وما حانت سنة ١٨٠٦ حتى كانت شبه جزيرة العرب قد اعتنقت المذهب الوهابى وأوصدت أبوابها فى وجوه المسلمين الآخرين

= لانشاء مفوضية حجازية فى العاصمة الانجليزية. ولما كان حضرة المستشار يجهل اللغة الانجليزية فقد كان من الطبيعى أن أقوم أنا بدور المترجم حينما دارت المحادثات بين حضرته وبين فخامة المستر هندرسن وكبار رجال وزارة الخارجية خاصا بهذا الموضوع.

ولما كان حضرة الشيخ حافظ قد لحظ أن الجمهور فى انجلترا لا يعرف عن الحركة الوهابية إلا القليل المشوه فقد رأى أن ينوره بالقاء خطبة فى الموضوع عهد الى بوضعها باللغة الانجليزية والقائها فى يوم ٥ يولية سنة ١٩٢٩ بدار الجمعية الآسيوية فى لندن حيث كان الاجتماع برآسة لورد اللنبى. وقد حضره جمهرة من أعلام الرأى وكبار المستشرقين الانجليز الذين تقاطروا على الدار لسماع كلمة رسمية عن هذا المذهب الذى كانوا يعدونه غريبا وغير مألوف.

ولهذا رأينا أن نقتطف هنا ما ورد عن التعاليم الوهابية ونشأة صاحبها فى الخطبة المذكورة التى ألقيناها فى دار الجمعية الآسيوية فى لندن لأنها تعبر عن وجهة النظر الرسمية.

ظهور زعيم الوهابيين

ففى سنة ١٧٠٣ م ولد محمد بن عبد الوهاب فى جهة العيينة فى شمالى مدينة الرياض عاصمة نجد. فتلقى العلوم الابتدائية على أبيه وكان شيخاً فقيها فتمذهب بالمذهب الحنبلى ثم سافر فيما بعد لاتمام دروسه فى جهات الحسا والحجاز والبصرة. ومن ثم أصبح الشاب محمد حجة فى الحديث وعلم الأصول واللغة كما اشتهر بالصلاح والتقوى والتقشف والمحافظة على قواعد الدين الأصلية البسيطة فى النفور من البدع وشن الغارة عليها. ثم عكف على دراسة كتب ابن تيمية وتلاميذه وأخصهم ابن القيم وابن كثير وراقته إلى أبعد حد لأنها تدعوا إلى البساطة الاسلامية.

وكانت بلاد نجد عند ما غادرها محمد بن عبد الوهاب مسرحاً للخلافات الطائفية والحروب الأهلية هذا فضلا عن تفشى الخرافات الدينية. فلما عاد إليها بعد أسفاره الآنفة الذكر وألقى عصا تسياره فى بلدته العيينة وألفى بلاده على حالتها هذه شمر عن ساعده واعتزم أن يطهرها من أرجاسها وأن يعيدها إلى البساطة الاسلامية والدين الصحيح الخالى من الخزعبلات والبدع.

حتى الحجاج . ومن الجهة الاخرى فان قرصان الوهابيين سدوا منافذ البحر الاحمر وانتشروا يعيثون فى المحيط الهندى فسادا . وهكذا أصبح فى وسع الوهابيين أن يخزوا بالابر بهذه الأعمال امراطوريتين اثنتين

= وكان ينشر دعايته بالطرق السلمية واتصل بكبار الفقهاء والمسلمين فى البلاد الاسلامية الأخرى وما برح يبثهم شكواه مما نزل بالاسلام وأحاط به من الخرافات التى ليست منه فى شىء ويناشدهم أن يهبوا هبة قوية لتطهيره والعودة به إلى سيرته الأولى .

وكان محمد بن عبد الوهاب لا ينفك عن المطالبة بتطبيق أحكام القصاص الواردة فى القرآن الشريف ومنها الحكم بالرجم على امرأة عاهرة جاءته تلتمس التوبة فصدها عدة مرات — نقول لما كان هذا كذلك كان طبيعيا أن تغضب تعاليمه أمراء العرب الذين بدأوا يتوجسون خوفا منها . فبعث أمير الحسا إلى شيخ العينة ينذره بمهاجمة المدينة إن لم يطرد منها الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

وما كاد نبأ هذا الطرد أن يتصل ببعض أتباعه ومريديه فى جهة الدرعية وأميرها محمد بن السعود حتى استأذنوه فى استقدام الشيخ محمد فأذن لهم . فلما قابله أحسن وفادته وبالغ فى إكرامه . وسرعان ما تعاقد معه على العمل سويا لتطهير الجزيرة العربية من الخرافات والبدع ونشر التعاليم الدينية الصحيحة بين أهل البدو والحضر ووعد بمساعدته ضد كل من يحاول الوقوف فى وجه هذه الدعاية . ولأول مرة شعر الزعيم الوهابى بأن الله قد شد عضده وأن النصر سوف يؤاتيه حقاً .

التعاليم الوهابية

أما أساس مذهب محمد بن عبد الوهاب فهو أن الله وحده هو كل شىء ولا يجوز التوسل إليه بسواه . وتتلخص تعاليمه فيما يأتى :

(١) الصلوات الخمس (٢) وصوم رمضان (٣) وتحريم المسكرات (٤) وتحريم الزنا (٥) وتحريم الخمر والميسر (٦) والزكاة (٧) ومنع شهادة الزور والتشدد فى معاقبة فاعلها (٨) وتحريم الربا (٩) والحج (١٠) ومنع التدخين (١١) ومنع الرجال من الزينة ولبس الحرير لأنه من أدوات النساء . (١٢) وهدم المزارات والقباب على أضرحة الأولياء لأنه يعتبر من الوثنية ويشغل الناس عن التوجه لوجه الله تعالى (١٣) وفتح باب الاجتهاد أمام كل من يستطيع الاستنباط من أحكام القرآن (١٤) والا اعتماد لانسان إلا على مايقدم من الأعمال الصالحة .

فى موضعين من المواضع الحساسة. أما الامبراطورية التركية فانهم وخزوها فى سلطتها الدينية كما انهم وخزوا الامبراطورية البريطانية فى قوتها البحرية.
وهـذا ما حمل الانجليز على مد أيديهم الى محمـد على يدعونه الى عقد محالفة بحرية ضدهم. ولـكن حذره من الانجليز كان أشد ممـا ينبغى كما يؤخذ من جوابه على اقتراح المستر بورخاردت مندوب جمعية افريقيا

═ ولبث محمد بن عبد الوهاب ينشر الدعاية بالحـكمة والموعظة الحسنة بينما كان محمد ابن السعود يبسط نفوذه على نجد وغيرها بالحسام. وأخيرا تزوج ابن السعود بابنة محمد ابن عبد الوهاب فزادت الروابط بينهما توثقاً ثم استولدها ابنه عبد العزيز الذى خلف أباه محمد بن السعود عند وفاته فى سنة ١٧٦٥

وقد إستمرت الحروب الدينية بين القبائل العربية بسبب الدعاية الوهابية زهاء ستين عاما ازداد فى خلالها أنصار ابن عبد الوهاب وأصبحوا جنداً عديدين حمل بهم على أطراف جزيرة العرب.

وفى سنة ١٧٩١ توفى محمد بن عبد الوهاب وقام أولاده بعده بمهمة أبيهم معتمدين على مساعدة ابن السعود. أما عبد العزيز بن السعود فقد كان عظيم الشجاعة شديد البطش وقد قتل غدراً فى أثناء الصلاة بيد أحد الفرس فى سنة ١٨٠٣ فخلفه ابنه سعود وكان قد تعود الـكر والفر فى حداثة سنه حتى أنه قاد الجحافل وهو فى السنة الثانية عشرة من العمر. وانتشرت سطوة الأمير سعود وخشيت منه تركيا على أملاكها فى الشام والعراق فأرسلت اليه حملة بقيادة سليمان باشا فشتتها. ثم حمل فى ٢٠٠٠٠ رجل على كربلاء وفيها قبور أئمة الشيعة وصاح برجاله « اقتلوا هؤلاء الـكفار الذين يشركون بالله » فلبى رجاله أوامره وهدموا القبور والأضرحة.

وفى ٢٧ ابريل سنة ١٨٠٣ استولى الأمير سعود على مكة ودخل الـكعبة وأبطل التدخين وكف الناس عن تعاطى المسكرات وعكفوا على الصلوات وبعث كتابا إلى السلطان العثمانى يطلب فيه عـدم إرسال المحمل المصرى إلى الحجاز مصحوبا بالطبول والزمور.

وفى هذه السنة نفسها دخل الأمير سعود المدينة المنورة وأخذ فى نشر سيادته على بلاد العرب حتى بلغت حدود مملـكته فى سنة ١٨٠٩ شمالا صحراء سوريا وجنوبا بحر العرب وشرقا الخليج الفارسى وغربا البحر الأحمر.

البريطانية فى هذا الصدد . فقد أجاب بهذه العبارة التى كانت تعتبر بمثابة نبوءة تستوقف الانظار وهى قوله « ان السمك الكبير يبتلع السمك الصغير ولسوف تستولى انجلترا يوما ما على مصر كحصتها فى تركة الامبراطورية العثمانية ». فهو كما يلوح لم يشأ استعجال حلول ذلك اليوم.

على أن محمداً علياً لم يتوان فى تلبية نداء السلطان كلما ناشده المساعدة . بل انه أرسل كافة رجاله الالبان المزعجين ليستعيدوا الاماكن المقدسة .



محمد على ينذر مندوبى الوهابيين قائلا « سأرسل لكم ولدى ابراهيم ليأتى بزعمائكم أحياء أو أمواتاً »

= فهنا وبعد أن استفحل الخطر الوهابى السعودى وبلغ إلى هذا الحد رأى السلطان محمود الثانى أن يستعين بمحمد على والى مصر على صد هذا الخطر فلبى الأمر وبدأ بتنفيذه بعد أن خلا باله بذبح المماليك على نحو ما مر بك .

استعدادات محمد على لصد الوهابيين

فشرع محمدعلى يعدحملة بقيادة ابنهاحمدطوسون باشا وكتب فى الوقت نفسه الى غالب شريف مكة يخبره بأنه سيرسل من ينقذه من الوهابيين فأجابه هذا بالشكر ووعده بتقديم المساعدة .

وفيما هم يعملون على استعادتها وقعوا فى كمين نصب لهم ففقدوا ثلثى قواتهم.ولا ريب فى أن محمداً علياً بتملصه من مواطنيه الثقلاء قد خلص أيضا مصر من بقايا هؤلاء المرتزقين المزعجين . وهناك اطمأن بالله

= وعلم الأمير سعود بنوايا محمد على فأعد ١٥٠٠٠ جندى لصد المصريين وكانوا قد أبحروا من السويس ونزلوا إلى ينبع فاستولوا عليها وغادروها إلى معسكر الوهابيين فى صفر.والتحم الجيشان وأسفرت النتيجة عن فوز الوهابيين فى بداية الأمر حتى إذا وصل مدد جديد لطوسون باشا من مصر زحف على المدينة المنورة وهدم أسوارها وأرغم حاميتها الوهابية على التسليم مما كان له أكبر صدى فى سائر انحاء الحجاز .

ثم زحف طوسون على مكة فأجلى الوهابيين عنها وأرسل إلى أبيه بقائد حامية المدينة فبعث به مخفورا إلى الاستانة فقتلوه فوراً .

ولما حل الصيف استعاد الوهابيون بعض ماخسروه ورأى محمد على أن الأمر يتطلب ذهابه بنفسه إلى ساحة القتال فسار بجند عظيم إلى جدة فوصلها فى ٢٨ أغسطس سنة ١٨١٣

وفى ١٧ ابريل سنة ١٨١٤ توفى الأمير سعود زعيم الوهابيين فى درعية وحل محله ابنه عبد الله ولم يكن فى كفاية أبيه فانحلت عزائم القوم حتى إذا نشبت المعركة الكبرى بينهم وبين جنود محمد على فى ١٠ يناير سنة ١٨١٥ وكان فيصل أخو الأمير عبد الله يقود القوة الوهابية ، دارت فيها الدائرة على الآخرين وتقدم طوسون إلى نجد ولكن نفاذ المؤن أضطره إلى وقف الزحف .

واقتضت الظروف عودة محمد على إلى القاهرة قبل إتمام مهمته فى الحجاز . فوصل العاصمة فى ٤ رجب سنة ١٢٣٠ هـ وشرع فى تدريب الجند على النظم الاوربية وأخصها النظام الفرنسى .

وعاد فى هذه الأثناء طوسون باشا فوجد أن قرينته وضعت ولداً اسمه عباس ثم أصيب طوسون بالحمى وفارق بعدها الحياة عاجلا .

ثم استأنف محمد على اهتمامه بمسألة الوهابيين وكتب إلى عبد الله بن مسعود يكلفه باحضار الأموال التى أخذت من الكعبة وأن يتأهب للذهاب إلى الاستانة . ولكن عبد الله اعتذر عن الحضور وقال « ان الأموال تفرقت فى عهد أبيه » وأرسل الهدايا إلى محمد على ولكن هذا رفض قبولها وأوسع الوفد تهديداً وأنذرهم بأنه مرسل اليهم ابنه ابراهيم فى حملة قوية ليأتى بزعمائهم أحياء اوأمواتاً .

وأمكنه أن يرسل جنوده المصريين النظاميين الى بلاد العرب حيث استعادوا مكة وفتحوا طريق الحج (١٨١٢) ويجدر بنا أن نذكر فى هـذا المقام انه كان يوجد بين الحكام الموالين لمحمد على رجل يدعى « ليث » وهو اسكتلندى ممن أخذوا أسرى فى حملة فريزر . وقد اعتنق ليث الاسلام وظل يعمل بجد الى أن وصل الى مقدمة الصفوف بمحض كده واجتهاده . على أن ابن السعود التجأ الى حرب العصابات



ابراهيم باشا يستقبل فى خيمته الأمير عبد الله أمير الوهابيين

= وفى ١٠ شوال سنة ١٢٣١ هـ سار ابراهيم بطريق النيل إلى قنا ومنها فى الصحراء الى الاقصر ثم إلى ينبع فالمدينة ولبث يترقب وصول أوامر أبيه وقد انضمت اليه القبائل الموالية. ولما التقى الجيشان كانت لابراهيم الغلبة فقبض على الزعيم الوهابى الأمير عبدالله وأرسله إلى أبيه محمد على فوصل القاهرة فى ١٨ محرم سنة ١٢٣٣ وفى ٢٠ محرم أرسله الى الاستانة حيث حكموا عليه بالاعدام .

وكافأ السلطان ابراهيم باشا بأن سماه والياً على مكة. فلما اتصلت هذه الأنباء بدرعية دب الرعب فى قلوب أهلها فهدموا المدينة وتركوها قاعاً صفصفاً فاحتلتها الجنود المصرية وبذا انتهت الحرب الوهابية .

وكان النجاح حليفه فيها الى حد أن محمدا عليا اضطر الى تولى القيادة بنفسه وهى غلطة كادت أن تكلفه ثمنا باهظا ولذا لم يكررها وجلية الخبر ان الاتراك انتهزوا فرصة تغيبه وبسطوا سلطانهم على القاهرة وبيتوا مؤامرة لاغتياله مما جعله يعجل بالعودة الى مصر حيث وطد سلطته بالوسائل المألوفة تاركا لابراهيم القيادة فى بلاد العرب. وبعد أن توفى ابن السعود الكبير قمع ابراهيم الحركة الوهابية بقسوة صارخة وأسر زعيمهم عبد الله بن السعود وأرسله الى النطع فى الاستانة (١٨١٦)

والآن وقد خلا بال محمد على فيما يتعلق بحدوده الشرقية فانه شرع يولى اهتمامه شطر الحدود الجنوبية[1]. فان المناطق الواقعة فى أفريقيا

---

(١) سردنا عليك بعض ما اقتبسناه عن أعمال محمد على وهى لتعددها وكثرة نواحيها جديرة بأن يفرد لها الانسان مجلدا بأكمله لا أن يحشرها حشرا فى هامش كتاب كالذى نقوم بتعريبه هنا. ولكن همنا الأول — كما قلنا فى بداية هذا الكتاب — هو أن نسد بعض الثغرات التى تركها المستر يانج وأن نفصل بعض ما أجمله مما يهم المصريين الاطلاع عليه. ولم نشأ سرد معلوماتنا شخصيا بل توخينا الاقتباس عن المصادر الأخرى لأنها أبلغ فى الاعتراف بعظم مزايا هذا المصلح الكبير.

وننتقل بك الآن إلى صفحة مجيدة أخرى فيها عظة لنا وهى الخاصة بفتح السودان. وقد لخصناها عن كتاب «تاريخ مصر الحديث»

فتح السودان

سبق أن مر بك أن محمدا عليا أوفد الكولونيل سيف (أى سليمان باشا) عند هبوطه أرض مصر إلى السودان بقصد اكتشاف بعض المناجم وأن الكولنيل سيف عاد بخفى حنين. ونقول لك الآن أن منشئ مصر الحديثة كان كثير الاهتمام بمسألة المعادن الثمينة التى سمع انها مكنوزة فى المناجم الواقعة فى غرب النيل الأزرق ولذلك فكر فى فتح السودان على أمل الحصول على تلك الكنوز هذا عدا ما يمكن أن يضع عليه يده من ضروب السلع التجارية القيمة والحاصلات الغريبة كالصمغ والريش والعاج والرقيق وهلم جرا. فحشد ما يبلغ ٥٠٠٠ من الجند النظامى وضم إليهم بعض البدو=

الوسطى ، تلك المناطق التى كان يجرى فيها الى مصر مع مجرى مياه النيل سيل لاينقطع من الرقيق والعاج والذهب قد اجتذبت مطامع المغامرين.



قبائل الزنوج عند خط الاستواء

وكان مهاجرو المماليك وهم الذين وطدوا أنفسهم فى السودان قد وقفوا

=وزود الجيش بنحو ثمانية مدافع وسيرهذه الحملة بقيادة اسماعيل باشا أحد أولاده .

وفى يونية سنة ١٨٢٠ أقلعت الحملة فى النيل فاجتازت الشلالات الستة إلى أن وصلت شندى والمتمة . وقد أخضعت بسهولة كل مامرت به من القرى والدساكر . ومن شندى قصدت إلى سنار على النيل الأزرق وراء الخرطوم . ولعل قبيلة الشايقية هى الوحيدة التى أبدت المقاومة ولكنها سرعان ماألقت سلاحها وواصل المصريون زحفهم إلى أن استولوا على سنار وكوردفان . ومن ثم سار اسماعيل باشا إلى جهة « فزغل » حيث ظن انه عثر على مناجم الذهب .

وفتك الوباء فى رجال الحملة ولكن وصلته نجدة تبلغ ٣٠٠٠ جندى بقيادة صهره احمد بك الدفتردار فأقامه على كوردفان وقصد هو إلى المتمة فى الشاطىء الغربى ثم عبر النيل الى شندى فى البر الشرقى لجباية المال وجمع الرجال. فاستدعى ملكها واسمه « نمر » وقال له « أريد منك أن تأتى إلى قبل خمسة أيام بمل‌ء قاربى هذا من الذهب وألفين من العساكر » فحاول الرجل أن يستعطف اسماعيل ويحمله على التنازل عن شىء من هذا=

انحدار هذا السيل الرابع فتقرر ارسال حملة مصرية صغيرة بقيادة اسماعيل الى أعالى النيل لاعادة انحدار هذا السيل تمهيدا لاستخراج موارد ذلك القطر الخرافية . ولكن شبح المدن الذهبية جعل يتوارى ويتقهقر أمام تلك الحملة الى أن اضطرتها المستنقعات المهلكة مع ماتجمع حولها من جموع المتوحشين فى المناطق الاستوائية الى أن تعود أدراجها (١٨١٢) وبينما كان اسماعيل منهمكا فى توطيد الادارة المصرية فى شرقى السودان احتلت قوة أخرى السودان الغربى بعد قتال عنيف بالقرب من كردفان وكان ذلك مؤذنا باندلاع الثورة فى كل مكان حتى أن أحداها جعلت تتلو الاخرى بسرعة مدهشة مما كانت نتيجته أن اسماعيل نفسه ألقى فى النار حيا هو وأركان حربه فى احدى هذه الثورات بالقرب من شندى

= القدر. وأخيراً تم الاتفاق على قبول عوض عن الذهب وهو مبلغ ٢٠٠٠٠ ريال من الفضة فأجاب نمر الطلب ولكن لم تسعده الظروف بجمع القيمة فى المدة المحدودة فجاء يطلب مد أجلها . فضربه اسماعيل بالشبق (الغليون) على وجهه قائلا : « ان كنت لاتدفع المال فورا فليس لك غير الخازوق جزاء »

فتقبل الملك نمر هذه اللطمة بالصمت ولكنه أضمر لاسماعيل الشر وصمم على الانتقام منه فتظاهر بتطييب خاطر اسماعيل ووعده باتمام مايريد.

وفى تلك الليلة نفسها جاء نمر إلى اسماعيل وقبل يده والتمس منه تشريف وليمة أعدها اكراما له فلبى اسماعيل الدعوة وذهب فى نفر من أصدقائه قاصدا القصر الذى أعده نمر لنفسه وكان مصنوعا من القش وليس به سوى منفذ واحد . وقد جمع وراء هذا القصر كثيرا من القش وسيقان الذرة لعلف خيول الباشا أثناء الزيارة . ولما استقر الباشا ورجاله فى المكان اجتمع الرجال والنساء حوله ينفخون الارغول ويرقصون رقصا سودانيا خاصا . فطرب اسماعيل وضباطه لهذا الغناء والرقص وغفلوا عن تقلبات الزمان . ثم أخذ عدد المتفرجين من الاهالى يزداد شيئاً فشيئاً الى أن خرجت المدينة كلها واغتنم نمر فرصة هذه الجلبة لاشعال القش والكوخ فى عدة مواضع بينما كان أعوانه يجمعون المواد القابلة للالتهاب وإلقائها حول الأتون . فلما التهمت النار سقف المكان المعد لتناول الطعام ظهر الباشا وأصحابه وبيدهم السلاح ولكن المجرمين جعلوا =

فكان عقاب ذلك اجتياح السودان بنفس القسوة التى اجتيحت بها بلاد العرب من قبل . وهنا لك توطدت أقدام مصر فى ربوعه بصفة دائمة . ومن ثم أنشئت عواصم جديدة فى الخرطوم وفى كسلا وافتتحت طرق تجارية جديدة فيما بين سواكن ومصوع على البحر الاحمر . وفى أثناء زيارة محمد على للخرطوم (١٨٣٨) أعلنت مصر - بتأثير الانجليز - ان النخاسة غير مشروعة ولكنها بالرغم من ذلك ظلت تجارة السودان الاساسية . وفى سنة ١٨٤٢ وصلت الجنود المصرية الى جوندوكورو . وهكذا ترامت حدود مصر حتى انتظمت مناطق لا تربطها بها أية رابطة جنسية ولا أرضية حقيقية ، أو بعبارة أخرى أن مصر صارت فى الواقع امبراطورية قبل أن تكون أمة .

ولم تكن غاية محمد على تختلف عن الغاية التى جعلها نابليون مطمح سياسته . فقد أراد كلاهما اتخاذ مصر مطية للوصول عن طريقها الى الامبراطورية العثمانية . لهذا تملك حب التوسع نحو الشمال كل حواسه . وقد كانت ثمت طريقان الى الاستانة . الا وهى الطريق البحرية بواسطة « بحر ايجه » والاخرى الطريق البرية بواسطة الاناضول . وهذا ما جعله يلبى من فوره نداء السلطان محمود بطلب المساعدة ضد اليونانيين وهم الذين أرادوا الوصول الى الاستقلال باثارة الفتن . ولقد كان فى الجنود المصريين والاسطول المصرى الكفاية للقيام بما تقتضيه الاعمال الحربية والبحرية

= يرشقونهم بالسهام ويردونهم داخل الأتون إلى أن ماتوا محترقين . كل هذا ونمر يضحك ضحك التشفى والانتقام .

واتصل نبأ هذه الفاجعة باحمد بك الدفتردار فاشتعل غيظا وأقسم لينتقمن من الفاعلين بقتل ٢٠٠٠٠ شخص من العدو بعد التفنن فى تعذيبهم . وزحف بجيشه الصغير ولبث فى المدينة حتى بر بقسمه . ثم هدأت الحالة وبذا تم فتح السودان وظل احمد بك الدفتردار على حكومة سنار وكوردفان لغاية سنة ١٨٢٤ حيث ابدل برستم بك .

المشتركة لكبح جماح اليونانيين أكثر من الاسطول والجيش العثمانيين اللذين لم ينظما بعد تنظيما تامافضلا عن عدم إمكان الاعتمادعليهما . وهكذا تم إخضاع كريد بلا كبير عناء (١٨٢٣) ولئن كانت محاولة ابراهيم الاولى لغزو شبه جزيرة المورة قد فشلت (١٨٢٤) الا أن محاولته الثانية (١٨٢٥) قد قصمت ظهر الفتنة . يضاف الى هذا أنه جهزت حملة جديدة فى السنة التالية لقطع دابر الفتنة نهائياً ومطاردة مثيريها الى آخر معقل لهم فى ميسولونجى التى سلمت بعد حصار طويل . وما كادت الحامية تشق طريقها الى الخارج حتى وقعت مذبحة عامة ضد أهالى المدينة وكان يلوح فى بدء الامر أن كل شىء انتهى على مايرام . ولكن أهالى المورة أثاروا فتنة جديدة فى مؤخرة ابراهيم بعد أن دب الشقاق بين المصريين وبين الاتراك الذين كان يقودهم خسرو باشا عدو محمد على القديم .
وهنا بدأ الاسطول البريطانى يعرب عن سخط الطبقة الاستقراطية التى لم تكن تناست اليونان بفضل ماكان اورد بيرون ينفخه فيها من روح التذمر والاستياء من أجل هذا فان ابراهيم عندمابدأ يطبق على اليونانيين سياسة الفناء التى أدت فى الماضى الى إخضاع بلاد العرب والسودان رأى نفسه وجهاً لوجه ازاء شعور لاتنقصه المعدات لجعل أثره محسوساً .
ومن جهة أخرى فان شعور بريطانيا الذى تهيج قليلا ابان تطبيق سياسة الفناء ضد اليونانيين قد انقلب غضباً عنيفاً عند ما بدأ ابراهيم ينفيهم الى مصر ويعاملهم معاملة الارقاء . ولكيما يوقف الانجليز هذه النخاسة دبروا مظاهرة بحرية من أساطيل الحلفاء فى نافار كانت نتيجتها تحطيم الاسطولين المصرى والتركى (٢٠ اكتوبر سنة ١٨٢٧) . وهى كارثة لم تخل من فائدة لمحمد على ما كان ليحس بها فى بدء الأمر . ثم ما عتم أن أيقن فيمابعد أن الأسطول التركى لم يرسل إلى نافار إلا وهو يحمل تعليمات معينة

بابعاد جيش ابراهيم إلى الاستانة . والآن وقد تخلص ابراهيم من الأتراك فانه راح يكتسح اليونان ويعامل أهلها كالأرقاء عند نفيهم إلى مصر دون



السفن المصرية التى اشتركت فى معركة نافار

أى اكتراث بما أرسله إليه كادرنجتون الأميرال الانجليزى من الانذارات الشديدة وقد تذمر ابراهيم من كادرنجتون فقال لمترجمه الفرنسى « تالله إنى لم أشهد طيلة حياتى مثل هذا الفظ ولا سمعت كهذه النغمة التى يخاطبنى بها » وهذه على التحقيق أول مرة وإن لم تكن الأخيرة التى اصطدم فيها المزاج البريطانى بالمزاج المصرى. وسرعان ما وقع ما كان فى الحسبان. فان كادرنجتون رابط بأسطوله أمام الاسكندرية وأرسل إنذاراً نهائياً هدد فيه باطلاق النار عليها . وفى الوقت نفسه نزلت حملة فرنسية فى شبه جزيرة المورة (سبتمبر سنة ١٨٢٨) وهنا اضطرت الجيوش المصرية إلى الجلاء عن المورة بناء على اتفاق وضع بين الانجليز وبين محمد على. وكان هذا الاتفاق

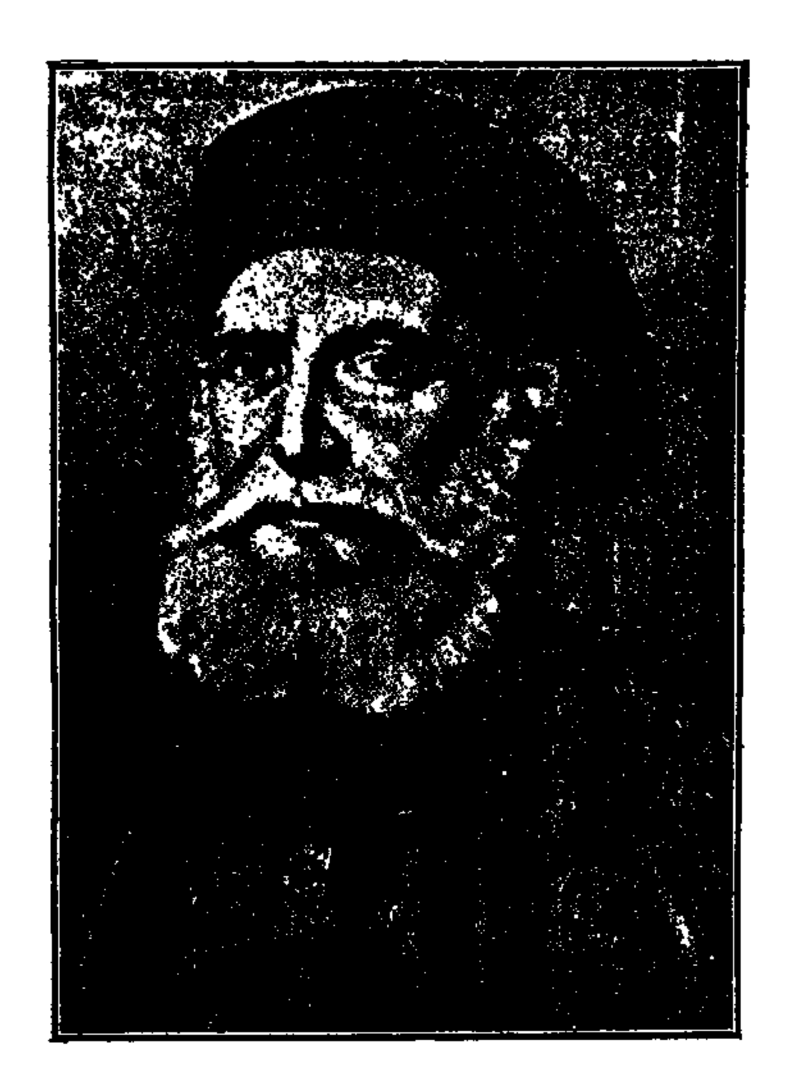
أول اعتراف رسمى بمركز محمد على . وهكذا جاءت نتيجة الثورة المصرية شبيهة من بعض الوجوه بنتيجة الثورة الفرنسية. فأن كلتا الثورتين أدت إلى اتحاد الدول العظمى ضدها أو وضع حد لتوسعها الاستعمارى [1]

ثم اشتد الكفاح بين محمد على والسلطان محمود عشر سنوات كاملة تمكنت فى خلالها الجيوش المصرية من اكتساح الامبراطورية العثمانية وكادت بانتصاراتها المتوالية أن تزعزع أركان السلم الأوربى . ذلك لأن السلطان وضع نصب عينيه التخلص من هذا الوالى العنيد بينما أن خسرو الصدر الأعظم كان يتعطش للانتقام لنفسه مما أصيب به من الفشل بابعاده عن مصر . من أجل ذلك انتهز الاثنان فرصة تغيب محمد على فى مكة حيث قصد إليها فى مهمة كلفه السلطان قضاءها فأرسلا إلى القاهرة والياً آخر يدعى لطيف بك لتدبير مؤامرة لاغتيال محمد على . وصدرت فى الوقت نفسه أوامر بتعيين ابراهيم أميراً لمكة أو بعبارة أخرى صار رئيساً لأبيه وهى تصرفات أدت إلى زيادة الشحناء بين محمد على والسلطان . ثم جاءت مسألة كريد فزادت الطين بلة . فقد كان مقرراً من قبل أن تستولى مصر على سوريا مكافأة لها على ما أسدته للامبراطورية العثمانية من المعونة فى إخماد فتنة اليونان . ولكن استعيض عن سوريا بكريد التى ظلت فى قبضة المصريين من سنة ١٨٣٠ إلى سنة ١٨٤١ على أن محمداً علياً وقد أحفظ صدره هذا التصرف انتهز فرصة هزيمة الباب العالى فى الحرب

---

(١) من المحقق أنه لولا اتحاد الدول ضد مصر وتركيا لما قامت لليونان قائمة فى تلك الحرب التى عاد منها ابراهيم باشا إلى مصر وعلى رأسه أكاليل الغار وقد قدر بعضهم ماتكلفته مصر فى حملة المورة بعشرين مليون فرنك وثلاثين الف مقاتل .

« المعرب »



البطل ابراهيم باشا فاتح سوريا

الروسية التركية فبدأ يغزو سوريا قبل أن يهاجمه أحد [1] وسرعان ماسقطت عكا فى يد ابراهيم (مايو سنة ١٨٣٢) وهى التى دوخت نابليون من قبل وكان لهذا الانتصار صدى كبير وهيبة أكسبت الجيوش المصرية قوة على قوتها وجعلتها تندفع إلى الأمام وتتخطى من فتح إلى آخر عبر سوريا وبلاد الأناضول



الأمير بشير الشهابى

فتح سوريا

(١) يعتبر فتح سوريا وما أتاه ابراهيم باشا فيها من ضروب الاصلاح صفحة ذهبية خالدة فى تاريخ محمد على ولذا رأينا أن نشير اليها هنا بايجاز .

لقد رأيت مثلا مما كان يجيش فى صدر محمد على من المطامع الكبيرة وما كانت تحدثه به نفسه من العمل على جعل بلاده مصر دولة مستقلة عظيمة يحسب الغير حسابها . فما كاد أن يدب الخلاف بينه و بين السلطان ويستفحل أمره حتى عقد النية على غزو سوريا تنفيذا لخطة سبق أن دبرها مع الامير بشير الشهابى الكبير أمير لبنان عند مجيئه إلى القاهرة فى سنة ١٨٢١ لالتماس شفاعة محمد على بماله من الحظوة فى أعين جلالة السلطان فى العفو عن عبد الله باشا والى عكا .

وطيب محمد على خاطر بشير وأسكنه فى بنى سويف وأرسل فى طلب العفو المذكور ولبث ينتظر وصول الرد من الاستانة . ولكن سرعان ماانشغل باله بحوادث المورة وتجريدة الحملة السالف ذكرها لتدويخ اليونان .

وفى أبان حرب المورة ورد الرد من الاستانة وفيه قبول شفاعة محمد على وصدور العفو عن عبد الله باشا . فعاد الأمير بشير إلى وطنه مغتبطاً أشد الاغتباط بصداقة محمد على مظهراً استعداده الكلى لرد هذا الجميل بمثله وذلك بمساعدة محمد على على تحقيق مطامعه فى الشام متى حان الوقت الملائم لذلك .



شكل الصالون فى « بيت الدين »

«بيت الدين»وهو قصر الأمير بشير الشهابى الذى نزل فيه ابراهيم باشاعند غزو سوريا

= ولشد ما كان ابتهاج عبد الله باشا بهذا العفو الذى حمله اليه الامير بشير . وكان المألوف فى أمثال هذه المناسبات الخاصة بالصلح أن تطلب الجنود العثمانية نفقات معينة ولكن عبد الله باشا لقلة ذات يده اضطر إلى فرض ضريبة على المقاطعات والتجأ إلى معونة الامير بشير .

على أن عبد الله باشا قابل جميل الأمير بشير بضده ومن ثم أزداد الجفاء بينهما . ولما كان محمد على قد استقر فى روعه أن نجاحة فى وساطة الشفاعة لعبد الله باشاسوف يضم الأخير والأمير بشير إلى جانبه عند قيامه بفتح سوريا فقد أحب أولا أن يستوثق منهما . فابتدأ بالأمير بشير وأرسل طالباً بعض ما يحتاجه من الأخشاب لبناء السفن . فلبى الأمير الطلب ولكن عبد الله باشا منعه . فهال ذلك محمدا علياً وعده مخالفةلأوامر الدولة لأن السفن المراد انشاؤها كانت فى الواقع للحكومة العثمانية.فقرر الاقتصاص منه. ومن ثم جرد ضده فى سنة ١٨٣١ حملة فى البر والبحر بقيادة ولده ابراهيم باشا .

وسارت الحملة البرية بطريق العريش قاصدة فلسطين . وسرعان ما استولت على غزة ويافا بينما كان ابراهيم قد ركب البحر مصحوباً بحاشيته على أن يلتقى بالجيش فى يافا . ومن ثم سار فى طليعة جنوده إلى عكا فبلغها فى ٢١ جمادى الآخرى سنة ١٢٤٧ =



حيفا وخليج عكا

فضرب عليها نطاق الحصار براً وبحراً حتى كان يوم ٢٦ القعدة من السنة نفسها لحمل عليها حملة صادقة انتهت بتسليم المدينة . وكان بين من استسلم عبد الله باشا نفسه فأرسله ابراهيم باشا بناء على طلبه إلى الاسكندرية فوصلها فى ٣ المحرم سنة ١٢٤٨ هـ ودخل على محمد على فاستقبله استقبال الوزراء وعفا عن تقصيره السابق وبالغ فى إكرامه وضيافته. وتخليداً لتاريخ فتح عكا أنشد الشاعر شهاب الدين هذين البيتين وقد نقلناهما مع الأبيات التالية الأخرى عن كتاب « تقويم النيل » لسعادة أمين باشا سامى :

لقد نصر المليك عزيز مصر وبلغه المنى عزاً وملكا

فنادته العلا أن طب وأرخ بمجد العز تفتح ألف عكا

وفى ١٠ المحرم سنة ١٢٤٨ تحرك الجيش قاصداً دمشق فبلغ ضواحيها فى ١٤ منه وما هى إلا ساعات حتى فر والبها على باشا مصحوباً بالشوربجى والموظفين والأعيان عدا ١٥٠٠ فارس و ٥٠٠ من المشاة . ثم حضر إلى المعسكر نفر من الأهالى طالبين الأمن فأمنهم ابراهيم باشا . وعند شروق شمس اليوم التالى قصد إلى دمشق الأمير بشير فى نحو ٥٠٠ من الفرسان والمشاة بينما ذهب اليها ابراهيم باشا فخرج اليه كبار الاعيان ومسحوا وجوههم بتراب أقدامه . وفى المساء دخل المدينة فأنشد بعضهم هذين البيتين

إلى أن بلغت أبواب الاستانة نفسها (فبراير سنة ١٨٣٣) هنالك



ابراهيم باشا داخلا عكا راجلا على رأس جيشه

تدخلت روسيا فى الأمر ورأت أن تحمى العاصمة التركية بجيوشها وأساطيلها .

= تخليداً لتاريخ دخولها :

ولما جل شأن عزيز مصر　　ودان لعزه غرب وشرق
دعته الشام شرفنى وأرخ　　بيمن العز قد ملكت دمشق

وقد أمر محمد على فى يوم ٢٢ المحرم بعمل نيشان مكتوب عليه اسمه باحجار الماس النفيسة وأرسله إلى ابنه تذكاراً وتهنئة بفتح عكا .

وفى ٩ صفر سنة ١٢٤٨ انتقل صارى عسكر ابراهيم باشا فى خمس فرق من الجند قاصداً حمص حيث كان ينتظر الجنود العثمانية بقيادة محمد باشا والى حلب وعثمان باشا وعلى باشا والى دمشق السلف ذكره وغيرهم .

وفى ٨ يولية سنة ١٨٣٢ دارت معركة حامية بين الفريقين قتل فيها من الاتراك ٢٥٠٠ وأسر منهم ٢٠٠٠ بينما خسر جيش ابراهيم ١٦٢ جرحى و١٠٢ قتلى وفر الباشوات نحو حماه تاركين معسكرهم وبداخله ٢١ مدفعاً استولى عليها ابراهيم باشا كما استولى على أوراق مهمة نساها محمد باشا . وسلمت حمص وأنشد شاعرهم هذين البيتين =



صورة تذكارية لدخول ابراهيم باشا عكا أهداها معالى محمود فخرى باشا إلى دار الكتب الملكية.

مخلداً تاريخ الاستيلاء عليها :

ياعزيزاً بمصر لازال يرقى   فى كمال ما أن يشاب بنقص
قر عيناً فالحظ يدعوك أرخ   حزت فى جاه قوة ملك حمص

وما كادت الركبان ان تسير بأنباء هذه الانتصارات حتى وقع الذعر فى قلوب أهل سوريا وأصبحوا يخشون سطوة هذا الفاتح العظيم . وما كاد أن يتحرك جيشه فى ١١ صفر سنة ١٢٤٨ قاصداً حماه حتى استسلمت له المدينة بعد أن تخاذلت أمامه الجيوش العثمانية وعددها يبلغ العشرة الاف مقاتل . ففر منها نحو الف وخمسمائة مقاتل ووقع الباقون فى الاسر وقد أنشد بعضهم مؤرخاً يوم دخول حماه فقال :

عظيم مصر أدام الله سطوته   حاز الممالك من دان ومن قاصى
هذى حماة وهذى حمص أرختا   مجد حوى الشام واستولى على العاصى

وفى ١٤ صفر تحرك الجيش قاصداً المعرة ومنها إلى تل السلطان فى طريقه إلى حلب فوصلها فى يوم ١٨ صفر وخرج إليه الأهلون يستقبلونه بالعز والاجلال معلنين طاعتهم للصارى عسكر وأنشد شاعرهم :

الحظ أقبل بالبشائر والهنا   وصفا الزمان وراقت الصهباء



البوابتان الشهيرتان عند مدخل مقاطعة كليكيا في الاناضول وهما تطلان على سهل جيهان وقد نقرتهما يد الانسان ومنهما عبرت جيوش سميراميس واكزركسيز وداريوس واسكندر الأكبر وهرون الرشيد وجود فرى دي بويون وسليم الاول وابراهيم باشا لغزو الاناضول

ودعا السرور عزيز مصر مؤرخا   ازف الجمال وهذه الشهباء

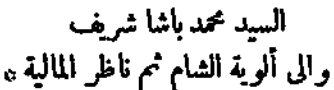
وما كاد أن يستقر المقام بابراهيم باشا حتى أصدر في اليوم التالي ١٥ صفر أمرا بانتخاب أعضاء المجلس الذى أمر بانشائه عقب استيلائه على دمشق وكان مجموع الأعضاء ٢٢ شخصاً. ولكي تعرف مبلغ حب هذا الفاتح العظيم في إقامة موازين العدل ومبلغ سهره على خير الرعية نسرد لك ترجمة الأمر التركي الذى أصدر بهذه المناسبة منقولا عن كتاب «تقويم النيل» قال:

«انه بالنسبة للحديث القائل بأن كل راع مسؤول عن رعيته وجب علينا النظر في أمور الرعية وأحوالها بما فيه الراحة والرفاهية من كل الوجوه التي لايحصل إلا بنشر بساط العدل والاحسان عليهم وفصل الأحكام فيهم بالحق قد استحسنا تشكيل مجلس مخصوص من خواص العقلاء وأصحاب الرأى من الأعيان والأكابر والتجار والوجوه للنظر في القضايا والمشورة فيها. ولذلك قد انتخبناكم من عموم أهل الشام



محمود بك الأرنؤطى ناظر الجهادية
وجد سعادة عزيز باشا عزت *





السيد محمد باشا شريف
والى ألوية الشام ثم ناظر المالية *

ـــ وأذنا كم لسماع الدعاوى وبتحويل الشرعية فيها على الشرع الشريف والفصل فى السياسية برأيكم وبعد المشورة وتداول الاراء بين أرباب المجلس جهراً واتفاق الآراء يحكم بما يتفق عليه ثم تقديم تقرير بما يتقرر لمتسلمنا للتنفيذ . ويكون ذلك بغير ميل ولا غرض نفس ولا شهوة خاطر ولا انحراف لكبير ولا لصديق ولا لوجيه . وكل من أخفى رأيه لعلة أو لعدم نقد كلام من هو أعظم منه من أرباب المجالس فيكون قد خالف أمره وبذلك يكون قد أوقع نفسه تحت الملامة . وقد صدر أمرنا هذا ليكون حجة عليكم فاغتنموا ثواب الرعية وخطة الخدمة الدينية الجليلة والحذر من الخلاف » .

ولما وصلت جيوش ابراهيم باشا إلى عكا واستولت عليها وتجاوبت ارجاء الشام بأنباء هذه الانتصارات الباهرة استولى القلق على الباب العالى وأظلمت الدنيا فى عينيه ورأى أن المسألة بعد أن كانت قاصرة على تأديب عبد الله باشا قد تحولت الى فتح سوريا ومحاولة الزحف على دار الخلافة . فاستقر الرأى على ارسال جيش تركى بقيادة الصارى عسكر حسين باشا لصد ابراهيم باشا. وقد انضم الى الاتراك محمد باشا والى حلب وغيره من البشوات المنهزمين . فتقدموا جميعاً الى مضيق بيلان الشهير وحصنوه أشد تحصين . ولما وصل ابراهيم باشا فى ٢ ربيع الاول إلى هذا المضيق شرع ينظم جيشه ويوزعه بين الربى والآكام . ثم نشبت المعركة حامية بين الفريقين فاسفرت عن هزيمة الأتراك وتركهم سلاحهم ومدافعهم عدا غنيمة كبرى بأيدى المصريين . وقد خرج أهالى بيلان للترحيب بالفاتح المصرى وأنشد بعضهم قائلا :

* هاتان الصورتان أهداهما سمو الأمير عمر طوسون للمعرب



أدهم بك

مدير المهمات *





سريزى بك باشمهندس دار الصناعة

مليك مصر أدام الله صولته　　وزاد دولته حسناً وإحساناً
علياء همته قالت مؤرخة　　مضيق بيلان حين الجهد لى لانا

وبعد هذا النصر الباهر واصل ابراهيم باشا زحفه بلا كبير مقاومة فى آسيا الصغرى فاجتاز جبال طوروس قاصدا الاستانة . وكان قد علم بأن الباب العالى أخذ يعد جيشاً عرمرماً بقيادة رشيد باشا فشرع ابراهيم من ناحيته يجند الجنود ويتأهب لملاقاة خصمه.

وبينما كان هذا يجرى فى سوريا كان ناظر الجهادية محمود بك الارنؤطى وهو جد صاحب السعادة عزيز عزت باشا منهمكا فى مصر باعداد المعدات وتجنيد الجنود وتزويدهم بالسلاح بأمر محمد على باشا لسد النقص فى صفوف القتال .

وفى يوم ١٤ ربيع الثانى صدر أمر محمد على باشا بتعيين قوله لى محمد شريف بك الكتخدا حكمداراً مستقلا لايالة عربستان الملحقة بالحكومة المصرية وذلك بناء على استحسان ابنه ابراهيم باشا .

وفى يوم ١٦ جمادى الاولى عين أدهم بك ناظراً للجهادية والمهمات الحربية وأخذ يهتم أيضاً بتجهيز المدافع اللازمة للحملة المصرية فى سوريا .

وتم وقتئذ صنع خمس سفن حربية بدار الصناعة باسكندرية وبدىء بانشاء خمس سفن أخرى كل ذلك تحت مراقبة سريزى بك الفرنساوى باشمهندس دار الصناعة .

* هذه الصورة أهداها للمعرب سمو الأمير عمر طوسون

فانسحبت الجيوش المصرية ولكن روسيا ما عتمت أن طالبت تركيا بثمن هذه المساعدة وهى معاهدة (هونكاراسكلاسى) التى



صحراء الصفا فى جهة جبل الدروز حيث وقعت المعارك بين ابراهيم باشا والدروز فى جهة اللجة

= وفى يوم ٢٧ رجب سنة ١٢٤٨ أرسلت إلى محمد على باشا انباء بأن ابنه ابراهيم باشا التقى فى اليوم السالف الموافق أول ديسمبر سنة ١٨٣٢ بجيش رشيد باشا وعدده نحو ١٠٠٠٠ مقاتل بالقرب من قونية فشتت شمله وغنم المدافع والاسرى ومنهم سلاح دار الصدر الاعظم وقائد الجيش محمد باشا الكريدلى . ومن ثم أصبح الطريق للاستانة مفتوحاً أمام ابراهيم باشا فاخترق آسيا الصغرى وأصبح يهدد الاستانة .

وهنا بدأ الذعر يدب فى قلوب الدول الأوربية وأقلقها ما أحرزه ابراهيم باشا من الانتصارات الباهرة وخشيت أن يؤدى هذا الفوز إلى انهيار الامبراطورية العثمانية وفتح باب المسألة الشرقية قبل الأوان المناسب . فقررت هذه الدول وفى مقدمتها روسيا التدخل فى النزاع وأوفدت إلى مصر الأمير مورافييف لاقناع محمد على بضرورة وقف الزحف على الاستانة وتهديده فى حالة الامتناع .

وضعت الأمبراطورية العثمانية تحت رعاية روسيا وحمايتها (٨ يولية سنه ١٨٣٣) وقد قنع محمد على بالاستيلاء على سوريا وأدنة بمقتضى معاهدة « كوتاهيا » وبصدور فرمان شاهانى بمنحه الباشوية (٦ مايو سنه ١٨٣٣)

وهكذا أصبح قيام أمبراطورية فى الشرق الأدنى حقيقة واقعة من



جيش محمد على فى لباسه العسكرى

= وقد وفق الأمير فى مهمته وأرسل محمد على إلى ابراهيم بوقف الزحف . وبعد مفاوضات مضنية وضع فى ٢٤ ذى القعدة سنة ١٢٤٨ الموافق ١٤ مايو سنة ١٨٣٣ مايسمونه « وفاق كوتاهيا » وبمقتضاه تكون سوريا قسماً من المملكة المصرية وأن يكون ابراهيم باشا حاكمها وجابيا لخراج أدنة .

ومن ثم رجع ابراهيم إلى سوريا ووجه اهتمامه إلى تدبير شؤونها بالعدل والانصاف وبنى له بادىء بدء قصرا فى انطاكية وأنشأ فيها القشلاقات وعين اسماعيل بك والياً على حلب كما جعل احمد منكلى باشا والياً على أدنة وطرسوس واحتفظ لنفسه بالنظر فى الشؤون والاجراءات العسكرية .

في ٢٥ جمادى الاولى سنة ١٢٤٤ — يوم الثلاث

وقائع مصرية

جواهر حمید خدا نثار ونواهر تصلیه سلطان انبیا ایثار قلندقدنصکره
معلوم اوله که نسخهٔ مطبوعهٔ عالمده منتشرده صنوف مسطور اولان نوع بنی
آدمک العلم غنت واجتماع وائتلاف واختلاطلرندن نشئت ایدن حرکات
وسکنات وبکدیگره احتیاج اقتضاسیله واقع اولان معاشرات
ومعاملاتلرینک معانی وقایع ومبانی موالفهٔ ضمائرلرینه مباه ازنده
قوتونشر اولنه رق مراح وقته واقف وکیفیت حاله عارف اولاری ازهر
جهتنه وعبرته بادی وبهر صورت ایقاظ وتبصره مؤدی رسالت ابدوکی
نورا ورمزلت قلوب اولی الالباب در سیاخطهٔ مصر دخی العصرلک مصالح
زراعت وحراثت وانواع صنایع وحرفت موادندن سوردهٔ ظهور اولان
دقیق ورتق اموری المایه موجب رفاه ورونا اوله جق اسباب ممکنه نک
استحصاله سعی وکوشش وموجب ضرر وکزند اولان کیفیاتدن اجتناب
واحترازه جهد ووروش سرمایهٔ نظام وستنظام عمارت قرا وبلاد ومدار رابطهٔ
آسایش وراحت اهالی وعباد اولدیغندن فکر وتدبیری انتظام عمارت
قرا وبلاده مصروف ورأی رزین رفاهیت وراحت فقرای عباده رض اوله
کلان آصف مرحمت معتاد افندمزک جرنال دیوانک وضع وتاسیسندن
مرادیمعدلت اعتیاد داورانه لری اقالیم مصریه مأمورلری مصرتلریله حسب
المصلحه منافع ومضارده ارقله النان خصوصات واقعه جرنال دیوانه
کلنوب اول دیوانده تتبع وتتبیع قلنوب وفائد حاصل اوله جق صورته
توفیق واقتضا ایدنلره نشر ؟ لنوب هر مصلحتده کورینن منفعت ومضرت
مأمورلرک معلوملری اوله رق موجب نفع اولانی انتخاب ومستلزم ضرر
اولاندن اجتناب اولنمق صورتلری اولوب بو ارادهٔ خیریهٔ خدیوی بوانه
قدر جرنال دیوانده اولدیغی اجرا اولنقده ایسه ده لایقیله نشر واعلان
اولنمیوب مجلس اوریده مذاکره اولنان ودیوان خدیویده رؤیت اولنان
خصوصلر وحجاز وسودان ولایتلرندن وسائر اطراف واکنافدن کلان
اخبار وآثار دخی فله النوب ذکر اولنان وقایع مطبوعه‌یه علاوه قلنمق
مقصود اولان فوائد حسنه‌نک حسن حصولنه بادی ومأمورین عظام
وسائر حکام ذوی الاحترامک موافق مصلحت اولان صنوف امورده
انتباهه مؤدی اوله جغی واضح اولدیغی ضمیر الهام سمیر حضرت داوری‌یه
لایح اولوب طبع وتمثیل ایله نشرینه امر وارادهلری ساغ اولدیغندن
حسنیا بالله الدین طبع ونشرینه مباشرت اولنمش ووقایع مصریه نامیله اسم
وشهرت ویرلمشدر وبالله التوفیق

الحمد لله بارئ الامم والصلاة والسلام على سيد العرب والعجم اما بعد
فان غرر الامور الواقعة من اجتماع جنس بني ادم المندرجين في صحيفة
هذا العالم ومن ائتلافهم وحركاتهم وسكونهم ومعاملاتهم ومعاشراتهم
التي حصلت من احتياج بعضهم بعضا هي نتيجة الانتباه والتبصر والتدبر
والايقان واظهار القدرة العمومية وسبب صار منه يطلعون على كيفية
الحال والزمان وهذا واضح لدى اولي الالباب ومن حيث ان الامور
الدقيقة الحاصلة من مصالح الزراعة والحراثة وباقي انواع الصنائع التي
ماسة مالها تاتي الرنا والتيسير هي اسباب للحصول على الرفاهة وعلى
الاجتناب والاحتراز عما ينتج منه الضرر والاذى خصوصا في مصر
بل هي اساس نظام البلدان وتدبير راحة اهلها فتفكر حضرت افندينا
ولي النعم في ترتيب احوال البلاد وعهدها واعتدال امورها وترتيبها
وفي نظام القرى والبلدان ورفاهية سكانها وراحتهم ووضع ديوان الجرنال
قاصدا من وضعه ان ترد الامور الحادثة الناتج منها النفع والضرر الى
الديوان المذكور وان يتعقب وينتفع به منها ما منه ينتج النفع والافادة حتى
اذا ظهر عند المامورين نوعا النفع والضرر ينتخب ما منه يصدر المنفعة
ويجتنب عنه ما منه يحصل الضرر وهذه الارادة الصالحة الصادرة من حضرة
سعادة ولي النعم وان كانت قد جرت في ديوان الجرنال الى الان الا انها لم تكن
عمومية الى الان فاراد ولي النعم ان الاخبار التي ترد الى الديوان المذكور
تتتبع وينتخب منها ما هو مفيد وتنشر عموما مع بعض الامور التي ترد من
مجلس المذاكرة السامي والامور المنظور بها في ديوان الخديوي والاخبار
التي تاتي من اقطار الحجاز والسودان ومن بعض جهات اخرى وذلك ليكون
كله نتيجة للحصول على الفوائد الحسنة التي هي مقصود ولي النعم وتنبيها
لممارسة المامورين العظام وباقي الحكام الكرام المتقلدين تدبير الامور
والمصالح ومن كون هذا الشيء قد لاح في ضمير الذات السنية ولي النعم صدر
امره الشريف بطبع الامور المذكورة وانتشارها عموما فشرعنا في ذلك وسميت
واشتهرت بالوقائع المصرية وبالله حسن البدء

طبعت هذه الوقائع المصرية بدون خانه البيه بمطبعة صاحب الفتوحات السنية ببولاق مصر المحمية

صورة الصفحة الأولى من العدد الأول من جريدة الوقائع المصرية التي أنشأها ساكن الجنان محمد علي باشا ويرى إلى الجانب الأيمن المقال الافتتاحي باللغة التركية وترجمته باللغة العربية إلى اليسار



بولاق مصر — نمره ١٩

يوم الجمعة — في ١٣ شوال سنة ١٢٤٤

رمضانك اون التنده ترييسته دن برقطعه نمچه سفينه سى كراسته وامتعه
وارنوز بيك فرانسه ايله حوبار بازركان اوزرينه يكرمى الى كونده
ومالطه دن برقطعه انكليزيه سفينه سى برمقدار امتعه حوالهسيله قورتيسى
بازركان اوزرينه طقوز كونده وقورفه دن برقطعه شود سفينه سى بلا حواله
موره اهاليسندن جولوق جوجوقلريله اون نفر مسلمان يولجيلريله
دانتساسى بازركان اوزرينه اون اوچ كونده وترييسته دن برقطعه نمچه
سفينه سى كراسته حوالهسيله ودانتساسى بازركاندن ايكى قطعه
سفينه ديره كى وبش بيك فرانسه ايله تلكى بازركان اوزرينه اون التى كونده
اسكندريه ليماننه كلمشلردر

اقاليمدن اسكندريه يه كوندريله جك غلال واصنافك نقلنه سهولت ايچون
نيل مباركك رشيد ودمياط طرفلرينه منقسم اوله جق محلده كائن شلقان
قريه سى تجارشوسنده نامنده شونه اعمال اولنوب مامورينلر معمولا
كلان تجار بوتن ايجاده اولمه رق غلال واصناف تحميليله شونه
مذكوره يه كوندرلمسى ومحروسه مصردن جيزه يه واريجه ايكى قريه
ارالسى برساعت اعتباريله طقسان التى ساعت اولوب يوز سكز ملقه يه بر صندل
وبهر صندله درت ساعتدايله بر رئيس قمصى واوزر اسيه بر صنعد
قواص تعيين قلنه رق امدنساليفن مرل ويرمول تامشلر نقل
مامورينلريه سوق وتسيير الحى وتايق تعميره محتاج اولوب قدرلى
اولمسان رئيسلره اعانه اولنق اوزره اقاليم قبليه طرفلرنده مقيم قبودانلره
نقدله دن بوق بيك نهايت تقابل وداعت زائدى وسطى اولان ارالدن
ايكى ماماول يوز قنطار وبش قنطار قطران واون قنطار سمار ويكرى
بش قنطار مشاق ويوز عدد كابراجى تقنه سى ويوز عدد طلكن بزى
وبش بيك غروش اعطا وتسليم اولنوب تايق تعميره محتاج اولان رئيسلره
بلا ربح ثمن اصليه سيله سندى الده زيق ايرى قدر اعطا اولنسه لر وقتيله
بولاق شونه سى ناظرينه اسرا قلمسى وموجبنجه اجرتلرنك نصفى
ويا سوردنلى قطع وحسم اولنمسى وبواصول رشيد ودمياط صولرنده دخى
اجرا اولنسه غربلتاجارى وغلال واصنافك سهولتله نقل وتسيارى
خصوصنه بادى اوله جغى محموديه ترعه سى تطهيرنه مامورسابق ترسانه
ازناظرى شاكرافندى حضرتلرى مجلسه عرض ايتمش واقتضاسى المذاكره
نيلك صماسنده تاعقار سرعت سيرايله مرور وعبور ايده جكندن شلقان
تارشوسنده شونه انشاسندن صرف نظر اولنوب سائر ترتيبات بند
اولنمش وشاه طله درت ... كوركلى اون ايكى عدد صندل مطوش بك
حضرتلرى طرفندن انشا اولنوب ... وبلكن وسائر ادواتيله سرعتا
محروسه مصره كوندرلمسى وتايقلرى تعميره محتاج اولان رئيسلره صرف
ايجون اعطاسى لازم كلان ادوات سائره سى ترسانه ازناظرى خليل افندى
طرفندن ليمانات اصليه سيله جلب وبلاربح سند ايله صرف وسندلرى

قد ورد الى الاسكندرية سفينة نمساوية من ترييسته موسوقة بضاعة
وخشبا وفيها ثلاثون الف ريال فرانسا على ذمة الخواجا حوبار وورد ذلك في ستة
وعشرين يوما وورد من مالطة في تسعة ايام سفينة انكليزية موسوقة ببضاعة
على ذمة الخواجا قورتيسي وورد من كرفو في ثلثة عشر يوما سفينة شود
على ذمة الخواجا دانتساسي بغير وسق فيها عشرون رجالا من مسلمي المورة
مع اولادهم وعيالهم وورد سفينة نمساوية من ترييسته في ستة عشر يوما
موسوقة خشبا وقد بلغت معها الى الخواجا دانتساسي صاريين
والى الخواجا تلكي خمسة الاف ريال فرانسا وذلك في اليوم الخامس عشر
من شهر رمضان

لقد عرض الى المجلس العالي شاكرافندي الذي كان سابقا ناظر الترسانة
والان ناظر تصليح ترعة المحمودية عرضا قال فيه انه اذا انشئ شونة عند
مفرق النيل المبارك الى ناحيتي دمياط ورشيد في ناحية قرية شلقان تيسير
نقل الغلال والاصناف من الاقاليم اليها سهلا وترجع المراكب الموسوقة
بالغلال الى الاقاليم غير فارغة بل تنقل منها الغلال والاصناف الى الشونة
المذكورة بكل سهولة وقال ايضا انه قد علم ان القرى الكائنة ما بين مصر
وبرجا بين كل قريتين منها ساعة سفرا وهي جميعها ستة وتسعون ساعة
وانه قد يسهل نقل الغلال والاصناف ويصير بحر النيل بالمراكب بشرط
ان يخصص على كل ثماني ساعات ... صندل يكون فيه رئيس واربعة
ملاحون وقواص يناظر على سير المراكب الواسقة والتي واسقة عند ذهابها
ويجيئها وان يرسل الى القبطانات المعين في الاقاليم القبلية قبل فيضان النيل
مائة قنطار زفت وخمسة قناطير قطران وعشرة قناطير مسامير وخمسة قناطير
مشاق ومائة عدد من الواح ... ومائة توب من قماش الشراع وخمسة الاف
غرش حتى انه اذا احتاج احد الرؤساء الى اصلاح مركبه وكان غير قادر على
ذلك ياخذ من القبطانات المذكورين ما يلزمه اصلاحه وذلك من غير ربح
بل بوجه سند ذلك ويرسل هذا السند الى ناظر شونة بولاق وهناك
يخصم بموجبه ثمن ما اخذ من اجرته وان هذا الترتيب ينبغي ان يكون
في رشيد ودمياط ايضا ثم تذاكر اهل المجلس في هذا وحكموا بانه من حيث
ان المراكب تجري عند فيضان النيل سريعا فلا يلزم بناء الشونة المذكورة
في المحل المذكور بل ينبغي تدبير الامر وهذا يلزمه امر وتنبيه
على مطوش بك كي ينشئ اثنى عشر صندلا بما يحمل احدها ...
مع شراعه وسائر ما يلزمه حتى تاتي الى المحروسة بكل اسراع ورسموا
ايضا انه ما يلزم الرؤساء اخر يعطى لهم من خليل افندي ناظر الترسانات
بثمنه الاصلي من دون ربح ويوخذ منهم سند بذلك ويرسل الى ناظر شونة
بولاق ويخصم من اجرتهم ثمن ما اخذوا ... يلزم ان يوتى
بالاولاد المقتدرين من الاقاليم ليتعلموا هذه الصنعة بحيث يكون عمرهم
من الاثني عشر سنة الى الخمس عشرة وبهذا الطريق يحصل الاهتمام

صورة الصفحة الأولى من العدد التاسع عشر من جريدة الوقائع المصرية بعد
تغيير شكلها وهي محررة باللغتين التركية والعربية



ارتين افندى والد يعقوب باشا ارتين وكيل مدرسة المهندسخانه من مايو الى ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٣٤ وكان محمد على يرجع إليه فى أمور التعليم

الوجهة الأدبية بعد أن تمكنت جيوش الفلاحين من صد مستعمريهم الأتراك فى ثلاث معارك حاسمة وهى معركة حمص، وبيلان وقونية . وكانت الجيوش العثمانية قد اختل نظامها بما أدخله عليها السلطان محمود من الاصلاحات وتسرب إلى قلوبها اليأس من جراء مانزل بها من الهزائم على أيدى الروس وخارت قواها بسبب خيانة خسرو الذى حرم من تولى القيادة العليا. على أن الترحيب الذى استقبل به المصريون من الشعوب المستعبدة فى الامبراطورية العثمانية سرعان ما تلاشى أثره برفع سوريا وفلسطين راية العصيان (١) ولم

قيام الفتن وقمعها

(١) بعد أن وضع اتفاق كوتاهيا على مامر بك عاد ابراهيم باشا إلى سوريا وشرع يدير أمورها بما تقضى به أصول العدالة والانصاف ولكن محبي الاصطياد فى الماء العكر ما لبثوا أن نفخوا فى بوق الثورة فاشتعلت نار الفتن مما حمل ابراهيم باشا على معالجة الأمور بمنتهى الحزم واستعمال الصرامة مع من ثبتت إدانتهم . ولما كانت حوادث العصيان وما تلاها من الأهمية بمكان رأينا أن نقص عليك بعض تفاصيلها .
« المعرب »

فى أواخر سنة ١٢٤٩هـ وأوائل سنة ١٢٥٠ أى حوالى منتصف عام ١٨٣٤ ثارت بعض الفتن فى جهة السلط والكرك وامتدت إلى القدس . ثم سرعان ما امتدت إلى السامرة وجبال نابلس كل ذلك وابراهيم باشا مقيم فى القدس .

وما كادت هذه الأنباء تصل بمحمد على باشا عزيز مصر حتى أصدر أوامره فى أوائل صفر سنة ١٢٥٠ بارسال عدة الايات إلى غزة مزودة بمهماتها ومدافعها . بل أن بعض=


أحد مشايخ الدروز

تقمع فتنة الدروز والموارنة إلا فى سنة ١٨٣٨ ثم لاتنس بعدكل مامربك أن العبء كان فادحا بحيث كانت تنوء به قوة مصر. وأغلب الظن أن شعباً آخر عدا الشعب المصرى ماكان فى مثل هذه الأحوال يتردد فى المناداة بالثورة احتجاجا على

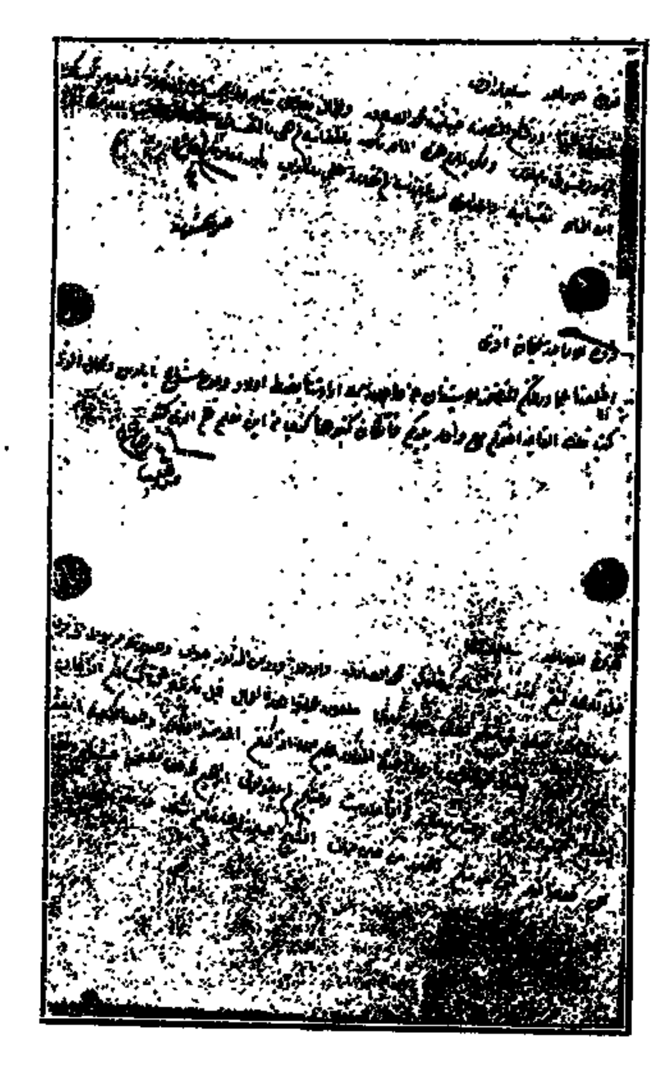
= الآلايات التى كانت قد حشدت لارسالها إلى الحجاز قد صدرت إليها الأوامر بالذهاب إلى الشام. ولم يكتف محمد على بذلك بل جند بعض عربان قبيلتى أولاد على والجميعات وبعث بهم إلى غزة وأمرهم باستعمال الصرامة مع العربان الثائرين.

وفى إبان شهر صفر سنة ١٢٥٠ تمكن ابراهيم باشا من هزيمة أشقياء العربان فى جهات نابلس والقدس. ولكن هذه الهزيمة ساعدت على انتشار الثورة فى كافة أنحاء سوريا مما حدا بمحمد على إلى السفر من الاسكندرية فى أواخر الشهر المذكور قاصداً إلى يافا حيث جعل وجهاء البلاد يتقربون منه. وقد اجتمع محمد على بولده ابراهيم وتباحثا فيما ينبغى اتخاذه من الاجراءات لقصم ظهر الفتنة التى كانت ماتزال مستعرة وبخاصة فى جهتى نابلس والقدس.

وأخيرا أدت أعمال ابراهيم إلى التغلب على الثوار وقمع الفتنة لا فى جهة صفد وحدها بل وفى القدس ونابلس أيضا. ثم توجهت الجنود المصرية إلى السلط والكرك فهدموها.

على أن الفتنة بعد أن نامت قليلا عادت إلى الظهور مرة أخرى فى جبال النصيرية حيث خرج جماعة من الأهالى للاشتباك بفرقة من الجنود المصرية كانت فى طريقها من اللاذقية إلى حلب فأعادوها من حيث جاءت.

وكان الأمير بشير الشهابى قد أرسل فى خلال ذلك الوقت ولده أمينا إلى محمد على ليخبره بانتظار والده لأوامره بتسيير القوات اللازمة من صفد لقمع الثائرين. فأصدر اليه محمد على الأوامر اللازمة. وما هو إلا قليل حتى اتحد ٧٠٠٠ من المصريين مع ٨٠٠٠ من الدروز والموارنة بقيادة الأمير خليل بن الأمير بشير أمير لبنان وسار الجميع إلى جبال النصيرية حيث تمكنوا من اخضاع الثائرين نهائيا وحملوهم على القاء سلاحهم =



انموذج من سهر ابراهيم باشا على سير العدالة
كما تشهد بذلك كتبه الثلاثة المذكورة فى هذه الصورة إلى والى نابلس سليمان أفندى
يأمره فيها باقامة العدل بالقسطاس المستقيم ويحذره من الانقياد للعواطف وحب الانتقام

= وزيادة فى الاحتياط وخوفا من العودة إلى الثورة شرع ابراهيم باشا فى نزع سلاح السوريين. وقد تمكن من ذلك ولكنه لم يستطع تجريد اللبنانيين.

وبعد أن خلا بال ابراهيم من نزع سلاح السوريين بدأ بمساعدة الأمير بشير فى الهجوم على أهالى الشوف والمتن فى لبنان وتجريدهم من سلاحهم وبذا استتبت السكينة فى انحاء البلاد وهدأت الأحوال فيها واستأنف ابراهيم أعمال الادارة الصالحة بما عهد =

قسوة محمد على ولكن الفلاحين بدلا من ذلك كانوا يموتون بالألوف أو يفرون أو يشوهون أجسامهم عمداً هرباً من الانخراط فى سلك الخدمة العسكرية البغيضة .



حسين محمد كيماوى وأحد طلبة بعثة محمد على فى فرنسا

ولو كان محمد على ترك وشأنه لكان الأرجح أن يحجم عن تجديد الكفاح ولكن بريطانيا ما كان ليرضيها بحال ما أن تسد دولة شرقية الطريق البرى فى وجهها. ولقد ترتب على تخوف محمد على من أنه إذا

= فيه من الحزم المنطوى على حب العدالة والانصاف كما تشهد بذلك كتبه إلى والى نابلس المنشورة فى الصفحة السالفة. وقد طلب فيها معاملة الثائر محمد الصادق معاملة تنطوى على العدل وعدم الانقياد لحكم العواطف . وزاد على ذلك أنه تهدده بالاعدام بعد إذ تبين أن طلبه إعدام الثائر المذكور كان بلا وجه حق . وقد جاء فى الخطاب الثالث قوله « إذا كنتم أعدمتموه فوحق الكعبة سأبعث أجيبكم مخشبين وأرمى رقبتكم بيدى . . وإذا لم أفعل فلن أكون ابراهيم » .

على أن محمدا علياً أحب استخدام سوريا لتوسيع دائرة حكمه فشرع فى جمع الرجال والخيول بالوسائل القهرية مما غضب له الباب العالى فعقد مجلساً فى يناير سنة ١٨٣٩ وقرر إرسال تجريدة قوامها ٨٠٠٠٠ مقاتل تحت قيادة حافظ باشا وسيرها ضد ابراهيم باشا بقصد إخراجه من سوريا .

تركيا تحاول إخراج ابراهيم باشا من سوريا

وكان شبح الذهب فى الأقاليم الاستوائية مايزال ماثلا فى مخيلة محمد على. فعقد النية على الذهاب إلى السودان للاشراف بنفسه على أعمال الكيماويين القائمين بالبحث على المعادن فى تلك المناطق النائية. وهكذا شخص إلى السودان تاركا أمور مصر فى أيدى حفيده عباس الثانى وكان قد عين من قبل مديراً للغربية . ولشد ما كان اغتباط محمد على عند مارأى الأمن موطدا فى السودان والعدالة تجرى مجراها فى كافة ربوعه .

أعطاها شبراً من الأرض أن تطمع فى ذراع ثم فيما هو أكثر من ذلك وهكذا دواليك ، أنه رفض بتاتاً منحها امتيازاً بانشاء سكة حديدية عبر



جيش إبراهيم باشا فى نصيبين

برزخ السويس (١٨٣٧) وإذ كانت لندن تنظر بعين السخط الشديد إلى انتشار سلطة مصر على بلاد العرب حتى الخليج الفارسى فانها انقلبت

= وبينما هو يجرى وراء سراب الذهب جاءته أنباء الحملة التى جردها السلطان محمود بقيادة حافظ باشا لاخراج ابراهيم باشا من سوريا . فاهتم لهذا الخبر وقفل راجعاً إلى مصر بعد أن كتب إلى ولده ابراهيم يكلفه بالاستبسال فى الدفاع . فصمم هذا على حشد قواته فى حلب وشرع يعد عدته للفتك بالحملة التركية المذكورة .

وكأن السلطان محمود لم يكفه توجيه تلك الحملة الهائلة براً بل قرر فى الوقت نفسه إرسال عمارة بحرية إلى المياه المصرية . والآن فاسمع ما أنزله القدر بالقوات التركية البرية والبحرية.

فى ١١ ربيع الثانى سنة ١٢٥٥ تقدم ابراهيم باشا من حلب لملاقاة جيش حافظ =

تناضل بشدةعن مبدأ صيانةسلامةالأمبراطورية العثمانيةولهذا احتلت عدن من قبيل الاحتياط لتكون بمثابةمخفر أمامى ضد مصر.ولكن فرنسا كانت من الناحية الأخرى تؤيد توسيع مصر . وسرعان ما وقعت الأزمة عند ماتبين لمحمدعلى أن المعاهدة التجارية بين انجلترا وتركيا (١٨٣٨) أصبحت خطراً على نظام التجارة الحكومية بأسره إذكان يعرف أن ماتعقده تركيا من




مدالية لمحمد على باشا ضربت فى باريس سنة ١٨٤٠
تذكاراً لمعركة نصيبين — الوجه الآخر للمداليه

المعاهدات يسرى مفعوله على مصر حتما. ولذا طلب جعل مصر مستقلة

= باشا . وفى يوم ١٣ منه التقى به فى جهة نازيب فنشبت معركة عنيفة بين الفريقين مدة ثلاث ساعات دارت فيها الدوائر على الجيش التركى ففر هاربا إلى مرعش بعد ما غنمه ابراهيم باشا من المدافع والمهمات والاسرى . وقد قدرت خسائر القوة التركية رسمياً بما يأتى ٦٠٠٠ قتلى و ١٦١٠٠ أسرى و ١٤٥ مدفع من جملة ١٦٠ مدفع . ثم واصل الجيش المصرى زحفه فاستولى على نصيبين واحتل مدائن عنتاب وقيصرية وملطية .

وفى ١٩ من هذا الشهر نفسه (أى مايقابل سنة ١٨٣٩) وقبل أن تصل أنباء هذه الهزائم إلى الاستانة توفى السلطان محمود الثانى فجأة (وأشيع أن خسرو هو الذى دس له السم) وخلفه على العرش ابنه السلطان عبد المجيد خان وهو بعد فى سن الثامنة عشرة . وقد اعتلى العرش والدولة أشد ماتكون اضطراباً من جراء ما أحرزه ابراهيم من الانتصارات الباهرة .

أما العمارة البحرية فان قائدها أحمد باشا القبودان بعد أن رأى خوسرو باشا يتولى منصب الصدارة العظمى أجمع أمره على أن يسلم عمارته جملة واحدة لمحمد على بدون حرب أو كفاح . وقد تم هذا كله فى أوائل جمادى الأولى سنة ١٢٥٥ وكانت لمرنة =

عن الامبراطورية من الوجهة التجارية . ولكن السلطان محمود رد على هذا الطلب بأن أعلن أن محمداً علياً ثائر . فبادر هذا بغزو سوريا. وهنا شرع ابراهيم من جديد يكرر انتصاراته القديمة بالرغم من انضمام الجنرال « فون مولتكه » الكبير إلى جانب الأتراك . وأخيراً اضطر السلطان إلى فتح باب المفاوضات مع محمد على ولكنه انتقل إلى جوار ربه بعد أن دس له خسرو السم على الأرجح .

وقد أصبح هذا الأخير صدراً أعظم فى عهد عبد المجيد السلطان الجديد . وهنا أعلن قبودان باشا منافس خسرو وعدوه الآن — بتحريض

= فرح عظيمة فى مصر مما جعل محمداً علياً يصدر أوامره باقامة المهرجانات والأفراح بمناسبة حضور احمد باشا المذكور وانزاله فى قصر خاص كضيف على عزيز مصر .

وفى ١٣ جمادى الأولى أرسل محمد على كتاباً مطولا إلى وزراء السلطنة العثمانية أعرب فيه عن ارتياحه لتبوؤ السلطان الجديد عرش السلطنة ويعلن خضوعه وعبوديته وينصح باقصاء خسرو باشا عن منصب الصدارة بعد أن نكبت الدولة بمشورته السيئة . وقد دافع عن عمل أحمد باشا القبودان أحر دفاع قائلا إنه كان موفقاً فى ضم العمارة التركية المركبة من ٢٣ سفينة إلى العمارة المصرية حقناً للدماء ولتكون العمارتان عدة للدولة فى مدلهمات الخطوب .

وفى ٢٢ من هذا الشهر نفسه أصدر محمد على منشورا فى كافة أنحاء القطر بأنه تبين من مكاتبة الصدر الأعظم أن جلالة السلطان الجديد أصدر نطقه الشاهانى بالعدول عن مجادلة والى مصر وصرف النظر عما حدث بينه وبين جنتمكان والده من أسباب الشحناء والخصام ووعد بارسال النيشان كالمعتاد ولهذا فهو يأمر باطلاق المدافع والدعاء باسمه فى خطب المساجد .

فلو كان الحظ شاء أن يقع الاختيار لمنصب الصدارة على رجل آخر عدا خسرو باشا أو لو كان هذا الرجل رجل سلام لاتنهز فرصة جلوس جلالة السلطان الجديد على العرش ومبادرة محمد على إلى اعلان خضوعه وعبوديته له لاعادة المياه إلى مجاريها وتوحيد الجبهة إزاء الدولة الغربية التى كانت واقفة بالمرصاد ترقب أول فرصة لتحقيق أمانيها فى تقسيم تركة « الرجل المريض » .

الفرنسيين — أنه انضم الى محمد على وفعلا سلمه الاسطول . هذا فى حين أن الجنود العثمانية بدأت تتردد فى ابداء ولائها (يولية سنة ١٨٣٣) وهكذا صارت تلك الامبراطورية غنيمة باردة يسهل وقوعها فى أيدى هذا الباشا العتيد .

على أنه كان من سوء الطالع بالنسبة لمطامع محمد على الاستعمارية - بقدر ما كان من حسن الحظ بالنسبة لتكوين مصر كأمة - ان سياسة بريطانيا فى هذه الازمة كانت نفس السياسة التى عرفت عن بالمرستون ، سياسة التورط المنطوى على الجرأة والنشاط . ولما كانت غايتنا التقليدية هى صيانة الامبراطورية العثمانية ضد مطامع روسيا بالتآزر مع فرنسا فقد

= ولكن . . . نعم ولكن . . . شاء سوء الحظ أن يندفع خسرو بتأثير حقده القديم على محمد على بمناسبة طرده من مصر - على مامر بك - إلى دس الدسائس بقصد الكيد لخصمه القديم بما كانت نتيجته انزال النكبات بتركيا وبمصر جميعا .

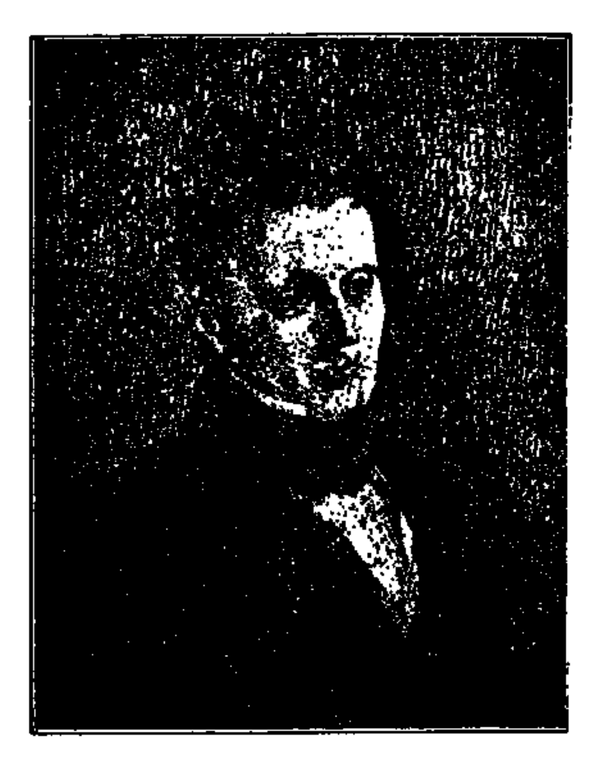
الدول الأوربية تكيد لمحمد على

والآن فألق بالك إلى ماسنسرده عليك من هذه الدسائس كما لخصناها عن كتاب « تقويم النيل » لأمين باشا سامى

ففى أوائل شهر رجب (سبتمبر سنة ١٨٣٩) عرض لورد بونسبى (سفير انجلترا فى الاستانة) على الباب العالى استعداد دولته لارغام محمد على باشا على رد العمارة التركية بشرط تخويلها حق ادخال سفنها الحربية (سفن انجلترا) فى خليج الدردنيل والبوسفور لصد روسيا عند الضرورة .

ولكن فرنسا ما كادت تعلم بهذا السعى حتى كلفت الاميرال لالند قائد أسطولها فى المياه التركية (١٨ ديسمبر سنة ١٨٣٩) بعدم الاشتراك مع السفن البريطانية فى أية حركة عدائية ضد محمد على .

وكان قناصل الدول فى الاستانة قد خشوا عند سماع انضمام العمارة التركية إلى محمد على أن يواصل ابراهيم زحفه على الاستانة بعد أن فقدت الدولة كافة جيوشها وأساطيلها فتتدخل روسيا طبقاً لاحكام معاهدة (هونكار اسكلاسى) وترسل جيشاً لمحاربته فأرسلوا فى ١٦ جمادى الأولى (٢٨ يوليه سنة ١٨٣٩) مذكرة مشتركة إلى الباب العالى وقعها سفراء فرنسا وانجلترا وروسيا والنمسا وبروسيا بالا يقرر شيئاً فى صدد المسألة =



لورد بالمرستون وزير خارجية بريطانيا سابقاً

= المصرية إلا باطلاعهم واتحادهم وأبدوا له استعدادهم للتوسط بينه وبين محمد على لحل الأشكال. فقبل الباب العالى وبعد يومين اجتمع السفراء فى دار الصدارة العظمى للتشاور فيما ينبغى إعطاؤه لمحمد على. وكان من رأى سفيرى انجلترا والنمسا ضرورة ارجاع الشام لتركيا وعارض فى ذلك سفيرا فرنسا وروسيا وطلبا منح محمد على ملك مصر وولايات الشام الأربع. ثم انحاز سفير روسيا إلى الرأى الأول فتقرر بالأغلبية. وطلب كبير وزراء النمسا عقد مؤتمر دولى فى فينا أو لندن لاتمام البحث فى القضية المصرية ولكن طلبه هذا لم يقابل بالارتياح فوقفت المباحثات.

وتوالت الحوادث إلى أن أصدر محمد على أمراً إلى حفيده عباس باشا الأول فى ١٢ جمادى الأولى سنة ١٢٥٦ بأنه تحقق من وصول عمارتى انجلترا وفرنسا إلى بيروت وأنه وإن كان ارسالهما لايدل على قصد سىء مبيت إلا أن الضرورة تقضى باتخاذ الاحتياطات اللازمة الخ الخ.

معاهدة لوندرا

وفى ١٥ جمادى الأولى الموافق ١٥ يولية سنة ١٨٤٠ امضيت معاهدة لوندرا وصدق

كان يلوح أن الحل البديهى الوحيد هو ان لا نعارض فى دخول محمد على الاستانة حيث ينشىء الامبراطورية نشأة جديدة. بيد أن حلا كهذا كان يقتضى بطبيعة الحال تحولا فى مسلك السخط الذى سلكه بالمرستون حيال محمد على مما كان حريا بان يسىء الى شخصيته بقدر ما كان يحط من هيبته. أضف الى هذا اعتقاده بان النظام الاقتصادى الذى كان يتبعه محمد على كان على وشك الانهيار وفى هذا الصدد كتب الدكتور بورنج وهو ممن يتحملون أكبر نصيب من التبعة عن سير علاقاتنا الخارجية يقول «ان قوة الباشا وهمية بحتة بحيث يعتبر عاجزاً عن ابداء أية مقاومة جدية» (راجع التقرير الخاص بمصر وكندا وكذلك الاوراق البرلمانية سنة ١٨٤٠)

عليها مندوب الدولة العلية بعد أن وافقت عليها روسيا وبروسيا والنمسا وانجلترا وهى تنص على ما يأتى :

أولا : الزام محمد على بارجاع ما فتحه للدولة العلية والاحتفاظ لنفسه بالجزء الجنوبى من الشام مع عدم دخول مدينة عكا فى هذا القسم .

ثانياً : أن يكون لانجلترا الحق بالاتفاق مع النمسا فى محاصرة فرض الشام ومساعدة كل من أراد من سكان بلاد الشام خلع طاعة المصريين والرجوع إلى الدولة العلية وبعبارة أخرى تحريضهم على العصيان لشغل الجيوش المصرية فى الداخل حتى لا تقوى على مقاومة المراكب النمساوية والانجليزية .

ثالثاً : أن يكون لمراكب الروسيا والنمسا وانجلترا معا حق الدخول فى البوسفور لوقاية القسطنطينية لو تقدمت الجيوش المصرية نحوها .

رابعاً : أن لا يكون لأحد الحق فى الدخول فى مياه البوسفور مادامت القسطنطينية غير مهددة .

خامساً : يجب على الدول الموقع مندوبوها على هذا الاتفاق أن تصدق عليه فى مدة لا تزيد عن شهرين بحيث يكون التصديق فى مدينة لوندرا. وشفعت هذه المعاهدة بملحق مصدق عليه من مندوب الدولة العلية مبين فيه الحقوق والامتيازات التى يمكن منحها لمحمد على .

وهكذا ترى كيف فتحت هذه المعاهدة أبواب الشر وأكسبت الدول حقا بدخول مياه الآستانة للدفاع عن العاصمة التركية كما أنها حاولت تجريد محمد على من مغانمه فى سوريا . لذلك لم يكن عجيباً أن ينظر بعين السخط إلى هذه المعاهدة ويرفضها لأنها

ثم إن تقارير القناصل التي كانت على ما يظن تردد رأي الدوائر الرسمية في انجلترا جعلت ديدنها اظهار عيوب تجاريبه الاقتصادية دون الالتفات الى ما كانت ترمى اليه هذه التجاريب من الغايات . واذ كان بالمرستون فى طليعة المستعمرين فقد كان دائماً على استعداد لان يأمر بقلب أوضاع العلاقات الدولية رأسا على عقب أو أن يصرم حبالها بتاتا حتى ولو أدى ذلك الى نشوب حرب أوربية . كل ذلك كان بالمرستون على استعداد لان يفعله حرصاً على مسألة شكلية خاصة بالهيبة الأمبراطورية . وليس من شأننا هنا أن نبحث فيما اذا كان من حسن السياسة أو مما يخدم المصالح الأمبراطورية أن ننضم

= بصحفة له وهو الرجل الذى كان قد أخضع سوريا بأسرها وأباد جيوش الدولة العلية وأساطيلها وأصبحت أمامه الطريق خالية إلى الآستانة هذا عدا ما كان لديه من القوات التى تنيف عن ١٤٦٠٠٠ من الجنود النظامية و ٢٢٠٠٠ من الباشبورق منها ١٣٠٠٠٠ تحت قيادة ابنه ابراهيم فى سوريا والباقون متفرقون فى الحجاز والسودان وكريد ومصر

فلما رأت الدول رفضه معاهدة لوندرا عرضت عليه أخذ ولاية عكا ترضية له وأن يضمها إلى مصر فى مقابل انسحابه من سوريا . ولكنه رفض هذا العرض أيضاً .

رفض محمد على لمعاهدة لوندرا

وما كادت الدول أن تضع هذه القرارات فيما بينها - دون أن تخبر بها محمدا علياً - حتى شرع عزيز مصر من ناحيته يصدر الأوامر إلى حفيده عباس باشا طبقا لما تقتضيه الحالة السياسية وتطوراتها . ونظرا لأهمية هذه الأوامر ننقل لك بعضها ملخصا عن كتاب «تقويم النيل» إذ هى برهان ناطق على مبلغ عدم اكتراث ذلك المصلح الكبير بتهديدات الدول وصدق عزيمته على مقاومتها وتضحيته بكل شىء فى سبيل رفعة مصر :

ففى ٢٢ جمادى الأولى أمره بالتريث فى العمل ريثما تنجلى والحالة الحاضرة المنظور بأن عواقبها غير حميدة » .

وفى ٣ جمادى الأخرى صدر أمره إليه « بما أنه يرى من الحالة الحاضرة تحزب الدول الأجنبية وإعطاء قرار من مجلس لوندرا يمس مقاصدنا فلذلك يكون من الوجوب اتخاذ الاحتياطات اللازمة فى سائر النقط الحربية الكائنة على سواحل مصر والشام =

الى روسيا العسكرية لالشيء سوى قهر حكومة لويس فيليب الصديقة المسالمة ولاغاظة الدولة الشرقية الوحيدة الناهضة . وعلى كل فان بالمرستون كتب إلى السفير البريطانى فى باريس (٥ يونيو سنة ١٨٣٨) باللهجة الآتية :

— والقيام للدفاع حربا وضرباً عند حشد عساكر الدولة . . . وعندما تتحرك دول أوربا على مصر يكون حضوركم هنا بواسطة الوابورات بحرا أو برا والعسكر الواردة لطرفكم من مضيق كولك يصير إعادتهم إلى محلاتهم الأصلية عن طريق طرسوس أو من جهة أخرى وعلى أي حال يلزم التبصر بالحزم واتباع ما يصدر لكم فى هذا الشأن » .

وفى ١٥ جمادى الأخرى أمر آخر بأنه « غير معلوم صراحة نتيجة قرار لوندرا للآن ولكن باستعمال المساعى بواسطة كتاب قناصل دول الروسيا والنمسا وانجلترا صار الحصول على شواهد القرار التى منها ذهاب تلك الخيالات الباطلة وبث الفتن فى أنحاء بر الشام ومساعدة أهاليها فى ذلك وإرسال ٦٠٠٠ عسكرى من طرف الدولة العثمانية إلى قبرص وإرسال أسلحة وبارود لتوزيعها على أهالى الشام أيضا وصدور فرمان خطابا للبير بشير بالخروج عن طاعة محمد على وإرسال صور من قرار لوندرا السابق ذكره بواسطة وابور انجليزى لنشره بتلك الجهات بزعم تخليصهم من حكم محمد على وهكذا من الحركات غير السارة الحاصلة من تلك الدول وعزم دولة فرنسا على ارسال ١٠٠٠٠٠ عسكرى عند مسيس الحاجة وأنه يلزم استعمال الحزم وعدم تمكن خروج أجانب من البحر إلى البر عند ورود سفن بحجة الكورنتينة منعاً من نشر مكاتبات مهيجة إنما يكون ذلك بالشدة واتخاذ قانون الكورنتينة حجة للدفاع ومنع سائر الوسائط الموجبة لاختلال الأمن » .

ولما كان ما ترتب على معاهدة لوندرا من النتائج الخطيرة له علاقة مباشرة بمستقبل مصر فقد آثرنا أن نتوسع قليلا فى الاقتباس من المصادر الأخرى .

فى هذا اليوم نفسه أبلغت نصوص معاهدة لوندرا رسمياً إلى محمد على باشا وجاء اليه قناصل الدول الأربع المتحدة يعرضون عليه باسم دولهم أن تكون ولاية مصر له ولورثته وولاية عكا له مدة حياته . ثم أمهلوه عشرة أيام لاعطاء جوابه . وبعد أن أعطوه صورة كتابية من هذا العرض أبلغوه أنه يجدر به الا يرتكن على مساعدة فرنسا وأفهموه أن دولهم مصممة على تنفيذ هذه القرارات حتى ولو أدى الأمر إلى حرب أوربية عامة .



ابراهيم باشا يواسى بنفسه الجرحى من رجاله فى ميدان القتال

فكان جواب ذلك الجندى الكبير الرفض البات. وقد أفهمهم من ناحيته أنه مصمم على الاستبسال فى الدفاع إلى آخر قطرة من دمه

ثم مرت مهلة الأيام العشرة فحضر له القناصل ومعهم مندوب الدولة العلية فى يوم ٢٥ جمادى الآخرى (٢٤ أغسطس سنة ١٨٤٠) فأبلغوه أنه نظراً لرفضه قد سقط حقه فى ولاية عكا وأن الدول لاتسمح له إلا بولاية مصر وحدها له ولذريته .

فاستشاط غيظاً وأمر بطردهم من حضرته قائلا لهم « كيف يجوز أن أسمح لكم بالبقاء فى بلادى وأنتم وكلاء أعدائى فى هذه الديار فانصرفوا » .

ولكنهم أمهلوه عشرة أيام أخرى وأخبروه أنهم ليسوا مسؤولين بعد هذه المهلة عما يلحق به من الضرر .

وقبل أن يصلهم جواب محمد على بالقبول أو بالرفض كتبوا إلى سفراء الدول فى الاستانة بما حدث فاجتمع هؤلاء بالصدر الأعظم وقر قرارهم على أخذ مصر والشام من محمد على .

« ينبغى علينا أن نؤيد السلطان بكل ما فى وسعنا ، بمساعدة فرنسا اذا شاءت الاشتراك معنا ، وبدونها اذا رفضت ذلك » ثم أنه أبرق اليه فيما بعد (٨ يوليه سنة ١٨٣٨) يقول «ان الوزارة مجمعة على أنه لا يليق السماح لمحمد

= وانصرف محمد على من ناحيته إلى تعزيز الاستحكامات وجمع الجنود . وفى ٢٧ رجب قطع قناصل روسيا والنمسا وانجلترا وبروسيا علاقتهم مع مصر .

انسحاب ابراهيم باشا من الشام

وسرعان ماسيرت بريطانيا الجنود والجحافل فنزلت فى صيدا بينما كان ابراهيم باشا قد التجأ إلى جبل لبنان وتحصن فيه . وتوجه الأميرال نابير فى الوقت نفسه فى عمارة بحرية قوية قاصدا بيروت فضرب عليها نطاق الحصار وكان سليمان باشا الفرنساوى قد حصنها أشد تحصين ومعه فرقتان.

ولم تكتف السياسة الانجليزية بما جردته ضد الفاتح ابراهيم باشا من القوات البرية والبحرية بل نشطت فى الدعاية للفت فى عضد الجيوش المصرية . فقد أذيع كذبا أن ابراهيم باشا قتل فى جبل لبنان وتشتت شمل رجاله .

ولعلك تستطيع أن تتصور كيف كان وقع ذلك النبأ المحزن من نفوس الجيوش المصرية . فقد ذهل له سليمان باشا الفرنساوى وخشى عواقبه . فقر رأيه على الاستيثاق من صحته حتى إذا كانت الرواية صادقة ضم إليه ما بقى من جنود ابراهيم باشا واستمر فى الدفاع .

فغادر بيروت بعد أن نصب عليها أحد أميرالايات الفرقتين وهو صادق بك ولكن هذا سرعان مادب الخوف إلى قلبه فقرر ترك المدينة يستولى عليها الانجليز بلا كبير عناء.

وما لبث أن اتصل صادق هذا بسليمان باشا فتحقق منه أن الأشاعة القائلة بقتل ابراهيم باشا هى محض افتراء بل هو على العكس ما زال على قيد الحياة ولذا فهو يأمره بالاستبسال فى الدفاع إلى أن يعود إليه . فأسقط فى يد صادق وتملكته الحيرة وخشى الوقوع فى شر أعماله فلم يجد مخلصا سوى الارتماء مع رجاله فى أحضان الانجليز.

وبعد أن خلا بال الأميرال نابير من ناحية بيروت اتجه إلى عكا وحاصرها . وسرعان ماسلمت له المدينة بعد فرار اسماعيل بك منها .

وهكذا استطاع الأميرال نابير أن يقطع باسطوله خط الاتصال بين ابراهيم باشا فى الجبل وبين مصر .

على بأن يعلن استقلاله وأن يفصل مصر وسوريا عن الامبراطورية



بيان المواقع التى خاضها ابراهيم باشا أثناء فتح الشام

العثمانية . . . أما نحن فاننا لعلى استعداد لأن نقدم للسلطان المساعدة البحرية

= ثم مالبث أن قصد الأميرال المذكور إلى الاسكندرية فى ١٥ رمضان سنة ١٢٥٦ بصحبة ست سفن حربية فعرض الصلح باسم الدول على محمد على باشا فقبل . وبعد مفاوضات طويلة عقدت معاهدة نصت على جعل ولاية مصر وراثية لذرية محمد على وأن يكون لجلالة السلطان الحق المطلق فى أن يختار من يشاء من ذرية محمد على لملء منصب الولاية على مصر .

اللازمة ضد محمد على .وفى عزمنا إرسال اسطولنا إلى الاسكندرية.ولست أكتب هذا إلا على زعم أن فرنسا أمينة وأنه يمكن الاعتماد عليها. ولكن فرنسا كما تصادف لم تكن لا هذا ولا ذاك . فبينما كانت تتظاهر بأنها لا تريد أكثر من الاعتراف بولاية محمد على وذريته على مصر وسوريا،

= وبعد عقد المعاهدة أصدر محمد على أمره إلى جنوده فى الشام بالانسحاب فعادوا وعددهم ٧٠٠٠٠ بينما كان عددهم فى بداية الزحف على الشام ١٣٠٠٠٠

فرمان محمد على على ولاية مصر

وفى ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ (٢١ القعدة سنة ١٢٥٦) صدر فرمان همايونى بموافقة مندوبى الدول الأربع المتحدة المجتمعين فى لوندرا بهيأة مؤتمر بتولية محمد على على مصر .

القرمان الهمايونى بتولية محمد على واليا على مصر

وإليك أهم ماتضمنه الفرمان من النصوص وهو فى صيغة الخطاب لمحمد على باشا :

« ... تثبيتكم فى الحكومة المصرية المبينة حدودها فى الخريطة المرسومة لكم من لدن صدرنا الأعظم وقدمنحناكم فضلا على ذلك ولاية مصر بطريق التوارث بالشروط الآتى بيانها :

(١) «متى خلا منصب الولاية المصرية تعهد الولاية إلى من تنتخبه سدتنا الملوكية من أولادكم الذكور وتجرى هذه الطريقة نفسها بحق أولاده وهلم جرا .

(٢) «إذا انقرضت ذريتكم الذكور لا يكون لأولاد نساء عائلتكم الذكور حق أى كان فى الولاية وإرثها .

(٣) «ومن وقع عليه من أولادكم الانتخاب لولاية مصر بالارث بعدكم يجب عليه الحضور إلى الاستانة لتقليده الولاية المذكورة .

(٤) «إن حق التوارث الممنوح لوالى مصر لا يمنحه رتبا ولا لقباً أعلى من رتبة سائر الوزراء ولقبهم ولا حقاً فى التقدم عليهم بل يعامل بذات معاملة زملائه .

(٥) «جميع العهود المعقودة أو التى ستعقد فى مستقبل الأيام بين بابنا العالى والدول المتحابة يتبع الاجراء على مقتضاها جميعها فى ولاية مصر أيضاً .

وبينما كانت تتظاهر بالعمل بالاتفاق مع الدول الأخرى إذا بها كانت تفاوض الباب العالى سراً وعلى انفراد لمصلحة محمد على. فلما وقف بالمرستون على مساعيها هذه أرغم ملبورن تحت تأثير التهديد بالاستقالة

---

(٦) «كل ماهو مفروض على المصريين من الأموال والضرائب يجرى تحصيله باسمنا الملوكى. ولكى لا يكون أهالى مصر وهم من بعض رعايا بابنا العالى معرضين للمضار والأموال والضرائب غير القانونية يجب أن تنظم تلك الأموال والضرائب المذكورة بما يوافق حالة ترتيبها فى سائر الممالك العثمانية.

(٧) «ربع الايرادات الناتجة من الرسوم الجاركية ومن باقى الضرائب التى تحصل فى الديار المصرية يتحصل بتمامه ولا يخصم منه شىء ويؤدى إلى خزينة بابنا العالى العامرة.

(٨) «الثلاثة أرباع الباقية تبقى لولايتكم لتقوم بمصاريف التحصيل والادارة المدنية والجهادية وبنفقات الوالى وبأثمان الغلال الملزومة مصر بتقديمها سنويا إلى البلاد المقدسة (مكة والمدينة).

(٩) «يبقى هذا الخراج مستمراً دفعه من الحكومة المصرية بطريق تأديته المشروحة مدة خمس سنوات تبتدىء من عام ١٢٥٧ أى من يوم ١٢ فبراير سنة ١٨٤١.

(١٠) «وينظر فيما بعد فى تعيين لجنة مراقبة وملاحظة للوقوف على مقدار الايرادات السنوية والطرق المستعملة فى تحصيل العشور وباقى الضرائب.

(١١) «تكون النقود الذهبية والفضية الجائز لحكومة مصر ضربها باسمنا الشاهانى معادلة للنقود المضروبة فى ضربخاناتنا العامرة بالاستانة سواء كان من قبيل عيارها أو من قبيل هيئتها وطرزها.

(١٢) «يكفى أن يكون لمصر فى أوقات السلم ١٨٠٠٠ من الجند للمحافظة فى داخلية مصر ولا يجوز أن تتعدى ولايتكم هذا العدد. ولكن حيث أن قوات مصر العسكرية معدة لخدمة الباب العالى كأسوة قوات المملكة العثمانية الباقية فيسوغ أن يزاد هذا العدد فى زمن الحرب بما يرى موافقاً فى ذلك الحين.

(١٣) «تتبع أيضاً فى مصر القاعدة الجديدة المتبعة فى كافة ممالكنا بشأن الخدمة العسكرية بأن يستبدل الجند بعد الخدمة مدة خمس سنوات بغيرهم من العساكر الجديدة.

على أن يرسل إلى محمد على انذارا ينتهى أجله فى عشرة أيام بأن يتخلى عن سوريا . وهنا حاول الفرنسيون فتح باب المفاوضة من جديد ولكن

---

(١٤) « يجب أن لا تختلف هيأة الملابس والعلائم التمييزية ورايات الجنود المصرية عن مثلها من ملابس ورايات باقى الجنود العثمانية وكذا ملابس الضابطان وعلائم امتيازهم وملابس الملاحين وعساكر البحرية المصرية ورايات سفنها يجب أن تكون مماثلة لملابس ورايات وعلائم رجالنا وسفننا .

(١٥) « للحكومة المصرية أن تعين ضابطان برية وبحرية حتى رتبة الملازم . أما ما كان أعلى من هذه الرتبة فالتعيين إليها راجع لارادتنا الشاهانية .

(١٦) « لا يسوغ لوالى مصر أن ينشىء من الآن فصاعدا سفنا حربية إلا باذننا الخصوصى .

(١٧) « يبطل هذا الامتياز ويلغى فى الحال عند عدم تنفيذ أى شرط من الشروط الخاضع لها اعطاء الامتياز الخاص بوراثة ولاية مصر .

فرمان الولاية على السودان

وفى نفس اليوم الذى صدر فيه الفرمان السالف الذكر (أى فى يوم ١٣ فبراير سنة ١٨٤١) صدر فرمان شاهانى آخر بتولية محمد على واليا على السودان . وإليك أهم ما ورد فيه وهو أيضا فى صيغة الخطاب .

(١) « . . . وقد قلدتكم فضلا عن ولاية مصر ولاية مقاطعات النوبة ودارفور وكردفان وسنار وجميع توابعها وملحقاتها الخارجة عن حدود مصر ولكن بغير حق التوارث . فبقوة الاختبار والحكمة التى امتزتم بها تقومون بادارة هاته المقاطعات وترتيب شؤونها بما يوافق عدالتنا وتوفير الأسباب الآيلة لسعادة الأهلين .

(٢) « عليكم أن ترسلوا فى كل سنة قائمة إلى بابنا العالى حاوية بيان الايرادات السنوية جميعها .

ولعل المادة الآتية من أهم مواد ذلك الفرمان فانها ترمى إلى قطع دابر النخاسة طبقاً لأوامر الشرع الاسلامى الحنيف وهى :

(٣) « حيث أنه يحدث من وقت لآخر أن تهجم الجنود على قرى المقاطعات المذكورة فيأسرون الفتيان من ذكور وأناث ويبقونهم فى قبضة يدهم لقاء رواتبهم ، وحيث أن هذه الأمور مما تفضى معها الحال ليس فقط لانقراض أهالى تلك البلاد وخرابها بل أنها

بالمرستون كان مصمما على إملاء التسوية التى يشاؤها . وولى الأميرال نابيير وجهه شطر سوريا بقصد مهاجمة ابراهيم فيها . وفعلا أنزل جنوده فى بيروت (سبتمبر سنة ١٨٤٠) وفى الوقت نفسه انتهز البـاب العالى

= أمور مخالفة للشريعة الحنيفة المقدسة وكلتا هاتين الحالتين ليست أقل فظاعة من أمر آخر كثير الوقوع وهو تشويه الرجال ليقوموا بخفر الحريم ، ذلك مما لا ينطبق على ارادتنا السنية مع مناقضته كل المناقضة لمبادىء العدل والانسانية المنتشرة من يوم جلوسنا المأنوس على عرش السلطنة العلية ، فعليكم مداركة هذه الأمور بما ينبغى من الاعتناء لمنع حدوثها فى المستقبل . ولا يبرح عن بالكم أن فيما عدا بعض أشخاص توجهوا إلى مصر على أسطولنا الملكى فقد عفوت عن جميع الضابطان والعسكر .

(٤) رقى المأمورين الموجودين فى مصر نعم أنه بموجب فرماننا السلطانى السابق إن تسمية الضابطان المصرية لما فوق رتبة المعاون تستلزم العرض عنها لأعتابنا الملوكية إلا أنه لا بأس من إرسال بيان بأسماء من رقيتم من ضباط جنودكم إلى بابنا العالى كى ترسل لهم الفرمانات المؤذنة بتثبيتهم فى رتبهم الخ الخ »

فقبل محمد على باشا هذه الشروط على مضض ، وطلب من الدول مساعدته على تخفيف محتوياتها مع الزمن . فوعدته الدول بذلك .

وفى ١٩ ابريل سنة ١٨٤١ وافق الباب العالى بناء على مذكرة من الدول على تحرير فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ على الوجه الآتى كما ورد فى كتاب « تقويم النيل » ونظراً لأهمية الموضوع رأينا أن نثبته بنصه :

« ان الحضرة السلطانية الفخيمة تلقت ماتعطفت عليها به الدول المتحالفة من النصائح هذه الدفعة أيضاً وبمناسبتها قد منحت محمداً علياً باشا إحساناً جديداً هو التكرم منها باعطائه الامتيازات الآتية ولكنها قد اشترطت عليه الانقياد التام إلى جميع الوثائق والمعاهدات المبرمة حالا والتى ستبرم استقبالا فيما بين الباب العالى والدول المتحالفة . وعلى ذلك أصبحت ولاية مصر تنتقل بالارث لمحمد على باشا وأولاده وأولاد أولاده بصورة أن يتولى الأكبر فالأكبر فيقلده الباب العالى منصب الولاية كلما خلا هذا المنصب من وال . وقد تنازل الباب العالى عن استيلائه على ربع إرادات مصر وسيعين فيما بعد قيمة الخراج الواجب على ولاية مصر دفعه وترتيب مقداره وطريقة تحصيله مما يناسب حالة ايرادات الولاية أما عما خص التسميات فى الرتب المختلفة فى العسكرية المصرية فرخص لمحمد على باشا أن يمنحها من نفسه حتى رتبة الميرالاى فقط . أما التسمية =

هذه الفرصة فاعلن والاغتباط يملأ عطفيه خلع محمد على وهنا اعلنت فرنسا (٨ اكتوبر سنة ١٨٤٠) أنها تعتبر كل محاولة لتجريد محمد على

=لما فاق على هذه الرتبة فيجب عليه أن يعرض بشأنه إلى الباب العالى. أما ما كان متعلقاً بالادارة الداخلية وكان اتباعه واجبا فى مصر كاتباعه فى سائر الممالك العثمانية فيظهر أن محمدا عليا باشا لا يرغب فى التكلم بشأنه بما ينبغى من الصراحة مع كونه قد سبق تقرير ذلك فى العقد المقرر التابع لمعاهدة المحالفة. ولكن كى لا يدع الباب العالى سبيلا للدول المتحالفة بالتضرر منه بأمر من الأمور كما لو حدث أن ارتكب محمد على فى المستقبل أعمالا مخالفة لنقطة مهمة مسندة على المعاهدة المحكى عنها، قد قرر وزراء الباب العالى والحالة على ما ذكر أمرا شديد الأهمية وهو أن تطلب بادى بدء الايضاحات والتقريرات الصريحة بهذا الصدد ولذلك تحرر هذا لسعادتكم رجاء إعطاء الايضاحات والتقريرات المذكورة من قبلكم خطاً».

فلما أقرت الدول هذا الفرمان فى ١٠ مايو سنة ١٨٤١ بادرت الحضرة الشاهانية فى أول يونية سنة ١٨٤١ بتأييد ماجاء فى هذا الفرمان. وفى ٢٠ يولية سنة ١٨٤١ صدر فرمان آخر بجعل ماتدفعه الحكومة المصرية إلى الدولة العلية فى كل سنة ٨٠٠٠٠ كيسة أى ٤٠٠٠٠٠ جنيه.

والآن وقد رأيت هذه الفرمانات فلعلك متسائل معنا عما أفادته الدولة العلية من جراء تدخل الدول الأوربية الأربع وهل كان ما أفادته يزيد أضعافا مضاعفة عما عسى كانت تجنيه لو أنها سدت باب التدخل فى وجه الدول الأوربية المذكورة وتصالحت رأساً مع محمد على وتركته يبسط سيادته على الشام ويؤدى لها حصتها من الوركو؟ فاعلم يارعاك الله أن نكبة الامتياز التى ذاقت تركيا ومصر منها الأمرين إلى أن قيض الله لأولاهما أن تتخلص منها دفعة واحدة فى معاهدة لوزان بينما ما تزال الأخرى تعانى ما تعانيه منها ـ نقول أن تلك النكبة تبتدىء بفرمانى ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ و ١٩ ابريل سنة ١٨٤١ اللذين ما كانا ليأخذا مكانهما فى سجل الحوادث التاريخية لولم يأكل الحقد صدر خسرو باشا ويحفزه إلى الانتقام من غريمه القديم محمد على وذلك بالالتجاء إلى الدول الأجنبية والاستعانة بها عليه. وماذا عساك أن تقول فى فداحة المصيبة التى جرها هذا الرجل على بلاده بهذين الفرمانين وفيهما حتمت الدولة العلية على نفسها أن تخضع هى وتجبر=

من أملاكه سبباً للحرب. فكان جواب بالمرستون على ذلك ماقاله لسفيره في باريس وهو كما يأتي: « قل للمسيو تيير إن فرنسا إذا أرادت الحرب فلن تتأخر عن تلبية طلبها ولكنها إذا بدأتها فلسوف تفقد حتماً

= مصر على الخضوع لجميع الوثائق والمعاهدات المبرمة حالا والتي ستبرم في المستقبل بين الباب العالي والدول المتحالفة ؟ فهل هناك محل للدهشة إذا رأيت تركيا أولا ثم مصر تباعاً لها تئنان من تلك الامتيازات ؟ وهل تعجب اذا كانت الدول الأوربية استغلت هذه الامتيازات أسوأ استغلال وأصبح موقفها كموقف « يهودي البندقية » الذي صوره لنا شكسبير وهو يحرص على « رطله من اللحم كاملا غير منقوص » ؟

وعلى كل فقد أصبح منح الامتيازات مما لا يتفق مع روح العصر الحاضر. ولاريب في أن مصر واصلة قريبا بحكمة جلالة مليكها فؤاد إلى الغاء الامتيازات والتخلص من ربقتها كما تخلصت منها تركيا.

أما فيما يتعلق بالخراج أو الجزية التي فرضت على مصر فقد جاء في كتاب « تقويم النيل » أن مصر ظلت تدفع ٤٠٠،٠٠٠ جنيه سنوياً لغاية سنة ١٨٦٥ ثم زيد هذا المقدار إلى ١٥٠٠٠ كيسة أي ٧٥٠٠٠٠ جنيه عثماني بمقتضى فرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ عقب تنازل الدولة العلية لمصر عن مدينتي سواكن ومصوع ومديرية التاكا وتغيير ترتيب الوراثة في خديوية مصر في عهد ساكن الجنان اسماعيل باشا بأن حصرت الوراثة في الأكبر من أولاده ثم أولاد الاكبر ثم في أخوته عند عدم وجود ولد له ثم أولاد الاخوة على هذا الترتيب.

« وفي أول يولية سنة ١٨٧٥ صدر فرمان بتحويل إدارة مدينة زيلع إلى ساكن الجنان اسماعيل باشا بزيادة ١٥٠٠٠ جنيه عثماني على الخزينة. وفي ١٠ شعبان سنة ١٣٠٨ صدر أمر عال من المرحوم توفيق باشا الخديوي بالتعهد عن نفسه وعن خلفائه في الحال والاستقبال بأن تدفع الحكومة المصرية للخواجات روتشيلد وأولاده بلوندرا وروتشيلد اخوان بباريس والبنك الملوكي العثماني من أصل الوركو الواجب على الحكومة المصرية للحضرة الشاهانية مبلغ ٢٨٠٦٢٢ جنيه انجليزي و ١٨ شلنا و ٤ بنسات سنويا لمدة ٦٠ سنة تبدأ من ١٠ ابريل سنة ١٨٩١

سفنها ومستعمراتها وتجارتها كما أن جيشها فى الجزائر لن يعود يقلق بالها بعد اليوم . أما محمد على فلسوف نلقى به فى مياه النيل ».

وهكذا نرى أن بالمرستون وتيير بمخادعة أحدهما للآخر فى بداية

= وهكذا أصبحت سلطة محمد على بعد فرمانى ١٣ فبراير و ١٩ ابريل سنة ١٨٤١ قاصرة على مصر والسودان . فأدى هذا إلى أن يتنازل عن ١٠٠٠٠ جندى من جنود سوريا بحيث لا يزيد عدد جيشه عن ١٨٠٠٠ المحدد فى الفرمان بين مشاة وفرسان وغيرهم .

وما أن لحق أحمد باشا حكمدار السودان بربه فى شوال سنة ١٢٥٩ حتى قرر محمد على تقسيم ذلك القطر العظيم إلى ست مديريات وأصدر أمره بتعيين أحمد باشا المنكلى فى ١٢ منه حكمدارا على جبال الذهب بالسودان والاشراف على المديريات الست الآنفة الذكر الذى تعين مديروها كالآتى :

أمين باشا . . . . مديرا للتمة وشندى وملحقاتها
سليمان باشا . . . . « لسنار وملحقاتها لغاية القضارف والقلابات
سليم باشا . . . . « على فيزأوغلى وملحقاتها
مصطفى باشا . . . . « على كردفان بما فيها تكلا وملحقاتها
لواحق باشا . . . . « « دنقلة وبربر وملحقاتها
فرحاد باشا . . . . « « التكا لحد مصوع وسواكن

ولما كان قد جعل غايته اصلاح مالية البلاد فقد أخذ بأسباب الاقتصاد وكان من أثر ذلك أن أغلق كثيرا من المدارس التى كان قد خصص مبالغ طائلة للانفاق عليها ومنها مدرسة شبرا الزراعية لذلك استبدل الأساتذة الأوربيين فى المدارس الباقية بأساتذة مصريين أو أتراك . ثم عكف على ترضية السلطان وأنفذ له ابنه سعيد باشا لتقديم فروض العبودية .

محمد على فى أواخر أيامه

فى إبان سنة ١٨٤٥ توعكت صحة ابراهيم باشا فاستقر رأى الأطباء على سفره إلى أوربا فى فصل الصيف ترويحا للنفس وانتجاعا للصحة . فما لمست قدماه الشاطىء الأوربى حتى شرعت الدول الأوربية تتسابق إلى الحفاوة به والمبالغة فى استقباله ولا سيما فى فرنسا وانجلترا .

الأمر، ثم بازدراء كل منهما للآخر فيما بعد، كادا أن يزجا بشعبين غريبين متصادقين إلى هاوية الحرب من أجل مسألة خاصة بالهيبة الامبراطورية ليس غير. أما أحدهما فكان مشاكساً بقدر ما كان الآخر وبلا ًفأ، ولكن

= وبعد أن تكاملت صحته صمم على العودة إلى مصر فى أواخر صيف سنة ١٨٤٦ وكان والده محمد على باشا قد سافر إلى الاستانة بدعوة رسمية لتقديم فرائض العبودية للسلطان بمناسبة صدور فرمان الوراثة لأسرة محمد على سنة ١٢٦٢ المقابلة لسنة ١٨٤٦ مشتملا على امتياز حكم القطر المصرى بمصادقة الدول الأوربية. فوصلها فى ١٩ يولية سنة ١٨٤٦ ونزل فى سراى رضا باشا.

ولقد رحب جلالة السلطان بمحمد على باشا عند ما تشرف بالمثول بين يدى جلالته بل إنه لما هم بتقبيل الأعتاب الشاهانية أمسكه جلالته بيديه وأجلسه إلى جانبه وسلخا نحو ساعة من الزمن فى حديث صاف خرج بعده يلهج بالدعاء والشكر لجلالة الخليفة.

وأبت أخلاق محمد على وتسامحه أن يترك الأستانة قبل أن يزور عدوه الالد القديم خسرو باشا فذهب لزيارته فى قصره وقضيا وقتا غير قليل يتذاكران أعمال الصبا ويبتسم كل منهما فى وجه الآخر وهو يذكر له الشاك والفخاخ التى كان أعدها لاقتناصه.

وغادر محمد على الاستانة فى ١٧ أغسطس قاصداً قوله مسقط رأسه. فأنشأ فيها عدداً من الأبنية لتعليم الفقراء واعانة الضعفاء والمساكين.

ثم قفل راجعاً إلى الاسكندرية فخف الأهلون لاستقباله والبشر على وجوههم. ولما عاد إلى القاهره تقاطر الناس للسلام عليه وتهنئته على ما ناله من تعطفات جلالة السلطان فكان يستقبلهم وعلى صدره الطغراء الشاهانية التى أهداها له السلطان وهى تكاد تخطف الأبصار ببريقها.

ويظهر أن مر السنين وما تخللها من حوادث جليلة قد أثقل ظهر محمد على وأدى إلى اعتلال صحته فسافر فى أوائل ربيع الأول سنة ١٢٦٤ الموافق لسنة ١٨٤٨ إلى الاسكندرية ومنها انتقل إلى ظهر إحدى السفن الفرنسية المخصصة له للقيام بنزهة بحرية انتجاعا للصحة.

وهنا رأى عزيز مصر أن الأمور لم تعد تحتمل التردد فى تولية ابراهيم باشا. وفى شهر أغسطس سنة ١٨٤٨ توجه ابراهيم إلى الاستانة لأجل تثبيته على ولاية مصر خلفا لأبيه وقد ثبته السلطان نفسه.

شبح الحرب كان موجوداً على كل حال ولم يختف إلا بفضل ما أبداه لويس فيليب من الحكمة عندما عين جيزو مكان تيير. على أن ما أحرزناه من النجاح بفضل نشاط سياستنا الخارجية سرعان ما تلاه نجاح آخر أحرزته قوتنا البحرية ليس أقل من سابقه فى الأهمية. ذلك لأن الاسطول التركى الفار قد تبين أنه أصبح عبءاً ثقيلا على مصر بدلا من أن يكون نجدة لها . لأن الاسطول

= وكانت نزهة محمد على البحرية فى ابان ذلك موفقة . فقد زار كريد ومالطا. وبعد أن شعر بتحسن صحته صمم على الذهاب إلى مارسيليا فباريس لزيارة صديقه الملك لويس فيليب.

ثم عاد إلى نيس وعرج على إيطاليا والتقى فى نابولى بولده إبراهيم باشا وهو عائد إلى مصر لادارة شؤون البلاد. وأرسل محمد على إلى كتخدا باشا فى مصر أنه سيبارح الأراضى الايطالية يوم ٧ جمادى الأولى سنة ١٢٦٤

ووصل ابراهيم باشا إلى الاسكندرية فى ١٠ جمادى الأولى وأقام فيها إلى يوم الاثنين ١٣ منه ثم سافر إلى القاهرة .

أما محمد على باشا فكان قد أصدر فى ٢٩ ربيع الثانى أى قبل اليوم الذى حدده لمغادرة إيطاليا إلى حفيده عباس باشا كتخدا آخر أمر موقع منه وهو كالآتى :

« كان قيامى من نابولى فى اليوم الرابع والعشرين من هذا الشهر الذى هو شهر ربيع الثانى وتيسر وصولى سالما إلى الاسكندرية يوم تاريخه وكنت عازما على الحضور إلى مصر لتسوية أمور مصالحنا لكن الأطباء أشاروا بعدم موافقة ذلك نظراً للوسم الحالى ولهذا يا ولدى يلزم حضورك هنا مستصحبا حضرات أحمد يكن باشا وشريف باشا مدير المالية وسامى باشا » .

وفى منتصف الساعة الخامسة من عصر يوم الجمعة ٢٤ شوال سنة ١٢٦٤ اجتمع الديوان المعتاد اجتماعه كل يوم جمعة بديوان الغورى بحضور العلماء والمشايخ وأشراف القاهرة ووقف الجنود والضباط فى ميدان القلعة وفتح الفرمان الموجه إلى إبراهيم باشا بتوليته والياً على مصر والسودان .

ولما كانت مدة حكم ابراهيم لم تزد عن السنة والنصف سنة (أى من ابريل سنة ١٨٤٧ — نوفمبر سنة ١٨٤٨) فقد وجه عنايته بصفته جندياً إلى تقوية ثغور البلاد وتعزيز قواتها الحربية .

المصرى قد نصب نفسه حارسا عليه وعلى بحارته المتذمرين . أما سوريا فانها باتت تمقت المصريين بقدر ما كانت صديقة لهم عند دخولهم اليها . وأما الجيوش المصرية فقد هزمت فيما دار بينها وبين الأتراك من المعارك هذا فى حين أن الحملة البريطانية التى كانت تطلق قنابلها على عكا قد وفقت إلى نسف ما كان يملكه ابراهيم من الذخيرة . وفى نفس الوقت الذى تقهقر فيه ابراهيم تقهقره المشؤوم من دمشق إلى غزة ظهرت عمارة نابيير أمام

= وفى خلال فترة حكمه القصير أصدر أمره بنشر جريدة رسمية أسبوعية تشتمل على كل ما يهم أهل القرى الاطلاع عليه من أخبار التجارة والزراعة والاعلانات الملكية وتوزيعها بين أهالى القرى .

كذلك وجه عنايته رحمه الله إلى شؤون الرعية وعمل على اختصار الاجراءات المتبعة فى سير القضايا فعمد إلى تنظيم مجلس فى القاهرة وسماه جمعية الحقانية الثانية واسند رئاسته إلى اسماعيل بك تيمور زاده .

وما لبث أن أصدر أمره الكريم بما ذكر فى الوقائع المصرية بترجمة الكتب المرغوبة الخاصة بالقوانين والتراتيب والآداب وسائر العلوم والفنون النافعة من اللغة الفرنسية إلى اللغة التركية والعربية وطبعها ونشرها كوسيلة لتعميم الثقافة . ولما كان هذا لاسبيل إلى تداركه إلا بالحصول على المترجمين البارعين فى اللغات الأجنبية والتركية والعربية فقد جاء بالعدد اللازم منهم وأفرد لهم إدارة ترجمة خاصة عهد برئاستها إلى أمير اللواء كانى بك لأنه كان خبيراً باللغات الأفرنجية وعين رفاعة بك رافع رئيساً للقسم العربى .

وفى ٢٢ القعدة سنة ١٢٦٤ سافر عباس باشا كتخدا باشا مصر إلى جدة قاصداً الحجاز لاداء فريضة الحج .

وظل إبراهيم سائرا فى الحكم سيرته المرضية هذه حتى عاوده المرض وهو الرجل الذى كان لايرهب الموت عندما كان يواجهه فى ساحات القتال . ثم أخذت وطأته تشتد بسرعة حتى عاجلته المنية فى يوم ١٤ الحجة سنة ١٢٦٤ الموافق ١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨ ولم تمض احدى عشرة ساعة حتى كانت جثته تحمل إلى مقرها الأخير فى مدافن الأسرة الخديوية بجوار الامام الشافعى .

ويمكنك أن تصور لنفسك مبلغ وقع هذه الصدمة الهائلة على محمد على الذى كان ما يزال يعانى آلام المرض الجسدى والعقلى .

ثغر الأسكندرية . وقد ختم نابيير حديثه مع محمد على عند زيارته له فى قصر رأس التين بهذه الجملة . « يميناً لأطلقن عليك القنابل ولأضعن قنبلة حيث تجلس الآن إذا لم تصغ إلى ندائى غير الرسمى ! » وهى شقشقة أريد بها استهواء الاسماع فى انجلترا ليس غير ، إذ كان فى وسع الباشا — لو أراد — أن يصبح فى مأمن من مدافع الاسطول بان ينسحب إلى القاهرة

= وعلى أثر وفاة ابراهيم عقد المجلس لتسيير دفة الأعمال الحكومية إلى حين عودة عباس باشا من الحجاز . وقد أرسل فى طلبه فعاد إلى مصر على جناح السرعة ووصل القاهرة فى ٢٤ ديسمبر . وإذ لم يكن هناك اعتراض على توليته فقد صدر إليه الفرمان الشاهانى بجعله والياً على مصر والسودان فاعتلى الأريكة.

وكان محمد على مايزال مقيما فى الاسكندرية وقد اشتدت عليه وطأة المرض ونفدت كل وسائل الطب لانقاذه .

وفى ٢ أغسطس سنة ١٨٤٩ الموافق ١٣ رمضان سنة ١٢٦٥ انشبت المنية أظفارها فى ذلك الرجل الذى أنشأ أمة . ولم تكن ثمة دهشة لوفاته نظراً لطول مدة النزع التى قضاها رحمه الله .

وفى اليوم التالى نقلت جثته من قصر رأس التين إلى القاهرة حيث شيعت باحتفال مهيب إلى مرقدها الأخير فى جامع القلعة عملا بوصيته .

وهكذا انتقل إلى الأبدية ذلك الرجل العصامى الكبير الذى خلف ميراثا لا تبليه يد الزمان وأسس دولة وحقق لها استقلالها وأتم لها وحدتها وشيد دعائم نهضتها وحضارتها وأتى بمفرده من جلائل الأعمال مالا يستطيع مئات الرجال مجتمعين أن يأتوا بعشر معشاره .

وكيف لا وهو الرجل الذى تمكن برغم أميته من إعلاء شأن الجيش المصرى وقد كان مركباً من عساكر غير نظاميين (باشى بوزوق) وجعله جيشاً نظامياً حتى أن تركيا لم تر من الغضاضة على نفسها أن تلجأ اليه لاعارتها بعض الضباط المصريين للمساعدة على تنظيم الجيش التركى الجديد بعد إبادة طائفة الانكشارية.

وقد بلغ عدد جيش محمد على فى سنة ١٨٣٧ نحو ٢١٧٥٨٣ جندى من المشاه والفرسان وغيرهم عدا ٦٣٣٠ ضابط .

أما القوة البحرية فقد بلغت فى تلك السنة ٣٠٢ ضابط و١٤٨٤٠ بحار عدا ١٨ طبيب =

ولكن كان له من الحكمة والمهارة السياسية مايجعله يفسح صدره للفريق الثانى حتى يفرغ جعبته من الألفاظ بشرط أن ينال هو مراده . ولهذا تظاهر بالنزول على ارادة السلطان والامتثال لتهديد بالمرستون فسلم سوريا التى كانت قد أفلت زمامها من يده فعلا وتخلى عن كريد التى كانت عديمة الفائدة ولكنه نال فى مقابل ذلك اعترافاً رسمياً بجعله والياً على مصر وبحصر نظام الوراثة فى أسرته كما أنه حقق لمصر استقلالها الاقتصادى عن الامبراطورية العثمانية . وصفوة القول كانت مصلحة مصر فيما تخلى عنه محمد على فى حين أن ماا كتسبه كان لاغنى عنه لها .

ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد بل كان لابد من إضاعة وقت آخر

=و ٦٨ صيدلى و ٦٨ كاتباً وغيرهم . وقد اشتمل الأسطول المصرى على ٦٨ سفينة مسلحة بما لا يقل عن ٩٥٠ مدفعاً وأربع سفن طرادة و ١٤٤ نقالة وكان مجموع القوتين البحرية والبرية فى سنة ١٨٣٧ نحو ٢٥١٩١٨ هذا مع أن تعداد سكان مصر كما أثبته الجمعية العلمية التى كانت مرافقة للحملة الفرنسية كان فى سنة ١٨٠٠ لايزيد عن ٢٤٦٠٢٠٠ ولكن هذا العدد تضاعف فى عهد محمد على حتى بلغ فى سنة ١٢٦٤ (١٨٤٨) بمقتضى التعداد الذى عمل وقتذاك نحو ٤٤٧٦٤٤٠ وهو التعداد الذى يرجع إليه فى محفوظات الدفترخانة بالقلعة لمعرفة أفراد العربان عند طلب نسبتهم إلى قبائلهم لمعافاتهم من الخدمة العسكرية .

ثم ماقولك فى رجل كانت إيرادات البلاد عند ماتولى شؤونها بعد انتهاء الاحتلال الفرنسى بثلاث سنوات وكسور تبلغ ١٥٨٧٢٤ جنيها تقريباً والمصروفات ١٣٥٨٨٧ جنيه تقريباً والفرق بينهما وقدره ٢٢٨٣٦ جنيه تقريباً يدفع كاتاوة للدولة العلية، فلم يحل عام ١٨٤٢ حتى بلغت الايرادات ٣٢٠٢٠٥٥ جنيه تقريباً أى أن الايرادات تضاعفت بنسبة ٢٠ر١٧ عما كانت عليه عند استلام محمد على إدارة سفينة البلاد ؟

وكيف لا يكون محمد على معجزة العصر وهو الذى استطاع بمثل تلك الميزانية الضئيلة - إذا قيست بميزانية مصر فى الوقت الحاضر - أن يدير حركة البلاد وينشىء فيها المصانع ودور الأسلحة والترسانات لانشاء السفن البحرية وأن يجيش الجيوش الجرارة التى سجلت صفحات خالدة فى تاريخ مصر سواء فى فتح سوريا أو حرب المورة أو فتح=

سدى على صفاف البوسفور والنيل وسكب كمية أخرى من المداد فى وزارات الخارجية واهراق دماء زكية جديدة قبل أن يوضع هذا الاتفاق موضع التنفيذ لأن بالمرستون كان قد صدع الائتلاف الاوربى مما شجع الباب العالى على رفض الأذعان للاتفاق . وأخيراً تمكنت النمسا أن تحصل من الباب العالى على خطين همايونيين باعلان استقلال مصر أحدهما فى ١٣ ابريل والآخر فى ١٩ ابريل سنة ١٨٤١ ووافقت معاهدة لوندرة (١٣ يولية سنة ١٨٤١) على أن تعهد بحكم مصر الى محمد على بضمان من الدول ثم من بعده الى الأرشد فالارشد من أعضاء أسرته بعد استئذان حكومة الاستانة . ثم حددت المعاهدة قيمة الجزية التى تدفعها مصر كما حددت الجيش فجعلته ١٨٠٠٠ على أن تبقى المناصب الرئيسية فيه قاصرة على طبقة الاتراك الحاكمة . ولهذا نص فى الاتفاق على جعل التعيين لهذه

السودان والحجاز هذا عدا أعماله المجيدة فى بناء القناطر الخيرية وشق الترع وغير ذلك من أعمال الرى وإرسال البعثات العلمية إلى أوربا ؟ وقد قدروا عدد الطلبة الذين أرسلوا إلى أوربا بنحو ٣١٩ طالباً كلفوا الخزانة المصرية ٢٧٣٣٦٠ جنيها هذا مع أن ميزانية التعليم فى سنة ١٢٥٥ (١٨٣٩) لم تكن تزيد عن ٤٦٧٨٤ جنيها تقريباً وعدد الطلبة فى المدارس يبلغ عن ٧٧٣٠ عدا تلامذة المدارس الحربية والمدرسة البحرية ومدرسة المعادن ومدارس أسوان وفرشوط والنخيلة وغيرها .

عناية محمد على بالفلاح

ولقد عجب مستر يانج مؤلف الكتاب الحالى لأن الفلاحين المصريين لم يثوروا على محمد على أيام أن كان يحشدهم ويبعث بهم إلى سوريا لفتحها وفاته أن الفلاحين كانوا يتفانون فى محبة هذا الرجل نظراً لسهره على مصالحهم وشدة عنايته بأمورهم ، وهل ترى مثالا على حب العدل والتفانى فى خدمة الرعية أعلى من المثال الذى نسوقه إليك هنا ؟ فقد صدرت الوقائع المصرية فى نهاية جمادى الأخرى سنة ١٢٥٢ وبها أمر وجهه محمد على إلى مفتش عموم الفاوريقات جاء فيه :

« قد اطلعت على شرحكم المسطر على شقة معاون فاوريقات قبلى بشأن العمال والمهمات اللازمة لفاوريقة ملوى وعلم بما تنوه على هامشها حصول حبس الأشخاص الواردين بدون ضامن بنفس الفاوريقة . ألم أقل لك مرارا ان أولياء نعمتى اثنان :

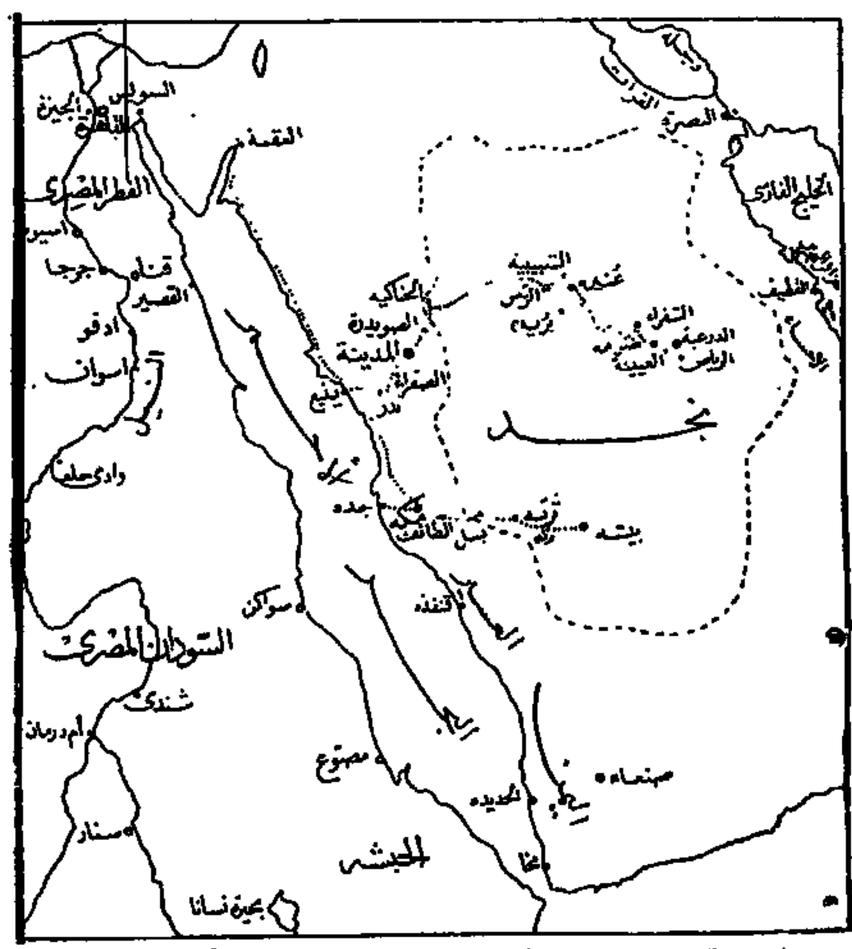
المراكز بموافقة السلطان ولا ريب فى أن الأمر الأول حقق لمصر استقلالها من الوجهة الاقتصادية بينما جعلها الأمر الثانى خاضعة من الوجهة السياسية. نعم أن الباب العالى وافق على استقلال مصر الداخلى ولكنه استغل بمهارة عداء بريطانيا لمحمد على فاحتفظ لنفسه بحق التدخل فى شؤونها . على أن أسوأ مافى هذا كله أن هذا التضييق وقف حجر عثرة فى سبيل نمو الديموقراطية المصرية. إذ لا يخفى أن الجيش هو أول مراحل الانتقال إلى الحياة الديمقراطية من الحكم الاستبدادى فى الشرق بقطع النظر عما إذا كان ذلك حكم السلطان أم حكم الوالى . ولكن الانجليز وحلفاءهم الاتراك قد عملوا على تعجيز نمو الامة المصرية بشكل خطير . وقد تبين فيما بعد أن هذه القيود كانت من الاسباب الرئيسية للاصطدام بالوطنية المصرية فى عهد عرابى .

= أحدهما السلطان محمود والآخر الفلاح . وان قصدى من هذه الحكاية عدم النظر إلى الفلاح بعين العداوة وإزالة ذلك من الوجود لأن أخذنا وعطانا ونيلنا هذا الشرف هو من وجوههم أى بسببهم فعليه ولكون أن الفلاح ولى نعم الجميع ألم يجب النظر إلى ما فيه أصول رفاهيته وزيادة يوميات أولئك الشغالين ؟ فيلزم بوصوله عمل صورة مستحسنة لصرف أجورهم ليكون ذلك موجباً لرفاهيتهم وتشويقهم للمصلحة إذ بذلك تعود المنفعة عليها ويسر الجميع ويستوجب حضورهم للأشغال بانشراح قلب وبعد تقرير مايلزم لما ذكر تعرض الكيفية لطرفنا » .

هذا وأمثاله قليل من كثير. ونحسب أننا لو أطلقنا للقلم العنان لا تنهى بنا الأمر إلى وضع مؤلف بحاله عن عهد محمد على لأن الانسان لا يلق بنظرة على أية ناحية من النواحى الاجتماعية أو العمرانية أو العلمية أو أو الخ فى عهد محمد على إلا وجد مجالا شاسعاً للبحث والتقصى . لهذا رأينا الاكتفاء بما سردناه كانموذج بسيط عما قام به من جلائل الأعمال ذلك المصلح الكبير الذى كان يعتبر بحق آية عصره ومعجزة زمانه.

نظرة إلى تاريخ ابراهيم باشا

وننتقل الآن إلى ولده الذى كان يعتبر بمثابة ذراعه الأيمن . فلقد نشأ ابراهيم كان =

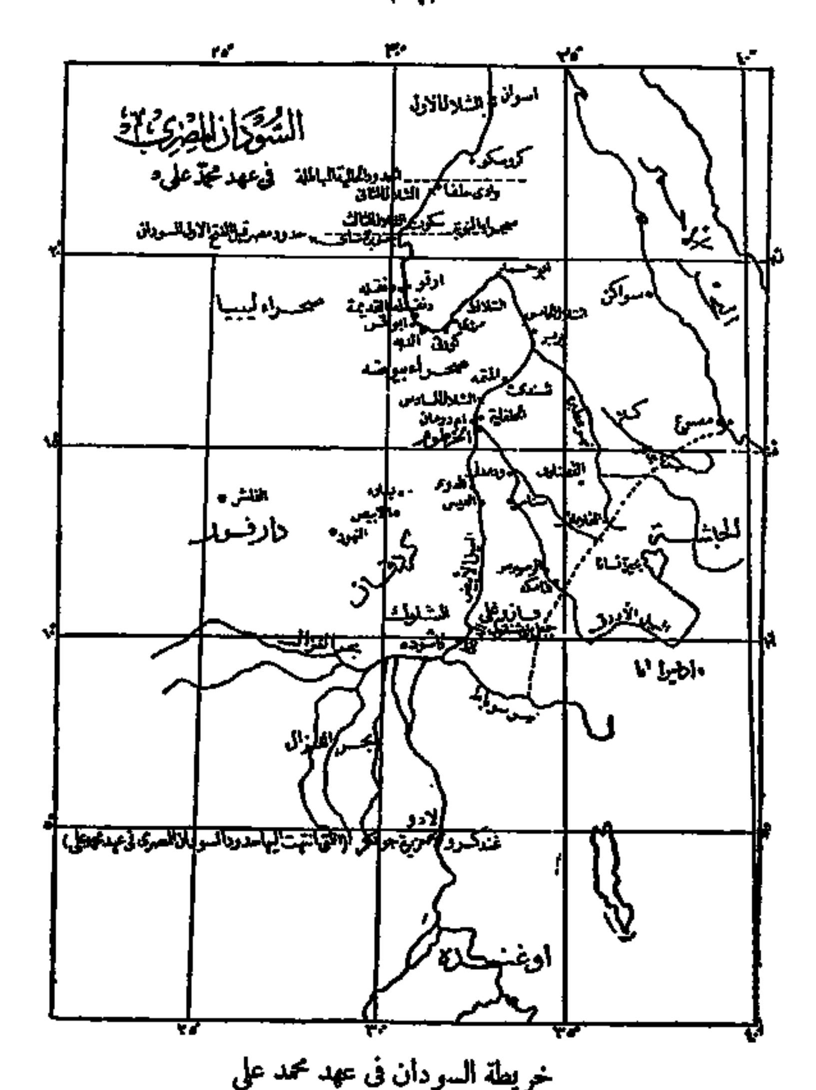


خريطة بلاد العرب وفيها بيان الجهات التي دخلها ابراهيم باشا في أثناء الحرب الوهابية

= مر بك واتصل تاريخه من البداية بتاريخ أبيه محمد علي . ولكنا رغم ذلك نرى اتماما للفائدة أن نقول كلمة عن نشأته وعن بعض أعماله الحربية التي لم يتسع لها المجال في الصفحات الماضية وبخاصة في الحرب اليونانية التي كانت أصدق برهان على غدر السياسة وتربصها الفرص للنكاية بمصر وقد اقتبسناها عن الجزء الثالث من كتاب « تاريخ الحركة القومية » لصديقنا الاستاذ البحاثة عبد الرحمن بك الرافعي المحامي . قال حضرته ما خلاصته :

إن ابراهيم هو أكبر أولاد محمد علي ولد كأبيه في قوله وكان ذلك في سنة ١٧٨٩ وهبط مصر مع أخيه طوسون في سنة ١٨٠٥ . وما كاد يشب قليلا عن الطوق حتى قذف به والده إلى معركة الحياة فخاضها بجسارة الأسود وأبلى فيها أحسن بلاء .

وفي سنة ١٨٠٧ أى قبل بلوغ سن العشرين تولى منصب الدفترداريه المصرية وهو =



خريطة السودان فى عهد محمد على
وقد وصلت الفتوحات المصرية فيه الى كسلا ثم الى حدود الحبشة شرقا والى غندكرو جنوبا وهى آخر نقطة وصلت اليها الاكتشافات الجغرافية لأن أوغنده أو مديرية خط الاستواء لم تكن قد اكتشفت بعد

= يعادل وزير المالية اليوم . وكان أجل عمل له فى منصبه هذا أن أمر بمساحة أطيان القطر المصرى .

ثم ولى المناصب الحربية الكبرى وتجلت مواهبه وبطولته فى الحرب الوهابية حيث اصطحب معه لأول مرة فى تاريخ القواد الشرقيين طائفة من الأوربيين ومن بينهم =

ويظن المؤرخون أن عهد محمد على انتهى بحبوط مشاريعه الاستعمارية من الوجهة السياسية وأنه مات بعد ذلك بثمانية أعوام متأثراً من هذا الفشل . وهذا لعمرك هو مايقوله الانجليز فى الاتفاق المذكور لا مايقوله المصريون . ولكننا لو أنعمنا النظر فى المفاوضات التى أدت إلى هذا الاتفاق وذكرنا أن بالمرستون كان يهدد بيأس الامبراطورية البريطانية كلها وأن الباب العالى كان يلجأ على التوالى إلى كل مافى جعبة سياسة الامبراطورية العثمانية من التدابير والحيل لخلع الأسرة المصرية وهدم الاستقلال المصرى — إذا ذكرنا ذلك كله أدركنا أن محمد على بتحقيقه

= الضابط الفرنسى فيسير مع أن ذلك لم يكن مألوفاً ولا شائعاً . ولكن ابراهيم باشا دفعته صدق فراسته إلى الاعتقاد بأن الشرق لا ينهض إلا إذا اقتبس الخبرة عن علماء أوربا وقوادها .

ثم انضم ابراهيم إلى أخيه اسماعيل لمعاونته فى فتح السودان . على أن اقامته هناك لم تطل بسبب ما ألم به من المرض . فترك لأخيه مهمة وضع الأسس التى أدت إلى فتح السودان نهائيا فيما بعد على ما تراه مبينا فى الخريطة المنشورة فى الصفحة السابقة .

فلقد وصلت حدود السودان شرقا إلى البحر الأحمر بعد أن فتحت الجنود المصرية سنة ١٨٤٠ اقليم التاكا (كسلا) . ثم استولت أيضا على القضارف فى غربى حدود الحبشة وكذلك القلابات . ثم دخلت سواكن ومصوع . ووصلت فى الجنوب إلى غندكرو وهى آخر نقطة وصلت إليها الاكتشافات الجغرافية الاقليمية لأن أقليم أوغنده لم يكن قد اكتشف بعد .

الحرب اليونانية

وما كاد ابراهيم يعود من السودان إلى مصر حتى اكفهر الجو بسبب الحرب اليونانية فعهد إليه أبوه بقصم ظهر الفتنة اليونانية وتعليم اليونانيين درسا لا ينسونه فى المستقبل .

ولسنا بحاجة إلى الدخول فى تفاصيل تلك الحرب . وبحسبنا أن نذكر طرفا منها بعد أن اكتفينا بالالماع إليها فى سياق الكلام على محمد على باشا . فلقد تجمعت فى ثغر الاسكندرية عمارة مصرية تبلغ ٥١ سفينة حربية و ١٤٦ سفينة نقل تحمل ٢٢٠٠٠ جندى وقد وصفها المسيو دريو بأنها تشبه الأرمادا (التى أعدها فيليب الثانى ملك اسبانيا لمحاربة انجلترا فى القرن التاسع عشر) وانه لم ير فى الشرق حملة تدانيها فى ضخامتها منذ حملة بونابرت فكان =

هذين الأمرين بصفة دائمة مع احاطتهما بسياج منيع فى شكل ضمان دولى قدجاء لمصر بمنافع كبيرة كثيرة فى مقابل تخليه عن فتوحات كان الاحتفاظ بها مما ينوء به كاهله. أما فيما يختص بالقيود المشار إليها فان الجيش أحسن وقتئذ القيام بواجبه وإن لم يكن ينتظر أن يعيره محمد على الأهمية السياسية التى فاتت حتى السياسيين الذين جاءوا بعده بجيل كامل. ولم يكن محمد على بعد هذا الفشل أدنى إلى الائتمار بأوامر الانجليز مما كان قبله. وقد حل الجيش وأعيد الأسطول التركى إلى الاستانة ولكن الاسكندرية كانت حصونها من القوة والمنعة بحيث كان يستحيل معها فرض شروط صارخة أخرى قبل هدم هذه الاستحكامات كما وقع بعد جيل.

= الشرق أراد أن يغزو الغرب جوابا على حملة أوربا عليه. وهكذا تتقلب الأطوار فى سير التاريخ».

وسافرت هذه العمارة من الاسكندرية للاتصال بالأسطول التركى الآتى من الدردنيل بقيادة خسرو باشا الذى كان قد ذاق الأمرين من الحراقات اليونانية (وهى سفن مشتعلة تقذف بنفسها على السفن العثمانية فتحرقها بنارها كلية).

وبعد مناوشات طويلة مضنية مدة خمسة أشهر أدرك ابراهيم أن قهر اليونانيين لا يتحقق إلا بمقاتلتهم برا فانتهز الفرص وأنزل جنوده إلى بر الموره فى جهة مودون. وبعد قليل نشبت أشد معارك الموره هولا وهى معركة نافارين. فقد حاصرها ابراهيم بحرا وزحف عليها برا وشتت شمل الجنود اليونانية. وبالجملة كانت معركة نافارين الأولى فاتحة الانتصارات فى القارة الأوربية.

ولما كانت نافارين واقعة على البحر وإلى شمالها جزيرة اسفاخترِيا التى حصنها اليونانيون أشد تحصين فان الامدادات كانت ماتزال تصل إليها من تلك الجزيرة. فصمم على احتلالها وعهد بهذه المهمة إلى سليمان باشا الفرنساوى.

ونشبت عدة معارك تشيب لهولها الولدان انتهت باخضاع هذه الجزيرة مما أدى فى النهاية إلى الاستيلاء على نافارين فى ١٨ مايو سنة ١٨٢٥

ثم توالت المعارك وخضدت شوكة الثوار ووصلت نجدات مصرية جديدة وفتح الطريق أمام الجيش التركى فاحتل أثينا. ونشطت الحراقات اليونانية فى غضون ذلك =



خريطة اليونان وفيها بيان الحرب التى اندلعت فيها السنة الثورة اليونانية والجهات التى استولى عليها ابراهيم باشا

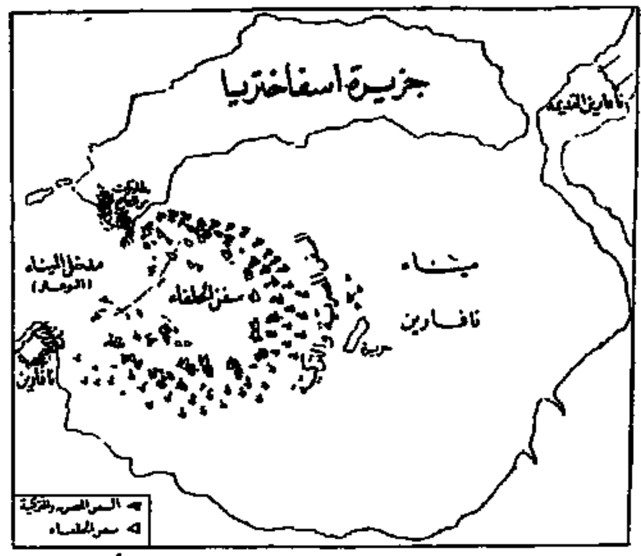
= وحاولت الفتك بالأسطول المصرى فى الاسكندرية ولكن عادت بالخيبة والفشل .

ومع أن الثوار اليونانيين قد غلبوا على امرهم فى شبه جزيرة الموره إلا أنهم انبثوا فى الجزر المجاورة وبخاصة فى جزيرتى هيدرا واسبتزيا كما تراه فى الخريطة وأخذوا يعيثون فى البحار فسادا فاستقر رأى محمد على على اعداد حملة جديدة لاستئصال شأفة الثائرين .

تدخل الدول الأوربية

وقد حدثنا صديقنا المؤرخ المحقق الاستاذ عبد الرحمن الرافعى بك فى كتابه الآنف الذكر عن تدخل الدول الاوربية لانقاذ الثائرين قبل أن يستأصل شأفتهم ابراهيم باشا فقال ما خلاصته :

إن المعارك السالفة الذكر وما أبداه الثوار من الاستبسال حركت فى صدور الدول الاوربية روح العطف على مطالبهم وذهب شعراؤهم وفى مقدمتهم لورد بيرون فى انجلترا وفيكتور هوجو وشاتو بريان فى فرنسا يتغنون بمجد اليونان القديم ويضربون على الوتر الدينى الحساس ليحملوا الدول على التدخل إلى أن تحركت روسيا فى عهد قيصرها نيقولا الاول واعتزمت التدخل بمفردها لصالح اليونان . ولكن انجلترا خشيت عاقبة انفرادها بالامر فانفذت الدوق ولنجتون سفيرا لها فى روسيا واتفق الفريقان مبدئيا (٤ ابريل سنة ١٨٢٦) على تخويل اليونان استقلالا داخليا مع الاحتفاظ بالسيادة العثمانية .



خريطة موقعة نافارين وهى تبين موقف السفن المصرية أمام سفن الحلفاء

وبعد سقوط ميسولونجى تجددت المفاوضات بين الدول وانضمت فرنسا إلى انجلترا وروسيا وعقدت معاهدة لوندرا (٦ يولية سنة ١٨٢٧) على تخويل اليونان الاستقلال الداخلى وابقاء السيادة العثمانية والمطالبة بوقف القتال بين الفريقين تمهيدا للاتفاق ومطالبة الباب العالى بقبول المعاهدة فى خلال شهر وإلا التجأت الدول إلى القوة.

ولم تشترك النمسا فى هذا المسعى نزولا على مبدأ مترنيخ وهو عدم مساعدة أية ثورة يقوم بها شعب ضد حكومته الشرعية. ولما كان الحلفاء يتوقعون رفض تركيا قرروا ارسال أساطيلهم إلى المياه اليونانية لتأييد مطالبهم بالقوة ولمنع وصول المدد المصرى العثمانى.

فأنفذت انجلترا إلى تلك المياه عمارة مركبة من ١٢ سفينة بقيادة الاميرال كودرنجتون ووصل بعده الاميرال رينى الفرنسى فى عمارة مركبة من سبع سفن ثم وصل الاسطول الروسى من بحر البلطيق وعدد قطعه ثمان. وتولى القيادة العامة الاميرال كودرنجتون الانجليزى.

وصول الحملة المصرية إلى نافارين

وفى هذه الأثناء فرغ محمد على من تجهيز الحملة وكلفها بالسفر إلى المياه اليونانية. فأقلعت من الاسكندرية فى أوائل أغسطس سنة ١٨٢٧ وكانت مؤلفة من ١٨ سفينة حربية مصرية و ١٦ سفينة تركية وأربع سفن تونسية وست حراقات وأربعين نقالة لنقل الجنود وعددهم ٤٦٠٠ جندى. ثم انتهزت العمارة فرصة غفلة الحلفاء وألقت مراسيها فى نافارين.

وقد ظلت سياسته الخارجية على ما كانت عليه دون أن يطرأ عليها تغيير ما . فان ارتيابه فى الانجليز وبعد نظره فى التخوف منهم جعله يرفض منحهم امتيازاً بحفر قناة أو إنشاء سكك حديدية . على أنه لم تمر أربع سنوات على سياسة بالمرستون العنيفة حتى سمح محمد على للضابط فاجهورن بتنظيم الطريق البرى مما أدى إلى تخفيض مدة البريد الهندى إلى شهر

= ومن ثم بدأ الحلفاء يتحرشون بها فشرع كودرنجتون (١٩ سبتمبر سنة ١٨٢٧) يطالب ابراهيم باشا بوقف القتال برا وبحرا طبقا لمعاهدة لوندرا وبعدم ارسال قوات برية أو بحرية إلى أية جهة من اليونان أو إلى جزر بحر الارخبيل . وكان معنى طلبه ذلك الكف عن ارسال الحملة البحرية إلى جزيرة هيدرا (معقل الثوار) .

ودارت مقابلات بين أميرالية الحلفاء وابراهيم باشا تقرر بعدها أن يرسل ابراهيم إلى أبيه يستطلع رأيه فى الموقف ويتعهد بأن لا يخرج أسطوله من نافارين إلى المياه البحرية اليونانية .

ومع أن معاهدة لوندرا المذكورة كانت تقضى بوقف القتال من الجانبين فان الحلفاء سمحوا للثوار بانتهازها لجمع أشتات قواتهم لمهاجمة الجيش المصرى مما كان يدل على وجود مؤامرة بيتها الحلفاء للقضاء على الأسطول المصرى والتخلص من منافسة هذه العمارة الفتية .

وفى أثناء هذه الهدنة وبالرغم منها اعتزم اليونانيون مهاجمة بتراس فى شمالى الموره التى كان يحتلها المصريون . فلما شكا ابراهيم باشا إلى كودرنجتون هذا التصرف لم يرد عليه رداً مقنعاً فقرر إرسال مدد إلى باتراس وبعث إليها بقسم من عمارته البحرية .

فشق ذلك على الحلفاء وعدوه نقضاً للهدنة مع أن ابراهيم لم يتعهد إلا بعدم مهاجمة جزيرة هيدرا فقط ولم يتعهد مطلقاً بعدم إمداد الحاميات المصرية فى الموره وبخاصة إذا هاجمها الأروام ناقضين أحكام الهدنة . وعلى كل فان كودرنجتون أرسل بعض سفنه لتعقب السفن المصرية وأنذارها بالحرب إن لم تعد أدراجها إلى نافارين فعادت .

وفى هذه الأثناء وصل رد محمد على فاذا هو يحتم على ابراهيم عدم التحرش بالحلفاء والانتظار ريثما يتلقى محمد على رد الباب العالى فى الموضوع .

ووقف ابراهيم موقف الدفاع ولكن أنى للحلفاء أن يقنعوا بهذا وهم الذين كانوا قد بيتوا بينهم أمرهم على سحق العمارة المصرية ؟

واحد كما أدى إلى مجيء مالا يقل عن ١٥٠٠٠ سائح إلى مصر سنويا .

وهكذا تمت سلسلة الحروب الطويلة التى أثارها ذلك الباشبوزق المزمن ولم يكن عن طواعيته للحوادث أنه أخذ تدريجاً يسلم زمام الامور الى ولده ابراهيم الذى انتهى به الأمر أن أصبح قائم مقام (١٨٤٧) ولكن الأرجح أنه شعر بضعف فى قواه العقلية كما يلوح من اعتزامه ارسال تجريدة عسكرية الى مارسيليا لأعادة صديقه لويس فيليب الى سرير الملك .

وقد انتهز بعد فراغه من عناء الأعمال أول فرصة للراحة عرضت له فى حياته الطويلة فأكب على الملاذ البريئة الانسانية البحتة فوضع بيده الحجر الأساسى للقناطر الخيرية العظيمة المقامة على النيل تلك القناطر التى توجت بالنجاح

معركة نافارين — (٢٠ اكتوبر سنة ١٨٢٧)

وفى منتصف اكتوبر غادر ابراهيم نافارين زاحفا بجزء من جيشه داخل الموره لانجاد الحاميات بعد ما أوصى محرم بك قائد الأسطول المصرى وطاهر باشا قائد الأسطول التركى بترك التحرش بالحلفاء لأن الحرب لم تكن أعلنت بعد .

وعاد ذلك على الكيد المبيت من جانب الحلفاء انهم عدوا زحف ابراهيم عملا مناقضا لأحكام الهدنة وأنهم لذلك يلقون عليه تبعة ما يترتب على عمله هذا !! فانفذوا إليه رسولهم يحمل إنذارا بذلك مع علمهم برحيل ابراهيم باشا ومغادرته لنافارين . وبدلا من الانتظار ريثما يصل كتابهم إلى ابراهيم باشا فى الجهة التى سار إليها ويتمكن من الرد عليه حددوا لقبول إنذارهم مدة يومين فقط ! !

فلما جاء الرسول إلى نافارين فى يوم ١٨ اكتوبر أى قبل نشوب المعركة بيومين لم يجد ابراهيم باشا فعاد أدراجه إلى كودرنجتون . وهى مجرد مناورة للتخلص من أسطول ابراهيم باشا .

واجتمع قواد الحلفاء فى ذلك اليوم للتشاور فقرروا دخول الأساطيل إلى ثغر نافارين لارغام ابراهيم باشا على قبول مطالبهم مع التظاهر فى الوقت نفسه بأنهم إنما يعملون داخل حدود معاهدة لوندرا بقصد منع الحرب ! !

وكانت السفن المصرية والتركية داخل الميناء موزعة فى ثلاثة صفوف متوازية . وقد وقفت فى الصف الأول البوارج والفرقاطات الكبيرة وفى الثانى سفن الكورفيت=



استقبال محمد على باشا فى الآستانة عند زيارته لها بدعوة رسمية من جلالة السلطان

مساعيه المتواصلة فى سبيل تجديد نظام الرى العتيق فى مصر . وهكذا ابتكر بهـا نظاما جديدا للرى تركت لأعدائه مهمة إتمامه من بعده . وقد تاقت نفسه إلى رؤ ية الأماكن التى كانت فيها نشأته فى سلانيك ومنهـا خرج الى الاستانة حيث استقبل استقبالا رسمياً .ولم ينس أثناء وجوده

=وتليها سفن الابريق وغيرها . وكانت استحكامات قلعة نافارين مع بطاريات المدافع تحمى مدخل الميناء .

وفى أحرج الساعات وأشدها خطرا فى تاريخ مصر غادر الضباط البحريون الفرنسيون الذين كانوا يعملون فى الأسطول المصرى سفنهم بعد استئذان الاميرال محرم بك تلبية لنداء الأميرال الفرنسى تماديا من مقاتلة مواطنيهم !!

وفى صبيحة ١٩ اكتوبر اجتمع قباطنة الحلفاء عند كبيرهم كودرنجتون على ظهر بارجته آسياللبت فيما يعمل متى نشب القتال ! هذا فى الوقت الذى كان فيه الاميرال المصرى مطمئن البال معتقدا أن الحرب لن تنشب .وصمم الحلفاء على تنفيذ مشروعهم واقتحام الميناء فى ذلك اليوم . ولـكن الريح كانت معاكسة . ولما كانت السفن تسير بالشراع وقتذاك فقد أرجأوا الهجوم إلى اليوم التالى .



محمد على باشا قبل سفره إلى باريس

فيها أن يزور خسرو زيارة ودية . ومن الغريب ان هذين الرجلين اللذين كانت منافسة أحدهما للاخر سبباً فى اشعال النار فى الشرق قضيا ساعات طويلة وهما يقهقهان لذكرى فشل كل منهما فى اغتيال الآخر !!

= وفى الساعة العاشرة من صبيحة اليوم التالى ٢٠ اكتوبر شرعت سفن الحلفاء تدخل الميناء وفى طليعتها البارجة آسيا مقلة الاميرال كودرنجتون .

وعند منتصف الساعة الثانية بعد الظهر أصدر الاميرال الانجليزى أمره إلى السفن بالتأهب للقتال . وعند الساعة الثانيه تماماً اقتحمت السفن البوغاز .

وهنا أرسل الأميرال محرم بك الى الأميرال كودرنجتون يطلب اليه منع أساطيل الحلفاء من الرسو فى الميناء فأجابه الأميرال الانجليزى فى لهجة جافة بأنه « جاء لايتلقى الأوامر بل ليملى أوامره » !!

وأخذت سفن الحلفاء تتقاطر بعضها خلف بعض حتى وقفت فى محاذاة السفن المصرية وعلى بعد بضعة أقدام منها كما تراه مبينا فى الخريطة المنشورة فى ص ١٦٧ .

وتعتبر وفاة مؤسس استقلال مصر (اغسطس ١٨٤٩)خاتمة ملائمة



محمد على باشا يستعرض الجنود الفرنسية فى باريس عند سفره اليها

= وطلب قومندان البارجة دارتموت وقد وقفت على رأس الصف لتعطيل حركة الحراقات المصرية الراسية فى مدخل الميناء ، إلى إحدى هذه الحراقات إما بأن يغادرها بحارتها وجنودها أو أن تنسحب من موقفها وهو طلب كان بمثابة ذريعة لأشعال نار القتال كما لا يخفى .

ذلك ان الرسول الذى أنفذته البارجة حاملا هذا الطلب الى السفينة المصرية قد ذهب اليها فى قارب مسلح متحدياً متحفزاً للقتال .

وهنا يزعم مؤرخو الحلفاء أن رصاصة أطلقت من السفينة المصرية فأصابت أحد جنود الحلفاء فى القارب المذكور . فلو سلمنا جدلا بصحة هذه الرواية لما كان هناك غبار على تصرف قائد العمارة المصرية وهو الذى رأى الحلفاء يعبثون بشروط الهدنة ويقتحمون البوغاز وفى نيتهم تدمير الأسطول المصرى التركى .

ولقد كانت العمارة المصرية التركية عند بدء المعركة مركبة من ٦٢ قطعة بينما كانت أساطيل الحلفاء لاتزيد عن ٢٧ سفينة أى أنها كانت أقل منها عددا ولكنها كانت ترجح الكفة المصرية التركية بكثرة بوارجها التى بلغت العشر حين ان المصريين والترك لم يكن لهم أكثر من ثلاث بوارج. ثم لا ينبغى أن يفوتنا أن الحلفاء اقتحموا البوغاز وهم =

للفصل الأول من قصة الأمة . وأحسب أنه قلما توجد بين قصص تاريخ الوطنية كقصة مصر فى غرابتها . فلقد استطاعت هذه الأمة قبل استيقاظ الضمير القومى فيها بزمن طويل أن تكون نفسها أمة متحدة فى غنى عن الغير بفضل مطامع رجل مخاطر أجنبى . وانه لمن الأهمية بمكان أن نلاحظ أن هذه المطامع المنطوية على حب المجازفة عندما بدأت تتجاوز حدود النمو الوطنى الحقيقى ردتها إلى الأرض الثابتة أيدى الملائكة الحراس

= مصممون على القتال بينما الجانب المصرى لم يكن يتوقع حرباً ولا قتالا لذلك فوجىء باطلاق القنابل . زد على ذلك أن القلاع لم تطلق مدافعها بل تركت أسطول الحلفاء يدخل الى البوغاز دون أن تتعرض له لأن القوم كما قلنا لم يتوقعوا قتالا .

وعلى كل فلم تمض برهة على دخول أسطول الحلفاء الى البوغاز ومحاصرته السفن المصرية التركية فى مكان ضيق حتى بدأ القتال ودارت رحاه بمنتهى الشدة وتجاوب الاسطولان الضرب فغدا المرفأ كأنه قطعة من الجحيم . ولم تكن تسمع إلا قصف المدافع أو دوى انفجار السفن التى كانت تنسفها قنابل الحلفاء . واستبسل الجانب المصرى التركى ولم يسلم سفينة واحدة بل آثر الهلاك على التسليم للعدو . وكانت الموقعة قد بدأت فى منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر فلم تحن الساعة الخامسة حتى كان قد قضى على العمارة المصرية التركية وهلك معظمها نسفاً وغرقاً وجنح الباقى على السواحل وأحرق البحارة أغلبها حتى لا تقع فى أيدى العدو . وبلغ عدد القتلى المصريين والترك ٣٠٠٠ فى حين أن خسائر الحلفاء لم تزد عن ١٤٠ قتلى و ٣٠٠ من الجرحى .

وليس ريب فى أن موقعة نافارين هى من المواقع القليلة التى يتمثل فيها الغدر ونقض العهود والمواثيق مجسما . كيف لا وقد وقعت دون اعلان الحرب بين تركيا والدول المتحالفة واغتال الحلفاء العمارة المصرية التركية دون إنذارها وهذا وغيره مما أتاه الحلفاء مناف لابسط قواعد الحروب المتفق عليها بين الدول المتمدينة .

وقد مر بك أن ابراهيم باشا كان متغيباً عن نافارين فلما بلغه تدمير العمارة المصرية التى أنفق عليها أبوه ما أنفق عاد إلى نافارين وشهد بنفسه أثر الواقعة فحزن لها أشد الحزن وأمر باعداد بعض السفن التى نجت من الكارثة وتعويم بعض ما أغرق وأنفذها إلى الاسكندرية ورأى التزام خطة الدفاع باخلاء الموره والانتظار فى ثغرى كورون ومودون ريثما تصله أوامر أبيه .

من أمثال القيصر نيقولا والسلطان محمود واللورد بالمرستون . من اجل هذا قبلت مصر محمد اعليا كمنشئها . ويعتبر الاحتفال بمرور مائة عام على توليه الملك أول احتفال عمومى قامت به الامة المصرية نحو منشئها هذا

بين تركيا ومصر بعد الموقعة

وبرغم تدمير العمارة المصرية التركية فان تركيا ظلت ترفض معاهدة لوندرا وطالبت الحلفاء بتعويض عن تدمير أسطولها .

فأعلنت روسيا الحرب عليها واحتلت أدرنه وأرسلت فرنسا حملة الى اليونان لاجلاء الترك والمصريين عنها . وانتهت الحرب الروسية التركية بعقد معاهدة أدرنة ١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٩) وبمقتضاها نزلت تركيا على ارادة الدول المتحالفة كما ورد فى معاهدة لوندرا بالاعتراف باستقلال اليونان الداخلى مع ابقاء السيادة العثمانية الاسمية عليها . وحدث بعد ذلك أن اتفقت كلمة الدول على تخويلها الاستقلال التام (٣ فبراير سنة ١٨٣٠)

أما مصر فان محمدا عليا أدرك بثاقب نظره أن ليس من الحكمة استمرار القتال بعد أن فقد عمارته وانقطعت المواصلات بين مصر وجيشها فى الموره وبعد أن أنفذت فرنسا الحملة العسكرية التى عهدت اليها باجلاء المصريين والترك عن اليونان .

وفى هذه الأثناء جاء الاميرال كودرنجتون الى الاسكندرية مصحوباً بعمارته وأنذر بتخريب المدينة أو يرسل محمد على أمراً باستدعاء ابراهيم من الموره . فتوسط فى الأمر قنصل انجلترا الجنرال فى مصر وعقد اتفاق مع الحلفاء على اخلاء الجيش المصرى لبلاد الموره . وقد عاد فعلا فى أكتوبر سنة ١٨٢٨ بعد حروب منهكة وتضحيات هائلة استغرقت أربع سنوات كاملة لم تفد مصر منها شيئاً اللهم إلا حسن سمعة جيشها ومقدرة قائده الاكبر ابراهيم باشا صاحب الترجمة .

وليس شك فى أن ابراهيم باشا اكتسب خبرة وأى خبرة فى الحرب اليونانية فقد حارب جيوشاً أوربية يقودها قواد مدربون على النظام الحربى الحديث وتغلب عليهم فى أكثر من موقعة .

من أجل هذا جاء اشتراكه فى الحرب السورية بمثابة الخاتمة السعيدة لبداية مجيدة . وقد تجلت عبقريته وأصبح اسمه مضرب الامثال ومقترناً بأسماء كبار الفاتحين وحسبك

الذى كان بلا ريب فريد عصره وفخر الحكام المصلحين ممن ظهروا فى البلدان المتاخمة لشاطىء البحر المتوسط من مراكش إلى تركيا . واذا جاز لأحد أن يقول أن الرجل كان من ناحية مغامرا ومستهترا لا يحسب حساب

= أن انتصاراته على تركيا قد أوقعت الدول الأوربية فى أكبر حيرة وجعلتها تضطرب من عواقب انتصارات هذا الفاتح العظيم وخشيت أن تؤدى الى فتح باب المسألة الشرقية قبل الأوان .

ولعل أبرز صفات ابراهيم شجاعته واقدامه وحبه للنظام وصرامته فى تطبيقه ولذلك كنت تراه فى ميدان القتال يعيش عيشة الجندى البسيط فى المأكل والنوم يشارك جنوده السراء والضراء وكثيرا ما كان يقطع المراحل الشاسعة سيرا على الاقدام ليعطيهم مثلا على ضرورة احتمال شدائد الحروب مما جعلهم يتعلقون به ويستميتون فى القتال تحت رايته.

وكان شديد الذكاء صادق الفراسة بعيد النظر فى عواقب الأمور ميالا الى الاقتباس من أسس تقدم الامم الغربية وكان شديد البساطة وهذا بعكس قواد الشرق وأمرائه .

وقد ذكر البارون بوالكونت أنه قابل محمداً علياً قبل مقابلة ابراهيم فى طرسوس عقب انتصاره فى معركة قونية وابرام اتفاق كوتاهيا واستطلع آراء الاثنين السياسية فقال عن ابراهيم إنه « لم تتوافر عنده القوى على تأسيس الممالك كما توافرت عند أبيه ولكنه كان متحلياً بما يكفى من المواهب للمحافظة على كيان الممالك وبقائها . . . وأن ابراهيم حافظ على احترامه وإجلاله لأبيه ولم يداخله الزهو حتى بعد انتصاراته العظيمة إلى حد أنه لم يكن يسمح لنفسه بالتدخين فى حضرته كما أنه كان لا يبرح وهو بعيد عن أبيه يبدى له من الاخلاص والطاعة والاحترام ما اعتاده من قبل » .

وأشار البارون الى الفوارق فى أرائهما فقال أن « محمدا عليا كان يمثل فكرة الحكم المطلق بعكس ابراهيم الذى كان يميل الى الأخذ بالمبادىء الحرة . ثم هناك خلاف جوهرى بينه وبين أبيه فى مسألتين مهمتين : الاولى انه كان غير موافق على نظام الاحتكار الذى اتبعه محمد على فى مصر وسورية مع انه نفذ أوامر أبيه فى هذا الصدد . والمسألة الثانية أن ابراهيم كان يميل إلى احياء القومية العربية كما تشهد بذلك أقواله وأقوال رجال حاشيته وبطانته بعكس محمد على الذى كانت نفسه متشبعة بالفكرة التركية . وكان من رأى ابراهيم أن يجعل أبوه من الأمبراطورية التى أسسها دولة عربية بحيث يكون حكامها ورعيتها وجيشها من جنس واحد وأمة واحدة (الأمة المصرية) وأن يعيد إلى القومية =

العواقب فلا يفوتنه الاعتراف من الناحية الأخرى بأنه كان نابليون الشرق وبطل مصر الوطنى ولهذا فان أعماله كما يقول القرآن « تشفع له » .



محمد على باشا على جواده الأبيض المشهور الذى كان يركبه فى الحفلات الرسمية

= العربية وجودها واستقلالها أسوة بلغتها وآدابها وتاريخها » .

ويدلك على تشبعه لهذه الفكرة ما رواه البارون عنه من أنه « كان يقول فى أثناء فتوحاته فى الشام أنه ينوى إحياء القومية العربية وإعطاء العرب حقوقهم وإسناد المناصب لهم سواء فى الادارة أم فى الجيش وأن يجعل منهم شعباً مستقلا ويشركهم فى أدارة الشؤون المالية ويعودهم سلطة الحكم كما يتحملون تكاليفه » .

وذكر البارون أن ابراهيم كان يعد نفسه عربياً إلى حد أن أحد جنوده خاطبه بالحرية التى كان ابراهيم يشجع عليها رجاله فقال له « كيف تطعن على الأتراك وأنت منهم؟» فأجابه ابراهيم فوراً « أنا لست تركياً فانى جئت مصر صبياً ومن ذلك الحين قد مصرتنى شمسها وغيرت من دمى وجعلته دما عربياً » .

ذلك هو ابراهيم باشا بطل حروب الاستقلال المصرية الذى فجعت فيه مصر قبل أن تفجع فى أبيه ببضعة أشهر . فسلام عليهما بما شيداه من مجد اثيل أخذت تمتد ظلاله الوارفة فى عهد حفيدهما الأكبر الجالس اليوم على عرش مصر « الملك فؤاد الأول » .

الفصل الثانى

المفلسون والسماسرة

عباس – سعيد – اسماعيل

« فسلبوا المصريين » — سفر الخروج الاصحاح
« الثانى عشر الآية السادسة والثلاثون »

« سيجنى أحفادى ثمار ما زرعت » . بهذه الكلمات استقبل محمد على الموت وهو فى دور النزع . ويشاء الجد العاثر أن تستخف العجلة والرعونة هؤلاء الأحفاد فلا يجنون من الثمار الا الحنظل بعد انهماكهم فى شهوات الشباب .

ليس يخفى أن لحدوث الثورة عن طريق الديكتاتورية مزية عظيمة هى سرعة ذهابها إلى أبعد الحدود دون استنفاد شىء من القوة كما هو مألوف عند حدوث الثورة بواسطة اللجان الديمقراطية . نعم ان الحكمة وليدة الشورى ولكن لاجدال أيضاً فى أن النظام الشورى يؤدى إلى إضاعة كثير من الوقت سدى . على أن هناك ضرراً من ناحية أخرى هو أن خلع الديكتاتور أو موته قد يترتب عليه أن تفقد الحركة قوتها الدافعة المدبّرة وتضل اتجاهها وعندئذ يحدث رد الفعل الذى هو دائماً أبداً بالمرصاد لأى وهن يطرأ على قوة الاندفاع السياسى . ومع أن القوة الابتدائية لهذا الاندفاع لن تفتأ تستجمع نفسها حتى تتم لها الغلبة فى النهاية إلا أنه لابد من إضاعة كثير أو قليل من الوقت ينقضى فى نزاع وفوضى قبل أن تستقر الأمور فى نصابها من جديد وتستعيض الحركة

عما خسرته من وقت . وسواء أكانت الثورة بالطريقة الأولى ، طريقة الديكتاتورية ، أم بالطريقة الثانية ، طريقة اللجان الديمقراطية ، فان مايبذل فى كل منهما من جهود أو مايضيع سدى من الوقت يكاد يكون متساوياً .

وتتجلى مقدرة محمد على فى ادراكه أن لاسبيل إلى أى تقدم حقيق فى أية ولاية من ولايات الامبراطورية العثمانية إلا بتوفر شرطين اساسيين . أولهما الانفصال عن الباب العالى والثانى الاطمئنان من ناحية الدول العظمى . وقد حقق محمد على هذين الشرطين بحصوله على استقلال داخلى فى الشؤون المالية مع حصر نظام الوراثة فى أسرته ، وصيانة هذا الاستقلال بالسيادة العثمانية وضمانته بمعاهدة دولية . فلم يبق إلا أن يوجد الحاكم الأوتقراطى الذى يستطيع بمقدرته أن يسهر على ذلك النظام الدولى . ومن ثم يعد المرحلة الأولى للانتقال من الأوتقراطية الشرقية إلى الديمقراطية الغربية . وقد كان فى استطاعة ابراهيم القيام بهذه المهمة وهو الذى كان له خلق أبيه وإن أعوزته مقدرته ، لأن حكمه فى سوريا (١٨٣٣ — ١٨٤١) وإدارته الصناعية تشهد بكفاءته . ولكنه لحق بربه وهو يشغل منصب قائمقام أبيه فى ١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨ وقد جاءت تولية عباس الأول نكبة على مصر ١٨٤٩ — ١٨٥٤

نعم لقد هدم محمد على صرح استبداد المماليك والأتراك ولكن لا ينبغى أن ننسى أنه هدم إلى جانب ذلك تلك السيادة العثمانية التى كانت درعا تتقى به جماعة اسلامية ، ماتزال فى سذاجة القرون الوسطى ، شره الجاليات الأجنبية والطوائف المسيحية وأرباب الامتيازات ممن يعتبرون العالم بأسره وطناً لهم . أما ثورة عباس الرجعية ضد ما كان يقوم به جده من أعمال الترقى الجديد فإنها وإن كانت أضر بمصر إلا أنها فى الوقت نفسه

قد كشفت عن سخط حقيق من جانب المصريين حيال الاستغلال الأجنبي كائناً ما كانت مظاهره سواء أكان من ناحية المماليك أمهن ناحية المرابين . نعم كان لابد من حدوث رد فعل كهذا يوماً ما ولكن عباس ولد، جعياً . يدلك على ذلك أنه أبى فى صباه تعلم اللغات الأجنبية كما رفض تلقن التربية الأوربية حتى إذا دخل دور الرجولة اعتزل الناس وانزوى كسولا فريداً إلى أعمق دركات الغموض الاسلامى . ولقد أعطى لنا السير نابيير فى كتابة « الحرب فى سوريا المجلد الثانى سنة ١٨٤٢ » والسير ث مورى فى كتابه المسمى « ترجمة وجيزة لحياة محمد على » صورة غير مرضية عن عباس الأول اذ أخبرانا أنه طالما أمر بجلد نسائه وإغراقهن فى اليم ، وأنه قضى معظم ايامه بين كلابه وجياده ، وانه أنفق أموالا طائلة فى زخرفة قصوره ، وأن شأنه كان كشأن غيره من المماليك فى سلب أموال فلاحيه . يضاف إلى ذلك أنه سمح لمموليه العديدين — وبينهم نوبار باشا الأرمنى — بأن يجمعوا له الأموال بأحدث الطرق للمضاربات حتى اذا تكدست لديه بعثرها بأقدم الطرق فى تشييد ثكنة فى الصحراء تنقبض لها النفس لدفن نفسه فيها بالحياة بين حراسه المماليك(١)

عباس باشا الأول

(١) لقد رأى القارىء ما كتبه المستر جورج يانج عن عباس باشا الأول ولا نحسبه تجاوز الحقيقة فيما قاله . فان أقل ما يمكن أن يوصف به عهد عباس الأول أنه عصر الرجعية أو « النكسة » فى طريق النهضة القومية المصرية .

ولد فى مصر سنة ١٨١٣ (١٢٢٨ هـ) أثناء غيبة أبيه طوسون باشا فى الحجاز حيث كان يقاتل الوهابيين . ولما كان طوسون قد انتقل إلى دار البقاء بعد ولادة ابنه بقليل فقد حباه جده محمد على باشا بعنايته وبذل جهد الجبابرة فى تربيته بمدرسة الخانكة وإعداده لمنصب ولاية مصر فى المستقبل باعتباره أكبر أفراد الأسرة سناً وأحقهم بولاية الحكم بعد ابراهيم باشا .



المغفور له عباس باشا الأول

ولذا قلده منصب مدير الغربية ثم منصب الكتخدائية وهو يعادل منصب رئيس الوزراء كما كلفه في كثير من الظروف بمرافقة عمه ابراهيم باشا في غزواته للمران على الشؤون العسكرية .

ولم يشتهر عباس بأية مزايا ولا ورث شيئاً من أخلاق جده محمد على باشا أو عمه ابراهيم باشا بل اشتهر على العكس بقسوة القلب والميل إلى إرهاق الرعية مما حمل جده على توجيه اللوم إليه أكثر من مرة . ولما ولى ابراهيم باشا الحكم ضاق بقسوته ذرعا فاضطره إلى الهجرة إلى الحجاز حيث بقى هناك إلى أن انتقل ابراهيم باشا إلى دار البقاء فعاد إلى مصر وتولى الحكم في ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٤٨ (٢٧ الحجة سنة ١٢٦٤)

وفي أثناء ولايته الحكم الذى ظل فيه خمس سنوات ونصف ظهر مافى أخلاقه الرجعية من شذوذ . فالى جانب قسوة القلب أضيفت صفات أخرى كسوء الظن بالناس والتطير بالحوادث والرغبة في العزلة واختيار أبعد الجهات عن العمران وأوحشها لبناء قصوره . فلم يكتف بسراى الخرنفش وسراى الحلمية بالقاهرة بل شيد قصراً بالعباسية (التى سميت باسمه) وكانت إذ ذاك منقطعة عن العمران . وحسبك دليلا على فخامة هذا القصر الموحش النائى أن نوافذه بلغت ٢٠٠٠ نافذة . ولم يكد يفرغ من إنشاء هذا القصر المنيف حتى راح ينشىء قصراً ثانياً في الدار البيضاء الواقعة بالجبل على طريق السويس المقفر (وتوجد آثاره إلى اليوم) وكذلك أنشأ قصراً آخر في جهة العطف ثم غيره في بنها على النيل بعيداً عن المدينة وهو الذى قتل فيه .

وكانت باكورة اعماله عنـد ارتقائه الأريكة استبعاد مستشارى أبيه وجـده جميعاً وطنيين وأجانب على السواء . نعم أن معظمهم لم تكن له قيمة حقيقية ولـكن كان لاغنى عنهم لتسيير الاداة الادارية وللسهر على نظام محتكرات الدولة . ولم يك من حرج حتى هذا الحين من اختـلاط أموال الوالى الخصوصية بأموال الخزانة العمومية ولـكن عباس أخـذ

= وبلغ من سوء ظنه بالناس أن تشكك فى اخلاص أفراد أسرته وأعلن عليهم حرباً عواناً وحاول قتل بعضهم فهاجر منهم إلى الاستانة من هاجر وبقى الآخرون وسيف البطش مسلط على رؤوسهم .

ولما كان نظام الحـكم يقضى بتولية الأرشد فالأرشد من نسل محمد على أى أنه كان ينتظر أن يخلفه على العرش عمه سعيد باشا بن محمد على باشا ورئيس الدونانمة المصرية فان عباس حاول تغيير هذا النظام لمصلحة ابنه الأمير ابراهيم الهامى وكان جميل الطلعة شديد الذكاء . فأرسله إلى الآستانة فى سنة ١٢٧٠ للتشرف بمقابلة جـلالة السلطان عبد المجيد . وقد بذلت المساعى فى خلال تلك الزيارة لتحقيق رغبة عباس باشا بلا جدوى . على أن ذلك لم يمنع أن جلالة السلطان قد أحب الأمير ابراهيم وقربه إليه وغمره بنعمته وزوجه بابنته التى استولدها حضرة صاحبة السمو المغفور لها الأميرة أمينة الهامى الملقبة بأم المحسنين

وبلغ من محاربة عباس لأفراد أسرته واتهامه لهم بالتآمر على حياته أن فرت عمته الأميرة نازلى هانم إلى الاستانة بينما لزم عمه سعيد باشا الاسكندرية لايبرح سرايه بالقبارى مطلقا .

ومن المألوف أن يصحب ظهور الرجعية فى بلد من البلاد تفشى الجاسوسية فيها فتروج سوق الوشايات وتدهور الأخلاق ولذا كان النفى إلى أقاصى السودان أخف عقاب لمن يوقعه سوء الحظ فى قبضة عباس .

وكان عباس مولعا باقتناء الخيول والكلاب وركوب الهجن ولم يكن يعرف اقتصاداً فى سبيل اقتناء الجياد وبناء أفخم الاصطبلات لها .

وقف حركة التقدم

ولعل أظهر ما عرف عن عباس نفوره من كل ما امتاز به عصر جده الـكبير . لحركة النهضة والتقدم والنشاط والعمران ـ هذا كله كأنما كان فى نظر عباس من=



المغفور لها الأميرة أمينة الهامى الملقبة بأم المحسنين فى شبابها

الأمور المرذولة التى ينبغى محاربتها بكل ما أوتى من قوة ولذلك التفت إلى المدارس فأغلق ماتبقى منها وأقصى إلى السودان طائفة من كبار العلماء كرفاعة بك رافع ومحمد بيومى أفندى وغيرهما وأنشأ مدرسة المفروزة (وهى مدرسة تجهيزية حربية) و « فرز » لها بعض الطلبة من دون طلبة المدارس الأخرى .

ومع أنه لم يكن يعرف الاقتصاد عند اقتناء الجياد كما قدمنا فانه عمد إلى المصانع والمعامل فأغلق أبوابها جملة واحدة بحجة الاقتصاد !!

ولم يذهب إلى أوروبا فى عهده من طلاب البعثات سوى ١٩ طالب لحسب هذا مع أنه كان قد استدعى معظم أعضاء البعثات الذين كانوا يتلقون العلوم فى أوربا منذ عهد جده العظيم !

ولم يكن غريباً وهذه طباع عباس واخلاقه أن تتدهور كافة مرافق الدولة فى عهده وبخاصة الجيش والبحرية . نعم لقد عمل على تجديد بعض الاستحكامات وانشاء الطرق الحربيه مما كان قد بدأ به ابراهيم ولكن الجيش نفسه ساءت حالته بعد أن كان مفخرة مصر فتفشى فيه الخلل وتضعضع نظامه . ومما زاد الطين بلة أن عباس أدمج فيه نحو ٦٠٠٠ من الأرناؤود وجعلهم خاصة جنده وزودهم بالمسدسات وقربهم اليه مما جعلهم

مافى هذه من نقود وجعل مكانها أوراق « بنكنوت » باسمه . فما هى أن تداولتها الأيدى حتى عادت عليه بشكل إيراد الضرائب . ثم أنه عطل

= ينظرون بعين الاحتقار إلى الجنود المصريين . وهكذا أفسح عباس الطريق لهؤلاء الأرناؤود لأن يعيثوا فى البلاد فساداً .

نعم كانت قيادة الجيش ماتزال فى أيدى سليمان باشا الفرنساوى ولكن ماقيمة ذلك إذا كانت يده قد غلت عن القيام بما يراه ضروريا من الاصلاحات .

أما البحرية التى ازدهرت فى عهد محمد على فقد انحط شأنها فى عهد عباس . ونظرا لأن سعيد باشا كان قائدها الأعظم فقد أدى حقد عباس عليه إلى إهمال شأن البحرية جملة ومحاربة كل اصلاح يرمى إلى رفع شأنها .

على أنه برغم تدهور الجيش والبحرية فى عهد عباس فان الدولة العلية التجأت إلى القوات المصرية لمساعدتها ضد روسيا فى حرب القرم (١٨٥٣) . وإذ ذاك عاد النشاط إلى الترسانة المصرية بعد أن كانت معطلة واستطاعت مصر أن تساهم فى تلك الحرب بعمارتها التى كان يقودها الاميرال حسن باشا الاسكندرانى أحد خريجى البعثات فى عهد محمد على وترى صورته فى ص ٩٩ وفى الوقت نفسه سافرت حملة مصرية قوامها ٢٠٠٠٠ مقاتل بقيادة سليم باشا فتحى أحد القواد الذين حاربوا تحت لواء ابراهيم باشا .

وقد أبلت العمارة والتجريدة المصرية خير بلاء فى محاربة الروس إلى أن انتهت الحرب فى عهد سعيد باشا .

ماتم من الاصلاحات فى عهد عباس

ونظراً لانتشار الجاسوسية كما أسلفنا عليه القول فقد كان طبيعياً أن يتضاءل عدد الأشقياء وقطاع الطريق ولذا توطدت دعائم الأمن العام فى عهد عباس .

وكان أول ماعنى به عباس بعد اعتلاء الأريكة الشروع فى مد خط السكة الحديدية بين مصر والاسكندرية (١٨٥٢) الذى تم فى عهد سعيد . وقد عهد بهذه المهمة إلى المهندس الانجليزى المعروف روبرت ستيفنسن يساعده بعض المهندسين المصريين ممن اشتهروا بعد ذلك وشغلوا أكبر مناصب الدولة المصرية أمثال سلامة باشا ابراهيم وثاقب باشا ومظهر باشا وبهجت باشا . ويلاحظ هنا أن عباس لم يعهد بهذا المشروع لشركة أجنبية

وشرع كذلك فى إنشاء الخط بين اسكندرية وكفر الزيات (١٨٥٤) وقد تم فى =

المدارس وأغلق كل معهد عام عليه مسحة أوربية . وقد أحاط نفسه بحراسه الالبانيين والمماليك فقضى بذلك على ما كان للجيش من صبغة وطنية وصفة مصرية وخفضه الى بضعة آلاف من الجنود . ولم يكتف بأنه زعزع دعائم الدولة من الوجهة الوطنية والقومية إلى الحد الخطر بل ذهب الى أبعد من

= عهد سعيد باشا أيضا . وتم كذلك اصلاح طريق القاهرة والسويس وتعبيده ورصفه بالحجارة .

وقد وضع عباس بنفسه الحجر الأساسى لمسجد السيدة زينب وأقيم احتفال كبير بهذه المناسبة حضره الاعيان ونحرت فيه الذبائح وأطعم فيه الفقراء .

ولقد علل بعض المؤرخين ومنهم حضرة الاستاذ المحقق عبد الرحمن بك الرافعى المحامى الذى لخصنا عن كتابه «عصر اسماعيل» أكثر هذه المعلومات اتجاه عباس إلى إتمام هذه الاصلاحات بتغلب النفوذ الانجليزى وتشذ فى البلاط المصرى وتفوقه على النفوذ الفرنسى . فان المسيو فرديناند دلسبس حاول أن يضم عباس إلى ناحيته ويحصل منه على ترخيص بشق قناة عبر برزخ السويس ولكن انجلترا حاربت تلك الفكرة خوفا على طريق الهند وحملت عباس على الاكتفاء بتعبيد الطريق بين السويس والقاهرة ومد السكة الحديدية بين القاهرة والاسكندرية لتكون عدة لها عند الحاجة وتسهيلا للمواصلات البرية إلى الهند عن طريق مصر وسرعة نقل البريد البريطانى والسياح بين الهند وانجلترا .

ويقدم أصحاب هذا الرأى برهانا يؤيد نظريتهم إهمال عباس مشروعات الاصلاحات التى ازدهرت فى عهد جده واستغناؤه تبعاً لذلك عن كافة الخبراء الفرنسيين مما أدى بالتالى إلى تضاؤل النفوذ الفرنسى هذا فى الوقت الذى كانت لقنصل بريطانيا الجنرال فى مصر وهو المستر مورى الكلمة المسموعة والمكانة الأولى فى بلاط عباس .

ولا يستبعد أن تكون مكانة المستر مورى راجعة إلى رغبة عباس فى الاستعانة به فى السعى لدى حكومة الاستانة عن طريق سفير انجلترا لتغيير نظام وراثة العرش فى مصر كى يؤول إلى ابنه الهامى بدلا من عمه سعيد باشا أو لتوسيطه لدى الحكومة البريطانية لمنع حكومة الاستانة من التدخل فى شؤون مصر والحيلولة دون تطبيق القانون الأساسى المعروف «بالتنظيمات» على القطر المصرى .

ذلك فهدد استقلالها باستخذائه الشديد للسلطان . ويؤثر عنه أنه قال بهذه المناسبة « إذا كان لابد من أن يحكمنى أحد اثنين فأولى أن يكون الخليفة لا القناصل » . ولكن الواقع أن الخليفة والقناصل حصلوا جميعاً على كل

مقتل عباس

بسطنا لك بعض الأمثلة على شذوذ أخلاق عباس وأنه أقام له قصراً فى بنها بعيدا عن العمران . وقد كان مقتله فى ذلك القصر وعلى هذا اتفقت الروايات وان اختلفت فى أسباب القتل .

ويؤخذ من رواية اسماعيل باشا سرهنك كما أوردها فى كتابه « حقائق الاخبار عن دول البحار جزء ٢ ص ٢٦٥ » ان حاشية عباس من المماليك قد استطالوا بالغمز واللمز على رئيسهم خليل درويش بك الذى كان يعرف بحسين بك الصغير لأن عباس قربه اليه ومنحه عن غير جدارة رتبة قائمقام مع حداثة سنه . فشكاهم الرئيس إلى مولاه فأمر بجلدهم وتجريدهم من ثيابهم العسكرية وإلباسهم الملابس الخشنة وإرسالهم لخدمة الخيل والاصطبلات . فتشفع فيهم مصطفى باشا أمين خزانة عباس لأنهم كانوا من أتباعه المقربين ولكن بلا جدوى . فوسط فى الامر أحمد باشا يكن وابراهيم باشا الألفى محافظ العاصمة .فانتهزا فرصة وجود عباس باشا فى قصره ببنها وتشفعا فى الامر فأجاب شفاعتهما . وجاء المغضوب عليهم لرفع واجب الشكر للأمير وهم يضمرون الفتك به وتآمروا مع غلامين من خدم السراى يدعى أحدهما عمر وصفى والآخر شاكر حسين واتفقوا جميعاً على قتله . ولما كان من عادة عباس عند نومه أن يقوم على حراسته غلامان من مماليكه ففى ليلة ١٨ شوال سنة ١٢٧٠ (١٤ يولية سنة ١٨٥٤) تولى الغلامان المذكوران حراسته . وفى غسق الليل جاء المؤتمرون ففتح لهم الغلامان الباب. فلما استيقظ عباس وحاول النجاة صده عمر وصفى وتكاثر عليه المؤتمرون وأجهزوا عليه وأوعزوا للغلامين بالهرب . وكتموا الأمر إلى صبيحة اليوم التالى. فلما لم يستيقظ الأمير استبطأه أحمد باشا يكن وابراهيم باشا الألفى فدخلا عليه فوجداه قتيلا فذعرا للحادث وكتما الخبر إلى أن نقلا الجثة فى عربة إلى القاهرة وأوصلاها إلى قصر الحلمية وهناك إذيع خبر مصرعه .

وحاول جماعة من أنصار القتيل وعلى رأسهم الألفى باشا أن يجعلوا الحكم من بعده لولده ابراهيم باشا الهامى وكان وقتئذ بأوروبا فأرسلوا يستدعونه وحاولوا منع =

ما ارادوه منه . فقد طبق عليه الباب العالى «التنظيمات» التى كانت بريطانيا قد فرضتها عليه نفسه من قبل . وقد اشتملت هذه التنظيمات فى الظاهر فقط على قبول الغاء الكرباج والسخرة ولكنها كانت تتضمن فى الواقع اعترافا بحق الأتراك والانجليز جميعاً فى التدخل فى شؤون ادارة مصر . وبمقتضى معاهدة سنة ١٨٣٨ أصبح يحق للتجار الاجانب أن يبتاعوا المحاصيل رأساً من الفلاحين على نظام الاحتكار الذى سنه محمد على وان كان قد ظل معمولا به فترة أخرى من الزمن . يضاف إلى ذلك أن الانجليز صارت لهم يد فى الاشراف على الطريق البرى وهو ما كان يستحيل أن يسمح به محمد على . وقد نالوا هذا بفضل حصولهم على امتياز بانشاء

= عمه سعيد من تولى الحكم وكان مقيما بسرايه فى القبارى . فكتبوا سرا إلى اسماعيل باشا سليم محافظ الأسكندرية بما اتفقوا عليه ولكنه كان على غير رأيهم لعلمه أن الحكم من حق سعيد. فذهب إلى سرايه وأطلعه على فحوى الرسالة فشكره على إخلاصه وذهب بصحبته إلى سراى رأس التين. وأعلن اعتلاءه على العرش وأجريت حفلة الجلوس وسط إطلاق المدافع . ثم سافر إلى القاهرة بصحبة أعضاء الأسرة الحاكمة وتوجه إلى القلعة وتولى زمام الحكم .

أما رواية مدام أولمب إدوار التى ذكرتها فى كتابها المسمى «كشف الستار عن أسرار مصر» فتعزو الحادث إلى مساعى الأميرة نازلى هانم عمة عباس إذ أنفذت من الاستانة مملوكين من مماليكها وكانا على جانب عظيم من الجمال بحيث يغريان وكيل الأمير على شرائهما . وفعلا هبطا مصر ونزلا إلى سوق الرقيق ورآهما الوكيل وابتاعهما وأحضرهما إلى قصر مولاه فى بنها . فلما رآهما عباس أعجب بهما وعهد إليهما بحراسته ليلا . وقد لبث المملوكان يستجمعان قوتهما إلى أن جاء دور قيامهما بالحراسة فاقتحما الغرفة وهاجما الأمير فى نومه وقتلاه دون أن يتركا له فرصة للاستغاثة أو للدفاع عن نفسه . ثم نزلا إلى الاصطبلات وتظاهرا بطلب جوادين لقضاء حاجة لمولاهما الأمير فلم يشك السائس فى الأمر . فركبا الجوادين وفرا إلى القاهرة ومنها إلى الآستانة حيث نفحتهما الأميرة نازلى بمكافأة سخية على نجاح المؤامرة .

سكة حـديدية بين الاسكندرية والقاهرة . ثم إن عباس برغم حرمانه نفسه من الاختلاط بالاجانب ما استطاع إلى ذلك سبيلا كان يعمل بمشورة الانجليز أكثر مما كان يعمل بمشورة الفرنسيين حتى كان الحزب الموالى لبريطانيا فى مصر وقتئذ هو حزب « طبقة الحكام » وهو مركب من الاتراك وأعيان البكوات وقد انتهزوا فرصة هذا الانقلاب فعملوا على احياء عهد ظلم الفلاح وارهاقه من جديد . حتى ان عباس عند ماتوفى « بضربة الشمس » كما زعموا مع أن « الضربة » كانت ضربة حراسه أنفسهم لا ضربة الشمس تجلد المصريون فى احتمال موجة القيظ الشديد التى لفحهم بها الجو مصادفة فى تلك الأيام اعتقاداً منهم بأن الجحيم قد فتحت أبوابها لتلقى أميرهم !!

وجاء سعيد (١٨٥٤ — ١٨٦٣) أصغر أولاد محمد على سناً وعم عباس فكان صورة مناقضة لصورة سلفه من كافة الوجوه. فقد كان عصرياً بقدر ما كان عباس رجعياً . ثم إن تساهله فى تمدين مصر على النمط الأوربى كان بمثابة تخفيف مرغوب فيه لما ولدته رجعية عباس السخيفة من الكروب. وكان سعيد مثقفاً تثقيفاً فرنسياً ومن أكبر أنصار الأجانب الممتازين .

= ولعل أكبر حسنة يذكرها التاريخ لعباس الأول أنه تحاشى كل ما من شأنه أن يؤدى إلى التدخل الأجنبي فى شؤون مصر . فلا هو مكن للأجانب الموجودين فى القطر باعطائهم الامتيازات ولا هو مد يده إلى الاستدانة منهم بل ترك خزينة البلاد حرة من اثقال الديون الأجنبية . وكان يعمل دائماً على سد عجز الميزانية دون الالتجاء إلى القروض . وهى ميزة لابد أن يسجلها التاريخ لعباس فى معرض المقارنة بينه وبين خلفائه .

وهكذا ترى أن عهد عباس الأول كان عهد الرجعية وانتشار الجاسوسية وتدهور المرافق العامة والرجوع بالبلاد القهقرى. فعهده يعتبر بحق عهد النكسة فى تاريخ النهضة المصرية .

وقد وصفه لنا صديقه «إدمون أبوت» وصفا شعرياً بقلبه فقال «كان هذا العملاق من أطيب الناس قلبا وأشدهم حبا لمعيشة الترف والبذخ وأعظمهم شهية لتناول أفخر أنواع الطعام والشراب وكانت يده من كبر الحجم بحيث يخجل الفيل أن يقارن يده بها. أما وجهه فكان عريضا وكثير الحمرة تزينه لحية هائلة كمعرفة الجياد شديدة الخشونة ولكنها تدل على الاستقامة والصراحة والشجاعة والخبث»[1] وفى الحق إن هذا العملاق

سعيد باشا

ميلاده ونشأته

(١) ليس من شأننا هنا أن نذكر تاريخا مفصلا عن أمراء مصر بل كل غايتنا أن نسد الثغرات فى كتاب المسترجورج يانج أو أن نبين وجهة النظر المصرية جنبا إلى جنب مع وجهة النظر الأجنبية وبخاصة الانجليزية. ولما كان «عصر اسماعيل» لصديقنا الاستاذ عبد الرحمن بك الرافعى كالمعين الذى لاينضب لما احتواه من المعلومات النفيسة الدالة على حسن التقصى وسعة الاطلاع وحب البحث فقد رأينا أن نقتطف منه مايتسع المقام لنشره عن سعيد باشا.

فهو ابن محمد على الكبير. ولد فى الاسكندرية عام ١٢٢٧ (١٨٢٢) فاهتم والده من البداية بتربيته وتثقيفه حيث كانت له منزلة كبيرة فى قلبه. واختار له السلك البحرى حيث نشأ نشأة ديمقراطية. فقد أمر محمد على بأن يعامل فى السلك المذكور لامعاملة أحد الأمراء بل كأحد الملاحين. ولذلك كان سعيد ينظر الى الملاحين كأقرانه سواء بسواء لايميزه عنهم الا ما قد يظهره من التفوق عليهم بالجد والعمل الصالح. وقد ظل يطيع رؤساءه كاحد الضباط العاديين ويتدرج رويدا رويدا فى سلم الترقى فى المراتب البحرية ويجوب البحار الى أن أصبح «سر عسكر الدونانمة» أى القائد العام للأسطول فى أواخر أيام أبيه.

أخلاقه

وبديهى وهذه نشأته أن تشرب نفسه حب زملائه البحارة خاصة والمصريين عامة. ومن هنا كانت نزعته الوطنية التى غرست فى نفسه قبل تولى الحكم وترعرعت وقويت بعد اعتلائه الأريكة. والى هذه النشأة يمكن أن نعزو ماعمله سعيد للترفيه عن المصريين

الهائل الشهية الذى بلغت زنته الثلاثة قناطير ونصف كان شديد المرح طروبا محبا للفكاهة وقد جعل ديدنه أن يجمع شتات ما كان يظنه العرب مضحكا عند الشرقيين وبالعكس لأنه كان من ناحية كأحد أولئك الخلفاء



المغفور له سعيد باشا

المذكورين فى قصص ألف ليلة وليلة، ومن الناحية الأخرى كأحد متسكعى الحى اللاتينى وكثيراً ما أطاح وهو فى حالة المرح رؤوس المشايخ متى أعوزهم الأدب كما أنه أمر مرة بصنع زينة باشعال النار فى الدعاوى

= وتحريرهم مما حاق بهم من مظالم العصور الماضية وتخفيف الضرائب عنهم وبث روح الوطنية فيهم وتشجيعهم على تقلد المناصب السامية بعد ان كانت وقفا على الجراكسة والاتراك .

وكان الى جانب ذلك يمتاز بطيبة القلب وسلامة الطوية والكرم والشجاعة والصراحة والتسامح وحب العدل والنفور من الظلم . وكان محبا للعلم بارعا فى الرياضيات يجيد التكلم بعدة لغات شرقية وكذا الفرنسية . ولكنه كان الى جانب ذلك كثير التردد ضعيف الارادة سريع الغضب سريع العفو . وقد أوقعه ميله إلى الاسراف والترف فى شباك البيوتات المالية . فكانت الاستدانة من تلك البيوتات السنة السيئة التى وضعها سعيد لخلفائه . وكان طبيعيا ان يؤدى الاقتراض من الأجانب مع =

المرفوعة بطلب مالا يقل عن ٨٠ مليونا من القروش من الضرائب المتاخرة. وكان يسلى الملوك الأجانب بما يذكره لهم من الملح والطرف المضحكة الفرنسية . وقد أمر باشاواته يوماً أن يقتحموا الى جانبه كمية هائلة من مسحوق البارود الجاف وبأيديهم الشموع ليمتحن مبلغ متانة أعصابهم . وقد أنشأ قناة السويس فغير بها طريق التجارة العالمية كما غطى ساحة الاستعراض بألواح من الحديد كى لا يثور التراب فيلوث ملابسه الباريسية. وفى الحقيقة لم يعرف الكآبة من عاش إلى جانب سعيد . وكثيراً ما كان يأمر باعطاء شخص من الأشخاص « مائتين » دون أن يعين هل يقصد مائتى كرباج أم مائتى دينار . وقد كان الشعب يحبه باعتباره أفكوهة عظيمة ولذا قدر له بعض اصلاحاته باعتبارها مجرد مداعبات كالغاء النخاسة

= ميله الشديد الى الفرنسيين خاصة وثقته الغير متناهية بالأوربيين عامة الى بسط نفوذهم رويدا رويدا على مرافق البلاد وأصبحت للقناصل منزلة لم تكن لهم فى عهد من العهود السالفة . وكان من جراء ذلك كله أن وقع تحت تأثير صديقه فردينان دلسبس ومنحه امتياز حفر قناة السويس .

إصلاحاته

لعل ابرز إصلاحات سعيد باشا الزراعية اللائحة السعيدية الصادرة فى ٥ أغسطس سنة ١٨٥٨ (٢٤ الحجة سنة ١٢٧٤) التى أصبح للفلاح بمقتضاها الحق فى امتلاك الاراضى الزراعية بعد أن كان محروما من هذا الحق فى عهد محمد على . وهذه اللائحة هى أساس التشريع المتعلق بملكية الاطيان فى القطر المصرى .

وقد رأى سعيد أن يتمم مفعول هذه اللائحة بالغاء نظام احتكار الحاصلات الزراعية التى امتاز بها عصر أبيه محمد على . فاصبح للفلاح بذلك الحق فى التصرف فى حاصلاته وحرية اختيار أنواع الزراعة التى يريدها .

وزيادة فى الترفيه عن الفلاحين أمر سعيد بالتجاوز جملة واحدة عن الضرائب المتأخرة وقد بلغت فى ذلك الوقت على مارواه المسيو مريو ٨٠٠٠٠٠ جنيه وهو مبلغ لا يستهان به إذا قيس بثروة ذلك العصر .

(١٨٥٦) والغاء عقوبة الجلد (١٨٦٣) والخدمة الإجبارية العسكرية .

أما نصيب سعيد فى عملية رهن مصر فلم يك شيئا مذكوراً بجانب نصيب خلفه اسماعيل ولكن لامناص من الاعتراف بأن سعيد هو واضع السنة التى سار عليها اسماعيل فيما بعد . ولم يكن اسراف سعيد الشخصى أقل من اسراف خلفه . أما استئثاره بأرباح الدولة مما كان ينبغى أن يرده الى أموال الخزانة فما كان ليترتب عليه شيء ما لو أنه حرص على بقاء الأداة سائرة . ولا ريب فى أن الغاءه نظام احتكار الحاصلات الزراعية نهائيا مما ابتهج له التجار الأجانب وإصراره على أن تكون الضرائب نقداً لاعينا مما ارتاح له الممولون الأجانب وسماحه باعادة نظام الملكية

= وبالغاء احتكار الحاصلات الزراعية أصبح فى وسع الفلاح أن يؤدى الضريبة نقدا بعد أن كان يؤديها عيناً . فلم يعد رجال الحكومة يتحكمون فى حاصلات الفلاح أو يبيعونها بالسعر الذى يقررونه كلا بل صار الفلاح نفسه يبيعها بالثمن الذى يرتضيه ثم يؤدى الضريبة نقدا . وهكذا نال الفلاح من الملكية العقارية وملكية الحاصلات وحرية التصرف فيها وحيازة ثمنها أى أنه أصبح له وجود اقتصادى وصار مستقلا عن الحكومة وهو لعمرك اصلاح كبير نحسب أن المستر يانج لم يقدره قدره عند كتابة ما كتبه عنه فى هذه الصحيفة . واذ لم يكن فى وسع الفلاحين أداء الضريبة نقدا فورا فقد أمهلهم سعيد ريثما يتسنى لهم بيع حاصلاتهم الجديدة بالسعر المعقول وأداء الضريبة من ذلك الثمن .

ومن أهم اصلاحاته الغاء نظام الدخولية التى كانت تجبى على الحاصلات والمتاجر عند انتقالها من قرية إلى قرية ودخولها الى المدن . وكانت الحكومة تتقاضى على المتاجر نحو ١٢ ٪ من قيمتها عند دخولها المدن وهذا كان مصدر اعنات للأهالى فضلا عن أنه كان عقبة كأداء فى سبيل رواج التجارة وانتشارها . وهذا اصلاح آخر رأى فيه المستر يانج سببا من أسباب عجز الميزانية العامة كما تراه فى الصفحة التالية .

ولا تنس فى باب الاصلاحات اللائحة السعيدية التى وضعها لمعاشات الموظفين المتقاعدين فهى الأساس الذى وضع عليه نظام المعاشات المعمول به فى مصر اليوم لموظفى الحكومة .

العقارية (١٨٥٨) مما كان له أطيب أثر بين الفلاحين — إن حدوث هذا كله فى وقت واحد كانت نتيجته الارتباك والخراب . ذلك لأن الفلاح وممتلكاته سرعان ما وقعا غنيمة باردة فى أيدى المرابين الأروام الذين كانوا قد قدموا له القروض اللازمة فى الماضى أو فى أيدى التجار الأجانب الذين ابتاعوا محصوله بالمزاد هذا بينما أن اختلال النظام المالى كانت نتيجته أن الدولة صارت أكثر من ذى قبل اعتماداً على ما تقترضه من الممولين الأجانب بفوائد فاحشة . نعم إن الغاء الجمارك الداخلية « الدخولية » كان عملا اقتصاديا نافعا ولكنه كان من الناحية الأخرى ضربة قاضية على الميزانية . ولطالما وصف لنا المؤرخون سعيد بأنه محرر مصر من تجارب أبيه الاقتصادية متناسين أن هذه

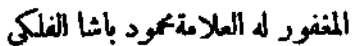
الاصلاحات العمرانية

ووجه سعيد اهتمامه الى الأعمال العمرانية . ولما كانت ترعة المحمودية قد كاد أن يطمرها الطمى ويفسد استعمالها فقد أمر بتطهيرها . ولما كانت الأتربة التى ينبغى رفعها من هذه الترعة التى يبلغ طولها ٨٠ كيلو متر لا تقل عن ثلاثة ملايين متر مكعب فقد أصدر الأوامر للمديريات بارسال الانفار فأرسلت نحو ١١٥ الف عامل فأتموا عملية التطهير فى ٢٢ يوماً وانشىء طريق زراعى على جانب الترعة عرضه ١٠ أمتار . وعنى سعيد بالأنفار وأحضر لهم الأطباء لملاحظة حالتهم الصحية طول مدة العمل .

وقد لفت اتمام ذلك العمل العمرانى الكبير فى هذه المدة القصيرة الأنظار من كل ناحية إلى مقدرة الفلاح المصرى وجلده مما حرك فى نفس المسيو فردينان دلسبس الشهوة إلى اغراء سعيد بتسخير آلاف الفلاحين لاحتفار قناة السويس . فأصغى سعيد إلى هذا الاغراء وقام باحتفار هذه القناة التى كانت وبالا على مصر .

وقد مر بك أن عباس الأول شرع فى انشاء خطين حديديين بين الاسكندرية والقاهرة وبين هذه والسويس ولكن المنية عاجلته قبل اتمامهما فتما فى عهد خلفه سعيد . فالأول فى سنة ١٨٥٦ والثانى فى سنة ١٨٥٨ . ولم تكن هناك كبارى على النيل بل كان القطار عند اجتياز فرعى النيل ينقل على مراكب خاصة من بر الى بر .


العالم الأثرى ماريبت باشا
مؤسس المتحف المصرى



المغفور له العلامة محمود باشا الفلكى

= وأنشأ سعيد خطوطا تلغرافية على الطريقة الحديثة بخلاف طريقة «شاب» القديمة التى كانت فى عهد أبيه .

وأدى انشاء السكك الحديدية الى رواج الاسكندرية والسويس ومن ثم شرع سعيد فى اصلاح الميناء الثانية وانشاء مدينة باسمه وهى بورت سعيد .

وعنى سعيد بالاحتفاظ بالآثار المصرية وكلف ماريبت باشا العالم الأثرى المعروف بجمعها فى مخازن خاصة فى بولاق كما عهد الى محمود باشا الفلكى بالذهاب الى السودان للقيام بالأعمال الفلكية .وقد وضع بأمر سعيد عند عودته خريطة مفصلة للقطر المصرى.

الاهتمام بالجيش

كانت نشأة سعيد على ظهر الأسطول سببا فى تعلقه بالحياة الحربية برية كانت أم بحرية ولذلك اهتم بالجيش وكانت تطيب له الاقامة وسط جنوده وكثيرا ماصرف أياماً طويلة بينهم .

وقد عنى بترقية الجيش مادياً ومعنوياً . فقرر تقصير مدة الخدمة العسكرية وجعلها اجبارية للجميع بحيث لاتزيد عن سنة واحدة بعد ان كانت قاصرة على أبناء الطبقات الدنيا مما حبب الجندية الى الأهالى وأدخل الى قلوبهم الطمأنينة على مصير فلذات أكبادهم . ثم أن تعميم الخدمة ومساواة الأغنياء بالفقراء أدى إلى تكريم الجندية ورفع شأنها . =

التجارب كانت قائمة على نظام اقتصادى معمول به وقتئذ فى مصر وفى الشرق.
أما التجارب فى تطبيق مبدأ حرية التجارة وما الى ذلك من وسائل يحتمل
أن تكون ناجحة عند الانجليز فى أوائل عهد الملكة فيكتوريا فقد كانت
ضارة بالاساليب الزراعية التى ألفها الفلاحون منذ عهد الفراعنة . وقد
ـت التجارة الأجنبية طبعا بعد الغاء نظام الاحتكار ولكن لم يكن
فى الاستطاعة فرض ضرائب عليها بسبب الامتيازات هذا فضلا عن أنها
قتلت فى المهد تلك الصناعات الوطنية التى كانت ماتزال موجودة. ومن
جهة أخرى فان سخاء سعيد السياسى وكرمه الحاتمى الشخصى كان على
التحقيق بمثابة إحراق للشمعة من طرفيها الاثنين . كذلك تكلفت تجاريبه فى

= واهتم سعيد بتحسين غذاء الجنود وملابسهم ومسكنهم ومظاهرهم عامة مما رغب
الفلاحين فى الجندية بعد أن كانوا يرهبونها وينظرون إليها شذرا .

والتفت سعيد إلى الناحية المعنوية فى الجيش فعمل على ترقية كثيرين من الضباط
المصريين إلى المراتب العسكرية السامية بعد أن كانت وقفاً على الأتراك والجراكسة .

ولم يفت عرابى باشا أن يشير فى مذكراته ص ١٦ إلى خطبة ألقاها سعيد باشا
فى مأدبة كبيرة أقامها فى قصر النيل إذ قال مخاطباً العلماء والرؤساء وأفراد الأسرة
الحاكمة وكبار الموظفين العسكريين والملكيين :

«أيها الاخوان إنى نظرت فى أحوال هذا الشعب المصرى من حيث التاريخ فوجدته
مظلوماً مستعبدا لغيره من أمم الأرض فقد توالت عليه دول ظالمة له كثيرة كالعربـ
الرعاة (الهكسوس) والأشوريين والفرس حتى أهل ليبيا والسودان والرومان وهذا
قبل الاسلام . وبعده تغلب على هذه البلاد كثير من الدول الفاتحة كالأمويين والعباسيين
والفاطميين من العرب والترك والأكراد والجركس وكثيرا ما أغارت فرنسا عليها
حتى احتلتها فى أوائل هذا القرن فى زمن بونابرت. وحيث أنى أعتبر نفسى مصرياً فوجب
على أن أربى أبناء هذا الشعب وأهذبه تهذيباً حتى أجعله صالحاً لأن يخدم بلاده خدمة
صحيحة نافعة ويستغنى بنفسه عن الأجانب . وقد وطدت نفسى على إبراز هذا الرأى
من الفكر إلى العمل» .

المشروعات الهندسية الأوربية نفقات باهظة كانت أفدح من أن تضم إلى إسرافه الاسيوى . مثال ذلك أن زخرفة قاعة الاستقبال فى قصر عابدين بلغت نفقاتها عشرة ملايين فرنك أى ٤٠٠،٠٠٠ جنيه ولكن هذا لم يكن شيئا مذكورا او قيس بما تكلفته الخزانة من جراء مشروعاته

= واستطرد عرابى باشا فقال تعليقاً على هذه الخطبة إنه لما انتهى سعيد من إلقائها خرج المدعوون من الأمراء والعظماء غاضبين حانقين مدهوشين مما سمعوا . وأما المصريون فخرجوا ووجوههم تتهلل فرحاً واستبشاراً . ويعتبر عرابى هذه الخطبة أول حجر فى أساس مبدأ « مصر للمصريين » . ثم قال «وعلى هذا يكون المرحوم سعيد باشا هو واضع أساس هذه النهضة الوطنية الشريفة فى قلوب الأمة المصرية الكريمة »

وبديهى أنه لو سادت هذه الروح لما كان العرابيون بحاجة الى استعمال العنف فى تحقيق مطالبهم وكأن سعيدا لم ينس الدرس الذى ألقته حملة بونابرت على المماليك عند زحفها على القاهرة بطريق النيل ولذا أنشأ بقرب القناطر الخيرية القلعة السعيدية لصد الهجمات عن القاهرة بطريق النيل .

وكان تردد سعيد وتذبذبه سببا فى اضعاف الجيش تارة وتقويته تارة أخرى كما حدث فى سنة ١٨٥٦ عندما سرح معظم الجيش أثناء رحلته إلى السودان ثم إعادته إياه سيرته الأولى عند توتر العلاقات بينه وبين تركيا فى سنة ١٨٦٠ بسبب مسألة قناة السويس إذ وصل عدده الى ٦٤٠٠٠ على ما أحصاه اسماعيل باشا سرهنك . ويظهر أنه كان ينوى محاربة تركيا بهذا الجيش الذى لم يلبث أن أضعفه مرة أخرى عند ما عادت العلاقات بينه وبين تركيا إلى مجاريها . ويقرر المسيو فرديناند دلسبس أن سعيدا أنقص الجيش من ٦٠٠٠٠ الى ٨٠٠٠—١٠٠٠٠ وذلك لتخصيص أكبر عدد من المقترعين الفلاحين لأعمال حفر القناة .

ضعف البحرية

كان أكبر هم سعيد وهو الذى نشأ وترعرع على ظهر الأسطول أن يقوى شأن البحرية فى أيامه ولذا بدأ باصلاح السفن العائدة من حرب القرم وشرع فى انشاء سفن جديدة . ولكن انجلترا خشية على مركزها فى البحر المتوسط أوعزت إلى الباب العالى بمنع سعيد من المضى فى تجديد الأسطول المصرى وأفهمته أن تقويته قد تغرى ابن محمد على بتقليد أعمال أبيه ضد تركيا . فنزل سعيد على ارادة تركيا وأمر بفك أجزاء=

العامة . فقد اضطر إلى عقد قرض خاص فى باريس (١٨٥٨) لانشاء خط حديدى من الاسكندرية إلى القاهرة وآخر من القاهرة إلى السويس. وليس يخفى أن تورطه فى مشروع قناة السويس هو الذى دفع بمصر إلى عقد أول قرض عام من بيت فريهلنج وجوشن فى لندن (١٨٦٢) وكانت

= السفن وبيع أخشابها وتسريح ضباطها وملاحيها .. ومما زاد فى ضعف البحرية المصرية فى عهد سعيد اكتشاف البخار واستخدام الدول له واستبدال السفن الحربية الشراعية بالسفن البخارية مما عجزت معه ميزانية مصر عن مجاراتها فيه وأدى فى النهاية الى تدهور البحرية المصرية .

شركات ملاحة أجنبية

على أن سعيدا وإن كان قد أخطأ فى إهمال شأن البحرية الحربية إلا أنه عنى بالملاحة التجارية الداخلية فوافق فى سنة ١٨٥٧ على انشاء أول شركة أجنبية برؤوس أموال أوربية مجردة من أية صبغة مصرية فعلية اللهم إلا الاسم فقط إذ سميت « بالشركة المصرية للملاحة التجارية » وكانت غاية سعيد من ذلك تسهيل المواصلات بين الاسكندرية وداخلية البلاد التى كانت السفن الشراعية تستغرق فى نقل حاصلاتها الى الاسكندرية أكثر من ١٥ يوماً بسبب معاكسة الريح فى حين أن البواخر كانت تقطعها فى نحو ٣٦ ساعة .

وكان العضو المصرى الوحيد فى هذه الشركة رئيسها الفخرى ذو الفقار باشا وزير المالية . وقد جعل امتيازها ١٥ سنة ونص فى عقد تأسيسها أنه إذا حدث خلاف بين الشركة والحكومة فيحسم النزاع بواسطة التحكيم كما نص على أن ترفع البواخر الراية المصرية باعتبارها تابعة لشركة مصرية ولو فى الاسم فقط .

ولما فرغ بال سعيد من مسألة ربط داخل البلاد بعضها ببعض ببواخر هذه الشركة التفت الى ربط مصر بما حولها من البلاد المتاخمة للبحرين الأحمر والأبيض المتوسط . فوافق فى سنة ١٨٥٧ على انشاء شركة الملاحة البحرية وسميت باسمه « القومبانية المجيدية » نسبة الى اسم السلطان عبد المجيد سلطان تركيا وقتئذ . وكانت الشركة برئاسة الأمير مصطفى فاضل بن ابراهيم باشا وتولى ادارتها مجلس مختلط من أجانب ومصريين ومنهم نوبار باشا وغيره وغيره . وكانت الغاية من انشاء هذه الشركة تسيير البواخر فى البحر الأحمر الى المحيط الهندى والخليج الفارسى ونقل الحجاج إلى الحجاز على نحو =

شروط القرض تنذر بالشر وقد بلغ مقداره ٣٣٠٠٠٠٠ جنيه وفائدته ٧ المائة وثمن السهم فيه ٧٥ ولما أدركت سعيدا الوفاة (١٨٦٣) بلغ مجموع ماعلى مصر من الديون الخارجية التى عقدت بشروط هذه ١٠٠٠٠٠٠٠ جنيه . ولكن بعض الكتاب الانجليز وبينهم لورد

= ماتفعله الآن شركة الملاحة المصرية التى يرأسها سعادة المالى الكبير أمين يحيى باشا وشركة النقل التى يغذيها بنك مصر والتى ابتاعت أخيرا السفن الأربع بفضل همة واضع أساس استقلال مصر الاقتصادى سعادة محمد طلعت حرب باشا الذى يصح أن يسمى « دينامو » مصر الاقتصادى .

وقدجعل امتيازهذه الشركة ٣٠ سنةوترفع بواخرها الراية المصرية وتحسم المنازعات بواسطة المحاكم التجارية المصرية ولهامستودعات ومحطات فى السويس ومصوع . على أن هذه الشركة مالبثت أن تدهورت بسبب اختلال ادارتها فى أواخر عهد سعيد فتولت الحكومة تصفيتها فى عهد ساكن الجنان اسماعيل باشا .

ونظراً لكثرة حركة العمران فى السويس بعد ربطها بالقاهرة بالسكة الحديدية وانشاء الشركة المجيدية قررسعيد إصلاح مرفأها فعهدبذلك إلى شركة « ديسوء الفرنسية التى انشأت حوضا عائماً لاصلاح السفن ووسعت الميناء وهى اصلاحات لم تتم إلا فى عهد اسماعيل باشا .

اشتراك مصر فى الحروب الأجنبية

حرب القرم

مر بك أن تركيا لجأت إلى القوات المصرية فى عهد عباس الأول لمساعدة الحلفاء (تركيا وفرنسا وانجلترا) فى حرب القرم وأن العمارة البحرية سافرت بقيادة حسن باشا الاسكندرانى بينما سافرت التجريدة العسكرية بقيادة سليم باشا فتحى . وقد انتقل عباس إلى جوار ربه والحرب المذكورة ماتزال مستعرة . وقد أبلى المصريون فيها أحسن بلاء . فلما استشهد سليم باشا فقدت مصر بفقده قائدا مغواراً وشعرت — على ماذكره المسيو « فانترنييه » فى كتابه المسمى « سليمان باشا » ، بالألم الشديد لوفاته إذ فقدت فيه قائداً فذا فى الكفاءة الحربية ورجلا نزيهاً محباً للخير اكتسب بشجاعته إعجاب رؤسائه ومحبة زملائه . وقد ولى سعيدبعده فى القيادة احمد باشا المنكلى وأركان حربه الاميرالاى على بك مبارك (باشا) وكان وقتئذ ناظرا للمهندسخانة .

كرومر يقدرونها بثلاثة ملايين جنيه فقط ولكنهم يتناسون على مايظهر مقدار الدين السائر .

ولما كان معظم هذه الديون إنما عقد للانفاق على القناة لم يكن فى فداحة هذه المبالغ الطائلة مايمكن وقتئذ أن يخشى منه على مستقبل الأمة المصرية

= وليس يفوتنا فى هذا المقام أن نسجل بعض ما كتبه مؤرخو الأفرنج عن كفاءة الجنود المصرية فى حرب القرم — وكانوا يسمون بالعرب — تشبيهاً لهم بشجاعة العرب واقدامهم وذكائهم وحسن نظامهم ، قال المسيو ريو فى كتابه مصر الحديثة ص ٤٢ :

« إن كفاءة الفلاح المصرى فى فهم النظام الحربى واتباعه إياه وما اشتهر به من الثبات والشجاعة فى مواجهة الأعداء كل هذه المزايا قامت عليها البينات لا فى ميادين القتال بجزيرة العرب وسوريا فى عهد محمد على فحسب بل بحسن دفاع الجيش المصرى عن سلستريا وايباتوريا فى حرب القرم الأخيرة » .

أما العمارة البحرية فقد حدث أنها عادت الى الاستانة لاصلاح بعض سفنها ولكن الريح عاكستها عند مدخل البوسفور حيث كان الضباب مخيما فارتطمت السفينة «مفتاح جهاد» بالسفينة «البحيرة» وانكسرتا وغرق من فيهما من جنود وضباط وكان عددهم ١٩٢٠ لم ينج منهم الا ١٣٠ وكان لسوء الحظ بين الغرقى حسن باشا الاسكندرانى والاميرال سنان بك .

ووضعت حرب القرم أوزارها فى سنة ١٨٥٦ وانتهت بهزيمة روسيا .

حرب المكسيك

ربما استغرب القارىء اشتراك مصر فى حرب المكسيك التى لا تربطها بها رابطة ما ولكن هكذا شاء سعيد نزولا على ارادة صديقه نابليون الثالث امبراطور فرنسا عندما طلب معونة القوات المصرية للجيش الفرنسى بالمكسيك .

وقد تسأل عن سر ذهاب الفرنسيين الى المكسيك فنجيبك بأن نابليون الثالث انتهز فرصة نشوب الفتن فى تلك الجمهورية الثائرة ومحاولة بعض الأهالى إسقاط رئيسها جوارز (١٨٦١) فانضم إلى جانب الثائرين وكان يقصد بذلك بسط نفوذ فرنسا على البلاد فيما بعد . ثم تذرع بما لحق بعض الأوربيين من الأذى والخسائر فى خلال الفتن وشرع يطالب الحكومة المكسيكية بتعويض عن هذه الخسائر . ولكنها رفضت فألب عليها انجلترا واسبانيا ولكنهما سرعان ما نفضتا يدهما من هذه المشكلة المعقدة وانفرد =



بعض ضباط الاورطة المصرية فى المكسيك
وقد جلس شارل جلياردو بك والى يمينه صالح بك حجازى ووقف خلف جلياردو بك اليوزباشى إدريس نعيم وفى الوسط الصاغ فرج ونى افندى والى يمينه البكباشى عبد الله سالم افندى

=نابليون بالامر فأرسل الى المكسيك جيشاً دارت عليه الدوائر وهذا ماجعله يستنجد بصديقه سعيد فبادر بامداده بكتيبة من الجنود السودانيين قوامها ١٢٠٠ مقاتل بقيادة البكباشى جبرة الله محمد السودانى والصاغ محمد افندى الماس واليوزباشى أدريس نعيم=

من الوجهة المالية . أما من الوجهة السياسية فربما كان يكون خيراً لمصر لو أن سعيدا أنفق تلك الأموال كلها فى زخرفة حجر الاستقبال . لأن امتياز قناة السويس قد ترتب عليه أن مصالح بريطانيا فى مصر بعد أن كانت مجرد إحساس معنوى غامض بما يحتمل أن يكون لمصر من

= والصاغ فرج ونى أفندى والبكباشى عبد الله سالم أفندى . وقد رافق هذه الأورطة شارل جلياردو بك صاحب متحف بونابرت وسكرتير الجمعية الجغرافية وصالح بك حجازى وترى صورتهم فى الصفحة السابقة .

وفى سنة ١٨٦٢ أبحرت هذه الأورطة إلى المكسيك وأبلت فى الحرب خير بلاء حتى وصفها المارشال فورى قائد الجيوش الفرنسية بالشجاعة إذ قال عن جنودها كما رواه اسماعيل سرهنك باشا فى الجزء الثانى من كتابة ص ٢٧٦ « إن هؤلاء ليسوا من الجنود بل هم أسود ! »

وانتصر الفرنسيون فى بداية الأمر وولوا الارشيدوق مكسيمليان النمسوى امبراطورا على المكسيك (١٨٦٤) ولكن كانت الغلبة فى النهاية للثوار فجلا الفرنسيون والمصريون عن البلاد وقتل الامبراطور مكسيمليان بالرصاص (١٨٦٧) بعد أن قاتلت الجنود المصرية فى تلك البلاد النائية أكثر من أربع سنوات قتل فى خلالها البكباشى جبرة الله وخلفه الماس افندى . ولما عادت الاورطة المذكورة إلى فرنسا (بعد ان لم يبق منها إلا ٣٠٠) استعرضها نابليون الثالث بصحبة القائد المصرى شاهين باشا وأعجبا بنظامها وهنأ الامبراطور الماس افندى على شجاعة الأورطة ووزع الأوسمة على الممتازين من رجالها . ولما عادت إلى الاسكندرية فى مايو سنة ١٨٦٧ استعرضها ساكن الجنان اسماعيل باشا فى قصر رأس التين وأمر بترقية طائفة منها وأقام لها لطيف باشا وزير البحرية مأدبة شائقة تكريما لها .

السودان فى عهد سعيد

لا يسع من يكتب عن تاريخ مصر فى عهد سعيد باشا أن يمر بالسودان دون أن يقف عنده ليقول كلمة موجزة . فلقد رأيت كيف أهمل عباس ذلك الاقليم المتمم لمصر وكان كل ماعمله من ضروب الاصلاح إنشاء مدرسة ابتدائية فى الخرطوم . ولكن سعيدا سار على غير هذا النحو وكأنه اتخذ من أعمال أبيه الكبير نبراسا يهتدى به فى حكم السودان وطريقة إدارته .

الأهمية فى نظر سياسة الامبراطورية البريطانية . قد تحولت إلى اعتبارات مادية جداً لها ارتباط بالمسائل العسكرية والتجارية مما يؤثر أكبر تأثير فى قوة بريطانيا البحرية وسيادة انجلترا فى الهند . ثم أن بريطانيا كانت إلى هذه اللحظة قانعة بمنع الفرنسيين من أن تكون لهم السيطرة على القاهرة كما منعت

= فكانت باكورة أعماله فيه أن ولى على باشا شركس حكمدارية السودان وبعث أخاه الأمير عبد الحليم للتفتيش على إدارته واصلاح شؤونه ولكن الأمير لم يلبث طويلا بل اضطره ظهور الأوبئة إلى العودة الى مصر .

ثم استقر رأى سعيد على زيارة السودان بنفسه فسافر فى رهط من خاصة رجاله ومعهم المسيو دلسبس فوصل الخرطوم فى ١٦ يناير سنة ١٨٥٧ فهرع الأهلون لاستقباله ورفعوا إليه شكاواهم من فداحة الضرائب ومظالم الحكام . فأصغى إلى أقوالهم وعطف عليهم . وقد فكر يوما ما فى إخلاء السودان وتركه لأهله لولا توسل أعيان ذلك القطر به وإلحاحهم عليه بالعدول عن رأيه حتى لاتتدهور حالة السودان وتسود فيه الفوضى .

فلما عدل عن فكرة إخلاء السودان قرر إصلاحه فبدأ باعفاء الأهلين من المتأخر عليهم من الأموال وخفض الضرائب تخفيضا عظيما وجعل نسبة مايدفع من الأموال بنسبة عدد السواقى فى الأطيان إذ هى ميزان خصوبة الأرض وفرض ضريبة على الأطيان التى تروى من ساقية واحدة ٢٠٠ قرشا أما مايروى بلا سواقى فجعل ضريبة الفدان الواحد ٢٠ ـ ٢٥ قرشا .

وعزل الحكام الأتراك لظلمهم . ولكيما يعود الأهالى على حكم أنفسهم أنشأ لهم مجالس محلية من أعضاء يختارون من رؤساء العشائر وكبار العائلات على ما ذكره المسيو دى لسبس فى كتابه « ذكريات أربعين سنة » وقد أطلق سراح كثير من المعتقلين وأصدر أمره بالغاء السخرة وحتم على مديرى الأقاليم حسن معاملة الأهالى وتجنب ارهاقهم فى جباية الضرائب ومنع استخدام الجنود فى تحصيلها بسبب قسوتهم .

ونظم البريد فى أنحاء السودان وأنشأ فى صحراء كروسكو محطات لتسهيل نقل البريد والمسافرين بين مصر والسودان ومنعا لتجارة الرقيق ومطاردة النخاسين أنشأ نقطة عسكرية على نهر سوباط .

من قبل سيطرة الروس على الاستانة . ولكن مصلحتها الحيوية صارت من الآن فصاعداً تتطلب انفرادها بالسيطرة على القاهرة دون سائر الدول الأخرى . على أن وقتا غير قليل قد انقضى قبل أن تندمج هذه النظرية

= ثم ألغى منصب (حكمدار السودان) وقسم ذلك القطر إلى خمس مديريات مستقلة فى إدارتها بعضها عن بعض مع رجوع كل منها فى شؤونها إلى وزارة الداخلية فى مصر شأن مديريات القطر المصرى . ولكنه رجع رحمه الله إلى اعادة ذلك المنصب بعد أن رأى من مديرى الأقاليم بسبب استقلالهم جنوحا إلى الظلم وميلا إلى ارهاق الأهلين.

ومما يؤخذ على سعيد فى هذا المقام تعضيده للرحلات والاكتشافات الجغرافية التى كان يقوم بها المكتشفون الأجانب فى أنحاء السودان بدلا من إيفاد بعثات مصرية كما كان يفعل أبوه من قبل .

وقد سافر سعيد فى كتيبة من جنده إلى الحجاز فى يناير سنة ١٨٦١ وزار المدينة المنورة فى غير موسم الحج واستغرقت الزيارة شهرين والمقول أنها كانت تمحلا للأعذار فى رفض اجابة دعوة الحكومة التركية بالذهاب إلى الاستانة .

تدهور الحياة العلمية

من الغريب أن سعيدا لم يعمد إلى النهوض بالتعليم بل ترك مستواه يتدهور . نعم إن عباس هو البادىء « بالنكسة » فى التعليم ولكن المرء ليحار حقا فى قعود سعيد عن رفع مستواه. وبحسبك أن الفرنسيين وهم أشد الناس اعجابا بسعيد لم يجدوا ما يبررون به ذلك الجمود . انظر ما كتبه المسيو مريو فى كتابه « مصر الحديثة » إذ قال :

« لا يخفى أن المدارس قد أهملها عباس فأصابها الاضمحلال والتدهور وبلغت حين تولى سعيد الحكم درجة من التقهقر والفوضى جعلت الباشا يرى من الحكمة اقفالها نهائيا بدلا من السعى فى تنظيمها إذ كان هذا السعى عبثا لا يجدى ! ! » وهو دفاع خير منه الاتهام إذ أين هذا مما فعله محمد على الكبير الذى أنشأ من العدم وجودا وخلق من الجمود حركة ؟ فهل اكتفى بما ورثه عن المماليك أم أنشأ البلاد نشأة أخرى ؟ !

وقد مر بك أن عباس أغلق بحجة الاقتصاد فى النفقات كثيرا من المدارس التى كانت فى عهد أبيه ثم جاء سعيد فأجهز على البقية الباقية فألغى ديوان المدارس (وزارة المعارف) وكان يديره وقتئذ عبدى شكرى باشا المنشورة صورته فى ص ١٠٠

وفى سنة ١٨٥٤ ألغى مدرسة المهندسخانة وكان ناظرها على بك مبارك (باشا) =

بسياستنا حيـال مصر وتطبعها بطابعها . وبينما لايوجد دليل على وجود خطة موضوعة لمضاعفة متاعب مصر المالية أو استغلالها لتحقيق السيطرة على القنـاة فان الأدلة عديدة على أن الوزارات البريطانية من الحزبين

=وأنفذه سعيد ضمن الحملة التى أرسلت فى حرب القرم . ثم اغتنم فرصة غيابه وألغى المدرسة كما ألغى مدرسة المفروزة (١٨٥٥)

وعهد إلى رفاعة بك بنظارة المدرسة الحربية التى أنشأها بالقلعة وسماها مدرسة أركان حرب .

على أن سعيدا مالبث أن عاد فى سنة ١٨٥٨ إلى فتح مدرسة المهندسخانة وجعلها مدرسة حربية ونقلها إلى القلعة السعيدية بالقناطر الخيرية وسميت المدرسة الحربية كما أعاد فتح المدرسة البحرية بالاسكندرية .

وفى عهده أقفلت مدرسة الطب بقصر العينى ثم أعيد فتحها فى سنة ١٨٥٦ وأنشأ بها مدرسة للقابلات . أما حركة البعثات العلمية فقد خمدت ولم يرسل إلى أوربا فى عهده سوى ١٤ طالبا . ومن أقوى الأدلة وأغربها على ميل سعيد إلى الأجانب أنه بينما كان متراخيا فى النهوض بالتعليم إلى الحد الذى رأيته كان لايضن على البعثات الأجنبية الدينية بمساعداته كى تفتح مدارسها . لهذا منح اعانات سنوية لراهبات البون باستور (الراعى الصالح) وكانت لهن مدرستان بمصر والاسكندرية ولراهبات الصدقة بالاسكندرية ووهب للبعثة الاميركية بناء بمصر لتتخذه مدرسة لها وأعطى أول مدرسة إيطالية أنشأتها الحكومة الايطالية بالاسكندرية اعانة قدرها ٢٤٠٠٠ جنيه ووهب لها قطعة أرض فى أجود جهات الاسكندرية لتنشئ المدرسة . وهكذا كانت عنايته بنشر التعليم الأجنبى أكبر من عنايته بنشر التعليم الأهلى وذلك من أغرب المتناقضات !

نظام الحكم فى عهد عباس وسعيد

وإلى جانب هـذه المعلومات النافعة التى اقتبسناها من كتاب « عصر اسماعيل » للاستاذ المحقق عبد الرحمن الرافعى بك نقتبس ملخص ما كتبه حضرته أيضا عن نظام الحكم فى عهد عباس وسعيد وهو فى نظرنا من خير ما كتب فى هذا الصدد .

فقد ظل حكما مطلقا يتولاه ولى الأمر وفى يده كافة السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية . وقد أهمل مجلس المشورة الذى ألف فى عهد محمد على وانعقد فى أيامه حيناً واعتبر نواة لنظام الشورى .

السياسيين البريطانيين كانت وقتذاك غير ميالة لتحمل أية مسؤولية فى مصر. وإليك دليلا على ذلك رفض الحكومة الانجليزية الأصغاء إلى ماعرضه قيصر روسيا من جعل مصر وكريد من نصيب انجلترا إبان المحادثات

= أما المجلس الخصوصى الذى كان قد أنشأه محمد على فى سنة ١٨٤٧ وجعل اختصاصه النظر فى شؤون الحكومة الكبرى وسن اللوائح والقوانين واصدار التعليمات لجميع مصالح الحكومة وكان يرأسه ابراهيم باشا ، هذا المجلس قد أعاد عباس الأول تأليفه بمقتضى لائحة بتاريخ ٨ ربيع الآخر سنة ١٢٦٥ (١٨٤٩) وتولى الكتخدا باشا رآسته باعتباره أكبر موظف بالحكومة. أما أعضاؤه فكبار الذوات والعلماء واختص بنظر المسائل العامة للحكومة وسن اللوائح والقوانين وتنصيب رؤساء المصالح الكبرى . وبالجملة كان هذا المجلس بمثابة مجلس النظار وتولى السلطة التشريعية وشاركه فيها مجلس الأحكام وهو المجلس الذى ظل قائما إلى أن خلفه مجلس النظار فى عهد اسماعيل باشا

الوزارات

فى سنة ١٨٥٧ أعاد سعيد تنظيم الدواوين فجعل منها أربع وزارات الداخلية وقد عهد بها إلى الأمير أحمد رفعت والمالية وقد عهد بها إلى الأمير مصطفى فاضل والحربية وقد تولاها الأمير محمد عبد الحليم والخارجية وقد تقلدها اسطفان بك أحد خريجى البعثات فى عهد محمد على .

النظام القضائى

مجلس الأحكام

كان يوجد فى البلاد منذ عهد محمد على هيأة قضائية عليا تدعى « جمعية الحقانية » أنشئت سنة ١٨٤٢ ولكن أطلق عليها فيما بعد سنة ١٨٤٩ اسم « مجلس الأحكام »، وهو الذى كان له شأن كبير فى عهد سعيد واسماعيل لأنه كان بمثابة الهيأة الاستئنافية العليا فى البلاد وأعضاؤه تسعة من الكبراء واثنان من العلماء أحدهما حنفى والآخر شافعى وكان أيضا يشارك المجلس الخصوصى فى السلطة التشريعية .

مجالس الأقاليم

ظلت المحاكم الشرعية على ما كانت عليه فى عهد محمد على وظل لها اختصاصها فى المسائل المتعلقة بالأحوال الشخصية وانتقال الملكية ولكن أنشئت محاكم أو مجالس جديدة للفصل فى المسائل المدنية والتجارية سميت « مجالس الأقاليم » بلغ عددها خمسة =

الشهيرة التى دارت مع سيمور (٢١ فبراير سنة ١٨٥٣) لتقسيم أملاك « الرجل المريض » . بيد أن هذا الاحساس من ناحية الجمهور وكان يعتبر المستعمرات عبءا ينبغى التخلص منه ويعد التسليح عملا شيطانياً لم يلبث طويلا. وحسبك أن دزرائيلى الذى كان يشتم سلفا رائحة الجهة التى ينوى

= فى بداية تأسيسها وهى (مجلس طنطا) للنظر فى قضايا الغربية والمنوفية والبحيرة و (مجلس سمنود) خاص بالدقهلية والشرقية والقليوبية (ومجلس الفشن) وينظر فى قضايا الجيزة والمنيا وبنى مزار وبنى سويف والفيوم و (مجلس جرجا) وينظر فى قضايا أسيوط واسنا وقنا و (مجلس الخرطوم) وينظر فى قضايا السودان .

وكان المجلس الخصوصى ومجلس الحكام يصدران اللوائح والقوانين لمجالس الأقاليم

وقد تمكن سعيد من أن ينال من السلطان حق اختيار القضاة بعد أن كان قاضى القضاة المولى من قبل السلطان هو الذى يعينهم وهذا اصلاح سد الباب فى وجه كثير من أعمال الفساد وانتشار الرشوة .

ونظرا لتردد سعيد وعدم استقرار رأيه على وتيرة واحدة ألغى مجلس الأحكام فى سنة ١٨٥٥ وبعد أن حول القضايا المنظورة أمامه إلى الأمير اسماعيل باشا (الخديو) عاد فى السنة التالية وأمر بتأليف المجلس المذكور من جديد برئاسة الأمير اسماعيل باشا. ثم انقضت فترة ورجع سعيد إلى غضبه على المجلس فألغاه مرة أخرى فى سنة ١٨٦٠ كما ألغى مجالس الاقاليم . وفى سنة ١٨٦١ أعاد مجلس الاحكام من جديد برئاسة محمد شريف باشا ناظر الخارجية وقتئذ كما أعاد مجالس الاقاليم مع الاكتفاء بمجلس طنطا لنظر قضايا الوجه البحرى ومجلس أسيوط لقضايا الوجه القبلى .

وكان القانون العثمانى وما أصدره سعيد من القوانين هو المحور الذى تدور عليه الاعمال أمام مجلس الاحكام ومجالس الاقاليم .

وكان مجلسا طنطا وأسيوط مختصين بالحكم ابتدائيا فى المخاصمات فاذا استؤنفت فيكون ذلك أمام مجلس الاحكام .

هذا كله فيما يختص بحالة القضاء الأهلى. أما من حيث القضاء الأجنبى فقد ظل العمل جاريا فى القاهرة والاسكندرية إلى عهد اسماعيل باشا بنظام « مجالس التجار » أو محاكم التجارة التى أنشأها محمد على بينما كانت المحافظات والضبطيات تنظر فى المشاكل الخاصة بالاجانب. ثم أنشىء فى سنة ١٨٦١ «قومسيون مصر» أو مجلس القومسيون للفصل فى =

المر ان يقفز اليها قدسبق إلى ايجادعصر جديد فى تاريخ بناء الامبراطورية.
ومنذ ذلك الحين صارت مصر لاغنى عنها لتكملة بناء هيكل امبراطورية عهد الملكة فيكتوريا.

وليس من ريب فى أن القناة كان لامناص من انشائها إما عاجلا أو

=مشاكل الأجانب لازديادعددهم . وكان القومسيون هيأة مختلطة رئيسها مصرى وفيها عضوان مصريان عدا عضو أوربى وآخر يونانى وآخر اسرائيلى وآخر أرمنى.وكان هذا القومسيون ينظر فى قضايا الأجانب المرفوعة على الرعايا المصريين وللقناصل أن يرسلوا مندوبا من قبلهم لحضور جلساته وتستأنف أحكامه أمام مجلس الأحكام . ولم يكن من اختصاص القومسيون النظر فى المسائل المتعلقة بالعقار لأنها كانت من اختصاص المحاكم الشرعية وحدها باعتبارها المحاكم العادية فى البلاد .

قناة السويس

ولما كنا قد أخذنا على عاتقنا سد الثغرات فى كتاب المستر يانج وذكر مايهم القراء ذكره فنحسب أن الواجب حيال التاريخ يقضى بأن نقف هنيهة لنقول كلمة فى موضوع قناة السويس وهى أكبر غلطة ارتكبها سعيد بل هى أكبر نكبة نكبت بها مصر وماتزال تعانى من جرائها ما تعانيه . ولا بد من التنويه من جديد بما كتبه الأستاذ الرافعى بك فى هذا الصدد .

فليس شك فى أن تلك القناة ما كانت لتحفر لولم تكن ميول سعيد نحو الأوربيين عامة والفرنسيين خاصة كما رأينا . بل إن مصر ربما كانت احتفظت باستقلالها لو أن الذى تقدم إلى سعيد بطلب الامتياز بحفر القناة شخص آخر عدا فرديناند دلسبس أو لو كان رجلا غير ماهر فى ركوب الجياد الصافنات !! وإذا كان الأقدمون قد قالوا إن معظم النار من مستصغر الشرر فلسنا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن مصير مصر لعشرات السنين أصبح مرتبطا بقفزة ماهرة قفزها فردينان دلسبس بجواده !!

موجز تاريخ المشروع

فلقد رأيت فيما كتبه المستر جورج يانج نفسه وفيما سردناه عليك فى هذا الهامش حرص محمد على الكبير على اقصاء النفوذ الأجنبى عن مصر . ولم تكن مذبحة المماليك وزج جنوده الألبانيين فى المواقع النائية ، بل إن حروبه ضد الانجليز وضد تركيا نفسها كل ذلك كان باعثه الرغبة فى منع النفوذ الأجنبى من التسرب إلى مصر . وقد بلغ من=

آجلا . ولكن كان فى الاستطاعة باقتفاء أثر سياسة محمد على تأجيل المشروع فيما ريثما تستقر حالة مصر كدولة بحيث تصبح ولا خطر على استقلالها مما يقتضيه المشروع من ديون مالية وأعباء خارجية . ولم تكن انجلترا

= شدة حرصه على ذلك أن الاخصائيين والخبراء الذين كان يأتى بهم من فرنسا وانجلترا وغيرهما كان يتحتم عليهم عند دخولهم فى سلك الخدمة المصرية أن يلبسوا الزى المصرى والعمامة على ما كان شائعا فى عهد عزيز مصر . ثم إنه كثيرا مارفض منح انجلترا أى امتياز لخوفه، على حد تعبير المستر يانج، من أنه إذا منحها شبراً أن تطمع فى متر وهكذا دواليك حتى تستولى على البلاد بأسرها. وعلى هذه السنة الصالحة سار ابراهيم باشا فى الفترة الوجيزة التى قضاها فى الحكم .

ومهما قيل عن مساوىء عهد عباس الأول فليس شك فى أنه سار على سنة جده وعمه فى عدم التمكين للأجانب بل وعدم التفكير فى منح أى امتياز لأية شركة أجنبية .

أما سعيد الذى كان لا شك يعلم أن أباه العظيم برغم ميوله الشديدة إلى الفرنسيين لم يمنحهم امتيازاً كهذا الامتياز بل كان معارضاً فيه ، قد كان أولى به أن يكون أبعد عن التورط فيما تورط فيه . فما فعله كان إذن مخالفة صريحة لوصايا أبيه الذى يعتبر القناة بمثابة بوسفور ثان يجعل مصر واستقلالها عرضة للاخطار .

وليست فكرة حفر القناة حديثة بل هى ترجع إلى عهد الفراعنة . وإنما تم الاتصال بين البحرين الأبيض والأحمر بواسطة النيل حيث كانت تتفرع منه ترعة الفراعنة القديمة وتسير بمحاذاة وادى الطميلات ثم تنثنى إلى الجنوب مخترقة البحيرات المرة حتى تصب فى البحر الأحمر .

وجاء الفتح الاسلامى فأنشأ عمرو بن العاص « الخليج » المعروف بخليج أمير المؤمنين بأمر عمر بن الخطاب (ر) فى سنة ٢٣ هجرية ليصل النيل بالبحر الأحمر فيبدأ من مصر القديمة إلى القاهرة ومنها إلى المطرية فالعباسة ثم يتبع آثار ترعة الفراعنة القديمة.

وفى إبان الحملة الفرنسية فكر نابليون فى المشروع وعهد بدراسته للمهندس الكبير لوبير فقضى نحو عامين فى البحث والدرس ووضع تقريراً عن المشروع يقضى بحفر قناة من السويس إلى البحيرات المرة على أن يعاد حفر خليج أمير المؤمنين إلى أن يتلاقى ببحر مويس بقرب الزقازيق ومن هناك يتصل بفرع دمياط ومنه إلى ترعة الفرعونية =

وقتذاك ميالة إلى فكرة انشاء القناة لأنها كانت لأسباب عسكرية تفضل طريق رأس الرجا الصالح وإن كانت أبطأ من الطريق الأخرى . ثم إن

=ومنها إلى فرع رشيد ومنه إلى الاسكندرية بواسطة ترعة الاسكندرية . ولقد حبذ ذلك المهندس فى الوقت نفسه فكرة وصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر رأساً ولكنه أخطأ التقدير إذ حسب أن منسوب المياه فى البحر الأحمر أعلى بنحو تسعة أمتار عن منسوب المياه فى البحر الأبيض .

دلسبس فى مصر

وفى سنة ١٨٠٣ عين المسيو ماتيو دلسبس والد فرديناند دلسبس قنصلا لفرنسا فى مصر، وسرعان ما اتصلت بينه وبين محمد على أوشاج الصداقة . ومرت الأعوام وغادر ماتيو هذا العالم وعين ابنه فرديناند فى سنة ١٨٣١ مساعدا للقنصل الفرنسى فى مصر فى عهد محمد على . وسرعان ما شمله عزيز مصر بالعناية نظرا للصداقة القديمة وعهد إليه بتربية ولده سعيد تربية رياضية.فشرع يمرنه على الفروسية وركوب الخيل وغير ذلك من أنواع الرياضة إلى أن استحكمت بينهما الصلات الودية وأصبحا لا يفترق أحدهما عن الآخر .

وحدث أن فرديناند عثر وهو فى الاسكندرية على تقرير المسيو لوبير وأكب على دراسته ومنذ ذلك الحين تشبعت نفسه بفكرة تحقيق المشروع . ثم نقلته دولته من القطر المصرى حيث قضى ردحا طويلا من الزمن متقلباً بين مختلف المناصب .

وفى سنة ١٨٤٦ جاءت إلى مصر لجنة دولية لدرس المشروع فى أواخر عهد محمد على ورأت أن عقبة الفرق بين منسوبى المياه فى البحرين يمكن التغلب عليها بشق ترعة تجتاز الدلتا ولكن محمدا علياً كان يعد المهندسين والماليين الأوروبيين ويمنيهم ويضمر فى الوقت نفسه عدم الموافقة على تنفيذ المشروع وهكذا إلى ان انتهى عهده وخلفه ابراهيم ثم عباس .

وفى إبان عهد ثانيهما عاد المسيو فرديناند دلسبس إلى الاهتمام بالمشروع وحاول التأثير فى عباس وإقناعه بصلاحيته ولكن عباس كما رأينا من أخلاقه كان كثير الشذوذ لايثق بالأجانب فأعرض عن الفكرة واكتفى باصلاح الطريق بين القاهرة والسويس.

وما كاد سعيد يتبوأ الأريكة حتى طارت نفس فرديناند فرحاً وشعر بأن الأمنية التى كانت تجول فى صدره منذ ثلاثة وعشرين عاماً توشك أن تتحقق.فأبرق إلى صديقه القديم يهنئه بارتقاء العرش ويخبره بأنه اعتزم الحضور إلى مصر لتهنئته شخصياً . فرد=

الطريق البرى كان فى نظرها كافياً لسد حاجتها إلى مصلحة بريد سريعة إلى الشرق. أما فرنسا فان المشروع كان يهمها من الناحية العلمية والأدبية . إذن فغرور الأسرة الحاكمة وما تكدس تحت أيديها من موارد أنتجتها أعمال السخرة فى مصر فى خلال السنوات الأخيرة وما رأته من السهولة فى عقد القروض الأجنبية إبان الأعوام الماضية كل ذلك ساعد على انجاز المشروع فى أنحس وقت بالنسبة لمصلحة الأجيال المصرية المقبلة .

= عليه سعيد شاكراً له تهنئته واستدعاه إلى مصر فلبى الدعوة وحضر إلى الاسكندرية فى نوفمبر سنة ١٨٥٤ فبالغ الأمير فى الحفاوة بصديقه القديم ودعاه إلى اصطحابه فى رحلة برية عظيمة كان يقوم بها من الاسكندرية إلى القاهرة عن طريق الصحراء الغربية على رأس جيش يبلغ ١٠٠٠٠ مقاتل .

وقد قلنا لك إن فرديناند كان ماهرا فى ركوب الخيل . وقد أهداه سعيد جوادا أصيلا . وفى أثناء الرحلة وعلى مرأى من حاشية سعيد قفز فرديناند بجواده على أحد الحواجز الحجرية قفزة طار لها لب الجماعة وتمشت قلوبهم فى صدورهم من فرط الاعجاب وهزوا رؤوسهم علامة الاغتباط بأن يكون لمولاهم صديق ماهر كفرديناند . وكان ذو الفقار باشا وزير المالية وأعظم رجال الحاشية منزلة عند سعيد أشدهم إعجابا بهذه المهارة .

منح الامتياز بسبب قفزة جواد !!

ويشاء حظ مصر العاثر أن يكون منح دلسبس امتياز حفر القناة فى هذه الرحلة المنحوسة وعلى أثر هذه القفزة المشؤومة .

فلقد ذكر فرديناند نفسه فى الصفحة الرابعة من الجزء الأول من كتابه المسمى « مراسلات ويوميات ووثائق عن قناة السويس » أنه انتهز فرصة وقوع الحاشية تحت تأثير الاعجاب بمهارته فى تلك القفزة وفاتح سعيدا فى اليوم التالى فى أهمية المشروع وما قد يكسبه تحقيقه من حمد العالم له وثنائه عليه بسبب هذه الخدمة الكبيرة التى يسديها للانسانية. ولطالما كان سعيد يصرح بأنه لن يخالف وصايا أبيه فى هذه المسألة ولن يوافق على حفر القناة . ولكن أنى له بعد ما رأيناه فى أخلاقه من الضعف والتردد أن يقاوم صديقه القديم أو أن يحرر نفسه من تأثير الاعجاب بمهارة قفزانه ووثباته ! ؟

وغير خاف أن ماللقناة من الأهمية العظمى فى سير العلاقات الدولية كان ولا يزال يعتبر إحدى الصعوبتين الرئيسيتين اللتين تحولان دون حصول مصر على سيادتها التامة . أما الصعوبة الثانية فهى طبعاً ماللمصريين من مصالح إمبراطورية فى السودان . فالقناة إذن أهم عامل فى سبيل

= فضعفت عزيمة سعيد أمام نصائح فرديناند ووعده بمنحه الامتياز . وليته حتى بعد إعطائه هذا الوعد تريث فى الأمر واحتاط له واجتنب مواصلة البحث فيه ريثما يصل إلى القاهرة فيستدعى إليه كبار المهندسين ويكلفهم بدراسة المشروع دراسة فنية وأن يوازنوا بين مزاياه ومضاره . كلا إن شيئاً من ذلك لم يحدث بل لقد استدعى سعيد إليه قواد جيشه وكانوا ما يزالون متأثرين إعجابا بقفزة فرديناند ومهارته فما كاد أن يفاتحهم فى رغبة فرديناند حتى سارعوا إلى استحسان المشروع دون التفات إلى مزاياه أو مضاره .

ولا يذكر التاريخ شعباً نكب فى استقلاله وأصبح طعمة للطامعين من ذئاب الاستعمار كما نكب الشعب المصرى ، وتلك النكبة وما تلاها من المصائب التى ماتزال تعانيها مصر إلى اليوم هى بسبب قفزة ماهرة قام بها قنصل أجنبى ! !

ونحسب أن فرديناند لم يكن يتوقع أن يستولى على قلب سعيد وحاشيته بهذه السرعة أو لعله لم يكن ينتظر فى مشروع فى خطير كهذا أن يكتفى سعيد باستشارة القواد ورجال الحرب والجلاد دون المهندسين ورجال الفن . ولذا رأيناه يكتب فى هذا الصدد بلهجة التهكم اللاذع فى كتابه « أصول قناة السويس ص ١٥ » يقول :

« جمع سعيد باشا قواد جنده وشاورهم فى الأمر . ولما كانوا على استعداد لتقدير من يجيد ركوب الخيل ويقفز بجواده على الحواجز والخنادق أكثر من تقديرهم للرجل العالم المثقف (كذا ! كذا !) ، انحازوا إلى جانبى ، ولما عرض عليهم الباشا تقريرى عن المشروع ، بادروا (كذا !) إلى القول بأنه لا يصح أن يرفض طلب صديقه (كذا !) وكانت النتيجة أن منحنى الباشا ذلك الامتياز العظيم » .

وكأنما أراد فرديناند أن يسجل أمام التاريخ مسؤولية سعيد وحاشيته وكيف أنهم استخفوا بمصير بلادهم وبمستقبل الاجيال المقبلة إلى هذا الحد فسارعوا إلى البت فى هذا المشروع الحيوى الذى لا يفقهون فيه شيئا بلا رجوع إلى أهل الفن فقال فى ص ٤٠ من كتابه الأخير ما نصه :



صورة فريدة للمغفور له سعيد باشا بالزى الشرق

= « بعد أن قبل سعيد باشا المشروع استدعى قواد جنده ودعاهم إلى الجلوس أمامه وقص عليهم الحديث الذى دار بيننا وطلب إليهم أن يبدوا رأيهم فى مشروع «صديقه» فلم يكن من هؤلاء المستشارين وقد فوجئوا بهذا الاقتراح وهم أقدر على إبداء الرأى فى مناورات الخيل منهم فى التكلم عن مشروع عظيم لا يستطيعون فهم مراميه ، إلا أن ينظروا إلى بملء أعينهم ، كأنما يريدون إفهامى أن صديق مولاهم الذى رأوه يقفز على الحائط راكباً جواده بتلك المهارة لا يمكن أن يدلى إلا بآراء صائبة . (كذا !!) وكانوا أثناء الحديث يرفعون أيديهم إلى رؤوسهم بين آونة وأخرى علامة على الموافقة » !

ولسنا نتجنى على أحد عند ماقلنا أن رجال الحاشية وسعيدا نفسه لم يعرفوا من هذا المشروع لا قليلا ولا كثيرا بل أقروه فقط لأنه مشروع «الصديق» فرديناند صاحب =

وضع مصر تحت الإدارة البريطانية مدة ربع قرن كامل . لذلك نرى من حق الانجليز أن يعلنوا على رؤوس الاشهاد أنهم لم يلزموا مصر بحفرها بل إن مهندسى نابليون كانوا أول من فكر فيها ولا خطأهم فى تقدير منسوب المياه بما لم يصحح نهائياً إلا فى سنة ١٨٤٧ فقد زعموا أن مياه البحر المتوسط أوطأ بثلاثين قدما من مياه البحر الاحمر بدلا من أن تكون فى مستواها .

= القفزات الماهرة . وهذا ما قاله فرديناند نفسه عن سعيد فى ص ٥٧ من كتابه الأخير إذ قال إن سعيدا قال له بعد أن منحه الامتياز « أعترف لك بأنى لم أفكر طويلا فى الموضوع ، وإنما هى مسألة شعور وليس من عادتى أن أقلد الناس فيما يتبعون ويعملون »

منح الامتياز

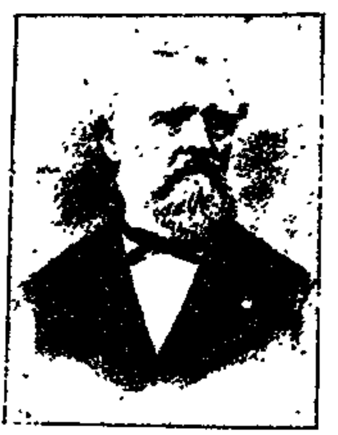
٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤

ثم واصل سعيد رحلته إلى القاهرة مصحوبا بصديقه القديم فرديناند فلما بلغاها أنزله ضيفا عنده وأحاطه بكافة مظاهر الاكرام والرعاية . وما هى إلا أيام حتى منحه بمقتضى العقد المؤرخ فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ امتياز تأسيس شركة عامة لحفر قناة السويس واستثمارها لمدة ٩٩ سنة ابتداء من تاريخ فتح القناة للملاحة .

وقد فتحت القناة فعلا للملاحة فى يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ أى أن مدة الامتياز تنتهى فى ١٦ نوفمبر سنة ١٩٦٨ فتصبح القناة بعد ذلك ملكا لمصر .

ويعرف هذا العقد بعقد الامتياز الاول تمييزا له عن عقد الاتفاق الثانى بتاريخ ٥ يناير سنة ١٨٥٦

ويظهر أن سعيدا أراد بعد كل هذا - وبعد أن سبق السيف العزل - أن يريح ضميره ولو من جهة الشكل فقط وأن يتحقق من إمكان تنفيذ المشروع . فأمر المهندسين الفرنسيين لينان دى بلفون وصورته منشورة فى ص ٨٢ وموجيل بك المنشورة صورته فى الصفحة التالية بمرافقة المسيو فرديناند إلى برزخ السويس لدرس المشروع وتطبيقه على طبيعة الأرض ورفع تقرير إليه . فقاما بالمهمة (طبعاً !) ووافقا وهما فرنسيان على وجهة نظر المسيو فرديناند بأن تنشأ القناة مستقيمة فى أضيق نقطة فى البرزخ بين موقع بيلوزه (بور سعيد الآن) على البحر المتوسط والسويس على البحر الأحمر .



المسيو موجيل مهندس حوض دار الصناعة
ومهندس القناطر الخيرية

فاستحالة حفر قناة تكون فى مستوى واحد مع البحر بسبب هذه الغلطة الوهمية يضاف اليها ممانعة محمد على لأسباب عسكرية — كل ذلك أدى الى ارجاء تنفيذ المشروع . وفضلا عن ذلك لم تكن عقبة مياه البحر الأحمر أقل من عقبة البرزخ من حيث صعوبة الملاحة فيه إلا إذا حل البخار محل الشراع فى نقل الركاب وتم تطهير البحار

مساعى دلسبس المالية

= وبدأ دلسبس مساعيه لتكوين الشركة وجمع من بعض الماليين حصص التأسيس جاعلا قيمة الحصة ٥٠٠٠ فرنك (٢٠٠ جنيه) وخصص قيمة نصف الحصص لنفقات المشروع الأولية على أن تحول هذه القيمة إلى أسهم خاصة فى الشركة عند إتمام تأليفها .

وفى نوفمبر سنة ١٨٥٥ انتخب فرديناند باتفاقه مع سعيد لجنة دولية لدرس المشروع ثانية وهو فى نظرنا دليل على أن سعيدا بدأ يحس بفداحة مسؤوليته أمام التاريخ ومخالفته لوصايا أبيه . فحضر أعضاء اللجنة إلى برزخ السويس وبعد الاطلاع على تقرير لينان بك وموجيل بك وإجراء المباحث الهندسة وافقوا على المشروع بعد أن ثبت لهم أن مستوى الماء فى البحرين واحد وان الأرض صالحة لامتياز القناة الملحة . وهكذا بدأ الناس يطمئنون إلى نجاح المشروع وأقبلوا على الاكتتاب فى أسهم الشركة عند تأليفها .

شروط الامتياز

٥ يناير سنة ١٨٥٦

وما أن فرغت اللجنة الدولية من وضع تقريرها حتى رفعه دلسبس إلى سعيد باشا. =

الضيقة من القرصان . وقد استغرقت نقالات بيرد فى سنة ١٨٠١ ثلاثة أشهر كاملة لقطع الطريق من بومباى الى الاقصر بينما أن النجدات كانت ترسل فيما بعد حول طريق الرأس .

= فأصدر له عقد الامتياز الثانى بتاريخ ٥ يناير سنة ١٨٥٦ وقد صدق فيه على الامتياز السابق منحه لدلسبس وضمنه شروط الامتياز المخولة للشركة وهى شروط من الفداحة بحيث لايسع أية حكومة وطنية مسؤولة أن ترضى بها . وهاك نصها كما ورد فى كتاب الأستاذ الرافعى بك « عصر اسماعيل » ولسوف تعتريك الدهشة لها !

أولا — منحت الحكومة الشركة امتياز انشاء قناة السويس من خليج الطينة على البحر الأبيض المتوسط والسويس على البحر الأحمر ، وانشاء ترعة للمياة العذبة صالحة للملاحة النيلية تستق من النيل وتصب فى القناة الملحة ، وإنشاء فرعين للرى والشرب يستمدان مياههما من الترعة المذكورة ويصلان إلى السويس والطينة (بور سعيد) (مادة ١ من عقد الامتياز الأول) .

ثانياً — تنازلت الحكومة للشركة مجاناً عن جميع الأراضى المملوكة لها والمطلوبة لانشاء القناة الملحة وترعة المياه العذبة وتوابعهـا . وهى مساحات شاسعة على طول القناة والترع المزمع إنشاؤها بعرض كيلو مترين من الجانبين (كما أورده المسيو دلسبس فى الجزء الثانى من كتابه المسمى مراسلات ويوميات ودقائق عن القناة ص ٣٥٦) وقد تنازلت عنها الحكومة بلا مقابل مع اعفائها على الدوام من الضرائب ، وتنازلت أيضاً عن جميع الأراضى القابلة للزراعة لتستصلحها الشركة وترويها وتزرعها مع إعفاء هذه الأطيان من الضرائب مدة عشر سنوات من تاريخ استثمارها .

ثالثاً — خولت الشركة (عدا ماتقدم) حق انتزاع الأراضى المملوكة للافراد بما ترى لزومها لاجراء الأعمال والانتفاع بالامتياز فى مقابل أن تدفع الشركة لأصحابها تعويضات « عادلة » (مادة ١٢) ومعنى ذلك نزع ملكية الأفراد لمصلحة الشركة .

رابعاً — على أصحاب الأطيان الواقعة أملاكهم على ضفاف الترع التى تنشئها الشركة إن أرادوا رى أراضيهم بمياهها أن يحصلوا على ترخيص بذلك من الشركة فى مقابل تعويض يؤدونه لها مادة (٨)

خامساً — منحت الحكومة الشركة طوال مدة الامتياز الحق فى أن تستخرج من المناجم والمحاجر الأميرية كل المواد اللازمة لأعمال المبانى وصيانتها وملحقات =

وبعد أن عين المسيو دلسبس قنصلا عاما لفرنسا أخذ يهتم بالمشروع وكان قد أحكم عرى الصداقة مع سعيد وهو فى باريس عند مانفاه عباس اليها . فبفضل لجاجته التى كانت تعتبر منافية للآداب لو أنها كانت خاصة بمسألة تافهة قد تمكن من حمل هذا العملاق الحسن النية على منحه امتيازاً

= المشروع دون دفع أى رسم أوضريبة أو تعويض (كذا!) وتعفى الحكومة الشركة من الرسوم الجركية والعوائد على جميع الآلات والمواد التى تستوردها من الخارج (مادة ١٣)

سادساً — صدر أجل الامتياز بمدة ٩٩ سنة من افتتاح القناة البحرية للملاحة وبعد انتهاء هذه المدة تؤول القناة إلى الحكومة المصرية (مادة ٣٦)

ولكن هذه المادة قيدت هذا الحق بشرط قد يؤدى إلى تعطيله أو يفتح باب المشاكل وهو وجوب أخذ الحكومة فى هذه الحالة جميع المهمات والمعدات المخصصة لأعمال المشروع البحرية وأن تدفع للشركة قيمتها التى تقدر سواء بالتراضى أو بناء على تقدير الخبراء .

وأنت ترى أن ليس ثمت ما يحول دون مغالاة الشركة فى أثمان هذه المعدات كى تبهظ عاتق الحكومة المصرية ابتغاء خلق العقبات التى تعترض حق مصر فى استرداد القناة .

وهناك ما يضاعف الدهشة فى هذا العقد المدهش . وهو أن المادة ١٦ من هذا الامتياز لم تذكر شيئا عن المبانى والمنشئات التابعة للقناة . وقد كانت المادة (١٠) فى عقد الامتياز الأول نصت على أن حكمها كحكم القناة فى رجوعها إلى الحكومة بلا مقابل . وهو دليل على أن العقد الثانى كان أكثر سخاء بالنسبة للشركة وأشد اجحافاً بالنسبة لمصر . ومن يدرى فقد يكون سعيد عهد إلى « صديقه » دلسبس أن يكتب فى العقد كما يشاء وأن يوقعه أمير البلاد دون التفات إلى ما ينطوى عليه من ضروب العنت والاجحاف ؟

سابعاً — خولت الشركة حق فرض ما تشاء من الرسوم على السفن التى تمر فى القناة البحرية أو الترع والثغور التابعة لها على شرط أن لاتزيد فى النهاية العظمى عن عشرة فرنكات عن كل طن وعن كل شخص من المسافرين (مادة ١٧)

بحفر القناة.ولو أن هذا حدث فى وقت عصيب آخر لحرص بالمرستون جهد طاقته على أن يبقى الامتياز حبراً على ورق . ولكن قنصلنا الجنرال عند ما سأله سعيد هل تؤيده انجلترا فى رفض الاقتراح الفرنسى كان جوابه بالنفى لأن فرنسا كانت قد انضمت الينا وقتئذ فى حرب القرم

= ثامناً — فى مقابل الأراضى والامتيازات الممنوحة للشركة تحصل الحكومة المصرية على حصة قدرها ١٥٪ من صافى الأرباح السنوية (مادة ١٨)

ويشاء الجد العاثر أن تخسر مصر حتى هذه الحصة الضئيلة فى سنة ١٨٧٩ بسبب ارتباك الأحوال المالية . اذ باعتها الحكومة المصرية للبنك العقارى بفرنسا مقابل ٢٢ مليون فرنك.

تاسعاً — يكون أربعة أخماس العمال من المصريين (مادة ٢) وتعهدت الحكومة يبذل مساعداتها للشركة وتكليف جميع موظفيها وعمالها فى جميع دوائر المصالح أن يمدوا الشركة بمساعداتهم لها (مادة ٢٢) وإن من نكد الطالع أن تفسر الشركة هذه النصوص بأنها تعهد من الحكومة بتسخير (كذا !) أربعة أخماس العدد الذى تطلبه الشركة من العمال وان يكونوا من الفعلة والفلاحين المصريين لاجراء أعمال الحفر والانشاء ووضعهم تحت تصرف الشركة لتشغيلهم فيما تريده من الأعمال مقابل دفع أجورهم .

وأعجب العجب أن يخلو عقد الامتياز الثانى من مزية تضمنها العقد الأول . فقد تضمنت المادة الثانية على مايخول الحكومة حق تعيين مديرى الشركة . ولكن هذه المزية قد اختفى أثرها فى عقد الامتياز الثانى الذى يقضى بالغاء كافة النصوص الواردة فى عقد الامتياز الأول بما يخالف أحكام العقد الثانى . وقد اقتصرت المادة (٢٠) من العقد الثانى على هذا النص الأبتر وهو « يرأس الشركة ويديرها صديقنا ووكيلنا المسيوفرديناند دلسبس بصفته المؤسس لها طوال المدة التى تستغرقها الأعمال ، ثم لمدة أخرى قدرها عشرسنوات تبتدىء من تاريخ استغلال الامتياز » أى أن مصر خسرت فى العقد الثانى حق تعيين مديرى الشركة وحفظ لها فقط حق تعيين « مندوب » عنها لدى الشركة لتمثيل حقوق الحكومة ومصالحها فى تنفيذ العقد .

للحيلولة دون وصول الروس الى الاستانة ولم يكن فى وسع بالمرستون أن يفعل أكثر من أن يؤجل موافقة الباب العالى رسمياً على الامتياز عامين كاملين . على أن سعيدا قد عوضنا عن هـذا الامتياز بأن منحنا امتيازا بمد خط حديدى بين الاسكندرية والقاهرة وهو ما كان يمانع فيه أبوه

= وأمر غريب آخر فى هذا العقد الثانى فقد أغفل ماورد فى (المادة ٤) من العقد الأول بخصوص الحصون التى قيل فيها إن الحكومة إذا رأت لزوما لانشائها فى منطقة القناة فلا تتكلف الشركة نفقاتها . فلما أغفل ذكر هذا النص فسر إغفاله بان لا حق للحكومة فى إقامة الحصون فى هذه المنطقة ! !

فهل رأيت شروطاً أفدح من هذه الشروط التى خولت الشركة حقوقا واسعة جعلتها فى الواقع بمثابة حكومة داخل حكومة ؟ ولكن أنى لك أن تعجب إذا كان دلسبس هو الذى كتب ماشاء من الشروط فوقعها الأمير سعيد باشا كما هى دون بحث فيها لا لشىء إلا لأن الرجل صديق قديم ويحسن القفز من على ظهور الجياد الصافنات ؟ !

انجلترا تقاوم مشروع القناة

وقـد اشترط سعيد لصحة الامتياز أن يصادق عليه السلطان محافظة على الشكل فقط لأنه تعهد لصديقه دلسبس بمساعدته بصرف النظر عن هـذا التصديق . لأن معاهدة لندن التى نالت بمقتضاها مصر استقلالها الداخلى لا تحتم الحصول على مثل ذلك التصديق . ولـكن دلسبس أراد زيادة الاطمئنان فسافر إلى الاستانة ملتمساً فرمان التصديق .. وهناك لقى مقاومة عنيفة من سفير بريطانيا بايعاز من لورد بالمرستون وزير الخارجية الانجليزية .

وأنت تدرك أن معارضة السياسة الانجليزية للمشروع كان أساسها الخوف على طريق الهنـد . ولذا دفعت تركيا إلى عـدم المصادقة على المشروع وراحت من الناحية المـالية تلقى المخاوف فى صدور المـاليين من نجاح المشروع وتصفه بأنه مشروع خيالى .

تعضيد سعيد للمشروع

ولـكن سعيدا كان قد عقد النية على مساعدة صديقه دلسبس على إتمام مشروعه . ولذا لم يتردد فى أن يبذل له ما كان متوفراً وقتئذ فى خزائن الحكومة وقدره ١٠٠٠٠٠ جنيه للاستعانة بها على بدء العمل .

أشد ممانعة ، كما وافق على انشاء البنك الاهلى (١٨٥٦) وأكثر من ذلك أنه خولنا حق إرسال الجنود عن طريق البر لقمع الفتنة الهندية .



ابتداء العمل فى حفر القناة (٢٥ ابريل سنة ١٨٥٩)
وترى المسيو دلسبس ممسكا بيده معولا للحفر وحوله العمال
المصريون يبدأون فى حفر القناة

ولم تكن الشروط التى منح امتياز القناة بمقتضاها أصون لسمعة أوربا مما تورطت فيه مصر فيما بعد من شروط الامتيازات والقروض

تأليف الشركة

= وفى ٥ نوفمبر سنة ١٨٥٨ عرض دلسبس اسهم الشركة للاكتتاب العام فى فرنسا وغيرهامن البلدان وبلغ من كثرة الاقبال انغطيت أسهم الاكتتاب عدة مرات.ومن ثم تألفت الشركة فى ديسمبر سنة ١٢٥٨ على أن يكون رأس مالها ٢٠٠ مليون فرنك (٨٠٠٠٠٠٠ جنيه تقريباً) موزعة على ٤٠٠٠٠٠ سهم قيمة السهم ٥٠٠ فرنك (٢٠ جنيها) ثم قسم السهم إلى نصفين فصار عدد الأسهم ٨٠٠٠٠٠ وبلغت قيمة السهم الأصلى فى سنة ١٩٣٢ حوالى ١٥٠٠ فرنك (٦٠ جنيه) بعد أن كانت ٥٠٠

وذكر المسيو دلسبس فى كتابه « وثائق عن القناة » جزء ٨٤ ص ١٣٣ أن سعيد باشا اكتتب ؛ ١٧٧٦٤٢ سهما أى بما يقرب من نصف مجموع الأسهم ودفع جزءاً من ثمنها فوراً وقسط الباقى على سنوات .

بدء العمل فى القناة

٢٥ ابريل سنة ١٨٥٩

ثم بدأ الحفر فى القناة يوم ٢٥ ابريل سنة ١٨٥٩ فذهب المسيو دلسبس ومعه =

الأخرى . فان دلسبس برفضه العمل بنصائح مروجى المشروع الأصليين وهم شركة سانت سيمونيان البريطانية واعتماداً على صديقه ومناصره سعيد ، لم يكن أكثر مراعاة لحساب الضمير من أى صاحب امتياز آخر فى مصر . واذا كانت مسألة السويس لم تنقلب إلى فضيحة عمومية كفضيحة بناما

= أعضاء مجلس إدارة الشركة إلى شاطىء البحر المتوسط وفى المكان الذى انشئت فيه بعد ذلك مدينة بورسعيد وأقيم احتفال كبير ضرب دلسبس أول معول فى حفر القناة كما يراه القارىء فى الصورة المنشورة فى الصفحة السابقة

وقد اقتدى به الحاضرون . وكان هذا المعول فى الواقع أول معول فى هدم صرح استقلال مصر برضى أميرها سعيد باشا !!

وقد حدث هذا قبل صدور الفرمان التركى بالتصديق على الامتياز . فكأن سعيداً أراد وضع تركيا وانجلترا أمام الأمر الواقع بتعضيده المشروع بكل ما لديه من حول وقوة ومال .

فلم يكن عجيباً أن تقوم انجلترا وتقعد لهذا التصرف . وقد تمكنت من حمل تركيا على منع الفرمان . وشاء حسن حظ انجلترا المؤقت أن تشب الحرب فى مايو سنة ١٨٥٩ فى ايطاليا بين النمسا وفرنسا فرأت فرنسا أن من الحكمة محاسنة انجلترا ، ولذا أظهرت تراخياً فى تأييد المشروع . وكادت أن تنجح انجلترا فى مساعيها وفعلا دبرت مع تركيا خلع سعيد باشا . وسافر فى هذه المهمة الأسطول البريطانى فى شهر يونية سنة ١٨٥٩ على ما ذكره دلسبس فى كتابه « مراسلات ويوميات ووثائق عن القناة » جزء ٣ ص ١٢٤ ولكن اخفق التدبير وعهد سعيد إلى شريف باشا وزير الخارجية بارسال كتاب إلى دلسبس بوقف العمل .

وتألق نجم فرنسا ثانية إذ وضعت الحرب أوزارها بينها وبين النمسا وعقدت هدنة « فيلا فرنكا » ، وأصبحت لفرنسا الكلمة النافذة فى السياسة الدولية فعادت إلى مناصرة المشروع . وعادت انجلترا إلى معارضته بحمل السلطان على إصدار أمر إلى سعيد باشا بوقف أعمال الحفر . وفعلا سافر مندوب تركى يدعى مختار بك إلى مصر يحمل هذا الأمر إلى سعيد .

ولكن هذه المساعى ذهبت كلها هباء ، لأن نابليون الثالث سرعان ما بذل نفوذه لدى تركيا لالغاء هذا الأمر وبذا اطمأن سعيد إلى تعضيد الحكومة الفرنسية فأطلق لدلسبس العنان وسخر له الفلاحين وجلب من القرى مالا يقل عن ٢٥٠٠٠ منهم جعلوا =

كيون سبب ذلك أن المصريين لا الفرنسيين هم الذين ذهبوا ضحية هذا الحيف والظلم. واذ ذكرنا أن الاعتمادات كانت تأتى بسهولة بينما أن عملية الحفر كانت خالية من المصاعب الفنية حق لنا أن نقول انه كان يصح

= يشتغلون فى هذا العمل المضنى إلى أن جرت مياه البحر الأبيض إلى بحيرة التمساح فى ١٨ نوفمبر سنة ١٨٦٢ وهى آخر مرحلة وصلت إليها أعمال الحفر فى عهد سعيد فى ذلك المشروع .

ونقف الآن هنيهة لنتساءل عما اكتسبته مصر من ذلك المشروع الذى كان نكبة عليها إذ كلفها ضياع استقلالها دون أن تفيد منه شيئاً مادياً . ولم يكن يمكن ستر خطر ذلك المشروع أو حجبه عن الأعين . وقد أدرك الأوربيون تلك الحقيقة من البداية . وفى ذلك الصدد كتب المستر بروس قنصل انجلترا فى مصر وقتئذ إلى حكومته ينبئها بمنح امتياز حفر القناة وقال فى ختام رسالته : « . . وإن فتح القناة سيؤدى إلى ازدياد المواصلات التجارية بين أوربا والبلاد الواقعة على البحر الأحمر ، وستنشأ طبعاً مراكز للدول الأجنبية فى هذه البلاد ومن المنتظر أن تحدث منازعات بينها وبين تلك الشعوب فتتخذ ذريعة إلى التدخل المسلح فى شؤونها وهذا التدخل يفضى إلى الاحتلال الدائم ويتوقع أن تحدث هذه النتائج فى مصر ذاتها » .

أضف إلى ذلك أن انجلترا فى أثناء معارضتها للمشروع كان مما اشترطته للموافقة عليه احتلالها السويس وحمايتها للقناة . نعم إنها عدلت عن ذلك الشرط ولكن ألم يكن ذلك كافياً لفتح أعين سعيد باشا إلى خطورة المشروع ؟

وليس من شك فى أن منح الامتياز إلى شركة أجنبية قد فتح على مصر أبواب التدخل الأجنبى ، وكان الشر يكون أهون حتما لو أن العمل قامت به مصر لحسابها .

وقد مر بك ما خوله سعيد للشركة من حقوق واسعة وامتيازات فادحة جعلتها شريكة مصر فى سيادتها .

أما من الناحية الاقتصادية فقد خسرت مصر بفتح القناة إذ تحول طريق التجارة من داخل مصر إلى القناة المائية التى أصبحت ملك شركة أجنبية .

وحتى لو ضربنا صفحا عن كل هذه المضار بالنسبة لمصر فانها أنفقت عليه ما لا يقل عن ١٦٠٠٠٠٠٠ جنيه فى أسهم اكتتب فيها وأملاك تنازلت عنها وأعمال قامت بها وتعويضات للشركة .

أن تنشأ مصاعب ما فى سبيل المشروع لو توخى القائمون به قليلا من الاقتصاد وأبدوا شيئا من الكفاءة . فان عملية الحفر نفسها لم تكن سوى مجرد جرف رمال هذا فى حين أن الجو كان صالحاً للعمل والعمال المحليون متوفرون يؤدون أعمالهم على أكمل وجه وبدون أجر .

ولئن عادت هذه القناة إلى مصر يوما ما — وهيهات ! — فان مصر تكون قد خسرت إلى جانب هذه الملايين العديدة ماهو أثمن من المال والنفس ألا وهو حرمانها من استقلالها كل هذه السنوات .

ومن يدرى ونحن نرى كل هذا التقدم فى عالم الطيران أن لا تتآمر الدول يوم حلول موعد إعادة القناة إلى مصر فتطالب بجعلها مياه دولية تكلف مصر بحراستها لحساب الغير ؛ وقد تتحول التجارة وحركة النقل عن طريق البحار إلى طريق الجو فلا تستعيد مصر القناة إلا بعد أن تكون قد تلاشت قيمتها وأصبح وجودها وعدمها سيان ؟

والآن نرى مصلحة الكل قد تلاشت من أجل مصلحة الجزء وأصبحت شؤون مصر ثانوية بالنسبة لقناة السويس أو كما قال ساكن الجنان اسماعيل باشا « . . أريد أن تكون القناة تابعة لمصر لا أن تكون مصر تابعة للقناة » . وكأنما قضى على هذا الشعب المسكين أن يكد ويكدح ويحفر القناة لما أسموه خير الانسانية لا ليفيد من وراء ذلك بعض الفائدة ولكن ليظل إلى الأبد فى عداد المستعبدين !

وإذا كانت السياسة الأنجليزية تلون لنا كل يوم بلون جديد وتتظاهر بالود مرة على أن تعود الى الجفاء مرة أخرى — فذلك كله للاحتفاظ بالسيطرة على قناة السويس. وقد يكون من العبث أن يتصور انسان عاقل أن تعقد السياسة البريطانية مع مصر اتفاقا لا يترك لها السيطرة الكاملة على القناة وان كانت للسياسة البريطانية فى نظرنا ندحة عن هذا التشبث .

ونذكر بهذه المناسبة أن المرحوم المستر ولفرد بلنت للسياسى الأنجليزى المشهور الذى لعب دورا مهما فى الحركة العرابية قدمنا فى سنة ١٩٢١ ابان مفاوضات المغفور له سعد باشا فى لندن للسياسى البريطانى المبرز المستر ماسنجهام محرر مجلة النيشن ولما كانت الحركة الوطنية ماتزال فى عنفوانها فقد باحثنا المستر ماسنجهام فيما يمكن أن توافق عليه بريطانيا من شروط الاتفاق مع مصر . ثم عرض الحديث لقناة السويس . فقال المستر ماسنجهام إنه مع عطفه الشديد على قضية مصر لا يرى سبيلا لاتفاق لا يترك

يضاف إلى كل ذلك أن قيمة الامتيازات كانت فادحة . فقد تضمن عقداً بإيجار أراضى زراعية صالحة لمدة ٩٩ سنة مع حق استخراج مافيها من المعادن على أن يعمل العمال بالسخرة طيلة ثلاثة أرباع المدة اللازمة لإنجاز المشروع وقد قدرت بست سنوات . وقد نص على فرض رسم قدره

= لبريطانيا السيطرة على قناة السويس . فأظهرنا له دهشتنا من إفلاس السياسة فى إيجاد حل لهذه المشكلة التى لا نعدها جوهرية . ثم قلنا ان بريطانيا طالما كانت لها السيطرة فى البحرين الأبيض المتوسط والأحمر فهى فى غير حاجة إلى استبقاء حامية فى قناة السويس وبالتالى لا معنى إذاً لاحتلال مصر . أما إذا فقدت بريطانيا هذه السيطرة فى معركة بحرية مع إحدى الدول الطامعة فى غزو القطر المصرى فان مركز الحامية الانجليزية فى القناة يصبح محفوفاً بالمخاطر وبخاصة إذا كان هناك تفاهم سابق بين المصريين والجيش المهاجم على إخراج البريطانيين من مصر . وفى كلتا الحالتين لا معنى لوجود الحامية ، وسحبها كفيل بإيجاد حسن التفاهم مع شعب يقدر الجميل ولا ينكث بالعهود كشعب مصر الذى تستطيع بريطانيا أن تعتمد على صداقته ومعونته عند الحاجة وما أكثر حاجاتها بسبب اتساع نطاق امبراطوريتها .

وقد راقت هذه الفكرة لدى المستر ماسنجهام والمستر بلنت وراح أولهما يكتب فى مجلته أن الطريق الوحيد للتفاهم مع مصر هو الجلاء عن وادى النيل .

ولكن رجال العسكرية الانجليز ردوا على ذلك بأن القناة لازمة لسلامة بريطانيا كأن تلك السلامة كانت فى خطر دائم أيام أن كانت مواصلات العالم كلها حول رأس الرجاء الصالح ! وليت أولئك العسكريين يقنعون بالاحتفاظ بالقناة وحدها كلا بل ترى لهم منطقاً غريباً يدفعهم إلى المطالبة باحتلال مصر بأسرها فى سبيل الاحتفاظ بهذه القناة . فهم يقولون مثلا إن رجال الحامية فى القناة فى حاجة إلى المياه العذبة التى تصلهم عن طريق ترعة الاسماعيلية ولما كانوا يتوهمون أن الترعة المذكورة قد يطمرها المصريون فى أثناء الحرب بين انجلترا ودولة أخرى فتراهم يطالبون بالاحتفاظ بها من منبعها بالقرب من القاهرة . وبديهى أن الاحتفاظ بمنبع الترعة العذبة يقتضى تباعاً لذلك احتلال القاهرة نفسها واحتلال العاصمة يقتضى احتلال مديريتى الجيزة والقليوبية ولا سبيل إلى الدفاع عن هذين الاقليمين إلا باحتلال الاراضى المجاورة لها وهكذا دواليك إلى أن ينتهى الامر بأن الاحتفاظ بالقناة يقتضى احتلال مصر والاحتفاظ بالقطر المصرى يقتضى احتلال =

١٠ فرنكات عن كل مسافر أو عن كل طن . وتم الاتفـاق على أن تقسم الأرباح بحيث ينال حملة الأسهم ٧٥ ٪ ومروجو المشروع ١٥ ٪ والحكومة المصرية ١٠ ٪ ولهذه الغاية اتخذت الاجراءات فوراً بعقد قرض قيمته ٢٠٠ مليون فرنك أى ٨ ملايين جنيه (١٨٥٨) ا لتتبت فرنسا بنصفه وا كتتبت تركيا ومصر بالنصف الآخر . وقد بدأ العمال الحفر

= السودان الخ هذه الحلقة المفرغة التى لا أمل فى الوصول إلى أحد طرفيها .

وقد لا نكون مبالغين إذا قلنا إن القناة كانت نقمة على كثير من الشعوب بقدر ما كانت نقمة على مصر . ففلسطين وشرق الأردن والعراق ما كانت لتتعرض لما نشهده من ضروب العنت من السياسة الاستعمارية لولا تلك القناة التى إذا صح أن أحدا استفاد منها فهو غير مصر . ثم لا تنس أنه لولا القناة لما وقعت موقعة التل الكبير فى إبان الثورة العرابية ولا كان احتلال مصر . فهذه القناة التى حفرت فى بداية الأمر خدمة للانسانية قد أظهرت التجارب أنها نكبة على مصر والمصريين وأحد الأسباب فى تعريض كثير من الشعوب المجاورة لجور السياسة الاستعمارية واستبقاء شعوباً أخرى كالهند وغيرها تحت نير الارهاق الاستعمارى .

ألا ليت سعيدا قد فطن إلى كل ذلك فوفر على بلاده وجيرانها كل هذه المتاعب والأهوال !

سعيد وسنة الاقتراض من الأجانب

وكما أن سعيدا هو الذى فتح على مصر باب الشر بموافقته على امتياز القناة فانه كذلك سن لخلفائه أسوأ سنة بالتجائه لغير حاجة أو ضرورة ماسة إلى الأجانب وعقد القروض بالفوائد الفاحشة مخالف بهذا وصية أبيه وأخيه ابراهيم وهما اللذان نهضا بالبلاد - كما شهد بذلك أحد الكتاب الفرنسين - ، وجاهدا فى سبيل استقلالها ذلك الجهاد الذى كلل بالنصر دون أن يكون لديهما من الموارد المالية سوى ميزانية لا تتجاوز خمسين مليون فرنك (مليونى جنيه) .

وإليك إحصاء بما عقده سعيد من القروض الأجنبية .

ففى سنة ١٨٦٢ عقد أول قرض ثابت من مصرف فريهلنج وجوشن فى لندن ومقداره الأسمى ٣٢٤٢٨٠٠ جنيه مع أنه لم يستلم منه إلا ٢٤٠٠٠٠٠ جنيه ! وقد جعلت فائدته ٧ ٪ على أن يقسط على ثلاثين سنة بحيث يكون القسط السنوى مع فوائده =

فعلا (٢٥ ابريل سنة ١٨٥٩) قبل وصول اذن الباب العالى . على أن سعيداً لم ينتقل إلى الدار الاخرى (١٨٦٣) حتى كانت المصاعب قد قامت فعلا فى سبيل المشروع

= ٢٦٤٠٠٠ وبذا يكون مجموع الأقساط ٧٩٢٠٠٠ مع أن أصل الدين هو ٢٤٠٠٠٠ فتأمل!

ثم إذا به يلتجىء إلى ما يسمى بالديون السائرة وهى أشد خطراً من الديون الثابتة إذ لا سبيل إلى ضبطها أو مراقبتها . فقد كان يستدين من المرابين بواسطة سندات يحررها على الخزانة بالقيمة المقترضة . وهى كما ترى من أخطر وسائل الاقتراض .

وقد أحصى الكاتب الفرنسى الذى ألمعنا إليه فى كتابه « تاريخ مصر المالى » ديون سعيد باشا عندما انتقل إلى العالم الثانى فاذا بها ١١١٦٠٠٠٠ فاذا طرحنا من هذا المبلغ لدين الثابت المأخوذ من بنك جوشن بلغت الديون السائرة ٧٨٦٨٠٠٠ وهو دين باهظ لم تكن تحتمله مالية البلاد وقتئذ .

وفاة سعيد باشا

سافر سعيد فى أواخر أيامه إلى أوربا للاستشفاء من مرض عضال أصابه ولكن لم تنجح فيه حيل الأطباء فعاد إلى الاسكندرية فى أواخر سنة ١٨٦٢ بعد أن استفحل الداء وما زال يشتد منجهة وتتدهور صحته منجهة أخرى إلى أن عاجلته المنية فى صباح يوم ١٨ يناير سنة ١٨٦٣ (٢٧ رجب سنة ١٢٧٩) وله من العمر ٤٢ سنة وقد دفن بمسجد النبى دانيال باسكندرية بعد أن حكم البلاد ثمانية أعوام وتسعة أشهر وستة أيام على ما جاء فى كتاب التوقيعات الالهامية للواء المصرى محمد مختار باشا .

وهكذا ودع سعيد هذا العالم بعد أن طوق جيد أمته بأغلال امتياز القناة وسن تلك السنة السيئة فى عقد القروض الأجنبية بالفوائد الفاحشة .

ومن يدرى ماذا كان يكون شأن مصر لو سلم عهد سعيد من هاتين المسألتين؟ الأرجح أن تكون الطريق قد هيئت لمستقبل زاهر بعد ماشهدناه من وطنية سعيد وحبه لشعبه والعمل على رفع شأنه . ولكن قدر فكان .

وإذا كنا قد أطلنا الاقتباس عن الكتب الأخرى فلأننا أردنا أن نضع أمام القارىء صورة صحيحة للحوادث التى وقعت فى ذلك العهد إذ ليس يخفى ما لها من الارتباط الوثيق بما وقع بعد ذلك من الحوادث التى أدت إلى كارثة الاحتلال البريطانى . فالتوسع فى الاقتباس انما يراد به فى الواقع تنوير الأذهان ولفت الأنظار إلى ما تلا ذلك من الحوادث المهمة ليتسنى ربط المسببات بأسبابها والمعلولات بعللها .



ساكن الجنان

الخديو اسماعيل باشا

ولما تبوأ اسماعيل باشا الأريكة أعيد النظر فى شروط الامتياز ووضع المشروع بحذافيره على بساط البحث من جديد . ذلك لأن وفاة سعيد عجلت بحل الشركة الشخصية التى كانت قائمة بينه وبين دلسبس مما شجع خصوم المشروع على مضاعفة جهودهم لعرقلته. وبهذه المناسبة صرح اسماعيل باشا مرة فقال « لا يوجد من هو أشد منى رغبة فى إنجاز المشروع ولكنى



الامبراطور نابليون الثالث
الذى قام بدور الحكم بين الشركة وبين
ساكن الجنان اسماعيل باشا

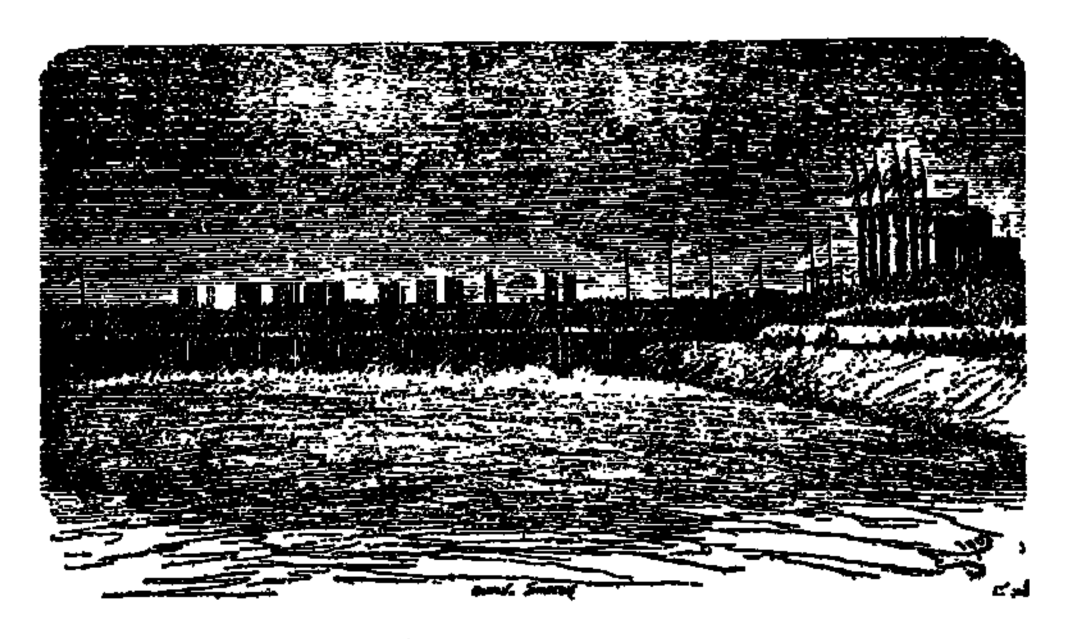
اسماعيل باشا

ولد سنة ١٨٣٠ وتولى سنة ١٨٦٣ وتوفى سنة ١٨٩٥

إذا ذكرنا عهد اسماعيل باشا فقد ذكرنا عهد الحضارة والعمران عهد التقدم والترقى عهد الرفعة والسؤدد والمجد عهد النهضة الأدبية والمادية عهد السمو بمصر إلى مصاف الأمم الراقية وبالجملة فهو عهد تصدق عليه كلمة اسماعيل باشا نفسه عند ما قال إنه يحاول جعل « مصر قطعة من أوربا » وإذا كان محمد على قد تمكن من تحقيق استقلال مصر فى شؤونها الداخلية فان حفيده الكبير اسماعيل باشا قد سار على سنته وزاد على ذلك أنه رفع مصر إلى مصاف الدول المتمدينة بما أتاه من الأعمال العمرانية التى جعلت من مصر جنة تبهج الناظرين .

واذا كان بعض كتاب الافرنج قد طاب لهم فى الماضى أن يكيلوا المطاعن جزافا لاسماعيل باشا فان الحق يأبى الاأن تسطع شمسه يوما ما. وهانحن قد أصبحنا قاب قوسين أو أدنى من اليوم الذى ينصف فيه التاريخ اسماعيل ويعترف له الخصوم بما كان له من أياد بيضاء على هذه البلاد . لابل لسوف ترى أن كثيرا مما يأخذه هؤلاء الخصوم على اسماعيل قد أسىء تأويله وفهمه وأن الحق كان فى أغلب الأحايين إلى جانبه .

ونبادر بهذه المناسبة فنذكر أول كتاب وضع بالانجليزية فى عام ١٩١٠ بقلم المستر



معالم الزينة والابتهاج بانشاء قناة السويس وترى الأهالى واقفين على ضفة القناة والأعلام والرايات تخفق فوق رؤوسهم

روذستين يتضمن الاشادة بفضل اسماعيل باشا . والمستر روذستين هذا هو روسى الجنس فر من بلاده هربا من عسف الحكم القيصرى وحط رحاله فى العاصمة الانجليزية . وتوافر بعد معاشرة المستر بلنت السياسى الانجليزى المشهور على دراسة المسألة المصرية درسا وافيا إلى حد أن اختاره الزعيم الكبير المغفور له مصطفى باشا كامل لرياسة تحرير جريدة الايجبشيان ستاندارد التى كان يصدرها فى مصر . ولقد سلخ المستر روذستين نحو ١٥ سنة فى العاصمة الانجليزية الى أن وضعت الحرب أوزارها وانهار الحكم القيصرى على أثر شبوب ثورة البلاشفة فاختاره الزعيم لينين ليكون سكرتيرا خصوصيا له . فغادر لندن الى منصبه الجديد وبعد وفاته عينته حكومته سفيرا لها فى إيران ولكن سرعان ما طلبت الحكومة البريطانية إرجاعه الى بلاده خشية من الدعاية التى كان يبثها ضدها فى الهند .

وقد وضع المستر روذستين هذا أثناء اقامته فى لندن كتابا على جانب عظيم من الأهمية أسماه « خراب مصر » ضمنه خلاصة ابحاثه عن القضية المصرية . فجاء كتابا قيما من خير ما كتب عن مصر اذ جاء مشفوعا بالوثائق الرسمية ومصدرا بمقدمة بليغة من قلم المستر بلنت .

ولا نعرف فيما وضع باللغة الانجليزية لغاية سنة ١٩١٠ كتابا تضمن انصافا لعهد اسماعيل ككتاب « خراب مصر » فلقد حلل فيه الكاتب مسألة الديون التى يأخذونها

أريد ان تكون القناة تابعة لمصر لا ان تكون مصر تابعة للقناة .»
وما كان أشد اغتباط الحكومة البريطانية بسنوح الفرصة لوقف العمل

= على اسماعيل وأثبت بما لا سبيل إلى دحضه من البراهين القاطعة أن خديو مصر كان ضحية مؤامرة من ذئاب الماليين الذين تآمروا عليه فشوهوا أعماله واتهموه بلا وجه حق بالاسراف والتبذير مع أنه أنفق معظم ما استدانه فى المرافق العامة وفى سبيل «جعل مصر قطعة من أوربا » ويعتبر كتاب المستر روذستين أول بصيص من النور يلقى على عهد اسماعيل فيبدد ما كان يحيط به من ظلمات الشك وأقوال البهتان .

واذا كان بعض الكتاب قد ابتسموا ابتسامة التشكك وعدم التصديق بما أورده المستر روذستين من الحقائق عن عهد اسماعيل وعدوه مغالاة فقد قيض الله من درس ذلك العهد دراسة القاضى النزيه الذى لا يتوخى من قضية معينة معروضة أمامه إلا كشف الحقيقة مهما كانت مرة بلا تحيز إلى فريق دون فريق . فلقد توصل المستر كرابيتس من قضاة المحكمة المختلطة بالقاهرة بعد درس «دوسيه» قضية اسماعيل باشا وبعد موازاة ماله وما عليه إلى أن يضع فى يولية سنة ١٩٣٣ كتابه المسمى «اسماعيل أو الخديو المظلوم» الذى عنيت بنشره شركة جورج روتلدج وأولاده بلندن وهو كتاب نحسب أن العنوان وحده يكفى للدلالة على أن هناك ظلما صارخا وأن الوقت قد حان لرفعه .

جلالة الملك فؤاد والوثائق المصرية

ويطيب لنا فى هذا المقام أن نذكر أن صاحب الجلالة مولانا الملك فؤاد أولا بصفته ابن ساكن الجنان اسماعيل باشا وأولى الناس وأحقهم بتبديد ما حاكه المغرضون من خيوط الأوهام حول أبيه العظيم ، وثانياً بصفته مليك البلاد ويهمه أن يقف الشعب المصرى ثم العالم المتمدين على مبلغ ما قطعته مصر من المراحل فى طريق الحضارة فى خلال القرن التاسع عشر قد وجه جزءا من عنايته السامية الى جمع كافة المعلومات والوثائق الخاصة بمصر من بداية عهد محمد على الى نهاية عهد اسماعيل . ومع ان هذه الوثائق هى من أخص شؤون الدولة فان جلالته رأى أن يكون هذا العمل وما يتضمنه من جهود شاقة على نفقة الجيب الملكى الخاص . وإن الانسان ليدهش حقاً كيف أن جلالته برغم انهماكه فى تسيير سفينة البلاد وحرصه على الوصول بها الى بر السلامة برغم ما يكتنفها من الأعاصير وما يعوق طريقها من الصخور والعثرات — نقول يدهش الانسان كيف ان جلالته رغم هذا يجد من وقته الثمين ما يتسع للعناية بمثل هذه المسائل التى تنوء به كواهل العصبة أولو القوة .

وخاصة وقد كان لها ما تستند إليه من الحجج والمعاذير . لأن التساهل
فى استعمال السخرة فى مثل هذا العمل الكبير مع عدم الأصغاء لوحى

= وها نحن نقص عليك طرفاً من هذه الجهود الجبارة فى سبيل جمع شتات الوثائق التاريخية الخاصة بمصر .

فلقد أدرك جلالته ان تلك الوثائق موزعة بين لندن وباريس وايطاليا وفينا وورشنطن ووارصوفيا وبتروغراد وأثينا هذا عدا الموجود منها فى مصر .

ولعلك تستطيع أن تصورلنفسك مبلغ ما يتطلبه العثور على وثائق موزعة بين تلك العواصم من جهود ونفقات . ولكن هل كان هذا مما يمكن أن يثبط عزيمة أبى الفاروق ؟ كلا ! والآن فألق بالك لتر ماذا صنع .

أولا : فيما يختص بالوثائق الخاصة بمصر الموجودة فى لندن وباريس فقد عهد جلالته للمسيو ديوان من كبار مديرى شركة قناة السويس بجمعها وتبويبها وطبعها على نفقة الجيب الملكى الخاص .

وقد وفق المسيو ديوان فى مهمته كل التوفيق وحصل على كافة المستندات المذكورة ونشرت الجمعية الجغرافية بعضها والبعض الآخر يعد للطبع وسيظهر قريباً .

ونذكر بهذه المناسبة أن المسيو ديوان عنى بوضع كتاب فى خمسة أجزاء يتضمن تاريخ اسماعيل باشا وهو الآن تحت الطبع فى إيطاليا وسيظهر الجزء الأول قريبا وتتلوه الأجزاء الأخرى تباعا .

ثانياً : وأما الوثائق الموجودة فى ايطاليا فقد عهد بها جلالته الى السنيور انجلو سان ماركو من أساتذة التاريخ فى المدارس الايطالية . ونقف هنيهة هنا لنقول إن وثائق ايطاليا اقتضت مجهوداً خاصاً يزيد أضعافاً مضاعفة على الجهود المطلوب بذلها فى الجهات الأخرى . لأنك تعرف إن ايطاليا كانت مقسمة إلى عدة دويلات صغيرة ولكل دولة منها دار محفوظاتها . وإلى اليوم لم تنتظم هذه الدور كلها فى دار محفوظات واحدة . ومن هنا كانت الجهود مضاعفة .

وبرغم هذه المصاعب فان الأستاذ سان ماركو قد تمكن من جمع هذه الوثائق وطبع منها إلى الآن حوالى خمسة أو ستة مجلدات فى حين أن الباقى ما يزال تحت الطبع .

ثالثاً : ومتى خلا بال الأستاذ سان ماركو من وثائق ايطاليا وجه اهتمامه إلى جمع الوثائق الموجودة فى دار المحفوظات فى فينا ونحسب انه موفق فى مهمته باذن الله و بفضل عناية المليك .

الضمير كانت نتيجته وقوع فظائع وحشية فاضحة لم يفزع لها الرأى العام الانجليزى وحده بل والرأى العام الفرنسى أيضاً . وأظهر الباب العالى

= رابعاً : أما فيما يختص بواشنطن فقد نمى الى المسامع الملكية السامية أن دار محفوظاتها تحتوى على وثائق هامة ومعلومات قيمة فأمر بنسخها بأكملها على نفقة الجيب الخاص . وقد تأخذك الدهشة اذ تعلم انها نسخت فى ٢٠ مجلد وهى تشمل كل ما كتب عن مصر منذ عهد محمد على الى نهاية عهد اسماعيل هذا عدا الخرائط وأقوال الصحف الخ الخ .

خامساً : لما كان محمد على قد وقع اختياره فى أثناء الحرب السورية على بعض كبار الضباط البولونيين لتدريب الجنود المصرية فى أثناء الحرب السورية فان وثائق على أعظم جانب من الأهمية ما تزال موجودة فى دار محفوظات وارصوفيا خاصة بالفترة فيما بين سنتى ١٨٣٣ و ١٨٣٦ ولذا فقد عهد جلالته إلى أحد كبار الاخصائيين بجمع هذه الوثائق وترتيبها .

سادساً : أما الوثائق الروسية الخاصة بمصر فيقوم بجمعها جناب رينيه قطاوى بك مدير عام شركة كوم امبو .

سابعاً : والوثائق اليونانية قد شرع فى طبعها المسيو انسطاس بوليتيس من رجال السلك السياسى اليونانى .

أما الوثائق الموجودة بمصر فان الادارة الأوربية بديوان حضرة صاحب الجلالة الملك جادة فى ترتيب كافة المحفوظات المحلية العربية والتركية والافرنجية .

ومما يدلك على أن عناية جلالة المليك ليست منصرفة إلى تدوين تاريخ الأسرة المحمدية العلوية فقط بل إلى تاريخ مصر من أقدم عصور التاريخ أنه عهد بهذه المهمة الى المسيو هانوتو السياسى الفرنسى المشهور . وقد تولى جنابه العمل فأظهر للملأ نتيجة أبحاثه فى تاريخ مصر من أبعد العصور الى الآن . وقد ظهرت بعض أجزاء هذا التاريخ فعلا

ثم لاتنس بهذه المناسبة كتاب « الوجيز فى تاريخ مصر » ويقع فى ثلاثة أجزاء وهو يشمل تاريخ مصر من قبل التاريخ الى آخر عهد اسماعيل باشا .

وقد سمعت بالكتاب القيم المسمى « الفن المصرى فى عصور التاريخ » الذى تكفلت لجنة باشراف السير دنيسن روس باخراجه بأمر جلالة الملك . ثم كتاب مصر لمؤلفيه بواسونا وترمنيليه وقد عاون جلالته بقسط وافر فى مصاريف الطبع ليتمكن المؤلفان من إخراج الكتاب .

استعداده للتدخل في الموضوع والمطالبة بالعدول عن السخرة في حفر القناة لمخالفتها للأصلاحات الشاهانية المنصوص عليها في التنظيمات هذا في حين أن اسماعيل طالب برد ما منحه سعيد للشركة من الأراضى المجاورة وما فيها من المعادن باعتبارها امتيازاً لا يتفق وحقوق السيادة المصرية. وهنالك طالبت الشركة بتعويضات ووقع الاختيار على



المستر كرابيتس صاحب كتاب اسماعيل الخديو المظلوم

= وإليك عملا جليلا آخر خليقا بهمة أبي الفارق وهو الخاص بالفرمانات الصادرة إلى ولاة مصر وعددها ١٠٦٤ فرمان. فقد أمر جلالته بجمعها ثم أخذت مصلحة المساحة صوره منها وطبعتها في ثمانية مجلدات.

وبديهي أن فك طلاسم هذه الفرمانات وتحليل ألغازها وتلخيصها يحتاج إلى جهد كبير. ومن ثم يقوم صاحب السيادة حايم ناحوم أفندى الحاخام الاكبر للطائفة الأسرائيلية بمصر بهذه المهمة الدقيقة بأرادة جلالة الملك

أليست هذه الجهود الجبارة تشهد بعناية جلالة المليك بتاريخ بلاده وحرصه على تدوينه مهما اقتضى من جهود ونفقات ؟

وبمناسبة كتاب المستر كرابيتس نقول إن جلالة الملك فؤاد قد سمح للمؤلف بالاطلاع على الوثائق التاريخية الهامة الخاصة بعهد ساكن الجنان اسماعيل باشا والاستئناس بها في كتابه الآنف الذكر الذى ستسنح لنا الفرصة للاقتباس منه فيما بعد.

وقد تولت فحص هذه الوثائق وترتيبها بحيث يسهل تناولها والاطلاع عليها الأدارة الافرنجية بديوان صاحب الجلالة الملك.

وإذا كنا نأسف لشيء هنا فأسفنا أننا قد أخذنا في كتابة هذه العجالة عن ساكن الجنان اسماعيل باشا قبل أن يفرغ القلم المذكور من مهمته وقبل أن يتاح لنا الوصول إلى =

نابليون الثالث ليكون حكماً بين طرفى النزاع. فقضى (فى يولية سنة ١٨٦٤) بان



حفلة افتتاح قناة السويس

= هذه الوثائق التى سوف يثلج لها قلب كل من يحاول الكتابة عن اسماعيل بالنزاهة التى هى من حق ذلك الخديو العظيم على التاريخ .

ولد اسماعيل باشا فى قصر المسافرخانة بحى الجمالية بالقاهرة فى يوم ١٢ يناير سنة ١٨٣٠ (بخلاف ما أجمع عليه المؤرخون وهو ٣١ ديسمبر سنة ١٨٣٠) وهو ابن ابراهيم باشا ابن محمد على باشا الكبير. كان لوالده ابراهيم باشا ثلاثة أولاد وكان أوسطهم صاحب الترجمة .أما الابن الأكبر فهو الأمير أحمد رفعت (ولد فى ٨ ديسمبر سنة ١٨٢٥) والأصغر هو الأمير مصطفى فاضل (ولد فى ٢٢ فبراير سنة ١٨٣٠)

وقد عنى ابراهيم باشا — كما كان ينتظر — بتعليم أولاده وتثقيفهم ليكونوا عدة من بعده ولتعهد ما غرسه هو ووالده العظيم محمد على باشا من بذور الحضارة فى أرض الفراعنة . وكان محمد على قد أنشأ فى قصر العالى مدرسة خصوصية لأولاده وأحفاده وفيها تلقى اسماعيل باشا مبادئ العلوم واللغات العربية والتركية والفارسية وقليلا من الرياضيات والطبيعيات . وفى سن الرابعة عشرة بعث به والده إلى فينا حيث لبث عامين ومنها انتقل إلى باريس للانخراط فى سلك البعثة المصرية التى كان بين تلاميذها الأمير احمد رفعت شقيقه الأكبر والأميران عبد الحليم وحسين من أبناء محمد على .

تدفع مصر غرامة مالية قدرها ٣٣٦٠٠٠٠ جنيه منها مبلغ ١٥٢٠٠٠٠ جنيها تعويضا عن عمال السخرة و ١٢٠٠٠٠٠ عن كافة الامتيازات فى الأراضى الواقعة على بعد أكثر من ٢٠٠ متر من ضفة القناة و ٦٤٠٠٠٠ جنيه عن حقوق الشركة فى الترعة العذبة . وقد دفعت الغرامة فى سنة ١٨٦٩ ثم أنجزت عملية الحفر بأدوات مصرية وبواسطة عمال مصريين يتقاضون أجورا جىء بهم من الجهات. وقد افتتحت القناة (فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩)



أول سفينة تعبر قناة السويس وسط ابتهاج الناس على الشاطىء

= وسلخ اسماعيل باشا بضع سنوات فى دراسة العلوم والرياضيات وبخاصة الهندسة التى أغرم بها وظهر فى نفسه أثر ولعه بها عند اعتلاء الأريكة فيما بعد حيث كان شغوفاً بتنظيم الشوارع وزخرفة البناء . . . وقد أقبل على تعلم اللغة الفرنسية والوقوف على أسرارها حتى غدا كأحد أبنائها فأجادها قراءة وكتابة . وكان اسماعيل باشا ذكيا بفطرته كأخيه الأمير أحمد رفعت الذى كان يعتبر من النوابغ .

وعند ما انتهى اسماعيل باشا من التحصيل عاد مع أفراد البعثة إلى مصر فى عهد أبيه ابراهيم باشا . ولما انتقل هذا إلى الرفيق الأعلى واعتلى الأريكة بعده عباس الأول بدأ =

وسط حفلات تكلفت نفقات تناسب المقام . على أن هذا الإسراف كان



بعض الرؤوس المتوجة فى حفلة افتتاح القناة

(١) الأمبراطوره يوجينى إمبراطورة فرنسا (٢) الأمير هيرتر البروسى

(٣) الأمبراطور فرانس جوزيف إمبراطور النمسا (٤و٥) أمير وأميرة هولندا

= يكيد لأفراد الأسرة على ما مر بك . ثم اشتد الخصام بسبب التركة بين عباس وبقية الأمراء على أثر وفاة محمد على باشا الكبير فرحل اسماعيل باشا مع من رحل من الأمراء إلى الاستانة لرفع أوجه النزاع إلى السدة السلطانية فاوفدت رسولين لتسوية الخلاف فى مصلحة الأمراء الذين عادوا بالتالى إلى مصر بينما ظل اسماعيل باشا فى الاستانة حيث قربه جلالة السلطان إليه وأنعم عليه برتبة الباشوية وعينه عضواً فى مجلس أحكام الدولة العلية .

يوجد إلى جانبه إسراف آخر فى شكل الآمال العريضة التى عقدت وقتئذ على



الوليمة التى أقامها اسماعيل باشا لملوك أوروبا وأمرائها بمناسبة افتتاح القناة

= وبعد أن قتل عباس وخلفه سعيد على العرش عاد اسماعيل إلى مصر فى سنة ١٨٥٤ حيث لقى عطفاً كبيراً من عمه الذى ولاه رئاسة مجلس الأحكام وهو أكبر هيأة قضائية فى البلاد على ما مر بك فى تاريخ سعيد. وقد قطع شوطاً كبيراً فى إصلاح ذلك المجلس ونظمه على منوال مجلس الأحكام العثمانى.

وعربونا على ثقة سعيد بكفاءة ابن أخيه اسماعيل أوفده فى سنة ١٨٥٥ إلى الأمبراطور نابليون الثالث للحصول على مساعدته لدى الدول لتعديل معاهدة لوندرا وتوسيع استقلال مصر جزاء لها على ما قدمته للحلفاء من المساعدة فى حرب القرم. فاضطلع اسماعيل بالمهمة وقام خير قيام بما كلفه به عمه إلى حد أن الأمبراطور نابليون قطع له وعداً ليساعدن مصر على تحقيق رغائبها فى مؤتمر الصلح. ولكن وعود السياسة لا ينبغى الارتكان إليها. فقد أخلف الأمبراطور وعده. وكأنما شاءت الأقدار أن يترك أمر ذلك التوسيع إلى اسماعيل باشا نفسه بعد أن يرتقى العرش.

وفى هذه الرحلة نفسها قابل اسماعيل باشا قداسة البابا « بيوس التاسع » موفدا من سعيد باشا فكان موضع حفاوة كبيرة من رب الفاتيكان.

ماعسى أن تفيده مصر من هذه الخدمة التى ادتها إلى أوربا . ونقول « إسرافا » لأن



نزهة الملوك فى صحراء السويس عند افتتاح القناة

= قام اسماعيل بما قام به دون أن يفكر يوماً فى أن يؤول إليه العرش بعد سعيد . لأن أخاه الأمير احمد باشا رفعت كان أكبر منه سنا وهو لذلك أولى منه بالعرش . ولكن إرادة الأقدار فوق إرادة الانسان .

فقد حدث فى سنة ١٨٥٨ أن أولم سعيد باشا وليمة فى الاسكندرية دعا اليها كافة الأمراء فلبوا جميعا الدعوة بمافيهم ولى العهد الأمير أحمد رفعت باشا . وبعد الفراغ من الوليمة عاد الى القاهرة بقطار خاص أحمد رفعت باشا وبصحبته الأمير عبد الحليم ومن معهما من رجال الحاشية وعددهم نحو ٣٠ شخصاً . وتصادف عند وصول القطار إلى كوبرى كفر الزيات أن الكوبرى كان مفتوحا لمرور السفن . فلم يتنبه السائق لهذا الخطر إلا بعد فوات الأوان . ومن ثم سقط القطار فى النيل وغرق من فيه إلا عبد الحليم باشا . وبذا رأى اسماعيل نفسه فجأة وليا لعهد الاريكة المصرية بحكم نظام الوراثة المعمول به وقتذاك .

ولم يأت عطف سعيد على اسماعيل اعتباطاً أو بلا سبب . كلا فقد جربه فى كثير =

مصر لم يكن ينتظر أن تحصل على فوائد كثيرة بعد أن فقدت شطراً عظيما



الأمبراطورة يوجيني فى قصر الجزيرة وإلى يسارها ساكن الجنان اسماعيل باشا

= من مناصب الدولة حيث كان يضطلع بها خير اضطلاع . فنى سنة ١٨٥٩ زار سعيد سوريا وترك اسماعيل قائمقام بدله . وفى أوائل سنة ١٨٦١ سافر إلى الحجاز تمحلا للاعتذار عن الذهاب إلى الاستانة فحل محله اسماعيل فى هذه المدة أيضاً . وقد ارتاح سعيد إلى الطريقة التى أدى بها اسماعيل أعمال النيابة فى كلتا المرتين حتى أنه عينه بعد عودته من الحجاز سرداراً للجيش المصرى وعهد إليه فى اخماد الفتنة بين بعض القبائل السودانية . وقد وفق اسماعيل فى مهمته وأخمد نار الفتنة ، ولكن دون سفك قطرة واحدة من الدماء . وهى شهادة تنطق له وهو بعد فى سن الشباب باللباقة وسعة الحيلة والذكاء والمهارة فى تسوية المشاكل باللين لا بالعنف .

وفى يوم ١٩ يناير سنة ١٨٦٣ التحق سعيد باشا بالرفيق الأعلى فانتقلت ولاية مصر إلى ساكن الجنان اسماعيل باشا وهو خامس ولاة الأسرة المحمدية العلوية .

سياسة اسماعيل باشا الخارجية

لعلك تذكر ماقاله المستر يانج عن مسلك محمد على باشا الكبير حيال تركيا فى ص ١١٥ من هذا الكتاب إذ قال ما نصه : « وقد اتخذ محمد على مبدأ جعله قاعدة =

مما كان يعود عليها من الأرباح من جراء نقل السائحين بطريق البر كما فقدت الحصة التى خصصها لها الامتياز فى أرباح القناة فى المستقبل .

وفى سنة ١٨٧١ هبط سعر أسهم القناة من ٢٠ جنيهاً إلى مادون السبعة الجنيهات ولم توزع أرباح البتة على حملة الأسهم ولكن مؤتمر



المستر دزرائيلى
رئيس الوزارة البريطانية

= لسياسته الخارجية ألا وهو رشوة السلطان تارة والتشاجر معه تارة أخرى ليحمله على الاعتراف بسيادته وسيادة ذريته من بعده على مصر المستقلة استقلالا داخلياً . أما مبدأ جعل مصر مستقلة عن الدول فقد كانت سياسته لتحقيق هذه الغاية ترمى إلى إيقاع هذه الدول بعضها فى بعض أو تحريضها على الباب العالى ، وكان من رأيه أن أنجع وسيلة للحصول على ما يشاء من الاستانة هى بالتظاهر بالقوة من جهة وبحاجة تركيا إليه فى الوقت نفسه من الجهة الأخرى ...... »

ذكرنا لك ذلك لتدرك الأساس الذى سار عليه محمد على باشا الكبير فى تحقيق استقلال مصر . فلم يكن عجيباً أن يحذو حفيده الكبير اسماعيل باشا حذو جده فيجعل أول همه تحقيق استقلال مصر . وإذا كان محمد على قد اعتمد فى سياسته حيال تركيا على قوة الجيش المصرى من ناحية وعلى سلاح المال والرشوة من ناحية أخرى . فلم يكن يعقل وهذه غاية اسماعيل النبيلة أن يعتمد على الجيش بعد أن انحطت مكانته فى عهد سعيد أو أن يتحرج فى تحقيق هذه الغاية عن الالتجاء إلى الوسيلة الأخرى وهى المال والرشوة وبخاصة بعد أن رأى اجماع دول أوروبا على سلب مصر كل حق تكتسبه عن طريق القوة كما حدث فى حروب محمد على حيث لم تغنه انتصاراته العظيمة شيئا .

وهنا لا نرى مناصاً من مخالفة ما ذهب إليه صديقنا البحاثة الكبير الأستاذ عبد الرحمن الرافعى بك فيما كتبه فى كتابه القيم « عصر اسماعيل » ص ٧٧ خاصا بسياسة اسماعيل باشا حيال تركيا . فقد أخذ على اسماعيل اعتماده « على سلاح المال والرشوة يبذلها لرجال الأستانة ليحصل على الفرمانات التى وسع بها نطاق الاستقلال ، بينما كان محمد على باشا الكبير يعتمد على قوة الجيش المصرى .

الاستانة قرر فرض ضريبة إضافيــة قدرها ٣٠ ٪ ومن ذلك الحين أصبحت القناة سلعة تغل ربحاً وفيراً ولكن لا لمصر التى حفرتها لأن دزرائيلى بالنيابة عن الحكومة البريطانية انتهز فى سنة ١٨٧٥ فرصة افلاس اسماعيــل فابتاع بمعونة بيت روتشيلد بمبلغ ٤٠٠٠٠٠٠ جنيه أسهمه التاسيسية وكان وقتئذ يعرضها فى باريس ضماناً لعقد قرض جديد ، هذا

= وقد استطرد الأستاذ الرافعى بك فقال منتقدا « وليس يخفى أن وسيلة محمد على هى صفحة مجيدة من تاريخ مصر الحديث تقرأ فيها الأجيال المتعاقبة مفاخر الجهاد القومى أما وسيلة اسماعيل فلا تستثير فى النفوس إحساس المجد والفخار (كذا !) هذا فضلا عن أنها من الأسباب التى دعت إسماعيل إلى الاستدانة من البيوت المالية الأجنبية فكانت من هذه الناحية من العوامل التى أدت إلى تصدع بناء الاستقلال الحقيق . وقد بذل اسماعيل تضحيات مالية جسيمة فى سبيل الحصول على الامتيازات التى نالها إذ لم تكن حكومة الأستانة تصدر فرمانا إلا فى مقابل الأموال الطائلة من الرشايا والهدايا يقدمها اسماعيل لرجال الاستانة على اختلاف مراتبهم ولا يستثنى منهم السلطان ذاته والصدور العظام فبلغت هذه الأموال طوال حكمه اثنى عشر مليونا من الجنيهات . »
وبحسبنا أن نقول للاستاذ إذا كان سعيد باشا قد ترك وراءه دينا يبلغ كما قدره مؤلف « تاريخ مصر المالى » ١١١٦٠٠٠٠ جنيه فى مدة حكمه التى لم تزد على ثمانى سنوات ونيف مع أنه لم يبذل أية «تضحيات مالية جسيمة فى سبيل الحصول على نيل أية امتيازات» فهل يؤاخذ اسماعيل إذا كان قد دفع نحو ١٢٠٠٠٠٠٠ مليون جنيه طيلة مدة حكمه أى ستة عشر سنة فى سبيل الحصول على الامتيازات الجسيمة التى نالها ؟

لا نظن أن من الانصاف مجاراة كتاب الافرنج فى الأسراف فى مؤاخذة اسماعيل من هذه الناحية. وقد كان كل ذنب اسماعيل - إذا صح أن يسمى ذلك ذنبا - أنه توخى العجلة فى سبيل رفع مصر إلى مستوى الأمم الراقية وجعلها « قطعة من أوربا » . وليشهد معنا القارئ على أن هذه الاثنى عشر مليون جنيها التى أنفقت فى الاستانة لم تذهب هباء. نسرد أمامه ما حصل عليه اسماعيل باشا من الامتيازات العظيمة منقولا عن كتاب الرافعى بك نفسه .

زيارة السلطان عبد العزيز لمصر

فى ابريل سنة ١٨٦٣

فمنذ عهد السلطان سليم الذى فتح مصر لم يهبط وادى النيل سلطان عثمانى آخر سوى =

فى حين ان الـ ١٥ ٪ وهى حصته فى أرباح القناة قدتم التنازل عنها فيما بعد وفاء لدين قدره ٧٠٠٠٠٠٠ جنيه مستحق للممولين الفرنسيين وهم الذين جمعوا من هذه الحصة فى السنوات السبع التالية مايزيد عن ضعفى ما أقرضوه من المبالغ . ويقدرون الآن ثمن أسهم اسماعيل وحصة مصر الآنفة الذكر بما لايقل عن ٣٠ مليون جنيه

السلطان عبدالعزيز . ولما كانت مصروقتئذ إحدى ولايات تركيا الممتازة فلا غرو أن يعتبر تنازل عاهل الاستانة لزيارة مصر تكريما كبيرا لاسماعيل وتعظيما لشأنه على ما اعترف به الأستاذ الرافعى بك الذى استطرد فقال « إن اسماعيل انتهز هذه الفرصة فاستغل المرتبة التى نالها يكتسب من تركيا حقوقا ومزايا جديدة (كذا ! كذا!) واستخدم إلى جانب ذلك المال يبذله بسخاء فغمر السلطان وحاشيته بالهدايا والتحف الفاخرة وزود الصدر الأعظم فؤاد باشا وحده برشوة قدرها ٦٠٠٠٠ جنيه . وقد عاد السلطان عبد العزيز مغتبطا بما لقيه من الاكرام ومهدت هذه الزيارة الطريق أمام اسماعيل لينال رغائبه . »

ونحن من جانبنا لا نرى أى ماخذ جدى على اسماعيل فى هذا العمل لأن الرجل الذى كان يطمح إلى استكمال استقلال بلاده كان عليه أن يختار بين طريق العنف أو طريق المجاملة وبذل المال وهو أخف الأمرين وأوكدهما .

تغيير نظام توارث العرش

وفرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦

وبعد هذه الزيارة وجه اسماعيل اهتمامه إلى تغيير نظام توارث العرش فبعد أن كان فرمان سنة ١٨٤١ يقضى بأيلولة العرش لأكبر أفراد الأسرة المحمدية سنا بما كان من شأنه أن يفتح باب الدسائس على مصراعيه بين المطالبين بالعرش ويصرف صاحب التاج عن الاهتمام بالمستقبل مادام لايضمن ان ابنه مثلا هو وارثه فى الملك فضلا عن أنه يؤدى الى زعزعة أساس العرش ويعرضه للزوال، تمكن اسماعيل وكانت غايته جعل مصر قطعة من أوربا — من استصدار فرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ بانتقال مسند ولاية مصر وملحقاتها وقائمقاميتى سواكن ومصوع إلى أكبر أولاده ومن هذا الى أكبر أبنائه وهلم جرا . نعم ان هذه المساعى كلفت اسماعيل ٣٠٠٠٠٠٠ جنيه على قول الأستاذ الرافعى بك ولكن ألم ينص فى هذا الفرمان على مزايا عظيمة ترخص فى مقابلها هذه

هذا باختصار هو تاريخ هذه الصفقة التى كانت شؤماً على مصر من الوجهة المالية والاقتصادية والسياسية . وقد كان ينبغى على أوربا أن تقوم هى بانجاز هذا المشروع الذى خدم مصالحها الاقتصادية دون غيرها وذلك

= الملايين الثلاثة ؟ ونحن نوردها بترتيبها حسب ماذكره الأستاذ فيليب جلاد فى كتابه «قاموس الادارة والقضاء» جزء ٦ ص ٧٣٠ فقد نص فى ذلك الفرمان على الأمور الآتية:

أولا : زيادة الجيش المصرى الى ٣٠٠٠٠ جندى .

ثانيا : إقرار حق مصر فى ضرب نقود مختلفة العيار عن نقود السلطنة العثمانية .

ثالثا : منح الرتب المدنية لغاية الرتبة الثانية .

على أن هذا الفرمان ألحق بفرمان آخر فى ١٥ يونية سنة ١٨٦٦ بترتيب نظام الوصاية على من يتقلد مسند الولاية إذا كان قاصرا .

فهذه المزايا وخاصة أولاها المتعلقة بزيادة عدد الجيش هى بمثابة خطوة واسعة فى سبيل الاستقلال . ومتى تقرر هذا فلا يمكن أن نستكثر ما دفع من الثمن فى سبيلها وقديما قالوا « ومن طلب الحسناء لم يغلها المهر . »

بل إن هذا الفرمان قد أكسب مصر صفة دولية — وهى مزية لها أهميتها — لأن تركيا أبلغت الفرمان الى الدول العظمى التى اشتركت فى وضع معاهدة لوندرا وبذا أصبحت تركيا مرتبطة دوليا ازاء مصر بحيث لا تستطيع تعديل الفرمان إلا بموافقة مصر. أفليست هذه إذن خطوة خطيرة مهمة فى سبيل استقلال مصر ؟

فرمان ٨ يونية سنة ١٨٦٧
والحصول على لقب خديو

ولكن هل كان يمكن أن يكتفى اسماعيل بهذه المزايا دون أن يسعى لنيل غيرها ؟ كلا . ولذا رأيناه يبذل المال من جديد على ضفاف البوسفور إلى أن حصل فى ٨ يونية سنة ١٨٦٧ على فرمان جديد يخوله هو وخلفاءه لقب (خديو) بعد أن كان (واليا) وبهذا ارتقى صاحب العرش بهذا اللقب السامى — كما يعترف الأستاذ الرافعى بك — إلى مرتبة تقرب من مراتب الملوك والسلاطين . »

على أن اسماعيل لم يكن ينسيه العرض عن نيل الجوهر . فهو فى الوقت الذى حصل فيه فى الفرمان المذكور على لقب (خديو) حصل أيضاً على هذه المزايا التى نحسب أن =

بالحصول من مصر على امتياز بانجازه على أن تدفع لها فى مقابل ذلك ما يكفى لسداد ديون مصر وبأن تعطيها من أرباح القناة حصة تعوضها عما تخسره (مصر) فى حركة المرور. ولكن مصر أرغمت على دفع ثمن فادح بتنازلها عن الأراضى اللازمة للمشروع وبأداء نفقات الجزء الأكبر منه ثم إنها

= الأستاذ الرافعى بك يوافقنا على أهميتها وهى كالآتى منقولة عن كتابه السالف الذكر:

أولا : إقرار حق الحكومة المصرية واستقلالها فى إدارة شؤونها الداخلية والمالية.

ثانياً : إقرار حقها فى عقد المعاهدات الخاصة بالبريد والجمارك ومرور البضائع والركاب فى داخلية البلاد .

ثالثاً : إقرار حقها فى شؤون الضبط للجاليات الأجنبية .

فهل قنع اسماعيل بهذه الامتيازات العظيمة ؟ كلا وربك فانه كان دائب السعى لتحقيق استقلال البلاد مهما كلفه من المال وهو أهون ثمن .

فلقد روى الأستاذ الرافعى بك عن كتاب محمود باشا فهمى المسمى «البحر الزاخر» ج ١ ص ١٩٩ أن اسماعيل باشا طلب من تركيا فى إبان حملة كريت أن تخوله حق تعيين سفراء لمصر لدى الدول الأجنبية . وقد غضب الباب العالى لهذا الطلب (طبعا !) لأنه رأى فيه ميلا من ناحية إسماعيل إلى الاستقلال .

وكأنما أراد اسماعيل أن يظهر للملأ أنه مستقل عن الباب العالى فعلا وإن لم يكن كذلك إسماً . فشرع أولا يفاوض الدول الأوربية فى صدد إنشاء النظام القضائى المختلط دون وساطة الباب العالى .

ثانيا : اشترك فى معرض باريس القائم سنة ١٨٦٧ وظهر فيه بمظهر الملك المستقل وأقام به قسما خاصا لمصر جمع فيه صنوف البهجة والعظمة ليكون جديرا بتمثيل مملكة مستقلة .

ثالثا : أوصى المعامل الفرنسية بصنع ثلاث بوارج حربية مصفحة وعدة آلاف من البنادق الحديثة الطراز لتسليح الجيش المصرى .

فلما استولى على تركيا القلق لهذه الانباء وداخلها الشك فى نوايا اسماعيل تواترت الإشاعات بأنها اعتزمت محاربته فأخذ يستعد للدفاع وأنشأ حصونا جديدة بين الإسكندرية وبور سعيد ورمم الحصون القديمة وابتاع من معامل ارمسترنج بانجلترا نحو ٢٠٠ مدفع من المدافع الضخمة سلح بها تلك الحصون وما تزال هذه المدافع موجودة إلى اليوم =

خرجت بعد كل هذا دون أن تكون لها حصة فى الأرباح . ولا ريب فى ان مالقيه الفلاحون المصريون من ضروب الشدة والعنت سواء أكان فى إبان أعمال السخرة فى مكان القناة أم أثناء حركة الاغتصاب المالى فيما بعد

= فى حصون الاسكندرية وأبى قير ودمياط ورأس البر. وقد أكلها الصدأ ويوجد على أكثرها تاريخ السنة التى صنعت فيها وهى سنة ١٨٦٩

رابعا : كان اسماعيل معتزما إعلان استقلال مصر بعد الانتهاء من حفلات افتتاح قناة السويس بعد توجيه الدعوة إلى ملوك أوربا ورؤساء حكوماتها دون وساطة الباب العالى مما غضبت له تركيا واحتجت عليه دون أن يأبه به اسماعيل . ولولا تردد بعض الحكومات الأوربية فى مشايعة أغراضه لأعلن استقلال مصر وقتئذ ولكان العيد بافتتاح القناة هو أيضا يوم عيد الاستقلال المصرى .

فرمان ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩

ولهذا استاءت تركيا من تصرفات اسماعيل هذه وأرسلت إليه فرمان ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩ عقب انتهاء حفلات افتتاح القناة وكان أهم ما ورد فيه من القيود أن لا يعقد قروضا جديدة دون أن يبين وجه الحاجة إليها وقبل الحصول على إذن من السلطان بعقدها .

فكان طبيعياً أن يستاء اسماعيل لورود هذا الفرمان ، وكان طبيعياً أيضاً أن يعمل على محو أثره . ولذا سافر إلى الآستانة فى صيف سنة ١٨٧٢ بصحبة اسماعيل صديق باشا وزير المالية ونوبار باشا وزير الخارجية فبذلوا جميعا مساعيهم إلى أن عادت المياه إلى مجاريها بين عاهل الآستانة وعاهل القاهرة .

وفى خريف هذا العام (سنة ١٨٦٩) حصل على فرمان بتثبيت ماناله من قبل من الامتيازات وبنسخ القيود الواردة فى فرمان سنة ١٨٦٩ وخطا شريفاً فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٧٢ بتأكيد مزايا فرمان ١٠ سبتمبر وإطلاق يده فى عقد مايشاء من القروض بلاشرط ولاقيد. وهو الفرمان الذى تقبله اسماعيل باشا بمنتهى مظاهر الابتهاج والارتياح.

الفرمان الجامع (٨ يونية سنة ١٨٧٣)

وبدلا من هذه الفرمانات الممنوحة (بالقطاعى) سعى اسماعيل باشا لنيل مايسمونه بالفرمان الجامع . وقد سافر لهذه الغاية إلى الاستانة فى صيف سنة ١٨٧٣ وفى ركابه نوبار باشا واسماعيل صديق باشا ورياض باشا مستشار مجلس الوزراء (المجلس العالى) =

لأداء فوائد دين القناة وضع فى عنق أوروبا ديناً ثقيلا، ديناً خاصاً بالشرف ، ديناً من واجب أوروبا أن تؤديه لمصر ، ديناً لم نسمع أحداً يشير اليه بكلمة واحدة وسط الضجة التى أثاروها وملأوا بها العالم عن الديون الاخرى

= وغيرهم وغيرهم . وهناك تمكن بفضل سلاح المال من الحصول على فرمان ٨ يونية سنة ١٨٧٣ المسمى بالفرمان الجامع وتلخص مزاياه فيما يلى :

أولا — توارث عرش مصر فى أكبر أنجال الخديو ومن بعده إلى أكبر أولاد هذا الأكبر وهلم جرا .

ثانيا — تشمل أملاك الخديوية المصرية مصر وملحقاتها (السودان) الجارية إدارتها بمعرفتها مع ماصار إلحاقه بها من قائمقامتى سواكن ومصوع وملحقاتهما .

ثالثاً — حق الحكومة المصرية فى سن القوانين والنظامات الداخلية على اختلاف أنواعها .

رابعا — حق عقد الاتفاقات الجمركية والمعاهدات التجارية .

خامساً — حق الاقتراض من الخارج من غير استئذان الحكومة التركية .

سادساً — زيادة الجيش إلى أى عدد يبتغيه الخديو .

سابعاً — حق بناء السفن الحربية ما عدا المدرعات التى يجب لانشائها استئذان الحكومة التركية .

ونحب أن نسأل الأستاذ الرافعى بك أليس هذا الفرمان الجامع أهلا لانفاق الأموال فى سبيل الحصول عليه إن صح ما نسبه المؤرخون إلى اسماعيل باشا من تهم الأسراف والتبذير ؟

لقد جارينا الأستاذ الرافعى بك إلى الآن فيما ذهب إليه على اعتبار أن اسماعيل باشا كان كما وصفه مؤرخو الأفرنج المغرضون . ولكننا نرى أن الوقت قد آن لنرفع يدنا فى وجه أصحاب تلك المزاعم ونقول لهم « لئن كنتم ... فلم يكن اسماعيل كما وصفتموه ولم يقترض ما اقترض لانفاقه فى ملاذه الشخصية ، بل كان مثال الحاكم العادل الساهر على مصالح رعيته . ولئن كنتم قد اعتدتم تشويه سمعة هذا الرجل واختلاق الأراجيف عليه طيلة هذه السنوات فلقد آن للحقيقة أن تبزغ شمسها فتبدد ظلمات الترهات وتفضح ما أذاعه المغرضون من التخرصات . »

التى استدانتها مصر من أوربا لغاية أبعد عن الشرف من هذه الغاية. وعلى أن تفاخر الفرنسيين بعمل دلسبس الباهر وابتهاج الانجليز بصفقة

نظرة اجمالية فى إصلاحات اسماعيل باشا

وبهذه المناسبة نقتبس الجدول الوارد ضمن مقال للستر مولهول نشرته مجلة كونتمبرورى ريفيو فى شهر اكتوبر سنة ١٨٨٢ عن ما أنفقه اسماعيل باشا فى الأعمال العامة وهذا الجدول هو فى الوقت نفسه شهادة تدحض ماذهب إليه الأفاكون من أن اسماعيل كان يبذر الأموال فى ملاذه الشخصية كما أنه دليل على ماقام بهذلك العاهل من الأصلاحات الكبرى . وقد مهد الكاتب للجدول بالجملة الآتية :

«...ومع أن حملة القراطيس طالما غرسوا فى أذهان الناس أن اسماعيل باشا بدد ما حصل عليه من أوربا من الأموال فليس ريب فى أن ما أتمه من المشروعات العامة استنفد أكثر من جميع الأموال التى حصل عليها من القروض . والجدول الآتى لا يتضمن الفوائد المستحقة على مقاولات الأعمال ، بل يقتصر فقط على مادفع فعلا فى هذه الأعمال من النفقات .

نوع الأعمال	النفقات بالجنيه	ملاحظات
قناة السويس	٦٧٧٠٠٠٠	هذا بعد خصم قيمة الأسهم التى بيعت فى عهد اسماعيل باشا .
الترع النيلية	١٢٦٠٠٠٠٠	وقد حفر من الترع ماطوله ٨٤٠٠ ميلا وبلغت نفقة الميل الواحد ١٥٠٠ جنيه .
الكبارى	٢١٥٠٠٠٠	أنشأ ٤٣٠ كوبرى تكلف كل منها ٥٠٠٠ جنيه .
مصانع السكر	٦١٠٠٠٠٠	أنشأ ٦٤ مصنعاً وجلب لها الأدوات من الخارج .
ميناء الاسكندرية	٢٥٤٢٠٠٠	وقد أعطيت المقاولة لشركة جرينفلد واليوت
أحواض السويس	١٤٠٠٠٠٠	« « « « « ديسو
وابور مياه الاسكندرية	٣٠٠٠٠٠	وقد وافقت شركة باريسية على الثمن
السكك الحديدية	١٣٣٦١٠٠٠	وقد مد خطوطا جديدة يبلغ طولها ٩١٠ ميلا
التلغرافات	٨٥٣٠٠٠	وقد مد من الأسلاك التلغرافية ماطوله ٥٢٠٠ ميلا
المنائر	١٨٨٠٠٠	أنشأ نحو ١٥ من المنائر فى البحرين الأبيض المتوسط والأحمر
جملة النفقات	٤٦٢٦٤٠٠٠ جنيه	

دزرائيلى المالية لاينبغى أن ينسيهم أن مصر فى هذه المسألة بعينها كان من حقها أن تجزيها أوربا أطيب الجزاء وأنه قد غدر بها غدرا خاليا من

ــ ثم استرسل المستر مولهول فقال : « إن الترع النيلية التى حفر منهـا اسماعيل نحو ١١٢ ترعة ستظل تعتبر على الدوام أعظم إصلاح حدث فى عهده . . . فلقد تمكن الأهالى بفضل هذه الترع من تحويل ١٣٧٣٠٠٠ فدان من أرض بور إلى أرض زراعية أنتجت وقتذاك من المحصولات ما قيمته ١١٠٠٠٠٠٠ جنيه فى حين أن إيجارها لم يتجاوز ١٤٠٠٠٠٠ جنيه سنويا . فزادت بهـذا مساحة الأراضى الزراعية فى مصر من ٤٠٥٢٠٠٠ فدان فى سنة ١٨٦٢ وهى آخر سنوات حكم سعيد إلى ٥٤٢٥٠٠٠ فدان فى سنة ١٨٧٩ وهى السنة التى عزل فيها اسماعيل باشا . وقد ذكر البارون فون مالورتى فى كتابه المسمى « مصر والتدخل الأجنبى » والمستر بيرو فى كتابه المسمى « الارتباك المصرى » بأن واردات مصر فى هذه المدة قد زادت من ١٩٩١٠٠٠ جنيه إلى ٥٤١٠٠٠٠ جنيه كما زادت الصادرات من ٤٤٥٤٠٠٠ جنيه إلى ١٣٨١٠٠٠٠ جنيه هذا فضلا عن أن عدد السكان زاد من ٤٨٣٣٠٠٠ الى ٥٥١٨٠٠٠ نسمة . »

وبهذه المناسبة كتب المستر دى ليون قنصل أمريكا العام فى مصر ص٣٦٢ فى كتابه « مملكة الخديو » ما نصه : « طالما قيل بطيش ورددت الألسن بطيش أيضاً شفوياً وكتابة أن الخديو اقترض نحو ٩٠ مليون جنيه لا لشىء سوى بناء بضع قصور من الخشب والطين ! وهى دعوى ظالمة وطائشة بقدر ما هى كاذبة . . . فالحقيقة التى لا سبيل إلى الشك فيها هى أن ماأدخل من التحسينات على المشروعات العامة التى ابتدأت وتمت فى مصر فى خلال الأثنى عشر عاماً الماضية كانت فوق الوصف بل هى فوق أن تقارن بها مشروعات مملكة أخرى . »

وذكر المستر ستانلى لين بول فى ص١٧٩ من كتابه المسمى « مصر » فى سنة ١٨٨٩ وهو من خيرة الكتاب الذين خبروا شؤون مصر ووقفوا على وقائعها ما ملخصه : « لقد أدخلت على الادارة عدة إصلاحات لم يكن يحلم بها أحد من حكام مصر السابقين، لأن النظام الادارى المؤسس فى عهد محمد على أدخل عليه الآن تعديل كبير وطرأ عليه التحسين من عدة وجوه . كما أن نظام الجمارك على ماذكره مالورتى وضع على أساس جديد تحت إشراف نفر من خبراء الأوروبيين . ثم إن مصلحة البريد التى كانت حتى الآن ملكا للأفراد اشترتها الحكومة ووضعتها تحت إدارة موظف من موظفى إدارة عموم البريد فى لندن . وفوق هذا وذاك أدخل تعديل على النظام القضائى . فقد أنشئت ــ

الرحمة هذا فضلا عن أن حفر القناة قد أوقع الارتباكات فيما بين الأمبراطورية البريطانية ومصر من العلاقات لأنه حول هدف سيادة بريطانيا البحرية

= المحكمة المختلطة التي وضعت حداً لاعفاء الأجانب من طائلة العقاب في كثير من الأمور الواقعة فى دائرة القانون المدنى . ثم استبدلت العقوبات المنصوص عليها فى الشريعة الأسلامية بعقوبات القانون النظامى الأوربى . ولا يفوتنا أن نذكر الاجراءات الشديدة التي اتخذت في ذلك العهد لالغاء الرق والقضاء على تجارة الرقيق وهو إصلاح جدير بأن تلهج بالثناء على من قاموا به نظراً لما كلف الخزانة المصرية من النفقات الهائلة مع أن الخديو بالغائه الرق كان يأتى أمراً مخالفاً لتعاليم دينه وتقاليد شعبه ومصالح الجمهور (كذا!) أضف إلى كل ما تقدم مساعى الحكومة لترقية التعليم » ففى عهد سعيد باشا كما ذكره المستر دى ليون « لم تزد ميزانية التعليم عن ٦٠٠٠ جنيه سنوياً ولكنها بلغت فى عهد اسماعيل باشا ٨٠٠٠٠ جنيه هذا عدا ما أضيف إليها فيما بعد من إيراد بعض الأراضى التى اشتريت ثانية من شركة قناة السويس بمبلغ عشرة ملايين فرنك لجعل التعليم مجانا وليعيش الطلبة على نفقات الحكومة من مأكل ومشرب وملبس . وفى ذلك العهد أيضا أسست لأول مرة لا فى مصر فقط بل فى الأمبراطورية العثمانية بأسرها ، مدارس البنات وأنشئت دار الآثار العربية فى بولاق وأضيف إلى دار الكتب عدد من أنفس الكتب حتى أصبحت من أشهر مكاتب العالم . »

وإلى هذا التقدم أشار المستر دى ليون فى كتابه السالف الذكر ص ١٦٠ بقوله « لقد كان التقدم فى التعليم والمعارف فى عهد اسماعيل باشا مما يستوقف الأنظار إعجابا وسيبقى معدوداً كذلك فى كل بلاد العالم . »

بل إن القنصل الأنجليزى العام فى الاسكندرية ذكر فى تقريره عن سنة ١٨٧٧ ص ٣٠ « أن مصر لم يكن بها فى سنة ١٨٦٣ سوى ١٨٥ مدرسة ولكن لم يأت عام سنة ١٨٧٥ حتى بلغ عدد تلك المدارس ٤٦٨٥ مدرسة تحتوى على ما لا يقل عن ١١١٨٠٣ من الطلبة عدا الكثير من المدارس العالية التابعة للحكومة وللمجالس البلدية كما قد أنشئت أيضا مدارس خاصة للجنود لكل أورطة مدرسة . » وقد أكدت لجنة التعليم العسكرى فى سنة ١٨٧٢ على ما ذكره القنصل البريطانى فى القاهرة سنة ١٨٧٣ ص ٣١ « أنه لم يكن يوجد فى الجيش المصرى بأجمعه من الأميين سوى ٤٢ شخصاً فقط . »

وعلى أن الاعتراف بالواقع لم يفت جريدة التيمس نفسها وقد كانت ألد أعداء =

ونقل محور اهتمامها الأمبراطورى فى الشرق الأدنى من الاستانة إلى

= اسماعيل باشا . فقد ذكرت فى عدد ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٧٩ « أن مصر تقدمت تقدما مدهشا فى عهد اسماعيل باشا . . . فقد ضاعف موارد البلاد المادية إلى أقصى حد سمحت به معارفه وتجاربه . كما أن السكك الحديدية والموانى وقناة السويس هى من صنع يده . زد على ذلك أنه سعى فى تحسين الزراعة بأن أدخل بذورا جديدة وطرقا حديثة وبذل كل جهد لأصلاح الأدارة من الوجهة القانونية والتنفيذية . »

اسماعيل باشا كما هو

دحض الأكاذيب القديمة

ليس أثلج لقلب المصرى من أن يرى كاتباً من كتاب الأجانب يتقدم لتبديد سحب الأكاذيب التى عقدت حول اسم أمير من الأمراء المصريين . وإذا كنا قد اقتبسنا عن كتاب حضرة الأستاذ عبدالرحمن الرافعى بك وخالفناه فيما ذهب إليه من الاستنتاجات عن اسماعيل وعهد اسماعيل فانه يطيب لنا الآن أن نقتبس - وأن نقتبس طويلا - من كتاب المستر كرابيتس المسمى « اسماعيل أو الخديو المظلوم » . وإنما نفعل ذلك لأننا نريد أن نضع أمام القارىء صورة لاسماعيل كما هو قبل « الرتوش » التى أضافها أصحاب الأهواء ممن كانوا لا يصدرون إلا عن الهوى والغرض .

وإلى القارىء الكلمة الهادئة المتواضعة التى افتتح بها الكتاب . قال المستر كرابيتس :

« لست أنا مؤلف هذا الكتاب وإن كان اسمى موجودا على صفحة عنوانه . فهو فى الواقع عبارة عن سلسلة وثائق . ولا فضل لى إلا فى جمع مادة المعلومات وتركها تلق رسالتها على الملأ .

« وإنما فعلت ذلك لأن هذه الصفحات ليست إلا تحديا لخرافة تاريخية . إذ هى تأبى بتاتا الانضمام إلى الأنشودة التى رددتها جوقة المرتلين بقيادة ملنر وكولفن وكرومر وترفض كل الرفض الموافقة على أن اسماعيل باشا أول خديو لمصر كان مبذرا وشهوانيا ولصا . وأحسب أن لا وزن لرأيى الشخصى فى مسألة كهذه ولكن حتى الأسماء الكبيرة ليس يسعها التصدى للحقائق أو تحدى الأرقام المقتبسة عن المصادر الرسمية .

« ولقد مرت خمسون سنة منذ أن ذهب اسماعيل المظلوم إلى المنفى وأحسب أن قد حان الوقت لتحرى الحقيقة عن عهد اسماعيل من أدلة المعاصرين التى لا يرقى الشك =

القاهرة . فنظراً لكل هذه العوامل أصبح من العسير على مصر مهما

= إليها. لأن هذا الكتاب لو كان من بنات أفكاري بالمعنى الصحيح لما خرج عن كونه يعبر عن رأيي الشخصي ضد آراء زمرة كبيرة متسلسلة من عيون المؤرخين. ولكنه في شكله الحالي لا أثر لشخصيتي فيه.

« فالأدلة التي أسوقها هنا هي تحدى لما طالما رددته ألسن مشاهير الكتاب من العبارات. وإني لأرفض بتاتا قبول توكيداتهم واستنتاجاتهم. بل بالعكس أورد مقتبساتي الخاصة بعهد اسماعيل من صلب الوثائق المعاصرة لنقض مازعموه بحسن نية دون التعرض لجوهر الموضوع. إذ الغاية التي أرمي اليها هي هدم خرافة تحولت مع الزمن إلى عقيدة. وإني إذ أفعل ذلك لا أفعله عن طريق المهاترة والهجو بل باقتباس النصوص وكتابة الحواشي وعندي أن اظهار الحقيقة هو أفضل بكثير من التفاخر بالتأليف. »

وقد أشار المستر كرابيتس إلى ما اعتمد عليه من المصادر لجمع المادة اللازمة لكتابه فأشاد بذكر جلالة الملك فؤاد وسماحه له بلا شرط ولا قيد بالاتصال بقسم المحفوظات الملكية بقصر عابدين حيث عثر على كافة المعلومات والوثائق التي لم تر النور من قبل.

ولما كان قنصل أمريكا الجنرال المستر ادوين دي ليون قد لعب دورا مهما في حمل أنصار ابراهيم باشا الهامي بن عباس باشا الأول عن التنازل عن مناوأة سعيد باشا وافساح الطريق له ليتبوأ العرش بصفته صاحب الحق بعد عباس باشا فقد كان طبيعيا أن تكون دار المفوضية الأمريكية في القاهرة حافلة بالوثائق الخاصة بعهد اسماعيل باشا. على أن المستر كرابيتس لم يشأ إحراج ولاة الأمور في المفوضية المذكورة بل لجأ إلى تعزيز أقواله وأدلته بما عثر عليه في دار المفوضية المصرية بواشنطن التي كانت قد تلقت الاذن من دار المحفوظات التابعة للحكومة الأمريكية بواشنطن بأن تأخذ صورا شمسية لكافة الوثائق الخاصة بعهد اسماعيل باشا الموجودة تحت يد الحكومة الامريكية.

وقد أراد المستر كرابيتس أن لا يطالع الناس بتاريخ اسماعيل قبل أن يضع أمام أعينهم صورة لعهد سعيد باشا وهي في مجملها مشابهة للصورة التي أوردناها نحن في هذا الكتاب. غير أنه روى حكاية طريفة عن كيفية حدوث التعارف بين محمد على باشا الكبير وبين ماتيو دلسبس أول قنصل عام لفرنسا عين في مصر بعد توقيع معاهدة اميان في سنة ١٨٠٢ لا نرى بأساً من ذكرها.

كان الجالس على عرشها من أوسع الأمراء حيلة وأشدهم دهاء ومهما

= فقد كان محمد على وقتئذ ضابطا صغيراً فى الجيش التركى فدعى بين من دعاهم المسيو دلسبس ذات يوم إلى وليمة فاخرة فى دار القنصلية الفرنسية . ثم تبين فى اليوم التالى أن أحد المدعوين استل عددا كبيراً من الملاعق والشوك الفضية التابعة للقنصلية.فحامت الشكوك حول محمد على وبخاصة لأن سراويله الواسعة ـ على نحو ما كان يلبسه القوم ـ كانت بحيث تساعد على اخفاء الشيء المسروق . فأمر المسيو دلسبس باجراء تحقيق من أجل « شرف فرنسا وشرف مدعوبها » . فأظهر التحقيق إدانة شخص آخر عدا محمد على وهنا حدب القنصل العام الفرنسى على محمد على وأظهر أمام الملأ مبلغ احترامه له .

فهذا الحادث لعب دورا مهما فى توثيق الصلات بين مصر وفرنسا . وطالما أشار إليه محمد على بعد اعتلائه الأريكة أمام فردينا ند دلسبس بن ماتيو دلسبس عند ماعين الأول قنصلا عاما فى مصر مكان أبيه وحضر إلى بلاط محمد على فى سنة ١٨٣٢ ليهنئه مع بقية رجال السلك السياسى على ما أحرزه ابراهيم باشا من الانتصارات فى سوريا . ثم عهد محمد على إلى فرديناند بتدريب ابنه سعيد باشا على الفروسية وركوب الخيل وخلافه من الأعمال الرياضية التى أشرنا اليها عند الكتابة على عهد سعيد باشا.

ثم استطرد المؤلف فكتب عن عهد سعيد بما لايخرج على ماسطرناه وأشار إلى مسألة لعبت دورامهما فى توثيق الصداقة بين مصر وفرنسا، وهى ولع سعيد باشا بأكل « المكارونة » . ولما كان سعيد وهو فى ريعان شبابه ممتلىء الجسم فقد حظر عليه أبوه أكل الأطعمة الدسمة وكان يكلفه بالاعمال الرياضية العنيفة مدة ساعتين ولا يسمح له بزيارة بيت أحد عدا بيت المسيو ماتيو دلسبس . ومن ثم نشأت الصداقة بين الأمير الشاب وبين فرديناند . وكثيراً ما كان سعيد يلجأ فى غفلة أبيه إلى بيت القنصل ليلتهم مع فرديناند مالذ وطاب من أطباق المكارونة الدسمة . ولما انتقل ماتيو إلى باريس وسافر سعيد إليها لاتمام دراسته ساقته قدماه ومعدته مرة أخرى إلى بيت دلسبس حيث توثقت بينه وبين فرديناند عرا الصداقة .

لهذا لم يكن عسيراً وهذه صداقتهما فى الصغر أن يفاتح فرديناند سعيداً فى أمر مشروع حفر القناة فى الرحلة الصحراوية كما قدمنا وإن كان المؤلف قد ذكر أن مهارة فرديناند فى الرماية وإعجاب حاشية سعيد بها هى التى أتاحت له فرصة الكلام فى مشروع القناة.

وسواء أكانت مهارة فرديناند فى ركوب الخيل أم فى الرماية فالنتيجة واحدة وهى =

أن ذلك السياسي الفرنسي استغل صداقة الشباب بينه وبين سعيد وحصل منه على امتياز بحفر القناة مع ما في عقد الامتياز من الشروط الفادحة وبخاصة أعمال السخرة واستغلال الأراضي المتاخمة للقناة بلا مقابل.

وقد ذكرنا لك المواد الاثنتي عشرة التي تضمنها عقد الامتياز الذي كان سعيد يكثر فيه من الاشارة إلى « صديقه دلسبس » وترديد عبارة « إلى صديقي المخلص الكريم المحتد والرفيع المقام المسيو فرديناند دلسبس . »

ونقطة مهمة في ذلك العقد لفت إليها المستر كرايتس الأنظار في معرض كلامه عن المصاعب التي واجهت اسماعيل عند اعتلاء العرش . وكانت هذه النقطة موضع خلاف كبير بين شركة القناة من جهة واسماعيل باشا من جهة أخرى . وهي الخاصة بتقديم (أو تسخير) العمال المصريين في أعمال حفر القناة . فان المسيو دلسبس تحاشى ذكر كلمة « التسخير » في صلب العقد مما أوهم الملأ بأن الحكومة المصرية هي التي كانت من تلقاء نفسها تسخر هؤلاء العمال . ولو ذكر دلسبس كلمة « التسخير » أو لو أنه ألمح إليها لأثار عاصفة شديدة من المعارضة في انجلترا وأمريكا حيث كانت تدور رحا حملة عنيفة لمحاربة النخاسة وتجارة الرقيق. لأن المسألة ما كانت تفسر وتتذبذب بغير معناها الحقيقي الوحيد وهو الرغبة في إنشاء هذا الطريق المائي لخدمة الانسانية بعرق جبين عمال السخرة !!

وقد مر بك أن سعيدا كان قد قرر إلغاء النخاسة وأنشأ في السودان محطة لمحاربتها ولكن سماحه لفرديناند بتسخير أربعة أخماس العمال اللازمين لحفر القناة كان له معنى خاص . وليس يجوز في الأذهان افتراض أن سعيدا لم يتوقع أن يؤدي سماحه هذا إلى إحياء عهد النخاسة تحت ستار آخر . وخلاصة القول أن اسماعيل عند ما تبوأ العرش وجد تجارة الرقيق رائجة وبحسبك أن وجود ٢٥٠٠٠ من عمال السخرة في أعمال حفر القناة بصفة دائمة كان طبعاً يقتضي « توريد » ضعف هذا العدد على الأقل من « الأنفار » لسد العجز الطاريء وملء الثغرات من آن إلى آخر .

واستطرد المستر كرايتس فقال ما خلاصته : ليس هذا كل ما واجه اسماعيل عند اعتلائه العرش . بل هناك حرب المكسيك التي تورط فيها سعيد قبيل وفاته بثمانية عشر يوماً فقط وكانت خليقة بأن تستنزف المال والرجال من مصر دون أن تفيد هذه شيئاً منها .

وهذه الحرب التي لم تكن لمصر فيها ناقة ولا جمل تكفي للدلالة على مبلغ ما كان لفرنسا

البريطانية وبين وضع حامية فى البرزخ لتقوم بواجب السهر على خط

= من قوة النفوذ فى وادى النيل . ولسنا نتجنى على الحقيقة إذا قلنا إذن إن سياسة مصر الخارجية كانت تجرى تبعاً لأهواء باريس. فان مجرد توسيط نابليون لدلسبس ليلتمس من سعيد بأن يمده بكتيبة من الجنود السودانية للاشتراك فى تلك الحرب النائية ومبادرة سعيد باجابة الالتماس المذكور لينطق بعظم النفوذ الفرنسى وهو ما كان يتبرم به الشعب المصرى وقتئذ ويعارض فيه أشد المعارضة كما شهد بذلك أحد القضاة الهولنديين بالمحاكم المختلطة المصرية فى ص ٤٦ من الجزء الأول من كتابه «مصر وأوربا» إذ قال ما نصه :

« إن قناة السويس والسيطرة الفرنسية لهما من الأمور التى يمجها المصريون فان مصر هى التى قامت بدفع كافة نفقات حفر القناة تقريبا . وليس يخفى أن القناة قد حفرت عبر الصحراء وهى لذلك منعزلة عن الدلتا . وقد أدى حفرها إلى تجريدنا من ذلك الممر التجارى الدولى الذى جعل من مصر ذلك الطريق الذى نعرفه والذى كان ينتظر أن يتعاظم شأنه مع الزمن . ولكن دلسبس خدع سعيدا كما خدع اسماعيل (كذا !) فقد حملهما على الاعتقاد بأن القناة لن تكون فخرا لمصر بل وتكون أيضا مشروعاً رابحاً تفيد منه البلاد . »

وإلى جانب هذا كله واجه اسماعيل عند اعتلاء العرش ما خلفه سعيد من الديون التى قلنا إنها تذيف عن أحد عشر مليون جنيه .

وإلى هذه الحقائق أشار البارون دى ما لورتى فى ص ٧١ من كتابه : « مصر — الحكام الوطنيون والتدخل الأجنبى » المطبوع فى لندن سنة ١٨٨٢ بقوله :

« لقد ترك سعيد لخلفه دينا يبلغ ١٠٠٠٠٠٠٠ جنيه وإدارة متعفنة وفوضى ضاربة أطنابها فى كل مكان هذا عدا امتياز قناة السويس الضار بمصر وماينطوى عليه من تعهدات محزنة دسها ذلك الساحر الكبير دلسبس على سعيد وحمله على توقيعها دون قراءتها كما أكد لى ذلك أحد وزراء سعيد . والبلاد تعج بأكبر مظاهر التذمر من أقصاها إلى أقصاها . »

وقبل أن نعرض لكتاب المستر كرابتس القيم بالتفصيل لا نرى ندحة عن أن ننقل للقارئ بعض ما كتبه المستر « إلجود » تقريظاً فيه وقد نشرته مجلة الاسفنكس بتاريخ ١٦ ديسمبر سنة ١٩٣٣ . ووجه الأهمية فى اثبات هذا التقريظ ان المستر الجود كان قد وضع كتاباً أسماه «المرور بمصر» تناول فيه اسماعيل بمر الانتقاد . ويظهر انه كان كمن سلفه من الكتاب الافرنج ممن عرضوا لحكم اسماعيل بالنقد والتجريح . ولكن المستر إلجود =

مواصلات حيوى كهذا يسهل الاعتداء عليه. على أن العجلة التى سار بها

= يختلف عن أولئك الكتاب بحسن نيته وبرجوعه الى الحق متى ظهرت له بوادره. فلقد عاش ليرى ما أورده المستر كرابيتس فى كتابه فبادر إلى كتابة التقريظ المشار إليه وقد ورد فيه:

« إن ميزة كل ما يكتبه المستر كرابيتس أنه لا يترك فى نفس القارىء أى شك فى وجهة نظره، ومن هنا ترى عبارته تمتاز بالسهولة والبساطة. ويرى المستر كرابيتس أن العالم قد كون فكرة مشوشة عن اسماعيل، ولما كان مؤمناً بعدالة القضية التى تولى الدفاع عنها فقد شحذ عزيمته وهمته لكتابة تاريخ هذا الأمير من جديد. وفى الحق إن اسماعيل لفى حاجة الى محام تفيض روحه بالعطف بعد ما ظهر من قسوة التاريخ على ذكراه. وليس شك فى أن اسماعيل كان أحد الأمراء الأفذاذ ولكنه كان إنساناً. ولكونه كان كذلك كان طبيعياً أن لا يكون كاملا فى تصرفاته وأعماله. بيد أنه كان رجل المتناقضات الغريبة والأضداد الباهرة. وقد انحصر اهتمام الناس فى أخطاء اسماعيل بلا التفات الى حسنتيه الرئيسيتين وهما إلغاء النخاسة فى مملكته وإنشاء المحاكم المختلطة. ومن الصعب أن يتصور الانسان الآن مبلغ الفوضى التى كانت ضاربة أطنابها فى مصر قبل إنشاء هذه المحاكم ....

ثم استطرد الكاتب المجود فقال:

« وكتاب المستر كرابيتس لا يقرأ فقط لمجرد ما حواه من المزايا العديدة ولكنه يصلح أن يتخذ كمصحح لما كتبه عن اسماعيل المؤلفون السابقون الذين عددهم المستر كرابيتس فى ص ٣٣ من كتابه أمثال الماركيز زتلند ولورد كرومر والمستر كولفن ولورد ملنر والمستر إلجود — كاتب هذا التقريظ — والمسيو فريسينيه والكونت بنيديتى. وللكتاب الحاضر ميزة واحدة على الأقل لم تتوفر فيما سبقه من الكتب ألا وهى ان صاحبه قد تمتع بحق الاطلاع على دار المحفوظات فى قصر عابدين بلا شرط ولا قيد وبعد أن تزود منها بما شاء صدر الكتاب بمثابة تحد لما سمى « بخرافة تاريخية » رسخت فى الأذهان عن حكم اسماعيل. وقد خصص المؤلف ثلاثة فصول بأكملها لهدم الخرافة القائلة بأن اسماعيل كان مبذرا مستهترا ووفق بالعكس إلى إقامة الدليل على ان الخديو كان يبذل أقصى العناية فى الاحتفاظ بموارد البلاد. وقد ذكر لنا على صحة قوله مثلا صالحا لم يتنبه له أكثر الكتاب السابقين ألا وهو أن اسماعيل بعد أن باع لانجلترا أسهمه =

=البالغ قدرها ١٧٧٠٠٠ كان لا يزال متمسكا بحصة مصر فى أرباح قناة السويس وقيمتها ١٥ ٪ وقد باع خلفه توفيق هذه الحصة المهمة بعد اعتلاء العرش بتسعة أشهر فقط . وهنا يقوم سؤال لمصلحة اسماعيل وهو لماذا باع توفيق أو مستشاروه هذه الحصة؟ولم يشأ المؤلف أن يخوض فى هذا البحث لأن كتابه خاص باسماعيل لا بالفوضى التى خيمت على البلاد فى أثناء وجود المراقبة الثنائية .

وختم المقرظ أقواله بأن المستر كرابيتس جعل غايته انقاذ سمعة اسماعيل من الوجهة المالية تاركا التعرض للوجهات الأخرى إلى كتاب آخر يصدره فى المستقبل .

أصحاب السمو الأمراء ومسؤوليتهم حيال التاريخ

وما دمنا بصدد ما وضعه كاتب أجنبي كالمستر كرابيتس عن عهد اسماعيل فليس يسعنا إلا أن نلاحظ أن معظم الكتاب الأجانب — إذا افترضنا فيهم حسن النية — إنما يكتبون عن مصر وأمرائها بناء على ما تصل اليه أيديهم من المعلومات . ومن التجنى أن نطالبهم بالتحرى أو التدقيق فى تلك المعلومات . ومما لاريب فيه أنه لولا اهتمام جلالة الملك فؤاد بتاريخ مصر أولا وبتاريخ الأسرة المحمدية العلوية ثانياً وبتاريخ والده اسماعيل باشا ثالثاً لما استطاع كاتب كالمستر كرابيتس أن يتوصل إلى جزء من الحقائق التى أذاعها فى كتابه والتى تعد بمثابة محاولة صادقة لكتابة التاريخ من جديد .

وليس من العدل فى شيء أن يطلب إلى جلالة الملك فؤاد وحده أن يعنى بتاريخ أسرته فى حين أنه يوجد عدد من أصحاب السمو الأمراء ولديهم من الوقت ما يتسع للبحث والتقصى والتدقيق فى تاريخ الأسرة مما ليس لدى جلالة المليك مثله. فنى رقبة أصحاب السمو الأمراء إذن بصفتهم مصريين دين كبير لا بالنسبة لتاريخ الأسرة وحدها بل بالنسبة لتاريخ مصر أيضاً ينبغى أداؤه ويعد التقاعس عنه تقاعس فى أداء أقدس الواجبات .

سمو الأمير محمد على وعباس باشا الأول

وهذه الملاحظة تجرنا طبعا إلى العودة إلى ساكن الجنان عباس باشا الأول . فلقد اطلع صاحب السمو الأمير محمد على على ما ذكرنا هنا خاصا بتاريخ عباس الأول فأبدى اهتماماً كبيراً لولا أنه جاء لسوء الحظ دون ما ينتظر من أمير مصرى-حباه الله تعالى بنعمتى الصحة والثروة الضخمة وظل أمداً طويلا ولى عهد الدولة المصرية . ولسنا ننكر نشاط سمو الأمير وعنايته بتدوين رحلاته العديدة فى مشارق الأرض ومغاربها=

= وما يضمنها من الملاحظات الدقيقة . بل ونذكر أنه عهد إلينا بترتيب وتبويب رحلته الأخيرة إلى الهند ، ولكن هذا النشاط المحمود كان ينتظر من سموه أن يبدى نشاطاً مثله إن لم تقل ضعفه فيما يختص بالجانب المصرى بصفته ابن المغفور له توفيق باشا الذى نشبت الثورة العرابية المشؤومة فى أيامه وبصفته شقيق سمو الخديو السابق الذى نشبت الحرب العالمية السابقة فى أثناء حكمه ثم بصفته أميراً كانت ولا تزال تربطه عدة روابط وثيقة بكثير من أبلطة أوربا وأسرها وكبار ساستها ، نقول نظراً لصفات سموه هذه كان المنتظر أن يعنى سموه بعض العناية بتدوين ما يعرفه من معلومات وثيقة عن تاريخ مصر وخاصة فى عهد عباس الأول والمغفور له والده توفيق باشا مما يصح أن يكون قد أغفله كتاب الأفرنج أو تعمدوا تجاهله لحاجة فى نفس يعقوب . وإذا كنا نعتمد فى كتابة تاريخ بلادنا على المؤرخين الأفرنج فليس يحق لنا أن نغلو فى لومهم وانتقادهم إذا رأيناهم انحرفوا عن جادة الصواب أو تجافوا عن مواطن الصدق والنزاهة فيما يكتبون .

بين المعرب وسمو الأمير عمر طوسون

وما كان أشد انتقاد سمو الأمير محمد على على ما أوردناه هنا عن عهد عباس الأول منقولا عن المصادر الأفرنجية . ومن ثم طلب إلينا حضرة سكرتيره بأمر سموه أن نتصل بسمو الأمير عمر طوسون ليتفضل بتزويدنا بما لديه من المعلومات عن عباس الأول . ولما كنا نحرص على الحصول على الحقائق التاريخية مهما كلفنا الأمر فقد بادرنا بالكتابة إلى سمو الأمير عمر وأرفقنا بكتابنا الجزء الخاص بعهد عباس الأول ليطلع عليه سموه .

ولما كان سموه قد اعتاد أن يرد على كل من يلجأ اليه فى البحث عن حقيقة تاريخية فقد تفضل حرسه الله وكلف حضرة باشمعاون الدائرة بأن يرد علينا بالخطاب التالى الذى رأينا من حق التاريخ أن نثبته بحذافيره . قال حضرة الباشمعاون بعد الديباجة :—

« اطلع حضرة صاحب السمو الأمير على خطابكم وعلى ما كتبتموه عن عباس الأول فى كتابكم الذى تؤلفونه الآن وقد كلفنى سموه أن أبلغكم أن مسألة تاريخ حياة عباس فى الحكم ليست بالمسائل الهينة وأن ما كتب عنه من مؤرخى الأجانب ليس كله صحيحاً وليس كله خطأ والأمر يحتاج إلى مزيد بحث وتفرغ ورجوع إلى مصادر تاريخية وسمو الأمير ليس عنده من الوقت ما يساعده على بحث هذا الموضوع من جميع أطرافه وكما يجب أن يبحث . وغاية ما يمكن سموه أن يخبركم به وهو على ثقة =

من الشرق إلى المغرب ومن فارس إلى استامبول. ويكاد يكون هذا



سمو الأمير عمر طوسون *

= ويقين هو أن الأمن فى عهد عباس كان فى غاية الاستتباب والمالية المصرية كانت موضوعة على أسس وموازين ثابتة وهما ركنان عظيمان لا يستهان بهما فى نظام الحكومات. فتوافرهما لعباس من الأمور التى تعد مفخرة لحكومته. وقد روى لنا ذلك الجلة من الذين أدركوا حكمه وأكده لنا على وجه أخص المغفور له رياض باشا.

ولقد ذكرتم فى الكلمة التى كتبتموها عن هذا الوالى مانصه: —

« ولم يذهب إلى أوربا فى عهده من طلاب البعثات سوى ١٩ طالب » والحقيقة أنه أرسل إلى أوربا أكثر مما ذكرتموه فى هذه الكلمة التى نقلتموها عن غيركم بالطبع وأول من قالها المرحوم جورجى زيدان بك من كتاب العربية على ما نعلم وتبعه فيه أمين باشا سامى فى كتابه «التعليم فى مصر» ص ١٤ ثم تبعهما كثيرون منهم عبد الرحمن بك الرافعى فى كتابه « تاريخ الحركة القومية »

* هذه الصورة استعارها المعرب من سمو الأمير عمر طوسون.

الأفلاس المقرون بالاحتلال الأجنبي ظاهرة مألوفة من مظاهر الاحتلال فى إبان دور الانتقال من دولة إسلامية إلى مستوى أمة غربية فى كل من مراكش والجزائر وتونس ومصر وتركيا . وعلى أنه لولا وجود القناة لأمكن بسبب المنافسات الدولية تسوية الأزمة المالية فى القاهرة بالشكل الذى سبق أن سويت به الأزمة المـالية فى الأستانة وذلك



السيد عبد الله نديم
خطيب الثورة العرابية

= وحقيقة عدد من أرسلهم هذا الوالى للتعلم فى أوربا مجهولة لدينا . ولكنا أثبتنا منهم فى كتاب لنا تحت الطبع وسيظهر قريباً واحداً وأربعين . على أن المرحوم السيد عبد الله نديم حصر عددهم فقال ثمانية وأربعين . الخ الخ

***

وفى الحق ليس يسعنا إلا تقديم الشكر لسمو الأمير عمر على ما يبذله من الوقت والجهود فى تقصى وجهات النظر المصرية وما ينشره من المقالات والكتب بين آن وآخر خاصاً بشؤون مصر مما يساعد على تنوير الأذهان ويثلج صدور الشعب لما يرونه من اهتمام أحد أمرائهم بشؤون بلاده . وليس شك فى أن سموه أكثر الأمراء نشاطاً وأعظمهم يقظة وأشدهم غيرة على مصر وكل ما يمس سمعة مصر وحبذا لو اتخذ بقية أصحاب السمو الأمراء منه قدوة صالحة يعملون على منوالها .

***

ملاحظات سمو الأمير محمد على

وقبل أن يصل رد سمو الأمير عمر طوسون تشرفنا بالمثول بين يدى سمو الأمير محمد على فى قصره بالمنيل وتناول الحديث ما كتبناه فى صدد عباس الأول .

وقد بدأ سموه الحديث بملاحظة سديدة وهى أن كتاب الأفرنج بالغوا ما بلغ من =



صورة فريدة لسمو الأمير محمد على

= حسن نيتهم لن يراعوا الحقيقة أو يتوخوا النزاهة فيما يكتبونه عن مصر وأمراء مصر.
ومع إيماننا بهذه النظرية فقد لاحظنا لسموه أن أمراء مصر مطالبون قبل غيرهم بتنوير الأذهان فى كل ماله مساس بأرومتهم.

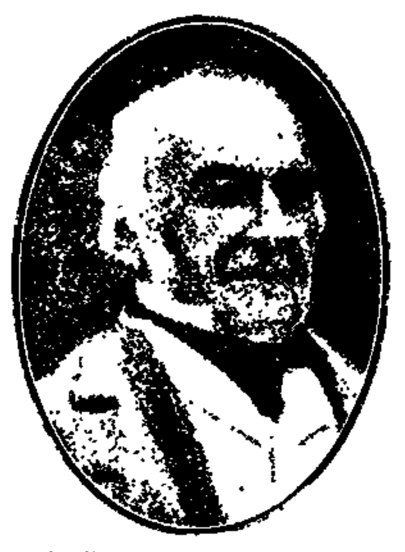
وهنا دخل سموه فى الموضوع رأساً فقال ما خلاصته:

يعرف كل إنسان كم كان جدنا الكبير محمد على باشا ميالا للفرنسيين وكم أفسح لأبناء جلدتهم فى غرس بذور ثقافتهم فى وادى النيل. وقد أخذ هذا الميل يزداد مع الزمن إلى أن نشبت الحرب السورية حيث تقدمت الجيوش المصرية بقيادة ابراهيم باشا إلى قرب الاستانة.

ولشد ما كانت خيبة آمال محمد على عند ما رأى فرنسا تنضم إلى خصومه فى عملية حرمان مصر من ثمرة تلك الفتوحات العظيمة وخاصة إخراجها من سوريا بصفقة المغبون.

وهذا المسلك الذى سلكته فرنسا حيال محمد على هو الذى جعله يصرح فى كل مناسبة بأنه لا يتوقع أى خير من الفرنسيين. وبديهى أن تصريحات كهذه يفوه بها =

بوضع رقابة مالية من نوع ما . ولكن القناة هي التي شقت وزارة غلادستون



المستر غلادستون رئيس الوزارة البريطانية ورئيس حزب الأحرار والذى تم احتلال مصر فى أيامه



المستر جون برايت الوزير البريطانى الذى احتج على احتلال مصر واستقال من وزارة المستر غلادستون

= منشىء الأسرة المحمدية العلوية على مسمع من أولاده وأحفاده لم يكن ينتظر أن تمر دون أن تترك أثراً فى نفوسهم . ومن هنا كان الشعور الذى عرف عن عباس باشا أزاء الفرنسيين .

ولكن هناك مسألة أخرى تركت أثرا غير حميد فى نفس الأمراء ضد فرنسا . ففى موقعة نافارين عند ما تألبت أساطيل فرنسا وروسيا وانجلترا على العمارة التركية المصرية وقبيل أن تفتح عليها النار ظلما وعدوانا انسحب الضباط البحريون الفرنسيون الملحقون بخدمة الأسطول المصرى وتخلوا عن مناصبهم فى أحرج الأوقات وأدقها بالنسبة لمصر. وعمل كهذا لم يكن غريبا أن أدى إلى اشمئزاز عباس باشا من الفرنسيين لأن فرنسا كانت لها ندحة عن سلوك هذا المسلك. فلقد كان فى وسعها قبل نشوب الحرب — التى كانت تعلم سلفا بوقوعها — أن توعز إلى أولئك الضباط بالاستقالة من خدمة الأسطول المصرى ليتسنى للحكومة المصرية فى الوقت المناسب أن تعين بدلا منهم . ولكن عمل فرنسا ومقابلتها مصر وأمير مصر الذى كان شديد الميل إليها بهذا الأمر الواقع كان له أسوأ الاثر لا فى نفس محمد على وحده بل فى نفس أولاده وأحفاده .

ولقد كان من أعظم مزايا محمد على باشا ترفعه فى أثناء القتال عن اغتصاب الأملاك =

على نفسها وجعلت الاحتلال البريطانى أمراً لامناص منه .



الأميرال نابير
قائد العمارة البحرية البريطانية التى حاربت ابراهيم باشا فى سوريا كما تراه فى ص ١٥٧ من الكتاب

على أن فشل اسماعيل فى الشؤون المالية ليدعو إلى الحيرة حقاً . فان هذا الأمير بدأ حياته المالية أحسن بداية وسار سيراً حميداً فى الشؤون الأخرى . ولما كان سعيد قد مكنه من التدرب على معالجة الشؤون العامة فانه سرعان مابرهن على أنه من خيرة رجال الأعمال فى إدارة الضياع الشاسعة التى خلفها

= الخصوصية التابعة لرعايا الأعداء . ولم يك هذا شأنه مع الرعايا الأتراك فحسب أثناء الحرب السورية بل أنه برغم خصومته لانجلترا ترك طريق الهند مفتوحة أمام الانجليز مما جعل شركة الهند الشرقية تضرب ميدالية خاصة باسمه وتقدمها له دليلا على اعترافها بموقفه المشرف . ومن هنا كان تقدير الانجليز له .

عباس باشا وبغضه للفرنسيين

فلما أن تبوأ عباس باشا الحكم كان كما قلنا تحت تأثير بغضه للفرنسيين بسبب موقفهم حيال جده محمد على فى الحرب السورية وفى معركة نافارين . ونظرا لأن الحروب التى أشعل محمد على وابراهيم نارها فى كافة أنحاء الأرض دون أن تفيد مصر شيئا منها كانت قد انهكت عاتق البلاد فان عباس رأى أن يلجأ إلى الاقتصاد فى بعض المصروفات العامة . فشرع فى الاستغناء عن كثير من المدرسين الفرنسيين وإحالتهم إلى المعاش . فلما ارتبكت الحالة فى المدارس بسبب الاستغناء عن أولئك المدرسين الفرنسيين رأى عباس تعطيل هذه المدارس .

على أن ذلك لم يكن معناه أنه أغفل شأن التعليم بتاتاً . كلا فقد افتتح مدرسة «المفروزة» وهى المدرسة التى طارت شهرتها فى الآفاق . فقد نشأ فيها كافة الضباط العظام ممن كانوا عدة اسماعيل باشا فيما أقدم عليه بعد من الفتوحات العظيمة فى السودان وغيره . ومما يشهد بحسن سياسة عباس وبعد نظره أنه رأى أن يريح بلاده من متاعب =

له أبوه ابراهيم وفيما جمعه من ثروة خاصة هائلة . وفى الحق إنه نجح أيما

= الحروب التى ذاقت مرارتها فى عهد جده وعمه ولذا لزم خطة السلام . وهى بلا ريب خطة حميدة كانت نتيجتها أن مالية البلاد ظلت سليمة .

شهامة عباس

نعم إن عباس لم يسمع الناس عنه كثيرا لعدم اتصاله بالأفرنج وبغضه لهم ولكن سوف يعرف الناس حقيقته بعد نشر مذكرات نوبار باشا التى يباشر طبعها ابنه البكر .

ومما رواه نوبار باشا فى هذه المذكرات عن عباس شهامته وحدبه على موظفيه . وقد ضرب مثلا على هذا بالحكاية الآتية :

فلقد وصل إلى أسماعه مرة أن الموظفين لم يتقاضوا مرتباتهم مدة ثلاثة أشهر كاملة فتولته الدهشة وقال « وكيف يكون هؤلاء المساكين محرومين وخزائنى مكدسة بالأموال ؟ »

ثم أمر من فوره باخراج كل ما فى خزائنه من الفضة وإرساله إلى دار الضربخانة لصكه نقودا وتوزيعه على هؤلاء الموظفين قائلا « إنهم أولى منى بذلك الكنز . »

ولقد كانت لعباس الأول نظريته فيما يختص بأملاك التاج . فعند ما أرسل جلالة السلطان دولة فؤاد باشا الصدر الأعظم إلى مصر لأزالة ما كان من سوء التفاهم بين عباس وبقية الأمراء بسبب تقسيم تركة محمد على كان من رأى عباس أن يبقى كل ماخلفه محمد على ملكا للتاج يتصرف فيه الجالس على العرش لمصلحة الدولة وليس يحق لأمير من الأمراء أن يطمح إلى شىء منه . أو بعبارة أخرى إنه كان يرى أن محمدا عليا لم يؤسس ذلك الملك العظيم ليكون تراثا خاصا يتقاسمه الأبناء والأحفاد كلا بل ليبقى ملكا للدولة ويكون لرئيس الدولة وحده أى الجالس على العرش حق التصرف فيه على أن ينتقل كاملا إلى حيازة من يخلفه على العرش وهلم جرا .

ولكن كان الأمراء الآخرون على غير هذا الرأى وتوسط جلالة السلطان فى الأمر وقضى بينهم بتقسيم التركة .

عباس باشا وعنايته بجوارى البلاط

على أن أهم ماعرف عن عباس أنه أول من عنى بمستقبل جوارى البلاط . فان أمراء الأسرة كثيرا ما استولدوا جواريهم أمراء تركوا لهم ثروة ضخمة لم تفد الأمهات منها شيئا لا لسبب إلا لكونهن لسن أميرات . وقد تطعن إحدى هؤلاء الجوارى فى السن دون أن تجد ما يمسك رمقها اللهم إلا ما يتصدق عليها به ابنها الذى قد يكون من الأمراء ذوى الثروة العريضة التى تلقاها عن أبيه .

نجاح بفضل حسن إدارته فى مضاعفة مساحة ضياعه عدة مرات . فبعد

= لذا قرر عباس تخصيص معاش مناسب لهؤلاء الجوارى الطاعنات فى السن وهى حسنة طالما ذكرها له بعض الأمراء فيما بعد ممن سدت فى وجوههم الأبواب فلم يجدوا ما يلجأون إليه إلا معاش والداتهم .

ولم ينس اسماعيل باشا أن يشيد بهذه الحسنة لعباس وأن يذكرها له فيما بعد بالخير .

وإلى هنا انتهت ملاحظات سموه . وكم كنا نتمنى أن يكرس سمو الأمير جزءا من وقته لوضع تاريخ مسهب عن عهد عباس الأول دون أن يترك الناس متلهفين على ما ستحدثهم به مذكرات نوبار باشا . ولكن

ما كل ما يتمنى المرء يدركه   تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن

***

عود إلى حديث اسماعيل قبل اعتلاء العرش

حبه للاقتصاد

ونعود الآن بعد هذا الاستطراد الطويل إلى حديث اسماعيل باشا لنبين كيف كان قبل اعتلاء العرش الرجل المشار اليه فى الشؤون الاقتصادية والعناية بموارد البلاد حتى لقب بأمير الفلاحين .

فلقد حدثنا المستر كرابيتس نقلا عن البارون دى مالورتى ، أن اسماعيل رأى طيلة السنوات التسع التى قضاها سعيد على العرش أن الحكمة تقضى بأن يظل خلف الستار لايشغل باله إلا بالشؤون الزراعية وإدارة أملاكه الشاسعة . »

وهذا مايؤيده المستر ادوين دى ليون القنصل الأمريكى فى اسكندرية من ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٥٣ الى ٤ مارس سنة ١٨٦١ إذ قال :

« إن اسماعيل كان يرقب الفرصة المناسبة للظهور غير حافل الا بالشؤون الزراعية تاركا الاعلان عن نفسه خوفا من إثارة حسد سعيد باشا مهتما فقط بتوسيع أملاكه باعتبارها أحدى تساليه إلى أن أصبح بحق أكبر مزارع فى مصر بأسرها . »

وإلى هذه الميزة أشار الكاتبان الفرنسيان « اميدى ساكرى ولويس اوتريبون » فى كتابهما المسمى « مصر والخديو اسماعيل باشا » المطبوع فى باريس سنة ١٨٦٥ ص ١١ اذ قالا مانصه :

« لقد أصبح اسماعيل بفضل سخاء محمد على من أغنى المزارعين إن لم نقل أغناهم فى مصر . فلقد عرف جيد المعرفة كيف يدير أملاكه بفضل ماحبته به الطبيعة من غريزة =

ان كانت ٦٠٠٠ فدان زادها اسماعيل إلى نحو مليون فدان . هذا

=الذوق العام العملي وروح الاقتصاد وهما الخلتان اللتان تقوم عليهما ثروة الرجل الذى يدير المزارع الشاسعة ، وقد استخدم إيراده بطريقة منظمة فى الأكثار من ابتياع الأراضي الجديدة إلى أن زادت ثروته ثلاثة أضعاف . ولقد بلغ من جودة محصول القمح والسكر فى أراضيه أن ثمنهما فى السوق كان أعلى ثمن دفع لهذين الصنفين وكثيرا ما تسابق المشترون لابتياع أقطانه لأنه كان كثير العناية بحرث أطيانه لتأتى بأطيب المحصول ومن ثم تعود عليه بأربح الأسعار . وكان كثيرا ما يشار إليه باعتباره المثل الأعلى لطبقة المزارعين فى مصر . ولكنه مع كل هذا كان بعيدا عن شؤون الدولة . »

بل إن بعض الكتاب الانجليز أنفسهم أيدوا هذه الشهادة . وإليك ماقاله المستر ماكوان الصحفي البريطاني إذ قال :

« إن اسماعيل بفضل ما أوتيه من الهمة التى لاتعرف الملل وثاقب الرأى والمقدرة الأدارية قد حصر اهتمامه فى إدارة مزارعه الخاصة إلى أن تمكن من أن يجعل نفسه أغنى مزارع فى مصر . »

وقد اشترك المستر موبرلى بل مراسل التيمس فى القاهرة وعدو اسماعيل باشا الألد فى الأشادة بهذه الحقيقة إذ قال فى كتابه « الخديوون والباشاوات بقلم شخص يعرفهم » المطبوع فى لندن سنة ١٨٨٤ ص ١١ ما نصه :

« قبل اعتلائه الأريكة كان اسماعيل معروفا كزارع شديد الاقتصاد حتى بلغ من حرصه ان لاينفق القرش إلا فى محله . »

فلا غرو بعد كل هذه البيانات أن نصدق دى مالورتى عند ما أكد فى كتابه « مصر - حكامها الوطنيون والتدخل الأجنبي » ص ٧١ « أن إيراد اسماعيل عند اعتلائه الأريكة بلغ ١٦٠٠٠٠ جنيه سنويا وأن أراضيه الشاسعة كانت خالية من الديون أو الرهن وهذا ما أكده لى أحد وزرائه . »

كل هذا عرف عن اسماعيل فى الوقت الذى كان فيه أخوه الأمير أحمد وليا للعهد .

ديون اسماعيل

لقد رأيت فيما مر بك اجماعا من كافة الكتاب الأجانب على أن اسماعيل هو الذى أتى من ضروب الأصلاح ما جعل مصر تتيه فخرا على شعوب الشرق بما حوته من بذور المدنية مما يساعدها على أن تخطو خطوات واسعات فى سبيل الترقى كادت =

فضلا عن أنه ملأها بالمصانع ووصل أجزاءها بشبكة من السكك

═ معها أن تلحق بل لحقت فعلا بكثير من شعوب أوربا وبزتها وسبقتها .

واذا كان هناك إجماع على هذه النقطة المهمة لم يصادف لحسن الحظ حتى هذه اللحظة شذوذا أو خروجا فهناك أيضاً إجماع ثان على نقطة مهمة أخرى كان الى الآن قائما على وهم محض وأصبح لحسن الحظ لا يحتمل التحليل أو النقد البريء .

فاذا كان الكتاب الافرنج أجمعوا على أن اسماعيل أبو الاصلاحات الحديثة التى شهدتها مصر فانهم أجمعوا كذلك على أن القروض التى عقدها هى سبب ما أصيبت به البلاد فيما بعد من المتاعب التى أدت إلى المراقبة الثنائية ثم التدخل الأجنبي الذى انتهى بالاحتلال البريطانى .

ولكن الاجماع الأخير قد بدأ لحسن الحظ يتلاشى ويحل محله تقدير لاسماعيل وإنصاف لتصرفاته فيما يختص بمشكلة القروض . ويرجع السبب فى هذا التحول إلى ما بدأ يظهر من الحقائق والوثائق الخاصة باسماعيل مما أشرنا اليه فى صدر هذا الفصل ويرجع معظم الفضل فيه إلى يقظة وعناية جلالة الملك فؤاد .

ونقول الآن مع المستر كرابيتس إن الوقت قد حان للبحث فى مسألة القروض وهل كان اسماعيل كما وصفه لورد ملنر فى سنه ١٨٩٢ فى كتابه وانجلترا فى مصر ، وهو الكتاب الذى كان بمثابة الأساس الذى قام عليه هيكل الاتهام ضد الخديو المظلوم ؟ قال لورد ملنر :

« يعتبر اسماعيل أصدق مثال للتبذير والاسراف يمكن أن يعثر عليه الانسان سواء فى التاريخ أم فى الاقاصيص . وليس يوجد من يشبه هذا المبذر المستهتر فى التمتع بما كان يتمتع به اسماعيل من سيطرة تامة على موارد هائلة . فلقد تبوأ الأريكة فى الوقت الذى ظن الناس فيه أن لاحدود لثروة مصر الكامنة . ولقد كانت البلاد ملكا له يتصرف فيها كيفما أراد . وكان العالم بأجمعه على قدم الاستعداد ليقدم له ماشاء من الأموال لتحسين هذه الأراضى وتنميتها . وفى الوقت نفسه كان إسماعيل مجموعة صفات منها المليح ومنها القبيح مما لابد منه لجعل المتصف بها مثلا أعلى للمبذر . فهو وإن كان ميالا للترف شهوانيا كثير الاطماع محبا للمظاهر لامبدأ له إلا أنه كان إلى جانب ذلك تجيش نفسه بالمشروعات الباهرة التى يراد بها تحسين البلاد تحسينا ماديا كبيرا ففضلا عما أضاعه من الملايين تلو الملايين فى الولائم والحفلات والملاذ وبناء القصور العديدة التى ضمت الى عفونة البناء قبح الشكل ، فانه بذر كذلك عدة ملايين ═

الحديدية . وكان لشدة عطفه على الفلاح يلقب « بأمير الفلاحين » وقد أظهر عند اعتلائه الأريكة ميلا إلى مراعاة الاقتصاد بأن فصل بين الأيرادات الخاصة والأيرادات العامة واختص نفسه هو وحاشيته بمبلغ ٧٠٠٠٠ جنيه فى العام . وهذا المبلغ وإن كان ضعف مخصصات قصر الملكة فيكتوريا إلا أنه كان على كل حال أقل بكثير من مخصصات



لورد ملنر
واضع كتاب « انجلترا فى مصر »

= أخرى فى مشروع مماثل للاصلاح الزراعى . وقد بدىء بالمشروع دون الاحاطة بأساسه وأنفق فى سبيله ثمن فادح . »

واسترسل لورد ملنر فقال :

« لقد بذلت محاولات عديدة فى إحصاء المبلغ الذى صرفه اسماعيل فى خير البلاد من القروض التى عقدها فى زمنه . ولكن نظراً للفوضى التى عرفت بها الحسابات فى السنوات التى سلفت على سنة ١٨٧٦ فان أمثال هذه المحاولات تعتبر عقيمة لا يرجى لها سوى الفشل . ولكن هناك أمر مقرر ثابت وهو أن ذلك المبلغ كان ضئيلا جدا . وإنى ليخامرنى الشك فيما إذا كان المبلغ الذى خصصه اسماعيل من ضمن قروضه لأعمال الخير الدائمة — بغض النظر دائماً عن قناة السويس — تجاوز ١٠٪ من مجموع ما عقده من الديون . »

وقد علق المستر كرابيتس على هذه التهم بقوله : « إن القارىء يخرج من كتاب لورد ملنر بهذه النتيجة وهى :

« إن من مجموع الديون البالغ قدرها ٨٩ مليون جنيه التى كانت مصر مدينة بها فى سنة ١٨٧٩ قد بدد اسماعيل نحو ٦٠٧٣٢٢٠٠ وقد وصل المستر كرابيتس إلى هذه النتيجة كما يأتى :

فقد طرح من مبلغ ٨٩ مليون جنيه

القصر فى عهد سعيد . على أن اسماعيل وجه فى الوقت نفسه عنايته لأنجاز

= أولا : الدين الذى خلفه سعيد باشا كما أحصاه لورد ملنر وقدره ٣٢٩٢٧٠٠
ثانياً : نفقات قناة السويس كما قدرها تقرير لجنة كيف وقدرها ١٦٠٧٥٠٠٠
ثالثاً : نسبة ١٠٪ التى قال لورد ملنر إن اسماعيل أنفقها فى أعمال الخير وقدرها ٨٩٠٠٠٠٠ جنيه

فيكون مجموع ما بدده اسماعيل ٦٠٧٣٢٢٠٠

أو بعبارة أخرى يرى لورد ملنر أن حكم اسماعيل باشا (الذى ظل ١٣ سنة) كلف خزانة البلاد نحو ٤٦٧١٧٠٨ جنيه سنوياً .

ولكن لورد كرومر الذى ظهر كتابه « مصر الحديثة » بعد كتاب لورد ملنر بنحو ١٦ سنة قد زاد دين مصر من ٨٩ مليون جنيه إلى ٩١ مليون جنيه وقال إن حكم اسماعيل كلف الخزانة المصرية نحو ٧ مليون جنيه سنوياً لمدة ١٣ سنة . واستنتج كرومر كما استنتج ملنر أن اسماعيل فيما عدا ١٦ مليون جنيه وهى نفقات القناة قد بدد كافة ما عقده من الديون .

ومما يقنعك بأن القوم يصدرون عن رأى واحد أن المركيز زتلند الذى ظهر كتابه بعد أربع وعشرين سنة من كتاب لورد كرومر قد قبل الأرقام التى ذكرها كرومر على علاتها كأنها عقيدة منزلة ولم يكلف نفسه عناء تمحيصها ولا حاول أن يوفق بين التناقض الذى ذكروه عن ميل اسماعيل إلى الاقتصاد قبل اعتلائه الأريكة أولا ثم ميله فيما بعد إلى الاسراف والتبذير !

هل كان اسماعيل مبذراً ؟

صورة من نشاطه وجده

ولقد تساءل المستر كرايتس فقال كيف يعقل أن ذلك الأمير الذى اشتهر وهو ولى عهد الدولة بحب الاقتصاد ينقلب بين عشية وضحاها والياً مسرفاً مستهتراً ؟ وكيف أن هذا الرجل الذى كان ينفق إيراده فى ابتياع الأراضى ومضاعفة ثروته يعمد إلى عقد القروض الأجنبية لانفاقها فى اللهو والترف . فهل كان التحول فجائياً ؟

ولقد أصاب المستر كرايتس المحز إذ قال : « إن من يقرأ كتاب لورد ملنر يخرج منه بأن اسماعيل كان رجلا شهوانياً بدد الملايين فى إقامة الولائم والحفلات وإشباع شهواته . وأن الصورة التى يتصورها القارىء عن اسماعيل بعد قراءة تلك الكتب هى =

أعمال الترقى والتقدم . فمثلا المواصلات والزراعة والتجارة والصناعة

= أنه كان رجلا يقضى الليل فى أعمال الطيش فاذا طلع النهار احتواه فراشه حتى اذا ما حل العصر قام ليتهيأ من جديد لتسليات المساء ودعارة الليل .

ولكن هل كانت هذه صفة اسماعيل حقا ؟ كلا بل كان فى الواقع كما وصفه المستر ادوين دى ليون القنصل الأمريكى الذى كان شديد الاتصال به فقد قال :

« إن الخديو رجل شديد الميل للعمل . ولما كان من ألزم لوازم الحكم الأوتقراطى أن تكون الرأس المسيطرة ملمة بكل شىء ومهيمنة على كل شىء حتى أتفه التفاصيل فان اسماعيل مضطر إلى الاستيقاظ فى ساعة مبكرة وقضاء النهار كله إلى ساعة متأخرة من الليل مزاولا العمل الذى يحبه ألا وهو الهيمنة على إدارة دولاب أعمال الدولة بأسرها . وقد بدأت هذه المشاغل تؤثر فى صحته كما تبين من مظهره الخارجى فى الشتاء الفارط . ومع أن الأفراد العاديين فى وسعهم التمتع بالراحة وبالأجازة فان أصحاب التيجان محرومون منها وبخاصة فى مثل هذه الظروف الحرجة التى تحيط بالخديو . »

ويلاحظ أن المستر دى ليون كتب هذا فى يولية سنة ١٨٧٧ أى فى نفس الوقت الذى كان لورد ملنر ولورد كرومر وغيرهما يحاولون فيه إظهار اسماعيل بمظهر الحاكم الخليع الذى يقضى ليله إلى جوانب الغيد الحسان ويقضى النهار فى الفراش . »

ولم يكن للمستر دى ليون وحده الذى قال عن اسماعيل ما قال بل إن المستر ماكوان أيضاً — وكانت صلته بالخديو وثيقة — كتب بدوره هذه الجملة الصغيرة الكبيرة إذ قال « إن الدولة هى الخديو » ثم راح يفصل ما أراده بعد أن ذكر أن المجالس والوزراء ليسوا إلا مجرد آلة للخديو فقال :

« كان اسماعيل محيطاً بما جل أو دق من الشؤون العامة . فمن المباحثة لعقد معاهدة أو لعقد قرض أو المصادقة على عقد إلى ابتياع الفحم أو الآلات . . لا بل كان ملماً حتى بما كان عادياً يسير من تلقاء نفسه ولا يمكن أن يتم شىء قبل أن تقع عليه عينه . . .

« وبالاختصار فان سموه ليس مليكا فقط بل هو الحاكم الفعلى وتهيمن يده القوية على سائر البلاد من الأسكندرية إلى وادى حلفا ثم ما وراء ذلك مما ترك لغوردون باشا أن ينوب عنه فى حكمه . »

فاسماعيل الذى كان فى نظر ملنر رجلا محباً للترف ولعاً بالمظاهر كان فى نظر المستر ماكوان على عكس ذلك على خط مستقيم . فلقد كان يعيش عيشة البساطة بالنسبة لمعيشة أمير =

والتعليم والقضاء كل هذه المرافق قد شملها بعنايته ونظمها تنظيما عصريا

=بلغ إيراده السنوى كما بلغ إيراد اسماعيل عند اعتلاء العرش ١٦٠٠٠٠ جنيه هذا عدا مخصصات السراى .

وإليك ما ذكره المستر ماكوان فى كتابه « مصر كما هى » قال :

« إن الوزارات المختلفة موزعة فى نواح تبعد نحو ميل عن قصر عابدين الذى يقطنه الخديو . . . وقصر عابدين هو قصر متواضع من الوجهة المعمارية وإن كان فسيح الأرجاء . ذلك أن جناحا منه قد خصص لمكاتب الحكومة ولغرف الاستقبال التى يقيم فيها سموه الولائم والحفلات من فترة لأخرى . وفى هذا القصر أيضاً يوجد الجناح الصغير الذى يضم الغرف التى يزاول فيها سموه الأعمال ويستقبل فيها ضيوفه على مقربة من سكرتيره الخاص الموجود فى الغرفة الملاصقة ومن اثنين فراشين واقفين على رأس الدرج . وغرفة اسماعيل لا يمكن أن يقال إنها تنطوى على الأبهة لا من حيث الأثاث ولا من حيث النقش فهناك سجادة من صنع إيران عليها ديوان مكسو بالدمقس وبضعة كراس بالكسوة نفسها هذا إلى نافذة عليها ستار من القماش نفسه ومكتب صغير مذهب يجلس وراءه الأمير الخ الخ . »

وليس يمكن اتهام المستر ماكوان بالتحيز أو بطلب الحظوة لدى اسماعيل عند كتابة هذه العبارة . لأنه كتبها فى الوقت الذى بدأ فيه نجم الخديو المظلوم فى الأفول . ونحسب أن اسماعيل وهو الذى كان إيراده الخاص كأمير يبلغ ١٦٠٠٠٠ جنيه سنويا ما كان ليتهمه أحد بالتبذير أو بالميل إلى الترف والمظاهر الكاذبة لو أنه غير من شكل قصر عابدين فعلا عند اعتلائه العرش ليصبح أكثر تناسباً مع مظاهر ذلك الأمير الثرى .

ولكن المستر ماكوان لا يكتنى بوصف ذلك القصر المتواضع بل راح يحدثنا فى ص ٩١ من كتابه عن برنامج اسماعيل اليومى . وإليك ما قاله :

« وهنا (أى فى حجرته المتواضعة) يتبوأ سموه مقعده فى الساعة الثامنة من صباح كل يوم فيستقبل قبل كل شىء أولاده وأحدهم رئيس المجلس الخاص والثانى وزير المالية والثالث وزير الحربية والرابع وزير الأشغال ثم يستقبل من عداهم من الوزراء او كبار الموظفين ممن تقتضى أعمالهم باستشارة مولاهم أو ممن جاءوا للمثول بين يديه بناء على موعد سابق . . حتى إذا ما فرغ من هؤلاء ظل إلى منتصف النهار فى استقبال القناصل العموميين أو من عداهم من الأجانب ممن يكونون قد حضروا بواسطة القناصل=

ووسع دائرتها . لا بل قد أدرك حاجة البلاد إلى قسط من النمو الديمقراطى.

=أو بدونهم مدفوعين بالرغبة فى رؤية ذلك الأمير العظيم إما أشباعاً لشهوة حب الاستطلاع فى نفس السائح وأما لتقديم شروط ملائمة لعقد صفقة تجارية . وعند الظهر — حيث ينطلق مدفع القلعة إيذاناً بحلوله — ينسحب سموه لتناول طعام الأفطار وفيما عدا القليل النادر حيث يذهب فى إحدى المركبات المتواضعة للنزهة عصراً مدة ساعتين فى شارع شبرا أو شارع العباسية — يستأنف سموه مقعده ويبدأ من جديد سلسلة المقابلات ويبحث فى أثناء ذلك فى مختلف الشؤون إلى أن تدق الساعة السابعة مساء فينقطع عن العمل مدة ساعة لتناول الطعام. فاذا كان عمل اليوم قد انتهى لجأ سموه إلى شرفة القصر لقضاء ساعتين أو ثلاث فى السمر فى هواء القاهرة العليل مع بعض الوزراء ممن تكون لهم الحظوة فى الدخول على سموه فى أى وقت ويلجأ بعد ذلك إلى مخدع نومه حوالى الساعة الحادية عشرة . أما إذا لم يكن قد أنجز أعمال اليوم فان سموه يستأنف العمل فى مكتبه بعد الطعام ويظل يواصله إلى منتصف الليل أو أحياناً إلى ما بعد ذلك . »

ثم استطرد الكاتب فقال :

« فى خلال هذه الأثنتى عشرة أو الأربعة عشرة ساعة المخصصة للعمل الجدى الذى يزاوله الخديو ما لا يقل عن ثلثمائة يوم فى السنة لا يمكن بغير إستشارة سموه أن يسمح بالبت فى أصغر التفاصيل وأقلها شأناً مما يرتفع قليلا عن مجرد الأعمال التى تتم من تلقاء نفسها . فالخديو هو فى الواقع كل شىء وهو يحيط علماً بكل شىء ويقوم بنفسه باعداد كل شىء . »

فهل الأمير الذى يقضى معظم وقته فى مراجعة شؤون الدولة صغيرها وكبيرها يمكن أن يقال أنه أمير شهوانى مبذر لا هم له إلا مجالسة الغانيات ؟ ! أليس الأصح أن هذا الرجل الذى اشتهر بحب الاقتصاد وهى ولى عهد الدولة ظلت تلازمه هذه الصفات عند اعتلائه العرش ؟

وليس يفوتنا أن نذكر بهذه المناسبة أن خصوم اسماعيل - ومنهم ملنر وكرومر - قد قدروا ما أنفقه اسماعيل على أعمال الأصلاح بنحو ١٠ فى المائة من مجموع الديون عدا طبعاً مبلغ الـ ١٦ مليون جنيه التى ذهبت فى أعمال قناة السويس ولكنهم تناسوا مبالغ طائلة أخرى لم تذكرها لجان التحقيق أنفقت فى وجه الخير دون أن تنتج غلة أو أنها أنتجت فعلا غلتها ولكن فى غير عهد اسماعيل . فمن النوع الأول ما أنفقه ذلك الخديو المظلوم مثلا فى قطع دابر النخاسة ومطاردتها فى أوكارها . وبديهى أن الحاكم الساهر على=

هذا بينما أن الأراضى الزراعية قد ازدادت مساحتها فى عهده كما أنه وطد

خير رعيته لا يكتفى برعاية مصالحها الماديه بل لابد أن يعنى أيضا بشؤونها الأدبية والأخلاقية . فاذا كان اسماعيل قد بذل مابذل فى محاربة ذلك الوباء الأخلاقى دون أن يسجل الخصوم تلك المبالغ لرصيده فان ذلك لن يضير الخديو شيئاً فلقد عمل ماعمل لخير البلاد وللأجيال المقبلة دون أن ينتظر جزاء ولا شكورا على أعماله .

أما النوع الثانى فهناك ما سردنا عليك طرفا منه من أعمال العمران والأصلاح كبناء الجسور وشق الترع وغيره . فلقد كلفت هذه الأصلاحات الخزانة ما كلفت مما عده الخصوم إسرافا وتبذيرا لا لشىء إلا لأنها لم تؤت أكلها فى أيام اسماعيل . وليس يخفى أن تلك الأعمال الأصلاحية كانت لها نتيجتها فى تحسين الزراعة وتصقيع الأراضى فيما بعد ولكن هل نسب الخصوم ذلك إلى اسماعيل كلا بل زعموه من نعم غيره !

وإليك نبذة من تقرير المستر بيردسلى القنصل الأمريكى العام بتاريخ ١٥ سبتمبر سنة ١٨٧٣ أى بعد جلوس اسماعيل على العرش بعشر سنوات . ولعل من الأوفق أن نذكر أن القنصل المذكور كتب تقريره دون أن يتوقع أن تراه الشمس يوماً ما . وقد كان الرجل صريحا لم يألف بعد تقاليد البروتوكول لأنه كان حديث عهد بوظيفته . وقد عين فى منصبه لأنه كان ممن ساهم فى تقديم المساعدة فى أثناء الانتخابات الأميريكية لرآسة الجمهورية.ولعل القارىء يشاطرنا الرأى بأن مايقوله مثل هذا القنصل هو أقرب شىء إلى الحقيقة البريئة الغير مشوبة بالأغراض والغايات . كيف لا وهو إنما يمثل دولة لم تكن لها فى مصر مطامع استعمارية أو سياسية ؟ فانظر ماذا كتب :

« لقد ارتقى اسماعيل العرش فى يوم ١٨ يناير سنة ١٨٦٣ وقد جاء إلى أداء واجباته بقدرة عجيبة على معرفة الناس وأحوال العالم ومقدرة إدارية باهرة ندر أن يوجد مثلها بين الأمراء الشرقيين . فمنذ ارتقائه العرش قد وجه عنايته بعزيمة لا تعرف الكلل لتحسين شؤون مصر الداخلية . »

فكيف بربك يمكن التوفيق بين هذا الرجل الذى لاينفك عن العمل ساعة واحدة وبين الصورة التى صوره بها حاسدوه وخصومه ؟ لقد زعموا زوراً وبهتاناً أنه كان من عشاق الغانيات يقضى لياليه بجوارهن . ومعلوم أن الذاكرة هى أول مايتأثر فى الجسم بالأفراط فى الشهوات . فان صح مازعموا فكيف بربك كانت لاسماعيل تلك الذاكرة المدهشة التى أشاد بها المستر موبرلى بل مراسل التيمس وعدو الخديو الألد ؟ أنظر ماذا قاله فى هذا الصدد :

دعائم استقلال البلاد عن تركيا . ولكن هذه الاصلاحات العظيمة ذهبت

= « كانت ذاكرة اسماعيل عجيبة حقاً ، وحدث مرة أنى اختلفت معه على نص من النصوص الواردة فى المفاوضات الأساسية الخاصة بقناة السويس فما هو إلا أن بادرنى بترديد ما لا يقل عن عشرين سطر قد وردت فى إحدى الوثائق الغير مهمة التى لا بد أن تكون قد وقعت عليها عيناه منذ عشرة أعوام على الأقل . فدونت أقواله ثم رجعت بعد زمن إلى الوثائق وكم كانت دهشتى عند ما رأيتها بنصها وفصها كما ذكرها اسماعيل »

اعتراف الأجانب بفضل اسماعيل

وقبل أن ننتقل بك إلى ناحية أخرى من نواحى اسماعيل المتعددة نرى أنفسنا مضطرين إلى الوقوف هنيهة أمام ذلك التقرير الفذ الذى وضعه المستر بيردسلى القنصل الأمريكى العام ، لنضع أمام عينيك ما يسعه المقام من عبارات هذا التقرير الذى قلنا إنه يمثل النزاهة والأخلاص لبعده عن الغرض والهوى . وقد أسعدنا الحظ بالاطلاع على صورة منه فى دار المحفوظات الملكية بقصر عابدين وقد ترجمه إلى الفرنسية ادوارد الياس أفندى (باشا فيما بعد) مترجم وزارة الداخلية وقتذاك .

فلقد نوه القنصل المذكور بفضل اسماعيل فى رفع مستوى التعليم وقال إن عدد التلاميذ بعد أن كان فى عهد محمد على يناهز ٣٠٠٠ بلغ ٦٠٠٠٠ فى العشر سنوات الأولى من حكم اسماعيل أى من سنة ١٨٦٣ إلى سنة ١٨٧٢ ثم قال إن هذا العدد بلغ فى العام التالى أى سنة ١٨٧٣ نحو ٨٩٨٩٣ تلميذ وهذا عدا من كانوا يدرسون دراسة عالية أو الذين كانوا فى سلك تلاميذ المدارس الأهلية .

ولم يشأ ذلك القنصل النزيه أن يترك هذه المسألة دون أن يؤكد لحكومته أهمية مغزاها فقال إن وجود هذا العدد من التلاميذ فى بلد لا يزيد عدد سكانه عن ٥٢٥٠٠٠٠ مع ما يقوم من المصاعب الجمة فى وجه التعليم ليجعل نسبة المتعلمين نحو ١٧٢ فى كل ١٠٠٠٠ نسمة وهى نسبة تحسدها عليها بعض البلدان الأوروبية ففى روسيا مثلا بلغت نسبة المتعلمين وقتذاك ١٥٠ فى كل ١٠٠٠٠ نسمة .

وذكر القنصل المذكور أول مدرسة للبنات افتتحها اسماعيل فقال إنها لم تكن الأولى من نوعها فى مصر وحدها بل فى الشرق أجمع وأشار مع الأعجاب إلى اعتزام الخديو تحطيم الأغلال التى ترسف فيها المرأة المصرية مما كان سبباً فى شل حركة نصف شعبه . وقد صارت مدرسة البنات هذه والمدارس الأخرى التى كانت فى دور الانشاء تحت =

لسوء الحظ هباء بسبب الحماقة المالية الغربية .

=رعاية اسماعيل مباشرة وهذا دليل على اهتمامه بهذا الموضوع الحيوى واعتزامه إكماله مهما كلفه من جهود ونفقات .

ومقارنة بسيطة بين اعتمادات التعليم فى عهد سعيد ومقدارها فى عهد اسماعيل تقنعك مع المستر بيردسلى بفضل ذلك الخديو العظيم .

ففى سنة ١٨٦٢ أى فى أواخر عهد سعيد بلغت الاعتمادات المذكورة ٧٤٠ كيسا أى نحو ١٨٧٥٠ دولار . أما الآن (أى فى سنة ١٨٧٢ وهى السنة التى كتب فيها المستر بيردسلى تقريره الذى نقتطف منه هذه المعلومات) فقد بلغت اعتمادات التعليم ١٦٠٠٠ كيس أى ٤١٠٠٠٠ دولار ولايدخل فى هذا ماكان ينفقه الخديو وأولاده من جيبهم الخاص فى مساعدة المدارس المستقلة أو المدارس الأهلية .

ولم يفت القنصل الأمريكى أن يلاحظ لهفة المصريين وشغفهم بتحصيل العلم ولا ما كانوا يظهرونه من الاستعداد العظيم لورود مناهله العذبة . وختم المستر بيردسلى ملاحظاته فى هذا الباب بقوله إن مصر من حيث حركة التعليم فى خلال السنوات العشر الماضية (أى بين ١٨٦٣ — ١٨٧٣) تستطيع أن تقارن نفسها بكثير من دول أوربا الغربية . وهى شهادة لها خطرها وقدرها .

ثم راح جنابه يذكر أعمال اسماعيل العمرانية الأخرى كالسكك الحديدية وغيرها فقال إن الخطوط الحديدية فى مصر بلغ طولها ٢٤٥ ميل فى سنة ١٨٦٣ فلم تنقض السنوات العشر الأولى من حكم اسماعيل حتى زاد هذا العدد إلى ٧٣٦ ميل عدا خطوط أخرى طولها ٢٠٨ ميلا ماتزال فى دور الأنشاء . أما فى السودان فان الخط الحديدى بين وادى حلفا وشندى وطوله ٨٨٩ كيلو متر فقد كلف الخزانة المصرية فى عهد اسماعيل ما لايقل عن أربعة ملايين من الجنيهات . ولعل السادة خصوم اسماعيل تناسوا هذا المبلغ أثناء انهماكهم فى تقدير ماصرفه اسماعيل فى الأعمال الأصلاحية .

ثم الأسلاك التلغرافية وقد بلغت ٥٥٨٢ كيلومتر فى سنة ١٨٧٣ بعد أن كانت ٥٨٢ كيلو متر فقط فى سنة ١٨٦٣ . وقد أصبحت معظم مدن القطر المصرى — على ماذكره القنصل الأمريكى — مرتبطة بعضها ببعض بالتلغراف كما انه يوجد مالا يقل عن ٢٠٠ كيلو متر من الخطوط التلغرافية فى أنحاء السودان .

وقد عرض القنصل الأمريكى إلى قناة السويس فذكر كثيرا من التفاصيل عنها =

ومثل هذا التناقض الغريب يلاحظ فى شخصية اسماعيل أيضا . فبينما

= وحفظ مصر فى أسهمها ونوه بفضل اسماعيل فى إلغاء السخرة وجعل العمل فى القناة حرا يتقاضى عنه العامل الأجر المعقول .

وخصص المستر بيردسلى جزءا كبيرا من تقريره لمحصول السكر باعتباره أهم محصول مصرى بعد القطن وأسهب فيما أبداه الخديو من الجهود لتحسين هذا المحصول . وقد توصل اسماعيل إلى تحقيق غايته فى هذا السبيل بدليل أن الصادر منه للخارج بلغ نحو ٤٥٦٨٥٨ قنطار سنة ١٨٧٢ بعد أن كان ١٠٩٠ قنطار فقط فى سنة ١٨٦٦ وبحسبك أن تعلم أن الخديو أنشأ من جيبه الخاص ١٧ مصنعا (فاوريقة) لتكرير السكر عدا خمسة أخرى كانت ماتزال فى دور الأنشاء لتيقن أن هذا الرجل العظيم كأنما هداه بعد نظره إلى أن يدرك وجه الخطر على استقلال مصر سياسيا واقتصادياً من اعتمادها على محصول واحد وهو القطن .

التلاعب المالى فى عهد اسماعيل

كثيراً ما حاول بعض الناس وفى مقدمتهم الأجانب أن يعزو ما حدث فى مصر من الارتباك إلى إدارة اسماعيل باشا المالية وفاتهم ماسبق هذا الارتباك من التلاعب المالى المشين . وهاك المستر ما كوان يسجل فى كتابه « مصر كما هى » الصادر فى سنة ١٨٧٧ ص ١٧٤ قوله : « مهما كانت متاعب مصر المالية المؤقتة فانها لم تؤثر مطلقا فى هبوط تجارتها لأن موارد البلاد لم تزد فى زمن من الأزمان الحديثة كزيادتها فى عهد اسماعيل باشا كما أن حركتها التجارية لم تكن أنشط مما هى عليه الآن وحسبك أن الفائدة على ثمن أسهم الموحد تبلغ ١٤ ٪ »

وقد اتهم بعضهم اسماعيل باشا بالتعجل فى القيام بهذه الأصلاحات فرد عليهم المستر (الذى أصبح فيما بعد السير جون فاولر مهندس الخديو الاستشارى والعليم بالشؤون المصرية) فى خطاب أرسله إلى التيمس فى يوم ٢٨ اكتوبر سنة ١٨٧٥ بقوله : « أنفقت مصر فى العشرة الأعوام الماضية مبالغ طائلة على مشروعات عظيمة كانت من أسباب ترقيتها السريعة ووضعت الأساس لسعادتها فى المستقبل . . وقد يقال إن هذه المشروعات تمت فى وقت أقصر مما كانت تسمح به حالة البلاد المالية وهو ما يسلم به من بعض الوجوه ولكن ليس فى استطاعة أحد أن ينكر أنها كانت ضرورية للتقدم الوطنى . » =



السير صمويل بيكر باشا مدير خط الاستواء فى عهد اسماعيل باشا
وحوله أركان حربه وهم القائمقام عبد القادر حلمى بك
فالمهندس هيجنبوتام فالملازم بيكر

= ولم يشأ السير صمويل بيكر الذى عهد إليه اسماعيل باشا بالضرب على النخاسة أن تمر به هذه المجادلات دون أن يرد عليها فى كتابه « إصلاح مصر » فقال فى ص ٥٣٩ مانصه : « لقد أحدث الخديو فيما بين سنتى ١٨٦٤ و ١٨٧٨ تغييراً مدهشاً لاعيب فيه إلا أنه تم بأسرع مما كانت تتحمله الخزانة ولكنه كان على كل حال تغييراً فى مستقبل التقدم وقد بذر بواسطته بذور العظمة المقبلة . »

ولكن مهما قيل عن القروض التى عقدها اسماعيل باشا فلا ينبغى تناسى هذه الحقيقة المرة التى سلم بها الجميع حتى التقرير الذى وضعته لجنة التحقيق فى مالية مصر المسماة « بلجنة كيف » هذه الحقيقة هى أن أصحاب القروض أنفسهم وسماسرتهم كثيراً ما اختلسوا الملايين الفادحة من اسماعيل باشا. فمع أن مصر حتى آخر سنة ١٨٧٥ كانت إسمياً مدينة بمبلغ ٦٨ مليون جنيه عدا الديون السائرة إلا أن مادخل خزائنها فعلا لم يتجاوز =

لم يكن مظهره الخارجى مما يباهى به صاحبه نظرا لقصر قامته وطربوشه

= ال ٤٤ مليون جنيه أما الفرق وقدره ٢٤ مليون جنيه فقد وجد طريقه إلى جيوب أصحاب القروض وأعوانهم إما بصفة سمسرة أو كمكافأة أو غير ذلك من النفقات الكمالية .

وكأنما تآمرت المالية العليا فى لندن وباريس رسمياً على سلب الخديو . إذ ما لبثنا أن رأينا المصارف الرائقة ذوات الأسماء الطنانة كبنك الأنجلو إجبسيان تتسابق فى جنح الظلام لا لسبب سوى إغراء الخديو بعقد قروض جديدة بفوائد فاحشة .

وقد أشار المستر روذستين فى كتابه « خراب مصر » إلى تلك الألاعيب فقال :

« لعل أصدق مثل لذلك التلاعب المروع القرض الأخير وقدره ٢٨ مليون جنيه الذى عقد فى سنة ١٨٧٣ لتسديد الديون السائرة (على ما جاء فى تقرير لجنة كيف ص٨) فقد جعل مقداره الأسمى ٣٢ مليون جنيه بفائدة ٧ ٪ وتخصيص ١ ٪ للاستهلاك . ولكن البنك لم يسلم الخديو سوى ٧و٢٠ مليون جنيه واحتفظ بالباقى وهو ما يقرب من ١٢ مليون جنيه كضمان من الطوارئ !! وليت البنك اكتفى بذلك بل إنه بعد التهديد والوعيد أرغم الخديو على قبول ما قيمته ٩ مليون جنيه من سندات دينه السائر بسعر ٩٣ للسهم مع أن ثمن السهم وقتئذ لم يزد على ٦٥ وهو ما دفعه البنك فعلا عند شراء تلك الأسهم . فلا غرو إذا قام بين الأنجليز من يغار على سمعة بلاده فيكتب فى بدء سنة ١٨٧٦ (كما ورد فى مجلة فريزر عدد يناير سنة ١٨٧٦ ص ١٢ بعنوان تركيا ومصر والمسألة الشرقية) ما نصه :

« إن هذا الدور الذى لعبته المالية الحديثة لهو دور يخلق بالأنجليزى الصميم أن يحمر وجهه خجلا عند ذكره وأن يخفى رأسه فراراً من العار عند ما يعلم أن مواطنيه كان لهم ضلع فى هذه الأعمال الشائنة التى جرت على ملايين عديدة من البشر بؤساً وشقاء لا نظير لهما . »

وليس شك فى أن هذا التلاعب وغيره مما نضرب عليه الأمثال هنا هو السبب الرئيسى فى ارتباك الحالة المالية فى عهد اسماعيل . وهاك اعتراف تقرير لجنة كيف ص ٦ فقد جاء فيه :

« إن هذه الاحصاءات – عن الواردات والصادرات والتعليم وغير ذلك – تدل على أن مصر فى عهد خديوها الحالى اسماعيل خطت فى سبيل التقدم خطوات واسعة فى عدة جهات . ولكن موقفها المالى الحاضر برغم هذا التقدم الباهر . . . ينعم بالخطر . فالمصروفات وإن كانت باهظة إلا أنها لا تؤدى وحدها إلى الأزمة الحاضرة التى يمكن أن يقال إنها =

الواسع وسترته «الاستامبولية» الطويلة الأكمام وسراويله المفرطحة

=لم تنشأ إلا عن شروط القروض الفادحة التى كان معظمها خارجا عن طوق الخديو لقضاء طلبات مستعجلة» كذا !

والمستر كيف لم يكن فى وقت ما صديقاً لاسماعيل . فهو يصرح بأن «شروط القروض الفادحة» هى منشأ الأزمة الحاضرة أو الارتباك المالى الذى كان سائداً وقتئذ . فمن الظلم البين إذن أن يتهم الماليون وأعوانهم اسماعيل بالتبديد والتبذير . لأنهم يعلمون كما لا يعلم غيرهم أن تلك التهمة ليست إلا مجرد إفك وعدوان . وفوق ذلك هم يعلمون أنهم هم الذين وضعوا مصر على حافة الخراب وأنهم كما وصفهم المستر ولسون فى مقاله بعنوان «موقف مصر المالى» المنشور فى «مجلة فريزر» عدد يونيه سنة ١٨٧٦ ص ٨٠٦ إذ قال عنهم «إنهم الأفاقيون المحتالون الذين جعلوا أصابعهم فى آذانهم حتى لايصل إليها أنين المصريين البائسين» .

وإذا غضضنا الطرف مؤقتا عن جماعة الماليين وسماسرتهم فليس يفوتنا أن نذكر المقاولين الذين كانوا يبيعونه سلعهم بأثمان باهظة أو تعهدوا بتنفيذ ما ابتكره من المشروعات المفيدة فى مقابل أثمان من الفداحة بحيث لا نغالى إذا قلنا إنها كانت تسوقهم إلى المحاكم لو أن هذه المشروعات نفذت فى أوطانهم .

ولكى لا نتركك فى ريب مما نقول نذكر لك أن بناء ميناء الاسكندرية زادت نفقاته بنحو ٨٠ فى ./. عن نفقاته الحقيقية . كما وأن السكك الحديدية بلغت نفقات إنشائها أربعة أضعاف نفقاتها الأصلية . وهذا القول ينطبق على أعمال اسماعيل الاصلاحية الأخرى كمصانع تكرير السكر ووابورات المياه وغيرها وغيرها .

ومن سخرية الأقدار حقاً أن حيل أولئك المقاولين وما لجأ إليه الناقون من الألاعيب كثيراً ما كانت تتخذ دليلا على «إسراف» اسماعيل حتى أن المستر ادوارد ديسى فى مقاله المنشور فى مجلة «القرن التاسع عشر» عدد ديسمبر سنة ١٨٧٧ تحت عنوان «الخديو ومصر» حمل على اسماعيل حملة شعواء لأنه وافق على مبلغ ١٣ مليون جنيه باعتباره ثمن السكك الحديدية فى حين أن نفقاتها لم تزد فى الواقع -عما قدرها جنابه- بمبلغ ثلاثة ملايين جنيه . أو بعبارة أخرى إن المستر ديسى بينما يتهم اسماعيل باشا بالاسراف يقرر ضمنا أن المقاول الذى قام بمد السكك الحديدية كان بعيداً عن الأمانة والنزاهة .

هذا من جهة ومن جهة أخرى نرى أننا مطالبون عدلا بأن نذكر أن السكك=

وحذائه « اللستك » ، فإن عدم الاكثرات بالبزة لم يكن من شأنه

= الحديدية كانت وقتئذ فى بداية انشائها لا فى مصر وحدها بل وفى بلاد أخرى وأخصها انجلترا . وقد كان من الصعوبة بمكان بل كان خارجا عن مقدرة أى مهندس أن يضع « مقايسة » — ولو تقريبية — عما يتكلفه انشاء السكة الحديدية من النفقات . وإلى هذه الحقيقة أشار المستر ماكوان فى كتابه « مصر كما هى » ص ٣٨٤ فذكر عدة أمثال عن فوضى المقايسات لانشاء السكك الحديدية فى انجلترا نفسها .

بل إن الحكم الذى أصدره نابليون الثالث فى النزاع القائم بين شركة القناة وبين اسماعيل باشا (وقدره ٣٫٢٦٠٫٠٠٠ جنيه دفعتها مصر للشركة) يمكن أن يضمه المنصف إلى أعمال أولئك المقاولين الأوربيين . وهل تريد مثلا صارخاً على الأجحاف بالنسبة لمصر أنكى وأشد من حملها على دفع هذا المبلغ الهائل مع إن مشروع حفر القناة كان من أشأم المشروعات على مصر وأكثرها متاعب لا من الناحية الاقتصادية والمالية فحسب بل والسياسية أيضاً . فقد حفرت فى ركن سحيق من أركان البلاد لا يتصل بالمناطق الزراعية إلا بواسطة لسان صغير من الأرض . يضاف إلى ذلك أن حفر القناة كان سبباً فى تحويل تجارة مصر « الترانسيت » عن مجراها القديم وهو طريق الاسكندرية إلى طريق السويس . وأشد وأنكى من هذا كله أن حفرها أدى فى النهاية إلى الاحتلال البريطانى وتثبيت قدمه محافظة على تلك القناة باعتبارها واقعة فى طريق الهند .

لقد ذكرنا لك هذه الأمثلة الدالة على التلاعب لا على سبيل الحصر كلا بل لتعرف فساد زعم الزاعمين عند مايتهمون اسماعيل بالأسراف والتبديد ولتدرك أن مصر إذا كانت قد أصبحت مدينة بمبلغ ٩١ مليون جنيه فذلك لأن جمهرة المرابين والمقاولين قد تآمروا جميعاً على خديوها المظلوم بقصد انتهابه واستغلال بلاده .

ومن أشد دواعى الأسف حقاً أن خصوم اسماعيل الذين طالما رموه بالتبذير والأسراف لأن ديون مصر بلغت فى عهده على قول لورد كرومر ٩١ مليون ، تناسوا ما أوردته لجنة كيف من الأرقام التى تكفى لقطع جهيزة قول كل خطيب . وقد نقلها المستر كرابيتس فى كتابه تحت باب المصروفات فى عهد اسماعيل أى فى مدة ١٣ سنة كما يلى :

نفقات لادارة شؤون الحكومة	٤٨٫٨٦٨٫٤٩١ جنيه
مجموع الجزية المدفوعة للباب العالى	٧٫٥٩٢٫٨٧٢ جنيه
نفقات الأعمال النافعة الخ	٣٠٫٢٤٠٫٠٥٨ جنيه
نفقات غير عادية بعضها فى أعمال مشكوك فى نفعها والبعض الآخر فى أعمال أنجزت تحت ضغط أشخاص لهم مصلحة	١٠٫٥٣٩٫٥٤٥ جنيه
المجموع	٩٧٫٢٤٠٫٩٦٦ جنيه

= وهذا هو الرقم الذى دون فعلا فى التقرير الذى رأى لورد كرومر أن يتحاشى مناقشته فى الوقت الذى اتهم فيه اسماعيل بتبديد ٩١ مليون جنيه ماخلا ١٦ مليون جنيه قال إنها أنفقت فى أعمال القناة .

وقد عرض المستر كرابيتس إلى أرقام تقرير لجنة كيف وحللها تحليلا عادلا نلخصه فيما يلى :

فقد بدأ بالرقم الأول وهو مبلغ ٤٩١ ر٨٦٨ ر٤٨ جنيه وقال إنه أنفق فى أعمال الحكومة العادية وما يتبعها مدة حكم اسماعيل باشا أى فى خلال ١٣ سنة أو بعبارة أخرى إن كل سنة من سنوات حكم اسماعيل كانت تتقاضى الخزانة ١١٤ر٧٥٩ر٣ جنيه بما فى ذلك نفقات لادارة ونفقات القصر ومرتبات أصحاب السمو الأمراء ومرتبات موظفى الحكومة ومعاشات المتقاعدين واعتمادات الوزارات المختلفة الخ وليس يسع منصفا أن يقول أن مبلغ ١١٤ ر٧٥٩ ر٣ جنيه سنويا وهو ميزانية المصروفات كان مبلغا باهظا .

أما الرقم الثانى الخاص بالجزية للباب العالى فليس يمكن الخوض فيه لأنه محدد بمعاهدة ولا حيلة فيه لاسماعيل باشا .

أما الرقمان الأخيران الخاصان بالأعمال النافعة والأعمال المشكوك فيها فكأن تقرير اللجنة يقول إن اسماعيل أنفق فيهما زهاء ٤٠ مليون جنيه . وقد سبق أن ذكرنا لك فى ص ٢٤٥ من هذا الكتاب المقال البارع الذى نشره المستر موهول فى مجلة كونتمبروري ريفيو فى شهر اكتوبر سنة ١٨٨٢ وأثبتنا الجملة التى مهد بها جنابه لمقاله وهى :

« ... ومع أن حملة القراطيس طالما غرسوا فى أذهان الناس أن اسماعيل باشا بدد ما حصل عليه من أوربا من القروض فليس ريب فى أن ما أتمه من المشروعات العامة استغرق أكثر من جميع الأموال التى حصل عليها من القروض الخ ثم أتى المستر موهول على جدول شامل خرج منه بأن أعمال الاصلاح التى قدرتها لجنة كيف بأربعين مليون جنيه - كلفت اسماعيل باشا أكثر من ٤٦ مليون جنيه . وهذا الجدول منقول عن تقرير « الميزانية المصرية » الذى وضعته الحكومة المصرية .

ونقطة أخرى على جانب عظيم من الأهمية وهى أن لجنة كيف لم تذكر شيئا عن مبلغ ٠٠٠ ر٦٠٠ ر١٢ جنيه لانشاء الترع ومبلغ ٠٠٠ ر١٥٠ ر٢ جنيه للكبارى التى أنشأها اسماعيل باشا وذكره المستر موهول فى الجدول السالف الذكر . كما أنها أغفلت بتاتا ما أنفقه اسماعيل باشا فى محاربة النخاسة وفى حرب الحبشة التى أرغم على خوضها =

من الذكاء الخارق . وبقدر ما كان موفقا فى غزو قلوب ربات الجمال فى

= إرغاما وفى البعثات العلمية التى أرسلها إلى أواسط إفريقيا لا كتشاف منابع النيل الخ

كذلك أغفلت اللجنة الاشارة إلى المصارف التى أنشأها اسماعيل فى القرى على نمط البنك العقارى لحماية الفلاحين من شرور المرابين وهى المصارف التى كلفته ٩٠٠ ألف جنيه .

وإذا كان لورد ملنر قد أخذ على اسماعيل باشا أنه « بذر كذلك عدة ملايين أخرى فى مشروع هائل للاصلاح الزراعى وقد بدىء بالمشروع دون الاحاطة بأساسه وأنفق فى سبيله ثمن فادح » نقول إذا كان لورد ملنر أخذ ذلك على اسماعيل - كما أوردناه فى صفحتى ٢٦٤ و٢٦٥ من هذا الكتاب فأنه قصد بلا شك مبلغ ٦٫١٠٠٫٠٠٠ جنيه الذى قال المستر مولهول فى جدوله السالف الذكر إن اسماعيل باشا أنفقه فى إنشاء مصانع تكرير السكر .

ومن العدل أن نذكر أن اسماعيل باشا كان مسوقا لانشاء هذه المصانع بدافع الحرص على إنقاذ بلاده من الأزمة المالية الخطيرة التى كانت تهددها وقتذاك . فأنه ارتقى الأريكة سنة ١٨٦٣ أى فى إبان الحرب الداخلية الأمريكية . وقد ظلت تلك الحرب مستعرة من سنة ١٨٦١ إلى سنة ١٨٦٥ . فكان بديهيا والقطن الأمريكى مخزون فى بلاده أن يتهافت العالم على القطن المصرى الذى ارتفعت أثمانه حتى فى عهد سعيد باشا . وقد أخذ الفلاحون فى مصر يتهافتون على توسيع مناطق زراعة القطن طمعا فى الربح الجسيم .

فلما وضعت الحرب أوزارها وظهر فى موسم سنة ١٨٦٦ القطن الأمريكى الذى كان مكدسا فى الموانى الأمريكية أربع سنوات كاملة بدأت الأسعار تتدهور فى سوق القطن بغير انتظام . وقد أحدث هذا رد فعل سىء فى مصر وشرع اسماعيل يتلفت حوله ليجد مخلصا من تلك الأزمة التى أخذت تهدد مصر . ولما كان يعرف أن القناة ستفتح للملاحة فى سنة ١٨٧٠ وأنها ستكون مصدر خير كبير على مصر رأى بثاقب بصره - رحمه الله - أنه لو ساعد على الاكثار من زراعة القصب بضعة ملايين من الجنيهات نعوض الفلاحين عما يخسرونه فى زراعة القطن بما يربحونه من بيع محصول السكر ولاستطاع أن ينشىء فى مصر صناعة جديدة تغذى الشرقين الأوسط والأدنى مع الزمن بحاجتهما من السكر المكرر .

ومن ثم رأى أن ينفق مبلغ ٦٫١٠٠٫٠٠٠ جنيه لانشاء مصانع تكرير السكر الآنفة الذكر فأنت ترى أن غايته كانت اقتصادية بحتة وتدل على بعد نظر وتفكير سليم =

أوربا فانه كان معبودا لدى فلاحيه المصريين من أهل الفطرة .

= هذا عدا ما تتضمنه من الفكرة السياسية العميقة وهى عدم تعريض مستقبل البلاد الاقتصادى للخطر باعتمادها على محصول واحد وهو القطن .

وكأنما الأقدار لم تكتف بالأزمة التى أصابت مصر من جراء تدهور أسعار القطن بل أصيبت مصر فى سنة ١٨٦٣ بطاعون بقرى هائل مصحوبا بارتفاع مستوى النيل مما جعل اللايدى دوف غوردون تقدر الخسارة فى المواشى وحدها بما لا يقل عن ١٢ مليون جنيه !!

ولما كان اسماعيل يلقب بحق « بأمير الفلاحين » فقد اقتضت مراحمه مساعدتهم فى محنتهم . وهكذا نرى ميزانية سنة ١٨٧٣ – ١٨٧٤ تذكر مبلغ ٣ر٨٣٧ر٥٦٢ جنيه دفع لأصحاب المواشى التى فتك بها الطاعون فى السنوات الأخيرة .

أما الفلاحون الذين أصابتهم أزمة القطن فقد ساعدهم اسماعيل باشا بمبلغ ١ر٢٧٤ر٢٢١ جنيه تعهد بدفعه عنهم للدائنين الأوربيين الذين كانوا أقرضوه للفلاحين ولم يستطع هؤلاء رده بسبب هبوط أسعار القطن . وقد احتسب هذا المبلغ كدين سائر على اسماعيل باشا .

وعدا ذلك أنفق اسماعيل ما أنفقه فى ابتياع بعض السفن وإصلاح البعض الآخر وفى ابتياع بعض الأراضى فى الاسكندرية وفى القاهرة لعمل بعض منشآت صحية يراد بها تجميل هاتين العاصمتين وغيره وغيره مما يستحسن أن نحصره هنا نقلا عن كتاب المستر كرايتس إذ قال تحت عنوان نفقات اسماعيل التى لم تذكرها لجنة كيف ما يأتى :

نفقات إنشاء مصانع تكرير السكر . .	٦ر١٠٠ر٠٠٠ جنيه
« مكافحة طاعون المواشى . . .	٣ر٨٣٧ر٥٦٢ «
تعويض دفع لتجار القطن	١ر٢٧٤ر٢٢١ «
أثمان أراضى ابتاعها لتجميل القاهرة والاسكندرية	١ر٣٩٠ر١٩٥ «
توظيف أموال فى ابتياع سفن . . .	١ر٣٥٠ر١٧١ «
نفقات إنشاء ملجأ للأرامل والأيتام . .	٥٥٣ر٣٣٤ «
ديون سعيد السائرة وقد احتسبت على اسماعيل	٢ر٧٥٤ر٣٥٢ «
المجموع	١٧ر٢٥٩ر٨٣٥

ألا إن هذه الأرقام إن دلت على شىء فانها تدل على مبلغ ما كان يكنه ذلك المصلح العظيم من الحب الأكيد لبلاده ورغبته فى النهوض بها إلى مستوى الأمم الراقية .

= ونكتفى بهذا القدر وننتقل بك الآن إلى فاتحة الجهود العتيدة التى بدأ بها اسماعيل حكمه ونعنى بها الجهود الخاصة باصلاح شروط امتياز قناة السويس .

اسماعيل باشا ونفوره من السخرة

قد ذكرنا لك أن اسماعيل باشا كان ذا ثروة ضخمة أيام أن كان ولى عهد الدولة وأنه كان شديد الاقتصاد والحرص بحيث لا ينفق القرش إلا فى محله وكان يعنى كل العناية بتحسين نتاج أطيانه حتى لقبوه بأمير الفلاحين . ونقول الآن عرضاً أن رجلا ينال هذا اللقب لا يناله إلا بشدة عطفه على فلاحيه وكل من يعملون فى أراضيه . فلاغرو إذا كان قدعنى وهوبعد أميراً برفع مستوى الفلاحين عامة والترفيه عنهم ولا غرو أيضاً بعد أن رأى ماهم فيه من البؤس الموروث منذ عشرات الأجيال أن يعمد بعد اعتلائه العرش إلى رفع نير الذل عنهم وإلغاء ذلك النظام الممقوت ألا وهو نظام السخرة .

وقد تلفت اسماعيل يمنة ويسرة لتحقيق أمانيه فى هذا السبيل فكان أول ما لفت نظره مافى شروط امتياز قناة السويس من ضروب الأجحاف والأرهاق لا بالنسبة للخزانة المصرية فحسب بل وما تضمنته من فرض « السخرة » على الفلاحين المصريين أيضاً . ولسوف نسرد لك فى سياق الكتاب مع شىء من التفصيل مساعى اسماعيل للقضاء على السخرة فى مختلف أنحاء مصر . أما الآن فنجتزىء بسعيه بعد اعتلاء الأريكة لتحسين شروط امتياز القناة من حيث السخرة ومن حيث مساسها واجحافها بخزانة الدولة .

خطته إزاء قناة السويس

ولقد مر بك ماقاله المستر يانج فى ص ٢٢٦ من هذا الكتاب حيث قال : « لما تبوأ اسماعيل باشا الأريكة أعيد النظر فى شروط الامتياز ووضع المشروع بحذافيره على بساط البحث من جديد ذلك لأن وفاة سعيد عجلت بحل الشركة الشخصية التى كانت قائمة بينه وبين دلسبس مما شجع خصوم المشروع على مضاعفة جهودهم لعرقلته . وبهذه المناسبة صرح اسماعيل باشا مرة فقال : « لايوجد من هو أشد منى رغبة فى إنجاز المشروع ولكنى أريد أن تكون القناة تابعة لمصر لا أن تكون تابعة للقناة . » وتفصيلا لما أجمله المستر يانج نقول :

حدثنا المستر كرابيتس فى ص ٤٣ من كتابه أن قنصل فرنسا العام فى القاهرة أرسل إلى حكومته تقريرا سريا عن أول تصريح عام ألقاه اسماعيل باشا بعد اعتلائه =

. إلى هاوية الخراب أن يحدد ماذا كان نصيب السياسة التى وضعها نصب

= الأريكة على مسمع من قناصل الدول الأجنبية وقد وردت فى تقريره هذه العبارة :
« لقد أكثر اسماعيل باشا من الضرب على نغمة السخرة إلى حد أنه بين بصفة إجمالية الفوارق بين ما يستعمل منها للخدمات العامة وبين ما يستعمل فى خدمة الحكومة . أو بعبارة أخرى كان تلميح الباشا لأعمال قناة السويس شديدا وواضحا حتى أن عيون الحاضرين التفتت جميعها نحوى.»

واستطرد المستر كرابيتس فقال مامعناه : إن قنصل فرنسا العام وهو ذلك السياسى المدرب الذى بعث به نابليون إلى مصر ليساعد المسيو فرديناند دلسبس على تحويل مصر إلى مستعمرة فرنسية قد رأى من أول تصريح عام ألقاه اسماعيل أنه رجل كفاح يحتقر أضعف نقط المقاومة . أو بعبارة أخرى إن ممثل نابليون قرأ بين أسطر أول خطاب افتتح به اسماعيل عهده أنه ليس ممن يسعى وراء عيشة الراحة والكسل كلا بل أنه معتزم النزول إلى حومة الكفاح لتحسين حالة شعبه . »

ويحق لنا أن نستنتج أمرين مهمين من هذا التصريح أولا اعتزام اسماعيل بذل كل ما فى استطاعته بذله لتحسين حالة شعبه حتى ولو أدى به ذلك إلى اغضاب بعض الدول الأجنبية وبخاصة فرنسا ، وثانيا أن عمل اسماعيل هذا ينفى بتاتا بل ويقضى على الخرافة التى ألصقها به حاسدوه وأعداؤه من أنه كان رجلا خليعا يميل إلى قضاء الوقت إلى جانب الغيد الحسان ويؤكد ماسردناه عليك هنا من أقوال المستر ما كوان والمستر موبرلى بل وغيرهما عن ميل اسماعيل إلى الجد والعمل ونفوره من حياة الراحة والكسل. وناهيك بما ينطوى عليه من الخطر إقدام أمير شرقى لا يستند إلى قوة مادية كاسماعيل على مغاضبة فرنسا وهى وقتئذ صاحبة الكلمة النافذة فى شؤون العالم . فلو أنه كان كما زعموا لكانت له ندحة عن مغاضبة أقوى دول الأرض بأسا بل لقعدت به حياته الخاملة التى افتروها عليه عن التعلق بمثل هذه الأمانى الكاذبة ولآثر حياة اللهو والمرح والخمول والكسل عن سلوك هذا المسلك الوعر الذى يجعله يقف وجها لوجه أمام دولة عظيمة البأس كفرنسا

موقف بريطانيا واسماعيل فى المشروع

ونظراً لأن انجلترا انتهزت فرصة وفاة سعيد باشا لاستئناف معارضتها لمشروع حفر القناة فان بعض الكتاب زعم أن اسماعيل باشا كان بالتالى مدفوعا فى معارضته بأيد انجليزية . وهو زعم باطل كذبه المستر كرابيتس فى كتابه إذ ذكر أن السفير =

عينيه من هذا الأسراف وهى السياسة التى رمى من ورائها إلى أن يبتاع

= البريطانى فى الاستانة بدأ يلح حقا على الباب العالى فى وجوب رفض المشروع ولكن معارضة اسماعيل كانت تختلف فى جوهرها عن معارضة انجلترا .

لأن السفير البريطانى المذكور « السير هنرى بلوار » رأى أن فى حفر القناة خطرا من جانب فرنسا على سيادة انجلترا البحرية ولذا راح يستغل عدم صدور الفرمان الشاهانى باقرار الامتياز من الناحية القانونية لمحاربة المشروع .

أما اسماعيل فكان على عكس ذلك . فانه مع استصوابه للمشروع أراد استغلال عدم صدور الفرمان لتحسين شروط الامتياز وتعديلها أولا تعديلا جوهريا مطابقا للوجهتين الأنسانية والمالية .

وليس أدل على ذلك مما رواه المستر كرابيتس إذ قال إن اسماعيل صرح للقنصل الجنرال الفرنسى فى نهاية شهر يناير سنة ١٨٦٣ بما يأتى :

« إنى أعد نفسى أشد ميلا لحفر القناة من المسيو دلسبس. ولكن لى رأيى الشخصى فى المشروع. فاذا كنت على يقين من أنه لا يوجد ما يفوق المشروع من حيث العظمة ولا من حيث الفوائد المنتظر أن يدرها على مصر فليس يفوتنى فى الوقت نفسه أن أذكر أن الأسس التى يقوم المشروع عليها غير ثابتة وينقصها التحديد والأيضاح . وهذا ماسأتولاه بنفسى . وإذ ذاك ابز سلنى وأمضى فى تنفيذ المشروع إلى نهايته . »

ومن هنا ترى أن انجلترا واسماعيل اتفقا على محاربة السخرة ولكن اتفاقهما كان إلى حد معين ولباعثين مختلفين. فالأولى عارضت فى السخرة لتتوصل بذلك إلى وقف حفر القناة بينما كانت معارضة اسماعيل لها لأسباب إنسانية واقتصادية .

السخرة وقناة السويس

ولكى لا تفوتك مهارة اسماعيل باشا فى محاولته استغلال معارضة انجلترا للسخرة ليصل إلى الغاية الرئيسية التى جعلها نصب عينيه ألا وهى تعديل شروط الامتياز نلخص لك ما ذكره المستر كرابيتس فى الفصل الرابع من كتابه وهو كما يأتى :

لقد حرص المسيو دلسبس على مامر بك على أن لا يذكر كلمة « السخرة » ولا أن يلمح إليها تلميحا فى عقد الامتياز . ولكن قرار ٢٠ يولية سنة ١٨٥٦ أشار من طرف خفى إلى تلك الكلمة المشؤومة . إذ ورد فيه : « تقدم الحكومة المصرية العمال الذين يشتغلون فى حفر القناة بناء على طلب مهندسى الشركة وطبقا لما تقضى به الحاجة . »

لمصر من الاستانة مركزا استقلاليا دوليا . ذلك لأن مصر كانت بفضل السياسة البريطانية ماتزال تعتبر فى نظر القانون الدولى ولاية عثمانية . ومن ناحية أخرى فان النص على جعل الوراثة من نصيب الأرشد فالأرشد بدلا من حصرها فى الأبن الأكبر فتح بداهة الباب واسعاً على مصراعيه أمام دسائس



نوبار باشا

= ولما كان المهندسون قد طلبوا أن يتولى أعمال الحفر بصفة دائمة من ٢٠ إلى ٢٥ ألف عامل فقد كانوا يستبدلون بغيرهم كل شهرين أو ثلاثة لأنهم كانوا — كما أكد المستر فارمان القنصل الأمريكى العام فى القاهرة — « يعاملون أسوأ معاملة ويموتون كالذباب . » وقد ترتب على هذا أن بلغ عدد العمال الذين أنيطت بهم أعمال الحفر ٦٠٠٠٠ حرمت منهم التربة المصرية مما أدى بالتالى إلى الأضرار بحالة البلاد الاقتصادية.

ولقد أثيرت مناقشة فى مجلس العموم البريطانى حول السخرة مما جعل سعيدا يتردد فى تقديم العمال المطلوبين لعملية الحفر ولكن وكيل وزارة الخارجية البريطانية صرح فى ١٦ مايو سنة ١٨٦٢ بأن القانون الدولى يحول دون تدخل انجلترا فى مسألة خاصة بمصر . ولم يكن اسماعيل قد اعتلى الأريكة بعد عند صدور هذا التصريح ولكن لم يفته فيما بعد أن انجلترا إذا كانت لا تستطيع بمقتضى القانون الدولى التدخل لمنع السخرة فى أعمال القناة فان فرنسا بالأولى لا تستطيع كذلك أن تتدخل لارغام مصر على تقديم عمال السخرة إذا شاءت مصر وضع حد لذلك .

وقد استطاع نوبار باشا وزير خارجية اسماعيل باشا أن يحصل من سفير انجلترا فى الاستانة على توكيد قاطع « بأن الخديو إذا أبى تقديم عمال السخرة وحاولت فرنسا إرغامه على تقديمهم فان انجلترا على استعداد لشد أزره . » كذلك صرح لورد بالمرستون فى مجلس العموم « بأن انجلترا سوف تقدم كل مساعدة إيجابية للسلطان والخديو . » ولما =

الاستانة وكانت بلا جدال عقبة كأداء فى سبيل التسلسل . على أن

= كان الأمر يعنى انجلترا وتركيا واسماعيل من نواح مختلفة فقد ألحفت الأولى على الثانية لترسل لاسماعيل بتاريخ ٢ ابريل سنة ١٨٦٣ احتجاجا على تسخير العمال فى حفر القناة .

وهنا تجلت مهارة الخديو . فمع أن احتجاج الباب العالى كان يحميه من غضب نابليون إلا أنه آثر أن لا يحفل بالاحتجاج كثيرا لأن الأمر يخص مصر أكثر مما يخص تركيا ولذا لم يصدر أمره فى الحال إلى الشركة بوقف الأعمال بل رأى أن يلغى السخرة على طريقته هو .

ولما كانت شروط الامتياز كما ذكرناها لك فى هذه الصفحات نصت بين ما نصت عليه على التنازل للشركة عن كافة ما لا يوجد له مالك من الأراضى المتاخمة للترعة العذبة التى قررت الشركة حفرها لتوصيل القناة بالنيل وهى الأراضى التى رأى فيها دلسبس أنها ستدر فيما بعد أرباحا هائلة على حملة الأسهم كما رأى اسماعيل بثاقب رأيه أنها تجعل من الشركة حكومة داخل حكومة لأنها ستحرم مصر من مساحات واسعة من صميم أراضيها سوف يكون لها شأن كبير بعد تصفيتها - نقول لما كانت شروط الامتياز كما ذكرنا رأى اسماعيل أن الوقت قد حان لتعديلها وانتهاز فرصة معارضة انجلترا وتركيا لأعمال السخرة لتحوير عقد الامتياز بشكل يلائم مصلحة وطنه .

ولما كان اسماعيل يريد لفت أنظار العالم إلى عدالة قضيته تمهيداً لعرضها على محكمة الرأى العام فقد كلف وزيره نوبار بالسفر إلى باريس والاتصال بمديرى شركة القناة وعقد اتفاق جديد معهم . وسرعان ما أبرق دلسبس للمديرين بألا يتصلوا بنوبار . ولكن هذا الرجل الداهية ما كان يمكن إسكاته بمثل هذه المناورة . ولما كان نوبار ممن يؤمنون بميل الفرنسيين للعدالة فقد شرع يحادث الصحف ويسهب فى شرح قضيته مما لفت إليها أنظار العالم . وقد بدأ حملته بابداء التشكك فى مشروعية الامتيازات التى نالتها الشركة من سعيد باشا مما حمل الشركة على رفع قضية قذف عليه تنظر أمام محكمة السين المدنية . ولكن نوبار دفع دفعا فرعياً فحكمت المحكمة فى ٢٨ فبراير سنة ١٨٦٤ بأن نوبار بطعنه فى مشروعية الامتياز ألحق ضرراً بسمعة الشركة كذلك حكمت بأن دلسبس لم يكن من حقه الاعلان فى الصحف عن القضية المرفوعة من الشركة قبل أن تنظر فيها المحكمة .

وكان هذا الحكم بمثابة أمر من المحكمة لطرفى النزاع بأن يسويا الخلاف فيما بينهما .

ولما أدرك دلسبس أن انجلترا معارضة للمشروع بينما كان السلطان متردداً وافق على =

تعديل النص المذكور ما كان ينتظر أن يقابل بلا اعتراض من الاستانة

= عرض الخلاف للتحكيم . وقد وافق المسيو دلسبس بالنيابة عن الشركة ونوبار باشا بالنيابة عن الحكومة المصرية على اختيار الأمبراطور نابليون الثالث حكما كما اتفق الطرفان المتنازعان على النقط المراد عرضها للتحكيم .

نقط الخلاف المعروضة للتحكيم

وكانت هذه النقط أربعاً كما أوردها الأستاذ عبد الرحمن بك الرافعي فى كتابه وهى :

النقطة الأولى : وتختص بتقديم العمال المصريين الذين تستخدمهم الشركة لغاية ٢٠,٠٠٠ وادعاء الشركة بأن لها الحق فى مطالبة الحكومة المصرية بتعويض فى حالة توقفها عن تقديم هذا العدد .

النقطة الثانية : وتختص بملكية الشركة لترعة المياه العذبة التى تعهدت بانشائها واستغلال رى الأطيان المملوكة للأفراد على ضفتيها فى مقابل أجر تأخذه منهم حسب تقديرها .

النقطة الثالثة : وتختص بملكية الشركة لكافة ما تحتاجه من الأراضى لحفر القناة وإنشاء الترعة العذبة وإعفائها بصفة دائمة من دفع الأموال الأميرية عنها وكذا ملكيتها لكافة ماتستصلحه وتزرعه من الأراضى مع إعفائها من دفع الأموال الأميرية عنها مدة عشر سنوات .

النقطة الرابعة : اضطرار الحكومة إلى نزع ملكية الأطيان المملوكة للأفراد متى احتاجت إليها الشركة لاستغلال امتيازها .

وكان مبدأ إلغاء السخرة أقوى حجة اعتمد عليها اسماعيل فى إلغاء النقطة الأولى بينما اعتمد فى إلغاء النقطة الثانية على أن مصر بصفتها إحدى الولايات العثمانية ليس من حقها أن تتنازل للأجانب عن ملكية الأراضى والعقارات .

أما من حيث النقطة الثالثة فاجتنابا للنزاع الخاص بتملك الشركة للترعة العذبة وانتزاعها ملكية الأفراد من الأطيان التى يقتضيها إنشاؤها ، قد تمكن اسماعيل بأصالة رأيه من عقد اتفاق مع الشركة فى ١٧ مارس سنة ١٨٦٤ تعهدت فيه الحكومة بانشاء الترعة فى الجزء الممتد بين النيل ووادى الطميلات ووصلها بالجزء الذى أنشأته الشركة من ترعة الوادى إلى القناة . وقد أمر اسماعيل بأن يطلق اسمه على هذه الترعة من منبعها إلى مصبها .

ومن لندن فقط بل كان ينتظر على التحقيق أن تعارض فيه الطبقة التركية

صدور الحكم

وفى يوم ٦ يولية سنة ١٨٦٤ أصدر نابليون الثالث حكمه فى النزاع فاهتزت له محافل أوربا القضائية وعدته فى غاية الجور والاجحاف . ولم يكن ينتظر أن يأتى الحكم فى مصلحة مصر للأسباب الآتية :

أولا : لأن نابليون كان إمبراطور فرنسا فهو بهذه الصفة خصم وحكم فى آن واحد.

ثانيا : كان معروفا بتأييده للشركة .

ثالثا : كان شديد العطف على المسيو دلسبس بسبب القرابة البعيدة التى كانت تربطه بالامبراطورة يوجينى .

وإليك ما حكم به نابليون الثالث :

أولا : إبطال حق الشركة فى مطالبة الحكومة بتقديم العمال المصريين وإلزام الحكومة مقابل ذلك بدفع تعويض مالى للشركة قدره ٣٨ مليون فرنك .

ثانيا : تنازل الشركة للحكومة عن كل حق فى ترعة المياه العذبة وتعهد الحكومة المصرية باتمامها مع احتفاظ الشركة بحق الانتفاع بها وإلزام الحكومة فى مقابل هذا التنازل بدفع تعويض للشركة قدره ١٦ مليون فرنك .

ثالثا : جعل الأرض المملوكة للشركة واللازمة لانجاز المشروع ٢٣٫٠٠٠ هكتار تقريبا . (والكتهار نحو فدانين) منها ١٠٫٢٦٤ هكتار على جانبى القناة وملحقاتها و ٨٦٠٠ هكتار للترعة العذبة و ٣٠٠٠ هكتار لمبانى الشركة .

رابعا : إعادة الأراضى الأخرى التى اتضح عدم لزومها للمشروع ومساحتها ٦٠٫٠٠٠ هكتار على أن تدفع الحكومة تعويضاً قدره ٣٠ مليون فرنك .

وبهذا يكون مجموع ما دفعته الحكومة من التعويضات ٨٤ مليون فرنك (نحو ٣٫٣٦٠٫٠٠٠ جنيه) تدفع على أقساط سنوية لمدة ١٥ سنة . وحسبك دليلا على فداحة هذه التعويضات أن تعرف أنها تبلغ تقريبا نصف رأس مال الشركة ولكن هكذا شاءت السياسة أن تتحمل مصر هذه الأعباء الثقيلة فى بداية نهضتها لا لذنب ارتكبته ولكن لأن سعيدا شاء أن يضع توقيعه على اتفاق عرضه عليه صديقه دلسبس دون أن يكلف نفسه عناء قراءته .

ولقد اعتبر بعض كتاب حياة دلسبس هذا الحكم فوزا للحكومة المصرية وإن كانت روحه ونتيجته تدل على أنه جاء فوزا مبينا للشركة إذ ضمن لها مواصلة العمل إلى النهاية

الحاكمة فى مصر وأمراء البيت الحاكم أنفسهم . ومع ذلك فان اسماعيل فى

=أو كما وصفه المسيو دلسبس بأنه «السند الأساسى للشركة ووثيقة الكفالة والاطمئنان لها».

فاذا ذكرنا أن اسماعيل ارتقى العرش فى يوم ١٩ يناير سنة ١٨٦٣ وأن حكم نابليون صدر فى يوم ٦ يولية سنة ١٨٦٤ — أى بعد سبعة عشر شهرا وثلاثة عشر يوماً من تاريخ اعتلائه الأريكة — فليس يتكن عدلا أن يقال — كما زعم المغرضون — أن اسماعيل كان رجلا شهوانياً مستهترا الخ هذه الأنشودة المعجوجة. ألا إن رجلا كاسماعيل يقضى العام والنصف الأول من تاريخ جلوسه على الأريكة فى مثل هذا المجهود العنيف ضد فرنسا صاحبة الكلمة المسموعة فى أنحاء العالم ليدلك على أنه كان رجل جد وعمل لا رجل خمول وكسل . وكيف لا والرجل لم يكن همه إشباع شهواته أو التظاهر بالفخفخة كلا بل كان همه تحسين حال الفلاحين وصيانة السيادة المصرية والاحتفاظ للبلاد بهذه الترعة العذبة ؟ ولا تنس بعد هذا مهارة اسماعيل واستطاعته انهاء هذه المفاوضات العتيدة الشائكة دون الاصطدام بالمصاعب التى كانت تعترض سبيله . فقد كان عليه أن يكافح فرنسا التى كانت ميالة لانجاز المشروع وتخفيف حدة انجلترا الغاضبة على المشروع وترضية تركيا صاحبة السيادة على مصر وقد كانت واقفة موقفا وسطا بالمرصاد بين فرنسا وانجلترا . لعمرى إن التاريخ لن ينسى لاسماعيل حذقه فى الافلات من هذا المأزق بأخف ضرر على بلاده .

وفى ٣٠ يناير سنة ١٨٦٦ عقد اسماعيل مع الشركة اتفاقا تكميليا لتسوية النزاع بينهما مع مراعاة حكم نابليون . وهو يقضى :

أولا : بتحديد مواعيد أقساط التعويضات للشركة .

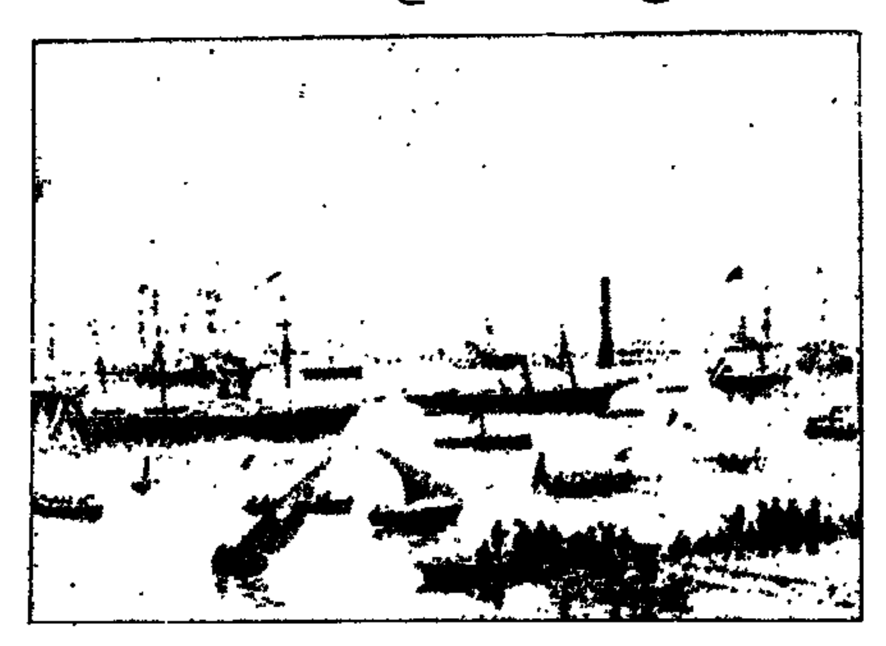
ثانياً : باستعمال الأراضى المخصصة للشركة بصفة ملحقات للقناة الملحة .

ثالثا : بتنازل الشركة عن الترعة العذبة مع ما يتصل بها من الأراضى والمبانى والأعمال الفنية التابعة لها بشرط أن تدفع لها الحكومة ثمن هذه المبانى .

رابعا : ببيع أراضى تفتيش الوادى للحكومة بمبلغ ١٠ مليون فرنك (٤٠٠ ألف جنيه) وهذا التفتيش تبلغ مساحته ٢٣٫٧٨٠ فدان كانت الشركة قد اشترتها من تركة الهامى باشا بمبلغ زهيد قدره ١٫٧٠٠٫٠٠٠ فرنك (أى ٦٨٫٠٠٠ جنيه) ولم تدخل فى التحكيم باعتبارها ملك خاص للشركة .

خامسا : حق الحكومة فى احتلال أى جهة فى الأراضى المعتبرة حرما للقناة وأى موقع حربى لازم للدفاع عن البلاد بشرط ألا يكون الاحتلال المذكور عائقا للملاحة . وهذا حق كبير ناله اسماعيل لمصر .

مقابل مضاعفته مبلغ الجزية السنوية ودفع مليون جنيه نقدا وإهداء السلطان



دخول البواخر المقلة للملوك والأمراء قناة السويس فى صبيحة ١٧ نوفبر سنة ١٨٦٩
إيذانا بافتتاح القناة للملاحة
وترى فى مقدمة البواخر السفينة (ليجل) تقل الأمبراطورة يوجينى

ـــ سادسا : للحكومة أن تشغل ماتراه من تلك الأراضى بمبان تنشئها لمصلحتها كالبريد والتكنات والجمارك وغيرها على شرط مراعاة ما تقضى به ضرورة الانتفاع بالقناة وبشرط أن تدفع الحكومة للشركة ثمن ماتكون قد أنفقته هذه على تلك الأمكنة .

وفى ٢٢ فبراير سنة ١٨٦٦ أبرم اسماعيل مع الشركة اتفاقا شاملا يتضمن الشروط الواردة فى عقد الامتياز الأصلى مع مادخل عليه من التعديلات .

وفى ١٩ مارس من هذه السنة صدر فرمان شاهانى بالتصديق على اتفاق ٢٢ فبراير سنة ١٨٦٦ .

وفى ٢٣ أبريل من العام التالى عقد اسماعيل اتفاقا آخر مع الشركة ألغى فيه الشرط الخاص باعفاء مستوردات الشركة من الخارج من الرسوم الجمركية وأعطاها مقابل ذلك تعويضاً قدره ٢٠ مليون فرنك كما تنازلت الشركة للحكومة عن بعض المبانى والمستشفيات مقابل ١٠ مليون فرنك .

قناة السويس

وتواريخها المهمة

٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤
منح سعيد باشا امتياز القناة إلى المسيو دلسبس

٥ يناير سنة ١٨٥٦
شروط الامتياز

٢٥ ابريل سنة ١٨٥٩
ابتداء العمل فى حفر القناة

٦ يولية سنة ١٨٦٤
صدور حكم الامبراطور نابليون الثالث

١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩
افتتاح القناة للملاحة

٢٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥
بيع أسهم مصر فى القناة إلى انجلترا

٧ ابريل سنة ١٩١٠
رفض الجمعية المصرية تجديد الامتياز

١٦ نوفمبر سنة ١٩٦٩
إنتهاء الامتياز وعودة القناة إلى مصر

هذه الخريطة والمعلومات التى بجانبها وسائر الخرائط الأخرى منقولة عن كتاب الأستاذ عبد الرحمن الرافعى بك

طاقما ذهبيا للمائدة مرصعاً بالجواهر والأحجار الكريمة وتوزيع ماقيمته ١٠٠٫٠٠٠ جنيه من الهدايا قد استطاع أن يحصل من السلطان فى سنتى ١٨٦٦و١٨٧٣ على فرمانين لا ينصان فقط على حصر الوراثة فى أرشد أولاده بل يتضمنان الاعتراف الكامل الصريح باستقلال مصر الداخلى من الوجهة الأدارية . وإذ قد استطاع أن ينال موافقة الباب العالى على رفع القيد الخاص بعدد القوات البرية والبحرية فى مصر وتخويله الحق فى عقد المعاهدات مع مراعاة عدم خروجها عن مضمون المعاهدات التى تعقدها الأمبراطورية العثمانية وحق عقد القروض باسم الدولة ، فان

افتتاح القناة للملاحة (١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩)

بعد عمل مستمر استغرق عشر سنوات تم حفر قناة السويس وتدفقت مياه البحر الأبيض المتوسط إلى البحر الأحمر وقام الدليل ناصعاً على فساد الزعم الذى كان سائداً فى إبان وجود الحملة الفرنسية فى مصر خاصاً بارتفاع منسوب مياه البحر الأحمر عن البحر المتوسط . وقد بلغ طول هذه القناة التى كلفت مصر ما كلفت ١٦٤ كيلومتر وأنشأت شركة القناة على شاطئيها مدينة بور سعيد شمالا ومدينة الاسماعيلية جنوباً . كما تراه فى الخريطة المنشورة فى الصحيفة السابقة

ثم تقرر فتح القناة للملاحة فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩

اسماعيل باشا وحفلة الافتتاح

محاولة إعلان استقلال مصر

لقد مر بك فى ص ٢٤٣ أن اسماعيل كان يرمى إلى إعلان استقلال مصر فى أثناء تلك الاحتفالات التى قرر إقامتها بمناسبة افتتاح القناة للملاحة ودعا إليها أكبر الرؤوس المتوجة فى أوربا لولا عدم اتفاق كلمة الدول الأوربية . ورجل هذه غايته الشريفة لم يكن ينتظر منه أن يظهر بمظهر الشح فى وقت اتجهت فيه أنظار العالم نحو مصر وأمير مصر . فلا غرو إذا رأيناه وهو الرجل الزراعى الذى يحسب حساب القرش فلا ينفقه إلا فى وجهه الصحيح يشذ فى هذه الحفلات عن القاعدة ويخرج عن خطة الاقتصاد إلى المبالغة فى السخاء والعطاء .



بعض ضيوف اسماعيل باشا فى حفلة افتتاح القناة

فى الصورة العليا الجنرال اجناتيف سفير روسيا فى الاستانة

فى الصف الأسفل من اليمين البارون دى بوست ثم الكونت اندراسى من وزراء النمسا

= وليس يفوتنا بمناسبة حفلة الافتتاح هذه وما أنفق فى سبيلها من نفقات أن نشير إلى حقائق فريدة تضمنها كتاب المستر كرابيتس وهى تضيف صفحة ذهبية جديدة إلى تاريخ اسماعيل . فانه كان قد تفاهم مع الملك فيكتور عمانويل على أنه إذا ما أعلن اسماعيل استقلال مصر وحاولت تركيا التدخل فى الأمر فان الجيش الأيطالى يتولى الزحف على بعض الأراضى التركية النائية .

أما الأمبراطور نابليون الثالث فانه ما كاد أن يسمع بهذا حتى رفض الفكرة رفضا باتا. فلما رأى اسماعيل أن محاولته تحقيق استقلال مصر بحد الحسام لن تقابلها أوربا بالرضى فضلا عما تقتضيه من نفقات وتضحيات لجأ إلى طريقة أخرى ألا وهى استخدام =

اسماعيل قد حصل لمصر فى الواقع على مركز دولة ذات سيادة ولكنه صادف صعوبات عظيمة فى سبيل الحصول من السلطان على لقب ملائم لأسرته . وكان أسمى مانا له بعد الجهد الجهيد لقب «الخديو» وهو لقب فارسى الأصل غامض المعنى . وكان هذا من أشد مايبعث على الأسف

= المال باعتباره أخف الأمرين . ولقد بذل فى هذا السبيل الشيء الكثير لحمل الدول الأوربية على الموافقة على إنشاء نظام المحاكم المختلطة فى مصر وبذا يتسنى جعل الأجانب المقيمين فى مصر يحاكمون أمام المحاكم المختلطة وهى محاكم مصرية تصدر أحكامها باسم أمير البلاد .

وقد لقيت هذه الفكرة ترحيبا من انجلترا ثم بروسيا ثم النمسا . وشيئا من المال أنفقه اسماعيل فى الاستانة بواسطة وسيطه الشهير المدعو «ابراهام بك» الأرمنى كفل له موافقة تركيا وروسيا .

بقيت فرنسا . ولكن نوبار عالج المشكلة بلباقة وحذق . فلقد أرسل من باريس فى يوم ٥ مارس سنة ١٨٦٩ إلى اسماعيل باشا أى قبيل افتتاح قناة السويس للملاحة يخبره بأن الجنرال فلورى الفرنسى أشار عليه بطلب مقابلة الامبراطورة يوجينى ليخبرها بأن مولاه اسماعيل باشا كلفه بالسؤال عما إذا كانت جلالتها سوف تتكرم بزيارة مصر بمناسبة افتتاح القناة . فاذا كان الرد بالايجاب فان اسماعيل قد اعتزم أن ينتهز فرصة تشريفها ليجعل حفلة الاستقبال من الفخامة والروعة بحيث تتناسب مع مقام جلالتها السامى . وقد ذكر نوبار باشا أن الجنرال أكد له أن هذه الخطوة جديرة بأن تملق الأمبراطورة باعتبارها صاحبة السيطرة على المسيو لافاليت وزير الخارجية ، وأن إشارة ارتياح منها للوزير المذكور كفيلة بتحقيق رغبات اسماعيل باشا فى هذا الصدد . ولم يشأ نوبار مقابلة الأمبراطورة قبل استئذان الخديو .

وبالطبع كان الخديو اسماعيل من إصالة الرأى بحيث وافق على اقتراح فلورى وكتب من فوره إلى نوبار يكلفه بمقابلة الامبراطورة .

وفعلا تمت المقابلة وارتاحت جلالتها لما أشار اليه نوبار من فخامة حفلات الاستقبال حتى أن ذلك الداهية استطاع فى ٢٤ من الشهر نفسه أن يرسل إلى مولاه فى القاهرة يهنئه لأنه حصل على توكيد من الحكومة الفرنسية بأنها ستوافق على مشروع إصلاح القضاء فى مصر الذى يرمى إلى إنشاء نظام المحاكم المختلطة .



اسماعيل باشا يحتفل بضيوفه فى بور سعيد فى ١٦ نوفبر سنة ١٨٧٩
أى فى اليوم السابق لافتتاح قناة السويس للملاحة

وقد أقيمت فى هذه الحفلة ثلاث منصات خصصت المنصة الكبرى للملوك والأمراء وكبار المدعوين والثانية لرجال الدين الأسلامى والثالثة لرجال الأكليروس وجلس فى المنصة الكبرى الخديو اسماعيل وأوجينى إمبراطورة الفرنسيين وفرنسوجوزيف إمبراطور النمسا وملك المجر وفردريك ويلهلم ولى عهد بروسيا والأمير هنرى أخو ملك هولندا والأميرة قرينته والسير هنرى إليوت سفير انجلترا بالاستانة وعقيلته والأمير مورا والأمير محمد توفيق باشا ولى العهد والأمير هوهنلوه والجنرال اجناتيف سفير روسيا فى الاستانة وعقيلته والأمير محمد سعيد طوسون بن سعيد باشا ووالد سمو الأمير عمر طوسون وشريف باشا وزير الداخلية ورئيس المجلس المخصوص العالى (مجلس الوزراء) ونوبار باشا وزير الخارجية وشاهين باشا وزير الحربية والبحرية ورياض باشا خازندار الخديو والمسيو فرديناند دلسبس والأمير عبد القادر الجزائرى والبارون دويست والكونت اندراسى . وقد ألقى الشيخ ابراهيم السقا فى هذا الاحتفال كلمة تبريك باللغة العربية وتلاه المونسنيور (بوير) واعظ نابليون الثالث الذى جاء خصيصاً من فرنسا . وألقى خطبة تبريك بالفرنسية .

إذ كانت النتيجة أن رغبة اسماعيل فى اظهار مقامه كحاكم ذى سيادة فى أعين أوربا جعلته يمعن فى الأسراف والبذخ. وعلى كل فلو أننا نظرنا إلى الأمر إجمالا لوجدنا أن مابذله اسماعيل فى سبيل إتمام عمل جده

= فأنت ترى إذن السر فى تعمد اسماعيل أن تكون الاحتفالات بمناسبة افتتاح القناة بالغة منتهى الروعة والفخامة.

وعلى أننا برغم ذلك كله لسنا نميل إلى تصديق الرقم الذى قدروه لاقامة الحفلات المذكورة فقد زعموا أنه بلغ ١٫٤٠٠٫٠٠٠ جنيه وهو مبلغ لانظن أن طبيعة اسماعيل التى اشتهرت بحب الاقتصاد تسمح بانفاقه فى سبيل الغاية الشريفة التى جعلها نصب عينيه.

ويشاء حظ مصر العاثر ألا تتفق كلمة الدول الأوربية على إعلان استقلال مصر فى أثناء الاحتفالات فكانت صدمة عرف اسماعيل كيف يصمد لها.

خسائر مصر فى إنشاء القناة

لقد مر بك فيما نقلناه من انتقادات لورد ملنر ولورد كرومر وغيرهما أن إنشاء القناة كلف مصر نيفا و ١٦ مليون من الجنيهات. وإليك مفردات هذا المبلغ كما ذكره الاستاذ الرافعى بك:

قيمة أسهم مصر فى القناة	٣٫٤٢٦٫٠٠٠ جنيه
قيمة التعويضات المحكوم بها للشركة	٣٫٣٦٠٫٠٠٠ »
ثمن أراضى تفتيش الوادى	٤٠٠٫٠٠٠ »
تعويض مدفوع للشركة بمقتضى اتفاق ٢٣ ابريل ١٨٦٩ .	١٫٢٠٠٫٠٠٠ »
نفقات الترعة العذبة	١٫٢٠٠٫٠٠٠ »
نفقات حفلات افتتاح القناة وهذا رقم تخمينى كما بيناه سابقا	١٫٤٠٠٫٠٠٠ »
فوائد وسمسرة ونفقات التحكيم الخ . . .	٥٫٨١٤٫٠٠٠ »
المجموع	١٦٫٨٠٠٫٠٠٠ »

هـذا ما خسرته مصر من جراء انشاء هـذه القناة. فاذا قورنت هذه الخسائر بما أنفقته الشركة من رؤوس أموال فى إنشاء القناة بأكملها ويبلغ مجموعها ١٨ مليون جنيه لتبين لك أن مصر هى التى تحملت أكبر عبء من هذه النفقات. وليتها أفادت منها شيئا. ولكنها بعد تلك الخسائر الفادحة وبعد ما أصيبت به تربتها من جراء حرمانها من الأيدى العاملة بسبب أعمال السخرة، منيت بالاحتلال البريطانى فكان أكبر الخسائر وإن لم يكن خاتمتها.

لم يكن بالثمن الفادح خصوصاً وأن نفقاته كانت أقل بكثير مما أنفقه محمد على فى مشروعاته وخططه العسكرية (كذا ! كذا !)

بيع الأسهم المصرية فى القناة

ذكرنا لك فى ص ٢١٨ من هذا الكتاب أن المغفور له سعيد باشا اكتتب بـ ١٧٧٫٦٤٢ سهما من مجموع أسهم القناة وقدرها ٤٠٠٫٠٠٠ سهم أى أنه - رحمه الله - اكتتب بما يقرب من نصف أسهم الشركة .

نعم إن الحكومة المصرية اضطرت فيما بعد أن تبيع ١٠٤٠ سهما بحيث صار مجموع ما تبقى لها ١٧٦٫٦٠٢ سهما ولكن هذا الباقى - لولا تساهل سعيد باشا مع صديقه دلسبس - كان يخولها حق الاشتراك فى أعمال مجلس إدارة الشركة والسهر على المصالح المصرية على الوجه الأكمل .

ولقد دفع سعيد باشا فى هذه الأسهم ٣٫٤٢٦٫٠٠٠ جنيه . ولم يحل شهر نوفبر عام ١٨٧٥ حتى رأى اسماعيل باشا نفسه مضطرا لأن يبيع هذه الأسهم فى مقابل اربعة ملايين جنيه دفعتها له الحكومة البريطانية فورا .

بين دزرائيلى وروتشيلد

وحكاية ابتياع هذه الأسهم طريفة بحيث تحسن الأشارة إليها هنا بايجاز وقد لخصها المستر دزرائيلى فى مذكراته .فلقد ينبالك كيف أن ساكن الجنان اسماعيل باشا أصبح فى حاجة ماسة إلى المال وخاصة بعد ما أداه من التعويضات الجسيمة التى أرغمت مصر على أدائها لشركة القناة بعد حكم نابليون المشهور وبعد أزمة القطن التى أصابت مصر فى أوائل عهده السعيد وبعد الطاعون البقرى الفادح الذى اكتسح البلاد مما جعل اسماعيل يدفع لأصحاب المواشى فى سنة ١٨٧٤ إعانة تقرب من الأربعة ملايين جنيه .

وهنا طرأت له فكرة بيع أسهم مصر فى القناة مع الاحتفاظ بحصتها فى الأرباح . وقدرها ١٥ ٪ .

فما كادت هذه الرغبة أن تتردد فى نفسه ويسر بها إلى أخلص رجال حاشيته حتى علم بها الداهية دزرائيلى من جواسيسه فى باريس . وهنا نترك رئيس الوزارة البريطانية يقص علينا خلاصة ماحدث .

ولا ريب أن فصل مصر عن مجرى الفساد العثمانى كان خدمة جليلة لا تقل عنها خطوته الأولى المهمة فى سبيل تحريرها من تدخل الجاليات

= كان البرلمان الأنجليزى فى عطلته الاعتيادية . فلما وصل إلى سمع الوزير البريطانى الكبير نبأ ما اعتزمه اسماعيل باشا ـ وكان فى منتصف الليل ـ أرسل من فوره من أحضر له المستر روتشيلد كبير آل روتشيلد الماليين . فلما مثل أمامه سأله هل يستطيع أن يقدم له أربعة ملايين جنيه فى الحال . فأجابه المالى الكبير بأن المبلغ موجود . ولكن ماهى الضمانة وخاصة والبرلمان معطل ولن يتسنى الحصول على موافقته على هذا القرض ـ إذا افترض أنه سيوافق ـ إلا بعد مرور عدة أسابيع أى بعد عودة اجتماع البرلمان ؟

هنا استولى الغضب على الوزير الكبير وقال لمحدثه إنه بصفته رئيس وزراء بريطانيا يطلب هذا المبلغ . فلما لم تلن قناة روتشيلد اضطر المستر دزرائيلى أن يضرب على نغمة التهديد ويتوعده بما سوف يحل به إن هو تردد فى تقديم هذا المبلغ فورا متى كانت مصلحة بريطانيا العظمى الملحة تحتم ذلك .

فلم يسع صاحبنا إزاء هذا الأصرار والتهديد إلا أن يعد بتسليم المبلغ فى الصباح وفعلا أرسله إلى دزرائيلى وهذا أمر بارساله إلى مصر . كل ذلك والبرلمان لم يجتمع بعد.

فلما اجتمع البرلمان بعد العطلة وقف دزرائيلى مدافعا عن خطته هذه وسوغ فعلته بأنه لولا إسراعه فى عقد تلك الصفقة لفازت بها فرنسا وتعرضت مصالح انجلترا فى الهند وفى الشرق لأفدح الأخطار .

وبعد مناقشات أفلاطونية طويلة أقر البرلمان ما حدث ولعله رأى أن ليس ثمة فائدة عملية من المناقشة بعد أن أوقفه رئيس الوزارة أمام الأمر الواقع .

موقف اسماعيل حيال بيع الأسهم المصرية

ونحسب أن من الانصاف أن نقف لحظة هنا لنلقى نظرة على عمل اسماعيل ونتساءل هل كان حكيما فى بيع هذه الأسهم أم أنه كان مغامرا فيما فعله وأنه لذلك جدير بغضب المنتقدين لأنه أضاع على مصر ـ كما زعموا ـ المزية الباقية لضامن مشروع القناة .

لطالما حدثناك بحب اسماعيل فى الاقتصاد وحرصه على ألا ينفق القرش إلا فى وجهه الصحيح . فمثل هذا الرجل الاقتصادى ما كان ليقدم طوعا على بيع هذه الأسهم إلا إذا كانت هناك بواعث قوية . فلننظر إلى الأرقام فهى الحكم الفصل بين اسماعيل وخصومه .

فأنت تعرف مما سردناه عليك فى ص ٢١٨ أن قيمة السهم بلغت عند تأليف شركة =

والتجارة الأجنبية والذى كان آخذا فى الازدياد تحت ستار الامتيازات . فلقد تضاعف عدد الأجانب فى مصر عشر مرات فبلغوا ٢٠٠٫٠٠٠ ثم إن ما كان يتمتعون به من حقوق لا يتمتع بها الأهالى أنفسهم أصبح

= قناة السويس فى أواخر سنة ١٨٥٨ نحو ٥٠٠ فرنك (أى ٢٠ جنيها) . ونحن نورد لك قيمة السهم بالفرنك فى كل من السنوات الست التى تلت افتتاح القناة وهى منقولة عن كتاب « قناة السويس » الذى وضعه سنة ١٩٣١ الاستاذ هالبرج من كبار أساتذة جامعة سيراكيوز بالولايات المتحدة .

ففى سنة ١٨٧٠	كانت قيمة السهم	٢٧٢٫٨٦ فرنك
وفى سنة ١٧٧١	« « «	٢٠٨٫١٣ «
وفى سنة ١٨٧٢	« « «	٣٥٥٫١٣ «
وفى سنة ١٨٧٣	« « «	٤٣٤٫٩٣ «
وفى سنة ١٨٧٤	« « «	٤٢٢٫١٩ «
وفى سنة ١٨٧٥	« « «	٦٧٤٫٠٥ «

أى أن السهم الذى كانت قيمته ٥٠٠ فرنك (نحو ٢٠ جنيه) فى سنة ١٨٥٨ هبط إلى ٢٧٢ فرنك فى سنة ١٨٧٠ ثم إلى ٢٠٨ فرنك (نحو ٨ جنيه) فى سنة ١٨٧١ ثم أخذ يرتفع قليلا إلى أن بلغ ٦٧٤ فرنك (نحو ٢٧ جنيه) فى سنة ١٨٧٥ . أو بعبارة أخرى - إذا شئنا التساهل فى التعبير - إن مستقبل أسهم القناة كان تحت رحمة الأقدار . ولما كان اسماعيل رجلا اقتصاديا عمليا وكان فى حاجة ماسة إلى المال بعد ما أصيبت به مصر من تعويضات لشركة القناة وتدهور فى أسعار القطن وطاعون فتاك أصاب المواشى مما قدرت لادى دوف غوردون خسائره بأثنى عشر مليون جنيه - لم يكن أمامه إلا أحد سبيلين . إما الالتجاء إلى عقد قروض أجنبية بفوائد باهظة وإما بيع هذه الأسهم التى كان مستقبلها فى كفة القدر .

فاختار الأمر الثانى وهو أهونهما . ويلاحظ أن اسماعيل برغم حاجته إلى المال اختار أنسب وقت لبيع الأسهم . فان الحكومة البريطانية عرضت عليه مبلغ ٣٫٩٧٦٫٥٨٠ جنيه أى بمعدل السهم الواحد ٢٢٫٤ جنيه انجليزى أو بعبارة أخرى ٥٦٢ فرنك وهو يزيد عن سعره فى سنة ١٨٥٨ وعن سعره فى سنة ١٨٧٤ .

وإذا ذكرنا أن سعيد باشا اشترك ب ١٧٧٫٦٤٢ سهما بلغ ثمنها ٣٫٤٢٩٫٠٠٠ وأن اسماعيل باشا باع للحكومة البريطانية فعلا ١٧٦٫٦٠٢ بمبلغ ٣٫٩٧٦٫٥٨٠ جنيه =

من الأمور الداعية إلى الارتباك والحيرة . ولما أدرك أن الطريق المثلى للتخلص من نفوذهم بعد أن صاروا بمثابة حكومة فى داخل حكومة بسبب اختصاص القناصل وبفضل نظام الامتيازات فكر فى إيجاد تشريع

فيكون بهذه العملية قد ربح ما يبلغ ثلاثة أرباع المليون جنيه — نقول متى ذكرنا هذا فلا يمكن القول بأن اسماعيل كان مغامرا فى هذه الصفقة.

قد يقال إن هذه الأسهم قد ارتفع ثمنها فيما بعد حتى بلغت فى نهاية سنة ١٩٢٩ ٧٢ مليون جنيه وربحت منها الخزانة البريطانية (إلى أواخر سنة ١٩٢٩) ٣٨٫٦٠٠٫٠٠٠ جنيه ولكن اسماعيل باشا احتاط للأمر فلم يشأ التنازل عن حصة مصر فى الأرباح وقدرها ١٥ ٪ ولعله رحمه الله رأى أن يبيع الأسهم بالثمن السالف الذكر فيوفر على الخزانة عبء عقد قرض أجنبى مع فوائده الباهظة مع استبقاء حصة الـ ١٥ ٪ التى قدر أن تنتفع البلاد منها فيما لو أظهرت التجارب بشكل قاطع صلاحية قناة السويس .

على أن النقاد إذا كانوا لم يتورعوا عن كيل التهم جزافاً لاسماعيل لأنه باع أسهم مصر فى ١٨٧٥ بربح قدره ثلاثة أرباع المليون من الجنيهات فهل لهم أن يذكروا لنا لماذا سكتوا عن المراقبة الثنائية ولم يوجهوا اليها أى لوم بمناسبة بيعها حصة الـ ١٥ ٪ فى سنة ١٨٨٠ أى فى العام التالى لخروج اسماعيل باشا من مصر ؟

وليس ينبغى أن يفوتنا أن اسماعيل باع أسهم مصر فى وقت كان فيه مستقبل القناة معلقاً فى كفة القدر . ولكن السادة الذين تولوا الاشراف على مصائر مصر فى عهد المراقبة الثنائية جازفوا ببيع حصة الـ ١٥ ٪ فى الوقت الذى أصبح فيه مستقبل القناة مضمونا ولا خوف عليه كما تدل على ذلك الأرقام التالية :

ففى سنة ١٨٧٥ أى فى السنة التى باع فيها اسماعيل أسهم مصر بلغ سعر السهم ٦٧٤٫٠٥ فرنك

وفى سنة ١٨٧٦	بلغ سعر السهم	٧٠١٫٦٣	فرنك
وفى سنة ١٨٧٧	« « «	٦٧٧٫٨٧	«
وفى سنة ١٨٧٨	« « «	٧٥١٫٧٣	«
وفى سنة ١٨٧٩	« « «	٧٢٤٫٤٠	«

وفى سنة ١٨٨٠ (أى فى السنة التى بيعت فيها حصة الـ ١٥ ٪) بلغ سعر السهم ١٠٧٥٫٨٨ فرنك (نحو ٤٣ جنيه)

يستطيع تطبيق قواعد القانون الأوربى وأساليبه . فانشأ بمساعدة نوبار محكمة جديدة هى المحكمة المختلطة . وكان بديهيا أن يؤدى إنشاؤها إلى الاصطدام بالمشايخ والعلماء . لا بل إنها لم تنشأ فعلا إلا بعد

= ولقد بيعت الحصة المذكورة للبنك العقارى الفرنسى فى مارس سنة ١٨٨٠ بمبلغ ٨٨٠٫٠٠٠ جنيه وقد بلغ ثمن هذه الحصة فى سنة ١٩٣٢ نحو ٢٥ مليون جنيه وتغل إيرادا سنويا بلغ فى سنة ١٩٣٢ نحو ١٫٠٢٠٫٤٥٤ جنيه .

لقد أبى اسماعيل فى أيام الشدة أن يمس هذه الحصة مفضلا أن تنتفع بها البلاد من بعده ولكن الذين تولوا شؤون مصر بعد خروجه منها جازفوا ببيعها . وليتهم ذكروا فضل اسماعيل عند بيع هذه الحصة بل زعموا أن الخديو توفيق اضطر إلى بيعها من جراء ديون اسماعيل باشا ! ! فهلا ذكروا أنه كان فى وسعهم « رهن » هذه الحصة لعقد قرض جديد يخفف ويلات البلاد إذا صح مازعموه من أن البلاد كانت بعد خروج اسماعيل فى أشد حاجة إلى المال ؟

ألا إن التاريخ لن يغفر لأولئك المصلحين مجازفتهم ببيع تلك الحصة الثمينة فى الوقت الذى كانت الأحوال تبشر فيه بأن الحصة المذكورة سوف تدر على مصر خيرات عميمة وحسبك أن إيرادها الحالى يزيد عن المليون جنيه سنويا .

ما كسبه اسماعيل لمصر من مشروع القناة

إلى الآن قد ذكرنا لك خسائر مصر المالية والسياسية من القناة وقبل أن نقفل هذا الباب نرى أن من الأنصاف أن نذكر ما استرده اسماعيل لمصر من ذلك المشروع . فلقد تناسى الناقدون من رجال الأموال الذين لا يعرفون إلا منطق الأصفر الرنان أن اسماعيل استطاع أن يحقق لبلاده هذه الأمور الجوهرية الآتية :

أولا : لقد أبى أن تنشأ القناة العذبة على حساب عمال السخرة وقد كلفه هذا الدفاع عن الفلاح ١٫٥٢٠٫٠٠٠ جنيه حكم به عليه نابليون الثالث.

ثانيا : أنه استرد من مخالب شركة القناة ما يبلغ ٦٠٫٠٠٠ هكتار أى ١٢٠٫٠٠٠ فدان تقريبا وحال بذلك دون انشاء مستعمرة فرنسية على حدود الدلتا . وإذا كان نابليون قد حكم على مصر بأن تدفع للشركة وقتئذ تعويضا عن هذه الاراضى قدره ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ ١ جنيه فان ذلك لا يمنعنا من أن نقدرها الآن بثمن أعلى من ذلك ويزيد كثيرا عن التقدير السابق .

عزل شيخ الاسلام. كذلك أدى انشاؤها إلى التشاحن مع فرنسا التى كان من نتيجة معارضتها أن أرجىء إنشاء المحاكم الابتدائية الثلاث فى القاهرة وفى الاسكندرية والمنصورة ومحكمة الاستئناف فى القاهرة وقيامها بأعمالها

= ثالثا : ثم الترعة العذبة وهى ترعة الاسماعيلية فقد استردها اسماعيل بعد أن أدرك ببعد نظره ما ينتظر أن يعود منها من الخير فى المستقبل. ولقد كان دلسبس يمنى نفسه بأن تبقى هذه الترعة للشركة لأن بقاءها معناه إزدياد العمران فى تلك الجهات وبالتالى زيادة أرباح الشركة. ومن الصعب تقدير فائدة هذه الترعة الآن وتحديد هذه الفائدة بالجنيهات. وحسبك أن تذكر أن نابليون قرر دفع تعويض عن استردادها قدره ٢٤٠,٠٠٠ جنيه فاذا أضفت إلى ذلك المبلغ ما على ضفتى الترعة من المساحات الواسعة التى كانت هذه الترعة سببا فى تصقيعها وما عاد على الأهلين من الفوائد بسبب أعمال الرى وخلافه فان القيمة تصبح أضعافا مضاعفة.
وإذا شئنا فى النهاية أن نحسب قيمة ما استرده اسماعيل من الشركة بحساب الجنيه فلا أقل من أن تقدر مبلغ ١٢ مليون جنيه للستين ألف هكتار المذكورة يضاف إلى هذا المبلغ مبلغ ٢٥ مليون ثمن حصة الـ ١٥ ٪ التى تركها اسماعيل لمصر. هذا عدا ثمن الترعة العذبة وما إليه من تصقيع الأراضى الواقعة على ضفتيها.
أما إذا نظرنا إلى أعمال اسماعيل فى هذه الناحية من جانبها الأدبى فحسبك أنه تمكن من الغاء السخرة فى أعمال القناة وصيانة سيادة الأراضى المصرية ضد خطر الاستعمار الأجنبى وحفظ المرافق العامة المصرية برفضه السماح لشركة القناة من استغلال امتياز أصبح يعد الآن من حقوق الدولة.

* * *

ولعل القارىء قد لاحظ أننا توسعنا فى ذكر موقف اسماعيل حيال شركة القناة. وقد تعمدنا هذا لأن كثيرا من الناس ومن بينهم بعض مؤرخينا مع الأسف أخذوا على اسماعيل مضيه بمشروع القناة إلى النهاية وكأنهم أرادوا أن يلمحوا إلى إنه كان فى مقدوره أن يأمر بوقفه والعدول عنه. وكأنهم تناسوا ما كان يحيط بالمشروع من مختلف الملابسات. فلعلهم يعرفون بعد ما ذكرناه أن ذلك الرجل العظيم لم يكن يسعه أن يفعل أكثر مما فعل. وإذا كانت وقفته لالغاء السخرة قد أقامت عليه فرنسا وعاهلها نابليون وكان ما كان من نتائجها فكم كانت تقوم القيامة وتعصف الأعاصير بمصر لو أن =

سنوات عديدة (١٨٧٧) وإنه لما يبعث على السرور أن نسجل هنا أن انجلترا أيدت هذا المشروع من صميم فؤادها وساعدت على تذليل معارضة الباب العالى وغيره من الدول فى التعرض للامتيازات

= اسماعيل رفع يده فى وجه الشركة ليأمر بوقف العمل فى القناة ؟ إن على الناقدين قبل أن يقولوا كان ينبغى على اسماعيل أن يفعل كيت وكيت أن يسألوا أنفسهم أولا ماذا عسى كان يحدث لو أنه فعل كيت وكيت .

والآن وقد انتهينا من مسألة القناة وملابساتها فننتقل إلى ناحية مهمة أخرى من نواحى اسماعيل المتشعبة ألا وهى محاربة النخاسة .

محاربة النخاسة

السير صمويل بيكر

لاتذكر النخاسة وما اتخذه اسماعيل باشا من التدابير لمحاربتها إلا ذكر معها السير صمويل بيكر . فكأن اسمه علم عليها إذ إلى مجهوداته يرجع أكبر فضل فى سبيل القضاء عليها فى أوكارها .

وقبل أن نخوض فى مسألة النخاسة لابد أن نلاحظ أن بعض مؤرخينا المصريين ومنهم الأستاذ الرافعى بك يأخذون على اسماعيل باشا أنه عهد فى الحملات والتجاريد المصرية لا إلى ضباط الجيش المصرى على نحو ما كان يفعله ساكن الجنان محمد على باشا الكبير بل كلف بها جماعة من الأنجليز فكان ذلك على قول الأستاذ موطن الضعف فى سياسة اسماعيل لأنه مهد الطريق للسياسة الأنجليزية التى كانت ترمى بعد فتح القناة إلى احتلال مصر والسودان .

وقد ذهب الأستاذ فى تأييد رأيه إلى أن الأمير ادوارد ولى عهد انجلترا عرض على اسماعيل باشا أثناء وجوده بمصر فى حفلات القناة أن يعهد إلى المستر صمويل بيكر بمطاردة الاتجار فى الرقيق فى السودان باسم الحكومة المصرية وأن الخديو سرعان مالبى الطلب توددا للانجليز لأن الغرض من هذه المهمة لم يكن لخدمة الانسانية بل تحقيقا لمآرب سياسية كما ذكر الاستاذ !!

أما المستر كرابيتس فقد خالف الأستاذ الرافعى بك فيما ذهب اليه وقال إن الخديو تعرف فعلا بالمستر صمويل بيكر فى حفلة رقص تنكرية أقيمت أثناء حفلة افتتاح القناة وكان قد جاء من انجلترا للاشراف على الترتيبات التى عملت لاستقبال سمو ولى عهد بلاده =

وإليك ما كتبه بهذه المناسبة لورد ستانلى فى ١٨ اكتوبر سنة ١٨٧٦ إذ قال :
« إن حكومة جلالة الملكة لاتميل طبعا إلى أن يكون لها اختصاص

= وهنا ذكر المستر كرايتس أن الخديو هو الذى فاتح سمو ولى عهد انجلترا مقترحا تكليف المستر بيكر بقيادة تجريدة مصرية ترافقه إلى جهات النيل الأبيض للقضاء على تجارة الرقيق وتوطيد دعائم الأمن فى السودان . فأبدى سمو الأمير ادوارد ارتياحه لهذا الاقتراح وانضم إلى اسماعيل باشا فى اقناع صمويل بقبول المهمة .

وقد قال المستر كرايتس فى تعليل أسباب التجاء اسماعيل باشا إلى صمويل فى محاربة هذه التجارة أن الخديو رأى بالتجربة أن أعوانه فى الخرطوم وفى فاشودة لايمكن الاعتماد عليهم فى تعقب تجار الرقيق لأنهم كانوا يتغاضون عنهم فى مقابل مايتناولونه من الرشاوى.

ولعل المستر كرايتس لم يعد الحقيقة فى قوله هذا . لأن تجارة الرقيق كانت ماتزال رائجة حتى إلى بداية حكم اسماعيل باشا وهو ما يسلم به الأستاذ الرافعى بك نفسه إذ قال مانصه :

« .. وكان الاتجار بالرقيق ممنوعا من عهد محمد على ولكن هذا المنع لم يكن إلا إسميا وبقيت تجارة الرقيق فى السودان قائمة إلى عهد سعيد باشا بعين الحكومة وبصرها (كذا !) وبتأييد موظفيها (كذا !) وكان يتولاها تجار أقوياء لهم بيوت تجارية كبيرة تتجر فى حاصلات السودان وفى الرقيق وتربح من كل ذلك الأرباح الطائلة. وكان تجار الرقيق لما لهم من النفوذ والسطوة والمال يقيمون فى مختلف الجهات معاقل حصينة اتخذوها مراكز للتجارة واصطياد الرقيق .

« فلما تبوأ اسماعيل عرش مصر اعتزم أن ينضم إلى حركة العاملين على تحرير الأرقاء فى أنحاء العالم وأن يكسب ثناء الانسانية فى مقاومة تجار الرقيق (كذا !) وبذل جهوداً كبيرة فى هذا السبيل . .

« ففى سنة ١٨٦٣ (أى فى السنة التى تولى الحكم فيها) أرسل إلى موسى باشا حمدى حكمدار السودان يأمره بتعقب تجار الرقيق وحربهم . . .

ثم استطرد الأستاذ فقال « وقد عهد الخديوى أيضاً إلى السير صمويل بيكر ثم إلى غوردون باشا من بعده العمل على تحقيق هذه الغاية . . . إلى أن قال : « ففى الحق إن الخديو اسماعيل قام بعمل مجيد ، وأسدى إلى الانسانية خدمة جليلة فى منع هذه التجارة الممقوتة . »

غير عادى فى مصر بل إنها لترحب من أعماق قلبها بكل تحسن فى النظام القضائى قد يسوغ موافقتها على العدول عن اتخاذ إجراءات قضائية خاصة فى مصر». وبعد أن أسهب الكاتب فى وصف «مساوىء هذا الاختصاص

= فهل لنا أن نسأل حضرة الأستاذ الرافعى بك كيف يوفق بين اعترافاته هذه ودعواه السابقة بأن «الغرض من مهمة السير صمويل بيكر لم يكن لخدمة الانسانية بل لتحقيق مآرب سياسية»؟

وكيف يلام اسماعيل إذا كان فى سبيل اعتزامه استئصال شأفة هذه التجارة الممقوتة قد لجأ إلى مساعدة ذلك الانجليزى وهو السير بيكر بعد أن اعترف الأستاذ الرافعى بك بأن تجارة الرقيق كانت قائمة إلى عهد سعيد باشا بعين الحكومة وبصرها وأن منعها لم يكن إلا إسميا فقط؟

ونترك القارىء يحكم على أقوال الأستاذ وننتقل إلى بعض مجهودات اسماعيل فى محاربة النخاسة وهى مجهودات تضيف إلى تاريخه صفحة ذهبية جديدة بجانب الصفحات الذهبية الخالدة التى مر بك طرف منها .

***

بدأ المستر صمويل بيكر من تلقاء نفسه رحلاته إلى أواسط أفريقيا فى عهد سعيد باشا وكان يرمى إلى اكتشاف منابع النيل الأبيض وكانت تصحبه عقيلته النبيلة التى كانت المثل الأعلى للزوجة الصالحة التى تحفز بعلها فى سبيل المجد وتذليل الاخطار بما تظهره أمامه من الشجاعة والاقدام مما جعله يشيد باسمها ويعزو إليها ما أصابه من التوفيق فى اكتشاف بحيرة البرت نيانزا فى ١٤ مارس سنة ١٨٦٤

وكانت الجمعية الجغرافية البريطانية قد أوفدت من قبل الرحالتين «اسيك» «وجرانت» لاكتشاف منابع النيل فجاءا بطريق زنجبار واكتشفا فى يوم ٢٨ يولية سنة ١٨٦٢ بحيرة «ايكروى» ومنبع النيل منها وسمياها بحيرة فكتوريا نيانزا .

وكان المستر صمويل بيكر يؤمل أن يصل إلى تلك البحيرة مع الرحالتين المذكورين وأن يقاسمهما ألقاب الشرف والمجد . ولكن شاءت المقادير أن يسبقاه إليها وأن يستمر وحده تصحبه عقيلته الشجاعة فى تحقيق الغاية التى وضعها نصب عينيه .

وقد اختار طريق الخرطوم ومنها إلى غوندوكرو فوصلها فى ٢ فبراير سنة ١٨٦٣ وهى آخر نقطة وصلت إليها حملات البكباشى سليم بك قبطان فى عهد محمد على فى =

وجوده » قال : إن حكومة جلالة الملكة لا تميل طبعا إلى استمرار اختصاص لا تكسبها المعاهدة إياه وإلا كان مثل ذلك العمل فى نظرها بمثابة اغتصاب - وإن كانت الظروف هى التى ساعدت على إيجاده - وهو

= سنة ١٨٤٠ وفيما هو يعد عدته لمواصلة رحلته فى أعالى النيل التقى بالرحالتين اسبيك وجرانت فأخبراه باكتشاف بحيرة فكتوريا وبما سمعاه من الأهالى عن وجود بحيرة أخرى لم يتم اكتشافها بعد . فواصل السير حتى بلغها فى ١٤ مارس سنة ١٨٦٤ وسماها بحيرة البرت نسبة إلى الأمير البرت زوج الملكة فيكتوريا .

وفى اكتوبر سنة ١٨٦٥ عاد المستر صمويل بيكر إلى انجلترا عن طريق غوندوكرو والخرطوم وبربر وسواكن واستقبلته لندن كما تستقبل الغزاة الفاتحين . وبمناسبة الترقيات والتعيينات التى تصدر فى رأس السنة أنعمت عليه الملكة فيكتوريا بلقب سير سنة ١٨٦٦

وظل السير صمويل بيكر بعيدا عن مصر إلى أن حان موعد إقامة الحفلات بمناسبة افتتاح قناة السويس فعاد إلى القاهرة فى سنة ١٨٦٩ للاشتراك فى إعداد معدات استقبال ولى عهد انجلترا .

ولما كان الخديو إلى جانب اهتمامه بتوسيع حدوده فى الجنوب قد أعلن عزمه على استئصال شأفة النخاسة وأنشأ لهذه الغاية محطة عسكرية فى فاشودة ووضع فيها حامية تبلغ ١٠٠٠ جندى ، ونظرا لاعجابه بأعمال السير صمويل بيكر وجرأته أصبح يعتقد أنه الرجل الذى يصلح للقضاء على النخاسة فى أوكارها . لذلك صمم على إدخاله فى سلك خدمته .

ثم كانت الحكاية التى نقلناها عن كتاب المستر كرابيتس وتوسيط سمو ولى عهد انجلترا فى مفاتحة السير صمويل بيكر فى دخول خدمة الحكومة المصرية .

وعاد السير صمويل بيكر بعد انتهاء حفلات القناة إلى لندن لتجهيز معدات رحلته ولتحقيق الغاية النبيلة التى عهد إليه اسماعيل بتحقيقها .

ولما رجع إلى مصر أصدر الخديو اسماعيل مرسوما للسير صمويل بيكر نرى أن ننقل بعضه عن كتاب المستر كرابيتس ليتبين القارىء غاية ذلك الخديو العظيم من فتح السودان. قال المرسوم :

ضار بالمصالح البريطانية بقدر ماهو حاط بكرامة الأدارة المصرية وصفتها.»
ومما يبعث على أشد الأسف من الناحية الأخرى أن يكون اسماعيل ومن

« نحن اسماعيل خديو مصر

« نظرا لشراسة أخلاق القبائل المقيمة فى حوض النيل

« ونظرا لعدم وجود حكومةولا قوانين ولا أمن فى تلك الأصقاع

«ونظرا لأن الانسانية تجأر بضرورة الضرب على أيدى صيادى الرقيق الذين يقطنون تلك الاصقاع بعددهم العديد

« ونظرا لأن نشر التجارة المشروعة فى تلك الأصقاع يعتبر خطوة عظيمة فى سبيل المدنية مما يؤدى حتما إلى فتح طريق الملاحة البخارية فى البحيرات الكبرى الواقعة فى منطقة خط الاستواء فى أواسط أفريقيا وقيام حكومة نظامية دائمة

« وقد قررنا وأصدرنا أمرنا بما يأتى :

« إعداد تجريدة تكون غايتها

« أولا : إخضاع الأصقاع الواقعة فى جنوبى غوندوكرو لسيادتنا

« ثانياً : منع تجارة الرقيق

« ثالثاً : إدخال نظام لنشر التجارة بطريقة منظمة

« رابعاً : فتح البحيرات الكبرى فى منطقة خط الاستواء للملاحة

« خامساً : إنشاء سلسلة محطات عسكرية فى أواسط أفريقيا ومستودعات تجارية يبعد بعضها عن بعض بمسيرة ثلاثة أيام وأن تكون غندوكرو قاعدة الأعمال الحربية . وقد عينا السير صمويل بيكر لمنصب القيادة العليا لهذه التجريدة لمدة أربع سنوات تبدأ من أول ابريل سنة ١٨٦٩ . كما أننا منحناه أكبر سلطة على كل من يشترك فى التجريدة بمافى ذلك سلطة الحكم بالأعدام .

« كذلك منحناه نفس السلطة المطلقة على كافة الأصقاع الواقعة فى حوض النيل جنوبى غندوكرو . »

فأنت ترى من هذا المرسوم أن اسماعيل لم يجعل غايته منع النخاسة وحدها بل فتح البحيرات الكبرى للملاحة ونشر التجارة المشروعة وهى جميعاً ثلاث غايات حميدة .

وقد تظن أن تجريدة السير صمويل بيكر كانت من الأعمال الكمالية التى كان فى وسع اسماعيل الاستغناء عنها . ولكن ماذا عساك أن تقول إذا علمت أن منع النخاسة =

خلفه من الأنجليز فى أعمال الاصلاح هم أول من أسف لأن التدخل الأجنبي وجد الباب مفتوحاً للتدخل عن طريق هذا المعهد الدولى الذى

= كان من الأعمال المستحيلة إن لم يقترن فى الوقت نفسه بانتشار التجارة وفتح البحيرات للملاحة . وهذا ما أكده الجنرال غوردون نفسه عند ما كتب إلى شقيقته قبل سفره إلى السودان فى أول بعثة قام بها إذ قال فى صفحة ٩٠ من كتابه « خطابات غوردون إلى شقيقته» المطبوع فى لندن سنة ١٨٨٨ مانصه :

« لقد شاء الله تعالى أن تظل سوق الرقيق رائجة عدة أعوام . وبما أن النخاسة بمثابة طبيعة ثانية للأهالى فان استئصالها يقتضى أكثر من تجريدة واحدة . فلو فتحت البلاد للتجارة والملاحة لتلاشت هذه التجارة الممقوتة من تلقاء نفسها . »

وقال بعد أيام فى خطاب آخر ورد فى الصفحة التالية من كتابه السالف الذكر :

« إنى اعتقد أن الخديو لو عمر السودان لتمكن من إلغاء تجارة الرقيق . ولكن لا أمل له فى فعل شيء من ذلك إلا إذا استطاع التنقل فى أنحاء البلاد . وعندى أنه ينبغى فتح البلاد بتمهيد طريق الملاحة البخارية والبحيرات الكبرى وإذ ذاك يكون فى مقدورى أن أعرف من هم مروجو تجارة الرقيق فأطلب إلى الخديو إلقاء القبض عليهم . »

ولقد شاءت المقادير أن يوفق اسماعيل باشا فى استئصال شأفة النخاسة وأن ينشر الأمن فى ربوع السودان حتى أن السير صمويل بيكر أشاد بهذه الحقيقة حتى فى سنة ١٨٨٤ التى كانت فيها نيران الثورة المهدية تكتسح البلاد فى عهد خلف اسماعيل باشا. قال السير صمويل بيكر فى مذكراته ص ٢٨٥ :

« كان الأمن العام فى عهد اسماعيل مستتبا فى كافة بلاد الخديو وكان الغريب المسيحى على طول الطريق من الأسكندرية إلى الخرطوم يشعر بطمأنينة تزيد عما يشعر به أحد أبناء لندن فى حديقة هايدبارك بعد الغسق ...... ولكن السودان الآن أى فى سنة (١٨٨٤) أصبح فى فتنة عامة . »

ولتزداد اقتناعا بأن تجريدة السير صمويل بيكر لم تكن كالية نقتطف لك نبذة من مذكراته التى نشرها قبل أن يتعرف باسماعيل أو يقع تحت نفوذه . والمذكرات تستند إلى ملاحظات يومية كان يدونها السير صمويل بيكر فى سنة ١٨٦١ أثناء زيارته لأواسط أفريقيا قال :

« لايمكن رفع أفريقيا إلى أى مستوى يقرب من مستوى المدنية مالم تمنع النخاسة =

لايزال يعرض مصر للتدخل الأجنبي مابقى موجودا . وقد اعترف أحد

= بتاتا . وأول خطوة لاغنى عن اتخاذها فى سبيل تحسين شؤون القبائل المتوحشة الضاربة فى حوض النيل الأبيض هى القضاء على تجارة الرقيق قضاء مبرماً. فالى أن يتم هذا فلاسبيل إلى نشر التجارة المشروعة . . . . . فالبلاد موصدة تماماً فى وجه أى إصلاح . »

ولقد حدثنا السير صمويل بيكر فى مذكراته حديثاً طريفا عن بعض مشاهداته فى السودان وعن طريقة صيادى الرقيق فى مهنتهم الممقوتة . فقال ما ملخصه :

« عند وصولى إلى غوندوكرو فى أول يناير سنة ١٨٦٣ كان الناس يظنوننى من جواسيس الحكومة البريطانية وكلما اقتربت من خيام أية قبيلة كنت أسمع فك الأصفاد قبل وصولى إلى الخيام وإذ ذاك يتم تهريب الرقيق وإخفاؤهم فى مكان بعيد عن الأنظار. وكان أحد تجار الرقيق من أبناء الطائفة القبطية وهو أبو القنصل الأمريكى فى الخرطوم. ومما أثار دهشتى أن السفينة التى وصلت إلى غوندوكرو مقلة بعض أولئك اللصوص كان يخفق عليها العلم الأمريكى !

ثم استطرد السير صمويل بيكر فقال :

« لولا تجارة النيل الأبيض لأصبحت الخرطوم ولا وجود لها . أما تلك التجارة فهى النخاسة واغتيال الناس . ولاحاجة بعد ذلك إلى الأسهاب فى وصف أخلاق أبناء الخرطوم . أما كمية العاج الوارد من بلاد النيل الأبيض فهى من الضآلة بحيث لا يصح أن تدخل ضمن احصاء الصادرات إذ لا يزيد مقدارها السنوى عن ٤٠,٠٠٠ جنيه .»

ثم راح يحدثنا عن نوع التجار فى بلاد النيل الأبيض فقال :

« هناك نوعان من التجار أحدهما ذو مال والثانى عبارة عن طائفة من المغامرين المفلسين . أما نظام العمل فواحد فى الحالتين ويمكن معرفة سلوك الأول من وصف سلوك الثانى .

« فالرجل المفلس يؤلف حملة ويقترض عليها النقود اللازمة بفائدة ١٠٠ ٪ ويوافق على دفع القرض عاجا بنصف ثمنه فى السوق . ومتى حصل على المال اللازم استأجر عدداً من السفن ورهطاً من الرجال يتراوح عددهم بين ١٠٠ و ٣٠٠ وجلهم من الأعراب أو من حثالة البلاد المجاورة ممن فروا من وجه العدالة ووجدوا ملجأ حصيناً فى مخابىء الخرطوم . ثم يبتاع لرجاله عدداً من البنادق وكمية هائلة من القذائف هذا عدا بعض مئات الأرطال من الخرز . فاذا ما أتم إعداد حملة القرصنة هذه دفع لكل رجل من رجاله مرتبه لمدة =

قضاة المحاكم المختلطة بهذه الحقيقة فقال فى كتابه «مصر وأوربا ص٢١» ما نصه :



نقل أجزاء البواخر النيلية على ظهور الأبل من مصر إلى السودان فى صحراء النوبة فى أواخر سنة ١٨٦٩ استعدادا لفتح اقليم خط الاستواء

= خمسة أشهر سلفاً بمعدل تسعة شلنات فى الشهر على أن يدفع لهم ستة عشر شلنا أخرى عن كل شهر آخر بعد انقضاء الخمسة أشهر السابقة .

« وتقلع السفن عادة فى شهر ديسمبر وعند وصولها إلى الناحية المطلوبة ينزل ركابها إلى البر متوغلين فى داخل البلاد إلى أن تسوقهم الأقدار إلى قرية أحد زعماء الزنوج ممن تكون الروابط قد توثقت بينهم وبينه من قبل . فاذا ما ملأ الأعجاب بهؤلاء الأصدقاء الجدد ممن يحس فى نفسه بتفوق سلاحهم لا يتردد فى انتهاز الفرصة لتلبس تحالفهم ولأغرائهم بمهاجمة عدو من أعدائه فى الجهات المجاورة . وإذ ذاك تسير الجماعة فى الليل بارشاد مضيفيهم الزنوج إلى أن يصلوا بعد مسيرة ساعة إلى القرية الآمنة التى يكون قد تقرر مهاجمتها قبيل الشروق بنحو نصف الساعة . فاذا ما حانت ساعة الهجوم أحيط بالقرية المنكودة من جميع جوانبها وسكانها يغطون فى نومهم . ثم إذا بالمهاجين يوقدون النار فى أكواخ القش من كل جانب . وليتهم يكتفون بهذه النيران تلتهم الضحايا الآمنين كلا بل تراهم يطلقون بنادقهم عليهم . وفى وسط هذا الذعر العام تهجر الضحايا المساكين أكواخها طلباً للنجاة من هذا الجحيم المستعر فيحصدهم رصاص البنادق حصدا بينما النساء والأطفال يهرعن من هنا إلى هناك وسط هذا الخطر والازدحام فيتخطفهن المهاجون ويحكمون وثاقهن . وسرعان =

« إن أحكام هذه المحاكم قد خدمت أجل خدمة مجموعة الأجانب الذين



الأسطول النيلي الذى تحرك من الخرطوم فى يوم ٨ فبراير سنة ١٨٧٠ لفتح اقليم خط الاستواء وكان مؤلفا من ٣٠ سفينة شراعية وباخرتين

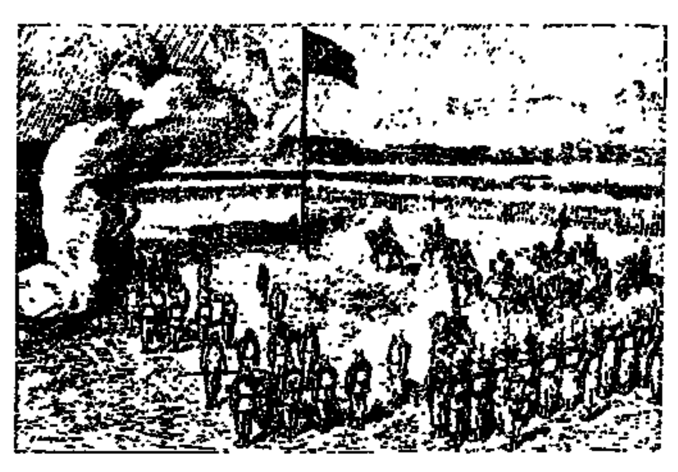
= ماتستولى الجماعة على المواشى فى زرائبها ويسوقونها أمامهم كجزء من الغنيمة . أما النساء والأطفال فينقلونهن إلى أحد أسواق الرقيق . »

وقد قدر السير صمويل بيكر عدد العاملين فيما يسمونها « تجارة العاج » فى حوض النيل الأبيض بنحو ١٥,٠٠٠ من المصريين هذا عدا التجار السودانيين . وكان لكل من أولئك التجار منطقته الخاصة تمتد فيها محطاته العسكرية وفى كل محطة ما لا يقل عن ٣٠٠ شخص وله الحق فى امتلاك ما يشاء من الأراضى الواقعة داخل حدود منطقته . ومن هنا نستطيع أن تدرك عظم نفوذ تجار الرقيق وكيف أن مساحات واسعة من السودان كانت محتلة بعصابات مسلحة من أهالى الخرطوم . وبديهى أنه كان فى استطاعة هؤلاء التجار عقد اتفاقات مع الأهالى لمهاجمة وإبادة جيرانهم واختطاف نسائهم وأطفالهم وغنم أكبر ما يمكن غنمه من الماشية والضأن على نحو ما مر بك .

ولم نذكر لك تلك التفاصيل التى نقلناها عن كتاب المستر كرابيتس إلا لنبين لك مبلغ ما كان لتجار الرقيق من قوة عسكرية منظمة ومسلحة أتم تسليح . فاذا كان اسماعيل قد قرر القضاء على أولئك التجار فانه لم يفته ما كانوا عليه من القوة والمناعة وتفوقهم عليه فى كل شىء .

* * *

يستغلون خيرات البلاد ومواردها، وأدعى إلى الأسف من كل ما تقدم



حفلة رفع العلم المصرى على غوندوكرو وإعلان ضمها إلى مصر
(٢٦ مايو سنة ١٨٧١)

= والآن وقد عرفت فداحة مهمة السير صمويل بيكر وما كان يواجهه من ناحية خصومه الأقوياء من تجار الرقيق فحسبنا أن نقص عليك أنه بعد تسلم المرسوم الذى أعطاه إياه اسماعيل باشا على نحو ما مر بك وبعد أن جعل مرتبه السنوى عشرة آلاف من الجنيهات وتقرير معاش لأسرته إذا أدركته الوفاة فى أثناء رحلته، سافر إلى لندن لتجهيز الحملة فأوصى بانشاء بعض السفن الخفيفة الصالحة للملاحة النيلية واتفق مع مصنع السفن أن يكون التسليم لا فى الاسكندرية أو القاهرة بل فى الخرطوم !!

وفى وسعك أن تتصور مقدار ما تكبده السير صمويل بيكر من المصاعب فى نقل أجزاء البواخر النيلية على ظهور الابل عبر صحراء النوبة. لأن الشلالات كانت تحول دون سفر البواخر المذكورة مما دعا إلى تفكيك أجزائها وحملها على ظهور الابل. ولم تنقل الابل أجزاء البواخر فقط بل نقلت المهمات الثقيلة هذا بينما سافر السير صمويل بيكر بحرا إلى السويس ومنها إلى سواكن فالى بربر على ظهور الابل ثم إلى الخرطوم على ظهر الباخرة.

وفى ٨ فبراير سنة ١٨٧٠ غادر الخرطوم على رأس حملة عددها ١٦٥٤ جنديا عدا ٢٠٠ من الخيالة الغير نظاميين وبطاريتين من المدافع. وقد نقلت هذه الحملة ثلاثون سفينة شراعية وباخرتان.

ولما وصل إلى ملتقى نهر السوباط بالنيل جنوبى فاشودة أنشأ محطة التوفيقية =

أن يكون عزل اسماعيل سبباً فى تعطيل مـا كان قد شرع فيه من أعمال



المعسكر المصرى فى غوندوكرو (الاسماعيلية) سنة ١٨٧٢

= نسبة إلى سمو الأمير محمد توفيق ولى عهد الأريكة الخديوية . وبعد مدة سافر إلى غوندوكرو فوصلها فى ١٥ ابريل سنة ١٨٧١ ورفع عليها العلم المصرى فى ٢٦ مايو فى احتفال كبير أعلن فيه رسمياً ضم هذه البلاد إلى الأراضى المصرية .

وكان يوم الاحتفال بضم هذه المدينة إلى أملاك مصر يوماً مشهوداً . فقد وقف السير صمويل بيكر تحت السارية وطولها ٨٠ قدماً واصطف الجنود ومعهم مدافعهم ولما فرغ السير صمويل من تلاوة الأعلان الرسمى بضم هذه الجهات إلى أملاك مصر رفعت الراية المصرية فحياها الجنود وأطلقت المدافع تحية واجلالا .

وسرعان ما استبدل السير صمويل بيكر اسم غوندوكرو باسم الاسماعيلية نسبة إلى الخديو وجعلها عاصمة مديرية خط الاستواء .

وفى ٢٢ يناير سنة ١٨٧٢ استأنف السير صمويل بيكر السير فى النيل الأبيض وأسس نقطا عسكرية بأعلى النيل ومنها الابراهيمية (نسبة إلى ابراهيم باشا) على بحر الجبل وأنشأ حصونا أخرى .

ولم يلبث أن ضم السير صمويل بيكر مملكة اونيورو المتاخمة لبحيرة البرت شرقا إلى أملاك مصر بعد خلع ملكها كابريقه وتولية قريبه ريونجا وكان ذلك فى ١٤ مايو سنة ١٨٧٢

ثم مالبث ملك أوغندا « أميتسى » أن أعلن ولاءه لخديو مصر وتبودلت الهدايا بينه وبين السير صمويل بيكر . وبفضل هذا الولاء فتحت الطريق بين أعالى النيل وزنجبار .



ريونجا ملك أونيورو يصافح بيكر باشا والجنود المصرية مصطفة
لاستقباله بقيادة القائمقام عبد القادر حلمى بك (سنة ١٨٧٢)

= وفى ابريل سنة ١٨٧٣ انتهت مدة خدمة السير صمويل بيكر فعاد إلى الاسماعيلية بعد أن استخلف مكانه فى قيادة الجيش رؤوف بك ورجع إلى الخرطوم فالقاهرة حيث حظى بمقابلة الخديو (فى أغسطس سنة ١٨٧٣) فأنعم عليه بالنشان العثمانى كما أنعم على القائمقام عبد القادر بك حلمى برتبة الميرالاى جزاء خدماتهما فى بسط سلطة مصر فى منطقة خط الاستواء .

وعبد القادر بك حلمى هو أركان حرب بيكر باشا وقد صار بعد عبد القادر باشا حلمى حكمدار السودان سنة ١٨٨٢ صاحب المواقع المحمودة فى الدفاع عن سلطة مصر فى السودان (وهو والد السباح المشهور اسحاق حلمى) .

وقبل أن تنتهى خدمة السير صمويل بيكر أرسل إلى اسماعيل باشا يخبره بأنه لا ينوى تجديد عقد خدمته وأنه يقترح تعيين ابن أخيه الضابط جوليان بيكر مكانه. وفى فبراير سنة ١٨٧٢ رد عليه اسماعيل ردا رقيقا قال فيه إنه مازال ينظر فى الاقتراح دون أن يجيب عليه فورا. ثم وقع اختيار اسماعيل فيما بعد على غوردون باشا ليحل محل السير صمويل بيكر .

وقبل أن ننتقل إلى الجنرال غوردون نذكر للقارئ أن اسماعيل باشا كان طوال حملة السير صمويل بيكر شديد الاهتمام بها . ونحسب أننا لا نكون إلا قد وفينا الخديو بعض حقه إذا اقتبسنا بعض فقرات الخطاب الذى أرسله فى فبراير سنة ١٨٧٢ =

قاصراً على الأحوال الشخصية الأسلامية مما كان لابد أن يؤدى مع

= إلى السير صمويل بيكر وسبقت الأشارة إليه . فهذا الخطاب الذى ننقله عن كتاب المستر كرابيتس يصح أن يتخذ منهاجا لما توحى به الدبلوماسيه لرحل له عبقرية اسماعيل وهو يبين لنا فى الوقت نفسه معنى الاستعمار الذى يراد به نفع البلاد المستعمرة (بالفتح) .

قال الخديو مخاطبا السير صمويل :

«لقد وصلت الآن إلى بلاد تعتبر جميلة وخصبة فى وقت واحد وأنت تعلم أنه يحيط بك من القبائل أناس انتزعت من نفوسهم الثقة وانقلبوا أعداء ألداء بفعل صيادى الرقيق فى الماضى وهو ما وفقتم فى مهمتكم فى وضع حد له . ولكن خطوط مواصلاتك مع الخرطوم غدت مترامية وصعبة ولهذا يلوح لى أن من خطل الرأى أن تتقدم إلى الأمام وتترك وراءك من رجال القبائل من لم يسلس قياده بعد ولا عاودته الثقة فينا . فقف عند غوندوكرو وحصن مركزك وابدأ عملك ولا تنى فى الأعلان عنه بين مشايخ القبائل .»

ولم يشأ اسماعيل أن يكتفى بهذا التعميم بل انتقل إلى التخصيص فقال :

« احتكر التجارة كما اقترحت . ولست أقول ذلك لأننى ممن يؤمنون بمزايا الاحتكار كلا بل لأننى أرى ما يسوغه فى الحالة التى نحن بصددها . وليس لك عنه غنى للتخلص من أولئك التجار الذين يتخذون من الرقيق واسطة للتعامل . ولكن استخدم الاحتكار استخداماً واسع الأطراف ومنطويا على السخاء ولن تلبث بعد آن قصير حتى تجعل الأهالى يستبدلون مصلحة غير مشروعة بمصلحة مشروعة .»

ثم استطرد الخديو فأشار إلى عدة مسائل رأينا أن نثبتها هنا قال :

« بودى أن أعرف السلع التى يهم الأهالى المساومة عليها . ويوجد معك هيجونبوتام ولا أحسب أن مهندساً واحدا فيه الكفاية ولذا سأبعث إليك بمهندس آخر يعمل تحت إشرافه . وأولى لك أن تفكر فى أنجع الطرق لتسهيل مواصلاتك مع الخرطوم . وقد أصبحت الآن متسلطا على قبائل «بارى» فالتزم العدل معهم وبذا تزداد ثقتهم فيك ويتأكدون أنك إنما هبطت إلى ديارهم بقصد تعليمهم وإرشادهم .

« وليس يفوتنى أن كل هذا العمل المادى والأدبى يستغرق وقتا طويلا . ولكن لو سهرت عليه حتى يثمر فكن على يقين بأنك تكون بذلك قد فتحت أمامك الطريق إلى البحيرات دون أن تخطو خطوة واحدة خارج غوندوكرو حتى ولو كانت هذه البحيرات تفصلها عنك مئات الأميال .

الزمن إلى الاستغناء عن المحاكم المختلطة .



المؤرخ المحقق الأستاذ عبد الرحمن بك الرافعي الذى اقتبسنا الكثير من كتابه القيم

= « لقد رسمت لك إجماليا حدود الخطة التي أريدك على سلوكها ولكنى أدع لفطنتك الطرق والوسائل لتحقيق هذه الغاية . وبالاختصار لا تتقدم إلى الأمام بل علم الناس وعمر البلاد وحول القبائل إلى أصدقاء لك فتى أدركت هذا فسر إلى الأمام على بركة الله »

فماذا عساك أن تستخلص من هذا الخطاب الذى تفيض من جوانبه الحكمة وتتجلى فيه الرحمة والمقدرة السياسية ؟ وقل لى بربك أكان يمكن أن رجلين خطيرين كبيكر وغوردون لهما مكانتهما السامية بين مواطنيهم الانجليز يستقتلان فى الدفاع عن اسماعيل ويطريان سلوكه لولا إعجابهما به ؟ ألا إن الخديو اسماعيل ما كان ليظهر فى كتب هذين الرجلين بمظهر البطولة والعظمة لولا أنهما أحباه وقدرا ما كان يسديه للانسانية وللمدنية من الخدمات برغم ما أثاره الدائنون حوله من جلبة وضوضاء .

تخوف أوربا من توسع اسماعيل فى السودان

لقد ذكرنا لك مآخذ الأستاذ الرافعى بك على سياسة اسماعيل فى السودان ودعواه بأن الخديو عمل ما عمله تنفيذا لرغبة انجلترا . ونحسب أن ملاحظات حضرة الأستاذ الكبير تستقيم مع أبسط قواعد المنطق كانت تقتضى عقلا أن أوربا أو بالأحرى انجلترا =

وقد تجلت همة العهد الاسماعيلى فى حماية التعليم . فالنظام الذى وضع بمقتضى قانون سنة ١٨٦٨ للمدارس الابتدائية والثانوية والفنية كان

= تترك لاسماعيل الحبل على الغارب ليتوسع فى السودان مادام هذا التوسع هو فى النهاية لخدمة المصالح الانجليزية ولو عن طريق غير مباشر ربما غاب عن اسماعيل وقتئذ ولكنه لا يعقل أن يكون قد غاب على الساسة الانجليز. كما حدث عند ما بعثت انجلترا بالرحالة ستانلى لاحتلال أوغندا فسبقها اسماعيل إلى احتلالها كما فصله سمو الأمير عمر طوسون فى ص ٣١٩ من هذا الكتاب

والقارىء يسلم معنا بذلك . ولكن الواقع كان غير هذا على خط مستقيم . وفوق ما تقدم فان اسماعيل سرعان ما اضطره حملة الأسهم إلى أن يختزل أعمال الفتح والتعمير فى السودان . وأنت تعرف أن هناك على الدوام صلات خفية وعلاقات مبهمة بين المالية العليا ومحترفى السياسة . فلو لم تكن السياسة راغبة فى منع اسماعيل عن التوسع فى السودان لوجدت ألف سبب وألف مسوغ لصد أصحاب الأسهم عن مضايقة الخديو . ولكن كلا بل إن السياسة هى التى دفعت أصحاب الأسهم إلى العمل . فما كادوا يضغطون على اسماعيل حتى رأيناه يرسل بهذا الخطاب المرير (الغفل من التاريخ) إلى السير صمويل بكر وهو خطاب يشعر بأن الرجل اضطر اضطرارا إلى التخلى عن السير صمويل وترك ماعمره فى السودان تذروه الرياح السافيات . قال :

« عزيزى السير صمويل

« لقد حملتنى على الاعتقاد عند بدء ذهابك إلى السودان بأن نفقاتك بينما تظل فادحة فى خلال السنة الأولى فانها ستقل فيما بعد شيئاً فشيئاً وسنة بعد سنة . بل إنك تنبأت فعلا بأصابة مكاسب عظيمة .

« ولكنى لاحظت فى البيان الذى يصلنى سنويا من الجهات التى ترابط فيها أن النفقات لم تخفض بتاتاً وأنها لا تزال فى مثل المستوى الذى كانت فيه فى السنوات الأولى . . . . .

« ولعلك تدرك ياعزيزى السير صمويل أن السودان يتطلب أموالا طائلة لانجاز ما لاغنى عنه من المشروعات العمرانية فى السكك الحديدية وما إليها من المرافق العامة .

« ومتى كان الأمر كما ذكرت فانى مضطر يا عزيزى السير صمويل لأن أرجوك أن ترتب الأمور بشكل يساعد على تخفيض نفقات تجريدتك إلى المستوى الضرورى البحت =

جديراً بأن تفاخر به أية دولة أوربية . وحسبه أنه أدى إلى زيادة عدد المدارس من ١٨٥ فى سنة ١٨٦٢ إلى ٥٨٢٠ مدرسة فى سنة ١٨٧٨ كما بلغ عدد التلاميذ فيها نيفاً و ١٠٠٠٠٠ على أن العسر المالى الذى أصاب الميزانية فى العام التالى أدى إلى إنقاص هذا العدد إلى الربع وفضلا

= ولاحظ أنى إذ أطلب ذلك إليك فلكيما يكون من المستطاع إنجاز ما تقتضى مصالح السودان إنجازه من الأعمال العامة . »

أليس فى ذلك الخطاب الحجة الدامغة على أن وزارات الخارجية الأوربية أدركت ببعد نظرها أن ما يقوم به اسماعيل من أعمال التعمير فى السودان ليس له معنى إلا محاولة تخليص نفسه وتحريرها من رقابة الغرب وسيطرته ؟ ولسنا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن هذا الاستقلال فى الرأى هو الذى أثار القلق فى نفوس الساسة الأوربيين وجعلهم ينظرون إلى اسماعيل نظرة الريب المقرون بالخوف .

ذلك لأن فرنسا كانت طيلة عهد سعيد تعتبر مصر شبه مستعمرة فرنسية مما جعل انجلترا توجس خيفة على مصير وادى النيل وخاصة بعد حفر قناة السويس وقرب افتتاحها . ولذا لم تأل جهداً فى تأييد اسماعيل باشا فى معارضته لشروط امتياز مشروع القناة كما مر بك .

ولكن لم يكن معنى محاولة اسماعيل تخليص مصر من الشباك الفرنسية أن يقذف بها فى أحضان انجلترا . كلا بل كان يعمل ويعمل بنظام وترتيب وبفطنة ولباقة على تحقيق استقلال مصر . ولما كان يخشى أن يؤدى هذا إلى الاصطدام بتركيا يوما ما فانه آثر الا يستخدم فى تنظيم جيشه لا ضباطا إنجليز ولا فرنسيين بل ارتأى بثاقب رأيه أن يستخدم الضباط الأمريكان بعد ما أبدوه من ضروب الشجاعة فى الحرب الداخلية ولبعدهم عن الغايات والمطامع السياسية فى مصر .

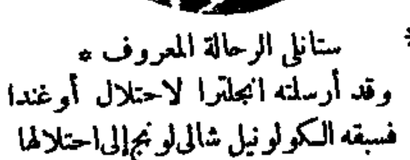
اسماعيل يستخدم الضباط الأمريكان

وكان طبيعيا فى أثناء وجود العلاقات السياسية بين أمريكا وتركيا ألا يقدم اسماعيل جهاراً على استخدام الضباط الأمريكان فى جيشه بقصد توجيههم ضد تركيا . ولكنه استطاع بواسطة الكولونيل « ثاديوس موت » الأمريكى الذى كان ملحقا بحرس الخديو أن يعقد عقود استخدام مع ثلاثة قواد وهم « ستون » و « لورنج » و « سيبلى » =



الكولونيل شالى لونج بك .
وقد كلفه سا كن الجنان اسماعيل باشا بالذهاب
إلى أوغندا وعقد محالفة مع ملكها ففعل





ستانلى الرحالة المعروف *
وقد أرسلته انجلترا لاحتلال أوغندا
فسبقه الكولونيل شالى لونج إلى احتلالها

= و ٢٢ أميرالاى وهم « شالى لونج » و « كولستون » و « ديريك » و « داى » و « فيلد »
و « جينيفر » و « كينون » و « لوكيت » و « ماكيفور » و « ماسون » و « بيردى » و « بروت »
و « الكسندر رينولدز » و « فرانك رينولدز » و « ريد » و « رهت » و « روجارز » و « سافدج »
و « ألن » و « وارد » وثلاث بمباشيه وثمانية صاغات وثلاثة يوزباشية وثلاثة جراحين .

وقد نص فى عقد الاستخدام الذى أمضاه هؤلاء الرجال قبل مغادرة الشاطىء الأمريكى على أن يبادروا بمقاتلة كافة أعداء الخديو أينما كانوا مع معافاتهم من محاربة قوات الولايات المتحدة (طبعا)

على أن الكولونيل شالى لونج كتب فيما بعد أنه أبلغ هو وزملاؤه بصفة سرية أنه عدا تنظيم الجيش المصرى فان مهمتهم الحقيقية هى مساعدة مصر على التحرر من السيادة التركية وقد أكد الكولونيل قوله هذا بما ذكره فى المجلد الأول من كتابة ص ١٧١ عن مقابلته الأولى لاسماعيل باشا إذ قال له الخديو:

« إنى أعتمد على فطنتك وإخلاصك وهمتك لتساعدنى على تحقيق استقلال مصر فمتى تم هذا ـ وهو ما سيتم باذن الله ومشيئته ـ فسأنعم عليك بأسمى المراتب . »

* هاتان الصورتان أعارهما سمو الأمير عمر طوسون للمعرب .

عن تلقى التعليم كان نصف التلاميذ يتناولون الوجبات الثلاث مجاناً بينما كان النصف الآخر يتنـاول وجبة واحدة على الأقل . وقد حل التهافت على التعليم محل الدراسة الاجبارية التى لجأ إليهـا محمد على لملء

اسماعيل لم يكن منفذاً للسياسة الأنجليزية

وما دمنا فى صدد التكلم عن الكولونيل شالى لونج فيحسن أن نذكر لك ما كتبه الأمير البحاثة سمو الأمير عمر طوسون فى جريدة الأهرام بعددها الصادر فى ٢٩ مايو سنة ١٩٣٣ فى مقال عنوانه « مديرية خط الاستواء » .

قال سموه حفظه الله :

عين الكولونيل شالى لونج رئيس أركان حرب الجنرال غوردون فى ٢٠ فبراير سنة ١٨٧٤ عند ماعين غوردون باشا مديرا لمديرية خط الاستواء . وقد كتب الكولونيل كتاباً إسمه « حياتى فى أربع قارات » جاء فى الصفحة ٦٧٠ منه قوله : « عند ما دخلت على الخديو اسماعيل كان يمشى بخطوات واسعة فى قاعة الاستقبال وهو متوتر الأعصاب وكان برفقتى نوبينو بك التشريفاتى الذى أدخلنى عنده فسألنى :

س أرأيت الجنرال غوردون ؟

ج نعم يا مولاى ولقد قضيت معه أكثر الليل

فقال الخديو :

« حسناً جدا والآن أعرنى أذنك . لقد وقع الأختيار عليك لتكون رئيس اركان حرب لعدة أسباب: أهمها المحافظة على المصالح المصرية فهناك فى لوندرا يوشك أن تنظم حملة بقيادة رجل يقال له ستانلى أمريكى الجنسية على ما يزعمون والغرض من هذه الحملة حسب الظاهر نجدة الدكتور ليفنجستون أما الغرض الحقيقى منها فهو رفع العلم البريطانى على ربوع أوغندا فتوجه أنت إلى غوندوكرو وأسرع فى الذهاب إلى أوغندا ولا تضيع أوقاتك واسبق حملة لوندرا وأبرم معاهدة مع ملك أوغندا فتمسى مصر مدينة لك سرمديا بواجب الشكران معترفة بالجميل. إذهب وليكلل مسعاك بالنجاح إن شاء الله . » فذهب كما أمره مولاه . ومن هناك كتب فى كتابه « مصر ومديرياتها المضيعة » ص ٢٤ ص ٢٥ ما نصه :

« لقد توصلت إلى إصابة الهدف السياسى الذى كانت ترمى إليه مأموريتى ونجحت فى ذلك إلى أبعد مما كنت أرجو وعقدت معاهدة مع الملك أميتسى اعترف فيها بوضع مملكته تحت حماية مصر . وقد أبلغت المعاهدة إلى الخديو واتخذت أساسا للمذكرة الرسمية التى أصدرتها مصر وقررت بموجبها ضم جميع الأراضى الواقعة حول بحيرات فيكتوريا والبرت الكبرى . » .

مدارسه بالطلبة . وكثيراً ما كنت ترى شبانا يتعاونون فيما بين أنفسهم على أن يقوموا بأداء نفقات أحدهم فى المدرسة فى مقابل تعهده بتعليمهم فى أحد الفصول الليلية . ولا ريب فى أن تنبه المصريين الفجائى هذا إلى مزايا التعليم الأوربى أدى بطبيعة الحال إلى تباين النتائج . وعلة ذلك أن العقل المصرى أكثر ميلا إلى الحفظ منه إلى القياس والاستنتاج



السير ريجنالد ونجيت
المندوب السامى البريطانى فى مصر سابقا

= وقد اختفت هذه المذكرة من دار المطبوعات بمصر وهى المذكرة التى أرسلها شريف باشا ناظر الخارجية إلى قناصل الدول وقد جاء بعد تعداد المواقع التى خاضتها الجنود المصرية ما نصه :

« وعلى ذلك قد تم إلحاق جميع البلاد الواقعة حول فيكتوريا والبرت بمصر وفتحت البحيرتان وروافدهما ونهر السومرست للملاحة وصارت ممهدة للاستكشافات التى يقوم بها غوردون باشا . »

ولعلك توافقنا على أن اسماعيل فى عمله هذا لم يكن يصدر عن رغبة انجلترا ولا كان منفذا لسياستها كما يؤخذ من أقوال الأستاذ الرافعى بك .

ونستسمح القارئ فى هذا الاستطراد ونعود الآن إلى الموضوع فنقول إن الضباط الأمريكان بدأوا أعمالهم فى الجيش المصرى فى ٣٠ مارس سنة ١٨٧٠ وكان استخدامهم بمثابة بداية عهد جديد فى تاريخ مصر اذ حرر اسماعيل بلاده من ألاعيب ساسة العالم القديم وصمم على أن يكون سيد بلاده المطاع اسما وفعلا . ذلك لأن كل انسان كان يعلم أن أولئك الضباط لم تكن لهم علاقة بالسياسة مطلقا ولا كانوا خداما لواشنطون فى ثياب الجيش المصرى .

ولقد أشار السير ريجنالد ونجيت حاكم السودان العام سلفا إلى هؤلاء الضباط فقال فى كتابه المسمى «المهدية والسودان المصرى» المطبوع فى سنة ١٩٨١ ص ٢٠٤ ما نصه : =

وهو ماجعل التلاميذ يحفظون القواعد الرياضية عن ظهر قلب كما لو كانت



الزبير رحمت باشا

= « كان الجيش المصرى قبل سنة ١٨٨٢ يجرى تدريبه على أيدى ضباط أمريكان وهم رجال عسكريون ذوو تجاريب مختلفة ولكن لم يكن يسمح لهم بتدريب الجنود الفعلى لا فى قليل ولا فى كثير بل كان عملهم قاصراً على واجبات أركان الحرب فيما كانت له علاقة بالشؤون الطبوغرافية ونحوها وفيما يقومون به من الاستكشافات فى السودان وفى الصحارى الواقعة بين النيل وبين البحر الأحمر . »

ولسوف نشير فى سياق الحديث إلى بعض أعمال هؤلاء الضباط وهى أعمال تضيف إلى تاريخ اسماعيل صفحة ذهبية أخرى . وقد ظل أولئك الضباط الأمجاد يعملون إلى أن أرغموا فى سنة ١٨٧٢ على مغادرة الجيش المصرى بعد أن تجهم أصحاب القراطيس لاسماعيل وأبوا إلا أن يحشوا جيوبهم ويشبعوا نهمهم بما كان ينفقه من الأموال فى خدمة الأنسانية والمدنية فى السودان .

وقبل أن نختم كلامنا عن الرق لابد من الأشارة إلى الزبير رحمت باشا باعتباره أكبر تجار السودان وبخاصة تجار الرقيق وكانت دائرة أعماله ومركز سلطته اقليم بحر الغزال .

ونحن نلخص هنا مانقله الاستاذ الرافعى بك من كتابى نعوم باشا شقير وإبراهيم باشا فوزى عن حياة هذا الزعيم السودانى الذى استولى على بحر الغزال بعد أن فتك بملك هذا الأقليم وجعل عاصمته فى « ديم الزبير » وامتدت سلطته وجمع لنفسه جيشا =



الأمير عبد الحميد نجل السلطان ابراهيم سلطان دارفور

عرمرما لتأييده ولاقتناص الرقيق وفتح طريق التجارة من بحر الغزال إلى كردفان .

وفى سنة ١٨٦٩ فتك الزبير برجل يدعى « البلالى » جاء إلى بحر الغزال من الخرطوم لاحتلال الاقليم باسم الحكومة المصرية . ثم خشى الزبير عاقبة مغاضبة الحكومة المصرية فأعلن ولاءه للخديو .

واستولى الزبير على بلاد « شكا » بين دارفور و بحر الغزال وقدم للحكومة المصرية كافة مافتحه من البلاد تعين فيها من تشاء عربونا على ولائه فشكره اسماعيل باشا وأنعم عليه بالبكوية وعينه حاكما على مافتحه من البلاد باسم الحكومة المصرية فصار مديرا لبحر الغزال وجعل مدينة شكا عاصمة مديريته .

فتح سلطنة دارفور سنة ١٨٧٤

ثم مازال الزبير يرغب اسماعيل باشا أيوب حاكم السودان فى فتح دارفور وكانت مستقلة فعلا برغم الفرمانات التى ادخلتها اسماً فى عهد محمد على ضمن أملاك مصر إلى أن عهد الخديو لأيوب باشا بفتحها.وكان سلطانها ابراهيم وولى عهده الأمير عبد الحميد من ألد أعداء الزبير .

وفى ٢٥ أكتوبرسنة ١٨٧٤ اشتبك جيش الزبير وعدده ٢٠٫٠٠٠ مقاتل بجيش السلطان ابراهيم فى جهة منواشى فدارت الدائرة على ابراهيم وقتل فى المعركة وتم فتح دارفور وضمت إلى أملاك مصر بعد أن دخل جيش اسماعيل باشا أيوب مدينة الفاشر فى ١١ نوفمبر سنة ١٨٧٤

رقية من السحر يلقنهم إياها أحد السحرة الأجانب كما أنهم عكفوا على



الجنرال غوردون باشا

= وابتهج الخديو بفتح دارفور لأنها ضمت إلى مصر مالا يقل عن ثلاثة ملايين من السكان وأنعم على أيوب باشا برتبة الفريق كما أنعم برتبة اللواء على الزبير باشا وأبلغت تحيات وثناء الخديو إلى كافة أمراء الجيش فى احتفال مهيب أطلقت فيه المدافع ابتهاجا وإجلالا كما ذكر فى عدد ٥٨٥ من الوقائع المصرية الصادر بتاريخ ٣ ديسمبر سنة ١٨٧٤

وأخذ أيوب باشا يعمر الفاشر وبنى فيها حصناً وداراً للحكومة وأقام فيها سوقا للتجارة ثم أظهر الزبير استياءه من فداحة الضرائب التى ضربها الفريق أيوب باشا على الأهالى فشكاه هذا للخديو فنهاه اسماعيل باشا عن التعرض للحكمدار وإذ ذاك استأذن الزبير الخديو فى الحضور إلى مصر لعرض حقيقة الحال . فلما أذن له اسماعيل باشا حضر الزبير إلى القاهرة فأكرم الخديو وفادته ولم يأذن له بالعودة إلى السودان . فأدرك هذا أنه يراد ابقاؤه كرهينة لولائه للحكومة فأذعن للبقاء والاقامة فى مصر مشمولا بعطف الحكومة وإكرامها .

غوردون باشا

وهل كان اسماعيل مرغما على تعيينه ؟

ذكرنا لك أن السير صمويل بيكر باشا عند اعتزامه مغادرة الخدمة اقترح على اسماعيل باشا تعيين ابن أخيه الضابط جوليان بيكر مكانه وأن الخديو أجابه بخطاب رقيق سنة ١٨٧٢ يطرى فيه أخلاق جوليان وصفاته ولكنه ذكر له أن مسألة فتح أواسط أفريقيا =

حفظ الأجرومية الفرنسية حفظهم للقرآن دون ان يتعلموا اللغة نفسها .

في وجه العلم والتجارة والحضارة قد تملكت حواسه بحيث تقضى عليه بوجوب التريث واستعمال منتهى الحذر في اختيار من يخلفه في منصبه الخطير ولذا فهو يرجىء البت في الموضوع إلى وقت آخر .

فمن ذلك ترى أن السير صمويل بيكر لم يكن - عند اقتراح تعيين ابن أخيه جوليان في منصبه - يصدر عن رأى الحكومة الانجليزية وإلا لتعين على اسماعيل قبول الاقتراح ولو من باب المجاملة . كذلك كان الخديو يعمل بمطلق حريته وفي داخل حدود واجباته بصفته الحاكم الأعلى ذي السيادة المطلقة عند ما وقع اختياره على الجنرال غوردون باشا ليخلف السير صمويل .

ولكن الأستاذ الرافعي بك ذهب في كتابه إلى أن الحكومة البريطانية هي التي اختارت غوردون وهي التي حملت اسماعيل على تعيينه مكان السير صمويل بيكر لقضاء لباناتها الاستعمارية . ولو صح ذلك لكان أول ما ينبغي حدوثه أن يحمل اسماعيل على تعيين غوردون بمرتب سنوى لايقل عن مرتب بيكر إن لم يكن أكبر منه . ولكن كان الواقع غير ذلك .

وإليك الحكاية التي رواها المستر كرابيتس عن تعيين غوردون . ففي ٦ فبراير سنة ١٨٧٤ وصل إلى القاهرة الكولونيل غوردون لتسلم مهام منصبه كخلف لبيكر . وبعد أول مقابلة بينه وبين الخديو كتب إلى صديقه القسيس هوريس واللار بتاريخ ١٤ فبراير سنة ١٨٧٤ - كما جاء في ص ١٥ من كتاب « غوردون والسودان » المطبوع في لندن سنة ١٩٣١ يقول : « إن الخديو رجل أمين وقد أحببته حباً جما ولذلك فلن أترك مهمتي للغير . » واستطرد المستر كرابيتس فقال إن غوردون ألقى ما يشبه القنبلة في معسكر هذا « الغير » بقبوله مرتباً سنوياً قدره ٢٠٠٠ جنيه وبرفضه مرتب العشرة آلاف جنيه الذي كان يتقاضاه سلفه السير صمويل بيكر .

فماذا يستنتج من هذه العبارة ؟ يستنتج منها أن اسماعيل عند مارأى أصحاب الأسهم يريدون اختزال أعماله في السودان التفت يمنة ويسرة باحثاً عن رجل كفء يمكن أن يتمم مهمة السير صمويل بيكر ولكن بمرتب أقل من مرتبه . فتقدم إليه الكثيرون فوقع اختياره على غوردون باعتباره أقلهم جشعاً . وقد دلت التجارب فيما بعد على أنه كان أكثرهم كفاءة أيضاً . ونحسب أن هذا الاستنتاج معقول وإلا لما قال غوردون في خطابه لصديقه



محمد أحمد المهدى زعيم الثورة المهدية

= « فلن أترك مهمتى للغير » وهى عبارة يفهم منها أنه كان له منافسون فى المهمة. وقد علل غوردون نفسه أسباب قبوله ذلك المنصب بذلك المرتب الزهيد بقوله : « إن الخديو رجل أمين وقد أحببته حباً جما ولذلك فلن أترك مهمتى للغير ». وتحسب أن فى هذا الكفاية للتدليل على أن اسماعيل لم يكن مرغما على تعيين غوردون .

وكانت أول مقابلة بين اسماعيل وغوردون كافية لأن تربط نفسيهما الكبيرتين بأكبر الروابط وأن تحكم صلات الود والصداقة بينهما أيما إحكام وأن تجعلهما ينظران إلى مستقبل أواسط أفريقيا بعين واحدة . ويلوح أن ما عاناه السير صمويل بيكر من الأهوال — التى شرحنا لك بعضها — فى مطاردة النخاسة جعل الخديو وغوردون يقرران مبدأ جديداً نحوها وهو تنظيمها أولا ثم منعها فى النهاية . وقد يخيل إليك أن فى هذا شيئا من المبالغة . ولكن الأمر الثابت هو أن غوردون كان يعتبر مسألة النخاسة مسألة اقتصادية أكثر منها أخلاقية وأن ماينبغى عمله أولا هو منع تهريب الرقيق حتى إذا ما انتشرت المدنية فى أنحاء السودان طغى تيارها على تلك التجارة الممقوتة فتتلاشى من تلقاء نفسها .

ويخيل إلينا من الخطابات التى أرسلها اسماعيل إلى السير صمويل وسردناها عليك هنا أن الخديو كان يرى أيضا أن مطاردة النخاسة ليست بالمسألة التى يكفى لحلها استعمال السيف والمدفع . أولا لأن القائمين بها كانوا أناسا أقوياء فى السودان يؤيدهم أعيان البلاد وتتألف منهم طبقة كبيرة من الأهلين . وثانيا لأن تلك التجارة كانت مصدر ثروة =

ولكن لاينبغى أن ننسى أن التلاميذ فى المدارس الأنجليزية العمومية كانوا



الدراويش يهاجمون غوردون باشا ويقتلونه أثناء حصار الخرطوم

= للجميع فضلا عن أن عمال الزراعة ورعى الماشية وغيرهم كانوا جلهم من الرقيق . ثم إن أعيان السودان والطبقة الوسطى من أهله كانوا قد ألفوا نظام الرقيق منذ أجيال ماضية وتواضعوا عليه فكان تحرير الرقيق دفعة واحدة مفاجأة لهم لم يكن غريبا أنهم صمدوا لها وعرقلوا سيرها بكل ما كان فى استطاعتهم من حول وقوة لا فى زمن اسماعيل فقط بل وفى زمن خلفه توفيق. وإلى هذه الأسباب يعزو بعضهم نشوب الثورة المهدية.=

فى نفس هذا الوقت يحفظون بدورهم نظريات يوكليدس الهندسية والمرائى اللاتينية عن ظهر قلب . وكان اهتمام اسماعيل الشخصى بهذه النهضة العلمية



اسماعيل باشا صديق الملقب بالمفتش

غوردون يذهب إلى السودان

وما كاد الكولونيل غوردون أن يخرج من حضرة الخديو حتى اعتزم الرحيل إلى السودان لانجاز المهمة التى كلفه بها اسماعيل . وسرعان ما شخص إلى الخرطوم عن طريق البحر الاحمر وهناك أعد حملة من الجيش المصرى على رأسها الضابط ابراهيم أفندى فوزى (الذى صار لواء فيما بعد) وشهد وقائع السودان من سنة ١٨٧٤ إلى نشوب الثورة المهدية ثم مقتل غوردون فى سنة ١٨٨٥ إلى وقت استرجاع السودان فى سنة ١٨٨٩ ووضع كتابه المسمى « السودان بين يدى غوردون وكتشنر ».

حتى إذا وصلت الحملة إلى فاشودة استأنفت السير إلى محطة سوباط (عند ملتقى نهر سوباط بالنيل) ومنها الى غوندوكرو جنوبا (الاسماعيلية) حيث رأى غوردون

عظيما لا بل إنه أخذ بنصيبه العملى فيها . مثال ذلك أنه لم يكتف بمنح التعليم



التعايشى خليفة محمد أحمد المهدى

= أن مناخها غير ملائم فنقل مركز الحكومة إلى « اللادو » وجعلها عاصمة مديرية خط الاستواء .

و بعد أيام قليلة واصل غوردون السير جنوبا إلى بحيرة البرت واستولى على سفن بعض الأهلين واستخدمها فى استكشاف شواطىء البحيرة ثم استقدم من الخرطوم ما يلزمه من البواخر النيلية ومن آلات الترسانة المصرية بالخرطوم وعمالها وأنشأ فى « الدفلاى » شمالى بحيرة البرت ترسانة لتنظيم الملاحة فى أعالى النيل وفى البحيرة وذلك بفك قطع البواخر وتركيبها بالتالى .

ثم شرع غوردون فى إنشاء عدة نقط حصينة على شواطىء النيل وحصن النقط التى أنشأها بكر باشا من قبل . وكان مما أنشأه — كما حدثنا الأستاذ الرافعى بك — نقطة « سوباط » و « الناصر » و « شامبه » و « بوره » و « اللادو » و « لاتورى » و « الرجاف » و « الدفلاى » و « بحر الجبل » و « مكركه » و « مرولى » و « مقانقو » وكلها مبينة بالخريطة الموجودة فى صحفة ٣٣٠ .

وبديهى أن هذه الفتوحات النائية كلفت الجنود المصرية متاعب لا توصف بسبب رداءة الجو وبعد المواصلات وانتشار الأمراض والأوبئة مما يسجل لهم ولخديوهم اسماعيل أنصع صفحة فى سجل التاريخ المصرى .



لورد كتشنر

بسط حماية مصر على أوغندا سنة ١٨٧٤

ذكرنا لك فى صفحة ٣١٢ أن ملك أوغندا «أميتسى» أعان فى شهر مايو سنة ١٨٧٢ ولاءه لخديو مصر وأن الهدايا تبودلت بينه وبين السير صمويل بيكر.

وفى ١٠ مايو من هذه السنة أرسل السير صمويل إلى اسماعيل باشا خطابا من جهة «ماسيندى» ينبئه بنتائج حملته فى منطقة البحيرات فكان مما قاله :

«أصبح بينى وبين بحيرة البرت نيانزا ٢٠ ميلا أى مسيرة يوم واحد إلى الغرب فى حين أن المسافة بينى وبين غوندوكرو (الاسماعيلية) ٣٩٤ عن طريق البر.

ثم استطرد السير صمويل فقال :

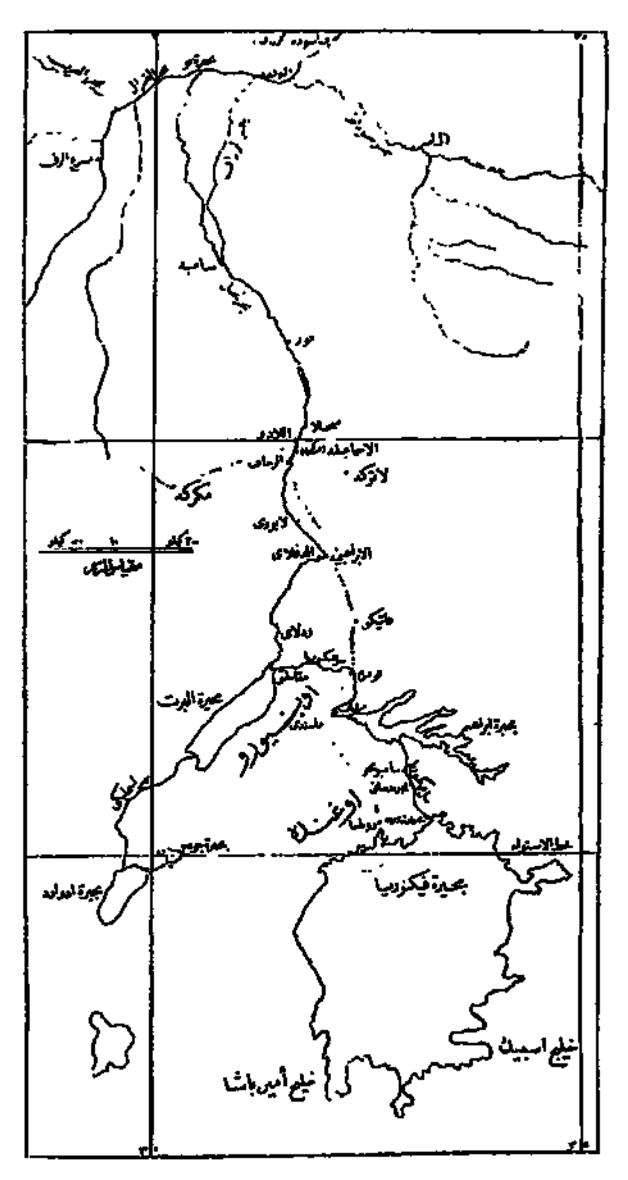
«وانى لأرجو ياصاحب السمو أن تكون مرتاحا إلى أعمالى . ولقد كان ماواجهته من المصاعب مما لا يمكن تذليله ولكن لله الحمد قد تغلبت عليها جميعا. والآن وقد قطعنا دابر تجار الرقيق وأقصيناهم عن البلاد فان الأهالى ينظرون بروح الثقة إلى حكومة سموكم.

«وقبل عودتى سأكون وفقت فى وضع الراية المصرية على الأقل عند الدرجة الأولى جنوبى خط الاستواء وبذا يمتد ملك مصر إلى نحو ٣٣ درجة فى جنوبى الأسكندرية.»

ولم يشأ السير صمويل أن يختم خطابه السابق دون أن يشفعه بملحوظة صغيرة المبنى ولكنها كبيرة المعنى وهى :

«لقد اعتنق ملك أوغندا الاسلام وأنشأ فعلا مسجدا للصلاة . وسأشرع من فورى فى بناء مدرسة.»

نصيباً عادلا من ميزانية الدولة بل وقف بعض أملاكه الخاصة على المدارس



(خريطة مديرية خط الاستواء)

والخط المنقوط يمثل الطريق الذى سلكه الكولونيل شالى لونج بك فى سيره إلى أوغندا حيث عقد مع ملكها فى سنة ١٨٧٤ المعاهدة التى قبل بمقتضاها حماية مصر على مملكته

وأنشأ مكتبة وطنية ملأها مما عنده من المخطوطات القيمة والكتب الثمينة



الدراويش يقدمون رأس غوردون إلى التعايشى

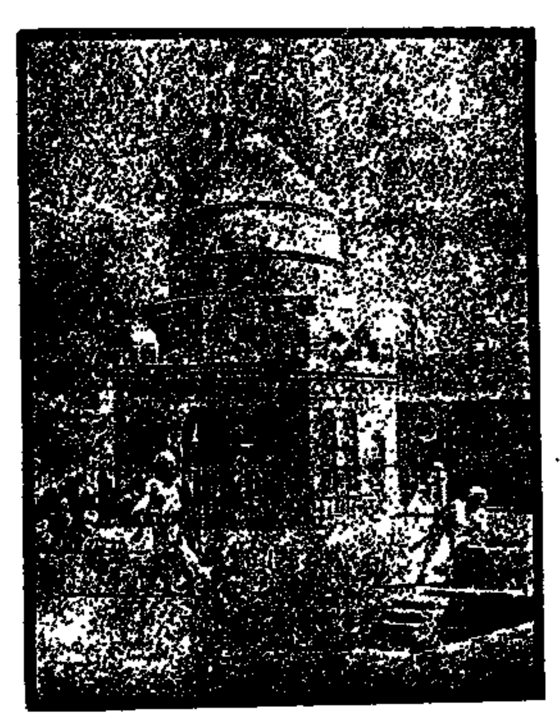
= ومتى علمت أن الملك أميتسى هذا كان من عبدة الأوثان فان ملحوظة السير صمويل تدل على أن حملته لم تؤد إلى قطع دابر النخاسة فقط بل وأيضا إلى تغلب الدين الاسلامى على الوثنية . ثم إن إنشاء المدرسة المذكورة كان معناه بداية محاربة الأمية .

ويظهر أن ولاء ملك أوغندا لخديو مصر أثار القلق فى نفوس رجال السياسة مما دفع بانجلترا إلى تجهيز حملة غرضها الظاهر معاونة الدكتور ليفنجستون بينما كانت ترمى فى الحقيقة إلى الحيلولة دون توطيد العلاقات بين مصر وأوغندا . وقد أدرك اسماعيل هذه الغاية فكان ما كان من تكليفه الكولونيل شالى لونج بك بالاسراع بالذهاب إلى بسط حماية مصر على تلك المملكة كما فصله سمو الأمير البحاثة عمر طوسون فى ص ٣٢٠

ومن حق الكولونيل شالى لونج بك على المصريين أن يذكروه بالخير لأن الرجل كما توسم اسماعيل فيه وفى بقية زملائه الأمريكان لم يفتأ يدافع عن مصر فى كافة ماخطه يراعه فى الكتب التى تعتبر من أهم المراجع فى تاريخ السودان الحديث ومنها كتاب « مصر ومديرياتها المضيعة » التى سبقت الأشارة إليه ثم « كتاب الأنبياء الثلاثة غوردون والمهدى وعرابى » وكتاب « افريقيا الوسطى » هذا عدا مئات المقالات التى نشرها بالصحف دفاعا عن مصر .

وبعد المحادثة التى دارت بين شالى لونج وبين اسماعيل باشا ذكر ذلك الضابط الشهم أن غوردون أنفذه إلى عاصمة الملك أميتسى فعقد المعاهدة التى وضع الملك بلاده =

النادرة كما انه أرسل جميع الأمراء إلى المدارس .



قبة قبر المهدى حيث كان يزورها الدراويش إلى أن أمر لورد كتشنر بنسفها

=بمقتضاها تحت الحماية المصرية وقد أرسلها شالى لونج إلى الخديو فأبلغها شريف باشا إلى الدول ولكنها فقدت فيما بعد من وزارة الخارجية المصرية ضمن وثائق أخرى نفيسة!!.

وبهذا سبق شالى لونج الحملة الأنجليزية التى لاحظت عند وصولها إلى أوغندا فى ابريل سنة ١٨٧٥ وجود ارنست لينان دى بلفون (بن لينان باشا مهندس القناطر الخيرية) ضمن حاشية الملك اميتسى ممثلا للحكومة المصرية وكان الملك اميتسى يفاخر بتبعيته لخديو مصر .

وليس يسعنا أن نترك الكلام على الكولونيل شالى لونج دون أن نذكر أنه هو مكتشف بحيرة ابراهيم (ويراها القارىء فى الخريطة ص ٣٣٠ شمالى بحيرة فكتوريا) وقد أطلق عليها هذا الأسم لأنه اسم أبى الخديو بعد أن كان يطلق عليها فى الماضى إسم «كيوجا» . ومما يدعو إلى الأسف أن جغرافيي الأفرنج لا يزالون يطلقون الأسم القديم على هذه البحيرة كأنهم لا يريدون أن يسمعوا باسم مصرى بين سلسلة الأسماء الأفرنجية التى أطلقت على البحيرات الأستوائية .

= وبينما كانت تجرى هذه الأعمال الباهرة التى يقوم بها الكولونيل شالى لونج بك كانت أعمال الفتح فى أنحاء السودان الأخرى وبالقرب من سواحل البحر الأحمر سائرة على قدم وساق بفضل عزيمة حكمدار السودان اسماعيل باشا أيوب .

اهتمام اسماعيل بشاطىء البحر الأحمر

لم يكن لاسماعيل باشا مفر من متابعة فتوحاته فى أوسط افريقيا لاستئصال شأفة النخاسة وقطع دابر صيادى الرقيق وفتح أبواب مجاهل افريقيا للمدنية . على أنه سرعان ما أدرك أن الحيطة تقضى بسد طريق البحر الأحمر فى وجه تجار الرقيق . ومن هنا أخذ يهتم بالاستيلاء على الجهات المتاخمة لشاطىء ذلك البحر .

ضم زيلع وبربره

فبعد أن أتم فتح دارفور اتجهت نيته إلى ضم زيلع وبربره لا نظرا لأهميتهما التجارية فحسب بل لموقعهما الجغرافى والحربى أيضا لأن من يستولى عليهما يستطيع التسلط على الملاحة فى خليج عدن إلى مدخل البحر الأحمر .

وربما يهمك أن تعرف أن من بين بلاد زيلع بلدة (جبرت) التى ينتسب اليها أجداد الجبرتى المؤرخ المصرى المشهور وقد هاجرت أسرته إلى مصر واستوطنت بها .

ولقد مر بك أن اسماعيل تمكن من حمل الباب العالى على التنازل له عن زيلع وبربره التابعتين للواء الحديدة وذلك بمقتضى فرمان أول يولية سنة ١٨٧٥ فى مقابل زيادة فى الجزية السنوية قدرها ١٣٫٣٦٥ جنيه مصرى ثم اهتم الخديو بعمران تلك الجهات وأقام فيها عدة منشئات كلفته فى بربره وحدها على حسب تقدير غوردون باشا ٧٠ الف جنيه .

وبضم زيلع وبربره امتدت حدود مصر على سواحل البحر الأحمر من سواكن إلى جردفون على المحيط الهندى .

ولبثت هاتان المحافظتان ملكا لمصر إلى أن أخلتهما الجنود فى إبان الثورة المهدية فى مايو سنة ١٨٨٥ حيث احتلتهما الجنود الأنجليزية ولا تزال بهما إلى الآن .

الاستيلاء على هرر فى سنة ١٨٧٥

واتجهت نية اسماعيل بعد ذلك إلى الاستيلاء على سلطنة هرر الواقعة شرق الحبشة وغربى زيلع وهى إمارة اسلامية يبلغ عدد سكانها المليونين تقريبا .

ولما كان أميرها قد ساق الأهلين سبل الأرهاق والعسف حتى جأروا بطلب الخلاص =



محمد رؤوف باشا

=منه فانهم لم يبدوا مقاومة تذكر عند ما استولت الجنود المصرية بقيادة محمد رؤوف باشا فى سبتمبر سنة ١٨٧٥ على بلادهم . وفى ١١ أكتوبر من السنة نفسها سقطت العاصمة هرر بأيدى المصريين وضمت السلطنة إلى أملاك مصر .

ثم عين رؤوف باشا حاكما عاما عليها كما عين أميرها السابق محافظا لمدينتها. ولكن رؤوف باشا لسبب غير معروف تربص بالأمير وقتله وظل حاكما لتلك الامارة إلى أن أقاله منها غوردون باشا بعد أن عين حاكما عاما للسودان . ثم ظل الحكم المصرى قائما فى تلك الجهات إلى أن حان وقت الجلاء عن السودان فى إبان الثورة المهدية فانسحبت الجنود المصرية من هرر بأمر الحكومة الانجليزية فى سنة ١٨٨٥ وكان عددهم مع بقية الموظفين ورجال البوليس والعمال نحو ٨٥٧١

وتسلم السلطنة بعد انسحاب المصريين أمير من الأمراء الذين كانوا يحكمونها قبل الفتح المصرى ولكن ما لبث أن أغار عليها الأحباش وفتحوها وضموها إلى بلادهم ولا تزال خاضعة لحكمهم إلى اليوم .

فتح بلاد السومال

غير أن اسماعيل لم يشأ الاكتفاء فى الاستيلاء على شواطىء البحر الأحمر بالقوات الموجودة فى السودان بل رأى أن يعززها بقوات أخرى يرسلها عن طريق المحيط الهندى. ففى الوقت الذى كانت فيه الجنود المصرية تستولى على هرر اذا بالخديو ـ بالاتفاق مع غوردون باشا ـ يجهز حملة عسكرية بقيادة الكولونيل شالى لونج على أن تتولى نقلها عمارة =

فى عهد اسماعيل . فان محمدا عليا كان قد سبقه إلى إيجاد معاهد نيابية وذلك

= مصرية يقودها الأمير الماكيلوب باشا وكانت الحكومة الأنجليزية قد عاقبته على خرق نطاق الحصار البحرى فى الحرب الأمريكية باحالته على الاستيداع فعينه اسماعيل باشا مديرا للموانىء والمنارات المصرية . وكان فى تلك الحملة ضابط أمريكى آخر هو الكولونيل « وورد » من ضباط الأسطول الأمريكى كما كانت تضم أيضا الضابط الايطالى فريدريكو باشا . وكل ذلك مما يدل على أن اسماعيل كانت له مطاق الحرية فى اختيار من يحوز ثقته بين الضباط الأجانب دون النظر إلى جنسياتهم .

وقد حدثنا المستر كرابيتس أن الكولونيل شالى لونج كان فى القاهرة عندما صدرت اليه أوامر اسماعيل فى ١٦ سبتمبر سنة ١٨٧٥ بالسفر حالا إلى السويس لقيادة الحملة المصرية المتجمعة هناك على ظهر الباخرتين « طنطا » و « دسوق » ثم جاءه رسول خاص فى منتصف ليلة ١٨ سبتمبر يحمل تعليمات سرية مختومة مصحوبة بخطاب من الخديو بألا يفض الأختام إلا متى أصبح على بعد ٥٠٠ ميلا جنوبى السويس .

وفى يوم ١٩ سبتمبر سافرت الحملة المصرية قاصدة خليج عدن حتى إذا قضت فى البحر ثلاثة أيام قال الأمير ماكيلوب باشا للكولونيل شالى لونج إن العمارة قد قطعت المسافة المطلوبة وأنه فى انتظار تعليمات جديدة .

وهنا فض الكولونيل الأختام وقرأ التعليمات التى أصدرها إليه اسماعيل بخطه فى يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٧٥ فاذا هى كالآتى :

« توكيداً لما صدر إليك من الأوامر الشفوية يتعين عليك السفر إلى السويس حيث ترى ثلاث آلايات معهم ذخائرهم الخ فخذهم إلى بربره على ظهر الباخرتين « طنطا » و « دسوق » . ثم عليك أن تسلم لماكيلوب باشا ما تحمله من التعليمات . وسينزل ماكيلوب باشا الآن إلى البر فى بربره ثم يستأنف السفر إلى جوبا فوراً . ولست أرانى فى حاجة لأن أكرر مرة أخرى بأننى أريد أن يبقى أمر هذه الحملة سرا مكتوما إلى أن تصل إلى جوبا . وقد كتبت بهذا المعنى إلى ماكيلوب باشا ولكنى أكلفك أيها الكولونيل بأن تكرر هذه الأوامر له شفويا . وإنى أعتمد على غيرتك ونشاطك وذكائك . »

وفى الوقت نفسه كتب نوبار باشا إلى ماكيلوب باشا خطابا بتاريخ ٦ سبتمبر سنة ١٨٧٥ لافتاً نظره إلى ضرورة تكتم أنباء هذه الحملة . وقد عثر المستر كرابيتس على هذا الخطاب فى دار المحفوظات الملكية وإليك ماجاء فيه :

بتوسيع سلطة مجلس أو جمعية الأعيان وسلطة الديوان أو المجلس الخاص

= « سيبلغك الكولونيل لونج الأوامر الخاصة بك . وستجد فيها ماينبغي عليك عمله. فالمهمة الموكول إليك أداؤها من الأهمية بمكان وهي في حاجة إلى أن يقوم بها رجل يجمع إلى الذكاء طيبة القلب . وهذا ما جعل الخديو يقع اختياره عليك . وليس لي إلا أن أوصيك بأمر واحد وأعتقد أني أصدر فيه عن رأي الخديو وهو أن تتوخى اللباقة وأن تكون في منتهى الدهاء والحذر فيما لو اتصل بك الوكلاء السياسيون المعينون في بلاط سلطان زنجبار ودعوك إلى الانسحاب إما باسم السلطان أو باسم دولهم .

« وعندي أن هذا الافتراض بعيد الاحتمال إن لم يكن مستحيلا إلا إذا كانت الحكومة التي يقوم مندوبها السياسي بمثل هذا المسعى قد عولت على أن تضع نفسها علانية مكان السلطان . وعلى كل فلا توجد حتى الآن حكومة تقدمت بمثل هذا الزعم . ولكن لو افترضنا حدوث هذا الاحتمال فما عليك إلا أن تحيل هذا الوسيط أو المندوب السياسي إلى الخديو فورا ، فالى سموه ينبغي أن تكون المكاتبات لأنك إنما تكون بمجرد منفذ لأوامره. ولست في حاجة إلى أن أخبرك أن كل ما يمكن أن يدعيه السلطان من المزاعم لا أساس له على الاطلاق. وقد كلفني مولاي الخديو بأن أقول لك بأنه ينبغي عليك أن تبقى الغاية من رحلتك سرا مكتوما بل أكثر من سر مكتوم . وفيما عدا الكولونيل لونج الذي يعلم حقيقة الواقع فلا ينبغي أن يعرف أحد على ظهر السفينة بأنك ذاهب إلى جوبا . »

وقد يهمك أن تطلع على ما أرسله ذلك الخديو العظيم من التعليمات السرية الى ماكيلوب باشا بتاريخ ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٥ . ولكيما نطفىء ظمأ تطلعك نخبرك أن الخديو بعد أن أشار إلى الخمسة آلايات التي ستكون تحت قيادة الكولونيل شالي لونج قال :

« لكيما تكون متشبعا بروح المهمة التي تقوم بأدائها بحيث تستطيع مواجهة ماعسى أن يواجهك من الظروف الحسنة أرسل لك برفقة هذا صورة من الأوامر التي أرسلتها للجنرال غوردون (أرجو أن يلاحظ الاستاذ الرافعي بك هذا ليعلم أن اسماعيل لا انجلترا هو الذي كان يامر غوردون) ولسوف ترى من هذه التعليمات أنها ترمي إلى فتح طريق للمواصلات بين البحيرات والأوقيانوس في وجه التجارة . ففي هذا العمل ـ المعهود اتمامه إلى غوردون ـ يجب أن تتعاون .

« أما المنفذ الذي أوضحته لغوردون باشا فهو مصب نهر الجوبا . فالى هناك ينبغي ذهابك . وعليك أن تنزل إلى البر في تلك النقطة حيث تنتظر وصول الجنرال غوردون =



الوزير الخطير المغفور له حسين باشا فخرى والد معالى محمود فخرى باشا وزير مصر المفوض فى باريس وإليه يرجع الفضل فى وضع مشروعات قوانين المحاكم الأهلية فى مصر فى عهد اسماعيل باشا

= أو وصول تعليماته إليك لأن أول ما ينبغى عليك عمله أن تعرف مكانه وأن تتصل به .»

وقد وضحت التعليمات التى ينبغى أن يتبعها ماكيلوب فى أثناء انتظاره وصول غوردون وحددت تحديداً تاماً . وكان من بين هذه الأوامر ما تضمنته الفقرة الآتية :

«فى خلال زيارته للقاهرة فاتحنى سلطان زنجبار فيما يزعمه لنفسه بخصوص شاطىء الأقيانوس لغاية رأس «حفون» ولم أهتم بمجادلته لأنه كان ضيفى وكان يتعين على الصمت عملا بواجبات اللياقة والكرم . وقد أخبرنى أن فى نيته بمجرد عودته إلى دياره أن يرفع رايته على جوبا ورأس حفون . فاجتنابا للمشاكل الأخرى ولمنعه من تنفيذ عمل اغتصابى وغزوه أراضينا ، كل هذه الاعتبارات هى التى جعلتنى أعجل بترحيلك . فمتى رفعنا رايتنا فوق مصب الجوبا يمكن وقتئذ بتثبيتنا حقوقنا بهذه الصفة اجتناب =

ثم ماعتم أن ألغى عباس المجلس المذكور ولكن اسماعيل أعاده من

= ما سوف يترتب على تنفيذ السلطان لنواياه من عواقب داعية إلى الأسف . »

« و إنى لعلى يقين بأنك متى هبطت إلى جوبا فلن تجد هناك راية ولا سلطة موطدة وأن نزولك إلى البر سيتم بسلام . ولكن علينا أن نحسب حساب احتلال المكان اسمياً أوفعلياً . فينبغي عليك فى كلا الأمرين أن تقترب من المحتلين بروح ودية وأن تدعوهم إلى مغادرة المكان . فان أبوا فما عليك إلا الالتجاء إلى ما أودعته تحت تصرفك من الوسائل العسكرية لأن علينا أن نعود إلى امتلاك أراضى تابعة لحكومتنا . وأريدك أن تكون متنبها غاية التنبه إلى هذه النقطة وهى أن مصب نهر الجوبا تابع لنا . نعم إن نيتى أن أكون فى سلام مع سلطان زنجبار ولكننى لا أستطيع أن أسمح بأن يغتصب السلطان شيئاً من حقوقى أو يحتل أرضا تابعة لحكومتى . »

وليس يسعنا أن نمر بهذه الأوامر الصريحة دون أن نقف هنيهة لنسائل صديقنا الأستاذ الرافعى بك إذا كان لا يزال يظن أن اسماعيل كان فى كل معاملاته مع غوردون يصدر عن رأى السياسة الانجليزية أو ينفذ رغباتها ؟ وما قول حضرته فى موقف اسماعيل ازاء سلطان زنجبار المشمول برعاية انجلترا ؟ أليس يعتبر موقف اسماعيل بمثابة تحد خفى لنفوذ بريطانيا فى تلك الجهات ؟

وسواء أكان من حق اسماعيل أن يتطلع إلى امتلاك تلك المناطق أم لم يكن فقد كان المنتظر أن تعطف أوربا على مطالب الخديو وأن تفرك يديها تحمسا له باعتباره ممثل قضية الحرية بدلا من شد أزر سلطان زنجبار الذى كان يعتبر معقد آمال تجار الرقيق .

وعلى كل حال فقد سافرت هذه الحملة باسم الله مجراها ومرساها قاصدة خليج عدن ومنها إلى رأس حفون جنوبى رأس جردفون ثم إلى « براوة » حتى وصلت إلى مصب نهر الجوبا فى ١٦ اكتوبر سنة ١٨٧٥ ولكن التيار الشديد حال دون نزول الجنود إلى البر فسار ماكيلوب باشا بالحملة جنوبا إلى جهة « قسمايو » أو « بور اسماعيل » فاستولى عليها ودعا القبائل إلى الدخول فى طاعة الحكومة المصرية فلبت الطلب .

وقد وجدت الحملة المصرية فى قلعة « قسمايو » اثنى عشر مدفعا وكمية من الأسلحة ونحو ٤٠٠ جندى تخفق عليهم راية زنجبار . ولم تبد الحامية أية مقاومة للجنود المصريين بل سلمت على بكرة أبيها . واذ ذاك عثر الكولونيل شالى لونج على ٥٠٠ من الرقيق داخل القلعة على أهبة الاستعداد ليشحنهم تجار الرقيق عند سنوح أول فرصة مناسبة .

جديد . نعم إن المجلس لم يجتمع إلا مرة واحدة فى العام للموافقة على

= وقد كان طبيعيا أن تزعج هذه الحملة بال السياسة العليا على نحو ما قرره الأستاذ الرافعى بك وبخاصة بعد اعتزامها السير غربا فى اتجاه بحيرة فكتوريا لفتح طريق المواصلات الجديد بين الأقيانوس والبحيرات الذى كان يطمح إليه اسماعيل كما ورد فى تعليماته إلى ماكيلوب باشا . وقد تدخلت السياسة البريطانية دفاعا عن سلطان زنجبار فلم يسع اسماعيل إلا الكف عن متابعة الحملة مجاملة لانجلترا .

أما تفصيل ذلك فهو أن ماكيلوب باشا تلقى فى ٢٩ اكتوبر أمرا بالانتقال جنوبا الى نقطة تسمى « فورموزا » باعتبارها أصلح مناخا من جوبا . ثم ما هى إلا أيام قلائل حتى وصلته رسالة من القاهرة بأن سلطان زنجبار احتج للحكومة البريطانية على احتلال المصريين لقسمايو . ثم وصلته رسالة ثالثة بعد ذلك بتوكيد الأنباء السالفة وتضيف إليها بأنه « اذا لم يكن قد ذهب فعلا إلى فورموزا فالأولى ألا يذهب اليها . »

وبعد أن أورد المستر كرابيتس هذه التعليمات التى عثر عليها فى دار المحفوظات الملكية استطرد فقال « إن اسماعيل بدأ يشعر بوطأة الضغط من ناحية دولة أخرى أعظم شأنا من زنجبار فاضطر إلى العدول عن تلك الحملة . »

ثم استشهد المستر كرابيتس بما ذكره الكولونيل لونج فى هذا الصدد إذ قال « لم تكن قسمايو مدينة سيئة السمعة فحسب بل لم تكن للأهالى صناعة سوى التخريب واقتناص الرقيق . وأحسب أن تجريدتنا باحتلالها قسمايو قد استحقت شكر العالم المتمدين وبخاصة وأنها قد لقيت وأطلقت سراح ما يزيد عن ٤٠٠ رقيق . »

ولكن ... نعم ولكن كل هذه النفقات التى أنفقت فى سبيل الخير هذه ذهبت هباء لأن دولة كبيرة كانجلترا لها أسمى اعتبار فى نظر الدول الأوروبية وتعد فى طليعة العالم المتمدين لم تشأ أن يواصل اسماعيل سيره فى الطريق التى رسمها لنفسه وهى بسط سلطة مصر على شواطىء المحيط الهندى ومنها إلى منابع النيل. أليس هذا كله معناه أن هذا الرجل العظيم كان يعمل ما يعمله مستلهما وحى ضميره وعقيدته لا يتأثر إلا بمقتضيات الانسانية ولا يبغى جزاء ولا شكورا على سعيه للوصول بالسودان إلى مصاف البلاد المتمدينة ؟

ولا بد من ملاحظة صغيرة نسوقها هنا رداً على الأستاذ الرافعى بك . فقد ذكر فى سياق كلامه عن حملة الصومال أن الحملة البرية التى كانت احتلت قسمايو وتأهبت =

= للسير غرباً قاصدة بحيرة فيكتوريا أبطأت فى الزحف من قسمايو وأن شالى بك لونج قال «إن من أسباب اخفاقها اغضاء غوردون عن الاتصال بها رغم الأوامر الصادرة إليه من اسماعيل » ويعزو لونج بك هذا الأغضاء إلى احتمال وصول تعليمات من لندن إلى غوردون توجب عليه عدم التعاون مع هذه الحملة . وراح الأستاذ الرافعى بك يستنتج من هذه الاحتمالات عدم إخلاص غوردون لمصر وعدم ولائه للحكومة المصرية الخ الخ

ولسنا نتولى هنا الدفاع عن غوردون وإنما نرى إحقاقا للحق أن نذكر أن غوردون باشا أثبت العبارة الآتية فى مذكراته اليومية بتاريخ ٢١ يناير سنة ١٨٧٥ على ماورد فى ص ٦٥ من كتاب «الكولونيل غوردون فى أواسط افريقيا من سنة ١٨٧٤—١٨٧٩» المطبوع فى لندن سنة ١٨٨١ ما نصه :

« لقد اقترحت على الخديو أن يبعث فى إحدى السفن بمائة وخمسين جندى إلى خليج عباسا على بعد ٢٥٠ ميلا فى شمالى زنجبار وهناك ينشؤون محطة ثم يتوغلون فى جهة «معتزة» فان توصلت إلى تحقيق هذه الأمنية اتخذت قاعدتى فى عباسا واستغنيت عن الخرطوم ومتاعب السفن البخارية . . ومن ثم يمكن فتح أواسط افريقيا بالطريقة الناجحة ... فأرجو أن يفعل الخديو هذا ... »

ومن هذا ترى أنه كان يستصوب فتح منطقة البحيرات من ناحية الأقيانوس بدلا من اتباع مجرى النيل . فاذا كان هذا رأيه وإذا كان هو الذى اقترح على الخديو إرسال الجنود إلى خليج عباسا فكيف يمكن منطقياً اتهام الرجل بالأغضاء لحاجة فى نفس يعقوب ؟ ألا إن الواقع هو أن الخديو بعد تدخل الانجليز بسبب احتجاج سلطان زنجبار هو الذى أمر بوقف الزحف إلى منطقة البحيرات كما ذكرناه لك . ونحسب أن عاقلا لايمكن أن يلوم الخديو على عدم تورطه فى مجافاة السياسة البريطانية وقتذاك .

اعتراف انجلترا بسلطة مصر فى السومال

ثم ما لبثت الحكومة البريطانية أن عقدت معاهدة مع الحكومة المصرية فى ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ وردت نصوصها فى قاموس الادارة والقضاء للأستاذ فيليب بك جلاد الجزء الثانى ص ٤٩٠ وفيها تعترف انجلترا لمصر بامتلاكها سواحل بلاد السومال لغاية رأس جردفون ثم رأس حفون .

فى مناقشته هذا فضلا عن أن « الانتخاب » لهذا المجلس كان تعيناً أكثر

= وناب فى توقيع هذه المعاهدة شريف باشا عن الحكومة المصرية والمستر فيفيان قنصل انجلترا العام بالنيابة عن الحكومة الانجليزية .

ويأبى القدر الساخر إلا أن تستولى انجلترا بعد اخلاء السودان على زيلع وبربره وملحقاتهما كما أخذت فرنسا تاجورا وملحقاتها وايطاليا رأس جردفون .

معاهدة لمنع الرقيق بين انجلترا ومصر

كانت إحدى نتائج الحرب الشعواء التى أعلنها اسماعيل باشا وغوردون على النخاسة أن بريطانيا العظمى عقدت مع مصر فى يوم ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ معاهدة نصت بين مانصت عليه على أن تحرم مصر جلب الرقيق إلى بلادها وأن تتعاون الدولتان المتعاقدتان على منع النخاسة فى البحر الأحمر .

وبديهى أن العبرة فى المعاهدات هى فى طريقة تنفيذها . وإذ كان اسماعيل يصدر عن روح مخلصة فى كل ماله علاقة بالنخاسة ووسائل منعها فقد أراد أن يظهر من جديد حرصه على استئصال شأفة هذه التجارة الممقوتة بأن طلب إلى حكومة لندن أن تمده بأحد الضباط البحريين للتعاون معه على أداء تلك المهمة الانسانية فى سواحل البحر الأحمر .

فاقترحت لندن الكومندور مالكولم الذى أنعم عليه اسماعيل برتبة الباشوية وجعله مديراً عاماً لمصلحة منع تجارة الرقيق .

ويأبى سوء الحظ إلا أن تستحكم حلقات سوء التفاهم بين مالكولم وغوردون ويصبح التعاون بينهما مستحيلا إلى حد أن مالكولم قدم استقالته للخديو الذى تردد أولا فى قبولها ثم اضطر فيما بعد إلى تلبية صاحبها إلى طلبه مؤثراً الاحتفاظ بغوردون.

استعفاء غوردون باشا

لوجارينا خصوم اسماعيل جدلا فيما رموه به من المطاعن والمثالب لما رأينا واحداً منهم - بالغاً ما بلغت خصومته - يجرؤ على اتهام الخديوى بقصر النظر وتجاهل مصلحته الخصوصية وبخاصة متى كانت متفقة مع المصلحة العامة . بل بالعكس نرى الخصوم مجمعين على حدة ذكاء الرجل وفرط نباهته وحصافة رأيه .

فان صح أن غوردون باشا كان مدسوساً من ناحية السياسة الانجليزية على الخديو =

مما كان انتخابا وكان أعضاؤه عمد القرى ومن عداهم من الأعيان . ومهما

= فما كان أولى باسماعيل أن يرحب باستعفاء غوردون بل لما كان يعقل أن يسعى ليحمله على العودة إلى خدمته بعد الاستقالة كما حدث .

ولقد ذكر الأستاذ الرافعي بك في ص ١٢٣ من كتابه القيم تحت عنوان « استقالة غوردون » ما نصه :

« بقي الكولونيل غوردون مديراً لعموم خط الاستواء إلى أن استعفى من منصبه سنة ١٨٧٦ وعاد إلى القاهرة ومنها إلى انجلترا . ولعله رحل إليها ليطلع حكومته على أحوال المنطقة التي تولى حكمها وليتلقى تعليماتها الجديدة فيما تأمره به فانه لم يلبث في انجلترا ثلاث سنوات إلا قليلا حتى تدخلت الحكومة الأنجليزية لدى الخديو لتعيينه في منصب أكبر من منصبه القديم إذ جعله حكمدار عموم السودان فصارت أقاليم السودان تحت مطلق تصرفه . »

ولعل غوردون هو أولى الناس بمعرفة الأسباب الخفية الحقيقية التي دفعته إلى الاستقالة كما أنه أيضاً أعرف الناس بالأسباب التي حملته على استئناف التعاون مع الخديو . هذه الأسباب في كلا الأمرين تتنافى مع ما كتبه صديقنا الكبير الأستاذ الرافعي بك . وإليك البيان :

ففي ص ١٢٠ من كتاب « خطابات غوردون لشقيقته » — وهي خطابات لم يكن غوردون يتوقع نشرها يوما ما — وصف غوردون اتجاه مجرى النيل بعد خروجه من بحيرة فيكتوريا ودخوله إلى بحيرة البرت فقال :

« يغطي مدخل بحيرة البرت عدد من الجزر . والماء في البحيرة ساكن وراكد ومنظرها غير بهيج . أما الأهالي فني سكون ونواياهم حسنة بالنسبة لنا . ولقد رأيت قطيعاً من الفيلة اليوم يتناول الطعام ويدل منظره على الاغتباط ، وهو يحشر البرسيم حشرا في أفواهه بنفس السرعة التي تبصقين بها الماء من فمك في حوض واسع . والمكان جد موحش هنا . فلست تسمعين صوتاً ولا ترين أثراً للحياة والمناظر كلها تغم النفس وتقبضها . وفي عزمي — إذا شاء المولى — أن أقصد من هنا إلى جهة فويره ثم أرسم تلك الناحية ومن ثم أذهب إلى مرولى فأروندجاني ثم إلى ستزا (أو مساقط ريبون) وأرفع الراية المصرية على بحيرة فيكتوريا ثم أرسم مجرى النهر من كوسيتزا إلى أروندجاني ثم منها إلى مرولى. والمسافة من كوسيتزا إلى أروندجاني ٤٠ ميلا بالبر والنهر هناك غير صالح للملاحة =

كان شأن هذا المجلس فانه كان برغم ذلك معهداً وطنيا مهما عمل

== ولكنه على عكس ذلك بين أروندجانى ومرولى . ولما كنت قد انتهيت من رسم النهر بين مرولى وفويره . فسأكون إذ ذاك قد انتهيت من رسم مجرى النيل بأكمله ... »

فهل يدرى القارىء ما كان يعانيه غوردون من المصاعب فى سبيل إتمام مهمته هذه ؟ إليك ما كتبه فى هذا الصدد إلى شقيقته فى ٦ أغسطس سنة ١٨٧٦ إذ قال :

« لقد أشرفت على الهلاك . فلقد اقتضى رسم مجرى النيل مسافة ثمانية أو عشرة أميال أن أسير وسط الأحراج مسافة ١٦ ميلا فى مطر منهمر انساب من السماء كما لو كان قد انساب من أفواه القرب . وعلى كل فقد تم رسم المجرى وفى يقينى أن شخصاً آخر لن يحاول القيام بهذه المهمة مرة أخرى . »

وكان قد كتب إلى شقيقته قبل ذلك بعدة أسابيع ما تراه فى صفحة ١١٩ إذ قال :

ما أسوأ الجو هنا فانى لا أكاد أذوق للنوم طعما ... وكل شىء معوج لا يؤدى إلى الغاية المرجوة . ويحتمل أن مرض الكبد هو الذى يجعلنى أظن ذلك . . . كم أتمنى أن أتمم هذه المهمة . إنه لا يزال أمامى شهران من هذا العناء والنصب . فهل أذلل ما أمامى من المصاعب ؟ من يدرى ؟ »

ثم عاد غوردون إلى التكلم عن مرض الكبد فقال مخاطباً أخته :

« فى وسعك أن تقدرى مبلغ غمى لعدم استطاعتى رسم الثغرات فى مجرى نهر نيل فيكتوريا (وهو الأسم الذى يطلقونه على النيل بين بحيرة فيكتوريا وبحيرة ابراهيم) ولست أدرى هل أوفق فى هذا أم لا . . . فان عاودتنى الصحة فعلت ولكنى أشعر من يوم لآخر بثقل وطأة مرض الكبد . »

وبعد ذلك بيومين كتب يقول :

« إن حالتى الصحية سيئة بسبب الدماء المنهمرة من أنفى وقد كدت أن أختنق مساء أمس بسبب هذا الرعاف الشديد . »

ففى سبيل من كانت كل هذه الجهود ؟ قد يقال إن غوردون كان يعمل لحساب انجلترا ولكن هاك ما كتبه إلى خيرى باشا حامل الختم الخاص ومنه ترى مبلغ ما كان يعلقه غوردون من الأهمية على تنظيم الملاحة فى بحيرة فيكتوريا . وهذا الخطاب موجود فى دار المحفوظات الملكية وقد افتتحه غوردون بهذه العبارة :

« هناك مسألة ينبغى على مصر النظر إليها بعين الحذر وهى ألا تجرى فى بحيرة فيكتوريا سفن تابعة لدولة أخرى عدا مصر . ولقد سبق أن كتبت لك أنه عند ما يتم ==

اسماعيل على تنميته قبل عزله . وكانت البلاد فى إبان ذلك العهد تحكم بطريقة

= رفع الراية المصرية على بحيرة فيكتوريا — وهو ما سيتحقق فى القريب العاجل إن شاء الله — فان أول ماينبغى أن تعنى به مصر هو أن تحتفظ بملكيتها لبحيرة فيكتوريا وأن تحول دون الملاحة فيها بواسطة سفن غير مسموح لها بذلك من الحكومة المصرية . »

وكان قد كتب لاخته قبل ذلك يقول :

« فى نيتى مواصلة السير إلى أن أبلغ البحيرة (يقصد بحيرة فيكتوريانيانزا) وأن أرفع الراية وأمكن الخديو من إدخالها ضمن أملاكه . »

فهذه الخطابات كلها تضرب على نغمة واحدة هى أن غوردون برغم ثقل المرض وبرغم ما كان يقوم أمامه من المتاعب التى تنوء بها كواهل العصبة أولى القوة كان قد وطد عزيمته على الوصول إلى بحيرة فيكتوريا ورفع الراية المصرية عليها لا باسم انجلترا بل باسم اسماعيل .

وما نحسب أن غوردون الذى اشتهر باستقامة الخلق كان كاذبا فى خطاباته الخاصة لشقيقته أو أنه كان فعلا صحيح البدن معافى عند ما كتب لها بعكس ذلك أو أنه كان ينوى رفع الراية المصرية على البحيرة بينما كان يضمر رفعها باسم انجلترا ومصر .

بل إن من الطبيعى بعد أن حقق غوردون مهمته التى انتدبه لها اسماعيل وبعد أن تفاقمت حالته الصحية حتى أصبحت مهددة بالخطر أن يعجل بالعودة إلى وطنه .

فما هو أن وصل إلى القاهرة حتى ذهب - كما كتب بخط يده - إلى مقابلة شريف باشا وطلب إليه أن يخبر سموه بأنه عول على اعتزال الخدمة .

وفى يوم ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٧٦ وصل غوردون إلى لندن وفى نيته عدم العودة إلى مصر .

فلو صح أنه كان مدسوساً على اسماعيل — وهى حقيقة لانظنها كانت تخفى على ذلك الخديو العظيم — لحمد الله على أن خلصه من ذلك الداهية الانجليزى . ولكن اسمع ما نقصه عليك .

لم يكد غوردون يقضى عطلة عيد الميلاد بين أهله وذويه حتى وصلته البرقية التالية من اسماعيل وتراها فى ص ١٣٦ من كتاب «خطابات غوردون لشقيقته» وهى كما يأتى :

« عزيزى غوردون باشا .

« لقد اطلعنى المستر فيفيان (قنصل بريطانيا العام فى مصر) على الرسالة التى طلبت إليه فيها أن يخبرنى بأن الظروف لاتسمح بعودتك إلى مصر. ولقد أخذنى العجب كل =

أوتقراطية لأن اسماعيل رغم ثقافته الأوربية كان يحكم البلاد كالحاكم الشرقي

= مأخذ لسماع هذا بعد محادثتنا في قصر عابدين تلك المحادثة التي أرى من حق أن أملق نفسي بشأنها لأنني استطعت في خلالها أن أقنعك بضرورة مواصلة العمل الذي بدأناه سوياً وطلبت إليك أن تعود إلى منصبك في مصر. ولما افترقنا كانت كلمة الوداع الصادرة منك هي « إلى اللقاء. »

«فليس يمكن والحالة هكذا أن أعزو برقيتك إلا إلى ماتشعر به من الارتياح الطبيعي لوجودك في وطنك وبين عشيرتك وأهلك وليس في وسعي أن أصدق أن سيداً كغوردون يحاول - لسبب من الأسباب - التملص من الوعد الذي قطعه لي، ولهذا لا يمكني ياعزيزي غوردون النظر جدياً في برقيتك بل سأرقب عودتك حسب وعدك.» الامضاء «المخلص اسماعيل»

فلما تسلم غوردون هذه البرقية ذهب فورا لاستشارة القائد الأعظم للجيش البريطاني الذي أفهمه أن واجبه يحتم عليه الانصياع لالحاح الخديو. فأبرق غوردون لاسماعيل يبلغه أنه يقبل العودة على شرط أن يعين حاكما عاماً للسودان بدلا من اسماعيل باشا أيوب الذي كثيراً ما أقام العقبات في سبيله (غوردون). ولما كان غوردون يعلم أنه بمطالبته الخديو بعزل أيوب باشا يضعه في مركز حرج فانه آثر الاستقالة في الدفعة الأولى.

فعلام تدل كل هذه الحكاية؟ إنها تدل كما قلنا على أن اسماعيل استخدم غوردون لأنه ارتاح إلى اخلاصه وصدق عزيمته. فلو أنه اشتم منه - ولو من بعيد - رائحة العمل لحساب السياسة الأنجليزية لما صبر على إبقائه في الخدمة بل ولما كان ألح في المطالبة بعودته بعد الاستقالة.

ولم نكتب هذا دفاعا عن غوردون بل كتبناه لننفي عن اسماعيل تهمة الاستخذاء للسياسة البريطانية والنزول على إرادتها فيما كان له مساس بالقطر الشقيق.

«مديرية خط الأستواء»

وبحسبنا ما كتبناه في هذا الباب فننتقل بعد ذلك إلى مصير مديرية خط الاستواء. بعد استقالة غوردون في سنة ١٨٧٦. فانه عين مكانه الكولونيل بروت وهو أحد الضباط الأمريكان الذين أبلوا أحسن بلاء في خدمة مصر والجيش المصري.

ولما عاد غوردون إلى السودان وعين حكمداراً له جعل ابراهيم بك فوزي مديراً =



أمين باشا

= لخط الاستواء. ثم فصله وعين مكانه الدكتور أدوارد شنتزر وكان طبيباً ألمانياً صحب غوردون فى السودان واعتنق الأسلام وأصبح يعرف باسم أمين بك وبقى مديرا لمديرية خط الاستواء إلى أن نشبت الثورة المهدية ولم تفلح فى الاستيلاء على تلك المديرية التى ظل يحكمها باسم الحكومة المصرية ونقل عاصمتها من اللادو إلى فرادلاى جنوباً وبقى فى مركزه. وقد أنعم عليه الخديو توفيق بهذه المناسبة برتبة الباشوية جزاء اخلاصه لمصر. ولما تقرر إخلاء السودان أبلغه نوبار باشا رئيس مجلس الوزراء ذلك القرار وتركه وشأنه. ولكن أمين باشا ظل فى منصبه مخلصاً لمصر وحكومتها معتمدا على ولاء الضباط والجنود المصريين والسودانيين إلى أن جاء ستانلى وحمله على الجلاء عن ذلك الاقليم مما ساعد انجلترا على احتلال أوغندا وبسط حمايتها عليها (سنة ١٨٩٣) وألحقت بها الجزء الجنوبى من مديرية خط الاستواء.

ولابد هنا من كلمة نقولها عن غوردون بعد عودته من انجلترا. ذلك أن الخديو لما أجابه إلى طلبه باحالة اسماعيل باشا أيوب حكمدار السودان إلى المعاش، جعله هو حكمدارا عاما مكانه فى ١٧ فبراير سنة ١٨٧٧ وخوله سلطة واسعة إذ صدر الفرمان لغوردون باشا بالولاية على جميع أصقاع السودان بما فيها دارفور وبحر الغزال وخط الاستواء وهرر وسواحل البحر الأحمر مع مصوع وسواكن وزيلع وبربره وخوله - على ماجاء فى عدد الوقائع المصرية رقم ٦٩٨ الصادر بتاريخ ٢٥ فبراير سنة ١٨٧٧ - =

المنفرد بالحكم. ولم يكن وزير خارجيته - نوبار - إلا عبارة عن وسيط

= فى حكمه سلطة مطلقة عسكرية ومدنية. وكان سلطان مصر قد بلغ وقتذاك أقصى مداه إذ امتد من سواحل البحر الأحمر وخليج عدن إلى الأقيانوس الهندى شرقا وإلى حدود واداى غربا والبحيرات الاستوائية جنوبا.

وينبغى ألا يفوتنا هنا أن نقول أن غوردون مع اهتمامه بمحاربة النخاسة قد وجه عنايته إلى احتكار العاج وكان ذلك أحد بذور الثورة المهدية كما ذكره الكولونيل شالى لونج إذ قال فى كتابه «مصر ومديرياتها المضيعة» ص ١٨٦ ما نصه :

«إن أمر غوردون باحتكار الحكومة محصول العاج ، قد أثار تجار العاج على الحكومة وهؤلاء التجار كانوا سادات السودان الحقيقيين . فكان هذا العمل المنطوى على الظلم النواة الأولى للثورة المهدية وكانت ادارة غوردون فوضى . وبالجملة فقد تولى حكم السودان والأمن واليسار يسودانه ولما غادره سنة ١٨٧٩ كان ينوء تحت أعباء الديون والثورة تتمخض فى أحشائه.»

ولسوء حظ غوردون أن مدة حكمداريته العامة للسودان - على ما ذكره الأستاذ الرافعى بك - كانت مملوءة بالفتن والاضطرابات ، وكان عهده نذيرا بنشوب الثورة المهدية. ومما ساعد على شبوب الفتن تشدده فى إبطال الرقيق واحتكار العاج ونقص قوة الجيش المصرى فى السودان ، بما أخذته الحكومة من صفوفه من الأمداد التى أرسلتها إلى تركيا فى حرب البلقان (سنة ١٨٧٧) .

ومن الثورات التى نشبت فى عهد غوردون ثورة سليمان بن الزبير رحمت باشا سنة ١٨٧٧ انتقاما لاعتقال أبيه فى مصر ولكن غوردون أخمد ثورته . على أنه عاد إلى الثورة فأنفذ إليه غوردون جيسى باشا فقضى عليه وقتله (يولية سنة ١٨٧٩) مما أحزن أباه الزبير ولكنه ظل على ولائه لمصر .

ثم ثار أحد قواد الزبير واسمه الصباحى ولكن الجنود المصرية طاردته حتى أدركته وحكم عليه بالاعدام أمام مجلس عسكرى (مارس ١٨٧٩) .

وثار فى دارفور الأمير هارون الملقب بالرشيد وبايعه الأهلون سلطانا عليهم فى أوائل سنة ١٨٧٧ فقاتلته الجنود المصرية طويلا مقاتلة أسفرت عن قتله فى أوائل سنة ١٨٨٠ على ما ذكره مسداليا بك فى كتابه «دارفور فى عهد غوردون» .

وسعى غوردون فى الاتفاق مع يوحنا ملك الحبشة على تحديد التخوم بينه وبين مصر فلم يوفق . وفى أواخر سنة ١٨٧٩ عاد إلى مصر وكان ذلك فى أوائل حكم =



المرحوم السير لى ستاك سردار الجيش المصرى

= توفيق باشا وقدم استعفاءه من منصبه فعينت الحكومة بدله محمد رؤوف باشا حكمدارا عاما للسودان فكان آخر الحكمداريين وآخر الولاة المصريين قبل الثورة المهدية .

وبعد استرجاع السودان فى سنة ١٨٩٨ أرغمت مصر على توقيع اتفاقية سنة ١٨٩٩ التى جعلت حكم السودان شركة بين مصر وانجلترا وعدلت حدوده فبعد أن كانت تنتهى عند بحيرة فيكتوريا صارت بعد اتفاقية سنة ١٨٩٩ تنتهى عند منجلا شمالى غوندوكرو .

ثم جاءت حوادث سنة ١٩٢٤ المشؤومة ومقتل المرحوم السردار السير لى ستاك فتقرر إخراج الجيش المصرى من ربوع السودان بعد أن بذلت مصر فى سبيل فتحه مابذلت من الأموال والأرواح .

حرب الحبشة

وكيف أرغم اسماعيل على دخولها

لم تهبط مصر لجنة التحقيق المسماة لجنة السير اصطيفان كيف ، إلا للبحث فى الميزانية المصرية ولإلصاق كل ماتستطيع إلصاقه من التهم باسماعيل باشا وحكومته ورميهم جميعا بسوء الإدارة المالية . ولجنة كهذه لم يكن يعقل ولا ينتظر منها أصلا أن تدافع عن أعمال اسماعيل أو أن تقول كلمة طيبة فيها . ولكن انظر ما قالته فى حرب الحبشة كما ذكره المستر ما كوان فى ص ٣٨٩ من كتابه . قالت :

مالى بينما كان اسماعيل باشا صديق المعروف بالمفتش هو المهيمن الفعلى على

= « لقد تورط الخديو إلى حدممين فى هذه المسائل (تقصد حرب الحبشة) بقصد القضاء على تجارة الرقيق. ولهذا نقول إن الحرب الحبشية قد فوجىء بها اسماعيل مفاجأة وأرغم على دخولها إرغاما . »

وإنه لمن المؤلم حقا أنه بينما توجد لجنة انجليزية كلجنة السير كيف همها التنديد بأعمال اسماعيل والتشهير بها بالحق أو بالباطل تعترف فى تقريرها بأن « الخديو أرغم على دخول حرب الحبشة إرغاما » إذا بمؤرخ مصرى كبير معروف بالاتزان والنزاهة كالأستاذ الرافعى بك يقول فى ص ١٥٢ من كتابه مانصه :

« ومن أى ناحية نظرنا اليها (يقصد حرب الحبشة) نجد أن مصرلم تكن فى حاجة إليها ولا مصلحة لها فى خوضها . وإنما ساق اليها النزق وسوء التدبير فانتهت بالهزيمة والخسران . » وقال فى موضع آخر « لم يجاهر اسماعيل بنيته فى فتح الحبشة ولكن سياسته أزاءها كانت تنم عن هذه الغاية فقد تحرش بها (كذا) وعمل على إثارة الحرب معها على غير جدوى » الخ الخ

ونكتفى بهذه الملاحظة ونترك للقراء الحكم على أقوال الأستاذ الكبير .

أسباب النزاع بين البلدين

عرض الأستاذ الرافعى بك لأسباب النزاع بين مصر والحبشة وهى تتلخص فى أن اسماعيل كان يرغب فى مد خط حديدى بين مصوع وكسلا مارا بسنهيت، تسهيلا للمواصلات بين السودان والبحر الأحمر وأنه كان يعتبر الجهات الواقعة بين البلدين وبخاصة سنهيت أرضا مصرية منذ عهد محمد على. ولكن النجاشى تيودورس ملك الحبشة عارض اسماعيل فى المشروع فوقع الجفاء الذى مالبث أن استحكمت حلقاته بوقوع الخلاف بين الأنجليز والأحباش فى سنة ١٨٦٧ عندما اعتقل تيودورس بعض التجار الأنجليز ومنهم قنصل انجلترا . فلما طالبته هذه باطلاق سراح المعتقلين رفض . فاشتد الخلاف بين الفريقين وانضم اسماعيل باشا إلى الجانب الأنجليزى وأرسل فى سبتمبر سنة ١٨٦٧ خطابا للنجاشى يطالبه بالأفراج عن المعتقلين وتهدده فى حالة الرفض بنشوب الحرب بينه وبين الأنجليز وبأنه فى تلك الحالة لايمانع الأنجليز فى اجتياز الأراضى المصرية لمهاجمته .

ولكن النجاشى أشاح بوجهه عن كل هذا التهديد وإذ ذاك أرسلت انجلترا فى سنة ١٨٦٧ حملة عسكرية بقيادة لورد نابيير . وهنا قرر الخديو مساعدة الأنجليز بأن أمر =

الأدارة . وقد انحصرت مهمته فى جباية الضرائب . وهى مهمة برهن فيها

==عبد القادر باشا الطوبجى محافظ مصوع بمعونتهم فى النزول إلى البر كما أنه وضع الأسطول المصرى تحت تصرفهم فنقل مهماتهم من السويس إلى مصوع .

ودارت رحى الحرب وأسفرت عن فوز الأنجليز واحتلالهم لمدينة « مجدلا » شمالى أديس بابا وقتل النجاشى تيودورس فى سنة ١٨٦٨ وبذا آل عرش الحبشة إلى « يوحنا » الذى كان الأنجليز يعاونونه ضد تيودورس .

ثم نشبت الحرب بين يوحنا وبين قبائل الجلا فاغتنم منزنجر باشا الفرصة وزين لاسماعيل فتح الحبشة .

ومنزنجر هذا هو سويسرى الجنس هبط مصر ومنها إلى السودان حيث طاف بأنحائه وأنحاء الحبشة وأقام فى مصوع منذ سنة ١٨٦٠ وتزوج بسيدة حبشية من أهالى البوغوس وشغل منصب قنصل فرنسا فى مصوع وقدم للانجليز أكبر معونة فى حربهم ضد الحبشة .

ثم عينه اسماعيل فى سنة ١٨٧٠ محافظا لمصوع ورقاه فيما بعد محافظا لسواحل البحر الأحمر ومديرا لشرقى السودان وأنعم عليه برتبة البكوية ثم الباشوية . وعين لمحافظة مصوع أراكيل بك نوبار أحد أقرباء نوبار باشا .

فتح اقليم البوغوس

فلمازين منزنجر لاسماعيل — كما يقول الأستاذ الرافعى بك — فتح الحبشة نظرا لما كانت عليه من الضعف والفوضى عهد إليه اسماعيل بفتح اقليم البوغوس — ويراها القارىء فى خريطة مديريات السودان فى عهد اسماعيل المذكورة فى صحيفة تالية . فذهب منزنجر من مصوع فى قوة تبلغ ١٥٠٠ مقاتل قاصدا « سنهيت » عاصمة الاقليم واستولى عليها باسم الحكومة المصرية . ثم فتح الاقليم كله وابتاع مقاطعة « ايلت » من حاكمها وكان على خلاف مع النجاشى وأصبحت سلطة منزنجر تشمل سواكن ومصوع وبلاد البوغوس والتاكا والقضارف والقلابات وأميديب وبركه أى السودان الشرقى فى أقصى حدوده .

وكان بديهياً أن ينقم يوحنا على مصر هذا التوسع ويضمر لها الشر . وسرعان ما نشبت الحرب بين البلدين . وقد جهز اسماعيل عند الحبشة حملتين فى وقت واحد . الأولى تهاجمها من الشمال عن طريق مصوع بقيادة الكولونيل ارندروب وهودانمركى==

على شدة وطأته المقرونة بعدم النزاهة. ولما تضخمت ثروة المفتش وتضاعف

= الأصل جاء إلى مصر للاستشفاء وتعرف بالجنرال إستون باشا رئيس أركان الحرب فرغب إليه الخدمة فى الجيش فقبل وتولى قيادة هذه الحملة وعددها ٢٥٠٠ مقاتل. أما الحملة الثانية فبقيادة منزنجر باشا نفسه لمهاجمة الحبشة من الجنوب عن طريق تاجورا.

هذه هى رواية الأستاذ الرافعى بك. أما المستر كرابيتس فيقول إن غارة منزنجر على إقليم البوغوس واحتلالها كجزء من محافظة زيلع إنما كان باعثه تقليم أظافر الأحباش الذين كانوا محط آمال تجار الرقيق بعد أن ضيق السير صمويل بيكر والكولونيل غوردون عليهم الخناق فى أنحاء السودان. فامتداد القتال إلى أراضى الحبشة هو بقصد محاربة النخاسة وهذا ما يتفق تماما مع ما ذهبت إليه لجنة كيف الآنفة الذكر.

يوم ١٥ نوفمبر المنحوس

ويظهر أن يوم ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥ كان يوم نحس على هاتين الحملتين. فلقد تقدمت حملة أرندروب لغاية «الحاسين» جنوبى سنهيت دون أن تلقى مقاومة وتقدمت فى ناحية جوندويت حيث التقت بجيش عرمرم جمعه الملك يوحنا ويبلغ عدده ٣٠٫٠٠٠ مقاتل. فاشتبك الفريقان فى القتال فى يوم ١٥ نوفمبر على ما ذكره المستر كرابيتس ودارت رحى المعركة على ضفاف نهر المارب وقد أسفرت عن ارتداد الجيش المصرى إلى مصوع بعد أن لقى أرندروب بك وأراكيل بك حتفهما.

أما منزنجر فقد غادر مصوع إلى تاجورا ومنها إلى بحيرة أوسا حتى بلغها فى ١٤ نوفمبر. وفى طريقه إلى البحيرة قابل المدعو ابن الشيخ محمد الحدة أمير ذلك الاقليم فتظاهر الشيخ بالولاء لمصر ليحكم إعداد الشرك لمنزنجر. وقد خدع هذا فيه واتخذه دليلا ومرشداً. وسارت الحملة إلى قرب البحيرة. وفيما كانت الجنود المصريون نياما فى منتصف ليلة ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥ هجم عليهم رجال القبائل غيلة بقيادة ابن الشيخ محمد الحدة وأعملوا فيهم السيف حتى أفنوهم على بكرة أبيهم ودارت الدائرة على الجيش المصرى وهو فى فراش النوم وقتل منزنجر وزوجته وارتد الباقون إلى زيلع.

حملة راتب باشا سنة ١٨٧٦

ولما أن سمع اسماعيل بهذه الأنباء المحزنة هاجها أشد هياج وخشى عواقبها المعنوية والسياسية فصمم على تأديب الأحباش وغسل الاهانة التى لحقت الجيش المصرى.

دهاؤه وخبثه دعاه اسماعيل إلى النزهة وهناك أودع على ظهر الباخرة حيث لقى حتفه .

= تجرد حملة يبلغ عددها مع فلول حملة أرندروب ١٢٠٠٠ وعقد قيادتها لراتب باشا السردار وولى الجنرال لورنج باشا الأمريكى منصب رئاسة أركان الحرب .

وصحب هذه الحملة الأمير حسن باشا نجل الخديو وكان قد عاد حديثا من ألمانيا بعد دراسته مبادىء الفنون الحربية .

وممن تطوع فى القسم الطبى للحملة بعض كبار اطباء مصر فى ذلك العهد كالدكتور محمد على باشا البقلى الذى قتل فى الحملة والدكتور محمد بك بدر ثم السيد محمد عبد الله حكيمباشى الطوبجية المصرية والد الأستاذ على فكرى الأمين الأول بدار الكتب الملكية .

وتولت سفن الأسطول المصرى وبواخر الشركة الخديوية نقل هذه الحملة من السويس إلى مصوع فوصلتها فى منتصف شهر ديسمبر سنة ١٨٧٥ ونظرا لصعوبة المواصلات وسوء حالة هيأة أركان الحرب لم تستأنف الزحف على الحبشة إلا فى منتصف شهر يناير سنة ١٨٧٦ وبعد اجتياز مفاوز شاقة وجبال لا علم للمصريين بها ومناطق لم يعرفوا عنها شيئا من الناحية الطبوغرافية وصلوا إلى أوائل السهل الممتد من ممر (قياخور) إلى قورع وتبعد هذه الأخيرة عن مصوع نحو ٥٥ ميلا . ثم شرع الجيش المصرى يعسكر فى المدينة الأخيرة ويقيم فيها الاستحكامات والحصون .

معركة قورع فى ٧ مارس سنة ١٨٧٦

ولكن الملك يوحنا جاء فى ٤٠٫٠٠٠ من رجاله والتحم فى يوم ٧ مارس سنة ١٨٧٦ بالجيش المصرى فى معركة قورع وكانت معركة حامية أصيب فيها الفريقان بخسائر فادحة وأسفرت عن هزيمة الجيش المصرى بعد أن خسر نحو ٤٨٠٠ بين قتلى وجرحى ولم يتمكن من الفرار إلا نحو ٥٣٠ شخص بينهم راتب باشا وبعض كبار الضباط وكانوا قد أشرفوا على الموت .

وكان بين الأسرى محمد بك رفعت رئيس القلم التركى بديوان الجهادية فاستطاع أن يقنع النجاشى بوجوب عقد الصلح على أساس انسحاب الجنود المصريه من أرض الحبشة ورد الأسرى إلى مصر وفتح طريق التجارة بين مصوع والحبشة .

وفعلا تم الصلح ، وظلت سنهيت فى حيازة مصر وعاد الأسرى مع فلول الحملة إلى مصوع حيث أبحرت إلى السويس وهكذا كانت الحرب الحبشية أول صدمة أصابت الجيش المصرى فى أثناء فتوحاته العظيمة .

ومع أن «أفندينا» كان أوتقراطياً شرقيا فقد عمد إلى إصلاح النظام



الكولونيل مارشان أمام أهرام الجيزة

= وليس يفوتنا أن نذكر مع الأسف أن ما نزل بالجيش المصرى من الخسائر فى تلك الحرب المشئومة — التى أرغم اسماعيل على خوضها كما ذكرت لجنة كيف — كانت له عواقب سياسية بعيدة الغور أولها وأهمها إغراء السياسة الأنجليزية باحتلال القطر المصرى فيما بعد بعد أن تجلى لها ضعف الجيش المصرى وعجزه عن الدفاع عند الحاجة عن البلاد ضد الخطر الأجنبى.

خلاصة اجمالية عن السودان فى عهد اسماعيل

يصبح بعد كل ما فصلناه لك عن الفتوحات المصرية فى السودان أن نقول إن الفضل يرجع لاسماعيل باشا فى بسط الحكم المصرى فى أنحاء ذلك القطر الشقيق ومد رواق الحضارة فيه، وليس من سبيل إلى نكران أن الخديو اسماعيل هو الذى وصلت حدود السودان فى عهده الزاهر إلى حدود مصر الطبيعية التى تشمل وادى النيل وملحقاته =

الاجتماعى الأسلامى على النمط العصرى . وقد كان هذا النظام يقوم



الجنود البريطانية ترفع الراية المصرية على فاشودة

من البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى منابع النيل والأقيانوس الهندى جنوبا ومن البحر الأحمر شرقا إلى صحراء ليبيا غربا .

فكأنما أكمل اسماعيل العمل الذى بدأه محمد على فى السودان . ذلك أن حدود السودان المصرى وصلت فى عهد مؤسس مصر الحديثة إلى البحر الأحمر وضمت اقليم التاكا (كسلا) الواقع شرقى نهر عطبرة ثم وصلت من جهة الحبشة إلى القضارف والقلابات ودخلت فى نطاقها سواكن ومصوع هذا إلى أن الحملات والتجاريد العسكرية وصلت جنوبا إلى جزيرة (جونكر) تجاه غوندوكرو الواقعة على النيل الأبيض.

أما فى عهد اسماعيل فقد تضمنت الفتوحات المصرية فتح مديرية فاشودة وهى التى أثار احتلال الكولونيل مارشان وكتيبته الفرنسية إياها أزمة شديدة بين انجلترا وفرنسا فى سنة ١٨٩٨ وكادت أن تؤدى إلى الحرب بينهما . وقد غير الانجليز اسمها وسموها الآن (كودوك) كما جعلوا اسم المديرية مديرية النيل الأعلى مع أن تشاجر انجلترا مع فرنسا بسببها كان بحجة أن تلك الأراضى تابعة لمصر فلا يحق لفرنسا احتلالها !!

وبعد فاشودة ضمت مصر محافظتى مصوع وسواكن نهائيا إلى أملاكها وحصل اسماعيل على فرمان بذلك فى مقابل زيادة الجزية المصرية المقررة للباب العالى على نحو ما فصلناه لك .

ثم استولت مصر على اقليم خط الاستواء ومملكة أونيورو وبسطت حمايتها على

على دعامة الاسترقاق وعزلة النساء وساطة رب الأسرة إلى غير ذلك من دعائم



طبيب المهدى



محمد بك المليك من سلالة ملوك أدفو وهو ممن انضموا إلى مصر

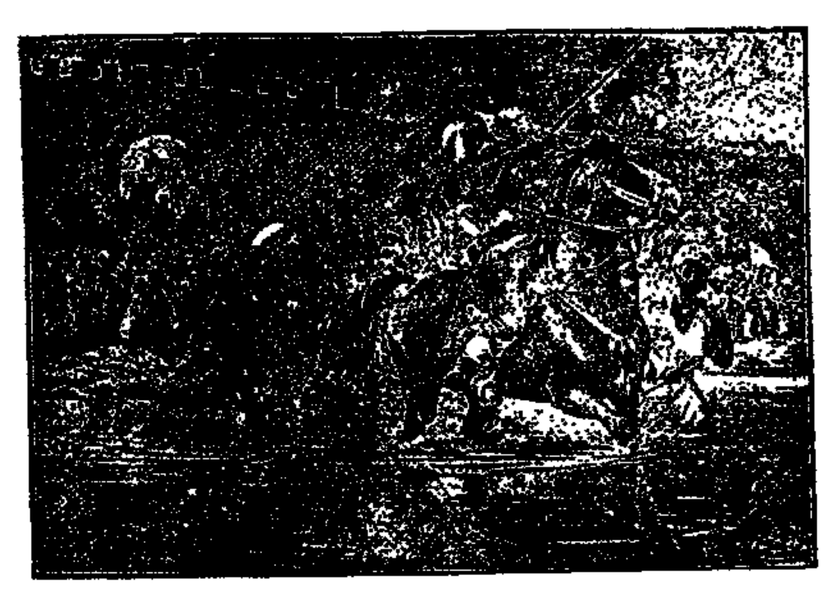
أوغندا وفتحت اقليم بحر الغزال وسلطنة دارفور واتسعت أملاك مصر بين الحبشة والبحر الأحمر بفتح سنهيت وبلاد البوغوس وامتدت سلطتها إلى سواحل البحر الأحمر حتى بوغاز باب المندب وضمت محافظتى زيلع وبربره كما فتحت سلطنة هرر الواقعة جنوب شرق الحبشة وأدخلت فيها سواحل السومال الشمالية حتى رأس جردفون على الأقيانوس الهندى ثم إلى رأس حفون . وهكذا وصلت فتوحات مصر جنوبا إلى بحيرة البرت وبحيرة فكتوريا وشرقا إلى البحر الأحمر وخليج عدن وغربا إلى حدود واداى .

فاذا ما ذكر المصريون اسماعيل فليذكروا أنه هو معمر السودان وإليه يرجع الفضل فى تمدينه وتمصيره كما أنه هو الذى قضى فيه على تجارة الرقيق الممقوتة واستئصال شأفتها .

ونذكر بهذه المناسبة حكاية طريفة عن السير صمويل بيكر .

هذه الحكاية هى أن المستر تشارلس ألن سكرتير الجمعية البريطانية الأجنبية لمحاربة الرق أرسل يدعو السير صمويل بيكر إلى حضور حفلة يوبيل الجمعية المذكورة . ولكن السير صمويل بيكر رد عليه بالخطاب التالى الذى رأينا أن نثبته بنصه لأنه شهادة رجل انجليزى كبير على ما لاسماعيل من الفضل فى عمل انسانى كادت الشهوات السياسية

الدولة الأسلامية (كذا !) . فالاسترقاق الذى كان سبباً فى بقاء كثيرين من



عبد الله التعايشى يقطع النيل عند أم درمان ويحرض رجاله على القتال

أن تحجبه عن الأبصار بينما عين التاريخ لن تغمض عن تدوين الحقائق كما هى. قال السير صمويل فى رده الذى أرسله من محل إقامته لسكرتير الجمعية المذكورة :

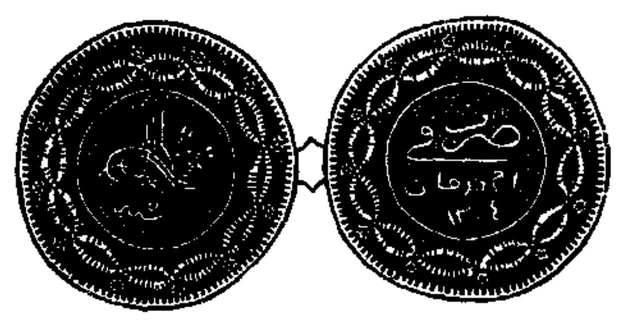
« ساند فورد أورلى

« تحريراً فى ٣٠ يولية سنة ١٨٨٤

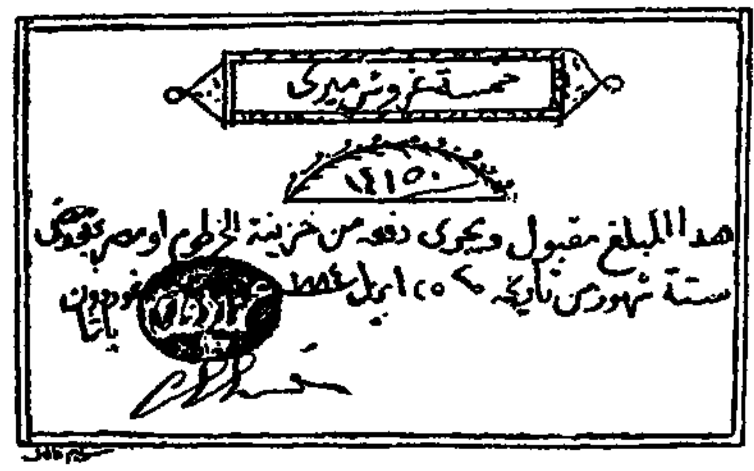
« إنى أستشعر الأسف لأن تغيبى عن لندن يحول دون حضورى حفلة يوبيل جمعية محاربة الرق بمناسبة مرور خمسين سنة على الغاء الرق فى الممتلكات البريطانية ولا أستطيع أن أعتقد فى الوقت نفسه أن أحداً من وزراء جلالة الملكة تسول له نفسه الحضور فى جمعيتكم فى الموقف المخجل الذى يوجد فيه السودان الآن . (وعلى كل فأن الجمعية لاصبغة سياسية لها .)

« فالحكومة البريطانية باصدار أوامرها التعسفية للخديو وإرغامه على التخلى عن الخرطوم والسودان جملة واحدة قد طعنت طعنة نجلاء كافة مابذلناه من المجهودات للقضاء على النخاسة . فهذه التجارة الممقوتة لم تستمد الحياة مباشرة من مثل هذه السياسة فقط بل إن قوة الحماية قد سحبت من كل من آزرنا فى العمل الطيب الذى قمت به

المماليك على قيد الحياة كان مايزال يعتبر جزءا من حياة الطبقات الحاكمة.



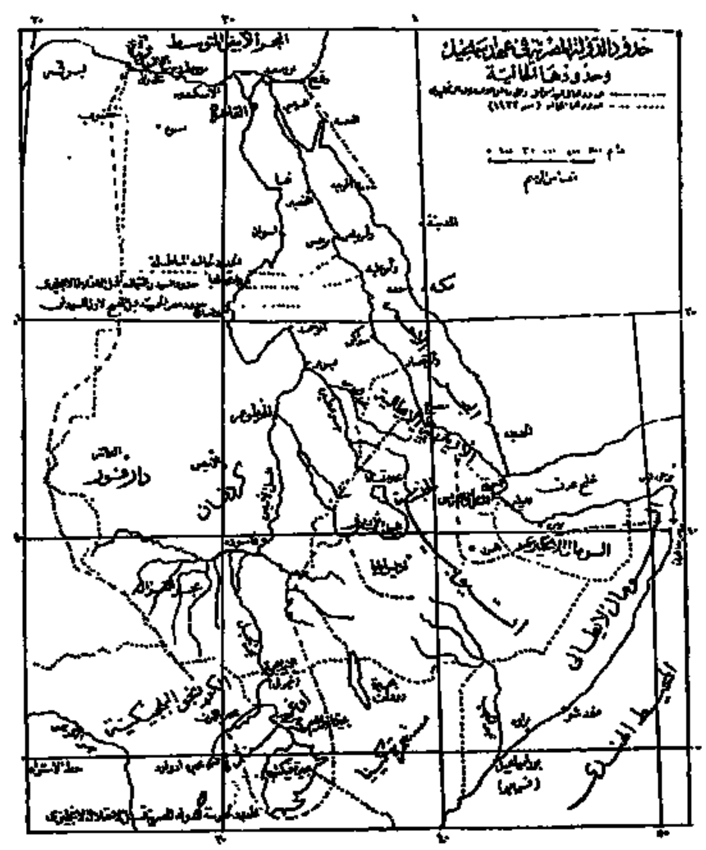
نقود المهدى



نقود غوردون باشا

= أنا وغوردون وبذلك بادر أهل الفساد فى زهو الانتصار إلى احتلال العرين بعد أن خلا من حماته . فهذا بلا ريب عمل الحكومة البريطانية الصادر عن عمد وسبق نية وهو أن تتخلى عن غنائم المعركة وتتنازل عنها لصيادى الرقيق الظافرين وأن تخلى حومة القتال التى يجرى فيها التشاد بنفس الطريقة التى انسحبنا فيها من الترنسفال أمام مقاتلة البوير المغاوير .

« ولست أستطيع أن أتصور كيف يمكن للفرد الانجليزى أن يفاخر برفع رأسه أو أن يهنىء بعضنا بعضا فى يوبيل تقيمه جمعية مقاومة الرق بوصف أننا الذين الغيناه. ويخيل إلى أن عملا كهذا هو غاية النفاق والرياء. فنحن لم نكتف بالتخلى عن كل شىء لعنصر صيد الرقيق فى أفريقيا الوسطى بل إننا فضلا عن ذلك تركنا غوردون يلقى =



حدود الدولة المصرية فى عهد اسماعيل ومقارنتها بحدودها الحالية

حتفه . . . . وما دامت هـذه الصورة المخجلة المنطوية على الجبن والرياء ماثلة أمام عينى فلست أستطيع أن أفهم معنى لاقامة الاحتفال باليوبيل فى انجلترا .

« ثم إننى أشد ما أكون أسفا لأن التقرير الخاص بما بذل من الجهود المختلفة للقضاء على النخاسة لا يتضمن أى ذكر لصاحب السمو الخديو اسماعيل باشا . مع أن سموه كان أول حاكم شرقى طعن تجارة النخاسة الطعنة النجلاء فى الصميم . ثم لا ينبغى أن يتناسى أحد أننى لم أكن أنا وغوردون إلا موظفين من موظفى سموه وأنه إذا كان ثمة فضل فيما قمنا به من العمل فان هذا الفضل يرجع إلى سموه وحده . »

هذا هو اسماعيل وهو بلا ريب الذى أوصل مصر إلى حدودها الطبيعية كما يتبين لك من إلقاء نظرة على الخريطة المنشورة فى هـذه الصحيفة التى تبين حدود الدولة المصرية فى عهـده وحدودها الحالية . وهو هو الذى رفع السودان إلى المستوى الذى جعل الأجانب يشيدون به .



الماجور استيجان — الدكتور جنكر

شهادة الثقات الأجانب
في الحكم المصري في السودان

وقد تكون أمام مانسجه أصحاب الغايات فى حاجة إلى أن نضع تحت عينيك شهادات بعض الثقات الأجانب فى الحكم المصرى فى السودان فى عهد اسماعيل . فاليك ما كتبه الماجور استيجان الذى حكم مديرية خط الاستواء فى العهد الجديد أى بعد قيام الحكم الانجليزى فقد قال فى صدد حكم الزنوج فى ص ٩٩ من مؤلفه المسمى « خط الاستواء » ما نصه :

« كان الأهالى فى عهد الحكومة المصرية القديمة كما يستنتج من التدابير الوقتية التى اتخذت فى ذلك العهد أكثر عددا وأحسن نظاماً وترتيباً وأشد جنوحا للسلم منهم فى العهد الحاضر . »

أما الدكتور جنكر الروسى الذى قضى عدة سنوات فى أواسط افريقيا فقد كان شاهداً عادلا على حسن الادارة المصرية فى تلك الجهات إذ ذكر فى كتابه المسمى « رحلة فى افريقيا » ص ٥٠٠ جزء أول ما نصه :

« . . . ويرجع الفضل إلى المسلمين الذين تعزى إليهم المطاعن والمثالب فى إلزام الزنوج لضرورة المعيشة فى هدوء وسلام مع القبائل المجاورة لهم وبالاقامة على قدر الامكان فى دورهم وبزراعة حقولهم . ومما يشرف الحكومة المصرية وضع بلاد الزنوج تحت

فقد كان الرقيق يشترى بنحو ٤٠ جنيهاً ثم لا تمر أعوام حتى تفتح



رودلف سلاطين باشا الذى أسره المهدى ثم تظاهر باعتناق الاسلام

= سيطرتها مما مكنها من أن تفتح فيها بابا لانتشار المدنية فى مستقبل الأيام . »

وقد لخص الأستاذ الرافعى بك ما كتبه رودلف سلاطين باشا فى كتابه « السيف والنار فى السودان فقال ما نصه :

« إن السودان المصرى يحكمه الآن (١٨٩٥) الخليفة عبد الله التعايشى الرئيس المستبد لدعاة المهدى . وقد كانت السنوات العشر من حكم المهديين كافية لنشر العبودية فى نواحيه . ومن الحق أن نقول أن السودان ظل سبعين سنة ونيفا منذ عهد محمد على مستظلا بالحكم المصرى مفتوحا للحضارة والمدنية.والمتاجر المصرية والأوربية تزدهر فى عواصمه والدول الأجنبية توفد قناصلها إلى الخرطوم والسائحون على اختلاف أجناسهم يجولون خلال البلاد دون أن يلقوا ممانعة بل كانوا يلقون عطفا ورعاية من ولاة الأمور . وانتظمت طرق المواصلات والتلغرافات وإدارة البريد فسهلت الاتصال بين أرجاء السودان القاصية ، وأدى الناس الشعائر الدينية سواء فى المساجد أو فى الكنائس ، وقامت مدارس البعثات إلى جانب مدارس الحكومة . وعلى الرغم من تعدد القبائل التى تسكن السودان وما كان بينها من العداء وتحفزها للاقتتال فان حزم الحكومة وسطوتها كانا كافيين لتوطيد دعائم الأمن والسلام فى مختلف أصقاعه .

وقال فى موضع آخر يصف تبدل الحال بعد غلبة الثورة المهدية :



القائد عثمان دجنة من أشهر قواد المهدى

= « لقد شهدنا فى السودان منظرا محزنا إذ رأينا الحضارة الجديدة التى دخلته مع الحكم المصرى تتداعى أركانها وينِدك صرحها بأيدى أقوام جهلاء يكادون يكونون من الهمج فأسسوا على أنقاض هذه الحضارة حكومة وضعوا لها نظاما يشبه فى بعض أشكاله نظام الحكم المصرى ولكنهم قضوا على ماازدان به من العدل والتهذيب ، فأقاموا فى السودان صرح الظلم والانحطاط . ولا يكاد المرء يشهد فى التاريخ الحديث بلاد أخرى سادت فيها الحضارة الناشئة زهاء نصف قرن من الزمان ثم انقلبت إلى حالة أقرب ماتكون إلى الهمجية . فان الخليفة والقبائل التى تناصره بعد أن اغتصبوا سلطة الحكم وانتزعوها من أيدى المصريين يحكمون الآن الأهلين التعساء حكما جائراً ويسوقونهم بعصا من حديد ويسومونهم من الخسف والنكال ماجعلهم يتوقون إلى التخلص من هذه الدولة ويتطلعون إلى حكومة يجدون فى ظلها الراحة والسلام . وليس أدل على مبلغ ماعاناه السودان فى عهد المهديين أكثر من فناء ما يقرب من ثلاثة أرباع أهله ممن اجتاحتهم الحرب والمجاعات والأمراض المختلفة والتقتيل والتنكيل . »

وكتب سلاطين باشا فى موضع آخر من كتابه السالف الذكر ما يعد خير شهادة لحكم اسماعيل باشا فى السودان فقال :

« لقد بعد العهد بحالة السودان تحت حكم اسماعيل إذ كانت الحكومة المصرية تحمل فى ربوعه لواء الحضارة والمدنية على حين كانت البقاع الخارجة عن منطقة النفوذ المصرى =

أمامه أبواب الجاه والثروة. أما الرقيقات أو الجوارى فقد كن أربعة أقسام قوقازيات أو حبشيات أو زنجيات أو جلايات (نسبة إلى قبائل الجلا)



الجنرال هكس باشا الذى قتل على رأس الحملة المصرية ضد المهدى

في حالة الانحطاط والتأخر . فالسودان بعد أن دخلته الحضارة فى ظل الحكم المصرى قد تطرقت إليه الهمجية على عهد المهديين . »

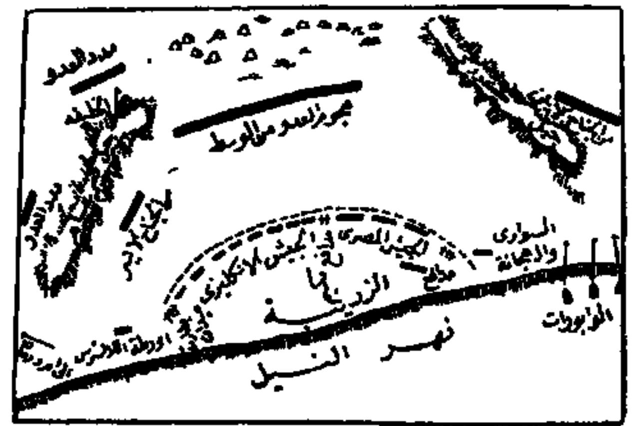
وإليك هذه النبذة المهمة التى بين فيها سلاطين رأيه بالنسبة لارتباط السودان بمصر مما ينبغى ألا ننساه فقط نظرا لحاجة كل من القطرين الشقيقين إلى الآخر . قال :

« أرى واجبا على أن أبين وجهة نظرى فى أهمية السودان وقيمته لمصر وأبدى الرأى الذى ثبت فى قرارة نفسى فأقول إن الأسباب التى دعت محمدا عليا منذ خمس وسبعين سنة إلى امتلاك السودان لا تزال قائمة إلى اليوم . فالسودان هو مصدر الحياة لمصر (كذا) وكل جهودها يجب أن تتجه إلى صيانة وادى النيل من أى غارة أجنبية فان كل خطوة تخطوها دولة أخرى نحو النيل ينظر اليها بعين الفزع من كل من يقدر خطر السيطرة الأجنبية على ذلك النهر العظيم وما تجره من تضحية سعادة مصر وتقدمها وتعريضها لأعظم المضار . »

صور بعض المواقع فى أثناء فتح السودان



موقعة أم درمان فى الهجوم الثانى



موقعة أم درمان فى أثناء هجوم الدراويش على الزريبة



موقعة فامكة بالسودان

وكن بالتوالى أمهات أو محظيات أو خادمات الطبقة الحاكمة . وقد كان نظام

—— وقد مر بك ماقاله السير صمويل بيكر عن انتشار الأمن فى ربوع السودان فى عهد اسماعيل وأن السائح الأجنبى لايتعرض على طول الخط ما بين الاسكندرية والخرطوم إلى الخطر أكثر مما يتعرض له أحد سكان لندن فى حديقة هايدبارك بعد الغسق . وإليك قوله فى سنة ١٨٧٣ فى كتابه (الاسماعيلية) ص ٤١٢ :

« إن مصر وحدها هى التى تستطيع تمدين افريقيا النيلية بانشاء حكومة نظامية . وحسبها أن تمد حدودها إلى خط الاستواء وبذلك تضمن حياة السائحين فى تلك الأقطار . واليوم وقد أصبح امتداد حدودها الجنوبية إلى خط الاستواء أمراً واقعاً فقد انفتحت افريقيا الوسطى للحضارة والعمران . »

أعمال الضباط الأجانب فى السودان

لقد مربك أن اسماعيل استخدم عددا كبيراً من الضباط الأمريكان وأنه استعان كذلك بضباط من الانجليز والفرنسيين والايطاليين مما يدلك على أنه لم يكن يستلهم فى اختيارهم إلا وحى ضميره فقط وأنه لم يكن تحت تأثير دولة معينة .

وقد رأيت بعض ماقام به الكولونيل شالى لونج بك من باهر الأعمال كاكتشاف بحيرة ابراهيم التى لا زالوا يسمونها باسمها القديم وهو بحيرة كيوجا وتمكنه من بسط حماية مصر على أوغندا .

كذلك مر بك اسم ارندروب ومنزنجر واشتراكهما فى الحملة ضد الحبشة

ونذكر لك الآن أسماء بعض الضباط الآخرين وطرفا من أعمالهم .

فالكولونيل جيسى الايطالى الذى صار فيما بعد جيسى باشا مدير بحر الغزال هو الذى قام بتخطيط شواطىء بحيرة البرت فى سنة ١٨٧٩ وإن كان الفضل فى تحديدها تحديداً علمياً يرجع إلى الكولونيل ماسون الأمريكى فى سنة ١٨٧٧ ذلك لأن ماسون هو الذى اكتشف وجود نهر ينبع من بحيرة البرت ويسير متجها إلى الجنوب . وقد دلت المباحث فيما بعد على أن هذا النهر هو نهر سيمليكى وهو الحلقة المفقودة فيما أصبح يسمى الآن منابع النيل من بحيرة البرت .

ثم الضابط شبنديل وهو انجليزى الجنس وكذا زميله وطسون وقد لعبا دوراً مهماً فى اكتشاف تلك المنابع بترسم مجرى النيل من ماجونجو حيث يخرج من بحيرة البرت إلى نقطة الدفلاى .



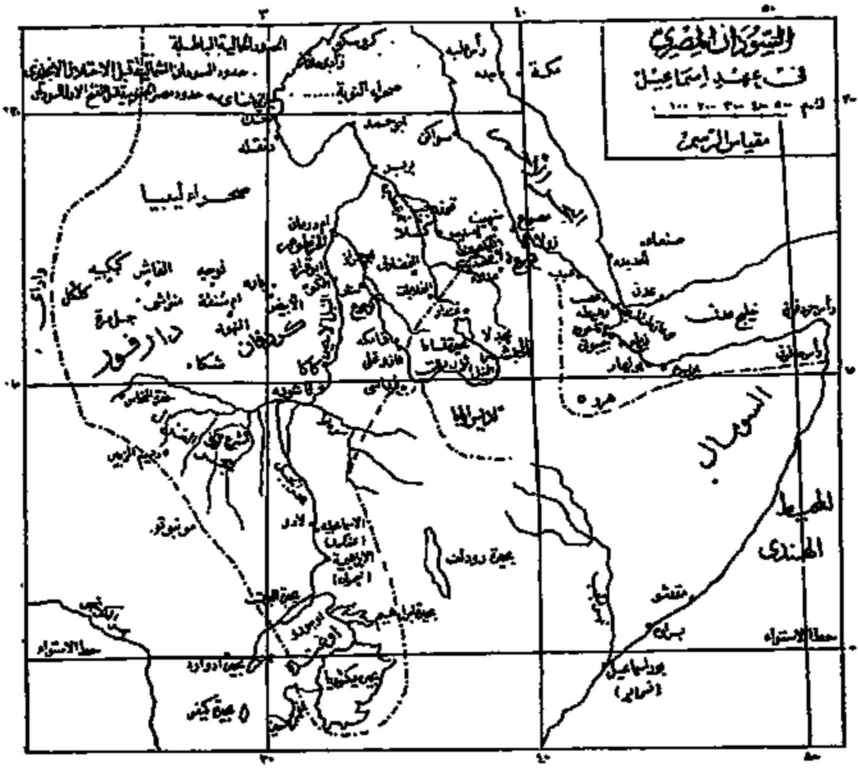
الكابتن لونجارد

أما السير صمويل بيكر فاسمه مقرون بمحاربة النخاسة هو وغوردون الذى يرجع إليه الفضل فى اكتشاف منبع النيل من بحيرة فيكتوريا على نحو ما بيناه لك .

وقد حدثنا غوردون فى أسباب استقالته الأولى أنه كان على خلاف مع اسماعيل باشا أيوب حكمدار السودان وقتئذ فلما طلب إلى الخديو إقالته وأجابه اسماعيل إلى طلبه رأى غوردون أن يجعل اعتماده على الموظفين الأجانب فى أنحاء السودان النائية فعين مسداليا بك الايطالى مديراً للفاشر وجيسى باشا الايطالى أيضا لبحر الغزال وفردريك روسى قنصل المانيا فى الخرطوم مديراً لدارفور وشارل ريجوليه الفرنسى مديراً لدارة واميليانى الايطالى مديراً لكبكبية والدكتور زورنجين الالمانى مفتشاً للصحة والضابط سلاطين النمساوى مفتشاً للمالية الذى أصبح سلاطين باشا وأسره المهدى وتظاهر فى الأسر باعتناق الاسلام وصار يعرف بالشيخ سلاطين ثم جيكلر باشا النمسوى الذى عين مديرا عاما لمنع تجارة الرقيق .

ثم الكابتن لونجارد الذى توجه إلى مديرية خط الاستواء واستخدم الجنود المصرية المتروكة فيها واستولى على أوغندا وعلى القسم الجنوبى من مديرية خط الاستواء .

أما الكولونيل بروت الامريكى فقد تولى الحكم فى مديرية خط الاستواء فعين غوردون باشا بدله ابراهيم فوزى (باشا فيما بعد) ثم مالبث أن أقاله وعين بدله الدكتور شنتزر الألمانى الذى عرف فيما بعد باسم أمين باشا وكافأه الخديو توفيق على شدة ولائه وإخلاصه لمصر .

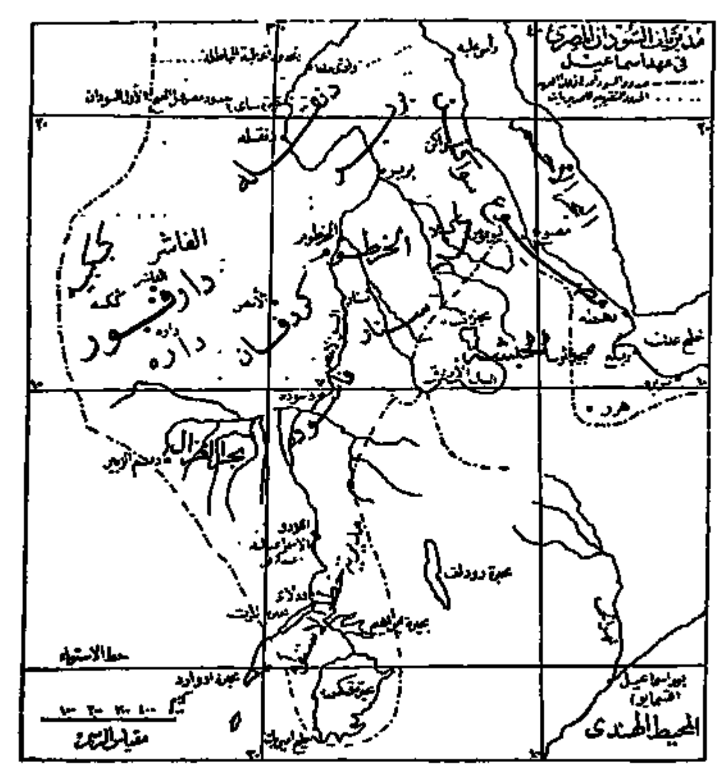


السودان المصرى فى عهد اسماعيل

حكمدارو السودان فى عهد اسماعيل

كان عهد اسماعيل فى السودان عهداً ذهبياً ولذا توسعنا فى التكلم عنه من نواحيه العديدة بعد أن كاد ماينشره بعض الكتاب المغرضين عن الحكم المصرى فى السودان أن يطمس الحقائق ويلقى فى روع أبناء الجيل الحاضر أن السودان لم يعرف معنى الرخاء أو اليسر أيام العهد الاسماعيلى. ومادمنا قد تكلمنا عن السودان وما تم فيه من الفتوحات فليس يعتبر خروجاً عن الموضوع أن نقول كلمة اجمالية عن حكمداريه ملخصة عن كتاب الأستاذ الرافعى بك.

فقد كان موسى باشا حمدى حكمدار السودان عند ارتقاء اسماعيل الأريكة ودليلا على ارتياح الخديو لأعماله أنعم عليه برتبة الفريق، وقد عنى بزيادة الجيش فى السودان إلى أن بلغ ٣٠٫٠٠٠ واستمر حكمدارا إلى أن توفى سنة ١٨٦٢ ودفن بالخرطوم ثم خلفه جعفر صادق باشا (١٨٦٥ — ١٨٦٦) وفى عهده فتح الجنود المصريون



مديريات السودان المصرى فى عهد اسماعيل

فاشوده (أخمدوا ثورة كسلا بين الجنود السودانيين وهى الثورة التى ترجع أسبابها إلى سوء ادارة الحكام وتأخير دفع رواتب الجند ١٨ شهرا مما أدى إلى وقوع بعض القلاقل حتى عين اسماعيل جعفر باشا حكمدارا فتمكن بواسطة الضابط السودانى آدم بك من قمع الفتنة .

وقد كافأ الخديو آدم بك برتبة اللواء . ثم مرض جعفر باشا وعاد إلى مصر فحل محله جعفر مظهر باشا (١٨٦٦ — ١٨٧١) فكان من خيرة حكام السودان وكانت ادارته ادارة عادلة مصلحة وأنشأ المدارس والمحاكم للفصل فى الخصومات .

وفى عهد مظهر باشا عين آدم بك قائدا للجيش المصرى بالسودان وأنعم عليه بالباشوية. وفى عهده أيضاً قام السير صمويل بيكر بما قام به من استيلاء على اقليم خط الاستواء إلى مطاردة الرقيق . وقد كان يتلقى المعونة من مظهر باشا .

وبالجملة فعهد مظهر باشا هو خير العهود فى السودان وكان محبوبا من الأهالى لعدالته

الاسترقاق على ما يتبعه من العتق بعد سبعة أعوام وما ينتظر الرقيق المعتوق بعد ذلك من ضروب التكسب أشهى إلى النفوس من الخدمة المنزلية . ولم يكن ينتظر طبعا ان يبقى نظام الحريم وسوق النخاسة طويلا

= ونزاهته وقدغادر السودان وهو مدين بمبلغ ١٠٠٠ جنيه مما يدل على طهارة يده . ثم عين فى سبتمبر سنة ١٨٧١ عضوا بمجلس الأحكام فى مصر فغادر منصبه فى السودان حيث خلفه فيه ممتاز باشا .

وكان ممتاز باشا من رجال الفرسان فى الجيش المصرى واشتهر بسوء سيرته وميله للرشوة حتى اذا بلغ الخديو ذلك أمر بتحقيق مانسب إليه ثم سجن فى الخرطوم رهن التحقيق ومات بالسجن . وكل مايذكر عنه أنه علم الأهلين زراعة القطن .

ثم عين اسماعيل باشا أيوب (١٨٧٣ — ١٨٧٧) الذى اتسعت فى عهده فتوحات مصر ففتحت سلطنة دارفور وضمت زيلع وبربره وفتحت سلطنة هرر ، وإليه يرجع الفضل فى انتشار الأمن والعمران فى ربوع السودان.وقد نشط الزراعة ووسع تجارة القطن وأنشأ معملين لحليج الأقطان ونسجها.وأنشئت فى أيامه نقط عسكرية بين الخرطوم ودارفور إلى حدود واداى وبين بربر على النيل وسواكن على البحر الأحمر لتأمين سبل المواصلات.وفى عهده أنشئت مكاتب للبريد فى أهم العواصم.وقد ظل فى منصبه إلى أن طلب غوردون باشا إلى الخديو إقالته فعينه عضوا بالمجلس المخصوص العالى (مجلس الوزراء) ثم ترقى وزيراً للداخليه.ويعزون إليه امتناع الحكومة عن إرسال الجزية التى طلبها عبد القادر باشا حلمى حكمدار السودان لاخماد الفتنة المهدية ثم استدعاؤه منه فى سنة ١٨٨٣ مما كان سببا فى استفحال تلك الثورة .

وبديهى أن نقل اسماعيل أيوب لمصر مهد الطريق لتعيين غوردون حكمدارا عاماً للسودان فبقى فى منصبه من ١٨٧٧ إلى ١٨٧٩ حيث جاء إلى مصر فى أوائل عهد توفيق وقدم استقالته فقبلت .

مديريات السودان

فى عهد اسماعيل باشا قسمت أراضى السودان إلى المديريات والمحافظات الآتية بسبب الفتوحات المصرية وتنذاك فصارت كما فى الجدول الآتى :

على هذه الحالة بعد أن عصفت بها ريح التقلبات الأقتصادية فبدلت من

مديريات السودان

المديريات والمحافظات	العاصمة
مديرية الخرطوم	الخرطوم
« سنار وفازوغلى	سنار
« بربر	بربر
« دنقله	دنقله
« كسلا أو التاكا	كسلا
« فاشودة	فاشودة
« كردفان	الأبيض
« الفاشر } مديريات دارفور	الفاشر
« داره } مديريات دارفور	داره
« كبكبية } مديريات دارفور	كبكبية
« بحر الغزال	ديم الزبير
« مديرية خط الاستواء	الاسماعيلية (غوندوكرو) ثم اللادو ثم ودلاى
وكانت مقسمة إلى مأموريات لاتوكا وبور ومكركة ومنبوتو وودلاى وفويره	
محافظة سواكن	سواكن
« مصوع	مصوع
حكمدارية هرر	هرر
محافظة زيلع	زيلع
محافظه بربره	بربره

نظرة إجمالية فى عمران السودان

لقد حدثناك عن استتباب الأمن وانتشار العمران كما شهد بذلك الثقات الأجانب وانتشار الزراعة الحديثة وخصوصا زراعة القطن وزراعة الدخان (فى القضارف) ولم ==



احمد عرابى باشا وقد اشترك فى حملة الحبشة

= يكن يقل جودة عن دخان الأناضول واستعمله المدخنون فى أنحاء السودان . كما ذكره شيلو بك ص ١٠٥ فى كتابه « النيل والسودان ومصر » وقد أنشأ أمين باشا حقولا للتجارب الزراعية بجوار القضارف على ما ذكرته مجلة الجمعية الجغرافية فى عدد فبراير سنة ١٨٨١ ص ٣٢ وقد ازداد غرس النخيل فى دنقله وتضاعف محصول التمر وكان يرسل إلى سائر أنحاء السودان .

وتحسنت طرق المواصلات بواسطة القوافل أو السفن كما بينه الكولونيل ستيوارت فى تقريره المنشور بالكتاب الأزرق الأنجليزى عن مصر سنة ١٨٨٣ كما أصلح مجرى النيل فى الشلال ونسفت الصخور والعقبات التى كانت تعترض السفن فيه فصار صالحا للملاحة النيلية فسهلت المواصلات بين مصر والسودان وأزيل جزء من السدود على النيل الأعلى كما ذكرته الوقائع المصرية فى العدد ٢٦٧

وأصلحت ترسانة الخرطوم التى أنشئت فى عهد محمد على وكثرت بها البواخر النيلية وبلغ عددها ١٥ عدا عدة ذهبيات مصنوعة من الحديد والخشب .

وأنشئ فنار فى ميناء بربره على خليج عدن لهداية السفن ولتسهيل الملاحة كما أنشئ فيها رصيف لأيواء السفن .

كذلك عهد اسماعيل باشا إلى جماعة من المهندسين بتخطيط السكك الحديدية التى تصل السودان بمصر وشرع فعلا فى مد الخط الحديدى على طول النيل من وادى حلفا إلى (حنك) وأنفق فى ذلك ٤٠٠ ألف جنيه ومد من الخط نحو ١٧ كيلو متر =

شأنها وأصبح الرجل يؤثر الزوجة المتعلمة والخادمة المحررة على هذا الجيش

== من وادى حلفا . ومهد الطريق على بعد ٤٧ كيلومتر أخرى ثم أوقف العمل فى سنة ١٨٧٨ بسبب الارتباك المالى .

وأنشئت المدارس فى بعض أنحاء السودان وعهد بالتدريس فيها إلى المتخرجين من مدرسة الخرطوم التى أنشئت فى عهد عباس الأول .

أما التجارة فقد نشطت بنسبة انتشار الأمن فى ربوع السودان حتى بلغت وارداته فى السنة مليونى جنيه وصادراته ١/٢ ١١ مليون جنيه وبلغت البيوتات المصرية التجارية فى السودان ٣٠٠٠ بيت والأوربية ١٠٠٠ بيت

ثم تولى موتشى بك مدير مصلحة البريد فى مصر إنشاء مكاتب للبريد فى السودان وأنشئت فى الخرطوم سنة ١٨٧٣ ادارة للبريد احتفل بافتتاحها افتتاحا فخما . وفتحت عدة مكاتب أخرى فى الخرطوم ودنقله وبربر وكسلا وسنار والمسلمية والقضارف وفازوغلى وفاشودة والأبيض والفاشر وظلت هذه المكاتب تؤدى مهمتها إلى أن تعطلت بعد شبوب الثورة المهدية سنة ١٨٨٣ وظل مكتب الخرطوم مفتوحا إلى أن سقطت المدينة فى أيدى الثوار سنة ١٨٨٥

أما خطوط التلغرافات فى السودان فقد بلغت لغاية ١٨٧٠ نحو ٢١١٠ كيلومتر وبلغ عدد المكاتب التلغرافية ٣١ مكتباً وذلك سنة ١٨٧٧ وكان مركز هذه الخطوط فى الخرطوم وظلت قائمة إلى أن عطلت إبان الثورة المهدية .

أما ميزانية السودان فقد قدرها الجنرال غوردون فى رسالته عن سنة ١٨٧٨ بما يأتى :

٣٢٧٠٠٠ جنيه دين السودان
٥٧٩٠٠٠ « ايرادات الحكومة
٦٢١٠٠٠ « مصروفاتها
٧٢٠٠٠ « العجز

الرحلات والبعثات الجغرافية

ليس يسعنا أن نختم ملاحظاتنا عن السودان دون أن نشير بكلمة موجزة إلى الرحلات والبعثات الجغرافية التى حفل بها عصر اسماعيل وكانت سببا فى انتشار الحضارة والعمران فى ربوع السودان كما أن إليها يعود الفضل فى تقدم علم الجغرافيا والاكتشافات بما أضافوا إليها من الحقائق المهمة والبيانات المبتكرة والخرائط والرسوم الدقيقة . وقد ==

= أجملها الأستاذ الرافعى بك فيما يلى : كانت بعثة السير صمويل بيكر إلى منابع النيل هى أول هذه البعثات . وفى سنة ١٨٧١ نشطت بعثة برئاسة الأميرالاى بوردى الأمريكى من ضباط الجيش المصرى مصطحباً طائفة من الضباط المصريين لجابوا الجهات الواقعة بين النيل والبحر الأحمر من القاهرة والسويس شمالا إلى قنا والقصير جنوبا فاكتشفوا طرق المواصلات ومناجم المعادن والمحاجر فى تلك الجهات .

وفى سنة ١٨٧٣ سار بوردى بك بحرا إلى (برنيقه) القديمة على البحر الأحمر (غربى رأس بناس) ولحقه بها الأميرالاى الأمريكى كولستن من طريق قنا برا وخططا الجهات بين برنيقه وبربر .

وفى ١٨٧٤ اكتشف شالى لونج بك بحيرة ابراهيم كما اكتشف معظم مجرى النيل المسمى بنيل فيكتوريا وحقق نقطة كانت غامضة وهى أن نيل فيكتوريا يصب فى بحيرة البرت ورسم الطريق بين اللادو ومكركه جنوبى بحر الغزال .

وبعد فتح دارفور فى سنة ١٨٧٤ أرسل أسماعيل ثلاث بعثات لاكتشاف جهات كردفان ودارفور واكتشفت ثالثتهما برئاسة المهندس الأمريكى متشل مناجم الذهب فى (الحامة) شمالى قنا .

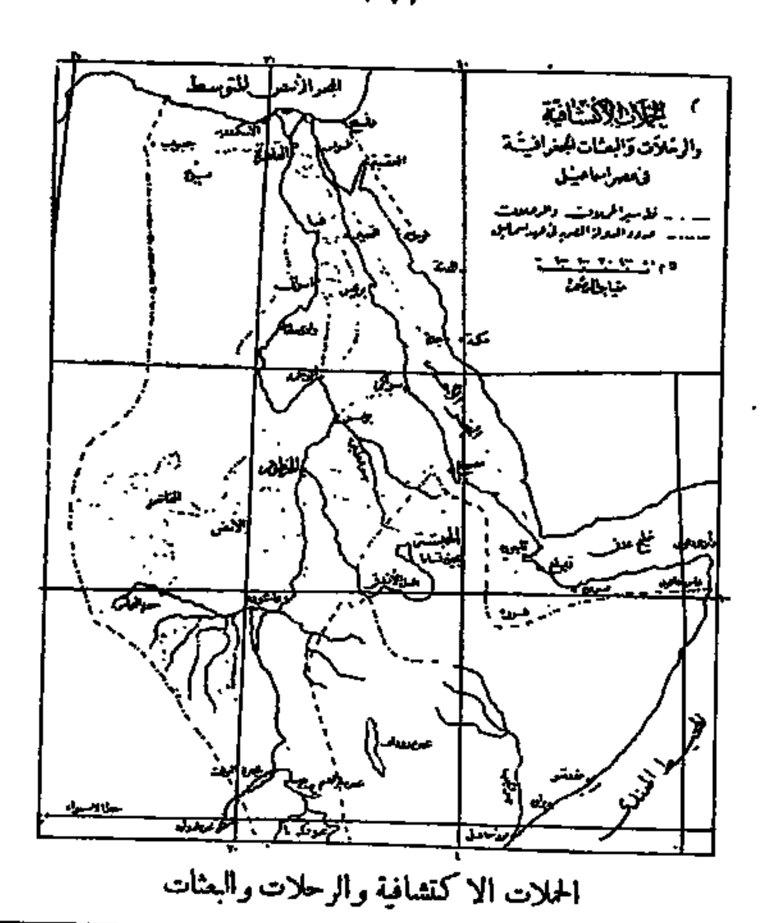
ورسم ارنست لينان دى بلفون (ابن لينان باشا) الطريق بين غوندوكرو وعاصمة أوغندا ، وقتل وهو عائد من مهمته . ومن بياناته وضع العلامة جورج شونفرت خريطته عن تلك الجهات .

أما الجهات الواقعة بين تاجورا وبحيرة أوسا بالحبشة فقد رسم خريطتها محمد أفندى عزت أحد ضباط حملة منزنجر باشا .

ثم بلاد هرر فقد رسم محمد مختار باشا خريطة المدينة بينما رسم عبد الله باشا فوزى خريطة بلاد هرر . كما رسم ضباط أركان حرب نادى باشا الجهات الواقعة بين هرر وزيلع وخريطة بربره وملحقاتها وضعها القائمقام عبد الرزاق بك نظمى .

أما حملة السومال فقد كشفت فى سنة ١٨٧٥ سواحل البنادر الواقعة على الأقيانوس ونهر الجوبا . وفى سنة ١٨٧٧ جاب الميرالاى ماسون بك بحيرة البرت وأتم الاكتشاف الذى بدأه فيها السير صمويل .

وحقق جيسى باشا مواقع بحر الغزال واكتشف أمين باشا مدير خط الاستواء نهر السمليكى الواصل بين بحيرة إدوارد وبحيرة البرت .



الحملات الاكتشافية والرحلات والبعثات

= وتوجد بين محفوظات الجمعية الجغرافية خريطة مفصلة لأفريقيا تعتبر أدق خريطة فى نوعها عرفت إلى ذلك الحين . وقد اشترك فى وضعها عدد من خيار الضباط المصريين.

وهذه الخريطة قد وضعت بأمر اسماعيل باشا وطبعتها أخيراً مصلحة المساحة على نفقة جلالة مولانا الملك ».

وقد يهمك أن تعرف مدى هذه الاكتشافات والجهات التى جابها ضباط أركان الحرب ورسموا مواقعها . فحسبنا أن نذكر لك ما ذكره الجنرال استون باشا رئيس أركان الحرب فى الجيش المصرى فى عهد اسماعيل إذ قال : « إنها تبلغ فى اتساع مداها مجموع مساحة فرنسا والمانيا والنمسا والمجر بحدودها القديمة . »

أليست هذه وحدها صحيفة من الصفحات الذهبية فى عهد اسماعيل العظيم ؟ كما أنها صحيفة خالدة فى تاريخ الجيش المصرى والضباط المصريين ومن الصحف التى يصح أن يفاخر بها المصريون إذ هى تكشف عن فترة ذهبية من تاريخهم القومى المجيد .



شاهين باشا
الذى تولى القيادة فى حملة جزيرة كريت *

قوات الدفاع فى عهد اسماعيل

الآن وقد فرغنا من التكلم عن السودان فلنعد إلى مصر لنترسم آثار اسماعيل فى مصالح الدولة وما أدخله من ضروب الأصلاح فى المرافق العامة .

ونبدأ بقوات الدفاع فنقول كلمة إجمالية عنها مقتبسة من كتاب سرهنك باشا جزء ٢ ص ٣٠٧ وما بعدها

فقد كان الجيش موضع عناية اسماعيل فى بداية حكمه . وقد زوده بمختلف الأسلحة وأحضر له البنادق الحديثة من فرنسا والتفت إلى القلاع - وبخاصة قلاع الاسكندرية - فحصنها بالمدافع الضخمة التى جلبها من مصانع ارمسترنج بانجلترا . وزاد عدد الجيش =

* هذه الصورة مستعارة من سعادة احمد شفيق باشا .



اسماعيل باشا أيوب

حكمدار السوذان الذى طلب غوردون باشا عزله *

= حتى بلغ ۱۸۰٫۰۰۰ بدلا من ۱۸٫۰۰۰ كما تقضى بذلك الفرمانات.

ولم يكتف بذلك بل أرسل إلى فرنسا باعتبارها أقوى الدول البرية قبل الحرب السبعينية بعثة حربية قوامها خمسة عشر ضابطاً من صفوة ضباط الجيش. وقد ذكرهم اسماعيل باشا سرهنك فى كتابه ج ٢ ص ٣٠٧ وهم : شاهين باشا ، ابراهيم باشا السوارى، على بك رضا الطوبجى ، على بك وهبى ، يوسف بك صديق ، محمد بك رضا ، محمود بك سامى، اسماعيل بك أيوب ، عبد القادر بك حلمى ، مصطفى بك فهمى ، عثمان بك غالب ، أحمد افندى حمدى ، حسن افندى مظهر ، محمد افندى .

ولما وصلت هذه البعثة إلى فرنسا كانت موضع عناية حكومتها وشرعت فى درس النظم العسكرية الفرنسية والاستحكامات والمناورات العموميه ، وجمعت طائفة من المؤلفات الحربية المشتملة على أساليب الجيش الفرنسى ونظاماته . وعادوا لتطبيقها فى مصر على الجيش المصرى الذى اهتم اسماعيل بجعل نظامه على نظام الجيش الفرنسى

وفى سنة ١٨٦٤ استدعى اسماعيل بعثة حربية من فرنسا من كبار الضباط الفرنسيين =

* هذه الصورة مستعارة من سعادة احمد شفيق باشا .



عبد القادر حلمى باشا

حكمدار السودان سابقا *

= وأسند إليها مهمة تنظيم المدارس الحربية المصرية . وكان على رأس هذه البعثة الكولونيل « مرشير بك » يعاونه ثلاثة ضباط آخرون هم « رباتيل » ، « لارى باشا » ، « وبولار » وألحق بهم الضابط دوبرناردى بك وكان فى خدمة الحكومة المصرية من عهد سعيد باشا فتولى هؤلاء الضباط نظارة بعض المدارس الحربية وأخذوا فى تنظيم شؤونها .

وكانت أول خطوة خطاها اسماعيل فى تنظيم تلك المدارس أن أمر بنقل المدرسة الحربية الموجودة بالقناطر الخيرية إلى قصر النيل ثم إلى العباسية وأنشأ بهذه الجهة عدة مدارس حربية أخرى بدل المدارس القديمة المنشأة فى عهد محمد على . وإنما أختار جهة العباسية لقربها من الصحراء وصلاحيتها لتعليم التلاميذ ضرب النار وما إلى ذلك من التمرينات =

* هذه الصورة مستعارة من سعادة احمد شفيق باشا .

المشاكسين ممن أخذوا على الأنسان عهداً بأن يطعمهم ويأويهم طيلة حياتهم .

= العسكرية هذا فضلا عن أن سراى عباس الأول كانت قريبة من تلك الجهة وهى تصلح مأوى للتلاميذ والمعاهد والثكنات .

وقد جعل لهذه المدارس إدارة واحدة تدعى « إدارة المدارس الحربية » وإليك بيان المدارس الحربية التى أنشأها فى العباسية فى بداية عهده بحسب ترتيب تواريخها .

اسم المدرسة	تاريخ التأسيس	عدد التلاميذ	
مدرسة البيادة	١٨٦٤	٤٩٠	
« السوارى	١٨٦٥	١٦١	
« الطوبجية	١٨٦٥	٢٨٠	كان طلبة هاتين المدرستين ينتخبون من طلبة المهندسخانة ولذا تعدان من أرقى المدارس فى عهد اسماعيل
« أركان الحرب بالعباسية	١٨٦٥	١٠٥	
مدرسة الخطرية	١٨٧٤		استخدمت الحكومة عدداً من صف ضباط هاتين المدرستين فى الاكتشافات الجغرافية بالسودان
« صف الضباط	١٨٧٤		
« الطب البيطرى	١٨٦٨		
« قلفوات الشيش			
« الجبخانجية			

ونظرة واحدة يلقيها الانسان على صفحة ٣٠٩ من الجزء الثانى من كتاب سرهنك باشا يدرك المستوى العلمى الراقى الذى بلغته تلك المدارس التى أغلقت أبوابها مع الأسف فى أواخر عهد اسماعيل (فبراير سنة ١٨٧٩) بسبب ما طرأ على البلاد من الارتباك المالى والسياسى والأدارى . وقد حلت المدرسة الحربية المستجدة فى ابريل سنة ١٨٧٩ محل تلك المدارس وعين لارمى بك ناظرا لها وهى المدرسة الباقية إلى اليوم .

هيأة أركان حرب الجيش

لعلك تذكر الضباط الأمريكان الذين استخدمهم الخديو اسماعيل فى الجيش المصرى وقد تألفت من هؤلاء الضباط ومن بعض الضباط المصريين الذين عادوا من البعثة الحربية بفرنسا هيأة أركان حرب الجيش ووضع على رأسهم الكولونيل استون وهو =

فالنخاسة كان مقدراً لها أن تموت ميتة طبيعية بسبب تبدل الأحوال

=من كبار الضباط الأمريكان وأكفأهم . وقد اختاره اسماعيل سنة ١٨٧٠ لهذه المهمة لما آنسه فيه من الكفاءة وأنعم عليه برتبة اللواء فصار يعرف بالجنرال استون باشا .

وقد قام الجنرال استون بمهته خير قيام وأنشأ هيأة أركان حرب الجيش من بين لفيف من أكفأ الضباط وألحق بهم بعض الميكانيكين الاخصائيين فى علم طبقات الأرض . ثم أنشأ فى الهيأة المذكورة قسما للجغرافيا جعل مهمته وضع الخرائط الطبوغرافية الدقيقة عن أنحاء مصر والسودان وهى الخرائط التى أتم تخطيطها ضباط أركان الحرب المصريون والأمريكان ممن قاموا بالرحلات الاستكشافية فى السودان.

وليس يفوتنا فى هذا المقام أن نذكر بقية الأورطة السودانية التىعادت من حرب المكسيك فى تلك الأيام والتحقت بالجيش المصرى بعد أن احتفل اسماعيل بعودتها وأنعم على أعضائها بالدرجات العالية كما مر بك فى تاريخ سعيد باشا

ولم يضن اسماعيل على هذه الهيأة بل أنشأ لها مطبعة خاصة لطبع رسومها وخرائطها وأنشأ إلى جانبها مكتبة نفيسة تحتوى على أهم الكتب فى الفنون الحربية وألحق بها متحفا حربيا للأسلحة والتحف والتذكارات الخاصة بالجيش . وقد تقدمت هذه الهيأة إلى أن أوقفها الارتباك المالى كما أوقف كل عامل من عوامل النهضة والتقدم مما كان أثره أن ترك استون باشا الجيش فى سنة ١٨٨٢ حينما رأى السلطة الأنجليزية اعتزمت وضع يدها عليه .

وأنشئت للجيش صحيفتان حربيتان إحداهما تدعى « جريدة أركان حرب الجيش » المصرى وهى مجلة شهرية صدر العدد الأول منها فى ١٠ يولية سنة ١٨٧٣ واستمرت تصدر بانتظام لغاية اكتوبر سنة ١٨٧٨ وكان يكتب فيها استون باشا ويصححها العلامة الشيخ حسن الطويل والثانية واسمها الجريدة العسكرية المصرية وكان يحررها هى والمجلة الأولى ضباط الجيش المصرى .

تجديد السلاح والمصانع الحربية

لم يكتف اسماعيل بما ابتاعه من البنادق والمدافع من الخارج بل عنى أيضا بشأن المصانع الحربية التى كانت فى عهد محمد على باشا فنظم معمل الحوض المرصود وصارت تصب فيه المدافع وتصنع فيه كافة معدات الجيش .

كما أنه شيد بطرة معملا لصنع الأسلحة وآخر لصب المدافع وخرطها وآخر لصنع البنادق عدا معامل الخرطوش والقنابل . وأصلح مصانع البارود حتى طار ذكرها فى الآفاق مما جعل سلطان مراكش يرسل البعثات إلى مصر لتعلم صناعة البارود والطباعة . كذلك=



وزير الحربية والبحرية « الأمير » حسين كامل فى شبابه

ـــ أصلح معمل الأسلحة بالاسكندرية . وفى أثناء تولية « الأمير » حسين كامل وزارة الحربية والبحرية وضع لارى بك تصميم إنشاء « البوليجون » وهو ميدان للتمرين على ضرب النار .وكان فيه قسم لتمرين المدفعية على الرماية بالمدافع وآخر لتمرين المشاة على الرماية بالبنادق وقسم ثالث لصف الضباط ورابع لتعليم التلغرافات العسكرية وقسم للاشارة .

وكان اسماعيل إلى أواسط سنة ١٨٧١ يتوخى تنظيم الجيش المصرى طبقاً لأساليب الجيش الفرنسى ولكنه اعتزم استبداله بالنظام الألمانى بعد ما أحرزته المانيا من الفوز فى الحرب السبعينيه وما ناله الجيش الألمانى من الانتصارات الباهرة . ولذا أمر بترجمة القوانين والنظامات الألمانية وتعديل الملابس وتغيير الأسلحة . ولكن الارتباك المالى حال فى هذه المرة أيضاً دون المضى فى إصلاح شؤون الجيش طبقا للنظام الألمانى .

ولم يكن الضيق المالى هو كل مافت فى عضد الجيش المصرى فى أواخر أيام اسماعيل بل كان هناك نقص آخر شعر به الجيش طيلة ذلك العهد . هذا النقص هو عدم وجود قائد عام للجيش على غرار ابراهيم باشا أو سليمان باشا الفرنساوى يبعث وجوده الحماسة فى نفوس الجنود ويدفعهم ــ كما حدث فى حروب الاستقلال المصرى ــ إلى أعمال البطولة والبسالة

ولسنا فى حاجة إلى أن نخبرك أن حرمان الجيش من مثل هذا القائد العام كان من أكبر أسباب ضعفه كما حدث فى حرب الحبشة . فلقد كان المصريون والأجانب مطمئنين إلى ماقبل هذه الحرب إلى بطولة الجيش المصرى وقوته ظنا منهم أنه مايزال محتفظاً بما ــ

الأقتصادية وبفضل انتشار التعليم . بيد أن ما كان يقوم به محبو الخير بين

= كان له من المكانة فى عهد محمد على وعهد ابراهيم وخاصة بعد ما أبداه من البسالة فى حرب كريت والبلقان مما سنذكره لك قريبا . ولكن حرب الحبشة كشفت عن مواطن ضعفه وأطمعت فيه الطامعين . ومما زاد الطين بلة أن اشتداد الضيق المالى فى عهد المراقبة الثنائية حمل وزارة نوبار باشا الأولى على تخفيض عدد الجيش توفيرا للنفقات فأحالت ٢٥٠٠ ضابط على الاستيداع وسرحت عددا كبيرا من الجند وخفضت المرتبات بصفة عامة فزاد ذلك فى ضعف الجيش رويدا رويدا إلى أن فوجئت البلاد بالثورة العرابية ثم الاحتلال البريطانى فى سنة ١٨٨٢ فدارت الدائرة على الجيش المصرى وهو الذى كتب فى عهدى محمد على وابراهيم صفحات مجد خالدة فى تاريخ حروب الاستقلال المصرى .

البحرية فى عهد اسماعيل

لا نظننا فى حاجة إلى الاعتذار للقارىء إذا خضنا فى حديث مرافق الدولة فى عهد اسماعيل بل نرى ذلك واجباً محتما على كل كاتب يعرض لتاريخ ذلك الخديو . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فان من يذهب إلى اتهام اسماعيل بالأسراف وحب البذخ يتعين عليه أن يذكر أيضاً أن أموال الدولة لم تبدد فى الكماليات — كما زعموا — بل فى أخص شؤون الدولة وأهم مرافقها التى كانت مزدهرة فى العهد الاسماعيلى كما نصوره أمامك .

لقد كلمناك عن السودان وما أنفقه اسماعيل فى سبيل تعميره ونشر رواق الحضارة والمدنية والأمن فى ربوعه بعد أن قطع دابر النخاسة أو كاد كما شهد بذلك كبار الأنجليز كغوردون وصمويل بيكر . ثم حدثناك عن الجيش وأسباب ضعفه وها نحن الآن نحدثك عن البحرية مقتبسين من كتاب صديقنا الأستاذ الرافعى بك .

ورب من يعترض على الأكثار من الاقتباس من الكتاب المذكور . ولكن جوابنا على ذلك سهل للغاية . فالأستاذ الرافعى بك لم يكتب كتابه لأطراء العهد الاسماعيلى أو التغنى به بل ليحمل عليه أشد حملة ويتهمه بما لم يتهمه به خصوم اسماعيل أنفسهم . وحسبك دليلا على هذا ماقاله عن حرب الحبشة واتهامه اسماعيل بأنه هو مشعل نارها — معتمدا فى ذلك على رواية سرهنك باشا — بينما قررت لجنة كيف الأنجليزية العكس . فكلام الأستاذ الرافعى بك إذن باعتباره ممن قسوا فى نقد اسماعيل أبلغ بمراحل فى الاعتراف بمآثر ذلك العهد من كلام مؤرخ عرف باطراء اسماعيل والتغنى بأعماله .

* * *

= ونرجع الآن إلى صلب الموضوع فنقول : عند ما تولى اسماعيل الحكم كانت =

ظهر اثينا من الحملات الصادقة ضد النخاسة وهى حملات وإن لم تعطل مصادر
البحرية كغيرها من مرافق الدولة فى حالة تأخر وضعف بما طرأ عليها من الاضمحلال فى عهد عباس واستمر فى عهد سعيد بسبب معارضة تركيا .

فما هو أن تولى اسماعيل حتى أخذ يعنى بتجديد الأسطول ونفخ من روحه فى دور الصناعة فجدد ترسانة الاسكندرية وجلب لها الصناع من المدينة ومن داخل البلاد واستحضر لها أحدث الأدوات وبالاختصار عاودها النشاط الذى كان لها فى عهد محمد على . فقد أنشىء فيها بين ما أنشىء البارجة « لطيف » و « الصاعقة » . هذا فى حين أن اسماعيل أوصى المصانع الأوروبية المختلفة بصنع عدة بوارج حربية مدرعة .

وأخذ فى تجديد المدرسة البحرية بالأسكندرية وأنشأ مدرسة أخرى جلب لها الأكفاء من المدرسين من خارج البلاد وداخلها وتولى نظارتها ما كيلوب باشا (وقد مر بك اسمه فى محاربة النخاسة) .

وكانت مدة الدراسة فى هذه المدرسة ثلاث سنوات وكان مستوى التعليم فيها عالياً وقد أرسل الخديو بعثة من خريجيها إلى انجلترا لاتمام العلوم البحرية كانشاء السفن والميكانيكا البحرية الخ . وكان ممن تخرج منها اسماعيل باشا سرهنك صاحب كتاب « حقائق الأخبار عن دول البحار » ناظر المدرسة الحربية المستجدة .

وما كاد أن يتم صنع المدرعات الثلاث التى أوصى بها اسماعيل فى فرنسا والمدرعتين الأخريين فى النمسا وأصبح استلامها وشيكا فى سنة ١٨٦٨ حتى رفعت تركيا ـ بايعاز السياسة الانجليزية التى لم تكن مرتاحة لتقوية الأسطول المصرى ـ عقيرتها بالاحتجاج على عمل اسماعيل زاعمة أن الفرمانات لا تسمح لمصر بانشاء السفن الحربيـة . ثم حسم الخلاف بان ابتاعت تركيا هذه السفن .

وقد حدثناك فيما قلناه فى محاربة النخاسة عن بعض خدمات الأسطول المصرى برغم ما قام فى سبيل تعزيزه من الاعتراضات . ومن هذه الخدمات نقل الجنود إلى مختلف ثغور الأملاك المصرية فى البحر الأحمر وخليج عدن والأقيانوس الهنـدى هذا عدا نقل الحملات المصرية لا إلى بلاد السومال فحسب بل وإلى جزيرة كريت والبلقان حيث اشتركت مصر فى الحرب التى كانت بين تركيا وبين تلك البلاد .

ومما يذكر بالفخر للأسطول المصرى فى ذلك العهد أن سفنه عبرت الأقيانوس الهندى وطافت حول رأس الرجا الصالح والقارة الأفريقية قبل شق قناة السويس .

وليس يفوتنا أن نسجل عـدد قطع الأسطول فى عهد اسماعيل كما أحصاها اسماعيل باشا سرهنك فى ص ٢٨٧ من الجزء الثانى من كتابه عجائب البحار . فقد قال :

العرض ولا أصلحت من نفسية مراكز الطلب فلم تكن نتيجتها إلا ازدياد

= إنها ١٨ سفينة حربية عدا ثلاث لركوب الخديو وهاك أسماؤها وعدد مدافعها :

اسم البارجة	نوعها	محل إنشائها	نوع معدنها	عدد مدافعها
١ محمد على	فرقاطة	أمريكا	حديد وخشب	٢٨
٢ شير جهاد	»	تريستا	خشب	٢٨
٣ لطيف	قرويت	الاسكندرية	خشب	٦
٤ الخرطوم	مدفعية	انجلترا	خشب	٥
٥ دنقلة	دارعة	»	مدرع	٨
٦ الصاعقة	قرويت	الاسكندرية	خشب	٨
٧ سنار	مدفعية	انجلترا	خشب	٧
٨ نمرة ١	زورق	فرنسا	مدرع	٢
٩ » ٢	»	»	»	٢

ثلاث بوارج حربية لنقل الخديوى

اسم البارجة	محل إنشائها	نوع معدنها	عدد مدافعها
١٠ المحروسة	لندن	حديد	٨
١١ مصر	طولون (فرنسا)	»	٦
١٢ الغربية	»	»	٤

طرادات وسفن للنقل

اسم الباخرة	نوعها	محل إنشائها	نوع معدنها	عدد مدافعها
١٣ الطور	رفاس	انجلترا	حديد	٢
١٤ اسوان	دولاب	»	خشب	٤
١٥ شندى	»	»	»	٤
١٦ أسيوط	»	الاسكندرية	»	٢
١٧ الجعفرية	رفاس	انجلترا	حديد	٣
١٨ سمنود	»	»	خشب	٢
١٩ نور الهدى		»	حديد	٢
٢٠ مخبر	»	»	»	٢
٢١ عجمى	»	»	»	٢

رذائل هذه التجارة الممقوتة لأنها دفعتها إلى مسالك خفية غير مستقيمة.

ومن الآن بدأت مصر تشترع للشرق السنة الحسنة ليسير عليها فى مطاردة هذه النخاسة التى نسلم بأنها كانت ألغيت فى عهد سعيد بصفتها تجارة

الأسطول فى عهد محمد على

وقد يكون من المفيد أن نذكر إلى جانب هذا الاحصاء عدد قطع الأسطول كما كانت فى عهد محمد على. وهاك بيانها نقلا عما أورده اسماعيل باشا سرهنك فى الجزء الثانى من كتابه « حقائق الأخبار » فى ص ٢٥٣ و ٢٥٤ و ٢٥٥

وقد ذكر سرهنك باشا فى ص ٢٥٢ أنه عثر على أسماء هذه السفن فى قائمة محررة من المرحوم حسن باشا الاسكندرانى — ناظر ترسانة الاسكندرية (توجد صورته فى ص ٩٩ من الكتاب الحاضر) عند ولده محسن باشا. وإتماماً للفائدة راح الباشا يذكر أسماء تلك السفن ومقاساتها وأبعادها وعدد مدافعها وعدد بحارتها وأسماء قباطنها الخ الخ مما نرى أن نثبته هنا مع حذف الأبعاد والمقاييس وغيرها من التفاصيل:

اسم السفينة	محل انشائها	نوع السفينة	عدد المدافع	عدد رجالها	اسم القبطان فى زمن أميرالية سعيد باشا
المحلة الكبرى	اسكندرية	قباق	١٠٠	١٠٣٤	بوزجه أطه لى خليل بك
المنصورة	»	»	١٠٠	١٠٣٤	طاهر قبودان
الاسكندرية	»	»	١٠٠	١٠٣٤	جركس محمود قبودان
أبو قير	»	»	٨٤	٧٣٦	حافظ خليل »
مصر	»	»	١٠٦	١٠٩٧	شنان »
عكا	»	»	١٠٦	١١٤٨	عثمان بك قاح
حمص	»	»	١٠٠	١٠٣٤	عثمان بك بوتى
بيلان	»	»	٨٦	٩٠٠	حسين شرين بك
حلب	»	»	١٠٠	١٠٣٤	ازميرلى محمد قبودان
الفيوم	»	»	١٠٠	١٠٣٤	عبد اللطيف بك
بنى سويف	»	»	١٠٢	١٠٣٤	الأمير محمد سعيد باشا
دمشق	»	»	٠٠٠	٠٠٠٠	حرقت قبل اتمامها

وإليك الفرقاطات والقراويت وقد أضيف إليها بعض السفن التى أشار إليها كلوت بك وغيره ولم يذكره سرهنك باشا:

غير مشروعة . ولكن اسماعيل عقد عدة اتفاقيات دولية للقضاء عليها قضاء

اسم السفينة	محل انشائها	نوع السفينة	عدد المدافع	عدد رجالها	اسم القبودان فى زمن سعيد باشا
منوف	اسكندرية	فرقاطة	٦٤	٥٥٨	عثمان بوتى قبودان وهو غير الاسم السابق
دمياط	»	»	٥٦	٤٧٠	محمد هدايت قبودان
رشيد	تريستا	»	٦٠	٥١٠	السيد على »
الجعفرية	ليفورن	»	٦٠	٥١٠	برغمهلى أحمد »
سير جهاد	»	»	٦٠	٥١٠	نورى بك »
البحيرة	تريستا	»	٦٠	٥١٠	كلورخورشيد »
طنطا	اسكندرية	قرويت	٢٨	١٨٦	ولى خسرو »
دمنهور	»	»	٢٦	١٨٦	مرجان »
واسطة جهاد	جزائر الغرب	»	٢٨	١٨٦	ولى محمد خورشيد »
جناح بحرى	جنوه	»	٢٤	١٨٥	زينل قبودان (كانت معدة لتعليم التلاميذ)
بلنك جهاد	مرسيليا	»	٢٤	١٨٥	غير معروف
رهبر جهاد	»	»	٣٠	٢٠٠	على رشيد قبودان
بومبة	تريستا	»	٤٥	٣٠٠	بيجان »
جهاد بيكر	جنوه	»	٢٤	١٨٥	حسن أباظه »
فوه	اسكندرية	»	٢٤	١٨٥	مرجان »
شاهد جهاد	»	»	٢٤	١٨١	ابراهيم »
سمند جهاد	مرسيليا	ابريق	١٨	٨٩	احمد شاهين »
بادىء جهاد	امريكا	»	٢٤	٨٩	غير معروف
ابريق رقم ٢	غير معروف	»	١٨	٨٩	الياس »
شهباز جهاد	مرسيليا	»	١٨	٨٨	حسن الأرنؤد »
صاعقة	ليفورن	غولت	٢٤	٨٨	طاهر »
تمساح	مرسيليا	»	١٦	٨٨	غير معروف
غولت جديد	اسكندرية	كوثر رقم ٢	١٢	٥٢	سرهنك »
النيل	انجلترا	فرقاطة تجارية	٦	٥٢	غير معروف
المجموع	٣٦ سفينة		١٨٥٧	١٦٨٠١	

ونضيف إلى هذه القطع السفن الآتية التى لم يذكرها إحصاء سرهنك وهى : كفر الشيخ وشاهين دريا وأمريكان وقد أسرت قبل وضع هذا الاحصاء .



النجاشي تيودرس الثاني امبراطور الحبشة
وسط ضواريه الأليفة (راجع ص ٣٤٩)
وهي مأخوذة من نداء مقدم للشعب الانجليزي بقلم المسيو جان كوتسيكا
خاص « بمسألة الحبشة »

= واستطرد سرهنك باشا فقال ما نصه :

«وتتبع هذه السفن ثلاث بواخر أخرى وهي وابور برواز بحري ووابور أسيوط ووابور جيلان ووابور الشرقية (وسمي فيما بعد بفرقتين مخبر سرور) ووابور رشيد (وهو قرويت) وسفائن التجارة الأميرية وهي سفن للنقل وغيرها» الخ الخ .

فليقارن من شاء بين هذا الأسطول الضخم والأسطول المصري في عهد اسماعيل باشا وبين ماوصلت إليه حالة البحرية المصرية بعد الاحتلال البريطاني .

الأسطول التجاري

ولم يفت في عضد اسماعيل مالاقاه من المصاعب في سبيل إنشاء الأسطول الحربي بل وجه عنايته إلى إنشاء أسطول تجاري . فألغى الشركة المجيدية المنشأة في عهد سعيد وأنشأ الشركة العزيزية نسبة إلى السلطان عبد العزيز حيث كانت بواخرها تنقل المسافرين والمتاجر لثغور البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر . وقد وزع رأس =



السردار راتب باشا
قائد الحملة المصرية فى حرب الحبشة *
(راجع ص ٣٥١)

= مال الشركة الجديدة على عدة أسهم لتمكين الأفراد من الاشتراك فيها .

وقد أقبل سراة المصريين على الاشتراك فى رأس المال وخصص الخديو للشركة سبع بواخر كانت موجودة من قبل وأوصى بانشاء بواخر جديدة فى انجلترا واختار لقيادة هذه السفن أكفأ الضباط المصريين الذين تركوا خدمة الأسطول منذ اضمحلاله . ثم ابتاعت وزارة البحرية عدداً من السفن الشراعية الكبيرة لنقل مايلزم لوزارتى البحرية والحربية من الأخشاب من الأناضول .

وبنشاط هذه الشركة نشطت حركة التجارة الخارجية لمصر . وإليها يرجع الفضل فى تسهيل مواصلاتها مع الأقطار الاخرى . وكان طبيعياً أن تزاحم الشركة شركات الملاحة الأجنبية وأن تضاعف ارباحها إلى أن ابتاع الخديو أسهمها وحولها إلى إدارة =

* هذه الصورة مستعارة من حضرة محمد بك طلعت الفرنساوى .

مبرماً (كالاتفاقين اللذين عقدهما مع بريطانيا العظمى فى ٤ اغسطس

= حكوميةوسماها « مصلحة وابورات البوسته الخديوية » فازداد نجاحها واتسع نطاق أعمالها وصار لها ٢٦ باخرة تخترق البحار رافعة العلم المصرى وتنقل المتاجر والبريد والمسافرين بين ثغور البحر الابيض المتوسط وسوريا وبلاد الأناضول والبلقان وثغور البحر الأحمر إلى خليج عدن وزيلع وبربره .

وهذه أسماء السفن مأخوذة عن كتاب احصاء مصر سنة ١٨٧٣ وهى: التاكا . الفيوم . البحيرة . الشرقية . الدقهلية . طنطا . شندى . شبين . دسوق . كوفيت . سمنود . المنيا . الجعفرية . مسير . المنصورة . المحلة . النجيلة . دمنهور . الزقازيق . الحجاز . الحديدة . ينبع . القصير . سواكن مصوع .

وألحق بهذه المصلحة الحوض العائم المنشأ بميناء الاسكندرية وخصص لبواخرها (فابريقة) فى ترسانة الاسكندرية لترميم السفن واصلاحها .

وظلت هذه الادارة وملحقاتها ملكاً للحكومة إلى أن ابتاعتها شركة أنجليزية فى بداية الاحتلال البريطانى . وهكذا لم تخسر مصر فقط ثروة قومية ضخمة انتقلت إلى أيدى أجنبية بل خسرت أيضاً علمها الذى كان يخترق البحار ويذكر الأمم المختلفة بالأمة المجيدة الساكنة على ضفاف النيل .

إتمام ميناء السويس

تذكر أن سعيد باشا شرع فى سنة ١٨٥٦ فى إنشاء ميناء جديد فى السويس لسهولة أيواء السفن . وشرع فى اقامة حوض لعمارة السفن وترميمها وظل العمل سائرا فى إتمام هذه المشروعات إلى أن كملت فى عهد اسماعيل وبلغت نفقاتها ٢٤٠،٠٠٠ جنيه. وللأسف تنازلت عنها الحكومة المصرية فى عهد الاحتلال للشركة الأنجليزية التى ابتاعت وابورات البوستة الخديوية .

إصلاح ميناء الأسكندرية

بعد أن أنشئت بور سعيد وقارب مشروع قناة السويس التمام وجه اسماعيل اهتمامه إلى ميناء الاسكندرية فعمل على إصلاحها بعد اتساع حركة العمران وازدياد المواصلات البحرية فيها .

فكانت باكورة أعمال الاصلاح أنه ابتاع من فرنسا فى سنة ١٨٦٨ حوضاً عائماً =

و٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ وما أصدره من الأوامر العالية بتاريخى ٤ اغسطس

= من الحديد لترميم السفن بدلا من الحوض الحجرى الذى بناه محمد على والذى أصبح لا يفى باصلاح السفن الكبرى .

واهتم بعد ذلك بانشاء حاجز الأمواج الحجرى لوقاية السفن من طغيان المياه وجعلها فى أمن من العواصف . كذلك أنشأ بداخل الميناء رصيفاً للشحن والتفريغ وعدة أرصفة أخرى ممتدة داخل الميناء . وقد نالت شركة انجليزية تسمى شركة جرنفلد امتياز أعمال الأصلاح التى بلغت نفقاتها ٠٠٠ر٠٠٠ر٣ جنيه واستغرقت من الوقت من سنة ١٨٧١ لغاية سنة ١٨٧٩

الفنارات

واهتم بانشاء الفنارات لأرشاد السفن فبلغ عـددها فى ثغور البحر الأبيض ثمانية وفى ثغور البحر الأحمر خمسة عدا ما أنشأه فى خليج عدن .

حروب مصر

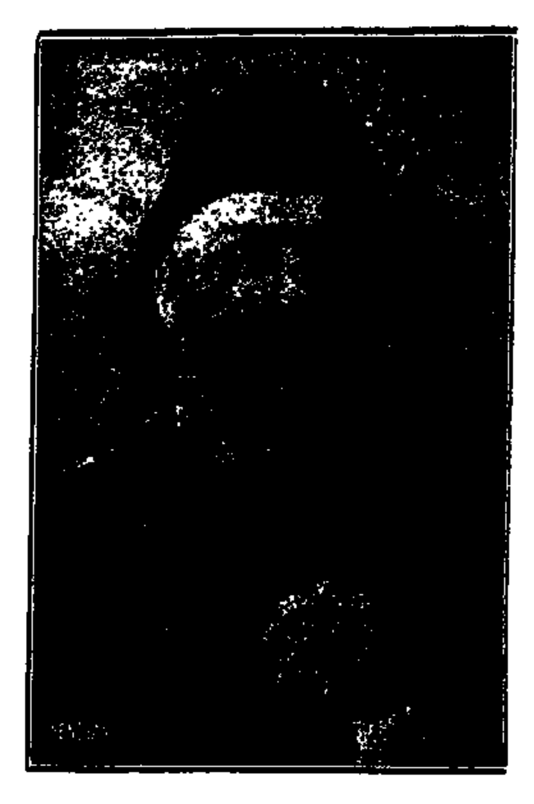
كما تكلمنا عن حروب مصر من عهد محمد على وابنه ابراهيم إلى عهد سعيد لا نرى بدأ من التكلم عن حروبها فى عهد اسماعيل ملخصا عما كتبه سرهنك باشا . وهى تنقسم إلى قسمين حروب خارجية اشتركت فيها تلبية لدعوة تركيا ولم تفد منها شيئاً اللهم إلا اتخاذ اسماعيل إياها وسيلة لنيل امتيازات جديدة تدنى البلاد من الاستقلال التام . هذا فضلا عن أنها كانت بمثابة ميادين لمران الجنود المصريين وضباطهم على ممارسة القتال والأفادة من تجاريبه .

أما القسم الثانى أو الحروب الداخلية فتشمل حروب السودان بما فيها حرب الحبشة وقد أفادت مصر أكبر فائدة من هذا القسم من الحروب إذ بواسطتها وصلت أملاكها إلى حدودها الطبيعية هذا عدا القضاء على النخاسة .

إخماد ثورة العسير

وقد تكلمنا عن الحروب الداخلية فلا حاجة للعودة إليها . أما الحروب الخارجية فأولها الحرب التى خاضها اسماعيل لأخماد ثورة العسير .

فان تركيا كما سبق أن استنجدت بمحمد على الكبير لصد الخطر الوهابى قد لجأت إلى حفيده اسماعيل لأخماد الثورة التى رفع علمها الأمير محمد بن عائض أمير العسير وعقدت نيته على احتلال تهامة اليمن .



جلالة السلطان عبد العزيز *

= وقد سبق الكلام عما كان بين السلطان عبد العزيز واسماعيل باشا من أواصر الصلة . فما كاد السلطان أن يلجأ إلى مساعدته حتى لبى الطلب وأنفذ إلى العسير ثلاث أورط من المشاة مزودة بالمدافع وكتائب الفرسان بقيادة الميرالاى اسماعيل صادق بك. فما أن وصلت الجنود المصرية إلى جده حتى اتفق قائدها ووالى المدينة على إرسال الحملة المصرية بصحبة الجنود العثمانية لمهاجمة الثوار من جهة ، قنفذة ، وبذا قصم ظهر الثورة وبادر ابن عائض إلى تقديم الطاعة. ثم توسط اسماعيل فى العفو عنه لدى السلطان فعفا عنه وأقره فى إمارته وعادت الحملة المصرية وعلى رأسها أكاليل الغار وأرسل السلطان إلى الخديو كتاب شكر وثناء على الجنود المصرية .

حرب كريت

لما كان البلقان أبدا منشأ الفتن والقلاقل فان أمير الجبل الأسود دفع ولاية =

* هذه الصورة مستعارة من سعادة أحمد شفيق باشا .



محمود باشا سامى البارودى

= الهرسك إلى الفتنة فى سنة ١٨٦١ مما دعا تركيا إلى تجريد جيوشها لكبح الثائرين .

فلما أن تولى اسماعيل الأريكة فى سنة ١٨٦٣ كانت تركيا ما تزال منشغلة فى إخماد تلك الثورة فلجأت إلى الخديو لامدادها ببعض فرق الجيش لتعسكر فى الروملى حتى لا يتفاقم أمر الثورة . فلبى اسماعيل الطلب وأنفذ فرقة بقيادة اللواء على غالب باشا فاستعرضها السلطان فى الآستانة وسارت إلى سلانيك فناستير حيث عسكرت هناك .

ولما كانت الثورات فى بلاد الدولة العلية يأخذ بعضها بخناق البعض الآخر فى ذلك العهد فان ثورة عامة نشبت فى جزيرة كريت فى ١٨٦٦ وأخفقت تركيا فى كبحها فالتجأت من جديد إلى مصر .

فلم يتردد اسماعيل فى إنفاذ جيش مؤلف من ٥٠٠٠ مقاتل بقيادة اللواء شاهين باشا (انظر صورته فى ص ٣٧٤) ومعه اللواء اسماعيل صادق باشا وتولت عمارة من الأسطول المصرى تبلغ العشر سفن بقيادة الأميرال قاسم باشا نقل هذه الحملة إلى الجزيرة الثائرة . كما تولت نقل الجنود المعسكرة فى مناستير إلى مكان الثورة .

وكان بين ضباط حملة شاهين راشد بك حسنى الذى ساهم بنصيب وافر فى الثورة العرابية ، والشاعر المطبوع محمود باشا سامى البارودى بطل الحوادث العرابية فيما بعد . وفى حرب كريت هذه كانت نشأة البارودى الحربية وفيها قال قصيدته المشهورة التى مطلعها

أخذ الكرى بمعاقد الأجفان وهفا السرى بأعنة الفرسان

ولما نزلت حملة شاهين باشا إلى الجزيرة اشتبكت بالثوار فى معركة « أبوقرون » =



الزنوج يهاجمون التماسيح فى منطقة السدود أثناء حملة السير صمويل بيكر *

= حيث جرح اسماعيل صادق باشا ونقل إلى مصر وتقرر فى الوقت نفسه استدعاء شاهين باشا وتعيين الفريق اسماعيل سليم باشا وزير الحربية محله .

ولهذا الاستدعاء حكاية طريفة ذكرها محمود باشا فهمى فى الجزء الأول من كتابه البحر الزاخر ص ١٩٩ وملخصها أن الخديو — تنفيذاً لسياسة تقديم المعونة لتركيا كوسيلة للحصول على فرمانات جديدة بامتيازات جديدة لتحقيق الاستقلال المصرى اسما وفعلا — طلب فى أثناء هذه الحملة إلى السلطان أن يخوله حق تعيين سفراء لمصر لدى الدول الأجنبية . ولكن الباب العالى أحس بأن غاية اسماعيل هى تعجيل انفصال مصر عن تركيا فرفض طلبه . فغضب الخديو وهدد بسحب الجيش المصرى من كريت أو أن يستحوذ عليها إن لم تجب طلبه .

وزاد اسماعيل باشا سرهنك فى الجزء الثانى من كتابه حقائق الأخبار ص ٣٤١ على هذه الرواية — وكان هو ومحمود باشا فهمى معاصرين لهذه الحوادث — أن الخديو أوعز سرا إلى شاهين باشا القائد العام للجيش المصرى فى الجزيرة بالعمل على ترغيب سكان الجزيرة فى الانسلاخ عن تركيا والانضمام إلى مصر . فشرع القائد يتردد على رجال =

* هذه الصور وما يتلوها من الصور الخاصة بما صادف حملة السير صمويل بيكر من المفاجآت فى السودان ومنابع النيل مأخوذة عن كتاب « اسماعيلية » للسير صمويل بيكر.



عبد الله باشا فكرى

= الاكليروس فى المعابد ويفرق عليهم المال والهدايا إلى أن علمت الحكومة التركية بذلك فطلبت إلى الخديو عزل شاهين باشا من القيادة ففعل وأرسل بدله اسماعيل سليم باشا .

وعلى كل فان الجيش المصرى بعد وصول قائده الجديد سليم باشا اشتبك مع الثائرين فى موقعة « أرقاذى » وهى من المعارك المشهورة فأنزل بهم الخسائر الفادحة بعد أن أبلى أحسن بلاء مما دعا الخديو إلى أن يرسل له كتاباً بليغاً من انشاء عبد الله باشا فكرى يثنى فيه على همة الجيش ويسجل له ماأبداه من ضروب الشجاعة والكفاءة .

وأنعم الخديو على راشد بك حسنى برتبة اللواء كتقدير خاص لشجاعته. وبعد سجال قصير أخمد الجيش المصرى الثورة نهائياً وقصم ظهرها ثم عاد إلى مصر فاستقبل استقبال الفاتحين وأقام الخديو الولائم لأفراده تكريماً لهم واعترافا بخدماتهم فى ساحات القتال .

حرب البلقان (١٨٧٦ — ١٨٧٧)

تعلم أن وصية بطرس الأكبر كانت تقضى بتمزيق أوصال تركيا ليسهل على روسيا امتلاك الآستانة والاستيلاء على بوغازى البوسفور والدردنيل لذلك جعلت محور سياستها فى البلقان تحريض إماراته على إشعال نار الفتن والثورات فاذا ما انشغل بال تركيا باخمادها ووزعت قواتها للضرب على أيدى الثائرين سهل على الجيش الروسى الانقضاض بكليته على بقية الجيش التركى وتحقيق مآربه .

ففى سنة ١٨٧٥ أشعلت نار الفتنة فى شبه جزيرة البلقان وما لبثت أن امتدت إلى =



اللواء راشد باشا حسنى *

= الهرسك ومنها إلى البوسنة فانبرت الصرب لشد عضد الثائرين .

إذ ذاك يممت تركيا وجهها شطر مصر فأمدها اسماعيل بجيش قوامه ٧٠٠٠ مقاتل بقيادة الفريق راشد باشا حسنى ومن ضباطها محمود بك فهمى صاحب كتاب البحر الزاخر.

فسارت الحملة إلى الآستانة ومنها إلى حدود الصرب حيث انضمت إلى الجيش العثمانى فى الحرب التى دارت دائرتها على الصربيين . وأبلى فيها المصريون أحسن بلاء. مما حمل الخديو على الانعام بالرتب السامية على فريق من الضباط والقواد .

وفى خلال هذه الحرب قتل السلطان عبد العزيز وخلع السلطان مراد وصعد الأريكة العثمانية السلطان عبد الحميد الثانى ٣١ أغسطس سنة ١٨٧٦

ومن ثم عادت الجنود المصرية إلى الاستانة بعد وقف القتال بين تركيا والصرب. ولكن توقف هذه الحرب كان وقتيا ريثما تتم روسيا استعداداتها . ففى ابريل سنة ١٨٧٧ تجدد النزاع بين تركيا وروسيا ونشبت بينهما الحرب البلقانية فالتجأت تركيا =

* هذه الصورة مستعارة من سعادة أحمد شفيق باشا



الأمير حسن باشا (١)

=إلى الخديو ولكنه اضطر اضطرارا إلى تخييب رجائها هذه المرة بسبب ارتباك الأحوال المالية فى مصر وعجز الخزانة عن الانفاق على تلك الحملة . ولكن السلطان عبد الحميد أعاد الكرة ولم يقبل العذر .

وكان اسماعيل صادقا فى اعتذاره لأن أصحاب القراطيس ومن ورائهم الدول تشد أزرهم كانوا قد أخذوا يضيقون الخناق على الحكومة المصرية ويتبارون جميعاً فى إرهاق مصر حكومة وشعباً . إذ ذاك رأى الخديو أن من حسن السياسة عدم مغاضبة تركيا ومجافاتها فى هذه الظروف العصيبة فصمم على إجابة طلبها .

ونظراً لأن خزانة مصر كانت وقتئذ خاوية على عروشها عقد اسماعيل مجلس شورى النواب واستشاره فى فرض ضريبة جديدة تدعى « ضريبة الحرب » قدرها ١٠ ٪ من مجموع الضرائب لسد نفقات الحملة . فوافق المجلس وأعد الخديو جيشاً=

(١) هذه الصورة مستعارة من سعادة أحمد شفيق باشا



محمود باشا حمدى الفلكى *

= قوامه ١٢٠٠٠ مقاتل بقيادة نجله الثالث الأمير حسن باشا .

ولما أكملت الحملة معداتها أقلعت بهم السفن المصرية إلى الاستانة ومنها إلى «وارنه» أحد ثغور البحر الأسود . وقد أبلى المصريون — كعادتهم — أحسن بلاء فى هذه الحرب وظلوا مشتركين فيها إلى أن وضعت أوزارها فى مارس سنة ١٨٧٨ ثم عادوا إلى مصر .

التعاليم والنهضة العلمية والأدبية

وننتقل الآن إلى ما يصح أن يعتبر أكبر ما امتاز به عهد اسماعيل باشا ألا هو التعليم وما لحق به من النهضة العلمية والأدبية ملخصا عن كتاب الأستاذ الرافعى بك . فلقد كان اسماعيل «كالدينامو» الذى لا يفتأ يأتى من الأعمال النافعة ما تنوء به كواهل الجبابرة . ولسنا ندرى ماذا كان يكون شأن مصر من هذه الناحية لو أفسح الله فى عهد ذلك الخديو العظيم أو لو لم يتألب عليه أصحاب القراطيس كما فعلوا . ونظرة واحدة تلقيها على هذه المدارس تكفى لاقناعك بما كان يمتاز به عصره الزاهر .

* هذه الصورة مستعارة من سعادة احمد شفيق باشا .



حملة السير صمويل بيكر تفاجأ بالتماسيح فى مناطق أعالى النيل

المدارس العالية

المهندسخانة

فلقد حدثناك عن المدارس الحربية ونحدثك الآن عن المدارس العالية التى ازدان بها عصره فمدرسة المهندسخانة (أو الرى والعمارة سابقا) أنشئت بسراى الزعفران فى سنة ١٨٦٦ ثم نقلت إلى سراى درب الجماميز ثم إلى الجيزة وكان أول ناظر لها اسماعيل باشا الفلكى ثم خلفه محمود باشا حمدى الفلكى

الحقوق

أنشئت فى سنة ١٨٦٨ وتعتبر من أعظم المعاهد العلميه التى أسست فى عهد اسماعيل وكانت تسمى فى بدايتها مدرسة الادارة والألسن وحلت محل مدرسة الألسن التى أغلقت فى عهد عباس . ولكنها أصبحت منذ سنة ١٨٨٦ تسمى مدرسة الحقوق وكان أول ناظر لها المسيو فيدال باشا أحد كبار علماء فرنسا وقد ظل فى منصبه ٢٤ سنة أى لغاية ١٨٩١ وتخرج على يديه أقطاب القانون فى مصر ونوابغه فى عهد اسماعيل ومايليه من العصور . ولهذه المدرسة أكبر فضل على نهضة القانون والتشريع والقضاء وبالجملة على النهضة الأدبية والسياسية فى البلاد .



بضربة من أسفل قلب فرس البحر القارب المرافق للذهبية وأغرق
مافيه من الضأن أثناء سفر حملة السير صمويل بيكر إلى أعالى النيل

مدرسة دار العلوم

وأعقب ذلك أنشاء مدرسة دار العلوم فى سنة ١٨٧٢ لتخريج أساتذة اللغة العربية للمدارس الابتدائية والثانوية . وقد اختير طلابها من بين نجباء تلاميذ الأزهر.

مدرسة الطب والولادة

وكانت موجودة من قبل ولكنها بلغت درجة سامية فى عهد اسماعيل واتسع نطاقها وتخرج منها رهط من أعلام الطب فى مصر .

مدارس البنات

ذكرنا لك اهتمام اسماعيل بتعليم البنات وهو ما يشهد له بالفضل فى نهضة الأمة وكيف انه كان أول حاكم شرقى رفع مستوى المرأة من ناحية التعليم بعد أن كان السواد الأعظم منهن لا يعرفن عن التعليم إلا ما يتذوقه القادرات منهن على أيدى معلمين فى بيوت آبائهن .

وكانت أول مدرسة أنشئت لتعليم البنات مدرسة السيوفية فى سنة ١٨٧٣ وقد أنشأتها قرينة الخديو جشم آفت هانم وكانت تضم فى أول افتتاحها نحو ٢٠٠ تلميذة ثم بلغ عددهن ٤٠٠ فى سنة ١٨٧٤ وكلهن يتعلمن مجانا فضلا عن الانفاق على مأكلهن وملبسهن. وكانت مواد التعليم القراءة والكتابة وحفظ القرآن والحساب والجغرافيا والتاريخ والتطريز والنسيج على ما جاء فى عدد الوقائع المصرية رقم ٥٧٦

سنة ١٨٧٧ وأول يناير سنة ١٨٧٨) ولم يكن من هيئات الأمور على حاكم

المدارس الصناعية

واهتم اسماعيل بالمدارس الصناعية فأسس فى سنة ١٨٦٨ مدرسة الفنون والصنائع وكانت تعرف بمدرسة العمليات . وقد تخرج منها مهندسو الوابورات البرية والبحرية والموظفون الميكانيكيون فى مصلحة السكة الحديدية وكذا مهندسو صنع عربات السكك الحديدية والبواخر والآلات البخارية . وكان برنامجها يشمل العلوم الصناعية والهندسة والتمرينات العملية .

وأسست مدرسة التلغراف سنة ١٨٦٨ وألغيت سنة ١٨٦٩ ثم ألحقت بمدرسة الفنون والصنائع .

كذلك أسست فرقة نقاشين سنة ١٨٦٩ وفرقة عمليات المرور سنة ١٨٧٠ ثم ألغيتا فيما بعد .

المدارس الخصوصية

ومن المدارس الخصوصية التى أسست فى عصر ذلك الخديو العظيم

مدرسة المساحة والمحاسبة

أسست فى سنة ١٨٦٨ ثم مدرسة الهيروغليفيا فى سنة ١٨٦٩ ولكن ألغيت هذه الأخيرة سنة ١٨٧٦ وممن تخرج منها العلامة الأثرى احمد كمال باشا . ثم فرقة الرسم بالمدارس الملكية أسست سنة ١٨٦٩ وألغيت سنة ١٨٧٩ ومدرسة الزراعة أسست سنة ١٨٦٧ وألغيت سنة ١٨٧٥ ومدرسة العميان والخرس للبنين والبنات أسست سنة ١٨٧٥

المدارس الثانوية

وعددها اثنتان المدرسة التجهيزية بالعباسية أسست سنة ١٨٦٣ ونقلت سنة ١٨٦٨ إلى درب الجماميز وسميت بالخديوية ثم مدرسة رأس التين وقد أسست سنة ١٨٦٣

المدارس الابتدائية

أما المدارس الابتدائية التى ألغى معظمها فى أوائل محمد على ولم يجدد بدلها عباس ولا سعيد فقد لقيت أكبر عناية من جانب اسماعيل حيث عمل على الاكثار منها فى العاصمة والأقاليم .

ولعل الفضل فى ذلك راجع إلى شريف باشا ثم إلى على باشا مبارك وقد فكر هذا الأخير فى تحويل التعليم فى الكتاتيب إلى التعليم الابتدائى النظامى وكان عدد الكتاتيب يبلغ وقتئذ ٥٠٠٠ كتاب .

أو تقراطى مسلم ان يقدم على إصدار أمر عال بتحريم ما كان يعتبر حتى

= واليك بيان ما أنشأه اسماعيل من المدارس الابتدائية :

المدرسة	تاريخ الانشاء
مدرسة المبتديان بالعباسية وقد نقلت إلى الناصرية فيما بعد	أنشئت سنة ١٨٦٣
» رأس التين	» » ١٨٦٣
» طنطا (بينها)	» » ١٨٦٨
» أسيوط	» » ١٨٦٨
» بنى سويف	» » ١٨٦٢
» المنيا	» » ١٨٧٣
» القربية	» » ١٨٧٢
» الجمالية	» » ١٨٧٣
» الحسينية	» » ١٨٧٩
» باب الشعرية	» » ١٨٧٤
» عابدين	» » ١٨٧٩
» مصر القديمة	» » ١٨٧٩
» أبو العلا ببولاق تسمى الآن (عباس)	» » ١٨٧٢
» السيدة زينب تسمى الآن (محمد على)	» » ١٨٧٢
» مدرسة شيخون	» » ١٨٧٣
» العقادين	» » ١٨٧٢
» النحاسين	» » ١٨٧٢
» الامام الشافعى	» » ١٨٧٩
» الجبانية	» » ١٨٧٢
» رشيد	» » ١٨٧٦
» الفشن	» » ١٨٧٩

ويضاف الى هذه المدارس مدرسة الصليبة وكانت مكتبا أنشأته والدة عباس الأول وضم إلى المدارس الابتدائية سنة ١٨٧٢ وقلاوون والشيخ صالح للبنين ومدرسة محمد بك سيد احمد ومدرسة حافظ باشا بالاسكندرية ومدرسة البوصيرى ومدرسة راتب باشا بالاسكندرية .



خليل أغا باش آغاى والدة اسماعيل *

= ثم مدرسة خليل أغا التى أنشأها كبير أغوات والدة اسماعيل باشا . ومدرسة القبة التى أنشأها الأمير محمد توفيق باشا ولى العهد على نفقته الخاصة .

الحفلات المدرسية

كان اسماعيل باشا هو مبتكر فكرة اقامة الحفلات المدرسية التى تختم بها الامتحانات العمومية . وكان يحضرها الخديو نفسه وكبار رجال حاشيته ووزراء الدولة وتلقى فيها الخطب وتوزع الجوائز وتنشر الوقائع الرسمية تفاصيل كل حفلة مدرسية وما يلقى فيها من الخطب والقصائد وكانت هذه الحفلات من أكبر عوامل النهضة العلمية فى البلاد .

الأزهر

كما أننا نعرف نصيب الأزهر من عناية جلالة الملك فؤاد فى عصرنا الحاضر كذلك نال ذلك المعهد جزءاً كبيراً من عناية اسماعيل . فبعد أن كانت تدرس فيه علوم الدين والفقه واللغة على النمط القديم المتبع من سالف العصور إذا بروح الأصلاح تدب فيه بعد اعتلاء اسماعيل العرش .

*هذه الصورة مستعارة من سعادة احمد شفيق باشا .



لبؤة تهاجم الجند فيصرعها السير صمويل بيكر ه

= فقد ولى الشيخ محمد العباسى المهدى مشيخته سنة ١٨٧١ فكانت طليعة أعمال الاصلاح أن وضع سنة ١٨٧٢ نظام الامتحان لتخريج العلماء والمدرسين . وبعد أن كان التدريس خلواً من القيود وضع الشيخ العباسى نظاماً لامتحان العلماء وألف لهذا الغرض لجنة برآسته قوامها ستة من كبار العلماء . ومهمة هذه اللجنة امتحان المرشحين للعالمية فى مختلف العلوم واعطاء الناجحين منهم إجازة العالمية . وكان تأليف هذه اللجنة أساس النظام الجديد فى الأزهر .

وفى سنة ١٨٧١ هبط مصر الفيلسوف الكبير السيد جمال الدين الأفغانى فنفخ فى الأزهر روح النهضة وغرس بذور التقدم الفكرى والعلمى ، ولم تلبث أن أينعت هذه البذور بظهور المدرسة الحديثة التى حمل لواءها الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده فى الأزهر وخارج الأزهر .

البعثات

ولم يفت اسماعيل الاهتمام بالبعثات تشبهاً بجده العظيم محمد على . فمنذ اعتلائه الأريكة فى سنة ١٨٦٣ وهو يواظب على إرسال البعثات إلى أوربا حتى بلغ عدد الطلبة فى الخارج مدة حكمه ١٧٢

ه هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



معركة ماسيندى . اندحار وهزيمة كابريقه (راجع ص ٣٢٩) *

وأنشأ لأعضاء البعثة فى باريس مدرسة عوضاً عن المدرسة التى أغلقت فى عهد محمد على . وقد أغلقت مدرسة اسماعيل هذه عقب الحرب السبعينية .

مدارس الأقباط الأرثوذكس

ونشط الأقباط إلى إنشاء المدارس لتعليم أبنائهم ويرجع الفضل فى هذا إلى جهود الأنبا كيرلس الرابع بطريرك الأقباط الأرثوذكس . وصار لهم فى عهد اسماعيل ١٢ مدرسة بالقاهرة كما أنهم نشطوا لتعليم البنات فأنشأوا لذلك مدرستين .

ومنح اسماعيل مدارس الأقباط مساعدات كبيرة أهمها أنه وهبها ١٥٠٠ فدان من أجود أطيان القطر يخصص ريعها على التعليم فيها .

المدارس الأوربية

وكثر عدد المدارس الأجنبية فى عهد اسماعيل كما لم يكثر فى عهد أحد من أسلافه حتى بلغ عددها ٧٠ مدرسة للبنين والبنات وقد تخرج منها عدد كبير من رجال الأعمال والمهن الحرة وموظفى البريد والسكك الحديدية والمحال التجارية والبنوك وتراجمة القنصليات والمحاكم المختلطة .

وزارة المعارف

سبق أن ذكرنا ان سعيد باشا ألغى ديوان المدارس (وزارة المعارف) ولكن

* هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



وزير المعارف سابقا الأمير محمد سعيد طوسون والد سمو الأمير عمر طوسون

اسماعيل أعاده سيرته الأولى . وبتقدم نهضة التعليم خصص لوزارة المعارف قصر الأمير فاضل بدرب الجماميز نزولا على اقتراح على باشا مبارك وزير المعارف وقتئذ .

وتوالى على وزارة المعارف فى عهد اسماعيل الوزراء الآتية أسماؤهم :

الاسم	المدة
ابراهيم باشا أدهم	يناير سنة ١٨٦٣ — يولية سنة ١٨٦٣
شريف باشا	يوليه سنة ١٨٦٣ — ابريل سنة ١٨٦٨
على مبارك باشا	ابريل سنة ١٨٦٨ — سبتمبر سنة ١٨٧٠
مصطفى بهجت باشا	سبتمبر سنة ١٨٧٠ — مايو سنة ١٨٧١
على مبارك باشا	مايو سنة ١٨٧١ — أغسطس سنة ١٨٧٢
الأمير حسين كامل باشا	أغسطس سنة ١٨٧٢ — أغسطس سنة ١٨٧٣
مصطفى رياض باشا	أغسطس سنة ١٨٧٣ — مايو سنة ١٨٧٤

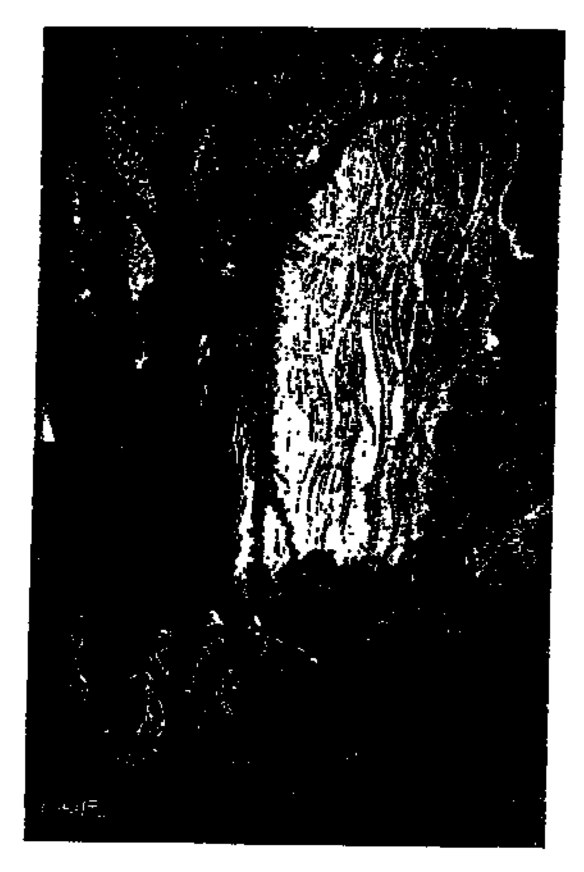


وزير المعارف سابقا محمد ثابت باشا

الاسم	المدة
محمد ثابت باشا	مايو سنة ١٨٧٠ — سبتمبر سنة ١٨٧٤
الأمير طوسون باشا	سبتمبر سنة ١٨٧٤ — أغسطس سنة ١٨٧٥
يحى منصور باشا	سبتمبر سنة ١٨٧٥ — يونية سنة ١٨٧٦
مصطفى رياض باشا	يونية سنة ١٨٧٦ — اكتوبر سنة ١٨٧٧
اسماعيل باشا أيوب	اكتوبر سنة ١٨٧٧ — أغسطس سنة ١٨٧٨
على باشا مبارك	أغسطس سنة ١٨٧٨ — ابريل سنة ١٨٧٩
محمد ثابت باشا	ابريل سنة ١٨٧٩ — يولية سنة ١٨٧٩

ميزانية التعليم

وقد أجمع الكتاب على أن اسماعيل كان ينفق على التعليم بسخاء وهذا ما شهد به المستر يانج وغيره. وقد ذكر المستر ادوين دى ليون القنصل الأمريكى فى مصر أن سعيد باشا جعل ميزانية التعليم ٦٠٠٠ جنيه سنويا ثم زادها إلى ٤٠٠٠٠ جنيه ولكن اسماعيل — كما ذكر على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية — خصص لها ٧٥٠٠٠ جنيه منها ٤٨٠٠٠ جنيه من وزارة المالية (أى الميزانية العامة) و٢٠٠٠٠ جنيه من إيراد تفتيش الوادى و٧٠٠٠ جنيه من ديوان الأوقاف. وكان التعليم فى معظم المدارس مجاناً هذا عدا نفقات المأكل والملبس فى كثير منها.



الأهالى يحرقون المعسكر فى جهة ما سيندى
وترى فى الصورة السير صمويل بيكر وعقيلته الشجاعة وابن أخيه جوليان *

= على أن ميزانية التعليم هبطت إلى ٢٠٫٠٠٠ جنيه فى أواخر العهد الاسماعيلى بسبب الارتباكات المالية كما هو معلوم .

أعلام النهضة العلمية فى عهد اسماعيل

على باشا مبارك

ليس من المستطاع التكلم عن النهضة العلمية فى عصر اسماعيل دون الاشارة إلى أعلام تلك النهضة ودعاتها ممن كان لهم أكبر نصيب فى رفع مستوى البلاد وجعلها فى مصاف الدول الأوروبية .

ويأتى فى طليعة أولئك الأعلام زعيمهم على باشا مبارك (١٨٢٤ — ١٨٩٣) وقد أفرد له الأستاذ الرافعى بك باباً قيماً نلخصه فيما يلى :

* هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



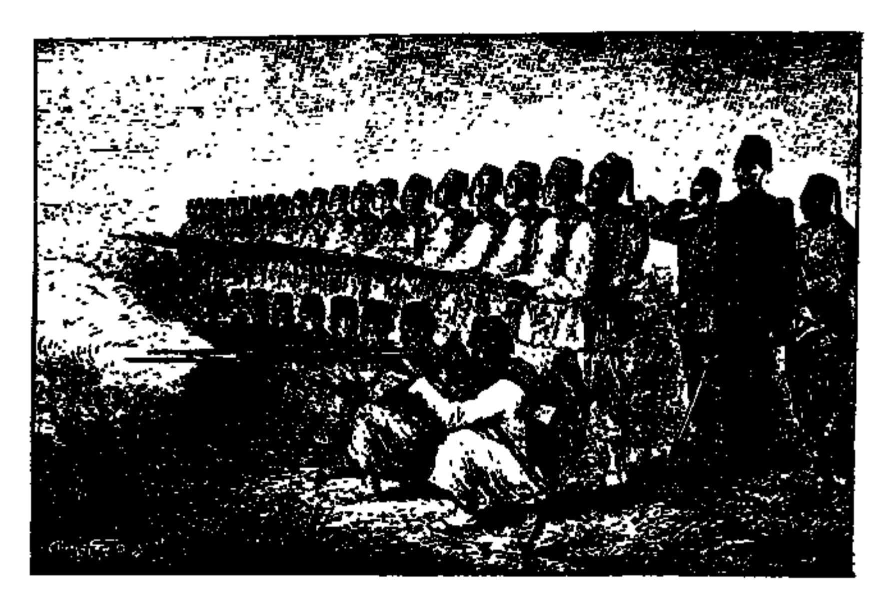
هجوم صيادى الرقيق فى جهة فاتيكو وتقدم « اللصوص الأربعين » *

== فهو ابن الشيخ مبارك بن مبارك بن سليمان بن ابراهيم الروحى وقد ولد فى برنبال من أعمال الدقهلية وقد تشتتت العائلة فيما بعد وكانت تعرف بعائلة المشايخ . وكان الشيخ مبارك شديد العناية بتهذيب ولده على حتى تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن .

نشأته الأولى

وليس يتسع المقام لذكر ترجمة حياة على باشا مبارك تفصيلا وبحسبنا أن نقول إن نفسه كانت تواقة إلى المعالى فبعد أن التحق بمدرسة ميت العزحدثته نفسه بالالتحاق بمدرسة القصر العينى أسوة بابناء الحكام ومنها انتقل فى سنة ١٨٣٧ إلى مدرسة أبى زعبل حيث لفت اجتهاده نظر مديرها ابراهيم بك رأفت فصار يضرب باجتهاده المثل . وفى سنة ١٨٣٩ اختير على مبارك بين من اختارهم ولاة الأمور لألحاقهم بمدرسة المهندسخانة ببولاق وهناك فى سن السادسة عشر أظهر من النجابة والاجتهاد ما أهله للانتظام فى بعثة الأنجال فى سنة ١٨٤٤ وهى البعثة الخامسة التى كانت تضم بعض أنجال محمد على وأحفاده والتى تولى سليمان باشا الفرنساوى اختيار أعضائها بنفسه وكان بينهم الأمير اسماعيل باشا .

* هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



« اللصوص الأربعون » كما يسمونهم يقودهم الكولونيل عبد القادرحلمى باشا وهم رهط من خيار الجنود مزودون بالبنادق وعددهم ٤٨ بما فيهم الضباط وأطلق عليهم اسم « اللصوص » بسبب تحفزهم للسطو . ولكنهم كانوا مثال الخلق الطيب حتى أصبحوا دعامة فرقة الحرس . *

سفره إلى باريس

وفى باريس حيث انشئت المدرسة المصرية لتعليم الطلبة اللغة الفرنسية وإعدادهم لدخول المدارس العليا فى مدينة النور عانى المترجم الأمرين فى تفهم اللغة ولكن ما لبث أن أكب على دراستها حتى أصبح أول البعثة ونال فعلا الجائزة الثانية التى سلمها إليه ابراهيم باشا قائد الجيوش المصرية عند زيارته لباريس.

وفاؤه لأهله

ولا بد من الوقوف هنيهة لننعم النظر فى بر المترجم بأهله ووفائه لهم . فقد خصصت له الحكومة مرتباً شهرياً قيمته ٢٥٠ قرشاً فأوصى بتسليم نصف المرتب لأهله يصرف لهم من مصر كل شهر واكتفى هو — وهو فى باريس ! — بالنصف الآخر .

ولما كانت البعثة قد هبطت فرنسا لتعلم الفنون الحربية فان الثلاثة الأول من أعضائها وهم على مبارك ، وحماد عبد العاطى ، وعلى ابراهيم أقاموا فى باريس عامين ثم التحقوا بمدرسة المدفعية والهندسة الحربية الشهيرة بمتز ونالوا رتبة الملازم الثانى

* هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



أبادة فصيلة الكولونيل طايب أغا فى جهة موجى*

= فى الجيش الفرنسى ثم أقاموا عامين آخرين يتعلمون الفنون الحربية .

وبعد اجتياز الامتحان النهائى التحقوا بالجيش الفرنسى حيث رسخت قدم المترجم فى العلوم والمعارف الحربية التى شرب منها حتى ارتوى .

عودته إلى مصر واشتراكه فى حرب القرم

ولولا وفاة ابراهيم باشا لكان المترجم حج إلى الأقطار الأوربية لتطبيق العلم على العمل ولكن عباس الأول أمر باعادة نوابغ البعثة فوراً إلى مصر فرجعوا سنة ١٨٥٠ وانتقل المترجم من حياة التحصيل والدراسة إلى دور العمل والانتاج. ولكنه ظل خامل الذكر نحو ١٤ عاماً لا تفيد البلاد شيئاً من واسع اطلاعه وصدق عزيمته اللهم إلا كونه تعين مدرساً بمدرسة طره الحربية ثم توسط له سليمان باشا الفرنساوى حتى التحق بمعية عباس الأول ثم عين ناظراً لمدرسة المهندسخانة إلى أن اختاره سعيد باشا — وكان متبرماً بالمترجم لا يميل إليه — للاشتراك فى حرب القرم على نحو ما مر بك فى تاريخ سعيد باشا .

تجهم الزمن له

ولما عاد المترجم من حرب القرم بعد أن قضى فيها نحو عشرة أشهر وجد الدهر يعبس له فى وطنه مصر فان سعيد كان قد أمر باخلاء سبيل الجنود وإعادتهم إلى بلادهم =

* هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



الوزير المشهور محمد شريف باشا

ورفت كثيراً من ضباط الحملة ومنهم على مبارك الذى اضطر إلى سكنى بيت حقير كان من أسباب تنغيصه وتبرمه بالحياة ومتاعبها .

وبينما هو يهم بالعودة إلى قريته للاشتغال بالزراعة صدر الأمر للضباط المرفوتين بالحضور إلى القلعة فكان هو بين من أعيد للخدمة حيث عين معاوناً بوزارة الحربية .

في معية سعيد

ثم التحق بمعية سعيد باشا . ولكن لما سافر هذا إلى أوربا أمر برفت رجال معيته فكان المترجم ضمن المرفوتين . ولما تجهمت الأيام لعلى مبارك فكر فى التجارة واستمر يزاولها مدة شهرين وبخاصة فى تجارة الكتب التى كان طبعها أثناء نظارته لمدرسة المهندسخانة وقررت الحكومة بيعها مع أشياء ثمينة أخرى باعتبارها «زائدة عن الحاجة» وبيعت فعلا بأبخس الأثمان واشترى المترجم من هذه الأشياء ما أمكنه ابتياعه .

ثم ازداد العسر بعلى مبارك وتألبت عليه المصائب وهو لا يجد مخرجاً من الضيق إلى أن اختار الله سعيداً لجواره فى أوائل سنة ١٨٦٣ فكان هذا الحادث فاتحة فصل جديد فى حياة المترجم .

اسماعيل يختار على مبارك

ذلك ان الخديو اسماعيل ما كاد يتبوأ الأريكة حتى ذكر على مبارك زميله القديم فى بعثة باريس . وسرعان ما ألحقه بمعيته وبذا مهد الطريق لافادة البلاد من هذا الينبوع العلمى الصافى .



الزحف فى داخل منطقة قبيلة « بارى » المعروفة بشجاعة رجالها وصلابتهم
(راجع ص ٣١٤) الوصول إلى موجى »

= ثم ما لبث أن عينه ناظراً على القناطر الخيرية فكانت باكورة أعماله أنه خالف إجماع المهندسين بأن القناطر لا تحمل ضغط المياه قبل تقويتها مما ترتب عليه تحويل المياه إلى فرع رشيد وحرمان فرع دمياط منها .

ولكن المترجم أشار باقفال قناطر فرع رشيد لتغذية فرع دمياط وبذا أحيا موات الأراضى التى يمر بها هذا الفرع . أما الخلل الذى كان متوقعاً حصوله فى بعض العيون بقناطر فرع رشيد فقد تلافاه المترجم باقامة حاجز خشبى أحاط بالقناطر فنشأت خلفها جزيرة من الرمل حفظت القناطر من ضغط المياه ، وهكذا تبين للخديو صواب رأى على مبارك الذى تولى فيما بعد عملية حفر رياح المنوفية وإنشاء قناطره ومبانيه على أحسن نظام .

على مبارك والمعارف

وفى سنة ١٨٦٧ عينه اسماعيل وكيلا لوزارة المعارف مع بقائه محتفظاً بنظارة القناطر. وكان وزير المعارف وقتئذ هو شريف باشا الوزير المشهور ، وهنا بدأ المترجم يحقق أمانيه الخاصة بالتعليم العام .

=

صورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



رجال قبيلة « بارى » يهاجمون فصيلة الضابط عبد الله ويستولون على أحد مدافعها *

= ثم انتدبه اسماعيل فى مهمة قصيرة فى باريس استغرقت ٤٥ يوماً وعند عودته سنة ١٨٦٨ أنعم عليه برتبة الميرمران وعينه وزيراً للمعارف والأشغال مع إسناد إدارة مصلحة السكة الحديدية إليه . وبعد قليل ضمت إليه نظارة الأوقاف كل هذا مع احتفاظه بنظارة القناطر الخيرية والتحاقه بالمعية .

ويصح أن نصف هذه الفترة من حياة المترجم بالعصر الذهبى . كيف لا وهذه الفترة هى التى حفلت بما أتاه على مبارك من الأعمال المجيدة والإصلاحات العظيمة التى تكفى لتخليد اسمه كزعيم النهضة العلمية .

ونبادر هنا إلى القول بأنه لولا صدق فراسة الخديو اسماعيل وثقته بعلى مبارك لظل هذا النبوغ مدفونا ولما أفادت مصر شيئاً من هذا الرجل الفحل .

وزير ثلاث وزارات !!

ولئن حق لبعضنا أن يدهش لأن بعض وزرائنا جمعوا فى العهد الأخير إدارة وزارتين فى وقت واحد وظنوا أن ذلك دليل النبوغ الخارق للعادة فما عساهم أن يقولوا فى على مبارك الذى كان فى وقت واحد ناظراً للمعارف وللأشغال والأوقاف ومدير السكة الحديدية وناظراً للقناطر الخيرية ؟ ولا تحسب أن المترجم أغفل شأن إحدى هذه الوزارات لحساب الوزارات الأخرى . كلا بل كان يضطلع بها جميعاً وعلى أحسن =

* هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



هجوم رجال قبيلة « باری » واستحواذهم على الماشية ٥

= وجه كما قال فى كلمته المتواضعة وهى « فبذلت جهدى وشمرت عن ساعد جدى فى مباشرة تلك المصالح فقمت بواجبها . »

وقد قسم المترجم أوقاته بين هذه الوزارات فجعل الصباح إلى الظهر للمعارف والأشغال والأوقاف وبعد الظهر إلى الغروب لادارة السكة الحديدية .

اهتمامه بالمعارف العمومية

فأما فى وزارة المعارف فقد جعل همه ترقية شؤون التعليم فى البلاد وتقريب دوره من التلاميذ . ولذا استأذن اسماعيل فى نقل المدارس من العباسية إلى درب الجماميز وخصص لها سراى الأمير مصطفى فاضل وجعل سلاملك السراى لوزارة المعارف ووزع المدارس فى مختلف نواحيها الفسيحة الأرجاء .

وكان لا يفتر عن تفقد أحوال التلاميذ والمعلمين فى المدارس ويغشاها كل يوم ليشهد بنفسه سير التعليم فيها ويطمئن على حسن نظامها وقيام المدرسين بواجباتهم .

وعنى المترجم بتحويل أكثر عدد من الكتاتيب إلى مدارس ابتدائية نظامية ودعا المشتغلين بالتعليم لدرس مشروعه . فلما أقروه استصدر فى مايو سنة ١٨٦٨ أمرا من الخديو باجراء العمل بلائحة التعليم هذه .

وقد انشئت فى عهده عدة مدارس ابتدائية نظامية فى القاهرة والأقاليم على نحو =

٥ هذه الصوره ماخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



سحر الموسيق . هرع الزنوج والزنجيات لسماعها *

= ماذكرناه لك فى ص ٣٩٨ .

وقد ساعد اضطلاعه بشؤون ديوان الأوقاف على إعداد كثير من الأمكنة الموقوفة لجعلها معاهد للتعليم بعد اصلاحها كما استطاع أن ينظم معاهد العلم الموقوفة ويحولها إلى مدارس نظامية كما استخدم جانباً من أموال وزارة الأوقاف فى الأنفاق على التعليم وتكليف المقتدرين من آباء التلاميذ بدفع مصروفات قليلة وإعفاء المعوزين منها مع استيفاء باقى النفقات من الأوقاف الخيرية الموقوفة على المكاتب وغيرها من وجوه الخيرات . وخصص لها الخديو اسماعيل إيراد أطيان تفتيش الوادى بالشرقية كما منحها بعض الأملاك التى آلت إلى بيت المال من بعض التركات . فكانت هذه الموارد هى التى ينفق منها على المدارس عدا ما خصص لها فى الميزانية العامة وما يدفعه أهالى التلاميذ المقتدرين من المصروفات الضئيلة .

إنشاء مدرسة دار العلوم

وبديهى أن إنشاء مدارس نظامية كان يقتضى إيجاد عدد كاف من المدرسين الأكفاء وهذا ما جعل على مبارك ينشىء مدرسة دار العلوم فى سنة ١٨٧١ وهى من أجل منشآته وكان الغرض منها تخريج أساتذة اللغة العربية والآداب للمدارس الابتدائية .

* هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



تمساح يلتهم ذراع أحد الخدم *

= أما الرياضيات والجغرافيا والتاريخ واللغات الأجنبية فلقد اختار لتدريسها نجباء التلاميذ المتقدمين ممن أتموا دراستهم فى المدارس العليا كالمهندسخانة ومدرسة الإدارة (الحقوق).

=

* هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر . وحكاية هذا التمساح أن أحد أعضاء حملة السير صمويل بيكر أرسل خادمته لإحضار الماء من النهر فلم تعد . وبعد ساعات أدرك سيدها أن التمساح لا بد أن يكون قد ابتلعها فذهب إليه فى رهط من الزنوج فما كاد أحدهم أن يقترب منه حتى التهم ذراعه وأخيراً لما تغلبوا عليه شقوا بطنه فاذا بآثار الخرز الذى كانت تلبسه الخادمة فى عنقها لا يزال موجوداً مع نحو ٥ كيلو جرام من الحصى . فايقنوا إذن بوفاة الخادمة .



الزنوج يسحبون تمساحا ضخما إلى البر فى جهة غوندوكرو *

= وقد اختير تلاميذ دار العلوم من بين من اجتازوا الامتحان من الطلبة الأزهريين. وقد اشتمل برنامج التعليم فيها على المواد التى لا تدرس فى الأزهر كالحساب والهندسة والطبيعة والجغرافية والتاريخ والخط مع إتقان العلوم الأزهرية من لغة ونحو وتفسير وفقه وحديث. وقد جعل التعليم فى هذه المدرسة مجاناً مع وضع مرتب شهرى للتلاميذ.

ولاريب فى أن إنشاء مدرسة دار العلوم هو أعظم خدمة أسداها المترجم لأحياء اللغة العربية وآدابها فى مصر.

إنشاء دار الكتب فى سنة ١٨٧٠

كانت مطبوعات الحكومة فى عهد محمد على توضع فى مستودع فى بيت المال القديم خلف المسجد الحسينى ولكن اسماعيل وجه عنايته إلى إنشاء دار عامة للكتب تجمع شتات الكتب الموزعة بين مخازن الحكومة ومكاتب الأوقاف وفى المساجد وغيرها. وقد ابتاع لها الخديو نحو ٢٠٠٠ مجلد من المخطوطات العربية والفارسية من تركة حسن باشا المناسترلى هذا عدا ما ابتاعه من الكتب القيمة من تركة أخيه الأمير مصطفى فاضل. وتنفيذاً لارادة الخديو عنى المترجم بانشاء تلك الدار فى درب الجماميز وجعل لها ناظرا وخدمة ووضع لها قانونا لضبطها وعدم ضياع كتبها وكان ينفق عليها من ميزانية المدارس. وأصبحت أبوابها مفتوحة لكل من لا تمكنه موارده الخاصة من الاغتراف من بحار العلوم كما يشاء.

* هذه الصورة ماخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر.



فرس البحر يهاجم القوارب ليلا *

المحاضرات العامة

وعنى المترجم أشد عناية بما كان يلقى من المحاضرات فى المدرج (الأنفتياتر) بسراى درب الجماميز سنة ١٨٧١ فعهد بالقائها إلى عدد من الأساتذة الأكفاء من معلمى المدارس من أمثال الشيخ حسين المرصفى واسماعيل باشا الفلكى وفرانس باشا وغيرهم وغيرهم ممن ذكرهم أمين باشا سامى فى كتابه «التعليم العام فى مصر» . وكان كثيراً ما يحضر هذه المحاضرات بنفسه وحذا حذوه كبار موظفى المعارف وغيرها وكان يشهدها طلبة المدارس العالية وطلبة الأزهر .

أعماله الهندسية

كثيراً ما يقرن الناس اسم على مبارك بالتعليم ونهضته متناسين أعماله الهندسية البديعة . فلقد كان فى أثناء تقلده وزارة الأشغال سنة ١٨٦٨ «كالدينامو» الذى يستحدث كل يوم حدثا جديدا . فاليه يرجع الفضل فى تنظيم مدينة القاهرة وتوسيع شوارعها وإنشاء معظم أحيائها الجديدة كشارع محمد على وميدانه وشوارع الأزبكية وميدانها وشوارع حى عابدين وباب اللوق وغيرها وغيرها .

ثم هو الذى استحدث اضاءة الشوارع بغاز الاستصباح واقامة وابور المياه لتغذية —

* هذه الصورة ماخوذة من كتاب «الاسماعيلية» للسير صموئيل بيكر .



المسترادوين هيجنو بوتام كبير مهندسى حملة السير صمويل بيكر (راجع ص ٣١٤)*



اليفتنات جوليان بيكر الذى رشحه السير صمويل بيكر ليحل محله (راجع ص ٣١٣)

سكان العاصمة بالمياه الصالحة بواسطة شركتى المياه والنور . كما أنه هو الذى وضع تصميم كوبرى قصر النيل الذى ظل أمدا طويلا يعد فى طليعة كبارى العالم .

كذلك لاتفوتك عنايته بعمران مدينة الأسكندرية والسويس وشق الترع والجسور فى الأقاليم هـذا إلى اقامة مختلف الدواوين فى المديريات وغيره وغيره . وإليك هذه النبذة التى كتبها المترجم وهى تبين لك كيف كان الرجل يعمل ليل نهار فى خدمة بلاده بومليكه وهو هو الذى كان كما قلنا متولياً ثلاث وزارات عدا إدارة السكك الحديدية . قال:

« وهذه الأعمال جميعها أوأ كثرها كنت أباشر أمورها من رسومات وشروط مع المقاولين ونحو ذلك لتعلقها بديوان الأشغال . فكنت فى مدة إحالة هذه الدواوين على مشغولا بالمصالح الأميرية وتنفيذ الأغراض الخديوية ليلا ونهارا حتى لاأرى وقتاً ألتفت فيه لأحوالى الخاصة بى ولا أدخل بيتى إلا ليلا بل كنت أفكر بالليل فيما يفعل بالنهار ».

ونظرا لأنه كان وزيرا للأشغال عند افتتاح قناة السويس فقد عهد إليه اسماعيل باعداد معدات حفلات الافتتاح التاريخية .

أعماله فى الدواوين الأخرى

وفى أثناء تقلده وزارة الأوقاف حكر كثيرا من أراضى القاهرة للراغبين فى بنائها مقابل حكر ضئيل يدفعونه سنويا وبذا ساعد على تعمير كثير من الأحياء الخربة واقامة

* هاتان الصورتان مأخوذتان من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



علم النهضة الأدبية فى عهد اسماعيل العلامة على باشا مبارك *

= المبانى والعمارات الكبيرة فى مختلف أنحاء المدينة . وفى عهد إدارته للسكك الحديدية مدت عدة خطوط حديدية وأنشئت محطات كثيرة .

الوشاية بالمترجم

كان طبيعياً أن تصطدم هذه الشخصية الفذة بالسعايات والوشايات التى روجها خصومه ضده وكان من جرائها انفصاله عن إدارة السكة الحديدية ثم وزارة المعارف فى سبتمبر سنة ١٨٧٠ ثم عن الأشغال والأوقاف .

ويرجع السبب فى ذلك إلى رغبة اسماعيل صديق (الشهير بالمفتش) فى ضم إيراد السكك الحديدية إلى وزارة المالية ومعارضة المترجم فى هذا الضم إلا إذا تعهدت المالية بجميع نفقات المصلحة . ثم كانت الوشايات والسعايات مما أدى إلى انفصال المترجم عن الوزارات المذكورة ولزومه عقر داره .

ولكن الخديو اسماعيل لم يكن بالرجل الذى ينسى فضل أرباب الفضل أو تقعده الوشايات عن الانتفاع بمواهب النافعين من رجاله .

ذلك أنه سرعان ما أرسل فى طلب المترجم (١٣ مايو سنه ١٨٧١) وعهد إليه بوزارة المعارف ثم بوزارة الأوقاف ثم الأشغال وظل فى وزارة المعارف إلى =

* مستعارة من سعادة أحمد شفيق باشا



هجوم عام فى الليل بجهة غوندكرو *

أغسطس سنة ١٨٧٢ حيث لاح للخديو تعيين ابنه الأمير حسين كامل باشا ناظرا لهذه الدواوين مع بقاء المترجم كمستشار لها . ثم مالبث الأمير حسين أن استقل بديوان الأشغال واتخذ المترجم وكيلا له .

وفى أغسطس سنة ١٨٧٣ عين المترجم عضوا بالمجلس الخصوصى (مجلس الوزراء وقتئذ) ولكن سرعان ما انفصل عنه بسبب الوشايات فعاد إلى داره .

وفى مارس سنة ١٨٧٤ جعل رئيسا لقسم الهندسة بوزارة الأشغال . وعند الحاق هذا الديوان بوزارة الداخلية التى كان يتولاها الأمير محمد توفيق ولى عهد الأريكة الخديوية اتخذ المترجم مستشارا له ثم استقل بديوان الأشغال فبقى المترجم مستشارا للديوان (ديسمبر سنة ١٨٧٥) وبذلك تعيين المترجم فى هذه المناصب الثانوية على أنه كان نتيجة الوشايات فى حقه للخديو .

وزارة نوبار باشا

ثم كان ماكان من الارتباك المالى وتضييق الدائنين الخناق على مصر حكومة وشعبا ومطالبة لجنة التحقيق الدولية بتنازل الخديو عن سلطته لمجلس الوزراء وتشكيل وزارة

* هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صموئيل بيكر .



ساكن الجنان توفيق باشا خديو مصر الأسبق

= نوبار باشا الأولى فى أغسطس سنة ١٨٧٧ ودخول الوزيرين الأجنبيين فيها وهما السير ريفرز ولسون والمسيو دوبلنيير فاشترك فيها المترجم حيث تولى وزارتى المعارف والأوقاف فاستأنف عمله فى أحياء نهضة التعليم وأقبل على المدارس الابتدائية ينشئها ويوطد دعائم عمله فى هذه الناحية وسط الجو المضطرب وقتئذ إلى أن تبرم الشعب بوزارة نوبار واعتدى بعض الضباط على الوزيرين الأجنبيين مما كانت نتيجته سقوط تلك الوزارة فى فبراير سنة ١٨٧٩ تشكيل وزارة توفيق باشا القصيرة الأجل فدخلها المترجم وزيرا للمعارف والأوقاف .

ثم دعى شريف باشا لتشكيل الوزارة فلم يشرك المترجم فيها لأنه كان فى وزارة غضب عليها الشعب قبلا.

المترجم فى عهد توفيق باشا

ولما تبوأ توفيق باشا الأريكة الخديوية عهد إلى مصطفى رياض باشا بتشكيل الوزارة فدخلها المترجم وزيرا للأشغال .

الثورة العرابية

وبدت طوالع الثورة العرابية فى عهد وزارة رياض باشا وكان المترجم من الناصحين بالتزام الروية والاعتدال على عكس ما كان يرمى إليه العرابيون .

ثم طالب سواد الشعب بسقوط الوزارة الرياضية فسقطت فعلا فى سبتمبر سنة ١٨٨١ =



مصطفى رياض باشا رئيس الوزراء سابقاً

= تلبية لإرادة الثوار فألف شريف باشا الوزارة الجديدة .

ومع تقدير شريف باشا لاستقامة المترجم وكفاءته لم يستطع إشراكه فى وزارته لأنه كان عضواً فى وزارة حنق عليها الشعب . وهكذا قدر للمترجم أن يشترك فى وزارتين سقطتا نزولا على إرادة الثوار وهما وزارتا نوبار باشا ورياض باشا .

ثم استقالت وزارة شريف وتلتها وزارة محمود باشا سامى البارودى فظل المترجم بعيدا عنها . وفى عهد هذه الوزارة وصل الأسطول البريطانى إلى ثغر الأسكندرية وتعاقبت الحوادث حتى انتهت بالاحتلال البريطانى .

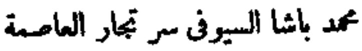
ثم كان ما كان من وقوع الحرب بين العرابيين والانجليز وانعقاد جمعية عمومية فى القاهرة من أعيان البلاد حضرها على مبارك باشا وكان ضمن الوفد الذى انتدبته الجمعية للسفر إلى الاسكندرية لابلاغ الخديو قرارات الجمعية . فلما وصل إليها حاول تهدئة الخواطر فلما لم ينجح انضم إلى الخديو أسوة بمن انضم إليه من أعيان البلاد وكبارها .

وفى سنة ١٨٨٢ أى عقب الاحتلال ألف شريف باشا وزارته الرابعة واشترك فيها المترجم كوزير للأشغال . ثم مالبث أن استقال فى يناير سنة ١٨٨٤ متضامناً مع زملائه أعضاء الوزارة الشريفية احتجاجاً على إخلاء السودان .



أحمد باشا السيوفى





محمد باشا السيوفى سر تجار العاصمة

وقد انضما الى الخديو توفيق

وزارة رياض باشا

ظهور « خطط » المترجم

وفى يونية سنة ١٨٨٨ تولى رياض باشا الوزارة فأشرك المترجم فى عضويتها كوزير للمعارف . وفى هذه الفترة ظهر كتابه الخالد « الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة الشهيرة » ويقع فى عشرين مجلداً .

وهى دائرة معارف لخطط مصر وآثارها وجغرافيتها وتاريخها فى مختلف عصورها القديمة والحديثة وفيه وصف لمدن مصر وقراها ونيلها وسواحلها وتخطيط كامل للقاهرة وأحيائها وشوارعها ودروبها وميادينها وما فيها من المساجد والأضرحة والأسبلة والقصور والتكايا والحمامات والوكائل الخ الخ .

وقد خصص المترجم الأجزاء الستة الأولى للقاهرة والسابع للاسكندرية والأجزاء الأخرى لبقية مدن القطر المصرى وقراه .

ولبث المترجم يعنى بنشر التعليم وإنشاء المدارس إلى أن استقالت وزارة رياض باشا فى سنة ١٨٩١ فعاد المترجم إلى بلده لتفقد أملاكه وإصلاحها وهناك مرض بداء المثانة فعاد إلى القاهرة .



فرس البحر يفترس شيخ القبيلة الضرير فى منطقة قبائل الشيلوك *

وفاته

ثم اشتدت وطأة المرض حتى اختاره الله لجواره فى ١٤ نوفمبر سنة ١٨٩٣ بمنزله بالحلمية وبهذا انطفأ هـذا السراج الذى أضاء البلاد زهاء أربعين عاما وارتجت البلاد لفقد هذا العالم الفحل وشعرت بما أحدثه من الفراغ الكبير .

الجمعيات العلمية

وكما اشتهر عهد اسماعيل بالنشاط بكافة معانى هذه اللفظة كذلك اشتهر بتأسيس الجمعيات العلمية والجمعيات الانسانية ذات المقصد السامى . وقد كتب المؤرخ الكبير الأستاذ الرافعى بك فصلا رائعا فى هذا الموضوع اقتبسنا منه مايلى :

يصح أن نذكر ضمن النوع الأول المجمع العلمى الذى أنشأه بونابرت سنة ١٧٩٨ فى أوائل عهد الاحتلال الفرنسى . وقد أقفل ذلك المجمع أبوابه عند جلاء الفرنسيين ثم أعيد إنشاؤه سنة ١٨٥٩ بالاسكندرية فى عهد سعيد باشا واستمر يؤدى مهمته فى نشر المباحث العلمية إلى اليوم ومقره بوزارة الأشغال واسمه « مجلس المعارف المصرى » وله مجلة تنشر مباحثه .

جمعية المعارف (أسست سنة ١٨٦٨)

على أن محمد عارف باشا أحد أفاضل العلماء والعضو بمجلس الأحكام هو الذى=

* هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



أحمد خيرى بك (باشا) مهردار الخديو اسماعيل *

يرجع إليه الفضل فى تأسيس أول جمعية علمية ظهرت فى مصر لنشر الثقافة بواسطة التأليف والطباعة والنشر فى سنة ١٨٦٨ . وكانت غاية هذه الجمعية نشر العلوم والمعارف بطبع الكتب العلمية وتهذيبها وتلخيصها وكانت تحت رعاية الأمير محمد توفيق باشا ولى عهد الأريكة الخديوية . وقد طبعت الجمعية فعلا طائفة كبيرة من أمهات الكتب العربية فى التاريخ والفقه والأدب .

ونظرة واحدة إلى أسماء بعض من أقبلوا على تعضيد هذه الجمعية والاشتراك فيها تقنعك بما لقيته فى نفوس الملأ من التشجيع . فعندك مثلا من أعضائها الذين بلغوا زهاء السبعمائة فى عام ١٨٧٠ :

ابراهيم بك حليم من قضاة محكمة الاستئناف ، السيد ابراهيم جميعى من أعيان الاسكندرية ، السيد ابراهيم بك المويلحى من أعضاء المجلس الابتدائى ، اترقى بك أبو العز من أعضاء مجلس شورى النواب ، احمد طلعت باشا كاتب الديوان الخديو ، احمد رشيد باشا من أعضاء المجلس المخصوص (مجلس الوزراء) ، احمد خيرى بك مهردار الخديو (وهو الذى كان غوردون باشا يبعث إليه برسائله الخاصة بالملاحة

* مستعارة من سعادة أحمد شفيق باشا



شفيق بك منصور وكيل النائب العام فى لجنة تحقيق حريق الاسكندرية

= فى بحيرة فكتوريا نيانزا على ما مر بك فى ص٣٤٣) ، الشيخ احمد فارس الشدياق صاحب الجوائب ، امين بك فكرى ، جعفر مظهر باشا حكمدار السودان ، جعفر صادق باشا رئيس مجلس استئناف قبلى (وجد معالى محمود فخرى باشا) ، الشيخ حسونه النواوى ، حسين بك (باشا) فخرى ، حسن شرين باشا ، خليل يكن باشا ، راشد حسنى باشا ، محمد عرفان باشا ، الشيخ عبد الرحمن الرافعى ، على ذو الفقار باشا وزير الخارجية ، محمد مظهر باشا وكيل مجلس الأحكام ، مصطفى رياض باشا ، السيد حسن موسى العقاد ، شفيق بك منصور ، (الذى كان وكيلا للنائب العمومى فى لجنة تحقيق جنايات حريق الاسكندرية سنة ١٨٨٣) وغيرهم .

ولكن الجمعية انحلت على أثر سفر عارف باشا إلى الآستانة وكان معروفا بميله إلى حليم باشا المطالب بعرش الخديوية .

الجمعية الجغرافية

وقد سبق الكلام عنها وهى من أهم المؤسسات العلمية فى عهد اسماعيل أنشأها سنة ١٨٧٥ للأبحاث الجغرافية واختار لرئاستها العلامة الألمانى الدكتور شوتفرت ووكيله العلامة محمود باشا الفلكى والجنرال استون باشا . وللجمعية مجلة دورية لنشر مباحثها القيمة . وليس شك فى أنها أدت وماتزال تؤدى أجل الخدمات للعلم والجغرافية بفضل عناية جلالة أبى الفاروق بها كما مر بك فى ص ١٥ .



السير صمويل بيكر يطلق سراح العبيد بعد استيلائه على القوارب التى كان صيادو الرقيق « شحنوهم » فيها وتراه فى الصورة وإلى يمينه قرينته *

الجمعية الخيرية الاسلامية

وهى غير الجمعية الخيرية الأسلامية الحالية المؤسسة فى سنة ١٨٩٢ . فلقد أسست الأولى فى سنة ١٨٧٨ فى الاسكندرية بمساعى السيد عبد الله نديم خطيب الثورة العرابية ومساعدة سعد الله بك حلابه من سراة الثغر (وهو والد الأستاذ شفيق سعد الله حلابة عضو مجلس الشيوخ) .

وجعلت الجمعية غايتها فتح المدارس الحرة بعيدا عن النفوذ الأجنبى واعانة الفقراء فأنشأت مدرسة بالاسكندرية لتعليم البنين والبنات وعقد فيها محفل الخطابة كل أسبوع ورتبت لها الحكومة إعانة سنوية .

الصحافة

اشتهر عهد عباس وسعيد بالجمود الفكرى بينما كنت ترى عوامل النهضة والفلاح تسرى سريان الماء فى العود فى كل جانب من جوانب الحياة فى عهد اسماعيل . فليس غريباً أن البلاد بعد ان لم تكن تعرف من الصحافة فى عهدى عباس واسماعيل سوى الوقائع المصرية، أن بدأت تنتشر فيها الصحف العلمية والأدبية ثم السياسية بينما أخذ

* هذه الصوره ماخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



محمد قدری باشا أحد أعلام الفقه والقانون *

أرباب الأقلام يتبارون في الكتابة فيها . وهنا لا نرى مفرا من الإشادة بفضل العنصر السوري على اللغة العربية وأثره في نهضتها في ذلك العهد . وفي الواقع كانت الصحافة في عهد اسماعيل بمثابة حلبة تتلاقى فيها أقلام أعلام الكتاب والأدباء من أمثال رفاعة بك رافع الطهطاوي وابنه علي باشا رفاعة وعبد الله باشا فكري والشيخ حسين المرصفي وعلي باشا مبارك ومحمود باشا الفلكي واسماعيل باشا الفلكي والمسيو بروكش ناظر مدرسة اللسان القديم ومحمد قدري باشا أحد أعلام الفقه والقانون ومؤلف كتاب « مرشد الحيوان إلى معرفة أحوال الانسان » وكتاب « الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية » وكتاب « قانون العدل والانصاف في القضاء على مشكلات الأوقاف » (وهي التي لاتزال إلى اليوم مرجع المشتغلين بالقانون) والسيد صالح مجدي بك والشيخ حسونه النواوي والشيخ حمزه فتح الله وغيرهم .

ويرجع الفضل في نهضة الصحافة في عهد اسماعيل إلى أنه كان لا يضن على القائمين بها بالمساعدات الأدبية والمالية وهذا ما كفل لها السير في معارج النجاح والفلاح .

* مستعارة من سعادة أحمد شفيق باشا



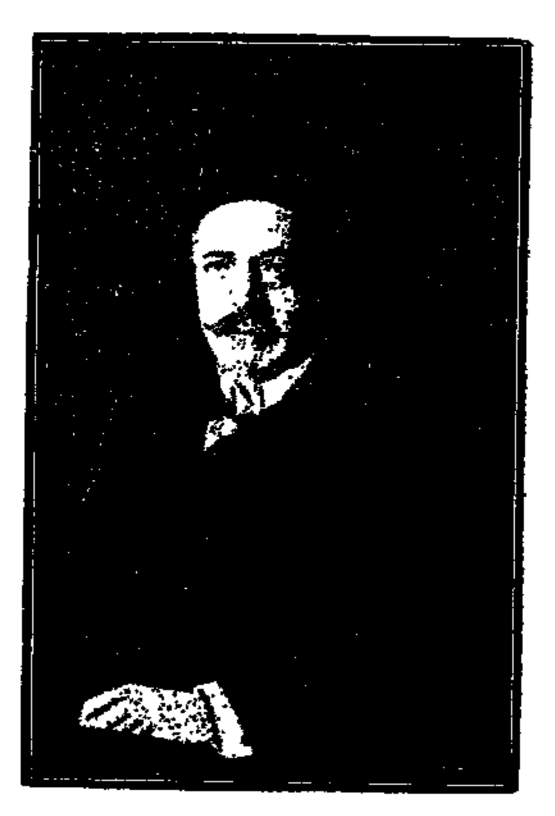
كمين من الزنوج يهاجمون مؤخرة الحملة ويقتلون أحد الضباط *

= وإذا ذكرت الصحف فلا تنس فى طليعتها الوقائع المصرية التى كانت بمثابة سجل للحياة السياسية والاجتماعية فى عصر اسماعيل وكان يقوم بتحريرها لفيف من كبار أهل الأدب وأعلام البيان . وهى تعد فى الواقع من أهم المراجع التاريخية لايستغنى عنه الباحث فى تاريخ مصر الحديثة . وكثيرا ما استشهدنا بها فى عدة مواضع من هذا الكتاب .

وبين الصحف التى أنشئت فى عهد اسماعيل صحيفة اليعسوب (سنة ١٨٦٥) وهى مجلة شهرية طبية أنشأها الدكتور محمد على باشا البقلى وابراهيم الدسوقى ولم تعمر طويلا .

ثم مجلة روضة المدارس التى أنشأها على مبارك باشا سنة ١٨٧٠ وكان وزيرا للمعارف وهى من أجل أعماله وتولت وزارة المعارف الأنفاق عليها وأصدارها بانتظام والغرض منها احياء الآداب العربية ونشر المعارف الحديثة . وقد تولى رئاسة تحريرها العلامة رفاعة بك رافع الطهطاوى وأسند تحريرها إلى ابنه على بك (باشا) فهمى رفاعة. وكانت ميداناً تصول فيه أقلام فطاحل العلماء وأعلام الأدباء والكتاب فى ذلك العصر ممن أشرنا إليهم فى صدر هذه الكلمة .

* هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



الشاعر الفذ اسماعيل باشا صبرى *

وقد صدر العدد الأول منها فى ١٥ المحرم سنة ١٢٨٧ﻫ (١٨٧٠) واستمرت تصدر بانتظام كل نصف شهر مدة ثمانى سنوات فكانت خير معلم للنشء فى ذلك العهد كما شهد بذلك المسيو دور بك مفتش التعليم العام فى عهد اسماعيل فى كتابه « التعليم العام فى مصر، ص ٢٥٣ إذ قال : «كانت هذه المجلة توزع مجاناً على التلاميذ وقد ساعدت على نشر العلوم والمعارف لأنها عودت الطلبة ملكة المطالعة والبحث وفتحت صحائفها للنابهين منهم لنشر ابحاثهم القيمة فكان ذلك مما يشجعهم ويستحث هممهم على المباحث والجهود المستقلة عن دروسهم».

وبينما كانت صحائف المجلة ميداناً تتلاقى فيه أقلام العلماء والكتاب كما قدمنا كذلك كانت فى الوقت نفسه حلبة تتسابق فيها أقلام نبهاء الطلبة. ومن ألطف ما ذكره الأستاذ الرافعى بك مطلع بعض قصائد رآها فى المجلة لفخر الشعراء المرحوم اسماعيل باشا صبرى

* مستعارة من سعادة أحمد شفيق باشا.



الدوق أف كونوت ولى عهد انجلترا سابقا . وفى أثناء زيارته لمصر وسطه اسماعيل باشا فى حمل السير صمويل بيكر على قبول الخدمة لمحاربة النخاسة

وكان يسمى وقتئذ « الشاب النجيب اسماعيل افندى صبرى » أحد تلامذة مدرسة الادارة (الحقوق) وقتئذ .

قال اسماعيل صبرى من قصيدة نشرت بالعدد ٢٠ من المجلة (بتاريخ آخر شوال سنة ١٢٨٧) فى مدح الخديو

سارت فلاح لنا هلال سعود　　　ونما الغرام بقلبى المعمود

وقال فى قصيدة أخرى بالعدد ٥ من السنة الثانية :

أغرتك الغراء أم طلعة البدر　　　وقامتك الهيفاء أم عادل السمر

وشعرك أم ليل تراخى سدوله　　　وثغرك أم عقد تنظم من در

وهى قصائد رائعة كانت تكفى لهذا الفتى بالمكانة المبرزة التى كانت تنتظره فى عالم الشعر الذى أصبح فى طليعة فرسانه .

ثم لا ننس بين تلك الصحف صحيفتى أركان حرب الجيش المصرى والجريدة العسكرية المصرية اللتين سبق الكلام عنهما فى سياق الجيش المصرى ص ٣٧٨

٥ هذه الصورة ماخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



القاضى الكبير محمد بك عثمان جلال *
صاحب كتاب « العيون اليواقظ »

ولكى نعطيك صورة صادقة عن هذه الناحية من الحياة الاجتماعية فى عهد اسماعيل لانرى بدأ من الاشارة إلى ماظهر فى عهده الزاهر من الصحف السياسية التى كان لها أكبر فضل فى تنبيه الأذهان وشحذ الهمم وتوجيه الأنظار إلى العناية بشؤون البلاد العامة وانتقاد مايستحق الانتقاد. وإليها يرجع الفضل فى إذكاء الروح الوطنى وترقية أساليب الانشاء وتهذيب لغة الكتابة ولهذا تعد بحق من عوامل النهضة الأدبية فى العصر الحديث.

وتعتبر جريدة وادى النيل لصاحبها الشاعر الناثر عبد الله افندى أبو السعود أقدم صحيفة سياسية. فقد انشئت سنة ١٨٦٧ وكانت تصدر فى شكل مجلة مرتين فى الأسبوع إلى أن ألغتها الحكومة سنة ١٨٧٢

ثم جريدة نزهة الأفكار الأسبوعية (١٨٦٩) لمنشئيها ابراهيم بك المويلحى ومحمد بك عثمان جلال ولم يصدر منها إلا عددان ثم عطلت.

* مستعارة من سعادة أحمد شفيق باشا



الكاتب الشهير أديب اسحاق *

= وجريدة الوطن لمنشئها خليل افندى عبد السيد (١٨٧٧) وكانت سياستها وطنية ولهجتها حرة واستمرت إلى مابعد الاحتلال ثم وقفت حيناً واستأنفت الظهور فى سنة ١٩٠٠

وفى سنة ١٨٧٧ ظهرت جريدة مصر الأسبوعية لمحررها أديب اسحق الذى أنشأ فى سنة ١٨٧٨ صحيفة « التجارة » وكانت سياسة الصحيفتين وطنية حماسية تجلت فيها تعاليم علامة الشرق السيد جمال الدين الأفغانى وكثيراً ما كان يكتب فيهما إلى أن ألغاهما رياض باشا سنة ١٨٨٠

وعمد محمد بك أنسى بن عبد الله أبى السعود أفندى إلى انشاء جريدة روضة الأخبار بدلا من صحيفة وادى النيل المعطلة

وجريدة الكوكب الشرقى لصاحبها سليم باشا حموى صدرت باسكندرية سنة ١٨٧٣ ولم تعمر طويلا .

ثم جريدة الأهرام لسليم (بك) وبشاره (باشا) تقلا صدرت فى الاسكندرية

* مستعارة من سعادة أحمد شفيق باشا .



صاحب الأهرام المرحوم بشارة تقلا باشا *

سنة ١٨٧٥ ثم انتقلت إلى القاهرة وكانت فى بداية ظهورها أسبوعية وواجهت شتى المصاعب إلى أن ابتسم لها الدهر ونالت الرواج الذى تستحقه بفضل سهر أصحابها عليها واهتمامهم بابلاغها إلى أرقى مكانة فى عالم الصحافة حتى أصبحت جديرة بأن تعد مفخرة صحف الشرق قاطبة .

وجريدة الاسكندرية وقد صدرت أسبوعية فى يولية سنة ١٨٧٨

وجريدة الكوكب المصرى للشيخ محمد وفاء .

ومرآة الشرق وهى سياسية أنشأها سليم عنحورى وتنحى عنها فى ابريل سنة ١٨٧٩ حيث تولاها ابراهيم بك اللقانى بايعاز السيد جمال الدين الأفغانى .

ثم جريدتا مرآة الأحوال صدرت فى لندن سنة ١٨٧٦ « وأبو نضارة » صدرت

* هذه الصورة مستعارة من سعادة احمد شفيق باشا .



صاحب الأهرام المرحوم سليم تقلا بك

في القاهرة سنة ١٨٧٧ وكانتا من الصحف المعارضة للخديو لصاحبهما الشيخ يعقوب صنوع الاسرائيلي العقيدة المصرى الجنسية المسمى بالشيخ (أبو نضاره) وكان فى بداية أمره ميالا إلى نقد سياسة الخديو ثم أخذ يحمل على الاحتلال البريطانى فيما بعد إلى أن مات سنة ١٩١٢

وليس يفوتنا أن نسجل هنا أن الخديو اسماعيل كان من أنصار حرية الصحافة ولذا أطلق لها العنان . وإذ رأيت أن معظم الصحف السياسية قد ظهر فى أواخر عهده فليس غريباً أن تراها تتنافس فى الحملة على المطامع الأوربية والتنديد بالسياسة الاستعمارية .

الصحف الأفرنجية

وظهر من الصحف الأفرنجية فى عهد اسماعيل جريدة الفار دى الكسندرى فى الاسكندرية (١٨٧٤) ثم البروجريه اجبسيان وكانت معارضة للخديو ثم جريدة الريفورم .

الطباعة

وكما تقدمت كل ناحية من نواحى الحياة المصرية فى عهد اسماعيل كذلك تقدم فن الطباعة وبلغ شأوا بعيداً حتى أصبحت مطبعة بولاق تضارع المطابع الكبرى . وكان يتولى نظارتها حسين باشا حسنى وإليه يرجع الفضل فيما وصلت إليه من التقدم والكمال .

وقد ذكرت الوقائع المصرية فى عددها رقم ٤١٠ الصادر بتاريخ أول يونيه سنة ١٨٧١ أن الخديو اسماعيل أنشأ مصنعاً للورق تولاه حسين حسنى باشا وقد أخذ ذلك المصنع



الصحفي المعروف الشيخ أبو نضارة *

يورد لمصانع الحكومة كافة ما تحتاجه من الورق وطبع المؤلفات العلمية هذا عدا الأوراق والدفاتر اللازمة للتجار .

وقد تمكن حسين باشا حسني من الوصول بمصنع الورق الذى ابتاع آلاته من لندن إلى درجة من الاتقان والاحكام مما جعله ينتج من الورق ما كاد أن يعطل على واردات أوروبا . وكانت جميع نفقات المصنع وثمن آلاته تؤخذ من ربح المطبعة والمصنع حتى قال عنه علي باشا مبارك «إنه أحيي روح المطبعة الأميرية ونشر صيتها في جميع الأقطار» وقد توفي سنة ١٨٨٥

ثم أنشئت عدة مطابع أخرى فى القاهرة وكان من أثرها طبع عدة من أمهات الكتب العربية .

مظاهر النهضة العلمية والأدبية

لعلك لاحظت مابلغته البلاد فى عصر اسماعيل من درجة ممتازة فى عالم الأدب والعلوم ويرجع الفضل فى ذلك إلى عدة عوامل .

منها انتشار التعليم فى المدارس والمعاهد وظهور طائفة من العلماء والأدباء ممن تخرجوا فى المدارس والبعثات أو فى الأزهر على عهد محمد علي وخلفائه . وقد ظهرت ثمار قرائح هؤلاء الأعلام فى عهد اسماعيل الذى كان يبالغ فى تشجيعهم ولايفتر عن

* هذه الصورة مستعارة من سعادة أحمد شفيق باشا .



الزنوج يسحبون الباخرة رقم ١٠ « باللبان » فى الترع وسط الأعشاب *

= مساعدتهم واسناد المرا كز الممتازة فى الحكومة إليهم ويمدهم بالمنح السخية فكانت أياديه البيضاء هذه بمثابة أكبر حافز للعزائم وأعظم عضد للنهضة العلمية والأدبية .

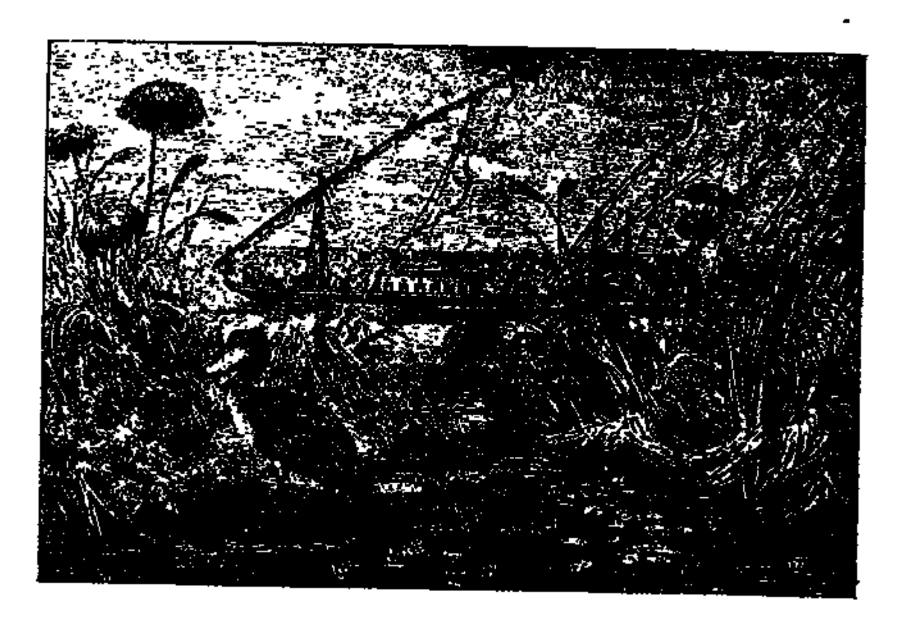
ثم إن انتشار التعليم كان له أثره الظاهر فى نمو النهضة العلمية والأدبية . لأن جمهرة المتعلمين كانوا لا يترددون فى تأييد تلك النهضة بالأقبال على ما تنتجه قرائح العلماء . وبديهى أنه لولا هذا الأقبال والتشجيع لتعطلت القرائح ولاختل قانون العرض والطلب فى هذا الميدان العلمى والأدبى .

ثم لا تنس أثر السيد جمال الدين الأفغانى الذى هبط مصر فكان هبوطه بمثابة بعث جديد للنهضة الفكرية بما نفخه فيها من روح التجديد والنشاط . وقد ظهر أثره فى الحياة العلمية والأدبية والسياسية على السواء ، مما دفع الأمة إلى الأمام .

كذلك لا تنس انتشار الجمعيات العلمية وتقدم الطباعة وظهور الصحف والاهتمام بالتأليف والترجمة والنشر مما حفل به عصر اسماعيل . وقد نشط الأدب والشعر وظهرت طائفة من الشعراء بدأ على شعرهم أسلوب العصر الحديث . وقد أخذت أساليب الكتابة ترقى بعد ترك السجع المتكلف والتخلص من شوائب التعقيد والركاكة .

وفى عصر اسماعيل أيضاً ظهرت طائفة من العلماء المؤلفين والمعربين ، فنقلوا عدة من طرائف الكتب الأجنبية مما أفادت به البلاد .

* هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



الوصول إلى منطقة السدود
فى أعالى النيل *

= ومناصب الحكومة التى عهد اسماعيل بها إلى أكفاء المتخرجين من المدارس والمعاهد والبعثات مما كانت نتيجته سريان النهضة ومد الحكومة ومصالحها كالرى والتعليم والهندسة والادارة والقضاء والصحة والجيش والأسطول بماتحتاجه من الرجال النابهين .

وكان بديهياً ان يكون لهذه النهضة العامة أثرها فى تطور الحياة الاجتماعية وبالتالى لحياة الوطنية والسياسية .

أعلام الأدب فى عصر اسماعيل

وتسوقنا هذه النبذة التى اقتبسناها من كتاب الأستاذ الرافعى بك إلى سرد أسماء من ذكرهم حضرته من أعلام الأدب الذين ازدان بهم العصر الاسماعيلى .

ويأتى فى طليعتهم رفاعة بك رافع الطهطاوى ثم على باشا مبارك ثم السيد جمال الدين الأفغانى .

* هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



فيلسوف الشرق السيد جمال الدين الأفغانى *

السيد جمال الدين الأفغانى

ولا بد من الوقوف هنيهة لنقول كلمة عن هذا الحكيم الكبير الذى يعتبر بحق باعث نهضة الشرق.

وكتاب كالكتاب الحاضر لا يتسع طبعاً لوفاء حق عبقرى كجمال الدين الأفغانى كما ينبغى فهو خليق بكتاب بأكمله بل بعدة كتب. لأن الرجل كان متعدد النواحى وكان عظيما فى كل ناحية من هذه النواحى فما بالك وقد اجتمعت كلها فيه. فلا غرو أن أصبح كبير أعلام الشرق والينبوع الصافى الذى تلقى منه الشرق الحكمة والعلوم حقبة من الزمن كان لها أكبر أثر فى تطوره التطور المشاهد فى كل أرجائه.

ولقد اعتاد الناس ألا يقدروا إنسانا إلا بنسبة انتاجه كما هو المألوف فى شأن من تقدم جمال الدين من فلاسفة الرومان أو اليونان والفرس والعرب وغيرهم. ولكن قد

* هذه الصورة مستعارة من سعادة احمد شفيق باشا.



صيد الظباء بالشباك فى منطقة كابريقة *

ـــ يحدث أحياناً أن يذهب فيلسوف بعينه إلى العالم الآخر دون أن يدون بنفسه شيئاً من فلسفته أو كلماته وتعاليمه . وفى هذه الحالة ينهض تلاميذه ومريدوه ممن ارتووا بسلسبيل هذه التعاليم فينشرونها كما تلقوها عن استاذهم ويملأون بها أرجاء الأرض فتثمر ثمرها المطلوب ويصبح وجود أولئك التلاميذ رمزاً لفلسفة صاحبها فيسلمونها لأبنائهم وأحفادهم.

وهاهو سقراط كبير فلاسفة اليونان مات دون أن يدون شيئاً من كلامه على أن ذلك لم يمنع أن تلامذته حفظوا فلسفته ودونوها وأذاعوها بين الخافقين وتوارثها الخلف عن السلف .

فلئن كان حكيم الشرق وفيلسوفه العبقرى السيد جمال الدين الأفغانى قد مات دون أن يترك طائفة من الكتب فان ذلك لا يمنع أنه ترك غرساً مشى به مريدوه وتلاميذه بين أنحاء الشرق فآتى أكله .

اسماعيل باشا وتعاليم السيد جمال الدين

وكما أن البذرة لا تؤتى الثمرة الشهية إلا إذا غرست فى تربة صالحة فكذلك التعاليم والفلسفة لن تثمر شيئاً إلا إذا بثت فى بيئة صالحة وتحضرت الأذهان والأفهام لاستيعابها. ـــ

* هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صموئيل بيكر .



أحد الفيلة الضخمة يهز جزع الشجرة ليحصل على الثمار *

ومن هنا لا يذكر إنساناً تعاليم السيد جمال الدين الأفغانى وانتشارها فى مصر إلا وذكر معها الأسرة المحمدية العلوية باعتبارها صاحبة الفضل فى تهيئة الجو الصالح الذى ولدت فيه تعاليم الحكيم الكبير .

فالنهضة الفكرية التى وضع أسسها محمد على وتعهدها اسماعيل بكل ما عرف عنه من همة لا تكل ولا تمل كانت خير تربة نبتت فيها تعاليم الفيلسوف الأفغانى وأينعت . ولولا تلك النهضة ولولا ما ازدان به عصر محمد على وبخاصة عصر اسماعيل من فحول أعلام الأدب والبيان كما سردناه عليك فى هذه الصفحات ، وبالاختصار لولا المحيط الفكرى والمستوى العلمى الراقى الذى وجد فى عصر اسماعيل لما أثمرت تعاليم الحكيم الأفغانى شيئا . بل لجاء إلى مصر غريبا وغادرها غريبا دون أن يلتفت إليه أحد أو يقتبس أحد منه شيئاً .

وإذا كانت تعاليم ذلك الفيلسوف العبقرى قد أثمرت فى مصر كما لم تثمر فى أى بلد آخر من البلاد التى أقام فيها ، وإذا صح لتلاميذ السيد جمال الدين الأفغانى أن يفاخروا بما تلقوه من ضروب الحكمة على يد أستاذهم الكبير لجدير بهم ألا ينسوا فضل الخديو اسماعيل. فهو الذى حرص على أن يدنى منهم ذلك الينبوع الصافى وأن يضيف الفيلسوف.

* هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر



منظر لقطيع من الفيلة سقط فى الماء أمام مطارديه من حملة السير صمويل بيكر *

= الأفغانى فى مصر فى الوقت الذى ضاقت به الأستانة . فلولا سماح اسماعيل بحضور السيد جمال الدين لمصر ورضائه عن بقائه فيها ، ولولا النهضة الفكرية الراقية التى ازدان بها عصره الزاهر لما عرفت مصر شيئاً عن فيلسوف الأفغان وكبير حكماء الشرق ولعاش ومات دون أن يفيد أحد شيئاً مما حبته به الطبيعة .

تلك كلمة حق رأينا أن نسوقها قبل الخوض فى تاريخ حياة السيد جمال الدين وهى قبل كل شىء بمثابة دليل على ميل اسماعيل للعلم وحبه الفطرى لتشجيع أهله .

ولادته ونشأته

كانت ولادة المترجم فى سنة ١٨٣٩ بقرية أسعد أباد من قرى كنر من أعمال كابل عاصمة الأفغان . ولا صحة لما تقوله البعض من أن ولادته كانت بايران وأنه كان ايرانياً . وهو ابن السيد صفتر من سادات كنر (الحسينية) كان من بيت شرف وعلم وحسبه أن نسبه يتصل بالسيد على الترمذى المحدث المشهور ثم يرتقى إلى الإمام الحسين ابن على بن أبى طالب (ر) .

ولآل هذا البيت حرمة كبيرة فى الأفغان بسبب نسبها ومقامها الاجتماعى والسياسى . وكانت تملك جزءاً كبيراً من أراضى الأفغان تتمتع فيه بالأمارة والسيادة إلى أن =

* هذه الصورة ماخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



منظر عام للنيل الأبيض بعد عبور الشلال الأخير فى جهة أفودو *

=انتزعه منها «دوست محمدخان» أمير الأفغان وقتئذ. ثم أمر بنقل والد السيد جمال الدين وبعض أعمامه إلى مدينة كابل والمترجم لايزال فى الثامنة من عمره فاستوطنوا بها من ذلك الحين.

واتجهت عناية الوالد إلى تعليم ولده جمال الدين وتثقيفه فتلقى مبادىء العلوم العربية والتاريخ والفلسفة وعلوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه وأصول وكلام وتصوف والعلوم العقلية من منطق وحكمة عملية سياسية ومنزلية وتهذيبية وحكمة نظرية طبيعية وآلهية والعلوم الرياضية كالحساب والهندسة والجبر وهيأة الأفلاك ونظريات الطب والتشريح الخ الخ. ولما كان المترجم تبدو عليه منذ صباه مخايل الذكاء والنجابة وتوقد القريحة وقوة الذاكرة فانه أتم تعلم ماسلف من المواد وهو بعد فى سن الثامنة عشرة من العمر. هذا إلى أنه تعلم أيضا اللغة العربية والأفغانية.

سفره إلى الخارج

ثم عرض له السفر إلى الهند فشخص إليها وأقام بها سنة وبضعة أشهر وهو يدرس العلوم الرياضية على الطريقة الافرنجية الحديثة. فنضج فكره واتسعت مداركه.

وإذ كان شغوفا بالرحلات واستطلاع أحوال الأمم فقد عرض له وهو فى الهند=

* هذه الصورة مأخوذة من كتاب «الاسماعيلية» للسير صمويل بيكر.



مظاهرة عدائية لجانية حيث اضطرت الجنود إلى تكوين مربع *

=السفر إلى الحجاز فقضى سنة يتنقل فى البلاد لتعرف أحوالها إلى أن وصل مكة المكرمة فى سنة ١٨٥٧ وأدى فريضة الحج .

عودته إلى بلاده

ولما عاد إلى بلاده من هذه الرحلة اختاره الأمير محمد دوست خان للعمل فى سلك حكومته . ولما عن لهذا الأمير أن يزحف على مدينة هراة من مدن الأفغان استصحب معه المترجم . وقد ضرب الأمير الحصار على المدينة ولكنه لحق بربه أثناء هذا الحصار الطويل . ثم سلمت المدينة فيما بعد .

وكان لاشتراك المترجم فى هذه الحملة أثره فى حياته المقبلة إذ علمته الشجاعة واقتحام الأخطار والصبر على الخطوب ومقابلتها بصدر رحيب .

فاذا أضفت إلى هـذه الصفات نشأة المترجم فى كنف أبيه ورعايته وتربيته فى مهاد العز وهو هو الذى نشأ من أرومة المجد المزدانة بشرف النسب والتى اعتزت بالأمارة والحكم — زمناً ليس بالقصير — لرأيت السر فيما كان عليه المترجم من عزة النفس التى كانت أبرز صفاته .

ثم تقلد الأمارة ولى عهدها شير على خان سنة ١٨٦٤ وأشار عليه وزيره محمد رفيق خان بالقبض على إخوته ومنهم الأمراء محمد أعظم ومحمد أسلم ومحمد أمين =

* هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بكر .



السير صمويل بيكر وعقيلته وابن أخيه يستقبلون روط جارنا شيخ قبيلة فيرا

واعتقالهم اتقاء الفتنة. وكانت بئس المشورة فان المترجم انضم إلى محمد أعظم واشتعلت نار الحرب الداخلية التي انتهت بفوز محمد أعظم وابن أخيه عبد الرحمن ودخولهما العاصمة وإطلاق سراح أخيه محمد أفضل والد الأمير عبد الرحمن من سجنه والمناداة به أميراً على أفغانستان. ثم توفى محمد أفضل بعد سنة وتقلد الأمارة الأمير محمد أعظم الذى أخذ يبالغ فى إكرام المترجم اعترافا منه بحسن رأيه الذى أدى به إلى التغلب على أخيه شيرعلى خان.

وكادت الأمور أن تستقر لمحمد أعظم بفضل مشورة المترجم وحسن رأيه لولا أن الأمير كان سيء الظن بذوى قرباه مما حمله على تفويض مهمات الأعمال إلى أبنائه الأحداث وهم خلو من التجربة.

فدفع الطيش أحدهم وهو والى قندهار إلى التحكك بعمه شيرعلى وكان لا يزال فى هراة ولم يكن له من الملك سواها. وقد ظن الفتى أنه بتغلبه على عمه يفوز بالحظوة لدى أبيه فيقدمه على سائر اخوته.

فلما التقى بجيش عمه دفعته الجرأة ورعونة الشباب إلى الانفراد عن جيشه فى مائتى جندى اخترق بها صفوف أعدائه. فاستولى عليهم الرعب وتملكتهم الحيرة وكادوا أن يولوا الأدبار.

* هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر.



الزنوج يعانقون السير صمويل بيكر فى غوندوكرو دليلا على شدة اعترافهم بجميله *

ولكن التفاتة واحدة من يعقوب خان قائد شيرعلى أقنعته بانقطاع الفتى عن جيشه فكر عليه وأخذه أسيراً . ومن ثم تشتت جيش قندهار وعاود الأمل الأمير شيرعلى فاستولى على قندهار واستؤنفت الحرب الداخلية من جديد .

وفى هذه الأثناء كانت السياسة الانجليزية تمد شيرعلى بالمال بلا حساب فراح ينفق منها على الرؤساء والعاملين فى جيش أخيه محمد أعظم « فبيعت أمانات ونقضت عهود وجددت خيانات » كما يقول الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده .

وبعد حروب هائلة تمت الغلبة لشيرعلى وانهزم محمد أعظم وابن أخيه عبد الرحمن وفر الأول إلى إيران حيث مات بعد أشهر بمدينة نيسابور بينما فر الثانى إلى بخارى .

ومعذرة للقارىء لذكرنا هذه التفاصيل التى قد يراها خارجة عن الموضوع .

* أخذت هذه الصورة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



كابريقة يمتص دم السير صمويل بيكر بعد اللسعة للحيلولة دون سريان السم *

ولكننا تعمدنا اثباتها التخلص منها إلى أن المترجم برغم زوال الملك الذى شيده لصديقه محمد أعظم لم تحدثه نفسه بالفرار من كابل كلا بل ظل فيها رابط الجأش دون أن يتهيب بطش الأمير المنتصر ودون أن يسعى لتملقه أو نيل رضاه . ومع ذلك فان شيرعلى كان لايجرؤ على مس المترجم بسوء احتراماً لعشيرته وخوف انتقاض العامة عليه .

على أن هذه الحروب الداخلية قد تركت طابعها الدائم فى نفس المترجم . فلقد رأى بعينه أصبع السياسة الانجليزية فيها وأساليبها المترامية الأطراف فى تفريق الكلمة . ومن هنا أشربت نفسه العداء لتلك السياسة بصفة خاصة والمطامع الأوربية عامة. وقد لازمه هذا الكره وصار عقيدة راسخة له طيلة حياته .

* أخذت هذه الصورة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



منظر منضدة طبيعية غريبة من الصخر قائمة فى جهة الرجاف *

رحلته إلى الهند

على أن شيرعلى لم ينفك عن الاحتيال للغدر بالمترجم والانتقام منه بوجه يلتبس على الناس حقه وباطله . فرأى المترجم أن يغادر بلاد الأفغان. فاستأذن الأمير للحج فأذن له على شرط ألا يمر بايران تفاديا من مقابلة محمد أعظم وكان لا يزال على قيد الحياة . وهكذا رحل المترجم عن طريق الهند فى سنة ١٨٦٩ (أى بعد هزيمة محمد أعظم بثلاثة أشهر) .

ولما كانت شهرته قد سبقته إلى تلك الديار لما عرف عنه من الحكمة والعلم فأن الحكومة الانجليزية -ولم يكن يخفى عليها عداؤه لسياستها وما يحدثه بجيئه إلى الهند من إثارة روح الهياج فى النفوس وبخاصة لأن الهند كانت ماتزال فى حالة قلق وفتن بالرغم من اخماد فتنة سنة ١٨٥٧ المشهورة - رأت تلك الحكومة أن تستقبله عند الحدود الهندية بمنتهى مظاهر الحفاوة والاكرام ولكن دون أن تسمح له بأطالة مدة إقامته . كما أنها لم تأذن للعلماء بالاجتماع به إلا تحت أعين رجالها . فقضى فى ربوع الهند شهرا ثم أنزلته الحكومة أحدى سفنها فأقلته إلى السويس .

زيارته لمصر لأول مرة

وصل المترجم إلى مصر فى سنة ١٨٧٠ ولم تكن نيته فى أول الأمر الأقامة بها لأنه كان يقصد مكة كما قدمنا. ولكن الناس ما كادوا يسمعون بقدمه حتى هرعوا إليه

* هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



الأمير حليم باشا المطالب بالأريكة الخديوية

= لينهلوا من ذلك المورد العذب وتردد السيد على الأزهر وكان يسكن بيتاً بخان الخليلي . ومن ثم تحول عزمه عن زيارة الحجاز ولبث فى مصر ٤٠ يوما قصد بعدها الاستانة .

رحلته إلى الاستانة

وما أن نزل السيد إلى الاستانة حتى لقى كل حفاوة واكرام من حكومة السلطان عبد العزيز لأن الصدر الأعظم عالى باشا أحد ساسة الأتراك الأفذاذ كان يعرف مكانته . ثم أقبل عليه القوم بما لم يسبق له مثيل وأصبح مقربا من الأمراء والوزراء والعلماء وتناقلوا الثناء عليه . ولم تمض ستة أشهر حتى أرادت الحكومة الانتفاع بمواهبه فعينته عضوا فى مجلس المعارف فأدى مهمته بأمانة وحزم واقترح طرقا لتعميم المعارف لم يقره عليها زملاؤه وبينها ما أساء شيخ الأسلام وقتذاك لأنها كانت تمس شيئا من رزقه فأضمر له السوء .

وما أن وافى شهر رمضان سنة ١٢٨٧ ﻫ (١٨٧١) حتى رغب إليه مدير دار الفنون أن يلقى فيها خطابا للحث على الصناعات . ولكن المترجم اعتذر بضعفه فى اللغة التركية . فالح عليه المدير فكتب خطابا طويلا عرضه قبل إلقائه على نخبة من أصحاب المناصب العالية فأقروه واستحسنوه .

فلما كان اليوم المعين هرع الناس لسماع الخطاب وبينهم كثير من الوزراء ورجالات =

ذلك الحين إحدى قواعد الاسلام (كذا!) وظاهرة من ظواهر الملكية

ـــ الحكومة وأقطاب أهل العلم وأرباب الصحف . فلما اعتلى السيد المنبر وشرع يسحر الألباب ببلاغته بدأ بعض المشايخ يستنكرون شيئا من آرائه . واتصل الخبر بشيخ الاسلام ـ وكان متغيرا عليه كما قدمنا ـ فرماه بالزيغ فى عقيدته وأوصى وعاظ المساجد بذكر كلامه محفوفا بالتفنيد والتنديد مما غضب له السيد وطلب إلى الحكومة محاكمته .

ولكن الحكومة انحازت إلى شيخها وطلبت رحيل السيد عن الآستانة بضعة أشهر ريثما تهدأ الخواطر ويسكن الاضطراب ثم يعود إليها إن شاء . فرحل عنها ورغب إليه بعض من كان معه التحول إلى مصر فعمل برأيهم وهبط إلى القاهرة فى أول المحرم سنة ١٢٨٨ هـ (٢٢ مارس سنة ١٨٧١) .

عودته إلى مصر وإقامته بها

ولم يكن فى نيته الاقامة فى مصر هذه المرة بل جاءها قصد التفرج على مناظرها واستطلاع أحوالها . ولكن رياض باشا ـ كبير وزراء اسماعيل باشا وقتئذ ـ مازال يرغب إليه البقاء فى مصر وأجرت عليه الحكومة راتبا شهريا مقداره ١٠٠٠ قرش نزلا أكرمته به لا فى مقابل عمل يقوم به . واهتدى إليه كثير من طلبة العلم وحاموا على التدريس .

وكان أسلوبه فى التدريس مخاطبة العقل وتمزيق حجب الأوهام وحمل تلامذته على العمل فى الكتابة وإنشاء الفصول الأدبية والحكمية والدينية والاجتماعية والسياسية فتقدم فى عهده فن الكتابة فى مصر . وظهرت على يده نهضة فى العلوم والأفكار أنتجت أطيب الثمرات . ولم تكن حلقات دروسه ومجالسه قاصرة على طلبة العلم بل كان يؤمها كثير من العلماء والموظفين والأعيان .

وهنا لابد من التنويه بفضل الخديو اسماعيل فى استبقاء ذلك الينبوع الصافى فى عاصمة الديار المصرية اذ لولا بعد نظره لجاء السيد إلى مصر وغادرها دون أن يحس أو ينتفع به أحد . ثم لا تفوتك أهمية صنيع الخديو هذا . فلقد رأيت كيف بارح المترجم الاستانة وبأية طريقة فسرعان ما تلقفه اسماعيل باشا وبذا ظهر بحق بمظهر حامى العلم فى شخص الفيلسوف الأفغانى . وهو عمل لا يخفى ماله من حسن الأثر وطيب الأحدوثة إذ هو يرى الناس بحق أن مصر تأوى العلماء والحكماء حين تضيق بهم « دار الخلافة » وأن ـــ

وأن ينضم إلى الدول المسيحية لألغائه بصفة دولية. ولكن اسماعيل ذهب إلى

= عاهل مصر العظيم أولى من السلطان بالثناء والتقدير لأنه يفسح للعلم رحابه ويوطى له فى وادى النيل أكنافه .

أثر المترجم فى السياسة

قد رأيت أن المترجم عاد إلى مصر من الاستانة فى أوائل سنة ١٨٧١ . فما أن حانت سنة ١٨٧٦ حتى بدأت مظاهر التدخل الأجنبى أولا بابتياع انجلترا أسهم مصر فى قناة السويس ثم قدوم بعثة كيف الانجليزية لفحص المالية المصرية ثم عجز الحكومة عن أداء أقساطها وما تلا ذلك من انشاء صندوق الدين فى مايو سنة ١٨٧٦ . فلم يكن عجيبا منه أن يشن الغارة الشعواء على السياسة الانجليزية وأن يحمل عليها الحملات العنيفة.

وكان قد انخرط فى سلك الجمعية الماسونية ثم أصبح من الرؤساء فانشأ له محفلا وطنيا تابعا للشرق الفرنساوى دعا إليه مريديه من العلماء والوجهاء حتى بلغ عددهم أكثر من ٣٠٠

ونظرا لعداء المترجم للسياسة الانجليزية وتعاظم خطر محفله خشى قنصل انجلترا العاقبة وخاصة بعد مارآه من ظهور روح المعارضة واليقظة فى مجلس الشورى على يد نواب من تلاميذ المترجم وعلى رأسهم عبد السلام بك المويلحى (باشا) فوشى به إلى الحكومة وبث الرقباء فى المحفل فسعوا فيه فسادا .

ولسنا نغالى إذا قلنا إن ما كان يبثه المترجم من روح التذمر ضد السياسة الانجليزية هو الذى هيأ الأفكار للثورة العرابية المشؤومة . فهو بلا ريب أبو الثورة من الوجهتين الفكرية والروحية ثم إن كثيرا من أقطابها من تلاميذه أو مريديه هذا فضلا عن أنها فى ذاتها استمرار للحركة السياسية التى كان لجمال الدين يد فى ظهورها على عهد اسماعيل. وأغلب الظن أنه لو بقى هو واسماعيل فى مصر حين نشوب هذه الثورة لكان الأرجح أن يمداها بآرائهما الحكيمة وتجاربهما الرشيدة ويتنكبا بها طرق الزلل والخطل . ولكن شاءت الأقدار أن يكونا بعيدين عن مصر فتخسر البلاد نصيحتهما الغالية .

بين جمال الدين وتوفيق باشا

ولا بد من الوقوف هنيهة هنا لنطلع القارئ على ناحية أخرى من نواحى أخلاق اسماعيل السامية وكيف أنه كان أوسع صدرا من أن يضيق بالعلماء والحكماء مهما أسرفوا فى إساءته .

مدى أبعد من مجرد إصدار الأوامر العالية ونجح فعلا فى طعن هذه التجارة



عبد السلام باشا المويلحى *
عضو مجلس شورى النواب سابقاً

= فإن الفيلسوف الأفغانى اندفع فى سياق حملته على السياسة الانجليزية إلى التنديد باسماعيل وبسياسته. ثم غره ما رآه من ميل الأمير محمد توفيق إلى الشورى واستمراره وهو ولى العهد على انتقاد سياسة أبيه مما جعل الفيلسوف يتوسم فيه الخير. وقد اجتمعا مرة فى محفل الماسونية وتعاهدا على إقامة دعائم الشورى.

ومع أن اسماعيل كان على علم بهذا كله لم يشأ أن يتحمل وزر إبعاد المترجم عن مصر رغم الحاح قنصل انجلترا وقتذاك.

ولكن يأبى القدر الساخر إلا أن يتنكر له توفيق باشا عند ارتقائه الأريكة وأن يصغى إلى ما كان يروجه عنه من الوشايات رسل الاستعمار الأوربى فى مصر لأنهم كانوا ينقمون من السيد روح الثورة والدعوة إلى الحرية والدستور (وهى المبادىء التى تم الاتفاق عليها بينه وبين الأمير محمد توفيق فى محفل الماسونية من قبل.)

والآن فاسمع ماحدث.

إبعاد السيد جمال الدين عن مصر

فإن الخديو توفيق - بعد اصغائه لوشايات الواشين - عقد مجلس الوزراء برئاسته وأصدر أمرا بنفى السيد جمال الدين.

* مستعارة من سعادة احمد شفيق باشا

المرذولة طعنة نجلاء أصابت الصميم معرضاً فى ذلك نفوذه وعرشه للخطر.

= لا بل إن النفى تم بشكل هو غاية القسوة والغدر. فلقد ذكرت جريدة الأهرام الصادرة فى صبيحة ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٩ (الموافق ٨ رمضان سنة ١٢٩٦) أنه قبض على السيد فى ليلة الأحد سادس رمضان وهو ذاهب الى بيته هو وخادمه الأمين (أبو تراب) وقد حجزا فى الضبطية ولم يتمكن حتى من أخذ ثيابه. وعند الصباح حمل المترجم فى عربة مقفلة إلى محطة السكة الحديدية ومنها نقل تحت المراقبة الشديدة إلى السويس وأنزل منها إلى باخرة أقلته إلى بومباى.

ومن بومباى قصد المترجم إلى حيدر أباد الدكن حيث كتب فيها رسالته « الرد على الدهريين ».

ولما هبت ريح الثورة العرابية بمصر استدعته السلطة البريطانية من حيدر أباد إلى كلكته وألزمته الاقامة بها إلى أن أخمدت ريح هذه الثورة.

رحلته إلى أوروبا

وإصدار جريدة العروة الوثقى

عقب احتلال انجلترا لمصر أبيح للمترجم السفر إلى أى بلاد أراد. فسافر إلى أوربا وقصد أولا لندن. ثم غادرها بعد أيام إلى باريس حيث وافاه إليها تلميذه الأكبر الشيخ محمد عبده وكان منفيا فى بيروت عقب إخماد الثورة.

وفى باريس شرع الحكيمان يصدران مجلة العروة الوثقى نسبة إلى جمعية العروة الوثقى التى أنشئت فى مصر لحث الأمم الاسلامية على التضامن ومجاهدة الاستعمار وتحرير مصر والسودان. وكانت تضم رهطا كبيرا من أقطاب العالم الاسلامى وكبرائه. وقد كلفتهما الجمعية باصدار تلك المجلة لتكون لسان حالها.

وقد قامت الموانع دون استمرارها فتعطل صدورها بعد أن ظهر منها ثمانية عشر عددا. وسلخ جمال الدين ثلاث سنوات فى باريس نشر خلالها المباحث السياسية والمقالات الهامة فى اعتداء الدول الأوربية على البلاد الاسلامية.

مقابلته لرينان الفيلسوف الفرنسى

وجرت له أبحاث فلسفية مع الفيلسوف الفرنسى رينان فى موضوع « العلم والاسلام » مما جعل رينان يكبر فيه عبقريته وسعة علمه وقوة حجته حتى قال عنه « كنت أتمثل =

لأن النخاسة كانت اهم لمصر منها لأية دولة شرقية أخرى . فلقد كان نهر النيل والبحر الأحمر هما المنفذان الطبيعيان اللذان يصل خصيان أواسط

= أمامى عندما كنت أخاطبه ابن سينا أو ابن رشد أو أحد من اساطين الحكمة الشرقيين .»

وسافر إلى لندن بدعوة من اللورد تشرشيل واللورد سلسبرى وسألاه عن رأيه فى المهدى وظهوره إذ ذاك . ثم عاد إلى باريس حيث تبوأ مقعده اللائق به بين فلاسفتها وعلمائها .

أسفار المترجم

وتاقت نفسه إلى زيارة نجد ولكنه عدل عنها إلى ايران بدعوة من الشاه . فلما بدأ ينحرف عنه أدرك المترجم ذلك فاستأذنه فى السفر فأذن له . فقصد إلى موسكو فبطرسبرج وتعرف بعلماء الروس وفلاسفتهم وكبار ساستهم ونشر فى جرائدها المقالات الطنانة فى سياسة الأفغان وتركيا وانجلترا وكان لها أكبر دوى وقتئذ فى عالم السياسة .

وفى سنة ١٨٨٩ افتتح المعرض العام فى باريس فعاد اليها المترجم ولكن سرعان ماسافر بصحبة الشاه إلى ايران فقربه إليه ثم وشوا إليه فيه فتغير عليه فغادر البلاد إلى البصرة ومنها شخص إلى لندن حيث أقبل عليه كبار الأنجليز وساستهم ثم أصدر مجلة سماها ضياء الخافقين حمل فيها على الشاه إلى أن قتل سنة ١٨٩٦ بيد فارسى أهوج وقيل إن للسيد يدا فى مقتله .

ثم سافر فى سنة ١٨٩٠ إلى تركيا بدعوة من الباب العالى بواسطة رستم باشا سفيرها فى لندن على أن يتشرف بمقابلة السلطان ثم يعود .

وهناك طابت له الأقامة وقوبل من الخليفة أحسن استقبال وأغلب الظن أن جلالته كان يرمى إلى استخدامه فى ترويج سياسة الجامعة الأسلامية . وقد أنزله السلطان فى قصر نخم وخصص له مرتبا شهريا قدره ٧٥ ليرة عثمانية مما اغتاظ له الشيخ أبو الهدى الصيادى ودفعه إلى الوشاية به لدى السلطان حتى تنكر له وأمر بأن تحيط به الجواسيس تحصر عليه غدواته وروحاته وترقب حركاته وسكناته . وأمر السلطان بتشديد المراقبة عليه فلا يقابله أحد إلا بارادته (السلطان) حتى أصبح كالأسير فى قصره .

مرضه ووفاته

ثم مرض بالسرطان فى فكه فى أواخر سنة ١٨٩٦ فأجريت له عملية جراحية ولم تنجح . وما هى إلا أيام قلائل حتى فاضت روحه فى صبيحة الثلاثاء ٩ مارس سنة ١٨٩٧ ومات =

إفريقيا عن طريقهما إلى الأناضول وبلاد العرب . ومن بين المائتى ألف من هؤلاء الخصيان الذين كان يهلك نحو ثلاثة أرباعهم فى أثناء جلبهم ونقلهم ، كان الربع الآخير يمر سنويا بطريق الشقاء هذه . ومع ذلك

= سمعت الحكومة العثمانية بوفاته حتى بادرت بضبط أوراقه وأمرت بدفنه ولا يزال قبره هناك بالقرب من نشان طاش . ومما يؤسف له أن أحدا من عظماء المسلمين لم يفكر فى البحث عن قبره إلى أن قيض الله المستركراين من سراة الأمريكان فراح يبحث عن القبر فى الاستانة فى سنة ١٩٢٦ حتى عثر عليه وأقام عليه شاهدا فخما من الرخام نقش عليه اسم السيد . فكان عمله هذا دليلا على أن الشرق ما تزال تنقصه صفة تقدير عظمائه وزعمائه .

صفاته وأخلاقه .

كان المترجم أسمر اللون أشبه بأهل الحجاز خفيف العارضين مسترسل الشعر بجبة وسراويل سوداء تنطبق على الكاحلين وعمامة صغيرة بيضاء على زى علماء الاستانة .

وكان قليل الطعام لايتناول إلا وجبة واحدة فى النهار ويعتاض عما يفوته من الطعام بما يشربه من منقوع الشاى مراراً فى اليوم .

وكان أديب المجلس كثير الاحتفاء بزائريه على اختلاف طبقاتهم ينهض لاستقبالهم ويخرج لوداعهم ولا يستنكف من زيارة أصغرهم على امتناعه من زيارة أكبرهم اذا ظن فى زيارته تزلفا .

وكان حر الضمير صادق اللهجة عفيف النفس وديع الأخلاق مع أنفة وعظمة . ثابت الجأش حتى ليساق إلى القتل فيسير إليه كما لو كان سائرا فى طريق الظفر . وكان راغبا عن حطام الدنيا لايدخر مالا ولايخاف عوزا . وكان حاد الطبع ولعل ذلك من أثر الوشايات وماتحمله فى سبيلها من الأذى .

وكان واسع الاطلاع فى العلوم العقلية والنقلية ويتقن من اللغات الأفغانية والفارسية والعربية والتركية والفرنسية هذا إلى إلمامه بالانجليزية والروسية وكان كثير المطالعة لم تفته مطالعة كتاب كتب بالعربية أوالفارسية فى آداب الأمم وفلسفة أخلاقهم .

آمله وأعماله

ويظهر أن الغاية التى وضعها نصب عينيه كانت توحيد كلمة الاسلام وجمع شتات =

فبعد التشويه وما يتجشمونه من هوان أسواق النخاسة لم يكن يعيش منهم سوى نحو عشرة آلاف تقذف بهم المقادير إلى حياة السعادة النسبية فى

= المسلمين فى سائر أقطار العالم فى حوزة دولة إسلامية واحدة تحت ظل الخلافة العظمى . وفى سبيل تحقيق هذه الغاية انقطع عن العالم فلم يتخذ زوجة ولا التمس كسبا ولكنه مع ذلك لم يوفق إلى تحقيق غايته فقضى وكأن لسان حاله يقول :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن

بقية أعلام الأدب

فى عصر اسماعيل باشا

لم يكن فى نيتنا عند ما كتبنا عن الحكيم الأفغانى أن نطيل الكتابة ولكن الموضوع جد شيق والبحث طريف فلذا ذكرنا زبدة حياته . ونعود الآن إلى بقية أعلام الأدب فى عصر اسماعيل مع ملاحظة ان كتابنا الحالى ينتهى بنهاية عهد ذلك الخديو فلذا نؤثر الايجاز فى ترجمة الأعلام الذين لعبوا دورا مهما فيما بعد عصره كالأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ومحمود باشا سامى البارودى وابراهيم بك المويلحى وغيرهم وغيرهم .

الشيخ حسن المرصفى توفى سنة ١٨٨٩

وهو من فحول الأدباء فى عصر اسماعيل وانقطع للتدريس بالأزهر وكان قوى الحافظة حتى أنه لا يسمع شيئا إلا ويحفظه . وقد تعلم اللغة الفرنسية وألف كتبا فيها .

محمود باشا سامى البارودى

١٨٤٠ — ١٩٠٤

وهو باكورة الأعلام فى دولة الشعر الحديثة والذى جمع إلى دقة المعانى جزالة الألفاظ حتى أنك إذا قرأت شعره تخيلت أنك تقرأ لعنترة أو لطرفة . كانت نشأته الحربية فى جزيرة كريت كامر بك ثم أصبح اسمه مقترنا بالثورة العرابية حيث لعب دورا مهما فيها ولذا لا نرى محلا للاسهاب فى ترجمته .

عبد الله افندى أبو السعود

١٨٢٠ — ١٨٧٨

اذا ذكر رجال الصحافة السياسيين فى تاريخ مصر ذكر المترجم فى طليعتهم وهو طرابلسى الأصل وإن كانت ولادته فى دهشور بالجيزة . وهو من تلاميذ رفاعة بك =

بيوتات الشرق الأدنى . فهذه التجارة لم تكن والحالة هكذا مصدراً من



الأستاذ الأمام الشيخ محمد عبده

= رافع . حضر بالأزهر وكان يتكلم العربية والفرنسية والأيطالية ووصل فى عهد اسماعيل إلى ناظر قلم الترجمة واستاذ التاريخ بدار العلوم .

وكان له نصيب فى ترجمة « الكود » أى قانون نابليون وله عدة مؤلفات . وفى سنة ١٨٧٦ عين قاضياً بمحكمة الاستئناف .

الأستاذ الأمام الشيخ محمد عبده

وهو « أكتب العلماء وأعلم الكتاب » كما قال عنه السيد مصطفى المنفلوطى . نشأ فى عصر اسماعيل واتصل بالسيد جمال الدين منذ أول يوم هبط فيه مصر . ولذا انطبع بطابعه . وقد كان فى أثناء الثورة العرابية كالمنار الذى يهتدى برأيه فى مدلهمات الأمور . وهو بلا جدال إمام المصلحين وصاحب الوقفات المشهورة فى الذب عن الأسلام تشهد بذلك ردوده على الوزير الفرنسى هانوتو . وقد توفى رحمه الله سنة ١٩٠٥ فى وقت أحوج ماتكون فيه البلاد الى رأيه النير وعزيمته الوثابة .

ابراهيم المويلحى بك

١٨٤٦ — ١٩٠٦

أستاذ المدرسة الحديثة فى الأدب والأنشاء . عربى الأصل من أسرة المويلحى المعروفة التى نشأت فى جهة « المويلح » من ثغور الحجاز التابعة لمصر وكان جده السيد

مصادر الثروة الخاصة فحسب بل كانت كذلك جزءا لا يتجزأ من نظام



ابراهيم بك المويلحي

ابراهيم المويلحي من كبار موظفي الحكومة في عهد محمد علي ميالا للأدب والأدباء. فورث المترجم هذا الميل عنه . أما أبوه فكان من سراة مصر وله بيت تجارى اشتهر بصناعة الحرير وتجارته .

وترعرع المترجم في مهاد العز والنعمة ولما مات ابوه تولى تجارة أبيه مع أخيه عبد السلام المويلحي ولكن قلما يصلح الأدباء للتجارة . ولذا تدهورت حالة الأسرة إلى أن أدركها الخديو اسماعيل بعطفه المشهور فأنعم على الأخوين بما يكفي من الأموال لانقاذ الأسرة من الديون . ثم اختار ابراهيم للقضاء بمحكمة الاستئناف وأنعم عليه بالرتبة الثانية كما أنعم على عبد السلام بهذه الرتبة وأبقاه يزاول التجارة استبقاء لهذا البيت التجارى القديم .

ولما كان المترجم قد ورث الميل إلى الأدب عن جده فقد اشترك مع محمد بك عثمان جلال في اصدار جريدة نزهة الأفكار ، ثم أصبح من تلاميذ السيد جمال الدين وكان له ضلع في الحركة السياسية في عهد اسماعيل وعين سكرتيراً لاسماعيل راغب باشا وزير المالية في الوزارة الوطنية .

ويظهر أن عطف اسماعيل على بيت المويلحي جعل ابراهيم يخلص له الاخلاص الكلي . ولذا لم يتردد المترجم في ملازمة الخديو سنوات عدة بعد رحيله عن مصر ومن هناك قصد الاستانة فأكرمه السلطان عبد الحميد وعينه عضوا في مجلس المعارف وعاد بعد تسع سنوات إلى مصر يكتب المقالات الشائقة في الأدب والسياسة والاجتماع . وأنشأ جريدة مصباح الشرق الاسبوعية التي لم تبلغ جريدة ما بلغته من المكانة والمرتبة. وتوفي في يناير سنة ١٩٠٦ .

الملكية العامة والخاصة فيها. لأن مصر كانت كلما أعوزتها الحاجة الى



الشاعرة البليغة السيدة عائشة عصمت تيمور

محمد بك عثمان جلال ١٨٢٨ — ١٨٩٨

واضع أساس القصة الحديثة فى الأدب المصرى وتلميذ رفاعة بك رافع. وقد نبغ فى العلوم مع الميل إلى الأدب والتعريب وكذا الفن الروائى مع تمصير مايعربه. وأشهر كتبه «العيون اليواقظ» وهو تعريب شعرى لروايات لافونتين ومواعظه وهو أيضاً معرب «ترتوف» رواية موليير الشهيرة وسماها «الشيخ متلوف» التى مثلت أكثر من مرة على المسارح المصرية.

وقد أدرك عصر محمد على وخلفائه وعين سنة ١٨٨١ قاضياً فى المحاكم المختلطة وتوفى عن ٧٠ سنة فى سنة ١٨٩٨

عائشة عصمت تيمور ١٨٤٠ — ١٩٠٢

وقد وصفتها الآنسة مى بأنها «طليعة اليقظة النسوية» فى تاريخ مصر الحديث وأول من نبغ من المصريات فى الشعر والأدب. وهى من أسرة عريقة كان أبوها اسماعيل باشا تيمور من كبار الحكام فى عهد عباس الأول وسعيد واسماعيل وأخوها العلامة المرحوم احمد باشا تيمور وقد لحظ أبوها ميلها إلى الأدب قبل بلوغها العاشرة من السن فعنى بتثقيفها وأحضر لها أستاذين لتأخذ عنهما الأدب والعلوم. ونظمت الشعر وهى بعد فى سن الثالثة عشرة وأكبت على القريض حتى استطاعت أن تنظمه باللغات العربية والفارسية والتركية.

وتأهلت فى سن الرابعة عشرة فشغلت عن الأدب بالحياة الزوجية إلى أن عادت إليه بعد ولادة ابنتها توحيدة.

المجندين أو إلى زيادة الأيراد وجدت الطريق مفتوحاً أمامها لتحقيق

= ثم توفى والدها فى سنة ١٨٨٢ فتفرغت للشعر والأدب حتى رسخت قدمها فيهما . ولما خطفت المنية ابنتها توحيدة رثتها بقصيدة تعتبر من عيون الشعر ، ثم عكفت على الحزن والبكاء سبع سنين عددا جادت فيها قريحتها بأروع القصائد التى تصف لنا مبلغ حب الأم لفلذة كبدها . وكانت وفاتها سنة ١٩٠٢ بعد أن أخرجت ديوانها العربى « حلية الطراز » و « شكوفة » وهو ديوان تركى فارسى و « نتائج الأحوال فى الأقوال والأفعال » وهى قصة أدبية كتبت باسلوب المقامات الحريرية .

عبد الله باشا فكرى سنة ١٨٣٤ — ١٨٨٩

من أعلام الأدب فى عصر اسماعيل ولد فى مكة المشرفة وقد تخرج أبوه محمود افندى بليغ من مدارس محمد على وأصبح من كبار المهندسين واشترك فى حرب المورة حيث عقد فيها على والدة المترجم وعاد بها إلى الحجاز . فلما أولدها المترجم أسماه عبد الله وعاد به إلى مصر فأدخله الأزهر حيث درس اللغة والحديث والتفسير والمنطق واللغة التركية.

وانتظم فى سلك المناصب الحكومية ودخل معية سعيد باشا حيث كان يتولى كتابة الانشاءات الديوانية بالعربية والتركية إلى أن بزغ عصر اسماعيل فعهد إليه بملاحظة تعليم أنجاله الأمراء .

وفى سنة ١٨٧١ عين وكيلا للمعارف واستمر فى منصبه إلى سنة ١٨٨١ حيث عين كبير كتاب مجلس النواب فى عهد الثورة العرابية .

ولما ألف محمود باشا سامى البارودى وزارته سنة ١٨٨٢ اشترك فيها المترجم كوزير للمعارف فكان عضوا فى وزارة الثورة التى غضب عليها الخديو . وقد قبض عليه بتهمة الاشتراك فى الفتنة ثم أطلق سراحه بعد ثبوت براءته . وعفا عنه توفيق باشا فيما بعد وانتدبته الحكومة لرئاسة الوفد المصرى فى مؤتمر استكهلم . فسافر إليها مع نجله أمين باشا فكرى ومرض فى الطريق . ثم اشتدت وطأة المرض بعد عودته فتوفى سنة ١٣٠٧ هـ

الشيخ عبد الهادى نجا الأبيارى ١٨٤١ — ١٨٨٨

وهو الذى وصفه على باشا مبارك فى خططه بأنه الحبر الهمام وفخر العلماء والأعلام الامام الأديب واللوذعى الأريب الشاعر الناثر الحافظ الماهر العلامة الشيخ عبد الهادى نجا كان من كبار الأدباء والكتاب . تلقى العلم فى الأزهر وعهد إليه اسماعيل بتثقيف أبنائه ومنهم الأمير محمد توفيق .

إحدى الغايتين بشن الغارة على خصيان السودان . وقد كان الباشوات


الشيخ على الليثى نديم اسماعيل باشا


الأديب الكبير السيد صالح مجدى بك

ومن تلامذته الشيخ حسن الطويل وغيره . ولما تولى توفيق باشا الأريكة قربه إليه وجعله إماماً للمعية ومفتيها ، وظل يشغل هذا المنصب إلى وقت وفاته .

وممن تلقى العلم عنه الأديب أحمد فارس الشدياق والشيخ ناصيف اليازجى والشيخ ابراهيم الأحدب . وقد بلغت مؤلفاته نحو ٤٠ كتاباً فى الأدب واللغة .

السيد عبد الله نديم ١٨٤٣ — ١٨٩٦

خطيب الثورة العرابية وأحد تلاميذ السيد جمال الدين الأفغانى . كان كاتباً وشاعراً وأديباً وخطيباً يهز أعواد المنابر ويبعث الحمية فى نفوس سامعيه . ولد بالأسكندرية ولعب دوراً مهماً فى الثورة العرابية . وكان ينشر رسائله فى جريدتى مصر والتجارة ثم أنشأ جريدة الأستاذ .

الشيخ على الليثى

شاعر الخديو اسماعيل وشيخ الندماء فى عصره . وكان أديباً حاضر البديهة طيب العشرة حلو الحديث خفيف الروح عينه الخديو منشئاً للمعية وكان يستصحبه فى غدواته وروحاته .

***

ونحسب أن المقام لايتسع لأكثر من ذكر أسماء الأدباء الآخرين أمثال أديب اسحاق ١٨٥٦ — ١٨٦٥ والشيخ على أبو النصر المنفلوطى والسيد صالح مجدى بك ١٨٢٧ — ١٨٨١ وابراهيم مرزوق ١٨١٧ — ١٨٦٦ ومحمود صفوت الساعاتى واحمد بك عبد وتادرس بك وهبى (وقد توفى أخيراً) والشيخ حمزه فتح الله (وهو قريب العهد بنا) وأمين باشا فكرى وغيرهم وغيرهم ممن ازدان بهم عصر اسماعيل . وكانوا من دعائم النهضة الفكرية فى عهده .

السودانيون يتناولون ثمن هذه الخصيان أو على الأصح أنهم افتدوا أنفسهم



المهندس الكبير حسين حسنى باشا
مدير المطبعة الأميرية سابقا



المهندس المعروف محمد مظهر باشا

علماء الهندسة والرياضيات

وممن نبغ فى عصر اسماعيل من علماء الهندسة والرياضيات على باشا مبارك ومصطفى باشا بهجت ومحمد مظهر باشا واحمد فايد باشا وحسن باشا فهمى المعمار واحمد بك السبكى وحسن بك نور الدين وحسين حسنى باشا .

وليس يسعنا أن نمر بأسماء هؤلاء الأعلام دون أن نقف برهة أمام اسم محمود باشا الفلكى وترى صورته فى ص٣٩٥ باعتباره أنبغ من أنجبتهم مصر الحديثة فى الفلك والرياضيات .

محمود باشا الفلكى ١٨١٤ — ١٨٨٥

كانت ولادته بالحصة من أعمال الغربية فأدخله أخوه مدرسة الأسكندرية سنة ١٨١٤ ومنها انتقل إلى مدرسة المهندسخانة بمصر فبدأت عليه مخايل الذكاء وحسن الاستعداد حتى فاق أقرانه وكان أول الناجحين فعين استاذاً مساعدا للعلوم الرياضية بها . وكان من تلاميذه إذ ذاك على مبارك . ثم أكب على دراسة اللغة الفرنسية حتى حذقها وحببه ميله الأصلى للعلوم الرياضية والفلكية إلى مطالعة ما كتبه علماء الفرنسيس فى الفلك ونقله إلى تلاميذه . ومن بين تلاميذه وقتئذ اسماعيل الفلكى .

وإلى محمود الفلكى يرجع الفضل فى وضع التقاويم السنوية وكان أول تقويم وضعه فى سنة ١٠٦٤ وفيه مقارنة بين التاريخ الهجرى والميلادى والقبطى وبين فيه مواقع الشمس والقمر فى تلك السنة . ومن ذلك الحين أصبح محمود يعرف بالفلكى ولازمه هذا اللقب إلى حين وفاته .

بما كانوا يقدمونه منهم (الخصيان) . وكان الدلالون وما جوروهم هم فى

وصحت نية عباس الأول فى سنة ١٨٥٠ على إعادة تنظيم رصدخانة بولاق التى أنشأها محمد على . فأوفد المترجم إلى باريس ومعه حسين ابراهيم واسماعيل مصطفى الفلكى للتخصص فى الفلك وكان الأول مدرساً فى المهندسخانة كما قدمنا والآخران قد تخرجا منها . ثم مكث المترجم تسع سنوات فى العاصمة الفرنسية استكمل فيها دراسته الفلكية وزار خلالها دور الرصد فى معظم أنحاء أوربا ونشر عدة مباحث فلكية ووضع أثناء دراسته فى باريس عدة رسائل مهمة قدم بعضها إلى المجمع العلمى بفرنسا.

وفى سنة ١٨٥٩ أى فى عهد سعيد عاد المترجم حاملا أكبر الشهادات فأنعم عليه الباشا برتبة الميرالاى وكلفه بوضع خريطة مفصلة عن القطر المصرى فاضطلع بالمهمة خير اضطلاع .

ثم عهد إليه سعيد بالذهاب إلى دنقلة لتحقيق كسوف الشمس الكلى فوضع رسالة عنها قدمها لسعيد باشا وإلى أكاديمية العلوم فى باريس فحازت استحسان العلماء . وقد انتهز فرصة وجوده فى السودان فحقق المواقع الفلكية على النيل .

وإلى محمود الفلكى يرجع الفضل فى تخطيط معالم الاسكندرية القديمة وموقع سورها القديم . وله فى ذلك رسالة بالفرنسية طبعها سنة ١٨٦٦ بين فيها أسوار المدينة وشوارعها ومراسحها ومكتبتها مما لم يسبقه إليه عالم عصرى من الافرنج . وهذه المباحث مؤسسة على ماقام به من عمليات الحفر والتنقيب ولذا كانت رسالته المذكورة أكثر قيمة وأعظم أثرا مما دونه غيره فى هذا الموضوع من مهندسى الحملة الفرنسية . لأن أولئك جميعاً اكتفوا بذكر المشاهدات ودونوا آراء الغير مما نقل عن مؤرخى الافرنج والعرب بعكس محمود الفلكى الذى استند فى ابحاثه إلى ما قام به شخصيا من أعمال التنقيب والحفر .

وإذا علمت أن مباحث الفلكى وما قام به من أعمال التنقيب كان فى عهد اسماعيل وقبل أن تغطى الاسكندرية بالمبانى الحديثة وتضيع معالم الآثار القديمة أدركت ما العمله الذى كلفه جهوداً شاقة من القيمة الفنية ولذا جاءت خريطته التى وضعها عن الاسكندرية القديمة من أبدع ما رسمه العلماء والمهندسون . ولا غرابة أن تكون مرجع علماء أوربا فى ابحاثهم .

وقد ذكر لنا الأستاذ الرافعى بك أن الفلكى خالف ما ذهب إليه علماء الحملة الفرنسية فى معالم الاسكندرية القديمة .

الواقع حكومة السودان والحاكمون بأمرهم فى ربوعه . وحدث مرة أنهم



اسماعيل باشا محمد رئيس مجلس شورى القوانين سابقا



اسماعيل باشا الفلكى

= ومن ألطف ما ذكر فى صدد المترجم أنه وضع رسالة عن مقاييس الأهرام والغرض الرئيسى من تشييدها وتناسبها مع كوكب الشعرى .

وقد ذكر الميرالاى محمد مختار بك (باشا) فى هذا الصدد وكان حاضرا مع الفلكى وقت شروعه فى أخذ هذه المقاييس وموقعها من التناسب الفلكى أن الأهرام مقابل كوكب الشعرى عند طلوعه . فكأن غرض بانيها هو أن تكون كمزولة لمعرفة شم نسيم العلماء ولتعريض جثث المدفونين فيها لموافاة صعود كوكب الشعرى ليسبغ عليها الرحمة والرضوان باعتباره أحد معبودات قدماء المصريين .

وفى سنة ١٨٧١ عين ناظراً لمدرسة المهندسخانة وناب بصفته وكيلا للجمعية الجغرافية عن الحكومة المصرية فى المؤتمر الجغرافى الذى عقد فى باريس سنة ١٨٧٥ والمؤتمر الآخر الذى عقد فى البندقية سنة ١٨٨١

وإليه يرجع الفضل فى إنشاء مدفع الظهر بالقلعة وقد أنشأ على سطح منزله (بميدان الفلكى) مزولة تبين ساعات النهار نزعت من مكانها بعد وفاته .

وفى سنة ١٨٨٢ تولى نظارة الأشغال وعين وكيلا لوزارة المعارف فى وزارة شريف باشا سنة ١٨٨٢ — ١٨٨٤ وعين وزيراً للمعارف فى وزارة نوبار الثانية سنة ١٨٨٤ وتولى رآسة الجمعية الجغرافية وظل يشغله مع الوزارة إلى أن حانت منيته فى ١٥ يولية سنة ١٨٨٥

وكان الفقيد أثناء حياته يفكر فى أعداد قاعة عامة فى داره يؤمها من يشاء الاطلاع على ما فيها من نفائس الكتب والخرائط والمحفوظات . وقد تحققت هذه الفكرة فى سنة ١٩٢٩ عند ما وهبت كريمته مكتبة المترجم إلى الحكومة .

حاصروا حاكم كسلا فى سنة ١٨٦٤ طيلة شهرين كاملين . أما باشاوات



الدكتور محمد الشافعى بك



المهندس الشهير مصطفى بهجت باشا

اسماعيل باشا الفلكى توفى سنة ١٩٠١

من تلاميذ محمود باشا الفلكى ، تخرج من مدرسة المهندسخانة ببولاق والتحق فى سنة ١٨٤٥ على عهد محمد على بالرصدخانة القديمة ثم سافر فى عهد عباس إلى باريس مع محمود الفلكى للتفقه فى العلوم الفلكية فمكث ١٤ سنة بها ثم عاد إلى مصر فى أوائل عهد اسماعيل باشا فأنعم عليه بالرتبة الثانية وعهد اليه بنظارة الرصدخانة التى أنشأها فى العباسية .

وقد ناب عن الحكومة فى مؤتمر الاحصاء الدولى بموسكو سنة ١٨٧٣ وأعجب العلماء بكفاءته وسعة اطلاعه .

ثم تولى نظارة مدرسة المهندسخانة والرصدخانة . وهو الذى أصلح مقياس النيل فى اسوان سنة ١٨٧٠ ووضع تصميم سكة حديد بربر ـ سواكن بالسودان بأمر من اسماعيل باشا ولكن المشروع لم ينفذ .

***

أما بقية المهندسين وأعلام الرياضيات فنهم سلامة باشا الذى اشترك مع مصطفى بهجت باشا فى إنشاء الترعة الابراهيمية ومحمد ثاقب باشا وقد عاون فى إنشاء القناطر الخيرية واسماعيل باشا محمد وقد اشترك فى اتمام الترعة الابراهيمية وقناطرها وصار رئيساً لمجلس شورى القوانين سنة ١٨٩٩ . ثم احمد بك نجيب وحسين افندى على الديك وعلى افندى عزت وعامر بك سعد والسيد عمارة وغيرهم وغيرهم .

مصر فكانوا يأتمرون بأوامر النخاسين ويتناولون منهم مرتبات معينة.
فعند مانقرأ أن اسماعيل عمل باشارة البرنس أوف ويلز الدوق

علماء الطب والجراحة

وإذا ذكرنا علماء الطب والجراحة فى عهد اسماعيل فليس يفوتنا أن نذكر محمد على البقلى باشا (راجع ص ٩٦) وأحمد حسين الرشيدى بك ومحمد الشافعى بك وحسين عوف باشا وكبيرهم محمد الدرى باشا (١٨٤١ - ١٩٠٠) الذى تخصص فى باريس (راجع ص ١٠١) وقابل فيها الخديو اسماعيل فشمله بعطفه لما سمع عن نبوغه من أساتذته. ثم عين بعد عودته كبير جراحى القصر العينى. وقد بلغ ذروة الشهرة بما كان يقوم من العمليات الجراحية الخطيرة واهتمامه بتشخيص الداء والبر بالفقراء والمعوزين.

وقد أنشأ له مطبعة خاصة لطبع مؤلفاته ورسائله وأسماها المطبعة الدرية وأهم مؤلفاته كتاب «بلوغ المرام فى جراحة الأجسام» فى أربعة أجزاء. وقد توفى فى ٣٠ يونيه سنة ١٩٠٥

ثم لا ننس العلامة أستاذ التشريح حسن بك عبد الرحمن والرمدى محمد بك حافظ وسالم باشا سالم الطبيب الخاص للخديو توفيق باشا وجليلة تمرهان خريجة مدرسة القابلات ومحمد بك بدر والجراح احمد باشا حمدى نجل الدكتور محمد على باشا البقلى والدكتور حسن باشا محمود ناظر مدرسة الطب وابراهيم باشا حسن وعيسى باشا حمدى وعبد الرحمن بك الهراوى أستاذ الفسيولوجيا والأمراض الجلدية.

علماء الطبيعيات

ومن بينهم احمد بك ندا وعبد الهادى اسماعيل ثم على بك رياض خريج الجامعات الأوربية وكبير صيادلة القصر العينى ومنصور افندى احمد مدرس الكيمياء بالمهندسخانة.

علماء الفقه والقانون

وفى طليعتهم محمد قدرى باشا (سنة ١٨٢١ - ١٨٨٦) وهو من أب أناضولى وأم مصرية (راجع ص ٤٢٧) وتلميذ رفاعه بك رافع وقد ظهر ميله من بداية عهده إلى العلم والترجمة وكان صاحب حظوة لدى الخديو اسماعيل الذى اختاره مربيا لولى عهده توفيق باشا. ثم عين بالمعية ومنها انتقل إلى رآسة قلم الترجمة بوزارة الحقانية حيث اشترك مع رفاعة بك فى تعريب قانون نابليون واختص هو بتعريب قوانين المحاكم =

اوف كنوت (راجع ص ٤٣٠) واتخذ اجراءات حاسمة لقطع دابر



الدكتور الشهير حسن باشا محمود

= المختلطة تمهيدا لوضع قوانين المحاكم الأهلية الحديثة . وفى سنة ١٨٨١ تولى وزارة الحقانية ضمن وزارة شريف باشا .

وهنا نقطة خلاف فالأستاذ عبد الرحمن الرافعى بك يقرر بأن قدرى باشا هو واضع مشروع النظام القضائى للمحاكم الأهلية وأن هذه المحاكم افتتحت سنة ١٨٨٣ وصدرت قوانينها وهى القانون المدنى وقوانين التجارة والمرافعات والعقوبات . وكان المترجم وقتئذ وزيرا للمعارف فى عهد وزارة شريف باشا الرابعة وهى الوزارة التى تخلت عن الحكم احتجاجاً على اخلاء السودان .

أما صاحب بيت العروبة الأستاذ احمد زكى باشا فقد ذكر فى خطبته التى ألقاها فى يوم الجمعة ٦ يناير سنة ١٩١١ فى الحفلة التى أقامها المجمع العلمى المصرى والجمعية الجغرافية بالقاعة الكبرى لمجلس شورى القوانين لتأبين المغفور له حسين فخرى باشا (راجع ص ٣٣٧) أن « فخرى باشا اشتغل فى أثناء تقلده وزارة الحقانية (سنة ١٨٨١) بتمهيد السبيل لتحويل المجالس القديمة إلى تلك المحاكم الأهلية الزاهرة بيننا الآن ووضع مشروعات القوانين الخاصة بهذا التنظيم تلك القوانين التى ستبقى فخرا خالدا له مهما اعتورها من التعديل والتبديل لأنه تشرف بوضع اسمه عليها فى وزارته الثانية » .

وقال صاحب العروبة فى موضع آخر من خطبته « وفى ٢٨ اغسطس سنة ١٨٨٢ انتظم حسين فخرى باشا مرة ثانية فى سلك الوزارة التى ألفها ذلك الرجل الغنى عن التعريف وأعنى به الوزير الشريف شريف طيب الله ثراه وجعل الجنة مثواه . فصدرت القوانين التى أشرنا إليها (قوانين المحاكم الأهلية) وصدر القانون النظامى وقانون الانتخاب =

النخاسة بسد طريق النيل فى وجهها ومنع الغارات على السودان لجلب الخصيان ، نستطيع من كل ماتقدم أن نحكم بأن اسماعيل كان فى الواقع يبذل

= وظهرت المحاكم الأهلية فى ثوبها القشيب ونظامها الجديد . وكان صاحب الترجمة متقلداً نظارة الحقانية إلى أن قضت الظروف بسقوط الوزارة فى ٧ يناير سنة ١٨٨٤ .

ازاء هذا الالتباس لم نجد بدا من استطلاع رأى معالى محمود باشا فخرى فى الموضوع فأكد لنا معاليه صحة ماذهب إليه شيخ العروبة . وقد أيد رأى معاليه الأستاذ احمد بك قمحة وكيل مدرسة الحقوق سابقا .

الشيخ محمد العباسى المهدى (١٨٢٧ — ١٨٩٧)

وقد سبقت الأشارة إليه ص ٤٠١ وهو شيخ الأسلام ومفتى الديار المصرية وصاحب الفتاوى المهدية التى تعتبر أكبر مرجع للعلماء فى الفقه الأسلامى وهو ابن الشيخ محمد أمين المهدى مفتى الديار المصرية الأسبق ابن محمد المهدى أحد كبار علماء مصر فى عهد الحملة الفرنسية (انظر ص ٣٨) .

وقد تعلم فى الأزهر ونبغ فى علوم الفقه وعلت مكانته لما عرف عنه من التمسك بالحق والكرامة حتى استهدف أحيانا لغضب بعض الولاة الذين سبقوا اسماعيل باشا .

فلما ارتقى اسماعيل الأريكة قربه إليه . وحسبك أنه جمع فى عهده بين الأفتاء ومشيخة الأزهر (١٨٧١) وكان مرجع الخديو فى كل ماله مساس بالشريعة الأسلامية .

وعرف له توفيق باشا مكانته ولكن العرابيين — ولم يكن من أنصارهم — أقصوه عن منصبيه ثم أعاده إليهما توفيق باشا . ثم حنقت عليه حكومة توفيق باشا بعد ذلك وأبعدته عن المشيخة والأفتاء . ولكنه عاد فتقلد وظيفة الأفتاء وحدها وظل فيها الى أن اخترمته المنية فى رجب سنة ١٣١٥ هـ .

ولا ننس بين علماء ذلك العهد الشيخ محمد عليش والشيخ أبراهيم السقا والشيخ عبد الرحمن البحراوى والشيخ حسونة النواوى وغيرهم .

علماء الفنون الحربية والبحرية

ومنهم على باشا ابراهيم وحماد باشا عبد العاطى ثم كبيرهم محمود باشا فهمى المتوفى سنة ١٨٩٤ وهو أحد زعماء الثورة العرابية . كانت ولادته ببلدة الشنطور بمركز ببا وهو خريج مدرسة المهندسخانة . وقد نبغ فى الفنون الهندسية والحربية وانتظم فى سلك الجيش ثم عين أستاذاً لعلم الاستحكامات والفنون العسكرية فى المدارس الحربية فى عهد سعيد واسماعيل .

تضحيات هائلة ويعرض نفسه وعرشه لمخاطر جمة فى سبيل جعل مصر



محمود باشا فهمى المهندس العسكرى الكبير
وكان يعتبر بمثابة العمودى الفقرى فى الجيش العرابى

وقد قلنا لك إن الخديو اسماعيل كان ينوى الانفصال عن تركيا فعهد إلى المترجم بتحصين شواطىء مصر الشمالية من أبى قير إلى البرلس فقام بالمهمة خير قيام . وقد اشترك فى الحرب البلقانية .

وفى أثناء الثورة العرابيـة انضم إلى العرابيين وتولى وزارة الأشغال فى وزارة محمود باشا سامى البارودى سنة ١٨٨٢ وأسر قبل واقعة التل الكبير .

وليس شك فى أن محمود فهمى كان بمثابة العمود الفقرى فى الجيش العرابى ولذلك كان أسره من أكبر أسباب هزيمة ذلك الجيش . وقد حوكم ضمن زعماء الثورة ونفى مع عرابى إلى سيلان وهناك وضع كتابه « البحر الزاخر فى تاريخ وأخبار الأوائل والأواخر » وهو فى أربعة مجلدات وقد اقتبسنا منه كثيراً .

ثم لاتنس محمد مختار باشا (سنة ١٨٣٠ — ١٨٩٧) وكان أدنى إلى صناعة القلم منه إلى صناعة الحرب . فلقد انتظم فى خدمة الجيش وهو فى سن الثانية والعشرين وظل يرتقى فى المناصب العسكرية حتى نال رتبة اللواء سنة ١٨٨٦ واشترك فى حملة هرر (راجع ص ٣٢٣) ثم عين رئيس أركان حرب الجيش المصرى بالسودان وعين مأموراً للخاصة الخديوية فى عهد الخديو السابق عباس الثانى وبقى فى هذا المنصب إلى حين وفاته فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٩٧

دوله متمدينه حديثة وجعل نفسه حاكما متنوراً عصريا ، نعم إن السير



الكاتب العسكرى اللواء محمد مختار باشا

= وقد وضع كتابا قيما يسمى «التوفيقات الالهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنجية والقبطية » من السنة الأولى للهجرة لغاية سنة ١٥٠٠ ه

وقد حرص على أن يضع إزاء كل شهر أهم ماوقع فى مصر وفى العالم من الأحداث هذا عدا كتباً ورسائل عديدة أخرى ومقالات ممتعة فى مجلة الجمعية الجغرافية .

ومن نوابغ رجال الفنون الحربية شحاته عيسى بك ناظر مدرسة أركان حرب فى عهد اسماعيل ومحمد صادق باشا وهو من كبار المهندسين وقد التحق بالجيش وسافر فى معية سعيد باشا لزيارة الحجاز وعين مفتشاً بمصلحة المساحة برئاسة استون باشا . ثم سليمان قبودان حلاوة (توفى سنة ١٨٨٥) وهو خريج المدرسة الحربية القديمة وأحد نوابغ الملاحين وقد عين رباناً للباخرة «سمنود» فبرع فى قيادتها وطاف بها حول القارة الأفريقية . وفى سنة ١٨٧٠ عينه اسماعيل مدرساً للفنون البحرية والفلكية فى المدرسة البحرية . وقد ألف كتاباً فى الملاحة .

النهضة الفنية

إذا ذكرت الفنون الجميلة ذكرت معها ماقطعته الأمة من شتى المراحل فى سبيل الحضارة والتمدين . لأنها تعتبر بحق المقياس الرئيسى لما تبلغه الأمة من تهذيب النفوس ونشاط العقول وسعة المدارك وترقية الأحساسات والعواطف . وإذا لم يكن للفنون =

صمويل بيكر الذى أرسله إلى السودان لهذه الغاية (١٨٦٩ - ١٨٧٣) لم يفعل أكثر من أن قام بأعمال تمهيدية عند مامد سلطة مصر لغاية غوندوكرو وأنشأ مخافر على النيل الأعلى . ولكن خلفه غوردون قد

= سوى أنها هى التى تستثير احساس الجمال وتنمى ملكته لكفاها أن تعتبر المرآة الحقيقية لكل ماهو صالح فى الأمة .

وبديهى أنك متى تكلمت عن الفنون الجميلة فقد عنيت الموسيقى أو الغناء والتمثيل والرسم والتصوير والنقش والزخرفة والعمارة .

وقد نال الرسم حظا من عناية المدارس الهندسية والصناعية والبعثات فى عهد محمد على ولكن نهضة الرسم والتصوير لم تزدهر كما ينبغى فى ذلك العهد .

أما فن العمارة فتشهد بتقدمه تلك القصور والمساجد والدواوين والعمائر الجميلة التى أنشأها مهرة المهندسين فى النقش والبناء . هذا إلى ماشيدوه من القناطر على النيل والرياحات والترع والكبارى .

التمثيل والغناء

ولما كان اسماعيل باشا نفسه برغم ما سردناه عليك من جوانبه العديدة ميالا بطبيعته للفنون الجميلة وفى طليعتها الموسيقى والغناء لم يكن غريباً أن يشتهر عصره بالمرح والحبور وأن ينمو الفن فى عهده .

ولما كانت النهضة التمثيلية فى النصف الثانى من القرن الغابر ماتزال فى بدايتها فقد راح اسماعيل يساعد الجانب الأوربى منه آملا فى أن يؤدى ذلك إلى نهضة التمثيل فى مصر . وفى الحق إنه لم يستكثر أية مساعدة على المسرح المصرى ولذا أنشأ فى القاهرة مسرح الكوميدى بالأزبكية وقد شرع فى بنائه فى نوفمبر سنة ١٨٦٧ واحتفل بافتتاحه فى ٣ يناير سنة ١٨٦٨ ثم دار الأوبرا فى سنة ١٨٦٩ لمناسبة حفلات افتتاح قناة السويس .

وتم بناء الأوبرا فى خمسة أشهر ومثلث فيها فى مساء ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٦ أول أوبرا واسمها ريجوليتو شهدتها الأمبراطورة أوجينى عقيلة نابليون الثالث وأعجبت بها .

ولم يفت اسماعيل أن يعهد للموسيقى الأيطالى « فردى » بأن يضع أوبرا مصرية وضع العلامة مارييت باشا موضوعها وهى رواية « عايدة » وقد مثلت فعلا فى القاهرة لأول مرة فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٧١ ومنذ ذلك الحين أخذت الحكومة تجلب الفرق =

دخل إلى أوغندا فعلا وبسط سلطة مصر الفعلية على السودان . وقد تمكن تدريجاً وهو يشغل منصب الحاكم العام فى الخرطوم من منع الغارات لاقتناص الخصيان وقضى على النخاسة قضاء مبرما . وكان يساعده فى أعماله

= الأجنبية وتغدق عليها المال . أما فى الاسكندرية فقد أنشأ الخديو مسرح زيزينا ومسرحا آخر اسمه الفييرى .

الموسيقى والغناء

إلى ذلك العهد كان المغنون يتبعون الأساليب والتواشيح القديمة حتى بزغت شمس عبده الحولى فأحدث ظهوره نهضة فنية صحيحة وانتقلت الأغانى من طور إلى طور آخر.

عبده الحولى

كانت ولادته بطنطا فى سنة ١٨٤٥ وكان أبوه تاجر بن يسىء معاملته هو وشقيقه إلى أن ضاقا ذرعا بهذه المعاملة ورحلا عن طنطا هائمين على وجهيهما .

وقد أرادت الصدفة أن يلتقى بهما شخص يشتغل بالغناء ويعزف على القانون . فما أن سمع صوت عبده حتى أعجبه وعاد به إلى طنطا يعملان سويا . حتى إذا حضر إلى مصر وتسامعت به أوساط الطرب هرعت اليه تشنف أسماعها من نغمات ذلك البلبل الصداح . وما كادت أن تظهر عليه علائم النبوغ والموسيقى حتى ترك أستاذه القديم إلى أستاذ جديد وهو (الشيخ المقدم) فاشتغل على تخته وبدأت شهرته تطبق القاهرة كما أنه بدأ يبتكر الأساليب الجديدة المستملحة التى أعجب بها أهل الفن وعشاق الطرب .

ثم سمع به الخديو اسماعيل فقربه إليه وجعله فى معيته . ومن ثم بدأت شمسه تعلو ويزداد شهرة . وقلما كان اسماعيل يفتر عن سماع صوته المشجى بل كان يصحبه فى سهراته وحفلاته وأغدق عليه كثيرا من المنح والعطايا .

ثم استصحبه معه إلى الأستانة حيث التقى عبده بكبار الموسيقيين الترك فأخذ الكثير من ألحانهم واقتبس منها مايلائم الذوق المصرى وراح يبتكر ألحانا جديدة هى مزيج من التركية والعربية .

وقد أصبح يلقب بحق بزعيم المجددين فى الموسيقى المصرية وظل أكثر من ثلاثين سنة وهو ملك الغناء بلا مدافع .

كان طيب المعشر دمث الأخلاق شديد المروءة يلبى دعوة الفقراء وقد عرف عنه أنه =

لوبتون بك فى بحر الغزال وسلاطين (راجع ص ٣٦٠) فى دارفور وأمين (شنتزلر) فى المناطق الاستوائية (راجع ص ٣٤٦) وتملقا للزبير (راجع ص ٣٢١) أقوى النخاسين نفوذا وقتئذ وهو الذى نصب نفسه حاكما على

= تطوع لأحياء «ليلة» أقامها أحد الفقراء، ودفع عبده نفقاتها جميعاً من جيبه الخاص وكانت وفاته سنة ١٩٠١ وقد أنشد فيه بعضهم قوله :

هذا الذى ملك القلوب بأنسه ... وأعز شأن العود والألحان
ترك التخوت حزينة من بعده ... تبكى السرور بدمع هتان

السيدة ألماس

التى اشتهرت بين النساء فى عصر عبده . ويقال إن عبده لما رأى من شهرتها وإقبال القوم على سماعها دفعته الغيرة منها إلى الاقتران بها ومنعها عن الغناء.

محمد العقاد القانونجى

وفى هذا العهد نشأ محمد العقاد القانونجى المشهور الذى يعتبر سلطان العازفين على هذه الآلة . ولم تكتمل شهرته إلا بعد عصر اسماعيل . وقد عاشر العقاد عبده الحمولى فترة طويلة اكتسب منه الشىء الكثير فى التوقيع والأنغام .

كل هذا يدلك على أن عصر اسماعيل الذهبى اتسع لكل شىء حتى الفنون الجميلة فهى شهادة كافية لاسماعيل ولما بذله من الجهود فى رفع شأن أمته .

الأعمال العمرانية

فى ص ٢٧١ إلى ٢٨٠ من كتابنا الحالى يرى القارىء الشىء الكثير من الأعمال العمرانية التى تمت فى عهد اسماعيل والتى تكلفت بطبيعة الحال نفقات باهظة ليس غريباً أن تكون استنفذت مجموع ما اقترضه الخديو .

فالترع وبخاصة ترعتا الابراهيمية وطولها ٢٦٧ كيلو متر والاسماعيلية وطولها ٢١٨ كيلو متر وانشاء مالا يقل عن ٤٢٦ قنطرة واصلاح القناطر الخيرية والتوسع فى زراعة القطن والقصب وزيادة مساحة الأراضى المزروعة وانشاء ١٧ معمل لصناعة السكر وتكريره وانشاء معامل النسيج والطوب والدباغة والزجاج والورق والخطوط الحديدية والأسلاك التلغرافية وانشاء مصلحة مصرية للبريد بعد أن كان لكل جالية أجنبية مكتبها للبريد وعناية اسماعيل بالمتحف وتكليفه ماريت باشا باصلاح مخازن بولاق وتوسيعها وانشاء دار الآثار العربية ودار الرصد بالعباسية ومصلحة الأحصاء =

دارفور (١٨٧٥) أنعم عليه اسماعيل برتبة الباشوية وأغراه بالحضور إلى مصر حيث زج فى غياهب السجون (كذا !) فما لبث أن رفع ابنه

= ومصلحة المساحة وانشاء المستشفيات فى كافة أنحاء القطر لمكافحة الأمراض والأوبئة وتجميل مدينتى القاهرة والاسكندرية بما شقه فيهما من الشوارع الجديدة وشيده فيهما من القصور المنيفة كقصر عابدين وسراى الجزيرة وسراى الجيزة وسراى بولاق الدكرور وقصر القبة وقصر حلوان وسراى الاسماعيلية وسراى الزعفران وقصر النزهة (بشبرا وهو المدرسة التوفيقة الآن) وسراى المسافرخانة وقصر النيل بالقاهرة وسراى رأس التين وسراى الرمل بالاسكندرية - نقول إن هذه القائمة الطويلة من الأعمال العمرانية يضاف إليها سعيه للقضاء على تجارة الرقيق وماتلاها من الفتوحات السودانية التى وصلت بمصر إلى حدودها الطبيعية ، كان جديرا بألا تتسع له الخزانة المصرية وأن يستنفد - بشهادة خصوم اسماعيل أنفسهم - الكثير مما عقده من القروض فى الخارج .

الأستاذ الرافعى وعصر اسماعيل

ذكرنا فى ص٢٦٣ ملاحظات عامة عن قروض اسماعيل خرجنا منها برد الحملات التى وجهها بعض الكتاب الأجانب المتحيزين ضد الخديو . وقد جئنا على كثير مما كتبه الكتاب الأجانب انصافا لاسماعيل . وانه لمن أكبر دواعى الأسف حقا أن نرى كاتبا كبيرا كالأستاذ الرافعى بك لايأبه لما يكتبه بعض الافرنج فى إنصاف اسماعيل بينما نراه من الناحية الأخرى يحاول اقناع قرائه بأن ما كتبه بعض المؤرخين قدحا فيه هو الحق الذى لايمكن أن يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وكأنما فاته أن بعض هؤلاء القادحين ربما أوغر صدرهم أن اسماعيل لم يغدق عليهم العطايا كما أغدقها على كثيرين غيرهم ممن يقول الأستاذ فيهم نقلا عن مجلة العالمين أنهم « ما كادوا يستقرون فى القاهرة ويأوون إلى إحدى قاعات الانتظار فى سراى عابدين حتى صاروا طفرة من أصحاب الملايين » .

فهو كثيرا ما اقتبس من كتاب « تاريخ مصر المالى » ووصف صاحبه (المجهول الاسم) بالاعتدال والاتزان فى الرأى ، كأنما ينبغى أن يعتبر القدح فى اسماعيل اعتدالا فى الرأى وتمدح أعماله تهورا ! !

وكتاب آخر لايقل عن سابقه سخفا وإن كان طالما استشهد به الأستاذ الكبير =

سليمان راية العصيان (راجع ص ٣٤٧) ولكن غوردون سرعان ماهزمه وقتله (١٨٧٩). وهنا ثارت حفيظة الأحباش لقيام المضاعب فى سبيل غاراتهم للحصول على الرقيق. فاجتاحوا مصوع (راجع ص ٣٤٨)

= وهو كتاب مدام أولمب أدوار المسمى « كشف الستار عن أسرار مصر » وهو لعمرك كتاب إذا كان قد كشف ستر شىء فأنه كشف عن خبيئة نفس هذه السيدة الموتورة وأظهرها للملأ بمظهر التحيز القبيح وأنها لاتصدر عن غاية شريفة أو قصد نبيل.

يهتم الأستاذ الرافعى بك بأقوال مؤلف كتاب « تاريخ مصر المالى » ويغض طرفه عما كتبته سيدة فاضلة كاللادى دوف غوردون. فصاحب كتاب « تاريخ مصر المالى » يزعم أن ما تذرع به اسماعيل لعقد أول قرض (سنة ١٨٦٤) لمقاومة الطاعون البقرى كان حجة واهية لأن الفلاحين والملاك هم الذين تحملوا وحدهم الخسائر الناشئة عن هذا الطاعون (كذا!)

هكذا يزعم جنابه وهكذا يؤمن الأستاذ الرافعى بك على تلك المزاعم فى حين أن اللادى غوردون ـ على نحو ماذكرناه لك فى ص ٢٨٠ من كتابنا الحالى ـ قد قدرت ما نزل بالمواشى من الخسائر فى ذلك الطاعون بنحو ١٢ مليون جنيه. ثم إن ميزانية ١٨٧٣ — ١٨٧٤ ذكرت بين ماذكرت أن اسماعيل دفع لأصحاب المواشى كتعويض لهم عن خسائرهم فى الطاعون البقرى المذكور ٣٫٨٣٧٫٥٦٢ جنيه لا ١٫٢٥٠٫٠٠٠ جنيه كما زعم صاحب « تاريخ مصر المالى » الذى كانت غايته الرئيسية من وضع كتابه المشار إليه ليست استعراض تاريخ مصر بل المقارنة بين المالية الفرنسية والمالية الأنجليزية.

أما مدام أولمب فيدلك على تحيزها أنها نسبت إلى اسماعيل عكس ما أجمع عليه الناس ومنهم خصومه. فهى تتهمه باستعمال السخرة صراحة عند قولها « إنه لم يكن يهتم إلا بجمع الملايين وكان يقتنى الأطيان فى كل ناحية قدر مايستطاع ويلجأ إلى السخرة فى زراعتها واستصلاحها (كذا! كذا!) ويعقد القرض تلو القرض لآجال طويلة تاركا لمن يخلفه فى الحكم أن يسدد ديونه حتى كأنه يقصد أن يعقد مهمة الحكم لمن بعده (كذا!).

فهل سمعت بأغرب من هذا الهوس الذى تردده هذه السيدة الموتورة؟ اسماعيل الذى كان يلقب قبل اعتلاء الأريكة بـ « أمير الفلاحين » لبره بهم وعطفه عليهم يلجأ إلى السخرة فى زراعة أراضيه واستصلاحها وهو هو الذى كانت طبيعته ـ حتى وهو أمير ـ =

ولكنهم مالبثو أن أرغموا على مغادرتها وتعقبهم المصريون بسورهم إلى داخل الحدود الحبشية وهو اعتراف بأن اسماعيل دخل حرب الحبشة مرغما . وهذه الحملة وإن كانت بمثابة نكبة فادحة على المصريين إلا أنها

= تنفر من هذه السخرة ولذا لم يدخر وسعا فى محاربتها عند اعتلائه الأريكة مما عرضه للاصطدام بفرنسا كبيرة دول أوربا وقتذاك ! ثم فيم كان اسماعيل ينفق هذه القروض ؟ أليست فى اصلاح شأن البلاد وعمرانها ؟ أكان يعقدها لمصلحته الخصوصية ؟ لقد كان حسبه أن يحكم البلاد معتمداً على إيراد ثروته الطائلة التى بلغت قبل جلوسه على العرش مالا يقل عن نصف مليون فدان . ولكنه شاء أن يجعل مصر قطعة من أوربا فأضاع ثروته واضطر إلى الاقتراض فى سبيل هذه الغاية النبيلة . فكيف تجيز هذه السيدة لنفسها أن تكتب ما كتبته كأنها تحسب أن مهمة الأمراء والملوك لاتتعدى الجلوس على عروشهم والتمتع بما جمعوه من الثروة دون أن يعملوا على رفع مستوى بلادهم ؟

وبمناسبة مدام أولمب هذه فكم كنا نتمنى ألا يشرفها الأستاذ الرافعى بك بالنقل عنها وهو يعلم من هى . فلعله اطلع على ما كتبه عنها المسيو جان - مارى كاريه فى ص ٢٥١ من الجزء الثانى من كتابه المسمى « السياح والكتاب الفرنسيون الذين زاروا مصر » . فلقد أفرد لها المؤلف زهاء ثلاث صفحات لا يكاد يقرأها الانسان إلا ويخرج منها ساخطاً على تلك السيدة التى لم تدخر وسعا فى جعل كل قارىء يتبرم بما تكتب . فكأن مهمتها كانت مضايقة القراء وإدخال الهم على نفوسهم .

نشأت هذه السيدة فى الريف الفرنسى ثم افترقت عن بعلها وحطت رحالها فى باريس وكان أول ماطلعت به على أهل سكان تلك العاصمة رواية منافرة لحرمة الآداب اسمها « كيف يحب الرجل » والاسم كفيل بتعرف موضوع الرواية .

ولم يخطىء المؤلف عند ماوصفها بأنها سيدة غير متزنة الأعصاب لأنها كانت ممن يزاولون مخاطبة الأرواح وكانت مصابة بنوع من المالنخوليا يجعلها تتوهم أنها مصابة بعدة أمراض .

أما السر فى تحاملها على اسماعيل فقد عرفناه من المسيو كاريه . فقد قال إنها كانت على اتصال دائم بكافة خصوم ذلك الخديو ولذا كانوا يغذونها على الدوام بكل ماهو فى حيز الأفك والبهتان .

أدت إلى قطع دابر النخاسة فى داخـل الحبشة بشكل لانظير له لا قبل الموقعة ولا منذ حدوثها . على أن ماقام به من جهود خارجة عن طوق البشر لم يكن منشأنه أن يؤدى إلى أكثر من تحويل النخاسين عن الطرق

= وأكثر من هذا أنها كانت محل عطف ورعاية الأمير مصطفى فاضل أخ الخديو اسماعيل كما كان هو محـل إعجابها وتقديرها . فليس غريبا ـــ وهو الذى كان يطالب بالأريكة ـــ أن تجعل مدام أولمب من نفسها مطية لهذا الأمير بصفة خاصة ولخصوم اسماعيل بصفة عامة لتشويه سمعة الخديو واتهامه بكل ما يبتكره ذهنها الخصيب من الفضائح والمساوىء .

ثم إنها كانت لصلتها الوثيقة بالأمير مصطفى فاضل تؤمل أن يعتلى العرش يوماً ما ولذا كنت تراها تستعجل نهاية العهد الاسماعيلى وتظن أن تشويهها إياه يحقق آمالها .

ولم يسلم من قلبها الجامح ولسانها العاثر حتى مواطنوها الفرنسيون فى مصر . فقدرمت بعض التجار الفرنسيين بالسرقة لأنهم ـ على زعمها ـ أحضروا لاسماعيل طاقماً من خزف سيفر بمبلغ ٥٠٠٠ فرنك وباعوه له بنصف مليون فرنك ! ! كما أنها تناولت القناصل الأوربيين فى مصر بفاحش القول ووصمتهم بالصلف حيال مواطنيهم وزعمت أنهم كانوا على استعداد لتضحية أولئك المواطنين ومصالحهم فى سبيل التمتع برضا الخديو ! !

وبالجملة فهذه السيدة لم يسلم أحـد من اتهاماتها إلا من كانت تربطهم بها علاقات خاصة من خصوم اسماعيل وكلهم ذو منفعة تطبع أقواله بطابع التحيز والغرض .

هذه هى مدام أولمب التى كثيراً مانقل عنها الأستاذ الرافعى بك وهذا ما كتبه عنها أحد مواطنيها ممن يعرفونها جيد المعرفة .

حقيقة قروض اسماعيل

ونقف عند هـذا الحد فى الرد على تلك السيدة التى كانت تصدر عن رأى جامح وعاطفة موتورة وننتقل إلى مايسميه الأستاذ الرافعى بك « مأساة الديون » . وهى « مأساة » حقاً لا لأن اسماعيل اقترض ـــ فهاهى دول الأرض قاطبة قلما نجد واحدة منها خالية من الديون التى تبلغ فى كثير من الأحوال مليارات الجنيهات دون أن تفكر الدولة الدائنة فى الاعتداء على استقلال الدولة المدينة ـــ بل لأن ذئاب الماليين أقرضوه المال بشروط فاحشة كانت تسوقهم حتما إلى المحاكم والقصاص لو أنها وقعت فى بلادهم .

وإليك هذه القروض كما أحصاها المستر ومطول وهى مدعمة بالاحصاء الرسمى =

الرئيسية المؤدية إلى الشمال وإقصاء المغيرين إلى المناطق النائية فى الجنوب . وفى الواقع لم يكن من سبيل للقضاء على النخاسة إلا باستغلال موارد

= الموجود فى خزانة صندوق الدين المصرى . ونظرة واحدة إلى هذه القروض وما دخل خزانة الحكومة منها فعلا تقنعك بأن اسماعيل كان يتعامل مع ذئاب بشرية .

تاريخ القرض	اسم البنك	مقدار القرض	المبلغ المدفوع فعلا
١٨٦٤	بنك غوشن	٥ر٧٠٤ر٠٠٠	٤ر٨٦٤ر٠٠٠
١٨٦٥	بنك الأنجلو اجبسيان	٣ر٣٨٧ر٠٠٠	٢ر٧٥٠ر٠٠٠
١٨٦٦	بنك غوشن	٣ر٠٠٠ر٠٠٠	٢ر٦٤٠ر٠٠٠
١٨٦٧	البنك العثمانى الأمبراطورى	٢ر٠٨٠ر٠٠٠	١ر٧٠٠ ٠٠٠
١٨٦٨	بنك أوبنهايم	١١ر٨٩٠ر٠٠٠	٧ر١٩٣ ٠٠٠
١٨٧٠	بنك بيشوفهايم	٧ر١٤٣ر٠٠٠	٥ر٠٠٠ر٠٠٠
١٨٧٣	بنك أوبنهايم	٣٢ر٠٠٠ر٠٠٠	١٧٠٨١٠ر٠٠٠
	مجموع القروض	٦٥ر٢٠٤ر٠٠٠	٤١ر٩٥٧ر٠٠٠

فعلام يدل ذلك ؟ إنه يدل على أن المصارف المالية اقتطعت « كعمولة » أو « سمسرة » مبلغ ٢٣ر٢٤٧ر٠٠٠ جنيه من قروض بلغ مجموعها ٦٥ر٢٠٤ر٠٠٠ جنيه . فأى قانون يسوغ هذه العمولة الفادحة ؟ حقا إنها « المأساة » .

ومما يضاعف أثر « مأساة القروض » الفائدة الفاحشة التى طلبها أصحاب القروض . فان سعرها الاسمى لكافة تلك القروض مع استثنا. قرض سنة ١٨٦٥ كان ٧ ٠/٠ أما قرض سنة ١٨٦٥ فكان سعر فائدته ٩ ٠/٠

ولكن تقرير بعثة كيف يذهب إلى أبعد من ذلك . فقد ورد فى ص ٣٩٥ من التقرير بصدد القروض مانصه :

« إن أحدا من القروض المصرية لم ينقص سعر فائدته عن ١٢ ٠/٠ سنويا ولم يزد عن ١٣ ½ ٠/٠ . ولكن قرض السكة الحديدية بلغ سعر فائدته ٢٦ر٩ ٠/٠ سنويا مع الاستهلاك » !!

فاذا أضفنا الى مجموع القروض مايسمونه بالديون السائرة وقد قدرها لورد كرومر =

السودن استغلالا اقتصادياً حاسماً بدلا من مطاردة الرقيق واصطياد الفيلة . كذلك كان لابد أن يبقى العاج بنوعيه الأسود والأبيض المادة الوحيدة الصالحة للتصدير فى ذلك القطر إلى أن توجد طرق أخرى

= نفسه بـ ٢٦ مليون جنيه بلغ المجموع ٠٠٠ر٢٠٤ر٩١ جنيه وهو دين وإن لم يتسلم اسماعيل الا نصفه أو مايزيد عن النصف بقليل فلا يمكن أن يعتبر من الفداحة بحيث لا تستطيع مصر — مع ما عرف عن تربتها الخصبة — أن تنهض باعبائه كاملة لو حسنت إدارة ماليتها .

ولسنا نقول هذا اعتباطاً بل إن تقرير بعثة كيف نفسه — وسنتكلم عنه فيما يلى — يؤيد قولنا هذا . فقد اختتم بهذه الفقرة . وهى

« نستنتج من كافة ما استطعنا الحصول عليه من المعلومات أن فى وسع مصر النهوض بأعباء جميع ديونها الحاضرة بشرط تعديل سعر الفائدة تعديلا معقولا . (كذا !) إذلا يمكنها الاسترسال فى اقتراض ديون سائرة جديدة بفائدة ٢٥ ٪ وعقد قروض بفائدة ١٢٪ — ١٣ ٪ لسداد هذه الديون الجديدة وخاصة وأن هذه القروض لا يدخل قرش واحد منها إلى الخزانة » .

وإذا كان بعض الكتاب وفى مقدمتهم الأستاذ الرافعى بك يعزون مع الأسف — ارتباك مالية مصر لغاية سنة ١٨٧٥ إلى « بذخ اسماعيل وميله إلى الترف والاسراف » فمن العدل أن نجابههم هنا بأقوال المستر كيف فى تقريره حيث تكلم عن الفوائد والمزايا الفاحشة التى نالها حملة الأسهم إذ قال :

« يلوح أن الخديو حاول بدخل الخزانة المحدود أن يتمم فى بضع سنوات قليلة أعمالا عمرانية كان ينبغى توزيعها على مدة أطول لأنها أعمال جديرة بأن تنوء بها خزانات أغنى بكثير من الخزانة المصرية » .

وهذه الملاحظة قد أيدها السير صمويل بيكر فى رسالته التى ظهرت فى عدد الفورتنيتلى ريفيو فى شهر نوفمبر سنة ١٨٨٢ بعنوان « اصلاح مصر » إذ قال مانصه :

ولقد جاء اسماعيل باشا قبل أوانه . وقد عقد نيته على التعجيل بانجاز أعمال تستغرق سنوات عديدة من العمل التدريجى المصحوب بالتأنى . مثال ذلك أنه اعتزم أن يصل السودان بالوجه البحرى وبذا يفتح فى وجه التجارة العالمية تلك الأصقاع الخصبة التى كانت إلى ذلك الحين بعيدة عن العمران . وقد تضمنت فكرته مشروعات ضخمة =

للمواصلات أصلح من طريق النيل الأعلى وشلالاته وسدوده . ونحسب أن مد سكة حديدية كان من شأنه أن يجعل من المجدى استخدام السودانيين فى إنتاج المواشى وزراعة القطن وهو الذى كان يباع القنطار الواحد منه

= هائلة . . . . ولقد كان عهده عهد الركض بمنتهى السرعة . وفى الحق إن اسماعيل كان الروح الحى للنهضة والرقى » .

وذكر السير صمويل بيكر فى ص ٢٨٥ من « مذكراته » المطبوعة فى سنة ١٨٩٥ مانصه : « هذه الأعمال الهائلة ابتكرتها دماغ الخديو اسماعيل الذى استطاع أن ينجز فى خلال ١٧ عاما أكثر مما تم فى القطر المصرى منذ الفتح الاسلامى » .

بل إن المستر ادوين دليون القنصل الأمريكى كتب لحكومته فى تقرير رسمى يخبرها : « إن مصر فى استطاعتها أن تستعيد انتعاشها فى أية لحظة لو وقفت ماتنفقه من المصروفات الهائلة على المشروعات العامة والاصلاحات الداخلية وتوخت قواعد الاقتصاد العادية » .

وأكثر من هذا أن مالياً كبيراً هو السير جورج إليوت عضو البرلمان الانجليزى وكان قد ذهب إلى مصر قبل بعثة كيف بعامين بدعوة من اسماعيل باشا لدراسة حالة مصر المالية درساً دقيقا ، صرح فى مجلس العموم — كما ورد فى المناقشات البرلمانية لهنسارد المجلد ٢٣١ سنة ١٨٧٦ ص ٦٥٢ و ٦٥٣ « بأن تحقيق لجنة كيف كشف الستار عن حقيقة الحالة فى مصر فاذا بها حالة لاتدعو إلى اليأس . بل إنها حسنة (كذا !) ونعنى بذلك أن يكون دخلها كافياً لوفاء الديون وفاء عادلا . وأقصد بهذا أنه بضمان معقول ولكن مع تخفيض الفائدة . فلو عمل بالمشروع الذى عرضته على الخديو فانى لا أشك فى أن مصر تستطيع أداء جميع الفوائد وأقساط الاستهلاك ويكون تحررها منها فى مدة خمسة وستين عاما هذا مع ترك مبلغ كاف لادارة البلاد إدارة حسنة . (كذا !) إنى أعتقد تماماً أن حالة مصر ثابتة لأن لها موارد كافية قد نمت فى الماضى وزادت زيادة عجيبة وليس ثمت ما يحول دون نموها ورقيها كذلك فى المستقبل » .

وهذا صحيح فان السنيور شالويا والد السنيور شالويا السياسى الايطالى المشهور عرض فى عهد اسماعيل أن ينظم المالية المصرية ويوازن الميزانية ويسدد الديون كاملة مع فوائدها الفادحة من إيرادات مصر المحدودة وبدون الالتجاء إلى قروض جديدة . ولكن أحداً لم يلتفت إلى اقتراحه لأن النية كانت مبيتة ضد اسماعيل بقصد التخلص منه بعد أن أفسد على السياسة الاستعمارية خططها وأوقعها فى الارتباك =

فى الخرطوم بريالين فى حين أنه كان يباع فى القاهرة بستة عشر ريالا .
وعليه بدىء بانشاء القسم الأول من السكة الحديدية الممتدة بين وادى حلفا والخرطوم (وطولها ١١٠٠ ميل) ولكن الأزمة المالية ماعتمت

— فكان طبيعياً وفداحة الفوائد كما رأيت أن تشح موارد اسماعيل وتصبح خزائنه خاوية بعد أن ناءت بما حملتها إياه همته القعساء من مختلف المشروعات التى كانت جديرة بأن « تنوء بها خزانات أغنى بكثير من الخزانة المصرية » كما جاء فى تقرير بعثة كيف .

لذلك لم ينتصف شهر نوفمبر سنة ١٨٧٥ — كما ذكر المستر كرابيتس — حتى بعث لورد دربى وزير الخارجية البرقية الآتية إلى الجنرال استانتون قنصله العام فى القاهرة وهى مقتبسة من كتاب المسيو شارلس ليساج المسمى «ابتياع أسهم قناة السويس» ص٦ : وهذا نصها :

« وزارة الخارجية »

« ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥ »

« لقد نمى إلى حكومة صاحبة الجلالة أن نقابة فرنسية أظهرت استعدادها لابتياع حصة الخديو فى أسهم قناة السويس وأنه يحتمل موافقة سموه على الصفقة . فأرجو التحرى عن حقيقة الأمر وإرسال تقرير بالنتيجة » .

وقد استطرد المستر كرابيتس فقال ما ملخصه :

لم يكن قرار اسماعيل التخلص من حصته فى أسهم القناة من جراء اسرافه أو تبذيره كلا . فقد كان يملك نحو ١٧٦٫٦٠٢ من مجموع الأسهم وعددها ٤٠٠٫٠٠٠ إنما كان قراره هذا باعثه أن أرباح هذه الأسهم بما فيها الربح الذى يوزع فى أول يولية سنة ١٨٩٤ كانت مرهونة لشركة القناة لسداد أقساط الغرامة التى حكم بها نابليون الثالث على الحكومة المصرية كما سبق بيانه . وعليه أصبحت هذه الأسهم شبه « ميتة » من الناحية الاقتصادية العملية . ومما زاد الطين بلة أن مجلس إدارة حملة الأسهم عقد فى يوم ٢٤ اغسطس سنة ١٨٧١ اجتماعاً عاماً تقرر فيه حرمان الخديو من حق التصويت إلا بعد أداء الغرامة المذكورة بأكملها .

أو بعبارة أخرى أن الخديو مع أنه كان يمتلك مايقرب من نصف مجموع الأسهم لم تكن له كلمة فى إدارة هذه الشركة التى قدم لها أجل الخدمات والتى كان أكبر مساهم فيها . فاحتج على هذا القرار لأنه قرار ظالم وغير قانونى .

أن حالت دون إتمامها بعد أن أنفق فى سبيلها مايناهز ٤٠٠٫٠٠٠ جنيه. ومن ثم عاد السودان إلى أحضان النخاسة مدة عشرين سنة أخرى .

ولقد ألفنا أن نعد مصر ممثلة فى شخص اسماعيل بلاد تبذير وإسراف

= وهنا يقول المسيو ليساج ، إن الخديو أراد أن يتفادى الاحتكاك بالشركة فوافق على توكيل المسيو فرديناند دلسبس فى الاقتراع بدله ، .

وكان معنى هـذا التصرف فى غير لغة السياسة أنه بعد أن أصدر نابليون الثالث حكما جائراً كان موضع انتقاد الدوائر النزيهة جاء مجلس إدارة حملة أسهم قناة السويس فى يوم ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧١ فأصدر قرارا مشكوكا فى صحته من الناحية القانونية . فلما امتنع اسماعيل عن التقيد بهذا القرار العرفى أقنعوه بوجوب توكيل دلسبس عنه . وهو تصرف يرمى إلى حمل الخديو على إبرام مايقرره حملة الأسهم .

وكانت نتيجة هذه الظروف مجتمعة أن الخديو أصبح يعتقد بحق أن الشركة أساءت معاملته وانه لذلك يرى أن من مصلحته التخلص من هذه الأسهم التى تقرر أن تبقى « ميتة » لغاية أول يولية سنة ١٨٩٤ . يضاف إلى هذا أنه لم يكن مرتاحاً إلى تصرف الشركة بتوكيل دلسبس وجعله السيد الآمر الناهى فى هذه الحصة الهائلة .

ولا تنس بعد هذا كله أو قبله أن المبلغ الذى عرض على اسماعيل فى سنة ١٨٧٥ ثمنا لهذه الأسهم كان مبلغاً لا يستهان به إذا روعيت الظروف العالمية وقتذاك . فكون الخديو صمم على التخلص من حصته كان بلا جدال عملا رابحاً من الوجهة التجارية هذا فضلا عن أنه يزيح عن قلبه الغمة التى كان يشعر بها من جراء توكيل دلسبس فى الاقتراع بدله .

ولكيا تدرك مبلغ ما كان يشعر به اسماعيل من الاجحاف نخبرك أن المادة ٥١ من القانون الأساسى لشركة القناة نصت على أن يكون لكل من يملك ٢٥ سهم صوت واحد على ألا يكون لصاحب الأسهم إلا صوت واحد فقط مهما كان عدد الأسهم التى يملكها . وقد أريد بوضع هـذه المادة فى بداية الأمر أن يعرف الملأ أن سعيد باشا — مع احتفاظه بحصة مصر المذكورة وقـدرها ١٧٦٫٦٠٢ سهم ليس فى وسعه فرض إرادته على الشركة . وكانت النتيجة العملية لهذا التشريع العجيب أن اسماعيل بصفته أكبر مساهم فى الشركة لم يكن له سوى صوت واحد فى حين أنه كان فى =

أديا بها إلى خراب عاجل احتاجت معه إلى أن تتدخل لأصلاح شؤونها انجلترا بالنيابة عن الدائنين الأجانب ولفائدة المدنية المصرية نفسها ! ولكن هذا الاعتقاد ليس من العدل فى شيء لا بالنسبة لاسماعيل ولا بالنسبة

= استطاعة رجلين من أسرة واحدة لا يملكان إلا ٥٠ سهماً فقط أن يمليا إرادتهما على اسماعيل !

فهذه الاعتبارات مع حرمان مصر من أرباح حصتها مايقرب من ٢٠ سنة (أى لغاية أول يولية سنة ١٨٩٤) وملاءمة ثمن الصفقة جعلت اسماعيل يصمم على بيع الحصة المذكورة خصوصاً وأن الصفقة لا يمكن أن تخول المشترى حقوقاً أكثر مما كان لاسماعيل فى القناة .

تلكؤ النقابة الفرنسية فى ابتياع الأسهم

ويحسن قبل الاسترسال فى الحديث أن نقول كلمة عما كان يبذل وراء الستار من المساعى لحصول النقابة الفرنسية التى أشار إليها لورد دربى فى برقيته فى ص ٤٨٠ على هذه الصفقة .

فان المسيو اندريه درفيو من رجال المال فى الاسكندرية اتصل بأخيه ادوار فى باريس وحاولا حمل إحدى النقابات المالية الفرنسية على ابتياع الأسهم . وفعلا تدخل المسيو دلسبس وطلب إلى الدوق دى كاز وزير الخارجية الفرنسية أن يستحث النقابة المذكورة على إتمام الصفقة ، ولكن الوزير - وكان يحرص على مودة انجلترا لاستخدامها ضد ألمانيا - رأى بثاقب رأيه أن تدخل فرنسا لا يمكن أن تنظر إليه انجلترا بعين الارتياح وخاصة وأن النقابة المذكورة أضاعت كثيرا من الوقت فى اختيار الصيغة التى يكتب بها العقد وهل تكون صيغة مبايعة أم صيغة ارتهان . فلما لم يهتم الوزير بالأمر وبادرت انجلترا بتقديم المبلغ المطلوب فورا راح رجال النقابة يعضون بنان الندم على ما أضاعوا من وقت ثمين فى مناقشات أفلاطونية سخيفة .

***

وأخيراً لما انتقلت حصة اسماعيل إلى يد الحكومة البريطانية لم تجرؤ الشركة أن تطبق عليها ما كانت تطبقه على اسماعيل من الشروط المجحفة . هذا إلى أن الفقهاء القانونيين =

مصر . لأن اسماعيل لو كان مبدأ عقيما كما يصفونه لتخلصت منه مصر كما تخلصت من سلفه عباس أو كما تخلصت تركيا من معاصره عبد العزيز

= أفتوا بأن لا معنى لمنع توزيع أرباح الأسهم المذكورة إلى أن تنتهي مدة الرهن أو ألا يكون لمالكها إلا صوت واحد .

***

على أن اسماعيل وإن كان قد باع أسهمه فقد احتفظ بحصته الـ ١٥٪ من صافى الأرباح . ولكن خلفاءه فى حكم مصر سرعان ما تخلصوا من هذه الحصة مع أنهم كانت لهم ندحة عنها . فلقد باعوها للبنك العقارى الفرنسى بمبلغ ٢٢ مليون فرنك أى ٨٨٠٫٠٠٠ جنيه . وإذا كان الأستاذ الرافعي بك ينعى على اسماعيل باشا بيع أسهم مصر فى القناة بنحو ٤ ملايين جنيه مع أن ثمنها بلغ ٧٢ مليون فى سنة ١٩٢٩ ، فلماذا لا ينعى على خلفاء اسماعيل بيع هذه الحصة التى بلغت أرباحها فى سنة ١٩٣١ برغم نزول سعر الجنيه الأسترلينى ١٫٠٢٠٫٥٤٤ جنيه مع أن ثمنها الأصلى هو كما قدمنا ٨٨٠٫٠٠٠ جنيه ؟ أليس من المعقول أنها لو ظلت باقية لمصر لدرت عليها فوائد جسيمة ؟

فالذين يلومون اسماعيل على بيع الأسهم محتجين بأن ثمنها بلغ ٣٢ مليون جنيه فى سنة ١٩٠٥ وأن هذا الثمن صعد فى سنة ١٩٢٩ إلى ٧٢ مليون جنيه يتناسون هذه الحقائق المريرة الآتية :

أولا : تدهور أسعار الأسهم فى سنة ١٨٧٥ كما بيناه لك مفصلا فى ص ٢٩٨

ثانيا : أن الأسهم أصبحت « ميتة » لا يمكن أن تأتى بأرباح لغاية سنة ١٨٩٤

ثالثا : أن اسماعيل أصبح وليست له كلمة فى مجلس إدارة شركة كثيرا ما خدمها مع ارتباطه فى الوقت نفسه بما تصدره من القرارات .

رابعاً : إن الثمن المعروض عليه كان مغريا ويزيد بنحو نصف مليون جنيه عن ثمن الأسهم الأصلى .

خامساً : موقف تركيا وهذه نقطة على جانب عظيم من الأهمية وإن تكن فاتت على كثير من الكتاب المصريين . ففى يوم الجمعة ٥ اكتوبر سنة ١٨٧٥ أى قبل اتمام الصفقة بنحو ستة أسابيع نشرت جريدة التيمس فى صدر صحيفة أخبارها لمكاتبها فى الاستانة البرقية الآتية :

ولوغضضنا النظر عما دفعه اسماعيل مؤقتاً من ثمن فادح لوجدت الحقيقة التى لاغبار عليها تنطق بان ماحدث من التقدم مدة حكمه التى لم تتجاوز

= «قرر الباب العالى أنه فى السنوات الخمس التى تبتدىء من أول يناير المقبل (سنة ١٨٧٦) سيدفع نصف سندات الدين العام وقسط استهلاكه نقدا والنصف الآخر سندات ذات ٥ ٪ » .

فهل تدرى ماذا كان أثر هذه البرقية ؟ لقد كانت بمثابة اعلان افلاس الحكومة العثمانية . فى الحال تدهورت السندات التركية وتبعتها السندات المصرية (الخاصة بقروض اسماعيل) وأصبح ذلك اليوم يعرف بيوم « الجمعة الأسود » فى تاريخ المالية المصرية . وحسبك ما كتبته التيمس فى العدد نفسه فى مقال بعنوان « الحالة المالية » ننقله عن كتاب « خراب مصر » للمستر روذستين إذ قالت :

« استولى الذعر اليوم على سوق السندات الأجنبية ولم تعلق فيها النشرة الصادرة من البنك العثمانى الامبراطورى الخاص بالدين التركى إلا فى منتصف النهار وإذ ذاك تدهورت السندات التركية أولا وأعقبتها السندات المصرية تدهورا هائلا كانت نتيجته إحداث ذعر شديد . ولم يشاهد أى تحسن عند اقفال البورصة بل استمرت السندات المصرية فى تدهورها إلى مابعد ساعات العمل . وليس ثمة أنباء عن مصر ولكن الدولتين مرتبطتان فى ذهن الجمهور ارتباطا تاما بحيث يعتبرهما كتلة واحدة » .

وماذا عساك أن تقول إذا علمت أن السندات المصرية ظلت تتدهور حتى بلغت سندات سنة ١٨٦٨ (الخاصة بقروض اسماعيل) إلى ٥٧ وسندات سنة ١٨٧٣ (الخاصة بها أيضا) إلى ٥٧ ½ ؟

فهل تعجب اذن أن يقدم اسماعيل على بيع أسهم مصر أم أن وجه العجب كان يكون حقا لو أنه تأخر عن بيعها وسط كل هذه الظروف القاسية ؟

بعثة كيف وهل طلبها اسماعيل ؟

فى يوم ١٨ اكتوبر سنة ١٨٧٥ أى بعد ثلاثة أيام من يوم الجمعة الأسود بعث الجنرال استانتون قنصل بريطانيا العام فى القاهرة يخطر لورد دربى « بأن الخديو أعرب له عن حاجته إلى موظف من موظفى الحكومة له إلمام تام بالنظام المتبع فى نظارة المالية لحكومة جلالة الملكة لمعاونة ناظر المالية المصرية على معالجة الفوضى =

الأثنى عشر عاما كان فى الواقع عملا مشرفا . فمثلا تضاعفت خطوط السكك الحديدية بنحو ١٣٠٠ ميل وأنشئت طرق جديدة تبلغ بضعة آلاف من الأميال . أما الخطوط التلغرافية فبعد أن كانت ٦٠٠ ميل فى سنة

= التى يعترف سموه بأنها ضاربة أطنابها فى تلك النظارة » .

ثم عدل الجنرال استانتون الطالب بعد بضعة أيام فقال إن الخديو يطلب استعارة رجلين ، يشرفان على الدخل والخرج تحت إشراف ناظر المالية على شريطة أن تكون لأحدهما على الأقل دراية تامة بعلم الاقتصاد السياسى الذى رسم للأمم فى العصور الحديثة المبادئ الصحيحة التى تنمو بها موارد الدول » .

ثم انقضت ثلاثة أسابيع وأخيراً رد لورد دربى فى ٢٧ نوفمبر بأن الحكومة الانجليزية ترى أن تبعث إلى مصر ، بعثة خاصة تنظر هى والخديو فيما يسأله سموه من النصح فى الشؤون المالية ! » .

وبعد أسبوع آخر تشكلت بعثة « كيف » من خمسة من كبار موظفى الحكومة برئاسة المستر (وقد أصبح فيما بعد السير) ستيفن كيف رئيس الخزانة العام .

وفى يوم ٦ ديسمبر سنة ١٨٧٥ أرسل اللورد دربى إلى المستر كيف خطاباً شرح فيه تاريخ الطلب وما يتعلق به إلى أن قال : « فينبغى أن توضح حكومة الخديو مكانة السيدين المطلوبين وسلطتهما . ولما لم يكن من المستطاع الوصول إلى التفاهم عن طريق التراسل فقد رأينا أن نرسل رجلا تثق به جلالة الملكة وهو فوق ذلك مشهود له بالكفاءة فى الشؤون المالية والأدارية ليفاوض الخديو وحكومته فى إدارة مصر ومركزها المالى وبذلك تكون حكومة جلالة الملكة أقدر على مد الخديو بالمعونة التى يريدها بمقتضى تقريره » . واسترسل لورد دربى فقال : « ولا تشك حكومة جلالة الملكة فى أن الخديو سيكون صريحاً صراحة تامة فى معاملته لكم وأنه سيسهل لكم كل التسهيل الوقوف على حقيقة شؤون مصر المالية وبذلك تستطيعون أن ترفعوا إليها تقريراً وافياً » .

وختم لورد دربى خطابه إلى المستر كيف قائلا : « ولو أن الغرض الأول من بعثتك هو الاتفاق مع الخديو على المعونة الأدارية التى طلبها سموه فلا يفوتنك أن تتصيد معلومات جمة كبيرة الأهمية لمصر أو لهذه البلاد . وعلى ذلك فحكومة جلالتها لاترى ضرورة لتزويدك بالتعليمات التفصيلية لأنها تفضل أن تترك شؤون اللجنة بقدر المستطاع إلى فطنتك وبعد نظرك » .

١٨٦٢ قد اصبحت فى سنة١٧٨٨ تناهز ٦٠٫٠٠٠ ميل وأنشئت مصلحة

= ولقد بيعت أسهم القناة لبريطانيا العظمى فى يوم ٢٥ نوفمبر ١٨٧٥ (أى قبل أن تغادر بعثة « كيف » انجلترا) وفى اليوم التالى أى فى اليوم الذى ذهب فيه اسماعيل صديق ومعه الصناديق السبعة التى تحتوى على الأسهم المصرية فى القناة لتسليمها لقنصل بريطانيا العام بعث لورد دربى إلى القاهرة مقترحاً إرسال البعثة المذكورة .

فهل كان بيع تلك الأسهم بعد تدهور السندات المصرية فى يوم الجمعه الأسود سببا فى تحول الحكومة البريطانية عن إرسال رجلين يشرفان على عملية الدخل والخرج إلى إرسال بعثة للبحث فى نفقات مصر وإدارتها والوقوف على حقيقة حالة المالية المصرية وإسداء النصح للخديو ؟

إن الانسان لا يسعه إلا أن يسأل هذه الأسئلة إذ فى هذا اليوم نفسه (٢٦ نوفمبر سنة ١٨٧٥) عقدت التيمس فصلا افتتاحياً بمناسبة ابتياع الأسهم قالت فيه :

« إن الجمهور هنا وكذلك فى البلاد الأخرى سينظر إلى هـذا العمل العظيم الذى قامت به الحكومة من وجهته السياسية لا من وجهته التجارية . فهو بمثابة مظاهرة . إنه لأعلان عن نيات معينة (كذا !) والمبادرة بالعمل إلى تحقيقها . فمن المستحيل أن نفرق فى أذهاننا بين شراء أسهم قناة السويس وبين علاقات انجلترا المقبلة بمصر أو بين مصر وما يحيط بمستقبل الأمبراطورية العثمانية .... فاذا أدت الثورة والاعتداءات من الخارج والرشوة من الداخل إلى سقوط تلك الأمبراطورية سياسيا وماليا فقد يتعين علينا اتخاذ الوسائل التى تكفل سلامة ذلك القسم من أملاك السلطان لما لنا به من الصلة الوثيقة » .

سفر بعثة كيف

ومهمتها فى نظر التيمس

وفعلا سافرت البعثة إلى مصر فى ديسمبر سنة ١٨٧٥ وبدأت بفحص حسابات الحكومة كما كان يعرضها عليه اسماعيل باشا المفتش .

وبينما البعثة منهمكة فى عملها وقبل أن تضع تقريرها إذا بجريدة التيمس تطلع فى يوم ٥ يناير سنة ١٨٧٦ على الملأ فى افتتاحيتها المالية بمقال لا ريب فى أنه موعز به . وقد رأينا أن ننقل نص فقراته الأولى عن كتاب مستر روذستين المسمى « خراب مصر » . قالت التيمس :

للبريد تزيد مكاتبها فى الجهات عن المائتين وأنشىء نحو ٥٠٠ من الجسور (الكبارى) و ١٥ من المنائر وأسست مدينة بور سعيد وأنشئت ميناء

= ، والنتيجة ألا شىء أضمن لسلامة موقف مصر من إحداث تغيير أساسى فى الحكومة المصرية وماليتها (كذا ! كذا !) ولا شك أنه لو كانت الثقة بمصر فيما مضى أشد من الثقة بها اليوم لاستطاعت أن تتفق مع دائنيها على خير من الشروط التى اتفقت وإياهم عليها . فالمسألة إذن هى كيف تحوز مصر هذه الثقة ؟ الظاهر أن كل ما يقال فى هذا الموضوع قائم على الاعتقاد بأن الخديو يخضع بطريقة ما صاغراً للأرشاد الأنجليزى (كذا) وانه سيعهد إلى انجلترا بادارة مالية مصر وأنه سيتحول إلى مصر بعض الثقة بانجلترا فتتمكن من نقص فائدة ديونها ونقص أقساطها السنوية نقصاً كبيراً . ولكن لابد لذلك من علاقة بين الحكومتين ليس ثمة أى ضامن لها ولابد من عطف من والى مصر لانرى على وجوده دليلا ما » .

فكأنما كانت التيمس ترمى من بعيد إلى استعداد انجلترا للقيام بأدارة مصر ماليا فى نظير خضوع الخديو « لأرشاد انجلترا » .

التنافس بين انجلترا وفرنسا

ونحسب أن القارىء يتوق إلى معرفة تفاصيل ما كان يجرى وراء الستار أثناء وجود بعثة كيف فى مصر ونشاط السياسة الفرنسية عند ما سمعت بالغاية المقصودة كما نبهتها التيمس إليها . فان حكومة باريس سرعان ما أرسلت المسيو أوترى قنصلها العام فى القاهرة سابقا لتحويل نظر الخديو عما تعرضه عليه بعثة كيف . وقد جعل يتبارى مع زميله المندوب الأنجليزى فى استرضاء الخديو حتى أن سموه صرح للمستر كيف بأنه يستطيع الاستغناء عن إرشاد انجلترا .

وعرض المسيو أوترى على الخديو مشروع إنشاء مصرف وطنى مصرى تحت اشراف مندوبين تعينهم انجلترا وفرنسا وايطاليا لتحويل الديون السائرة إلى دين واحد بفائدة ٩ ٪ وأن يقوم بكافة أعمال البنوك وتبادلها مع الخزانة كتسلم الأيرادات ودفع الكوبونات الخ .

واتجهت نية فرنسا إلى إشراك انجلترا فى هذا المصرف واقترحت فعلا على لورد دربى أن تعمل الحكومتان جنبا إلى جنب ولكن اللورد المذكور أدرك أن اشتراك انجلترا فى هذا المصرف لا يتفق مع مصلحة حملة الأسهم الأنجليز وجلهم من حملة قراطيس =

الاسكندرية ومدت فيها وفى القاهرة أنابيب الغاز والمياه والمجارى وانشىء خط للملاحة النيلية بالبواخر كما انشىء خط لنقل الركاب عبر البحر

= الموحد فليس من مصلحتهم أن يضاف إلى هـذا الدين معظم ديون الخديو السائرة وجلها مستمد من المصارف الفرنسية .

لا بل إن اللورد دربى ذهب إلى أبعد من ذلك فأبلغ الخديو فى ٦ مارس سنة ١٨٧٦ بأن انجلترا لا تشترك فى هذا المصرف بشكل ما . وإذ ذاك آثر سموه إهمال المشروع بحذافيره مما هلل له الرأسماليون الأنجليز كما شهدت بذلك جريدة ايكونومست ونقلته عنها التيمس فى ١٧ ابريل سنة ١٨٧٦ إذ قالت :

« اننا يسرنا جد السرور هبوط مشروع القرض الفرنسى وكذا اللجنة الفرنسية لأن نجاح أحد هذين المشروعين كان يؤدى حتما إلى أوخم العواقب ويكفى أنه يؤدى إلى صيرورة الفرنسيين حكام مصر الحقيقيين وهو الأمر الذى حمل بالمرستون فى بداية الأمر على مقاومة حفر قناة السويس ثم دفعنا فيما بعد إلى إنفاق أربعة ملايين من الجنيهات خشية أن تصبح أسهم الخديو فى القناة أسهماً فرنسية » .

تقرير بعثة كيف

هذه بعض ملاحظات رأينا اثباتها إتماماً للفائدة وايضاحا للناحية السياسية فى ابتياع أسهم القناة .

ونعود الآن الى بعثة كيف فنقول إنها ظلت فى مصر بقية شهر ديسمبر سنة ١٨٧٥ وطيلة شهر يناير سنة ١٨٧٦ وغادرت القاهرة فى أوائل فبراير . أى انها قضت زهاء شهر ونصف فى بحث مالية مصر ودراستها وهى مدة قصيرة جداً خصوصاً وأن الحسابات لم يكن يتبع فى تقييدها النظام الأوربى الحديث بل كانت من النوع الذى اعتاده كتبة الأقباط فى الزمن الغابر المسمى بصورة الفدان . هذا إلى ان الأرقام والتفاصيل كانت كلها بلغة لا يفهمها أحد من أعضاء البعثة .

فليس عجيباً إذن أن يأتى التقرير ناقصاً فى بعض نواحيه . على أن أهم ما جاء فيه اعترافه بأن مصر فى استطاعتها سداد ديونهـا لو خفضت الفوائد تخفيضاً معقولا ثم تنديده الشديد بالقرض المشؤوم المعقود فى سنة ١٨٧٣ والذى كانت قيمته الأسمية ٣٢ مليون جنيه لم يدفع منه نقداً إلا تسعة ملايين فقط فى حين أن ١١ مليون جنيه صدرت بسندات . أما الباقى وقدره ١٢ مليون فقد تسرب إلى جيوب السماسرة وغيرهم .

المتوسط . وقد انشىء من الترع الجديدة نحو المايتين وزادت ترع الرى من ٤٤٠٠ ميل إلى ٥٢٫٤٠٠ ميل بينما اصلح نظام الرى من اساسه وانتشت

= ولسنا نريد الدخول فى تفاصيل هذا التقرير ولا ماسرده من الأرقام التى اقتبسنا الكثير منها فى مختلف أنحاء الكتاب الحالى . وبحسبنا أن نقول إن التقرير جاء على العموم فى مصلحة اسماعيل باشا .

وقد اختتمته البعثة بتقديم نصيحة للرأسماليين بألا يتشددوا فى المطالبة «برطل اللحم» كاملا خيفة أن يؤدى تشددهم إلى تعطيل الآلة المالية فى مصر وتحطيمها نهائياً .

الاتفاق على عدم نشر التقرير

وقد وضع السير ستيفن كيف تقريره فى باريس . وكان المتفق عليه بين الخديو والحكومة الانجليزية أن يظل التقرير فى طى الكتمان .

ولكن الحكومة الفرنسية شرعت من جديد تفاوض اسماعيل لمساعدته على تنظيم ماليته وقد أرسلت فعلا مندوبها المسيو فيليه لهذه الغاية فى الوقت الذى استقر فيه رأى لندن على ارسال المستر ريفرز ولسن إلى القاهرة لاصلاح مالية اسماعيل .

ولما وصل ولسن طلب ايجاد لجنة مراقبة مالية فى مقابل توحيد الدين كله ونقص فائدته فى حين أن منافسه الفرنسى بعد أن أهمل مشروع المصرف الذى كان سبب الخلاف فى الماضى ، اقترح تأليف لجنة تتفرغ للدين العام وحده وتعين حكومات متعددة أعضاءها وتقتصر مهمتها على تسلم الايرادات المخصصة لدفع الكوبونات هذا إلى توحيد جميع الديون السائرة والثابتة على شروط معينة وضمانها ببعض موارد دخل الحكومة المصرية .

وسرعان ماطلب لورد دربى تفاصيل هذا المشروع . فلما اطلع عليها أعلن عدم موافقته عليها لأن اللجنة لن تكون مسيطرة فعلا على المالية بل يكون عملها قاصرا على استلام الأموال بالنيابة عن الدائنين هذا إلى أن شروط تحويل الدين السائر إلى دين ثابت ضارة بمصالح حملة أسهم الدين الموحد .

ولكن الخديو كان ميالا للمشروع الفرنسى فأرادت الحكومة الانجليزية صده عنه . فلما لوحت بنشر تقرير المستر كيف احتج اسماعيل قائلا إنه وثيقة ليس لأحد عدا حكومة جلالة الملكة حق الاطلاع عليها وخاصة وأن الاتفاق لم يكن تم بعد مع الممولين الانجليز على أساس المساعدة المراد تقديمها للخديو .

المصارف فحالت دون استمرار استغلال المرابين للفلاحين كما أنفقت الأموال بسخاء هائل لمساعدة المشروعات التجارية والصناعية المختلفة.

أما أن النفقات التى ذهبت فى هذا السبيل وتقدر بنحو ٥٠ مليون جنيه

= فأصغت الحكومة البريطانية إلى الاحتجاج. ولكن حدث ما هو أدهى وأمر. ذلك أن نائباً أوعز اليه بأن يسأل الحكومة عن السر فى عدم نشر تقرير كيف. فبدلا من أن يجيب المستر دزرائيلى بأن التقرير وضع بشرط ألا ينشر أجاب - على ما جاء فى المناقشات البرلمانية لهنسارد المجلد الأول ٢٣١ سنة ١٨٧٦ ص ٦٣٩ - « بأنه لا يمانع فى نشره إنما الخديو هو الذى يعارض فى ذلك أشد المعارضة ».

تدهور السندات المصرية

ويمكنك أن تدرك ما أصاب سوق الأسهم المصرية من الذعر وتدهور أسعارها من جراء هذا التصريح الذى فهم منه رجال المال أن التقرير المشار إليه لا يبعث على الرضا. ثم انقضت عشرة أيام أحس بعدها اسماعيل بحرج الموقف فطلب نشر التقرير قائلا إنه يجهل محتوياته ويتطلع إلى نشره ثقة منه بأن المستر كيف لم يقرر سوى الواقع بلا تحريف ولا زيادة، ولعلمه بأن نشر التقرير كفيل بتبديد مخاوف الجمهور التى لا يوجد ما يبررها.

ولكن كم كان اسماعيل شديد التفاؤل. فان الجمهور أبى أن يحسن الظن بموقف مصر المالى بعد تصريح المستر دزرائيلى المذكور. ولم يجد اسماعيل مايرد به على هذه المناورة إلا قوله « لقد حفروا لى القبر » كما أن المستر كيف - وهو الذى كان يقصد بتقريره إيجاد مخلص للخديو - لم يجد مناصا بعد تصريح المستر دزرائيلى من أن يعترف - كما ذكر فى المناقشات البرلمانية لهنسارد المجلد ٢٣١ سنة ١٨٧٦ ص ٦٢٧ و ٦١٠ - « بان بعثه بدلا من أن تساعد الخديو على الاقتراض قد اغلقت فى وجهه أسواق العالم ».

وما حل اليوم الثالث من شهر ابريل سنة ١٨٧٦ حتى نشر التقرير وتبين الناس أنه لم يكن غير مرض كما فهموا لأول وهلة. ولكن كان قد سبق السيف العزل وتدهورت السندات المصرية كما قدمنا.

التوقف عن الدفع

وفى يوم ٧ ابريل سنة ١٨٧٦ وقعت الواقعة. ذلك ان الخديو أصدر مرسوما بتأجيل دفع السندات والأقساط المستحقة على الحكومة فى شهرى ابريل ومايو لمدة =

قد كانت تعتبر على وجه العموم عملية مالية رابحة فيتجلى لك من مراجعة قليل من الأرقام . فلقد ازداد الأيراد من دون خمسة ملايين جنيه

=ثلاثة أشهر . ثم أعلن هذا المرسوم فى بورصة الاسكندرية فى اليوم التالى فكان هذا إيذانا بالتوقف عن الدفع .

ونحسب أن من الأنصاف لاسماعيل أن نذكر ما كتبته التيمس بعد ذلك بأيام خاصا بهذا الموضوع وكانت كما تعرف من ألد خصومه . قالت فى يوم ٢٦ ابريل سنة ١٨٧٦ كما رواه مستر روذستين :

« لقد تسببنا فى هبوط الأسهم المصرية إلى أبعد مما كان يمكن أن تهبط إليه لولم نتدخل فى مالية مصر . فلو لاح لاسماعيل مثلا أن يبعث إلى وزارة خارجيتنا يوما ما ويقول لها بصريح العبارة إن ترددسياسة انجلترا الخارجية وتذبذبها هو الذى أضعف به الثقة فى البورصات الأوربية وعليها وحدها تقع المسؤلية إذا رآى نفسه الآن عاجزا عن تسوية ديونه السائرة ـ وما كان ليعجز عنها لولا تدخلنا ـ إنه لو فعل ذلك لما وسعنا إلا أن نقره على لومه وتقريعه » .

فأين هذا الاعتراف الصريح من زعم لورد كرومر ـ ألد خصوم الخديو ـ فى ص ١٢ من المجلد الأول من كتابه « مصر الحديثة » اذ قال : « لقد ظهر قبيل حلول الكارثة العامة أن ادارة اسماعيل باشا السيئة لمالية البلاد لابد أن تؤدى إلى انهيار مالى عاجل أو آجل . ولقد وقع المحذور فى ٨ ابريل اذ أجل الخديو دفع سندات الخزينة » .

انشاء صندوق الدين

٢ مايو سنة ١٨٧٦

سردنا عليك من أقوال المالى الانجليزى الكبير السير جورج اليوت وغيره مايستنتج منه أنه كان فى استطاعة مصر التغلب على ديونها وارضاء كافة دائنيها لو حول دينها السائر إلى دين ثابت وعدلت فائدة الدين الموحد كله . وهذا ما اقترحه المسيو فيلييه فعلا بالنيابة عن الدائنين الفرنسيين فضلا عن انشاء لجنة تتفرغ للدين وحده وتستلم الأيرادات المخصصة لأداء الكوبونات .

وبعد تجارب الخديو فى صدد تقرير كيف مال إلى الاقتراح الفرنسى وترك الدائنين الانجليز ينتظرون ماترسمه لهم حكومتهم من الخطط .

وفى يوم ٢ مايو سنة ١٨٧٦ صدر مرسوم خديو بانشاء صندوق الدين وهو=

فى سنة ١٨٦٢ إلى ٨٫٥٠٠٫٠٠٠ ج فى سنة ١٨٧٩ . وقد قدر«المستر كيف» فى وقت متأخر أى فى سنة ١٨٧٥ أن مصر قادرة على سداد ديونها حتى بدون الالتجاء إلى الضغط على مؤسسات اسماعيل المالية .

= بمثابة خزانة فرعية لخزانة الدولة تكون مهمته قاصرة على استلام الأيرادات المخصصة للديون .

وقد خصص لهذا الصندوق ايراد مديريات الغربية والمنوفية والبحيرة وأسيوط وعوايد الدخولية فى القاهرة والاسكندرية وايراد جمارك الاسكندرية والسويس وبور سعيد ورشيد ودمياط والعريش وايراد السكك الحديدية ورسوم الدخان وضريبة الملح ومصايد المطرية (دقهلية) ورسوم الكبارى وعوائد الملاحة فى النيل وايراد كوبرى قصرالنيل وايراد أطيان الدائرة السنية (وكان ريعها السنوى ٦٨٤٫٠٠٠ جنيه) وبالجملة فقد خصص لصندوق الدين من الدخل ما يبلغ ٨ مليون جنيه سنويا وذلك لأداء الفوائد وأقساط الاستهلاك .

وكان بين مانص عليه مرسوم انشاء الصندوق : أنه مختص بتسلم النقود المخصصة لسداد الديون ، وأن يتولى ادارته مندوبون أجانب تنتدبهم الدول الدائنة ويعينهم الخديو وفقا لهذا الانتداب ، وأن يوردالموظفون المختصون بتحصيل الأيراد مايجمعونه إلى صندوق الدين رأسا ، وأن الحكومة ممنوعة من تعديل الضرائب التى خصصت إيراداتها لصندوق الدين تعديلا يفضى إلى انقاص الوارد منها الا بموافقة أعضاء صندوق الدين ، وألا حق للحكومة فى عقد قرض أو اصدار افادات مالية على الخزانة إلا لأسباب تقضى بها حاجة البلاد وبعد موافقة صندوق الدين ، وللحكومة الحق فى الاقتراض بالحساب الجارى مالا يزيد عن ٥٠ مليون فرنك (مليونى جنيه) للقيام بخدمة الخزانة .

وقد نص المرسوم المذكور على جعل المحاكم المختلطة مختصة بنظر مايرى صندوق الدين اقامته على الحكومة من الدعاوى خدمة لمصالح أصحاب الديون .

مشروع توحيد الديون

مرسوم ٧ مايو سنة ١٨٧٦.

وفى يوم ٧ مايو سنة ١٨٧٦ أصدر اسماعيل مرسوماً آخر بتوحيدديون الحكومة ودين الدائرة السنية والديون السائرة إلى دين واحد سمى (الدين الموحد) وقدره =

ثم أن الأهالي ازداد عددهم من ٤٫٨٠٠٫٠٠٠ إلى ٥٫٥٠٠٫٠٠٠ وتضاعفت مساحة أراضي الزراعة من ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ إلى ٥٫٥٠٠٫٠٠٠ فدان كذلك تضاعف عـدد المواشي. ثم يلاحظ أن ازدياد العناية بحل

= — كما قال لورد كرومر — ٩١ مليون جنيه انجليزى بفائدة ٧ فى المائة على أن يستهلك فى ٦٥ سنة مع بقاء القروض الطويلة الأجل وهى قروض سنوات ١٨٦٢ و ١٨٦٨ و ١٨٧٠ و ١٨٧٣ على حالها بأن تستبدل بسنداتها سندات جديدة من الدين العام بحساب المائة مائة بينما يعطى أصحاب القروض القصيرة الأجل وهى قروض سنوات ١٨٦٤ و ١٨٦٥ و ١٨٦٧ سندات جديدة تحسب لهم بواقع مائة لكل خمسة وتسعين من قيمتها الأسمية وذلك فى مقابل إطالة أجل سدادها . أما سندات الدين السائر فتستبدل بها سندات جديدة مع اضافة ٢٥ فى المائة إلى قيمتها أى بواقع ١٠٠ لكل ٨٠ جنيه من قيمتها الأسمية وذلك مقابل إطالة أجل السداد .

مرسوم ١١ مايو سنة ١٨٧٦

وكانت هذه ولا ريب تسوية عادلة للدائنين لا للمصريين وبخاصة وأن الخديو — كما جاء فى القاموس العام للأدارة والقضاء لصاحبه فيليب بك جلاد — أصدر فى ١١ مايو مرسوماً ثالثاً بانشاء مجلس أعلى للمالية مركب من عشرة أعضاء نصفهم من المصريين والنصف الآخر من الأجانب عدا الرئيس الذى يعينه الخديو ، وأن يكون مقسما إلى ثلاثة أقسام أحدها لمراقبة خزائن الحكومة والثانى لمراقبة ايراداتها ومصروفاتها والثالث لمراقبة الحسابات . ولهذا المجلس الحق فى إبداء رأيه فى الميزانية السنوية التى يضعها وزير المالية باسم الحكومة على أن يكون ذلك قبل نهاية السنة بثلاثة أشهر . وقد اختار الخديو لرياسة هذا المجلس السنيور شالويا أحد أعضاء مجلس الشيوخ الأيطالى .

ولم يفعل الخديو كل هذا إلا لأقامة الدليل على حسن نيته وطمأنة الدائنين على حسن الأدارة المالية .

بعثة جوبير غوشن

لم تكن الحكومة الانجليزية شديدة الارتياح لأنشاء صندوق الدين ولا لتوحيد الديون . ولذلك امتنعت عن تعيين مندوب لها فى صندوق الدين مع أن الدول=

« الشفالك » قرب الفلاح من تحقيق بغيته الكبرى وهى أن يكون له فدان من الأرض وبقرة . وإذا كان لدى الفلاح الانجليزى ما يحمله على أن يحسد الفلاح المصرى برغم الكرباج والسخرة فان لدى نساج

= الأخرى الثلاث عينت مندوبها فعينت فرنسا المسيو دوبلنير والنمسا فون كريمر وايطاليا السنيور بارافللى .

وبعد مناورات طويلة من وراء الستار سافر فى خلالها اللورد دربى إلى باريس للاجتماع بالدوق دى كاز وزير الخارجية واقناعه بوجوب وضع نظام جديد يتضمن ادخال تعديلات جديدة تكفل جعل مصر فى سياستها وفى تصرفاتها الداخلية أكثر خضوعا للدول الأجنبية .

ولم يكتف اللورد دربى بذلك بل بعث إلى باريس بالمستر غوشن (وهو اللورد غوشن فيما بعد) عضو الوزارة السابقة وابن المالى الشهير غوشن . فقام هذا بمفاوضة الدائنين الفرنسيين إلى أن ضمهم إلى وجهة نظر اللورد دربى .

وكم كان ابتهاج بورصة لندن عند وصول الأنباء بموافقة الدائنين الفرنسيين على رأى المستر غوشن الذى أقام فى اكتوبر سنة ١٨٧٦ حفلة وداع وأقسم فيها للدائنين الأنجليز الحاضرين — كما ذكرت التيمس — « ليحصلن لهم على أعظم ما يستطاع تحصيله » .

ثم سافر المستر غوشن بعد أيام إلى القاهرة ممثلا للدائنين الأنجليز يصحبه المسيو جوبير ممثلا للدائنين الفرنسيين لحمل الخديو على قبول التعديلات الجديدة .

وتنفيذاً لخطة موضوعة من قبل أفهم القنصل البريطانى العام الخديو مكانة المندوبين وبخاصة مستر غوشن الذى قال إنه يحتمل عودته إلى الوزارة قريباً . كل ذلك للتأثير فيه وحمله على الأذعان .

وهنا ظل مشروع جوبير غوشن فى كفة القدر عدة أيام بسبب الموقف العدائى الذى وقفه حياله اسماعيل المفتش .

موت اسماعيل المفتش

ونظرا لما كان للمفتش من النفوذ فى أنحاء البلاد فقد رأى فيه أصحاب المشروع الجديد « ألد عدو للاصلاح » ملحين بذلك إلى وجوب إبعاده . يدلك على ذلك ما بعثه مراسل التيمس الأسكندرى إلى صحيفته فى ١٢ نوفمبر سنة ١٨٧٦ قائلا : « إن سقوط المفتش سواء أكان بحق أم بغير حق ، أصبح مرغوباً فيه . ولعمرى ليس أدعى إلى =

لتكشير ما يحمله على تمنى الخير لمصر . فقد كان قطن الدلتا هو الذى أنقذ لنكشير من الخراب التام فى إبان الحرب الأمريكية الداخلية .

أما الصادرات القطنية فلم تتضاعف قيمتها إلى أربعة أمثالها فقط

= إنعاش بورصة الاسكندرية الكاسدة من تحقيق تلك الأشاعة التى رددت كثيراً عن سقوط المفتش ».

وفى هذا ما فيه من التحريض على وجوب التخلص من المفتش

وأخيرا لما مات المفتش إذا ببورصة الاسكندرية تنشط حركتها حتى أن الأسهم المصرية — كما ذكر مراسل التيمس — ارتفع سعرها ثلاثة بنوط فى نصف ساعة . وحكاية موت المفتش ما تزال من الأسرار الغامضة التى لم يعرف الناس ولن يعرفوا كنهها ولا حقيقتها . والأقوال فيها متضاربة ومتناقضة .

مرسوم ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ لتسوية الدين العام

كان طبيعياً بعد موت المفتش فى منتصف شهر نوفمبر سنة ١٨٧٦ أن يرقص طربا أنصار مشروع غوشن - جوبير بعد أن زالت العقبة الكؤود - وهى اسماعيل المفتش - من الطريق . وما هى إلا أيام قلائل حتى صدر مرسوم ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ باقرار ما أدخله غوشن وجوبير من التعديلات على مرسوم مايو سنة ١٨٧٦ وفرض الرقابة الأجنبية على المالية المصرية .

أما التعديلات فتتضمن اخراج ديون الدائرة السنية وقدرها ٧٫٨١٥٫٠٠٠ جنيه من الدين الموحد وعقد اتفاق خاص بشأنها ، واخراج القروض القصيرة الأجل من الدين الموحد وتسديدها فى مواعيدها ، وتخفيض العلاوات المقررة لأصحاب الدين السائر من ٢٥ ٪ إلى ١٠ ٪ وما تبقى من الدين المصرى يقسم إلى قسمين أحدهما الدين الممتاز ومقداره ١٧ مليون يستهلك فى ٦٥ سنة من ايرادات السكة الحديدية وميناء الاسكندرية وتعطى سنداته بالأفضليه لحملة أسهم القروض الطويلة الأجل . وثانيهما الدين الموحد وقد خفض إلى ٥٩ مليون جنيه وجعل فائدته ٧ ٪ يستهلك من الايرادات المبينة فى مرسوم ٧ مايو سنة ١٨٧٦ . ثم إعادة العمل بقانون المقابلة وإبقاء صندوق الدين بصفة دائمة إلى أن يستهلك الدين العام بأكمله . ولأعضائه الحق فى استلام الايراد المخصص لاستهلاك الدين وأرساله رأساً إلى بنكى انجلترا وفرنسا وأن يكون تعيين أعضائه بطلب حكوماتهم .

بل زادت الصادرات بصفة عامة من ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ إلى ١٤٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه كما زادت الواردات من دون المليونين إلى ٥٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه وبالجملة فان ما أحدثه رأس المال الأجنبي من النشاط أدى باقترانه بالصناعة الوطنية إلى تنمية الاقتصاد الوطني بسرعة تدعو إلى الدهشة. وقد كتب القنصل

= وفي ١٢ و ١٣ يولية سنة ١٨٧٧ عقد اتفاقان لتسوية ديون الدائرة السنية والدائرة الخاصة .

المراقبة الثنائية

وليس المهم في هذا المرسوم ما وصل إليه الدائنون من تعديلات ولكن وجه أهميته - وهذا ما كان يعارض فيه المفتش - تعيين مراقبين أجنبيين بوظيفة مفتشين عموميين أحدهما انجليزي ويسمى مفتش الايرادات والثاني فرنسي لمراقبة المصروفات ويسمى مفتش الحسابات والدين العمومي .

ووظيفة الأول كما يفهم من التعبير تحصيل إيرادات الحكومة وتوريدها للخزائن المخصصة لها وله أن يعزل ويولي من يشاء من مأموري التحصيل - ماعدا محصلي الرسوم القضائية في المحاكم المختلطة - بعد تصديق اللجنة المالية المؤلفة من وزير المالية ومن المراقبين الأجنبيين .

ووظيفة الثاني ملاحظة القوانين واللوائح المتعلقة بالدين العام وبالجملة تفتيش حسابات الخزانة . وليس لأحد من الوزراء أو رؤساء المصالح أن يأمر بصرف مايصدرونه من أذونات أو تحاويل إلا بعد تأشيرة المراقب. وله حق الاعتراض على صرف أي مبلغ يتجاوز المربوط في الميزانية .

ولهذا المراقب أن يقوم بوظيفة المستشار المالي لوزارة المالية وهو هو نفس المنصب الذي لايزال يحتفظ به تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ كما أن للمراقبين الحق في الاشتراك في تحضير ميزانية الحكومة .

وزاد المرسوم على هذين المراقبين أمراً آخر وهو وضع إدارة السكك الحديدية وميناء الاسكندرية تحت إدارة لجنة مختلطة مركبة من خمسة مديرين . منهم اثنان انجليز ومصريان وواحد فرنسي على أن يكون رئيس اللجنة أحد المديرين الانجليزيين وهذه اللجنة تسلم إيرادات السكك الحديدية لصندوق الدين ولها السلطة العليا على كافة موظفي الادارة .

العام الأمريكى ادوين دليون فى كتابه «مملكة الخديو سنة ١٨٨٣»

تنفيذ المرسوم الجديد

وبمقتضى المرسوم الجديد عين المستر رومين القاضى السابق فى الهند مراقباً انجليزيا عاما للايرادات وعين البارون دى مالاريه مراقبا فرنسيا للمصروفات كما عين الجنرال الانجليزى ماريوت رئيسا للجنة السكك الحديدية وميناء الاسكندرية.

وأبت الحكومة البريطانية أن تتحمل مسؤولية تعيين الموظفين السابقين كما أنها لم تعين عضواً انجليزياً لصندوق الدين. ولكن اللوردغوشن والسير لويس ماليت اقترحا على الخديو تعيين السير افلن بارنج عضوا انجليزياً فى ذلك الصندوق إلى جانب المسيو دوبلنيير العضو الفرنسى وفون كريمر العضو النمساوى وبارفللى العضو الايطالى.

وبديهى أن توقف مصر عن الدفع لم يكن من الحوادث التى تبرر اتخاذ كل هذه الشروط المهينة ووضع ادارة البلاد فى أيدى جماعة من الأجانب مهما حسنت نياتهم فانهم كانوا يعملون قبل كل شئ لمصلحة الدائنين.

وهانحن نرى فى عصرنا الحاضر حكومات عديدة تتوقف عن الدفع فجأة دون أن يتحرك الدائنون أو تحدثهم نفوسهم بوضع حكومة الدولة المدينة تحت رقابة أجنبية.

ومن الملائم أن نذكر هنا أن الحكومة الفرنسية ظنت بادئ ذى بدء أن الشركة الثنائية تخدم مصالحها المالية ولكن الحوادث أثبتت فيما بعد أنها إنما سخرت لخدمة المصالح الأنجليزية التى أصبحت ذات الحول والسلطان إلى أن انفردت بحق البت فى مستقبل وادى النيل. وما ألطف ما كتبه فى هذا الصدد الوزير الفرنسى الخطير دوفريسينيه فى كتابه المسألة المصرية ص ١٦٨ وأدناه إلى الحق إذ قال:

«اننا ارتكبنا فى هذا الصدد خطأين. اولهما أننا جعلنا التدخل فى مصر مقصوراً على أنفسنا وعلى الأنجليز. والعمل الثنائى هو فى ذاته عمل متعب وخاصة اذا كان بين شريكين يختلفان فى الطباع والمناهج ووجهات النظر مثل فرنسا وانجلترا ولابد فى مثل هذه الاتفاقات من ضحية. وكان من الواجب علينا أن نشرك معنا الدول الأخرى، وتتخذ فى هذه المسألة وسائل مالية على النحو الذى حدث فى انشاء صندوق الدين والمحاكم المختلطة أو كما حدث بعد ذلك فى قانون التصفية. أما الخطأ الثانى فاننا أسرفنا فى جعل سياستنا تابعة للمسألة المالية فانه وإن كان يحسن بالحكومة أن تحمى مصالح=

ما نصه : « إن ما أدخل من التحسينات على المشروعات العامة التي ابتدأت



المسيو دوفريسنيه وزير خارجية فرنسا سابقاً
وصاحب كتاب المسألة المصرية

رعاياها لكن الحالة تختلف اذا كان أصحاب الديون لا يكتمون ما تنطوي عليه أعمالهم المالية من المغامرة . ففي هذه الحالة لا يطلب من الحكومات أن تتدخل في شؤون الدول الأخرى إلى هذا الحد . فنحن لم نحارب تركيا أو البرتغال أو البلاد الأخرى التي توقفت عن أداء أقساط ديونها ، فلماذا كنا قساة نحو مصر مع أنها كانت أقل اخلالا بتعهداتها المالية من تلك الدول ؟ »

إرهاق البلاد وإعناتها

وفي أواخر سنة ١٨٧٦ دخل النظام الجديد في دور التنفيذ . ولا تسل عما مر بالبلاد من ضروب الأعنات ولا ماصادفه الفلاحون والمنتجون من شتى أنواع الارهاق في سبيل الحصول على أقساط الكوبون . نعم دفع كوبون يناير سنة ١٨٧٧ في ميعاده المقرر ولكن ذلك لم يكن على حساب تخفض مصروفات البلاط والحريم إلى أدنى حد فحسب بل وتأجيل دفع مرتبات معظم موظفي الحكومة وحل جزء من الجيش وهذه المسألة الأخيرة ينبغي ألا تفوت القارىء متى تذكر ما انتشر في الجيش من أسباب التذمر والتبرم بأعمال الموظفين الأجانب على نحو ما سنبينه فيما بعد .

وتمت فى خلال الأثنى عشر عاما الماضية كان فوق الوصف » واعترف مراسل التيمس (٦ يناير سنة ١٨٧٦) بفضل اسماعيل فقال مانصه : « تعتبر مصر مثالا باهراً للتقدم . فلقد فاق تقدمها فى سبعين سنة تقدم كثير غيرها من الممالك فى خمسمائة عام » .

ولكن لم يكن يستطاع أن يكفى هذا التقدم ولا المكاسب لدفع

= وإذ رأت المراقبة الثنائية أن ما لجأت إليه من وسائل العنف والإرهاق لا يكفل تجهيز كوبون يولية سنة ١٨٧٧ فى ميعاده فقد اضطرت إلى زيادة رسوم الجمرك بالاسكندرية بنسبة ١٠٠٪ وزيادة أجور الشحن بالسكك الحديدية بهذه النسبة وغيره وغيره مما كانت نتيجته الإخفاق فى تحقيق النتيجة التى كانت المراقبة تعمل لها . لأن الزيادة الجمركية وأجور الشحن أدت إلى نقص الواردات وتحول الناس عن السكك الحديدية إلى الشحن بالسفن فى النيل . ولكن هذه الاجراءات حفزت أعضاء المراقبة إلى تضييق الخناق على الفلاحين وخاصة فى المديريات المخصص إيرادها لوفاء الدين وذلك برغم تحذيرات الخديو ولفته نظر أولئك الأعضاء إلى أنهم بتعنتهم هذا يسوقون البلاد سريعاً إلى الهاوية .

وقد دفع كوبون يولية بتمامه . ولكن القنصل الانجليزى العام أرسل فى صدده إلى حكومته يخبرها بأن « مصر قد دفعت فى خلال ثمانية أشهر مايقرب من ستة ملايين من الجنيهات وهى شهادة ناطقة بحسن النظام الجديد . ولكن أخشى أن نكون قد حصلنا على هذه النتائج بعد هلاك الفلاحين بسبب بيع حاصلاتهم قبل حصادها قسراً وجباية الضرائب مقدماً قبل مواعيدها . هذا فضلا عن أن مرتبات الموظفين الوطنيين التى يعد دفعها بانتظام شرطاً أساسيا لحسن الإدارة قد أجل دفعها لسداد الكوبون . وبهذا تكدس ما للمستخدمين من متأخرات » بل إن مراسل التيمس أضطر أن يحذر المستر رومين « بألا ينسى الفلاحين فى غمرته على مصالح الدائنين وإلا رأى نفسه يوما ما قد جاوز حدود قدرة البلاد على الإنتاج » .

وكانت نتيجة هذا الإرهاق أنه قبل أن يمضى عام واحد على تنفيذ مشروع غوشن جوبير كانت حركة البلاد قد أصبحت مشلولة . ففى سنة ١٨٧٧ بلغ إيرادها العام ٩٫٥٤٣٫٠٠٠ جنيه ذهب منه للدائنين ٧٫٤٧٣٫٠٠٠ جنيه . فاذا خصمت مبلغ الجزية وفوائد أسهم قناة السويس لا يكاد يتبقى مليون جنيه واحد لإدارة شؤون البلاد .

اقساط الصفقات التى عقدها اسماعيل مع الماليين الأجانب . وسرعان ما أصبح مركز مصر من الحرج حتى صار شبيهاً بمركز متجر صغير وطيد



لورد كرومر

= من أجل ذلك اضطر المستر فيفيان قنصل بريطانيا العام أن يكتب إلى حكومته يخبرها بأن « الخزانة قد باتت خاوية على عروشها . وأن مرتبات الجنود وموظفى الحكومة لم تدفع منذ أشهر وأن البؤس والشقاء يخيمان على البلاد التى أصبحت حركتها مشلولة » .

وفى ١٥ ديسمبر سنة ١٨٧٧ حل ميعاد الكوبون فأجل دفعه إلى أسبوعين . وهنا وجد المستر رومين — وكان كما قلنا قاضيا يدفعه ضميره إلى التنديد بالمظالم — أن الوقت قد حان لكتابة مذكرة مطولة لحكومته أثبت فيها أن الضرائب التى يدفعها الفلاحون فاقت كثيرا مقدرتهم الاقتصادية .

وكانت مذكرة المستر رومين خليقة برفع العنت عن كاهل الأهالى وخاصة وأن كاتبها كان مراقب الايرادات ، أى أنه يعلم جيدا ما يكتب . ولكن الماجور بارنج (لورد كرومر فيما بعد) — ووظيفته كانت فى صندوق الدين كما تعلم — رأى أن يكتب مذكرة يعارض فيها ما ذهب إليه المستر رومين وراح يزعم أن الضرائب المفروضة على فلاحى مصر لا تعتبر باهظة إذا قيست بالضرائب فى البلاد الأخرى =

الدعائم اضطر صاحبه فى سبيل تنمية أعماله إلى الاستدانة من المرابين الأسافل. أما أن اسماعيل مالت نفسه كما مالت نفوس معاصريه من أمراء

= وخشية من أن تجد مذكرة المستر رومين نقطة حساسة فى قلوب الدائنين المتحجرة فان الماجور بارنج اتفق هو وزميله المسيو دوبلنير العضو الفرنسى فى صندوق الدين على السفر إلى أوروبا لمباحثة الدائنين وإقناعهم بوجوب ابقاء الحالة على ماهى عليه وعدم التأثر بملاحظات المستر رومين.

الديون المحلية والمحاكم المختلطة

وقد مر بك ما بذله اسماعيل من الجهود لحمل الدول على الموافقة على إنشاء نظام المحاكم المختلطة لوضع حد للفوضى الضاربة أطنابها فى مصر من جراء استغلال الامتيازات وإساءة استخدامها فى القطر المصرى . وقد كانت الحكومة المصرية اقترضت من الأجانب المقيمين فى مصر بعض قروض يجمعها كلها ما يسمى بالديون السائرة . فلما جاء موعد سدادها فى أواسط سنة ١٨٧٧ وحالة مصر المالية كما شرحناها هنا أخذ أولئك الأجانب يجأرون مطالبين بالسداد . فلما لحظوا شيئا من التلكؤ الناشىء لا عن سوء النية بل عن العجز عن الدفع هددوا بالالتجاء إلى المحاكم المختلطة. ومن ثم أضطر اللورد فيفيان بناء على تعليمات حكومته أن يخطر الحكومة المصرية فى أغسطس سنة ١٨٧٧ بأن الدائنين سيلجأون إلى استعمال حقهم وهو الشكوى للمحاكم المختلطة ومن ثم تجد الحكومة نفسها أمام جملة أحكام قضائية يتعين عليها تنفيذها جميعا وفورا وإلا أحدث أسوأ تأثير فى نفس الحكومات التى أيدت إدخال ذلك الأصلاح القضائى . »

وهكذا شاء القدر الساخر ألا يمضى عام ونصف عام على مابذله اسماعيل من جهود وأموال لانشاء هذه المحاكم المختلطة حتى تصبح سيفا مصلتا يستعمله لورد فيفيان لحمل اسماعيل على أداء الدين وفعلا بدأت الدول تلح فى وجوب أداء هذه الديون وكانت ألمانيا أشدها إلحاحا بفضل تشدد البرنس بسمارك .

لجنة التحقيق العليا

٢٧ يناير سنة ١٨٧٨!

ويظهر أن الماجور بارنج والمسيو دوبلنير لما سافرا إلى أوربا أفهما حكومتيهما أنه برغم ماوقعت فيه مصر من الارتباك لاتزال توجد موارد مالية أخرى يصح أن =

الشرق إلى استغلال ما استدانته دولته من الرأسماليين الأجانب الذين لم تكن معاملتهم لمصر أفضل من معاملتهم لغيرها من الدول الشرقية فأمر مفهوم . ولكن اسماعيل كان متفقهاً فى أساليب المالية العليا ووصل فى الألمام

= تمتد إليها أيدى المراقبين . فكان من جراء ذلك أن قررت الحكومات إجراء تحقيق فى المالية المصرية تتولاه مايسمونه لجنة التحقيق العليا .

فلما عاد بارنج ودوبلنيير إلى القاهرة قدما لاسماعيل يوم ٩ يناير سنة ١٨٧٨ ذلك الاقتراح الذى يمكنك أن تتصور وقعه عليه . على أنه وافق بشرط ألا تتجاوز اللجنة البحث عن موارد جديدة . ولكن الدائنين لم يقبلوا شيئا من هـذا بل طلبوا البحث فى مصروفات الحكومة أيضا علهم يجدون وسيلة لتخفيضها إلى الحد الأدنى الذى يضمن دفع الكوبونات .

وبالجملة فان الاقتراح الجديد كان فى مجموعه أشبه شيء بطلب تعيين وصى على قاصر وحسبك أنه يضع ميزانية البلاد فى أيدى الأجانب ويسمح لهم بالتصرف كما يشاؤون فى أمور البلاد . أو بالأحرى كان بمثابة وضع مصر تحت الحماية الأوربية المشتركة وفى ذلك مافيه من القضاء على استقلالها وكيانها .

= على أن اسماعيل ظل يقاوم هذا الاقتراح ولكن اللورد غوشن بدأ يلجأ إلى التهديد فنشرت له التيمس فى أوائل يناير سنة ١٨٧٨ تصريحا « بأنى سأبذل مافى وسعى ونفوذى للقضاء على محاولة الحكومة المصرية حصر دائرة التحقيق». ثم أخذت التلغرافات الواردة من باريس تلوح باسم الأمير حليم باشا عم الخديو وإمكان إعادته إلى العرش الذى يطالب به .

لا بل أن اللورد غوشن هدد اسماعيل فى خطاب آخر أرسله إلى التيمس باتخاذ أجراءات معينة فى مؤتمر برلين المقبل « حيث ستتناول المناقشة بلا ريب مركز مصر ».

ومع أنه كان يصعب على الإنسان التأكد من إمكان تنفيذ هذه التهديدات الغامضة إلا أن الخديو كان على مايلوح قد استولى عليه الهم من توالى هذا الإعنات والإرهاق فأصدر فى يوم ٢٧ يناير سنة ١٨٧٨ مرسوماً بتأليف لجنة أوربية للتحقيق فى أسباب العجز فى الأيرادات وأوجه النقص فى القوانين واللوائح الخاصة بالضرائب ووسائل إصلاحها وتحقيق موارد الميزانية عن سنة ١٨٧٨ مع تخويل اللجنة حق الاتصال بجميع المصالح والدواوين وسماع من ترى لزوما لسماعه لجمع البيانات التى تطلبها .

بمختلف ألغازها وأسرارها إلى غور بعيد يحسده عليه كثير من أمراء الشرق

ولما واصل الدائنون تهديداتهم وتدخلت فرنسا وانجلترا لمصلحتهم وأصرتا على أن تتناول تحقيقات اللجنة الايرادات والمصروفات أصدر الخديو فى ٣٠ مارس سنة ١٨٧٨ مرسوما آخر بتعميم اختصاص اللجنة وفرض على الوزراء وسائر موظفيها تزويدها بما تطلبه من البيانات وتقديمها إليها رأسا وبلا إبطاء .

وقد عين هذا المرسوم الأشخاص الذين تتألف منهم اللجنة ولكن الأجانب المحليين طالبوا بتعيين مندوبى صندوق الدين وبعثوا إلى ممثلى الدول العظمى عريضة كتبت بلهجة بذيئة حملوا فيها حملة شعواء على الحكومة المصرية وبلغ من قحتها أن قنصل بريطانيا العام رفض استلامها .

ولكن اسماعيل لم يعر سفاهة السفهاء أى التفات وكان أكبر همه أن يكون بين أعضاء اللجنة رجلا انجليزيا وآخر فرنسيا يكفى اسماهما لبعث الثقة لدى حكومتى لندن وباريس . ولذا اقترح تعيين الجنرال غوردون وفردينان دلسبس . فبادرت فرنسا بالموافقة بينما اعترض اللورد فيفيان باسم حكومته على طلب تعيين الجنرال غوردون بحجة أنه « برغم مايتحلى به من الصفات السامية والمقدرة الممتازة فانه لا علم له بالشؤون المالية » .

كفاح غوردون من أجل اسماعيل

مما يدلك مرة أخرى — إن كنت فى حاجة إلى دليل جديد — على أن تعيين غوردون فى منصبه الكبير كان بمحض إرادة اسماعيل أن الخديو — بعد أن ضاق صدره بما كان يراه من تهجم الدائنين على سلطته وبعد اصدار المراسيم الخاصة بتعيين لجنة التحقيق العليا لجأ إلى صديقه غوردون يستدعيه إلى القاهرة ليكون إلى جانبه فى الساعات العصيبة التى كانت تمر بها البلاد .

وقد وصف غوردون بقلمه البليغ وبعبارات مؤثرة كيفية وصوله إلى القاهرة وتأثره بما طالعه فى تقرير بعثة كيف عن جشع الدائنين وما جرته الفوائد الفاحشة على البلاد من الخراب واعتزامه الدفاع عن اسماعيل الى آخر قطرة من حياته ورد مطامع الدائنين مهما كلفه ذلك ومقابلته لقناصل الدول وتحذيرهم له من قبول رئاسة لجنة التحقيق بدون أن يشرك معه مندوبى صندوق الدين ومقابلته للسير افلن بارنج وعدم اتفاقهما فى الرأى وما أبداه من النصح للخديو بألا يدفع الكوبون بل يبادر بدفع

والغرب ثم إنه كان يفحص بنفسه تفاصيل كل صفقة على حدة . بل بلغ به

= المرتبات المتأخرة للموظفين وتبرم اسماعيل به لاخفاقه فى حمل انجلترا على قبول وجهة نظره ، ذلك لأن المستر فيفيان تسلم من لورد دربى برقية يكلفه فيها بأن يشترك مع زميله القنصل الفرنسى فى ابلاغ الخديو بأن حكومة جلالة الملكة ترجو ألا يفعل سموه شيئاً إلا بالاتفاق مع الدائنين .

تشكيل اللجنة ومواصلة اجتماعاتها

وإذ ذاك لم يجد الخديو مناصاً من الاذعان لرغبة أوربا المتحدة . فتعين المسيو دلسبس رئيساً والسير ريفرز ولسن ورياض باشا وكيلين وأعضاء صندوق الدين وهم بارفيللى وبارنج ودوبلنيير وفون كريمر .

ثم عقدت اللجنة أول اجتماع لها فى ١٣ ابريل سنة ١٨٧٨ وأخذت تواصل اجتماعاتها وأصبحت الرآسة الفعلية للسير ولسن نظرا لكثرة تغيب دلسبس فى باريس . ووقعت أزمة وزارية انتهت باستقالة شريف باشا (ناظر الخارجية والحقانية) لرفضه المثول أمام اللجنة وإصراره على أن تكون أجوبته على أسئلتها بطريق المكاتبة .

ثم حل ميعاد دفع كوبون شهر مايو سنة ١٨٧٨ فاقترح المستر رومين والمستر فيفيان تأجيله ولكن فرنسا أصرت على دفعه فى ميعاده تماماً فى الساعة التاسعة يوم أول مايو فدفع بتمامه وفى ميعاده . ولكيما نعرف بأية طريقة دفع هذا الكوبون فاليك ما كتبه المستر فيفيان إلى رئيسه إذ أخبره « إن الادارة الأوربية ربما كانت تعمل بغير علم على خراب الفلاحين خراباً تاماً وهم هم مصدر ثروة البلاد . وعندى أننا معشر الانجليز لمسؤولون مسؤولية كبرى عن هذا التخريب . »

اللجنة تقدم تقريرها

ولما انتهت اللجنة من أبحاثها وضعت تقريرا أرسلته للخديو وطلبت فيه تنازل بعض الأمراء والأميرات عن جزء من أملاكهم لسد عجز قيمته ٩٫٢٤٣٫٢٦٣ جنيه وكلفت الخديو بدفعه وهو يشمل أولا مبلغ ٦٫٢٧٦٫٠٠٠ جنيه قيمة مطلوبات متأخرة على الحكومة لتجار ومقاولين ورواتب متأخرة للموظفين وأرباب المعاشات ، ثانياً مبلغ ٢٫٥٨٦٫١٠٠ جنيه عجز فى ميزانية ١٧٧٨ وثالثاً مبلغ ٣٨١٫٢٦٣ جنيه عجز فى ميزانية سنة ١٨٧٩ .

الأمر أنه طرد نوبار وأبعده عن خدمته عدة سنوات لأنه تبين له أنه قدر الفائدة على أحد القروض بسعر ١٤ ٪ وأنه كان يخصم سندات الخزانة

= ثم طلبت اللجنة كذلك إحداث تغيير فى نظام الحكم وأن ينزل الخديو عن سلطته المطلقة ولكن لا لممثلى الشعب المنتخبين كما قد يتبادر إلى الذهن أول وهلة بل لوزارة كانت فى الأسم تحت رئاسة ناظر مصرى وهو نوبار باشا على شريطة أن ينضم اليها السير ريفرز ولسن كناظر للمالية .

الخديو يقول

إن بلادى لم تعد فى أفريقيا

فى يوم ٢٣ أغسطس سنة ١٨٧٨ تشرف السير ولسن بمقابلة الخديو لاستطلاع رأيه فى الموقف السياسى والمالى بعد الاطلاع على تقرير لجنة التحقيق . فأدلى إليه سموه بتصريحه الخالد الذى نقتبس منه هذه الفقرة المهمة كما ذكرها الأستاذ الرافعى بك :

« فيما يتعلق بما انتهيتم إليه من النتائج والمقترحات فأننى أتقبلها إذ من الطبيعى أن أفعل ذلك . فانى أنا الذى رغبت فى هذا العمل لصالح بلادى . وعلى الآن أن أنفذ هذه المقترحات . وكن على يقين بأننى عازم على ذلك عزماً جديا . إن بلادى لم تعد فى أفريقيا بل نحن الآن قطعة من أوربا فطبيعى أن نطرح الأغلاط وأن نسير على نظام يتفق وحالتنا الاجتماعية . وسترى عن قريب تغييرات هامة تحدث بأسهل مما يظنون وقوامها وضع الأمور فى نصابها واحترام القانون . ومن الواجب ألا نكثر فى الكلام . وأنا من جهتى قد اعتزمت أن أتوخى الحقائق العملية وإنى بادىء عملى بتكليف نوبار باشا أن يؤلف لى وزارة لكى أفتتح بها العهد الجديد وأظهر مبلغ ما أنا عازم على عمله .

« وقد يبدو أن هذا التغيير ليس من الأمور الهامة ولكن ترون أنه إذا حسن فهمه سينشأ منه الاستقلال الوزارى . وليس هذا بالأمر الهين فانه أساس نظام جديد فى الحكم . . . . الخ الخ »

مرامى السياسة الانجليزية

قلنا إن السير ريفرز ولسن كان يرأس جلسات لجنة التحقيق فى أغلب الأوقات وكان هو صاحب الرأى الأول فى اجراءاتها وتصرفاتها التى كانت ترمى إلى تمكين النفوذ البريطانى فى مصر وأقصاء النفوذ الفرنسى تدريجاً .

فى الوقت عينه بسعر ٣٠ ./ فكيف أمكن اسماعيل مع علمه هذا وعلو

= واستطاعت السياسة الانجليزية أن تقنع فرنسا بالنظام الذى يحل محل المراقبة الثنائية وهو تأليف وزارة مختلطة برآسة نوبار باشا كما استطاعتا إبعاد البحث فى المسألة المصرية من أجندة أعمال مؤتمر برلين الذى كان منعقدا وقتذاك . كذلك اتفقتا على تقسيم نفوذهما فى الوزارة المصرية .

على أن هذا الاتفاق جاء فى مصلحة انجلترا أكثر مما جاء فى مصلحة فرنسا . وقد أقنعت تصرفات السير ريفرز ولسن أثناء التحقيق قنصل فرنسا العام فى مصر وهو البارون دى ميشيل بأن الأمور سائرة لخدمة مصالح انجلترا مما جعله يكتب إلى حكومته كما ذكر المسيو دوفريسينيه ما نصه: «فهذه الأعراض — يقصد تصرفات السير ريفرز — جعلتنى قليل الثقة فى مقاصد حلفائنا . فان المسألة موضع النظر ليست فى الواقع مصالح الدائنين وتسوية الشؤون المالية بل صارت تتناول مصير مصر بأكمله . من أجل ذلك يبدو المستقبل أمامى فى صورة تدعو حقا إلى أشد القلق . »

وكان من رأى القنصل المذكور إحلال نظام أوربى مشترك محل المراقبة الثنائية بعد إلغائها . فقد قال : « إن المراقبة الثنائية كان يمكن أن تؤدى إلى اتفاق سعيد . ولكن ما دام الضعف قد وصل بنا إلى ترك الانحلال يتطرق إليها — وكل الدلائل تدل على أن الانجليز عادوا إلى مطامعهم الذاتية واستئثارهم بالمنافع — فقد حان الوقت لنطرح الضعف جانبا وننظر إلى الأمور نظرا أعلى فنعرض على ممثلى الدول المجتمعين الآن فى مؤتمر برلين جعل مسألة مصر مسألة دولية . »

ولكن تحذيرات القنصل الفرنسى وقعت على آذان صماء لأن المسيو وادنجتون وزير الخارجية كان ضعيف الرأى فترك الأمور تجرى على غاربها مكتفيا بأن يكون المسيو دوبلنيير مندوب فرنسا فى صندوق الدين وزيراً للأشغال فى الوزارة المختلطة .

إنشاء مجلس الوزراء

وفى يوم ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ أى بعد خمسة أيام من مقابلة السير ولسن للخديو أصدر اسماعيل أمره بانشاء مجلس النظار وتخويله مسؤولية الحكم . وقد عهد إلى نوبار بتشكيل الوزارة على هذه القاعدة .

ومن ذلك الحين صار ذلك الأمر أساس نظام الحكم فى القطر المصرى ولذا نرى أن نثبته هنا لأهميته . وقد صدر بالفرنسية ونشرته جريدة المونيتوراجبسيان بعددها ٣٠ أغسطس سنة ١٨٧٨ وترجم إلى العربية ضمن وثائق الحكومة .

كعبه وخبرته النادرة أن يقع فى الارتباك الذى أوقع فيه نفسه؛ هذا لعمرك موضوع خليق لا ببحث رجال السياسة بل ببحث علماء البسيكولوجيا

خطاب الخديو لنوبار باشا

« وزيرى العزيز

« إنى أطلت الفكرة وأمعنت النظر فى التغييرات التى حصلت فى أحوالنا الداخلية والخارجية الناشئة عن تقلبات الأحوال الأخيرة وأردت فى وقت مباشرتكم لمأمورية تشكيل هيأة الوزارة الجديدة التى فوضت أمرها إليكم أن أوكد لكم ماتوجه قصدى إليه وثبت عزمى عليه من إصلاح الإدارة وتنظيمها على قواعد مماثلة للقواعد المرعية فى إدارات ممالك أوربا . وأريد عوضا عن الانفراد بالأمر المتخذ الآن قاعدة فى الحكومة المصرية سلطة يكون لها ادارة عامة على المصالح تعادلها قوة موازنة فى مجلس الوزراء. بمعنى إنى أروم القيام بالأمر من الآن فصاعدا باستعانة مجلس الوزراء والمشاركة معه . وعلى هذا الترتيب أرى أن اجراء الاصلاحات التى نبهت عليها يستلزم أن يكون أعضاء مجلس النظار بعضهم لبعض كفيلا فان ذلك أمر لازم لابد منه . »

« يجب على مجلس النظار أن يتفاوض فى جميع الأمور المهمة المتعلقة بالقطر ويرجح رأى أغلبية أعضائه على رأى الأقل عدداً فيكون حينئذ صدور قراراته على حسب الأغلبية وبتصديق علينا اقرار الرأى الذى تكون عليه الأغلبية .

« يتعين على كل ناظر من النظار أن يجرى قرارات المجلس المصدق عليها منا فى الإدارة المنوطة به

«تعيين المديرين والمحافظين ومأمورى الضبطيات يكون بالمداولة بين الناظر التابعين هم لإدارته وبين رئيس المجلس وما يستقر عليه الرأى يعرض علينا بواسطة رئيس المجلس لأجل تصديقنا عليه .

« الناظر الذى يكون المأمورون وأرباب الوظائف السالف ذكرهم تحت إدارته مباشرة له الحق فى توقيفهم عند الاقتضاء عن اجراء وظائفهم وذلك بعد اتفاقه مع رئيس هيأة النظار . وأما انفصالهم عن وظائفهم فلا يكون إلا بعد اتفاق الناظر التابعين له مع رئيس المجلس والتصديق عليه منا .

وللنظار أن ينتخبوا المأمورين ذوى المناصب العالية اللازمين لإدارتهم وأن يعرضوا ذلك علينا للتصديق عليه منا . وأما الوظائف الصغيرة فيكون تعيين المستخدمين اللازمين لها بخطاب أو قرار من ناظر الديوان .

وبالاختصار كان مستنقع الدين الذى أوقع اسماعيل نفسه فيه سحيقا لا قرار له.
وتدل قائمة الديون التى اقترضتها الدولة من بيت آل غوشن (فى سنة ١٨٦٢ وسنة ١٨٦٤ وسنة ١٨٦٦) وفى بيت آل بيشوفسهايم (فى سنة ١٨٧٠)

= «أعمال كل ناظر تجرى فى الأمور التى تكون من خصائصه لا غير وأرباب الوظائف والمستخدمين فى كل فرع من فروع الأدارة لا يتلقون الأوامر إلا من رئيس المصلحة التى هم مستخدمون بها وتابعون لها ولا يجب عليهم طاعة أمر غيره.

« ينعقد مجلس النظار تحت رياستكم لأنى فوضت هذا التنظيم الجديد تحت عهدتكم وجعلت مسؤوليته عليكم.

« وإنى أرى تشكيل هيأة نظارة حائزة لهذه الخصوصيات ليس مخالفاً لعوائدنا وأخلاقنا ولا لآرائنا وأفكارنا بل موافقا لأحكام الشريعة الغراء وبتعميم ترتيب محاكم الحقانية تكون فيها الكفاءة لحاجات هيأتنا الاجتماعية والمساعدة على تتميم مقاصدنا الحقيقية ونياتنا الخيرية.

وانى معتمد عليك فى اجراء الأصلاحات التى صممت عليها مؤملا أن تكفل للبلاد جميع التأمينات التى لها الحق فى انتظارها والحصول عليها من حكومتنا».

٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨   اسماعيل »

* * *

ولعلك تلاحظ ما فى هذا الأمر من المسائل الجوهرية وهى:

أولا: إن مجلس النظار هو هيأة مستقلة عن ولى الأمر تشاركه فى الحكم وتحتمل مسؤوليته.

ثانيا: إن أعضاء مجلس النظار متضامنون فى المسؤولية الوزارية.

ثالثا: إن قراراته بالأغلبية.

رابعا: إن رآسة المجلس من حقوق رئيس المجلس فلا يرأسه الخديو.

ومنذ ذلك الحين ظل هذا الأمر دستور الحكومة إلى أن ألغى الخديو توفيق باشا مجلس النظار مؤقتا بعد استقالة شريف الثانية بمقتضى الأمر الصادر فى ١٨ أغسطس سنة ١٨٧٩ وعين نظارا منفصلين تحت رآسته هو. ثم أعاد هيأة المجلس بتكليفه رياض باشا تأليف الوزارة فى ٢١ سبتمبر سنة ١٨٧٩ وحفظ لنفسه فى كتابه لرياض باشا الحق فى حضور جلسات مجلس النظار وتولى رآسته عند الاقتضاء.

وفي بيت آل روتشيلد (في سنة ١٨٧٩) على أن مصر لم تتسلم من الديون التي استدانتها وقدرها ٧٧ مليون جنيه إلا نحو ٥٠ مليون جنيه فقط كذلك



السير ريفرز ولسن وزير المالية

= وجرت العادة منذ ذلك الحين بأن تعقد جلسات المجلس تارة برآسة ولي الأمر وطورا برآسة رئيس النظار .

نوبار باشا يشكل الوزارة المختلطة

تنفيذا لأمر الخديو شكل نوبار الوزارة المختلطة كما يأتي :

نوبار باشا رئيسا لمجلس النظار وناظر الخارجية والحقانية

رياض باشا للداخلية

راتب باشا للحربية

السير ريفرز ولسن للمالية

المسيو دوبلنيير للأشغال

على باشا مبارك للمعارف والأوقاف

وبتشكيل الوزارة وقف العمل مؤقتا بنظام المراقبة الثنائية ووافق الخديو على إعادتها حتما إذا فصل أحد الوزيرين الأجنبيين بدون موافقة حكومته .

كان صافى ما تسلمته من أحد القروض المعقودة فى بيت آل أوبنهايم (فى سنة ١٨٧٣) دون ١٨ مليون جنيه مع أن الدين قدر بـ ٣٢ مليون جنيه



المسيو دوبلنيير وزير الأشغال فى الوزارة المختلطة

قرض الدومين

قبل أن يتربع السير ريفرز ولسن فى منصبه الجديد كناظر للمالية شد رحال السفر إلى باريس لمفاوضة بيت روتشيلد فى عقد قرض جديد قيمته الأسمية ٨٫٥٠٠٫٠٠٠ ويعرف بقرض الدومين ورهنت فى مقابله الأملاك التى تنازل عنها بعض أفراد الأسرة الخديوية ومقدارها ٤٢٥٫٧٢٩ فدان وعهد بادارتها إلى لجنة مختلطة تسمى قومسيون الدومين وهى مؤلفة من عضو مصرى وعضو انجليزى وثالث فرنسى .

وتعهد السير ريفرز لبيت روتشيلد بأداء كوبون نوفمبر سنة ١٨٧٨ فى ميعاده ولو من أصل القرض الجديد إن اقتضى الحال وبعدم البحث فى تخفيض فوائد الديون قبل انتهاء عام سنة ١٨٧٨

وقد تسأل عما خسرته مصر من هذا الدين فهاك تفاصيله :

فأولا : لم تستلم من الـ ٨٫٥٠٨٫٠٠٠ جنيه إلا ٥٫٩٩٢٫٠٠٠ جنيه فقط أى أن الدائنين أقتطعوا من القرض ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ جنيه لأن أسهمه صدرت بسعر ٧٣٪. هذا عدا السمسرة والمصاريف .

وبلغت أقساطه السنوية ٣٫٥٠٠٫٠٠٠ جنيه. أما الصفقات التي لم تكن لها صبغة رسمية فكان الغرم فيها على مصر أفدح من ذلك بكثير. ولعمرى إن مصر لم يسبق أن انتهبت بهذا الشكل المعدوم النظير بواسطة «الشعب المختار»

ثانياً : بلغت الفائدة ٧٪.

ثالثاً : لما حل ميعاد كوبون نوفبر صمم السير ريفرز على دفعه . فلما رأى أنه ينقصه أكثر من مليون وربع جنيه سحب العجز من القرض الجديد إرضاء للدائنين .

رابعا : سحب السير ريفرز مليون جنيه من القرض لتسديد قسط الرهن على الدائرة السنية .

خامسا : دفعت الجزية من القرض المذكور .

وأخيرا لم يبق معه بعد كل هذا من القرض لأصحاب سندات الدين السائر سوى ٢٫٣٠٠٫٠٠٠ جنيه ومع ذلك رفض بيت روتشيلد دفع هذا المبلغ مالم تعف الدائرة السنية المرهونة للأجانب من الضرائب .

ولم يفكر ناظر المالية فى صرف شىء من المرتبات المتأخرة للموظفين البؤساء كما أهمل شأن دائنى الحكومة الخصوصيين بل لم يخصص شيئا لمرافق الدولة .

وكان تحصيل الضرائب فى الارياف يجرى فى أثناء ذلك بمنتهى القسوة مما دفع الناس إلى الشكوى والتذمر وانحدر الى القاهرة كثير من عمد البلاد ومشايخها وقد حاصروا أبواب الوزارات وبيدهم العرائض لتخفيض الضرائب وهم يرقبون دخول الوزراء وخروجهم .

وفى أثناء عهد هذه الوزارة التى كان الشعب يعرف أنها وجدت للأجانب ولمصلحة الأجانب استأنفت لجنة التحقيق أعمالها بدعوة من الوزارة نفسها مع تخويلها سلطة أوسع مما كان لها من قبل وهى وضع المشروعات المالية للبلاد .

وفى ٦ يناير سنة ١٨٧٩ أصدر الخديو مرسوما فهم الناس منه أن لجنة التحقيق باقية إلى ماشاء الله وأنها أصبحت لجنة دائمة خاصة بوضع التشريع للبلاد مما ثارت ثائرة الشعب وكان موضع اعتراض مجلس شورى النواب .

وفى الوقت الذى جعلت الوزارة تقصى فيه الموظفين المصريين وتعزل منهم من تشاء بحجة الاقتصاد راحت تعين طائفة كبيرة من الأجانب بمرتبات باهظة . كل هذا فى حين أن مستوى النيل هبط إلى درجة ضاعفت من ضيق الأهالى وكربهم .

وفضلا عما تقدم فان قسما كبيراً من هذه الديون عاد من فوره إلى الخارج بصفة مكاسب ناتجة عن المقاولا الأجنبية . خذ مثلا أعمال ميناء



لورد سلسبرى
وزير خارجية بريطانيا سابقا

وكانت الوزارة تبالغ فى غل سلطة الخديو وتلح فى إقصائه عن جلسات مجلس الوزراء إجابة لتعليمات حكومتى باريس ولندن بحجة أن حضور سموه لجلسات المجلس المذكور يعطل الاصلاحات التى كانت تبغيها الوزارة .

ثم وقر فى نفس حكومتى لندن وباريس أن اسماعيل لا يولى الوزارة عطفه الكلى ولذا أرسل لورد سلسبرى — وكان قد حل فى وزارة الخارجية على لورددربى — إلى لورد فيفيان خطابا كلفه باطلاع سموه عليه . وهو كما يأتى :

الاسكندرية فهى خير دليل على صحة ما نقول لأن البناء وضع تصميمه وأنجزه مقاولون انجليز أكفاء . فقد قدرت نفقات هذه الأعمال بمبلغ

= « الحكومة جلالة الملكة مطلق الثقة فى موارد البلاد وليس يخامرها أى شك فى نجاح النظام الجديد فيما لو جرب تجربة عادلة . فاذا ما أقيمت العقبات فى سبيله من الجالسين فى كراسى الحكم أو حتى إذا أظهروا شبه ميل للتشكيك فيه فان متاعب نوبار باشا ومستشاريه ستتضاعف كثيرا تبعا لذلك ومن ثم يعرض المسؤولون عن فشل تلك الوزارة أنفسهم لما يترتب على هذا الفشل من العواقب الوخيمة . »

بين اسماعيل باشا وفيفيان

وهنا حدثت مناقشة هامة تمس صميم الحكم الدستورى لا نرى بأساً من ذكرها. ذلك أن سموه لما اطلع على هذه الرسالة أظهر امتعاضه منها وأسف لأن حكومة جلالتها استعملت هذه اللهجة ضده بغير سبب ولا مبرر . لأن المسؤولية التى أرادوا تحميله إياها لم تكن معقولة ولا منطقية . ثم راح يحدث القنصل العام كما جاء فى كتاب « مصر الحديثة » عما آل اليه مركزه فى بلاده قائلا : « إنه قبل النزول عن سلطته المطلقة وشكلت وزارة تشترك معه فى الحكم فاذا كان لا يخطىء فهم المبادىء الأولية للحكومة الدستورية فان المسؤولية عن شؤون الدولة تقع على النظار لا على رئيس الدولة . وقد تحاشى التدخل فى اعمال الوزراء . ثم إنه كان على استعداد لأبداء النصيحة لوزرائه إن طلبوها دون أن يسعى إلى فرضها عليهم . فان لم يكن الوزراء مسؤولين عن أعمالهم فمن عسى أن يكون المسؤول وإذن ما معنى المسؤولية الوزارية ؟ حقا إنه يكون مسؤولا فيما لو حاول التدخل فى عمل حكومة البلاد . أما وهو لم يفعل ذلك فلا يمكن تحميله أية مسؤولية . »

وليس يسع منصفا أياً كان ألا يعترف ان الحق كان فى جانب اسماعيل . فالموقف لم يكن يسمح إلا بأحد احتمالين . فاما أن يكون هناك حكم دستورى بالمعنى الصحيح وإذن فالوزارة وحدها هى المسؤولة وإذ ذاك لا يطلب من رئيس الدولة إلا أن يقف فى معزل عنها وهو ما حرص عليه اسماعيل وإذن فلا غبار عليه . وإما أن يكون الأمر بالعكس وإذن فلا بد من اشتراك الخديو فى الحكم ليكون مسؤولا عن إدارة البلاد بنسبة اشتراكه فى حكمها . أما أن يطلب إليه الابتعاد عن الحكم ثم يطالب فى =

٣٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه بينما كان من رأى السير « ريفرز ولسن » أن نصف هذا المبلغ كان كافياً لأنجازها . ومع ذلك فان الألحاح فى دفع نفقات هذه المقاولة هو الذى عجل بحدوث الأزمة النهائية .

= الوقت نفسه يبذل النصح لوزرائه دون أن يستشيروه حتى إذا قامت أمامهم مصاعب ما تحمل هو التبعة فليس فى ذلك شىء من الانصاف .

ولذا كان جواب لورد فيفيان على حديث اسماعيل المفحم جواب مداورة فقد قال :

« إن سموه لا يفوته أنه وان كان حقيقة تنازل عن سلطته المطلقة وأعلن الحكم الدستورى فى مصر الا أن النظام الجديد ما يزال فى دور الطفولة وأن الوقت لم يحن بعد لتطبيق مبدأ الحكم الدستورى كما هو مفهوم فى أوربا . وبرغم ما حدث فلا يزال سموه يتمتع بكل ما لرئيس دولة شرقية من الهيبة والنفوذ مقرونا بالخبرة ومعرفة شؤون دولته أكثر من أى شخص آخر . فالأمر الذى ترتجيه حكومة جلالة الملكة هو أن سموه بدلا من أن يظهر بمظهر عدم الاهتمام والتأفف من النظام الجديد يتعين عليه أن يضع معرفته الكاملة بأحوال البلاد وماله فيها من النفوذ والخبرة تحت تصرف وزرائه وأن يتعاون معهم باخلاص وولاء فى دائرة حقوقه الشرعية . »

فهل رأيت أعجب من هذا المنطق ؟ فهم لم يطلبوا منه — « وهو صاحب الكلمة المسموعة بين عامة الشعب — أن يبتعد عن ادارة البلاد فقط » ـ كما قال المستر زوذستين ـ « بل أن يسمح بأن يستخدموا اسمه لستر دسائس الوزيرين الأجنبيين ، أو بعبارة أخرى إنهم أرادوا منه مساعدة الدائنين على القيام بأعمالهم الشيطانية فى مأمن من العذل واللوم بينما تقع على كاهله تبعة نتائج تلك الأعمال ! »

على أن ملاحظات لورد فيفيان هذه لم تذهب دون أن يرد عليها اسماعيل الرد المنطقى الذى يصح أن يكون درسا فى نظام الحكم الدستورى . قال الخديو :

« لقد أصرت الحكومتان الفرنسية والأنجليزية على ادخال نظام الحكم الدستورى فى مصر . وقد قبلت النزول على رغبتهما . ثم إن هاتين الحكومتين صفقتا لى لما قلت « إن بلادى لم تعد من افريقيا وأنها أصبحت قطعة من أوربا » فما على إلا أن أقف الآن موقف المتفرج حتى تتم تجربة هذا النظام الدستورى . إنى أعرف ببلادى من هؤلاء السادة الأنجليز أو الفرنسيين ولكنى برغم هذا أريد اعطاءهم الفرصة ليقيموا =

على أن ماجعل هذا الفشل يؤدى إلى الخراب بصفة خاصة فيرجع سببه إلى أن اسماعيل كان قد أحيا كثيراً من نظام اتجار الدولة الذى كان

= الدليل على خطإ رأيى . فان كانت النية معقودة على تجربة الحكم الدستورى فينبغى أن يكون حكماً دستوريا بالمعنى الصحيح المفهوم من هذه الكلمة . »

رأيان فى حكم البلاد

وقد استرسل لورد كرومر فى كتابه « مصر الحديثة » يحدثنا عن الرأيين السائدين وقتئذ لحكم البلاد حكما صحيحا .

أما الرأى الأول فكان يرمى إلى إبعاد الخديو بتاتا عن مجلس الوزراء واعتباره صفرا على يسار العدد وحكم البلاد بدونه بل وفى بعض الأحيان بطريقة مخالفة لرغباته وآرائه الشخصية . وكان من أنصار هذا الرأى القائل بتطبيق المبدأ الدستورى إلى النهاية نوبار باشا والسير ريفرز ولسن .

أما الرأى الآخر فهو وإن كان أبعد عن الكمال من الوجهة النظرية من الرأى الأول إلا أنه كان له مايبرره فى الأحوال السائدة فى مصر وقتئذ وكان يقول به لورد فيفيان . إذ كان يرى أن النظام الوحيد الذى يرجى له أى نجاح ليس بالذى يقضى بإبعاد الخديو بتاتا بل بالترحيب بمعاونته مع تحديد استعمال سلطته فى الوقت نفسه .

ولم يكن فى وسع لورد فيفيان أن يروج لرأيه لأن حكومته بدأت تتبرم به لأنه لم يكن يدافع فى نظرها بحرارة كافية عن مطامع الدائنين . هذا عدا أن كل انسان كان متبرما بالحالة .

التبرم بالحالة العامة

فنوبار باشا كان لايفتأ يقول « إننا نلف فى دائرة خبيثة » . بينما كان الخديو دائب الشكوى والتذمر من الموقف الشاذ الذى كان يراد وضعه فيه وهو مركز أصبح مع مرور الزمن لا يطاق . وقد لاحظ — بحق — أن من الجور أن تحمله الحكومتان البريطانية والفرنسية التبعة شخصيا عن مسائل لا يستشيره فيها الوزراء . ثم إن الشعب كان فى حالة قلق وسخط شديدين .

وكان قنصل بريطانيا العام لا يفتأ يلوم الخديو على القلق المستحوذ على ريف البلاد وحواضره . وكان مما كتبه إلى حكومته ما ذكره لورد كرومر فى كتابه مصر الحديثة وهو:

معمولا به فى عهد محمد على. مثال ذلك انه أصبح يمتلك خمس مساحة الأراضى المزروعة فى مصر مما جعله يحاول توزيع المحاصيل فى الأسواق بطريق المضاربة. ثم أنه احتكر السكر وأنشأ عدة خطوط للملاحة بواسطة البواخر.

= « تعم البلاد حركة قلق واضطراب كما يدل على ذلك وصول عدد كبير من وفود الأقاليم للاحتجاج ضد استعمال أى ضغط لتحصيل الضرائب فى هذا الوقت العصيب. فان كان هذا القلق حقيقيا وغير مفتعل فهو إذن علامة سيئة للحالة. ولكن لدى ما يحملنى على الاعتقاد بأنه مفتعل ولأعوان الخديو يد خفية فى إثارته. »

وقد رد المستر كرايتس على هذه المزاعم رداً مفحما فقال ما ملخصه: إن أولئك الأعيان لا بد أن يكونوا تحسسوا من مصادر أنبائهم المستترة قبل مجيئهم إلى القاهرة وتحققوا من أن الخديو لن يعارض فى طلباتهم ولذا تشجعوا على الحضور أفواجاً أفواجاً.

ثم استطرد المستر كرايتس فقال هذه الكلمة السديدة وهى إن الفلاحين ليسوا فى حاجة إلى أى ضغط للتذمر من دفع الضرائب. وهذا ينطبق على الفلاحين فى فرنسا بقدر ما ينطبق على فلاحى مصر. كما أن هذا صحيح الآن بقدر ما كان صحيحاً فى سنة ١٨٧٨.

تبرم الموظفين

لما كانت مهمة الوزارة النوبارية السعى لتدبير أقساط الكوبونات فقد كان طبيعياً ألا تهتم بشىء إلا بجمع الأموال اللازمة لسداد الأقساط.

فهى قد أغضبت الخديو بابعاده كلية عن الحكم. وأغضبت سواد الشعب والفلاحين بالضرائب التى تشددت فى تحصيلها قبل موعد حلولها مستعملة ما شاءت من الأعنات وضروب الأرهاق. وأغضبت مجلس شورى النواب وسكان العواصم بتخويلها لجنة التحقيق الأوربية الاستمرار فى عملها بدون تحديد أجل معين للفراغ من مهمتها. وأغضبت الموظفين لأنها كانت تضن عليهم بالمرتبات ولا تدفع مرتباتهم المتأخرة فى الوقت الذى تغدق فيه المال على كبار الموظفين الأجانب الذين عينتهم فى دوائر الحكومة دون أن تكون طبيعة العمل فى حاجة إليهم هذا إلى أن أولئك الموظفين الأجانب قد بدأوا يظهرون الغطرسة والكبرياء للموظفين الوطنيين مما أدى إلى تعقيد الحالة.

تبرم الجيش

ولما كانت الوزارة مطالبة بتدبير قسط ابريل سنة ١٨٧٩ فانها صممت على ضرب =

وإذا جاز أن نعتبر نظام محمد على نظاماً اشتراكياً تمارسه الدولة لأن نظام البلاد الاقتصادى كان وقتئذ كنظام محل تجارى أما نظام اسماعيل كان شيئاً غير هذا بالمرة . لا بل كان نظاماً طالما أدى فى الماضى إلى خراب كثير من أرباب العقول الكبيرة من رجال الأعمال برغم من كان حولهم من أهل الرأى الأكفاء . ولكن اسماعيل كان كعابر سبيل أوقعه سوء الحظ وسط عصابة من اللصوص .

وإذا ما أنعمنا النظر فيما يسمونه نفقات اسماعيل الخاصة كطاقم المائدة الذهبى المرصع بالجواهر الذى أهداه للسلطان أو ما أقامه من الحفلات

= آخر من ضروب الاقتصاد فاندفعت - بعلم أو بغير علم - إلى إغضاب الجيش وفى ذلك الخطر كل الخطر.

وكان من بين ما اقترحته لجنة التحقيق العليا أن تدفع الحكومة للموظفين المدنيين مرتب كل شهر فى ميعاده مع نصف شهر من الأشهر المتأخرة . وقد نفذت الوزارة هذا الاقتراح بالنسبة لبعض الموظفين المدنيين ولكنها أغفلت ضباط الجيش بتاتا . وكان مفهوماً ألا تعطف الوزارة على الجيش باعتباره قذى فى عينها ومحجر عثرة فى سبيل مراميها . فلم تكتف بالإساءة إلى ضباطه بل قررت تخفيضه من ١٥ ألف إلى سبعة آلاف جندى .

ثم دفعتها الحاجة الملحة لتدبير قسط الكوبون إلى ضرب جديد من ضروب الاقتصاد فقررت ذات يوم جمعة إحالة ٢٥٠٠ ضابط إلى الاستيداع وتخفيض مرتباتهم إلى النصف هذا مع أن هؤلاء الضباط كانت لهم مرتبات متأخرة منذ عشرين شهراً .

وقد كان هذا التصرف شاذاً وغير عادل حتى أنه باء بانتقاد اللورد كرومر نفسه إذ قال فى كتابه « مصر الحديثة » ما نصه :

« إن هذا التصرف كان يعتبر فى غاية الاجحاف فى أى ظرف من الظروف مهما كانت الضرورة تقضى به نظرا لحالة الارتباك التى كانت تسود الخزانة المصرية وقتذاك . ولكن هذا التصرف فضلا عن أنه مجحف كان بعيدا عن المهارة لأنه قضى بإبعاد هذا العدد الكبير من الضباط قبل دفع مرتباتهم المتأخرة . فلم يكن عجيبا أن تكون نتيجته أن عددا كبيرا من هؤلاء الضباط أصبحوا هم وعائلاتهم فى حالة عوز وفاقة . »

الفخمة لاستقبال إمبراطورة فرنسا وإمبراطور النمسا لعرتنا الدهشة لما أتاه المقاولون والممولون من ضروب النصب وأعمال الاحتيال البعيدة عن الحياء. هذا طبعاً مع تسليمنا بان كل من يلجأ إلى أمثال هذه النفقات التى هى من قبيل الفخفخة رغبة فى توطيد سمعته المالية لابد أن يتوقع استغلال الغير له. فللتأثير فى نفس أحد كبار الرأسماليين الأجانب أنشأ اسماعيل مصنعا لتكرير السكر جلب إليه كافة الآلات والأدوات الحديثة (كذا !) . وقد

= وبديهى أن يؤدى هذا التصرف إلى سريان روح التبرم والتمرد . لأن الضباط لا هم حصلوا على مرتباتهم المتأخرة ولا بقوا فى الخدمة على أمل أن تتقدم الحكومة .

ويشاء حظ الوزارة العاثر أن ينفذ القرار بأسلوب يساعد على وقوع التمرد. فبدلا من تنفيذ القرار على الضباط فى مراكزهم الموزعة فى مختلف أنحاء القطر فيدع كل منهم سلاحه فى ثكنته ويعود إلى بلده ؛ فان وزير الحربية استدعاهم جيعاً إلى العاصمة وكلفهم بتسليم سلاحهم فى ثكنات القلعة أو العباسية ثم بالانصراف بعد ذلك . وهكذا احتشد فى عاصمة البلاد هذا العدد الكبير من الضباط المحالين إلى الاستيداع وكلهم ساخط على الوزارة .

وقد أشار لورد فيفيان فى تقرير أرسله إلى لندن وقتذاك إلى هذا التصرف ورمى الوزارة بالحق على فعلتها هذه ثم قال :

« كان من أثر ذلك التصرف الذى لا نظير له فى الحق أن وزير الحربية أضاف ٢٥٠٠ من الضباط الساخطين إلى حامية القاهرة وعددها ٢٦٠٠ جندى وليس بينهم إلا من يعطف من صميم قلبه على مطالب الضباط المتمردين . »

ولسوء حظ الوزارة اجتمع هذا الحشد من الضباط فى ساحة واحدة وفى ساعة عودة المحمل من الحج أى فى وقت احتشاد الجماهير حيث يسهل الهاب شعور الحماسة فى نفوس الأهلين .

ثورة الضباط

على الوزارة فى ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩

وكان طبيعياً بعد أن استشعر الضباط بهذه الظلامة أن يلجأ أكثرهم حماسة إلى القيام بمظاهرة كبيرة على أبواب وزارة المالية بحجة رفع ظلامتهم إلى نوبار باشا =

أهمل شأنها فيما بعد وتركت للصدأ يأكلها . ولكيما يظهر بذخه أمام



لطيف باشا سليم وولده فؤاد بك *

= والسير ريفرز ولسن . ففي صبيحة يوم الثلاثاء ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ — كما ذكره الأستاذ الرافعي بك — اجتمع نحو ٦٠٠ ضابط برآسة البكباشي لطيف بك سليم (باشا فيما بعد) أحد كبار أساتذة المدرسة الحربية وقد اشتهر بالشجاعة والكفاءة =

* هذه الصورة مستعارة من سعادة احمد شفيق باشا

إحدى الرؤوس المتوجة شيد قصراً على طراز قصور لويس الرابع عشر



المغفور له محي النهضة المصرية مصطفى كامل باشا

واستقلال الفكر وكان من أكبر أنصار المغفور له مصطفى كامل فى الحركة الوطنية الحديثة ووالد الأستاذ فؤاد بك سامى .

وقف لطيف بك سليم وظل يخطبهم بعباراته الحماسية ويحثهم على التعاون والشجاعة ويوصيهم بالثبات والجلد حتى ينالوا مطالبهم . ثم غادروا ثكناتهم وساروا جميعاً يتبعهم لفيف من طلبة المدرسة الحربية ونحو ٢٠٠٠ جندى قاصدين إلى وزارة المالية .

وأراد الضباط أن يكسبوا حركتهم صبغة قومية فطلبوا قبل الوصول إلى الوزارة إلى بعض أعضاء مجلس شورى النواب مرافقتهم إلى حيث يقصدون . وفى ذلك ما ينم عن حسن تدبير للحركة . ولكن اكتفى أربعة منهم بالسير فى موكب المظاهرة راكبين حميرهم فكان فى هذا العمل شىء من التضامن بين هيأة المجلس والمتظاهرين .

وما أن وصل المتظاهرون إلى وزارة الخارجية — وكانت وقتئذ قريبة من وزارة

وحشر فيه جيشا من الخدم ذوى الشعور المستعارة والملابس الفاخرة المناسبة للمقام (كذا !) . وقد ترك القصر بعد ذلك تعبث به يد الخراب. (كذا ! كذا !) على أن محاولات اسماعيل لم تقف عند حد التأثير فى زوار

= المالية — حتى وقع نظرهم على نوبار باشا فى مركبته فبادروا إلى الاحاطة بها وسدوا عليها الطريق مما امتعض له نوبار وأمر السائق بالمسير . فما كاد السائق يضرب الجياد بسوطه تمهيدا للسير حتى انهال عليه الضباط بالضرب وأنزلوه عن مقعده وهجموا على نوبار وأمسكوا بخناقه وطرحوه أرضاً وأعتدوا عليه بالضرب .

وبعد أن حمى وطيس المعركة اذا بالسير ريفرز ولسن يطلع على المتظاهرين وكان قد عاد من مقابلة الخديو قاصدا وزارة المالية . فما هو أن رأى صديقه نوبار فى أيدى الضباط حتى هرول لنجدته وضرب المتظاهرين بعصاه . فسرعان ما التفتوا اليه وجذبوه من لحيته وأدخلوه هو ونوبار إلى سراى الوزارة واقتحموا أبوابها واحتلوا غرفها وحبسوا نوبار ورياض والسير ريفرز فى احدى حجر الدور الأعلى وصار الموظفون الأجانب تحت رحمة الثوار .

وفى تلك الأثناء ترامت أنباء الهياج ووصلت أسماع قناصل الدول فأسرع اللورد فيفيان إلى سراى عابدين حيث قابل اسماعيل فورا .

ويمكنك أن تتصور وقع هذه الأنباء من نفسه وما جال بخاطره فى تلك الساعة الرهيبة نحو السادة الذين أدخلوا النظام الجديد .

فها هو رجل أبى خصومه إلا أن يبعدوه عن حكم البلاد بحجة اقامة نظام دستورى حتى إذا تركهم وشأنهم ووقف يتفرج على أعمالهم إذا بهم يلجأون إليه فى ساعة الشدة ولسان حالهم يقول إنهم لاغنى لهم عن سلطته لانقاذ الوزارة وإعادة الأمر إلى نصابه وفى ذلك ما فيه من اعتراف مذل من ناحية القناصل بالا سبيل إلى ضبط الأمن بدون تدخل سيد البلاد الأعلى اسماعيل .

اسماعيل يخمد الفتنة

ولو شاء الخديو لاشترط وقتئذ مطالب معينة قبل نزوله لاخماد الفتنة . ولكن النخوة حركته بعد مارأى أمامه اللورد فيفيان فى موقف التوسل والابتهال . فاستصحبه إلى مركبته وانطلقا إلى موطن الهياج بوزارة المالية وكان يحاصرها حشد كبير من الناس كما ذكر لورد فيفيان فى تقريره الذى بعث به ذلك اليوم إلى لندن بتفاصيل الحادث . فما كاد =

مصر الأجانب كلا بل تعدتها إلى الخارج ، فمثلا كان أهم ما حاز إعجاب زوار معرض باريس فى سنة ١٨٦٧ هو مدينة الأهرامات والفساطيط التى أمر اسماعيل باقامتها فيه وأسكن فيها رهطا من البدو على ظهور الأبل البيضاء. على أنه برغم ذلك كله فان مجموع ما أنفق فى هذا السبيل بما فى ذلك رسائل

= المتظاهرون أن يبصروا سموه حتى استشعروا الهيبة التى له فى النفوس - وكانت هذه الهيبة من أخص مزاياه - فهتفوا له وأفسحوا له الطريق واحتشدوا فى الشوارع المجاورة للوزارة .

ثم استطرد لورد فيفيان يقص ما حدث فقال : ثم صعدنا إلى الطابق الأول فى الوزارة فوجدنا حشداً من الثوار يحيط بالحجرة التى اعتقلوا فيها نوبار والسير ريفرز ورياض . فافسحوا لنا الطريق فدخلنا الحجرة فلم نجد أحداً من الرجال الثلاثة قد أصيب بسوء وإن كان نوبار والسير ريفرز قد لحقتهما بعض كدمات من جراء سحبهما بعنف من الشارع إلى داخل بناء الوزارة . ولما استوثق الخديو من سلامتهما التفت إلى الثوار وطلب إليهم مغادرة البناء والاعتماد عليه فى تحقيق مطالبهم المشروعة ثم قال : « فان كنتم ضباطى حقيقة فأنتم ملزمون بالقسم الذى أقسمتموه باطاعتى . أما إن عصيتمونى فانى آمر بطردكم من هنا » . وقد أطاعه الضباط وسكنت ثائرة معظمهم ولكن على مضض. وقد ابتهلوا اليه أن يسمح لهم بأن يسووا مع الوزارة حسابهم على طريقتهم الخاصة . ولما هتف بعضهم قائلا «فليمت كلاب المسيحيين !» أمر سموه بانزالهم إلى حوش الوزارة وخارجها فوقعوا على زملائهم المحتشدين فى الخارج وكانوا يحاصرون أبواب الوزارة . وهنا أمرهم الخديو بالانصراف فاقترب أحدهم منه يريد أن يمسكه بذراعه فاجفل منه اسماعيل وأمر الحرس بتفريق المتظاهرين بالسلاح . فشهروا سلاحهم ودوت طلقة رصاصة لم يعرف مصدرها وأطلق الجنود النار فى الهواء . فأصيب بعض المتظاهرين بضربات السونكى وجرح بعض الجنود كما جرح تشريفاتى الخديو وهو إلى جانب مولاه وقد أصابته ضربة من سيف أحد الضباط .

ثم تفرق المتظاهرون وأمر الخديو بحراسة الوزراء الثلاثة إلى منازلهم وعاد بسلام إلى قصر عابدين .

اسماعيل لم يدبر الفتنة

لم يكن للخديو يد فى تدبير هذه الفتنة خلافاً لما ذهب إليه بعض المؤلفين المغرضين =

الصدقات إلى الأستانة ونفقات الحملة إلى جزيرة كريت واقامة الحفلات لملوك أوربا وأمرائها — كل هذا لم يكن ليبلغ مجموعه ١٥٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه وهو مبلغ يكفل أن يغطيه وزيادة ثمن أراضي الدائره السنية التي تنازل

= وفي طليعتهم السير ريفرز ولسن الذي ذهب في ص ١٨٦ من كتابه المسمى « فصول من حياتي الرسمية » إلى أن اسماعيل هو مدبر الفتنة وأنه هو الذي حرض الضباط الموتورين على القيام في وجه الوزارة المختلطة . وقد ذكر السير ريفرز أن الخديو دخل عليه في الحجرة التي كان معتقلا فيها مع نوبار ورياض ومد له يده لمصافحته والاستفسار عن صحته ولكن السير ريفرز رفض مصافحة سموه « لأنني لم يخامرني شك في أن الهجوم على نوبار كان بتدبيره أو برضاه . »

ومما يدعو إلى الأسف أن مثل هذا الاعتقاد رسخ في نفس السير ريفرز دون الاستناد إلى دليل محسوس أو شبه محسوس مع أن الظروف كلها كانت تدل على عكس ذلك . فقد روى السير ريفرز نفسه « أن أحد الضباط هجم على الخديو وأمسك بسترته وراح يصب كلاما عنيفاً تغير له وجه سموه واستحال إلى غضب ظاهر أصدر بعده أوامره إلى الحرس باطلاق النار على المتظاهرين وتفريقهم بالقوة . » أليس يكفي هذا الحادث لاقناع السير ريفرز بفساد مزاعمه ؟

ونرانا في حل بعد هذا من أن نسقط شكوك واعتقادات السير ريفرز من الحساب بعد أن عجز عن إقامة دليل واحد على أن لاسماعيل يداً في فتنة الضباط . ويشجعنا على إغفال تلك الشكوك أن السير ريفرز قد خانته قواه — على مايظهر — بعد تلك الفتنة فلم يكتف باتهام الخديو بتدبيرها بل راح يتهم اللورد فيفيان بأنه هو الذي شجع اسماعيل في الموقف العدائي الذي وقفه سموه حيال الوزارة النوبارية .

فان اللورد فيفيان — كما حدثنا السير ريفرز في كتابه السالف الذكر — « كان يناقض نوبار في رأيه . فهذا الأخير كان يشير باستعمال الضغط على الخديو بينما كان لورد فيفيان يرى العكس » . ثم راح السير ريفرز في ص ١٧٩ يلوم اللورد فيفيان لأنه « لم يؤد واجبه كقنصل عام لحكومة جلالة الملكة وأنه لم يقدم المساعدة الكافية للوزارة النوبارية التي كانت لحكومة جلالتها ثقة فيها . بل ظل (أي فيفيان) ينظر إلى الوزارة النوبارية شذراً مما شجع الخديو على أن يقلب لها ظهر المجن ويدبر لها فتنة الضباط . » (كذا !)

هذا بعض ماوجهه السير ريفرز من الاتهامات إلى اللورد فيفيان . فهل لنا إذن =

فى النهاية عنها للدائنين. هذا فى حين أن ما أنفق فى سبيل إنشاء قناة السويس وقدره ١٦٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه وفى القضاء على تجارة النخاسة فى السودان وقدره ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه أنفق فى الواقع لخدمة أوربا أكثر مما كان لخدمة مصر .

= أن نأخذ جدياً أقواله ضد الخديو إذا كان لا يتورع عن اتهام قنصل بريطانيا العام بكل هذه التهم وبلا دليل ؟

وقبل أن نسدل الستار على هذا الحادث لانرى مفراً من أن نستشهد بأقوال اللورد كرومر ولم يكن الرجل يوما ممن يصح اتهامهم بالميل أو التحيز لاسماعيل . فان صاحب «مصر الحديثة» ينفى ماذهب اليه المؤلفون المتحيزون من الأوهام ويقول بان تلك المزاعم لاتقوم على أساس ولاتخرج عن دائرة الظن والتخمين . بل ذهب إلى أبعد من ذلك إذ قال « إن ما أبداه اسماعيل من القلق حين سمع بخروج الضباط عن الحد كان طبيعيا وصحيحا وأن الخديو نفسه كان فى خطر كبير حين واجه الضباط الثائرين وأمرهم بالكف عن الهياج » .

وهاك ماورد فى التقرير الرسمى الذى بعث به لورد فيفيان ونشرته الحكومة البريطانية ككتاب أبيض بعنوان « مصر » رقم ٥ سنة ١٨٧٩ ص ٣١ قال : يزعم أعداء الخديو (لاحظ جيدا هذه التسمية) أن له ضلعاً فى المؤامرة وهذا مايعلل تساهله مع المسؤولين عن الفتنة . فان صح ذلك فقد أقدم فعلا على أمر خطير لايستبعد أن يكلفه ضياع عرشه . ولكن مسلكه فى يوم الفتنة الأول ينفى هذه التهمة فى حين أن مانشأ عن تسريح عدد كبير من الضباط بلا وسيلة لكسب العيش مع أن لهم مرتبات متأخرة ليبرر سخطهم كل التبرير » .

على أنه إن جاز للسير ريفرز أن يفترض فى السير بارنج واللورد فيفيان نوعا من التحيز لاسماعيل فما قوله فى شهادة مراسل التيمس بالقاهرة اذ بعث إلى جريدته يقول :

« إن مطالب الجيش قد أهملت اهمالا تاماً بالرغم من التصريح الرسمى الصادر فى شهر مايو الماضى (سنة ١٨٧٨) بوجوب دفع كافة المرتبات المتأخرة . وقد كانت نتيجة هذا الاهمال أن أشد عناصر الدولة خطرا قد أصبح فى حالة تمرد له مسوغ . (كذا !) وعبثاً حاول المستر فيفيان التنديد بحماقة الرأى القائل بتسريح جيش لم تدفع مرتباته . وأخيرا قرروا تسريح الجنود والضباط فكانت النتيجة حدوث فتنة يوم ١٨ فبراير » .

ولما كان اسراف اسماعيل قد أدى فى نهاية الأمر إلى احتلال مصر بالقوات البريطانية مدة ربع قرن من الزمن فانك تجد ما كتب عن تاريخ إدارته لشؤون مصر لا يخلو إما من دفاع عن السياسة البريطانية وإما من

= تلك لعمرى شهادات دامغة من أشخاص انجليز لم يعرفوا يوما بميلهم إلى اسماعيل . فاذا كان السيد ريفرز قد أغفلها فلأنه كان يحس أن اعترافه بالواقع ربما كان سببا فى التعجيل باسترجاعه إلى بلاده وأنهاء لجنة تحقيقه . ومن يدرى أنه لو حدث هذا لكان خيرا لمصر ولما تطورت الحوادث تطورها المشؤوم الذى كان للسير ريفرز أكبر يد فيه .

النظر فى ظلامة الضباط

وعلى كل فقد ذهب الأمير حسن باشا بن الخديو بصفته قائد الجيش الأعلى إلى القنصلية البريطانية فى اليوم التالى واعتذر للورد فيفيان وللسير ريفرز عما فرط من الضباط . فقبلا الاعتذار .

ثم اقترضت الحكومة ٤٠٠ ألف جنيه من بيت روتشيلد دفعت منها متأخرات الضباط . ونظر المجلس العسكرى فى أمرهم وفى مقدمتهم لطيف بك سليم وسعيد بك نصر فقضى ببراءتهم ولم يعاقب أحدا من الثائرين .

سقوط الوزارة النوبارية

١٩ فبراير سنة ١٨٧٩

وفى اليوم التالى لفتنة الضباط أى فى يوم ١٩ فبراير سنة ١٨٧٩ افتتح القنصلان عملهما اليومى بالتوجه إلى قصر عابدين حيث طلبا إلى سموه أن يقطع لهما وعدا بالمحافظة على الأمن . وإذ ذاك صارحهما الخديو بأنه لا يكون مسؤولا عن الأمن العام إلا اذا عدل مركزه وأعيدت إليه السلطة التى من حقوقه وسمح له برآسة مجلس الوزراء بنفسه أو بتعيين من يثق فيه لرآسة المجلس . ثم أصر على استقالة نوبار باشا لأنه أصبح بغيضاً للشعب .

وهنا يقول السير ريفرز ولسن (ويقصد غمز فيفيان) « إن الخديو بأصراره على استقالة نوبار كان يعلم بتبرم اللورد فيفيان بالرئيس الأرمنى . »

وقبل أن يوافق القنصلان على هذه الشروط عادا إلى دار اللورد فيفيان حيث كان فى انتظارهما نوبار باشا والسير ريفرز ولسن والمسيو دوبلنيير والسير افلن بارنج فتداولوا جميعا فى الموقف وأبلغهم فيفيان أن الخديو صرح لهما بوجوب تغيير مركزه وإعادة سلطته اليه.

حملة شعواء عليها . فني الحالة الأولى يصور المؤرخ اسماعيل بصورة «شيطان» الرواية . بينما يظهره فى الحالة الثانية بمظهر الضحية . ولكن الواقع أن كلتا الصورتين تظهران اسماعيل بغير حقيقته لأن مركزه الحقيق

= فقرر المجتمعون الاستفسار من سموه عن التغيير الذى يريده . ولذا ذهبوا جميعا إلى سراى عابدين لمقابلته . وفى احدى حجر الدور الأول انتظر نوبار وريفرز ولسن ودوبلنير وبارنج وصعد فيفيان وجودو (قنصل فرنسا) إلى الطابق الثانى حيث قابلا سموه . ثم عادا إلى زملائهما فاخبراهم أن الخديو قال إنه لايكون مسؤولا عن صيانة الأمن العام الا بخروج نوبار من الوزارة وأن يعاد إليه (سموه) حقه من السلطة فى حكومة البلاد .

وهنا التفت الجميع إلى نوبار وسألوه هل يضمن الأمن إذا أصر القنصلان على بقائه فأجاب إنه لايضمنه . فلم يجد القنصلان بدا من التخلى عنه . وإذ ذاك قدم نوبار استقالته ورجا إلى القنصلين رفعها إلى الخديو وأن يطلبا له كفالة حياته فى مصر . فقبل سموه هذا الرجاء على شريطة ألا يعود نوبار إلى الدسائس أو التدخل فى الأمور السياسية .

فأنت ترى أن حل الأزمة كان مشروطاً بخروج نوبار من الوزارة ولكن صديقه السير ريفرز يحاول أن يجادل فى هذا الحل الطبيعى فيقول «إن نوبار عند مارآى القنصلين يتخليان عنه لم يسعه إلا تقديم استقالته برغم إلحاحى عليه أنا ودوبلنير فى عدم تقديمها !! وهذه كانت أول خطوة فى سبيل تحقيق الغاية التى كان الخديو يرمى إليها . فانه عرض الوزارة للخذلان بعد أن حرم منها أقوى عامل فيها . ثم إنه تبين له - لسوء الحظ - أن حكومتى بريطانيا وفرنسا لم تكونا على استعداد للأصرار على بقاء نوبار فى الوزارة إذ لم يكن فى وسعهما إلا أن تعملا بما يشير عليهما به قنصلاها فى مصر وهما اللذان آمنا - خطأ أو صوابا - بصدق دعوى الخديو بأن استقالة نوبار أمر لامفر منه» .

وقد نقلنا هذه العبارة بنصها من ص ١٩٠ من كتاب السير ريفرز لنريك مبلغ استهتاره فى سرد الوقائع التى كان هناك شهود عدول عليها . إنه يتكلم عن تخلى القنصلين عن نوبار فهلا ذكر أن تخليهما هذا كان بعد أن سألاه إذا كان يضمن المحافظة على الأمن فيما لو تمسكا ببقائه فى الوزارة ؟ فلما أجاب بأنه لايضمن ذلك لم يسعهما إلا التخلى عنه . أفكان السير ريفرز ينتظر أن يتمسك القنصلان بنوبار حباً فى سواد عينه حتى ولو لم =

هو بين عبد العزيز سلطان تركيا وعبد العزيز سلطان مراكش كما أن مكان الأزمة المصرية هو بين مجرى الحوادث فى تونس ومجراها فى الاستانة . أما أن الأنجليز هم الذين احتلوا مصر بدلا من الفرنسيين فليس يرجع هذا

= يضمن الأمن ؟ إذن من كان يمكن أن يعتبر مسؤولا عن صيانته إذا كان رئيس الوزارة لا يضمنه وإذا كان سيد البلاد الأعلى قد منع من الاشتراك فى الحكم ؟ أغلب الظن إن هذا التحيز الذى أظهره السير ريفرز لنوبار كان يراد به تعقيد الأمور وحدوث الاضطرابات وإلقاء تبعتها بالحق أم بالباطل على الخديو .

ونحسب أن السير بارنج الذين لم يكن من محبى اسماعيل - وقد كان حاضرا الاجتماع كما قدمنا - لو رأى فى مسلك القنصلين أعوجاجا أو مايستحق المؤاخذة لما التزم الصمت أو على الأقل لاشترك مع السير ريفرز والمسيو دوبلنيير فى الألحاح على نوبار بعدم تقديم استقالته ولكن الرجل - وهو غير مدله بحب نوبار كما كان شان السير ريفرز - رأى أن مكان نوبار بعد أن صرح بأنه لا يضمن الأمن هو فى عقر داره لا فى كرسى الوزارة .

بعد استقالة نوبار

فلما اتفقت كلمة القنصلين على خروج نوبار من الوزارة صدرت للورد فيفيان تعليمات بأن يقول للخديو مايأتى :

« إن فى نية حكومتى فرنسا وانجلترا أن تعملا سويا فى كل ماله علاقة بمصر ولذ فانهما لن توافقا على احداث أى تغيير من جهة المبدأ فيما أقره سموه من الترتيبات السياسية والمالية . وينبغى أن يكون مفهوما أن استقالة نوبار باشا إنما تنحصر أهميتها فى نظر الحكومتين فى الأشخاص فحسب بمعنى أن استبدال شخص بشخص لا يمكن أن يفهم منه احداث أى تغيير فى النظام » .

وقد رأى اسماعيل بحق فى هذه اللهجة أنها بمثابة انذار له . وإذ لم يكن بسعه مقاومة باريس ولندن فى وقت واحد فانه آثر الأذعان . ولكن نشأت صعوبتان . الأولى من عسى أن يكون رئيس الوزارة الذى يحل محل نوبار . والثانية اصرار السير ريفرز ولسن بتشجيع الحكومة البريطانية على اشتراك نوبار باشا فى الوزارة المعدة . وكان طبيعيا أن يتضايق اسماعيل من الطلب الثانى فكان رده عليه بالعبارة الآتية :

« إنه ليس فى وسعه إلا الأذعان لأرادة حكومتى انجلترا وفرنسا لأنه لا يمكنه مقاومتهما اذا أصرتا على عودة نوبار إلى الوزارة . ولكنه لا يرى بدا من أن يحذرهما =

إلى تفوق سياسة الفريق الأول على سياسة الفريق الثانى فى الأقدام أو فى القدرة على الدسائس كلا بل يرجع إلى ظروف الأحوال فهى التى دفعت الأنجليز لا الفرنسيين إلى العمل وإذا كان ثمة لوم على إسماعيل فى نظر

= سلفا من العواقب حتى لا يحملاه أى تبعة فى المستقبل فيما لو فشل النظام الجديد أو لو تجددت القلاقل مرة أخرى ».

هنا لك رأت الحكومة الفرنسية بعد ماقاله الخديو أن ليس من الحكمة التمسك باشتراك نوبار فى الوزارة الجديدة . ثم جارتها الحكومة البريطانية فى رأيها ذلك . ولكنها أرسلت مع هذه الموافقة « تحذيرا للخديو بأنها تعتبره مسؤولا عن القلاقل الأخيرة فى مصر وأن العواقب » — كما ذكر لورد كرومر فى كتابه — « وتكون جد وخيمة بالنسبة له فيما لو تجددت اضطرابات من هذا القبيل . »

ثم استطرد اللورد كرومر يقول « إن القنصلين شفعا هذا التهديد بوضع برنامج للعمل المشترك يتضمن ما يأتى :

أولا : لا يحضر الخديو جلسات مجلس الوزراء بحال من الأحوال .

ثانيا : يعين رئيسا لمجلس الوزراء الأمير محمد توفيق ولى العهد والمرشح من قبل الخديو لرئاسة المجلس .

ثالثا : للوزيرين الأوروبيين حق (الفيتو) أى رفض أى قرار يصدر من مجلس الوزراء بدون موافقتهما » .

وزارة توفيق باشا

١٠ مارس سنة ١٨٧٩

وعلى هذا الأساس صدر أمر اسماعيل فى ١٠ مارس سنة ١٨٧٩ بتشكيل الوزارة الجديده مع اسناد رئاستها إلى ولى العهد محمد توفيق باشا وأرسل إليه كتابا متضمنا قواعد ماتم عليه الاتفاق مع الدولتين . ولا بأس من اثباته بنصه لأنه يعتبر مكملا ومعدلا لأمر اسماعيل الصادر لنوبار باشا فى ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ . وقد ذكرته الوقائع المصرية فى عدد ٨٠٣ فى ٢٦ مارس سنة ١٨٧٩

« لما أحلت على عهدة أمانتكم رآسة المجلس وتشكيل هيأة النظار رأيت من المهم أن استجلب دقتكم فيما يجب من اتحاد الرأى بين أعضاء ذلك المجلس وأن أحيطكم علما بما فى أفكارى فيما يتعلق بأدراك المصالح طبقا لما هو مدون فى الدكريتو المؤرخ ٢٨ =

المصريين فهو إنه لو ابدى من الشجاعة ورباطة الجأش ما أبداه من الذكاء وحصافة الرأى لتمكن من درء الاحتلال الأجنبى عن القاهرة كما درأته الاستانة من قبل .

= أشسطس الماضى الذى هو أساس لهيأة الحكومة . فأنى عند تأسيس هذا الترتيب الجديد لم يخطر بفكرى قط الانفراد عن وكلائى . بل غاية قصدى أن أكون معهم باتحاد تام ولذلك ينبغى أنه قبل أن يقر مجلس النظار على أى قرار فيما يتعلق باللوائح أو الأحكام التى تقدم من أحد النظار أن تعرض على مع أسانيدها من طرف الناظر الذى هى من خصائصه حتى يمكننى أن أحيط المجلس علماً بجميع ما يترامى لى من التدابير اللازمة اتخاذها . وعلى كلا الأمرين يجتمع المجلس عند صدور ارادتى بذلك لينظر بالاتحاد معى فى المسائل التى عرضت على . إنما لأجل التأمين على تمام استقلال المجلس لا أحضر وقت المذاكرة .

« وحيث أن النظار الوطنيين حائزون الأغلبية فى المجلس فلأجل التعادل هناك يكون للنظار الأوروبيين تأثير فى الرأى ولهم الحق فى المعارضة وعدم قبولهم رأى الاغلبية .

« هذا وفى أملى أن ذلك الترتيب الجديد يكون كافيا فى سير المصالح وظهور الفائدة للقطر المصرى وليكن مجلس النظار مطمئناً فى سائر الأحوال على مساعدتى له وحسن مساعى كما أنى مطمئن على اجتهاده وحسن مساعيه فيما فيه نفع العموم

عابدين بمصر فى ١٠ مارس سنة ١٨٧٩ . اسماعيل »

استدعاء لورد فيفيان

وبالرغم من أن الخديو أصبح يملك دون أن يحكم ومع أن وزارة توفيق باشا راحت تحكم البلاد مع خضوعها لحق الفيتو من ناحية السير ريفرز ولسن والمسيو دوبلنيير إلا أن مسافة الخلف أخذت تتسع تدريجاً بين لورد فيفيان والسير ريفرز . ذلك لأن القنصل العام كان يستصوب عدم معاملة الخديو كما لو كان صفراً على يسار العدد . وقد اشتد الخلاف حتى أصبح ولاة الأمور فى دوننج ستريت مقتنعين بأن الحالة لم تعد محتملة ولذا صدر الأمر فى ١٥ مارس سنة ١٨٧٩ باستدعاء لورد فيفيان . وبعد ذلك بخمسة أيام (وهى سرعة لم يعهد مثلها فى استبدال القناصل) وصل سير فرانك =

لأن الاحتلال المذكور بدأ دون أن ينتبه إليه احد لجزء من اعمال اسماعيل المالية . فقد كان الخديو فى عام ١٨٧٣ رغماً من ازدياد الأيراد



أفلاطون باشا وزير الحربية سابقاً

= لاسلز القنصل العام الجديد ليحل محل لورد فيفيان . وقد أفهم قبل سفره - كما قال لورد كرومر - بأنه « يقدم معونته الودية للسير ريفرز ولسن فى معاملاته مع الخديو . »

تشكيل الوزارة التوفيقية

قضى الأمير محمد توفيق اثنى عشر يوماً فى اختيار أعضاء وزارته وذلك بسبب اعتراضات الوزيرين الأجنبيين وتدخلهما فى كل شيء . وفى يوم ٢٢ مارس (أى بعد وصول القنصل البريطانى العام الجديد بيومين) تم تشكيل الوزارة التوفيقية على النحو الآتى :

الأمير محمد توفيق باشا للرآسة
رياض باشا للداخلية والحقانية
السير ريفرز ولسن للمالية
المسيو دوبلنيير للأشغال العموميه
على باشا مبارك للمعارف والأوقاف
ذو الفقار باشا للخارجية
أفلاطون باشا للحربية

وارتفاع أثمان القطن غارقا فى الدين وإن لم يكن طبعاً بشكل يدعو إلى

موقف مجلس شورى النواب

إزاء الوزارة التوفيقية

لم يكن ينتظر بعدماسردناه عليك من ضروب الأعنات والأرهاق وتبرم كل بيئة من بيئات الأمة أن تبقى الأمور هادئة وخاصة بعد فتنة الضباط فى يوم ١٨ فبراير ١٨٧٩ وكان طبيعياً أن تجد هذه الحوادث الخطيرة والاعتداءات المتواصلة على سلطة حاكم البلاد الشرعى وسيدها الأعلى صدى فى مجلس شورى النواب وبخاصة بعد ما أصبح معروفا لدى الخاص والعام أن الوزارة التوفيقية الجديدة ستكون مجرد آلة مسخرة لرغبات الوزيرين الأجنبيين .

لذلك ظل المجلس المذكور يوالى اجتماعاته طيلة المدة التى اشتغل فيها توفيق باشا باختيار أعضاء وزارته وقدم فى يوم ١٩ مارس (أى قبل تشكيل الوزارة بثلاثة أيام « إنهاء » أو قرارا بتوقيع ٤٩ نائبا متضمنا ما وضعوه من الاقتراحات لتخفيض عبء الضرائب والأتاوات قائلين إنهم أرسلوا اقتراحات لوزارة الداخلية دون أن يصلهم ردها عليها ولذا فالمجلس يوافق على هذا « الأنهاء » ويرسل صورته إلى الداخلية .

وهنا تبين للوزيرين الأوربيين أن المجلس المذكور حجر عثرة فى سبيل ما أراداه فاقترحا التخلص منه وانضم اليهما رياض باشا . وقررت الوزارة فض المجلس بحجة أن مدة نيابته وهى ثلاث سنوات قد انتهت ولذا استصدرت من الخديو مرسوم فضه وعهدت إلى رياض باشا بابلاغه إلى المجلس. فلما نمى إلى الاعضاء ما اعتزمته الوزارة صمموا على مخالفة إرادتها . وعقد مجلس شورى النواب جلسة تاريخية فى يوم ٢٧ مارس سنة ١٨٧٩ عند ما حضر رياض باشا لتلاوة أمر الانفضاض .

ودارت مناقشة بين الأعضاء وبين رياض باشا كان من فرسانها النائب محمد افندى (بك) راضى وعبد السلام بك المويلحى وبدينى افندى الشريعى ومحورها أن المجلس لم تنته بعد من مهمته ولذا لا يمكن للنواب أن يعودوا إلى بلادهم قبل اتمام النظر فى المسائل المالية وفى الميزانية .

وقالوا إنهم لا ينفضون إلا بعد إعطاء مجلس النواب حقوقه واجابة طلباته وأنهم سيظلون منتظرين جواب الحكومة . ثم أرسلوا صورة من محضر هذه الجلسة التاريخية إلى الخديو وصورة أخرى إلى الوزارة .

اليأس كما كانت إيرادات السكة الحديدية والدائرة السنية مرهونة للغير . ثم تبين أن الدين المستهلك كان أكثر مما تستطيع البلاد أن تضطلع باعبائه.

عريضة النواب لاسماعيل باشا

٢٦ مارس سنة ١٨٧٩

وقدم النواب فى ٢٩ مارس عريضة للخديو وقع عليها كافة من كان فى القاهرة من أعضاء وفيها احتجاج شديد على تصرف الوزارة وامتهانها لحرمة المجلس وعلى مشروع الوزارة المالى الذى كانت تنوى إصداره ويتضمن إعلان إفلاس الحكومة المصرية وإلغاء قانون المقابلة . وقد أعلن النواب عزمهم على رفض هذا المشروع والامتناع عن تنفيذه وطلبوا إلى الخديو أن يعمل بحكمته على تلافى الحالة قبل استفحال الخطر .

اجتماع الجمعية الوطنية

ولما أيقن الناس أن الوزارة التوفيقية لا تريد بالبلاد خيراً بدليل أنها أقدمت على حل مجلس شورى النواب قبل أن يمضى على تأليفها خمسة أيام دون أن تحدد ميعادا للانتخابات الجديدة ، هذا إلى مايتمتع به الوزيران الأجنبيان من حق الفيتو ، يضاف إلى ذلك أن السير ريفرز وضع لائحة تتضمن مشروع تسوية مالية تجعل مصر فى حالة عجز كلى عن سداد ديونها أى وضع البلاد تحت الرقابة الأجنبية بصفة دائمة وبقاء الوزارة الأوروبية تتولى الحكم كما تشاء وتهوى — لما أيقن الناس بذلك كله وذكروا ان السير ريفرز بصفته وزيرا للمالية لم يتنازل مرة واحدة بالحضور أمام مجلس شورى النواب عما اعتبر ماسا بكرامة ذلك المجلس ، اتجهت الأفكار إلى العمل للتخلص من هذه الوزارة الأوروبية . ومن ثم أخذ قادة الأفكار من النواب والأعيان والعلماء والتجار يجتمعون ويتشاورون فى الحالة السياسية وما ينبغى عمله لانقاذ البلاد من ورطتها .

وكانت دار البكرى فى بداية الأمر مكان اجتماع الأحرار ثم تحولوا إلى دار اسماعيل باشا راغب وزير المالية السابق ورئيس مجلس شورى النواب فى أول نشأته . فاجتمعت فى داره الجمعية الوطنية — أو الحزب الوطنى — كما أسمته جريدة التجارة فى عدد ٢١٦ — وكانت تضم كبار البلاد وأهل الرأى فيها . فاتفقوا على وضع بيان بما استقر عليه رأيهم وهو يتضمن مشروع تسوية مالية يعارضون به مشروع السير ريفرز ولسن ويجعل البلاد =

وبما أن نشوب الحرب البروسية الفرنسية كان قد حال دون عقد قروض أخرى فقد أخذت أقساط الدين السائر تتكدس بشكل خطر . فلم يك ثمة مناص لاسماعيل من استعجال الأيراد . ولهذه الغاية سن قانون المقابلة

= قادرة بضماناتهم وكفالتهم على سداد ديونها والمطالبة بتأليف وزارة وطنية وإبعاد الوزيرين الأجنبيين عنها وتقرير نظام دستورى للبلاد أساسه جعل الوزارة مسؤولة أمام مجلس النواب .

المطالبة بتأليف وزارة وطنية

واتجهت الأنظار إلى شريف باشا لتأليف الوزارة الوطنية نظراً لموقف الأباء الذى وقفه أمام لجنة التحقيق ورفضه المثول أمامها وإيثاره الاستقالة احتفاظاً بكرامته . وكان شريف معروفا بكرهه للتدخل الأجنبى .

اللائحة الوطنية

وفى يوم ٢ ابريل اجتمع بدار اسماعيل باشا راغب الأحرار من الأعيان والنواب والعلماء وغيرهم وكان فى مقدمة من حضر شريف باشا وشاهين باشا وحسين باشا راسم وجعفر باشا والسيد على البكرى وغيرهم واتفقوا على ماسموه اللائحة الوطنية وتتضمن :

أولا : مشروع تسوية مالية معارض لمشروع السير ريفرز لأن أساسه أن إيرادات الحكومة تكفى مصروفاتها بما فيها أقساط الديون فى حين أن مشروع الوزارة كان يعتبر البلاد فى حالة إفلاس .

ثانياً : المطالبة بتعديل مجلس شورى النواب وتخويله السلطة المعترف بها للمجالس النيابية فى أوروبا وتقرير مبدأ المسؤولية الوزارية أمامه .

ثم وقع المجتمعون على عريضة ضم إليها مشروع التسوية المالية واتفقوا على تقديمها للخديو . وقد ختموا اللائحة الوطنية بطلب تعديل مجلس شورى النواب .

وقد وقع على اللائحة ٦٠ من أعضاء مجلس شورى النواب و ٦٠ من العلماء والهيئات الدينية وفى مقدمتهم شيخ الأسلام وبطريرك الأقباط وحاخام الأسرائيليين و ٤٢ من الأعيان والتجار و ٧٣ من الموظفين العاملين والمتقاعدين و ٩٣ من ضباط الجيش .

وليس يفوتنا أن نذكر أن اللائحة الوطنية فضلا عما تضمنته من الأصلاح الدستورى لم تنس مصالح الدائنين . فبينما هى طالبت بتقرير مبدأ المسؤولية الوزارية أمام مجلس النواب قبلت نظام المراقبة الثنائية لتأمين حقوق الدائنين وذلك بتعيين مفتشين أوربيين =

الذى يقضى بأن ينزل الخديو لملاك الأراضى الزراعية عن نصف الضرائب

= لايرادات ومصروفات الحكومة . فهى لم تنقض ماقطعته الحكومة المصرية على نفسها للدول من التعهدات .

ثم إن المشروع المالى الذى تضمنته اللائحة لايختلف عن لائحة السير ريفرز إلا فى أنه أبقى ضريبة المقابلة بينما ألغاها مشروع السير ريفرز ولسن كما أن هذا المشروع الأخير فرض ضريبة جديدة على الأطيان العشورية لم يقرها مشروع اللائحة الوطنية .

ولا بد من كلمة إيضاحية هنا عن قانون المقابلة ومسألة الأراضى العشورية .

فنى ٢٠ أغسطس سنة ١٨٧١ سن الخديو اسماعيل قانون المقابلة ويقضى بأنه إذا دفع أصحاب الأطيان الضرائب المربوطة على أطيانهم لمدة ست سنوات مقدماً تعفى الحكومة أطيانهم على الدوام من نصف المربوط عليها (مادة ٣) . وقد تعهدت الحكومة فى ذلك القانون (مادة ٣ ومادة ٢٠) بأن الملاك الذين يدفعون المقابلة لا يزاد سعر الضريبة على أطيانهم فى المستقبل ولا يجوز مطالبتهم بسلفة ولو مؤقتة الخ الخ .

أما الأراضى العشورية فقد كانت فى بداية أمرها أراضى بورا وزعها الولاة السابقون على أتباعهم بشرط أن يصلحوها فى مقابل اعفائها من الضرائب اعفاء تاماً دائماً . ولا ريب أن الرجوع فى هذه الهبة مستحيل بمقتضى أمر خديو عال وبخاصة إذا كان إصدار هذا الأمر بناء على طلب الأجانب ولمصلحة « المرابين » الأجانب .

. وبمناسبة اقتراح إلغاء قانون المقابلة كما جاء فى مشروع السير ريفرز ولسن نقتبس من كتاب التاريخ السرى للاحتلال البريطانى للمستر بلنت ص٤٤ قوله : « إن مشروع إلغاء نظام المقابلة الذى لو تم لكان معناه مصادرة أراضى تبلغ قيمتها ١٥ مليون جنيه أقلق بال كل مالك وحمل الناس على الاعتقاد بأنه قد ينالهم على يد ناظر المالية الانجليزى أسوأ مما نالهم على أيدى سابقيه . »

فلا جرم إزاء هذا القلق العام أن يبقى مشروع اللائحة الوطنية ضريبة المقابلة التى اقترح مشروع السير ريفرز الغاءها .

الخديو يقبل اللائحة الوطنية

فأنت ترى أن الخديو كما أنه لم تكن له يد فى تدبير فتنة الضباط كذلك لم تكن له يد فى الاجتماعات التى انتهت بوضع اللائحة الوطنية . فكما أن الأولى قامت من تلقاء نفسها احتجاجا على تخفيض مرتبات الضباط بعد تأخير دفعها عشرين شهرا ، كذلك =

المفروضة عليهم نزولا تاماً فى مقابل أن يدفعوا إليه مقدما فى وقت معين



المستر ولفرد بلنت
صديق العرابيين وصاحب كتاب التاريخ السرى للاحتلال البريطانى

= قامت الثانية من تلقاء نفسها بعد أن أبصر كل ذى عينين الهاوية التى كانت الوزارة الأوربية تدفع البلاد إليها .

ولكن السير ريفرز وقد استشرى فى جسمه الحقد على اسماعيل لم ير فى كل هذه الحركات والاجتماعات — كما زعم — إلا تدبيرا من ناحية الخديو تمهيدا للضربة الأخيرة التى كان سموه يعدها والتى ادعى أنها كانت نزولا على إرادة الرأى العام المتبرم بالوزارة الأوربية . (كذا ! كذا !)

وقد ذهب وفد من الأمراء إلى الخديو وقدموا له اللائحة فاستجاب إلى مطالبهم وأقرها وأمر بترجمتها وكتابة عدة نسخ بالفرنسية منها لارسالها إلى قناصل الدول ووقع على هذه النسخ راغب باشا بالنيابة عن الموقعين من الذوات والأعيان واحمد رشيد باشا بالنيابة عن أعضاء مجلس شورى النواب والسيد على البكرى بالنيابة عن العلماء والتجار وراتب باشا بالنيابة عن الضباط . وقد اعتزم الخديو تشكيل وزارة برآسة شريف باشا نزولا على إرادة الامراء . وتمهيدا لذلك استقال توفيق باشا بحجة أن الوزيرين الأوربيين أهملاه كلية كأن لا وجود له .

وأما السير ريفرز فانه لم ير فى أصحاب هذه التوقيعات إلا جماعة من الموظفين =

ستة أمثال هذه الضريبة . فجمع بهذه الطريقة مبلغ ١٦٠٠٠٠٠ جنيه

= والأعيان والعلماء جمعهم الخديو لقضاء مآربه . وكانت لجنة التحقيق العليا التى استأنفت أعمالها قد وضعت مشروعا للتسوية المالية (وهو الذى عرف بمشروع ولسن) حبذه الماجور بارنج ورأى السير ريفرز من باب اللياقة والمجاملة إرساله إلى الخديو للاطلاع عليه قبل توقيعه بشرط أن يعد سموه ألا يفشى شيئا من محتوياته . ولكن سموه — هكذا زعم السير ريفرز — جمع الموظفين والأعيان والعلماء وأطلعهم على صورة التقرير وكلفهم بوضع مشروع مضاد لمشروع لجنة التحقيق .

وفى يوم ٦ أبريل طلب السير ريفرز وزميله دوبلنيير مقابلة الخديو واحتجا رسميا على تصرفه وقالا إن ما فعله يزعزع سلطتهما . فتقبل سموه ملاحظتهما باحترام كما قال السير ريفرز ، دون أن يفسر لهما سبب حنثه بالوعد لانه كان قد أحرق سفنه ، ثم كلف شريف باشا بتشكيل وزارة كل أعضائها من الوطنيين .

فهل رأيت إلى أى حد تقلب الحقائق وتمسخ الوقائع الملموسة ؟

اسماعيل يستدعى القناصل

وفى يوم الاثنين ٧ ابريل استدعى سموه قناصل الدول إلى سراى عابدين وحضر الاجتماع السيد البكرى وراغب باشا وشريف باشا وعبد السلام بك المويلحى ومحمد بك راضى . وحدث الخديو القناصل فى شأن اللائحة الوطنية التى رفعت إليه من أحرار البلاد وقال إنه إزاء الرغبة العامة من جميع الطبقات وإزاء السخط المتغلغل فى سائر أنحاء البلاد يرى أن الأمر قد وصل إلى درجة لا تطاق يتعين معها اتخاذ إجراءات حاسمة ثم قال : « إن الأمة تحتج أشد الاحتجاج على إعلان حالة الافلاس التى فكر فيها السير ريفرز ولسن وتطالب بتشكيل وزارة مصرية صحيحة تكون مسؤولة أمام مجلس النواب . »

ثم أضاف الخديو « إن الأمير محمد توفيق رغبة منه فى عدم مصادمة عواطف الأمة قد استقال من رآسة الوزارة وأنه عهد بتأليف الوزارة الجديدة إلى شريف باشا . »

واستطرد سموه فصرح للقناصل بهذه العبارة :

« ولن أتحول عن حكم البلاد طبقا للمرسوم الصادر فى ٢٨ أغسطس الذى قرر مبدأ المسؤولية الوزارية . ثم إن مرسوم ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ الذى وضع بعد الاتفاق مع بعثة غوشن جوبير (الخاص بانشاء المراقبة الثنائية) سيظل محترما . »

أنفق فى استهلاك الدين السائر . ثم إنه لجأ إلى عقد قرض إجبارى بمبلغ

= وقد أرسل الوزيران الأوربيان إلى الخديو فى نفس ذلك اليوم احتجاجهما على قبوله اللائحة الوطنية إذ يعتبرانها مخالفة لسلطة مجلس النظار ويتنافى مع ما وعد به سموه من معاونة الوزارة حين تأليفها .

ولكن الخديو رد على هذا الاحتجاج فى اليوم نفسه بدعوة شريف باشا لتشكيل الوزارة .

كتاب الخديو إلى شريف باشا

اسماعيل يقرر مبدأ الشورى

وإنه لما يطرب له كل مصرى غيور ويخفق له فؤاده أن يقرأ ذلك الخطاب التاريخى الذى أرسله اسماعيل إلى شريف باشا يكلفه فيه بتشكيل الوزارة . فهو والحق يقال من أهم الوثائق فى تاريخ النهضة المصرية وحسبك أنه يقرر مبدأ مسؤولية الوزارة أمام مجلس شورى النواب باعتبارها أساس النظام الدستورى الحديث . وبهذا تكون مصر قد نالت فى سنة ١٨٧٩ هذا الحق الهام الذى هو قوام الدساتير العصرية ويكون اسماعيل الذى انشىء مجلس شورى النواب فى أوائل عهده (١٨٦٦) ضعيف الحول معدوم القوة ناقص السلطة هو نفسه الذى لم يضن على أمته بتكميل سلطة مجلسها المذكور بتقرير مبدأ المسؤولية الوزارية أمامه سنة ١٨٧٩

ولعل نفسك قد تاقت إلى مطالعة ذلك الكتاب التاريخى لشريف باشا فاليك نصه كما جاء معرباً فى الوثائق الرسمية عن أصله الفرنسى ننقله عن كتاب الأستاذ الرافعى بك . قال اسماعيل مفاخرا بوطنيته وبمصريته :

« إنى بصفة كونى رئيس الحكومة ومصرياً أرى من الواجب على أن أتبع رأى الأمة وأقوم بأداء مايليق بها من جميع الأوجه الشرعية . لكن لما نظرت السير الذى كانت عليه النظارة السابقة حصل لى غاية الأسف من أن ذلك السير كان على غير رضا الملة والأهالى حتى نشأ عنه اضطراب ونفور سرى فى جميع القلوب وحركها وكانت قبل ذلك فى غاية الهدوء والسكون . وطالما أخبرت النظار ووكلاء الدول ونبهتهم على تلك الملحوظات فلم يتيقظوا لها ولم يلتفتوا إليها . وزيادة عن ذلك فان النتيجة التى حررها ناظر المالية وأظهر بها أن القطر فى حالة العدم وأبطل العمل بمقتضى القوانين المعتبرة وتجارى فيها على الحقوق الثابتة ، كانت سبباً فى تغيير قلوب الأمة ونفورها من هيأة النظارة كل النفور =

٢٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه . ثم لم يحل شهر نوفمبر من عام ١٨٧٥ حتى كانت

وحقق لى ذلك المحضر الذى تقدم لى فى هذا الخصوص . فاجابة لما عرض على بذلك وبالنظر لثبوته عندى قد وكلتكم بتشكيل هيأة النظارة بناء على الارادة الصادرة فى ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ وأن تكون تلك النظارة مشكلة من أعضاء أهليين مصريين يتبعون فى سيرهم الطرق المنصوص عليها فى الارادة التى يجب المحافظة عليها بكل دقة مع زيادة توكيدها وتثبيتها بجعل الوزراء مسؤولين مسؤولية حقيقية أمام مجلس الأمة الذى ستنظم طريقة انتخابه وتقرر حقوقه على النحو الذى يكفل مقتضيات الأحوال الداخلية ويحقق الأمانى القومية . ولتجتهد النظارة قبل كل شىء فى أن تستعد لاستحضار قوانين مماثلة للقوانين الجارى عليها العمل فى أوربا مع مراعاة عوائد الأهالى وأخلاقهم وما يلزم هم. وتلتفت أيضا تلك الوزارة كل الالتفات لتنفيذ ترتيب المالية الذى رتبه أعيان القطر وكبراؤه وحصل التصديق عليه متى ولا تتأخر عن اجراء اللازم فى إيجاد مصلحة لتفتيش الايرادات والمصروفات (أى نظام المراقبة الثنائية) لأنها هى التأمين اللازم للقطر والمنافع المرهونة عليه ومنصوص عنها فى الارادة الصادرة فى ١٩ نوفمبر سنة ١٨٧٦ هذا ولعلمى بحسن اخلاصكم لخدمة الوطن فلا أشك فى أن تستعينوا على تلك المأمورية بالرجال المشهود لهم مثلكم بالأمانة والاحترام لدى الجميع لتتم بكم المقاصد المؤديه إلى التمدن والعمارية التى أريد أن يقترن بهما اسمى ولتكن دولتكم على يقين من عظيم تقديرى وصادق محبتى . »

« اسماعيل »   ١٧ ابريل سنة ١٨٧٩

هذا هو ماسماه مروجو الدسائس « بالانقلاب الحكومى » وهى تسمية ولا شك غريبة ! إذ هل حاول اسماعيل بعمله هذا أن يمس مصالح الدائنين ؟ كلا . وهل أدل على حرصه على هذه المصالح من إشارته الصريحة إلى وجوب إيجاد مصلحة لتفتيش الايرادات والمصروفات (أى نظام المراقبة الثنائية المقرر بمرسوم ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦) ؟ إن كل مافعله بذلك الانقلاب الذى هلل له الشعب المصرى لايخرج عن إبعاد العناصر التى ضجت منها البلاد وضاقت ذرعا بها . نعم لم يفعل أكثر من استبدال الوزيرين الأجنبيين ووزارة كانت مهمتها قبل كل شىء خدمة المرابين بوزارة وطنية مسؤولة أمام برلمان الشعب. فهل يصح أن يسمى هذا انقلابا مع أن الرجل لم يخطر له المساس بالمصالح الاجنبية أم أن الانقلاب الحقيقى هو تبرم الدائنين بهذه الوزارة الوطنية وتآمرهم على خلع اسماعيل بلا وجه حق كما حدث بعد ؟

اسماعيل يعمل داخل حدود سلطته

ويحق لنا أن نتساءل هل كان اسماعيل باشا باسقاطه الوزارة الأوربية يعمل فى داخل حدود سلطته الشرعيـة أم أنه تجاوزها ؟ إننا إذا نظرنا إلى ص ١٩٢ من مذكرات السير ريفرز ولسن لرأيناه يذكر فى كثير من الألم حقيقة مرة كانت منسية لدى سواد الجمهور إلى أن أعلنها السير ستافورد نورثكوت وزير مالية انجلترا . تلك الحقيقة هى أن السير ريفرز عنـد ماذهب إلى مصر كما أعلن السير ستافورد فى مجلس العموم « ذهب بصفته ناظراً من نظار الخديو فلسموه الحق المطلق فى عزله إذا اقتضت المصلحة ذلك ».
إذن لم يتجاوز اسماعيل حدود سلطته عند ما عزل السير ريفرز بعد أن رأى المصلحة تقتضى ذلك . يسلم السير ريفرز بهـذه الحقيقة ولكنه يقول « لا ينبغى أن يصرح الانسان دائما بالحقيقة كلها . » فليكن هذا رأيه ولكن مما لاجدال فيه أن اسماعيل لم يرتكب أمرا إدا وبخاصة متى ذكرنا أنه اتفق ـ كما مر بك ـ مع الحكومتين الانجليزية والفرنسية على أن تعاد المراقبة الثنائية حتما إذا فصل أحد الوزيرين الأجنبيين من منصبه من غير موافقة حكومته . وقد رأيت إشارة الخديو الصريحة فى خطابه لشريف باشا إلى إيجاد نظام المراقبة الثنائية بما يدلك على أن الرجل لم يحنث باتفاقه ولم يفعل إلا ماهو من حقه المشروع .

تقرير لجنة التحقيق العليا

حدث كل هذا فى يوم ٧ ابريل سنة ١٨٧٩ . وفى اليوم التالى كانت لجنة التحقيق العليا قد أتمت تقريرها وأعلنت فيه أن مصر فى حالة افلاس فينبغى معالجة حالتها المالية على هذا الأساس .

ولما كانت الوزارة قد استقالت فلم يقدم التقرير لها لانشغال شريف باشا بتشكيل الوزارة الجديدة . ولـكن أعضاء لجنة التحقيق أرادوا أن يقوموا بمظاهرة ضد الخديو ولاجترائه على الانتفاع بحقه فى اسقاط الوزيرين الأجنبيين . ففى يوم ١٠ ابريل قدموا إلى اسماعيل استقالتهم مشفوعة بخطاب يتضمن التقرير الذى وضعوه . فما كاد الخديو يجيل نظره فيه حتى أعلنهم أنه لايستطيع قبول ماوصلوا إليه من النتائج من أن بلاده أصبحت فى حالة إفلاس . ثم رد عليهم باعلان المشروع المالى الذى تضمنته اللائحة الوطنية وسبقت الاشارة اليه .

بسعر ٣٠ ٪ وفى ابريل سنة ١٨٧٦ تبين استحالة أداء الكوبون حتى برغم جلد الفلاحين وهكذا توقف الدفع لأول مرة .

= ولقد أخذ الاستياء من اسماعيل مأخذه حتى أنه احتج على دعوى الافلاس وقال فيما قال :

« لقد تنازلت أسرتى عن الجزء الأكبر من أراضيها مساعدة للدولة ولا تزال على استعداد لبذل تضحيات أكثر من هذا . فجوهرات أميرات الأسرة الخديوية تحت تصرف دائنى مصر . فكل فدان فى حيازتنا بل وكل جوهرة فى حيازة أميراتنا هى رهن اشارة أو كلمة من الدائنين . كل هذه التضحيات نقدمها على مذبح الوطن عن طيبة خاطر ولكننا نرفض بتاتاً التسليم بالافلاس . »

وهى لعمرك كلمات صادرة من ذلك القلب الكبير المفعم بالأسى . ولكنها وقعت وياللأسف على آذان صماء .

الأضراب عن العمل

قد رأيت إذن أن اسماعيل لم يخرج فى تصرفاته عن استعمال الحق الذى له كرئيس للدولة وسيدها الأسمى كما أشار إلى ذلك وزير المالية البريطانية . فبعد أن استقال أعضاء لجنة التحقيق وسقط الوزيران الأجنبيان كان المعقول أن تعاد المراقبة الثنائية طبقاً للاتفاق المعقود بين الخديو وحكومتى فرنسا وانجلترا فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٧٦ . ولكن هل تعلم ماذا حدث ؟

عندما أدمج الوزيران الأجنبيان فى وزارة نوبار تقرر الغاء منصبى المراقبين العموميين . ومع أن الخزانة العمومية كانت خاوية على عروشها فقد رؤى جبر خاطر المستر رومين المراقب الأنجليزى وزميله الفرنسى البارون دومالاريه باعطاء كل منهما مبلغ ٤٠٠٠ جنيه ! ولما كان اتفاق ٨ نوفمبر يحتم اعادة العمل بنظام المراقبة الثنائية إذا سقط أحد الوزيرين بدون موافقة حكومته رأى اسماعيل أن يدعو السير افلين بارنج العضو البريطانى بصندوق الدين وزميله الفرنسى المسيو بليج دى بوجاس للقيام بأعمال المراقبين فامتنعا وأجابا بالرفض التام . فكان امتناعهما هذا لعلامة متفق عليها . لأن كبار الموظفين الأجانب فى القاهرة سرعان ما أعلنوا شبه اضراب عن العمل لشل حركة الوزارة التى كان شريف جادا فى تشكيلها انتقاما من اسماعيل لجرأته على استعمال حقه المخول له . وهو الحق الذى لم يجادل فيه وزير المالية البريطانية نفسه .

فصدر أمر عالى فى ٢ مايو سنة ١٨٧٦ بتلبية مطالب الدائنين الأجانب

اسماعيل يجس نبض الاستانة

كان اسماعيل من الدهاء وبعد النظر بحيث أدرك أن أعماله هذه كلها لاغبار عليها من الناحية القانونية . كذلك أدرك أن فرنسا وانجلترا بل والدول الأوروبية مجتمعة لن تستطيع أن تمسه بسوء طالما أن جلالة السلطان لايمالىء الخصوم ضده . ولذا راح اسماعيل يجس النبض فى الدواوين الرسمية فى الاستانة . ولعلك لم تنس مندوبه ابراهام الارمنى . فبينما كانت الأمور التى سردناها عليك تحدث فى القاهرة كان اسماعيل قد اتصل بمندوبه الأرمنى المذكور للوقوف منه على مدى ماتبذله الدولتان الكبيرتان من التأثير ضده لدى الباب العالى .

وفى يوم ١٣ ابريل تلقى سموه هذين الردين وقد جاء فى أولها العبارة الآتية :

« تلقيت أوامر مولاى السامى القدر فقمت من فورى لتنفيذها حرفيا . وقد قابلت الصدر الأعظم فى هذا الصباح . فقال لى ما يأتى : « لم نسمع بشىء من فرنسا ولا من انجلترا بصفة رسمية . وليست للمكاتبات الغير رسمية أية قيمة ولا وزن لها فى نظر مجلس الوزراء » .

وإليك نص الرد الثانى وفيه إشارة إلى مساعى حليم باشا حيال الأريكة الخديوية . قال ابراهام :

« تجرى هنا دسائس كثيرة ومعقدة . فحليم باشا يذهب إلى السراى ويلبث فى حضرة جلالة السلطان ساعات عديدة كل يوم . ولست أظن أن الأمير يتكلم عن مولاى الخديو كلاماً طيباً ولكن من حسن الحظ أن رأى جلالة السلطان فى حليم باشا لايشرف . »

ومنذ هذا التاريخ إلى اليوم الذى غادر فيه اسماعيل مصر ظل اسم حليم باشا يتردد على الألسن . وليس شك فى أنه لولا الفرمان الذى حصل عليه اسماعيل بتغيير نظام الوراثة لنجحت مساعى الأمير فى الحصول على العرش . وقد أفرغ كل ما فى جعبته للافادة مما كان يحيط باسماعيل من المتاعب . وقد تقدم فعلا باقتراح لخلع سموه واحلاله هو مكانه . ويؤخذ من الخطابات والبرقيات التى تبودلت مع ابراهام أن سفيرين من سفراء الدول العظمى كانا يرقبان هذه المساعى بأكثر من مجرد الاهتمام « الأفلاطونى » على حد تعبير المستر كرابيتس .

تنديد القنصل الأمريكى بالدسائس ضد اسماعيل

ولما كانت الحقيقة لا تعدم أنصارا فان هذه الدسائس التى ظلت تحاك خيوطها

بتعيين حراسة أجنبية تسمى لجنة الدين . وقد قبلت حكومات فرنسا

= أمدا طويلا ضد اسماعيل لم تمر دون أن يندد بها رجل محايد لا مصلحة له وهو القنصل أمريكا العام فى القاهرة المستر فارمان الذى عينته حكومته فيها بعد قاضياً فى المحكمة المختلطة بمصر . ولم يكن المستر فارمان ينتظر أن ترى ملا حظاته ضوء الشمس يوماً ما ولذا كتب ما كتب بصراحة غير مألوفة فى لغة رجال السياسة . وقد أرسل فى ٢١ مارس سنة ١٨٧٩ (أى قبل سقوط الوزيرين الأوربيين) للمستر وليام إيفارت وزير خارجية الولايات المتحدة خطابا غير رسمى قال فيه :

« يستحيل على المرء تعليل المسلك الذى تسلكه انجلترا وفرنسا حيال مصر أو إرجاعه إلى اسباب مالية بحتة . فجماعات المضاربين فى باريس ولندن وهم الذين يقدمون المعلومات هم المشرفون على الصحف ولذا صار فى استطاعتهم ايجاد رأى عام إلى حد ما بالنسبة للشؤون المصرية . فليس لهؤلاء الجماعات بالطبع أى اهتمام بشىء عدا الشؤون المالية وكل غايتهم هى زيادة قيمة سنداتهم . ولكن حكومتى هؤلاء المضاربين - وبخاصة الحكومة الأنجليزية - لابد وأن تكون لها غاية أخرى مختمرة لديها . وقد يلوح للشخص الذى يقف من الحوادث موقف المتفرج المجرد من المصلحه أن المقصود هو إيجاد فتنة أو ثورة - إن أمكن - لاتخاذها ذريعة للاستيلاء على البلاد (كذا)

« ومهما أنحى الانسان على الخديو باللائمة لتسببه فى تحميل مصر هذه الديون فليس شك - على ما يلوح لى - فى أنه قد بذل أقصى ما فى استطاعته فى خلال العامين الماضيين لتخفيض المصروفات مرضاة للدائنين . »

فبينما كان السير ريفرز يثير الغبار حول اسماعيل ويتضجر منه ويحرض دولته عليه كان الشهود العدول المحايدون يؤكدون أن الخديو بذل كل ما فى استطاعته لأرضاء دائنيه .

ولم يقف المستر فارمان عند هذا الحد . بل إليك رسالة أخرى كتبها إلى حكومته يبين لها كيف أصبح اسماعيل ضحية الدائنين . قال :

« لقد استخدمت انجلترا وفرنسا سلطتهما فى إرغام مصر على دفع فوائد لاقبل لها بها وخارجة عن طاقتها بالكلية . والأدهى من ذلك أن هذه الفوائد هى عن ديون لم تتسلمها مصر فالأسهم بيعت فى البداية بسعر يتراوح بين ٦٠ - ٧٠٪ . بل إن العالمين بحقائق الأمور يؤكدون أنه بعد دفع البقشيش والعمولة وما إليهما من النفقات لم يدخل الخزانة أكثر =

والنمسا وإيطاليا أن يكون لكل منها مندوب فى هذه اللجنة . ولكن انجلترا



عمر باشا لطفى الذى كان فيما بعد وزيرا للحربية وقت حريق الاسكندرية

من ٥٠ ./. . لا بل إن الكثير من حملة القراطيس الحاليين لم يدفعوا سوى ٤٠ أو ٣٠ ./. عن الأسهم ومع ذلك فانهم يطالبون بفائدة ٦ ./. على اعتبار أنهم دفعوا ثمن السهم كاملا. ثم إن كثيرين من حمله الاسهم الحاليين — وبخاصة ذوى النفوذ منهم كانت لهم مصلحة فى عقد القروض الأصلية وقد جمعوا ثروة هائلة من جراء مضارباتهم فى السندات المصرية».

ولم يشأ ذلك القنصل النزيه أن يختم كلامه دون أن يشفعه بالملاحظة الآتية وهى نصيحة قدمها للحكومات الأجنبية بأنها بدلا من أن ترهق الفلاحين وترغمهم على أن يردوا إلى الدائنين أموالا لم يتسلمها الخديو بتاتا وأن تخاطب الدائنين بهذه اللهجة الحازمة فتقول لهم «لقد ارتكب خطأ موبق ضد الشعب المصرى وبالغا ما بلغ نصيب حكومته من ذلك الخطأ فليس ريب فى أنكم تتحملون قسطا من تبعة ذلك الخطأ . وقبل أن تنتظروا حتى مساعدتنا الأدبية لتحقيق مطالبيكم ينبغى عليكم أولا تخفيض تلك المطاليب إلى القيمة التى أقرضتموها فعلا . »

حقاً كان هذا كلاماً صريحاً وعادلا ولكن هيهات أن يكون له أى أثر فى قلوب الدائنين بعد أن أصبحت متحجرة من جراء الأسراف فى المطامع !!

تشكيل وزارة شريف باشا

قلنا إن الخديو كلف شريف باشا بتشكيل وزارة وطنية فقام الباشا بهذه المهمة وألفها على النحو الآتى :

شريف باشا ـ الرآسة والداخلية والخارجية
شاهين باشا للجهادية ـ (الحربية والبحرية) انظر ص ٣٧٤ وكان من أركان الجمعية الوطنية
زكى باشا ـ للأشغال العمومية
ذو الفقار باشا ـ للحقانية
محمد ثابت باشا ـ للمعارف والأوقاف أنظر ص ٤٠٤
عمر لطفى باشا ـ لتفتيش عموم الأقاليم البحرية والقبلية
وعرض شريف باشا قائمة الوزارة على الخديو مشفوعة بالخطاب التالى :

« مولاى . إنى طبقاً للمأمورية التى تنازلتم بتقليدى إياها أتشرف بأن أعرض على سموكم تأليف الوزارة على النمط الآتى (الأسماء) فأومل أن هؤلاء الأعضاء المكتسبين اعتبار البلاد وثقتها والمحترمة سلطتهم فى مطلق أنحائها يصادفون من سموكم القبول والتصديق
فتنازلوا مولاى واقبلوا علامات احترامى الفائق فانى خادم سموكم الأمين
٨ ابريل سنة ١٨٧٩ شريف »

ابتهاج البلاد بتأليف الوزارة

ثم صدر المرسوم الخديوى بتأليف الوزارة على النحو السابق . ولا تسل عن مبلغ ابتهاج البلاد بقبول الخديو للائحة الوطنية وتشكيل الوزارة الشريفية . وفى يوم تشكيل الوزارة (الثلاثاء ٨ ابريل) اجتمع العلماء والكبراء والأعيان والتجار بمنزل السيد البكرى وذهبوا بعد الظهر إلى قصر عابدين لتقديم شكرهم للخديو فاستقبلهم بالرعاية والأكرام وحثهم على التضامن والتعاون . وخطب السيد البكرى بين يدى سموه وكان مما قاله « إن ذلك اليوم الذى يصح أن يجعل ذكر الحضرة الخديوية غرة فى جبهة التاريخ لهو يوم عيد للوطن وللحرية » . وتعاقب بعده الخطباء . وأخيرا قام الخديو فقال « إن شاء الله تنال مدعواتكم الصالحة غاية المراد وتوطد الراحة والنظام » . ثم استقبل سموه التجار وحضهم على التضامن .

وعمت الأفراح انحاء البلاد فأقيمت الحفلات ابتهاجا بالعهد الجديد . وأقام السيد البكرى فى مساء الأربعاء (٩ ابريل) مأدبة شائقة حضرها الوزراء والكبراء والعظماء وبطريرك الأقباط وممثلو الامة . وحضر الخديو نفسه المأدبة ليلا وجلس نحو خمسة وعشرين دقيقة فى الدار يؤانس العلماء والكبراء ويتبسط معهم فى الحديث مما كان له أكبر وقع فى نفوس الحاضرين

تقريراً عن حالة مصر وقال إن البلاد يمكن جعلها قادرة على تسديد ديونها .

= وأقام ابراهيم بك المويلحي (ص٤٥٧) ومحمود بك العطار شاه بندر التجار والسيد محمد السيوفي (ص٤٢٣) وغيرهم زينات فاخرة أمام منازلهم ابتهاجاً بالعهد الجديد .

رأى السير ريفرز ولسن في هذه الحفلات

بعد سقوط الوزارة المختلطة عاد السير ريفرز إلى بلاده لاستئناف أعماله في إدارة الدين الأهلي . ثم دعي في أواخر يونية سنة ١٨٧٩ (أي قبل خلع الخديو) لأبداء رأيه في الشؤون المصرية بمناسبة تشكيل لجنة التصفية . ونظرة واحدة إلى الفصل العشرين من مذكراته تبين لك أن الغرض جعله غير قادر على ذكر اسماعيل بكلمة طيبة واحدة ! !

فقد أخبرنا في الفصل المذكور أنه أرسل خطابا مطولا بتاريخ ٢٥ يونية إلى وزير المالية البريطانية السير ستافورد نورثكوت . والخطاب كله مديح وتغنى بأخلاق نوبار وشجاعة نوبار وأمانة نوبار وما كان ينتظر على يديه لمصلحة مصر ومصلحة الدائنين لو كانت سندته انجلترا وفرنسا إلى النهاية ! !

وهذا التمدح ليس بمستغرب من السير ريفرز لأن نوبار كان لا يصدر في أمر إلا عن إرادة زميله الانجليزي . إنما المستغرب في خطاب السير ريفرز أن يصف كل هذه الحفلات السابق ذكرها بأنها « جزء من المهزلة التي دبرها الخديو حيث قام بمظاهرة من العلماء ومشايخ الدين برآسة السيد البكري مع أن المسألة كلها — كما يعرف الناس جميعاً — لم تكن سوى لعبة اخترعها اسماعيل وعمل على تشجيعها » ! !

ثم راح السير ريفرز يحدثنا عن حكم نوبار وشعور البلاد نحوه وراح يتساءل قائلا ما ملخصه : لقد زعم البعض أن نوبار كان مبغوضاً في مصر . فان كان المقصود أنه مبغوض من لفيف الباشوات وهم نصف أجانب فان الجواب بالايجاب . أما إنه كان مبغوضاً من الشعب ، فالجواب سلبا الخ .

ومع أننا لم نكن نأخذ ما يكتبه السير ريفرز عن اسماعيل وحكمه إلا بالاحتياط الشديد فقد كنا نستبعد أن يأ كل الحقد صدر هذا الرجل إلى حد يجعله يسترسل في الخيال ويمسخ الحقائق إلى هذا الحد ويخط أشياء لا تثير إلا الازدراء والسخرية .

رأى القنصل الأمريكي فيها

نوبار غير مبغوض في مصر ! هذا ما يبتدعه خيال السير ريفرز . ولكن ما قولك في القنصل الأمريكي السالف الذكر وهو كما تعلم رجل بعيد عن التحيز ولم تكن =

وقد أكد لورد دربى «أن مهمة مستركيف لا تنطوى على أية رغبة فى التدخل فى شؤون مصر الداخلية» (أوراق الدولة ٨٣ سنة ١٨٧٦ ص ٢)

= لبلاده أية مصلحة فى النزاع الجارى كما يشهد بذلك كتابه إلى وزير خارجية بلاده فى ٢٤ ابريل سنة ١٨٧٩ ؟ فانظر ماذا قال عن نوبار ووزارة نوبار وأصدقاء نوبار. قال بعد الديباجة :

« .... وإنى لأعلم أن هذه البلاد (يقصد مصر) بعيدة عن شواطئنا وأن مصالحنا فيها هى من التفاهة بحيث لا تقابل تفاصيل ما يحدث فيها بنفس الاهتمام الذى تقابل به فى أوربا .»

فنرجو أن يلاحظ القارىء قول القنصل «إن مصالح امريكا فى مصر هى من التفاهة الخ الخ» وهذا ما يجعل ملاحظات القنصل بعيدة عن التحيز لأنها مجردة عن المصلحة. والآن فاليك بقية خطابه :

« ولكنى أرى برغم ذلك (أى برغم تفاهة المصلحة) أنه ينبغى على ألا أترك إخطاركم ببعض ما يجرى مشفوعاً برأيى فى الحكم الانجليزى الفرنسى القائم فى مصر ....

« فهذه الحركة كلها (يشير إلى سقوط الوزيرين الأجنبيين) قوبلت هنا بمنتهى الارتياح. أما السر فى أن الشعب قد رحب بها فرجعه إلى حد كبير إلى أن هذه المحاولة الشاذة وهى حكم البلاد بواسطة وزارة مختلطة وغير مسؤولة لمصلحة الدائنين الأجانب قد قام البرهان القاطع على أنها محاولة فاشلة.

«ولست أدرى إذا كان هذا النظام سيستمر العمل به إذا استخدمت القوة. ولكن هذا لن يغير الحقيقة الواقعة وهى أنه نظام فاشل وأن المسألة بحذافيرها كانت غلطة سياسية وفى الوقت نفسه خطأ موبق .»

ثم راح القنصل النزيه يفسر ما أراد فقال :

« أما إن النظام كان غلطة سياسية فلأنه كان تدخلا فى شؤون الحكم الداخلى فى بلاد أجنبية لا لشىء سوى مصلحة جماعة من الدائنين الأجانب ممن سعوا للاثراء على حساب سندات منخفضة الثمن تحمل فوائد غير مسموح بها فى بلادهم ......

« وأما إنه كان خطأ موبقاً فلأنه كان بمثابة محاولة لارغام المصريين على دفع أموال خارج عن طاقتهم دفعها بل إنهم فضلا عن ذلك يرون أنها تفوق بمراحل ما هم ملزمون أدبياً بدفعه. ولا توجد فى أوربا أمة واحدة كانت تحتمل ضروب الابتزاز هذه . ولو أن ما تعرضت له مصر من الضغط والأرهاق تعرضت لربعه إحدى ولاياتنا لكانت =

ولم يكن حملة قراطيس دين الدائرة السنية الأنجليز أقل تشككا . فنظراً

═ النتيجة ثورة عامة تحرق الأخضر واليابس . »

فماذا عسى أن يكون رأيك بعد الآن فى أقوال السير ريفرز وهو الذى استساغ الاختلاق على الواقع المحسوس ؟ لا نظن أن أقواله أجدر بأن توضع فى أرقى من مستوى أقوال مدام أولمب أدوار ومن هم على شاكلتها .

وزارة شريف باشا تواجه مجلس النواب

ويحسن الآن أن نترك تعقب السير ريفرز فى أقواله الدالة على التحيز الشنيع ونلتفت إلى ماحدث بعد تشكيل الوزارة الشريفية .

فأنت تذكر أن الوزارة المختلطة كانت عولت على فض دورة مجلس النواب وأن الأعضاء أبوا الانصراف إلى ديارهم عند ماجاء رياض باشا يقرأ عليهم أمر الانفضاض .

فلما تشكلت الوزارة الجديدة كانت باكورة أعمالها اقرار مجلس النواب على استمرار انعقاده احتراماً لقراره الذى أعلنه فى مواجهة رياض باشا . وبهذا أيدت الوزارة المجلس فى موقفه التاريخى .

وفى يوم ١٠ ابريل (أى بعد تشكيل الوزارة بيومين) اجتمع المجلس وتليت عليه المكاتبة الوارده من وزارة الداخلية . وهى كما ذكرت فى كتاب الأستاذ الرافعى بك :

« ولو أنه كان تقرر بمجلس النظار السابق انفضاض عقد مجلس شورى النواب لانقضاء مدته حسبما تحرر لسعادتكم فى ٣ ربيع الآخر سنة ١٢٩٦ نمرة ٢١ لكن حيث مقتضيات الأحوال مستلزمة بقاءه للمذاكرة والمفاوضة معه فى بعض مواد مهمة قد تقرر بمجلس النظار الذى تشكل الآن استمراره واقتضى تحريره لسعادتكم للأحاطة بذلك وتفهيم حضرات أعضائه بعدم الانصراف . »

ومن ثم استقر رأى المجلس على مواصلة الحضور للمذاكرة فيما تقدمه الحكومة من المواد . وبينما كانت حوادث مهمة تقع فى نواح أخرى ظل المجلس يوالى اجتماعاته إلى أن كان يوم السبت ١٧ مايو سنة ١٨٧٩ حيث رأس اجتماعه مؤقتاً حسن راسم باشا ناظر الدائرة السنية بدلا من أحمد رشيد باشا المريض فأبلغ الأعضاء أن رئيس مجلس النظار سيحضر اليوم لتقديم اللائحة الأساسية الجديدة للمجلس .

خطاب تاريخى لشريف باشا

وفعلا حضر شريف باشا وقال إنه مكلف من قبل الحكومة السنية بتقديم اللائحة ═

لعدم ارتياحهم للأمر الصادر فى ٧ مايو سنة ١٨٧٦ بتوحيد الديون

= الأساسية (الدستور) ولائحة الانتخاب الجديدتين وقد وضعا بناء على اللائحة الوطنية.

ثم قال « وقد أحضرت معى اللائحة الأساسية . أما لائحة الانتخاب فهى تحت التبييض والنظر فى مجلس النظار وستقدم لمجلس النواب بعد بضعة أيام . ولا يلزمنى أن أوضح لحضراتكم أهمية هذه اللوائح لأن المقصود منها أن تكون القوانين واللوائح التى تعمل وما يلزم تنقيحه فى الموجود من الأول يكون كل ذلك بعد رؤيته بمجلس النواب والاقرار عليه منه وصدور الأمر بذلك . نعم وإن كان تأخير تقديم اللائحتين اللتين ذكرنا عنهما بهذا إلا أن هذا كان لداعى المشغولية التى كانت حاصلة فيما يتعلق بتسديد الكوبون . ولله الحمد قد تيسر ذلك. والمأمول أنه بعناية الله وباتحاد الأفكار والقلوب تحصل مزيد الراحة والعمارية للأهالى.كما أنه جارى النظر بالمالية فى مسألة تسديد الديون السائرة.وبنهوها لابد من حصول كل من أرباب المطالب على حقوقهم.وحيث كان المقصود من تلك اللوائح إنما هو رؤية ما يلزم رؤيته لما يترتب على ذلك من الفوائد والمنافع للأهالى والبلاد فالمرجو من حضراتكم النظر فيها بعين الدقة التامة وإن ترائت لكم ملحوظات ولزم الحال للمذاكرة معنا بالمجلس من أجلها فنحن مستعدون لذلك . »

وهكذا أصبح للمجلس سلطة « جمعية تأسيسية » لأنه لا يوضع قانون جديد ولا يعدل قانون قديم إلا باقرار المجلس وهذا يسرى أيضاً على القوانين الأساسية التى تقرر النظام الدستورى .

وبعد هذا البيان التاريخى تبارى الأعضاء فى شكر الحضرة الخديوية على إجابة طلبات الأمة وتألفت لجنة قوامها ١٥ عضوا لبحث هذه اللائحة فكانت بمثابة اللجنة الدستورية .

وفى ٢ يونية سنة ١٨٧٩ قدمت الحكومة لائحة الانتخاب فتليت على المجلس وأحيلت على اللجنة الدستورية . ولكن أبى الحظ أن يصدر المرسوم بذلك لأن الدول تآمرت على خلع الخديو فغادر مصر فى ٣٠ يونية سنة ١٨٧٩

تقدم الحياة النيابية فى عهد اسماعيل

كثيراً ما أشرنا إلى وجوه التشابه العديدة بين عصر اسماعيل وعصر فؤاد . وتأتى فى طليعة هذه الوجوه الحياة النيابية والحكم الدستورى . فكما أن جلالة مولانا الملك قد امتاز عصره بالاعتراف باستقلال مصر وقيام الحياة النيابية ، كذلك امتاز عصر والده =

طلبوا وضع تسوية على انفراد وحصلوا من المحكمة المختلطة على حكم بنزع

العظيم عن عصور أسلافه بنشأة تلك الحياة وبعثها بعثاً جديداً مما يصح أن يعتبر من أمجد نواحي اسماعيل وأكثرها نفعاً لأمته وبلاده . ولا مفر لنا من أن نقول كلمة نحسب أنها جديرة بأن تملأ كل مصري فخارا كلما ذكر عهد اسماعيل .

فعند ما اعتلى سموه الأريكة فى سنة ١٨٦٣ لم تكن فى مصر هيأة نيابية تمثل الشعب وتشترك فى مظاهر الحكم . وقد حرمت البلاد من مثل هذه الهيأة منذ إبطال « مجلس المشورة » الذى أسسه محمد على سنة ١٨٢٩

وقد مر عهد عباس وسعيد دون أن يجتمع مجلس المشورة مرة واحدة . فلما تولى اسماعيل فكر فى إنشاء مجلس شورى النواب .

فعصر اسماعيل يمتاز إذن عن عصر عباس وسعيد بأنه العصر الذهبي الذى نشأت فيه الحياة النيابية وتدرجت حتى أينعت وآتت أطيب الثمرات كما سنذكره هنا . ونحسب أنه لولا العواصف الهوجاء التى عصفت بالحكم الاسماعيلى فى آخر يونية سنة ١٨٧٩ لجنت البلاد أطيب الثمرات من هذه النفحات التى أغدقها اسماعيل على شعبه الكريم .

مجلس شورى النواب

ففى سنة ١٨٦٦ وضع اسماعيل لهذا المجلس لائحتين . الأولى اللائحة الأساسية مؤلفة من ١٨ مادة تبين سلطته وطريقة انتخابه وميعاد اجتماعه والثانية اللائحة النظامية (وهى أشبه بلائحة داخلية للمجلس) مكونة من ٦١ مادة .

ولم يكن رأى المجلس قطعيا بل كانت قراراته مجرد رغبات ترفع إلى الخديو للفصل فيها . وليس للمجلس أن يبحث فى موضوع لا تعرضه عليه الحكومة . وأن يكون عدد الأعضاء ٧٥ ينتخبون لمدة ثلاث سنوات ويجتمع المجلس فى القاهرة شهرين فى كل سنة من ١٥ كيهك إلى ١٥ أمشير (أى من ١٥ ديسمبر — ١٥ فبراير) ويعين الخديو رئيسه ووكيله على أن يفتتحه سموه بمقالة (خطبة العرش) ويقدم المجلس جوابه عنها بكتاب لا يقطع فيه بشىء من الأمور التى يقتضى نظرها المجلس الخ الخ

فأنت ترى أن اسماعيل منح البلاد هذا بينما كانت الأمة تغط فى نومها فلم تبدر منها حركة مطالبة . فان دل هذا على شىء فانه يدل على ميل الرجل الغريزى إلى الشورى . ولم يكن يمكن فى ذلك الدور الابتدائى أن يخول اسماعيل المجلس سلطة واسعة دون أن يسبق ذلك تربية الأمة تربية سياسية وهو ما حدث فى أثناء حكمه إلى أن كان دستور سنة ١٨٧٩ الذى قدمه شريف للمجلس .

ملكية الأراضى المرهونة . وهنالك أرسلوا المستر «غوشن» الذى تمكن

ثم أجريت الانتخابات وافتتح المجلس بخطبة العرش فى ٢٥ نوفبر سنة ١٨٦٦ وكان اجتماعه بالقلعة برآسة اسماعيل باشا راغب وحضر الخديو حفلة الافتتاح .

الخديو وخطبة العرش الأولى

وتليت خطبة العرش التى تعتبر من أهم الوثائق فى تاريخ الحياة النيابية . ونظرا لأنها تضمنت قواعد أساسية كحكم الشورى واستنادها فى تقريره إلى آيات القرآن الكريم وإشادة بمزايا ذلك الحكم والتنويه بأن غايته منفعة الجمهور ، وبالجملة فهى تصح أن توصف بأنها فذلكة تاريخية . ولذا رأينا أن نثبتها هنا بنصها الطرافتها كما وردت فى المضبطة الأصلية لجلسة افتتاح مجلس شورى النواب المحفوظة بدار النيابة . قال اسماعيل :

« من المعلوم أن جدى المرحوم حين تولى مصر وجدها خالية عن آثار العمار ، ووجد أهلها مسلوبى الأمن والراحة ، فصرف الهمم العالية لتأمين الأهالى وتمدين البلاد بإيجاد الأسباب والوسائل اللازمة إلى ذلك ، حتى وفقه الله تعالى لما أراده من تأسيس عمارية الأقطار المصرية ، وكان والدى عونا له ونصيرا فى حياته ، فلما آلت إليه الحكومة المصرية اقتفى أثر أبيه فى إتمام تلك المساعى الجليلة بكمال الجد والاجتهاد ، فلو ساعده عمره لكملها على أحسن نظام . ثم انقلبت أحوال مصر بعدهما ، إلى أن قدر الله تعالى تسليم زمام إدارة حكومتها إلى يدى . ومن حين تسلمته إلى الآن رأيتم دوام سعيى واجتهادى فى إكمال ما شرعاه من المقاصد الخيرية ، بتكثير أسباب العمارية والمدنية أعانى الله على ذلك ، وكثيرا ما كان يخطر ببالى إيجاد مجلس شورى النواب ، لأنه من القضايا المسلمة التى لاينكر نفعها ومزاياها أن الأمر شورى بين الراعى والرعية ، كما هو مرعى فى أكثر الجهات ، ويكفينا كون الشارع حث عليه بقوله تعالى « وشاورهم فى الأمر » وبقوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم » فلذا استنسبت افتتاح ذلك المجلس بمصر ، تتذاكر فيه المنافع الداخلية ، وتبدى به الآراء السديدة ، وتكون أعضاؤه متركبة من منتخبى الأهالى ، ينعقد بمصر فى كل سنه مدة شهرين ، وهو هذا المجلس المقدر بعناية المولى فتحه فى هذا اليوم المبارك على يدنا ، الذى أنتم فيه أعضاء منتخبون من طرف الأهالى ، وإنى أشكر الله على ما وفقنى لهذا الأمر المبرور ، وواثق بفطانتكم بحصول النتيجة الحسنة من حسن المداولة فى المنافع الداخلية الوطنية ، وفقنا الله تعالى لما فيه منفعة الجمهور ، وعليه الاعتماد فى كل الأمور »

فى ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ من توحيد الديون من جديد بطريقة أكثر ملاءمة لهم . ولكن الأرهاق بالغا ما بلغ لم يجد فى انتزاع الأموال من

لجنة الرد على خطاب العرش

صادف يوم افتتاح المجلس يوم عيد ميلاد الخديو فوافق المجلس على عدم العمل فى ذلك اليوم وتألفت لجنة من عشرة أعضاء لتقديم الجواب على خطبة العرش .

وفى اليوم التالى (٢٦ نوفمبر) ذهب رئيس المجلس مصحوبا بأعضاء اللجنة إلى السراى لتقديم الجواب على خطاب العرش وهو طويل مسجع ملىء بعبارات الشكر لولى النعم .

الدور الأول

وانقضى معظم الدور الأول فى المداولة فى مقترحات الأعضاء وهى موجودة كاملة فى المضابط الأصلية المحفوظة بمكتبة البرلمان .

وفى جلسة ٢٤ يناير سنة ١٨٦٧ أعلن الرئيس ختام الدور . ومن المهم أن نذكر أن البحث فى هذا الدور تناول مسألة السخرة وتقسيط الأموال الأميرية وتعميم المدارس الابتدائية . ولم يعرض المجلس للميزانية ولا طلب من الحكومة إطلاعه عليها .

الدور الثانى

١٦ مارس سنة ١٨٦٨ — ٢٣ مايو سنة ١٨٦٨

تأخر افتتاح المجلس فى هذا الدور بسبب مرض الخديو . وقد افتتح اسماعيل الجلسة وتليت مقالة الافتتاح .

وفى هذا الدور تناول المجلس البحث فى ميزانية البلاد وكان اسماعيل باشا صديق (المفتش) يتولى الرد على مايطلبه الأعضاء من البيانات .

دور الانعقاد الثالث

٢٨ يناير سنة ١٨٦٩ — ٢٢ مارس سنة ١٨٦٩

افتتح هذا الدور بخطبة العرش وهى أغزر خطب العرش مادة بسبب ما احتوته من البيانات عن أعمال الخديو منذ تبوؤه الأريكة فى سنة ١٨٦٣ لغاية سنة ١٨٦٩ . وكما كانت خطبة اسماعيل فى الدور الأول بمثابة فذلكة تاريخية عن أعمال محمد على وابراهيم باشا كذلك كانت خطبة الدور الثالث بمثابة فذلكة عن أعماله هو فى خلال السنوات الست التى انقضت قبل هذا الدور .

الفلاحين لوفاء أقساط الدين المستهلك أو الدين السائر أو سد المطالب الأخرى . ويلوح أن اسماعيل رأى أن يرفع عن عاتقه تبعة الرفض ويلقيها على عاتق الأجانب فقرر فى ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ تعيين السير «ريفرز ولسن»

الهيأة النيابية الثانية

انتخابات سنة ١٨٧٠

كانت أول انتخابات لمجلس شورى النواب فى سنة ١٨٦٦ فلما انتهت السنوات الثلاث أجريت انتخابات جديدة للهيأة النيابية الثانية فى أوائل سنة ١٨٧٠

وفى أول فبراير سنة ١٨٧٠ افتتح الخديو دور الانعقاد الأول بالقلعة كالمعتاد وانتهى فى ٣١ مارس سنة ١٨٧٠

دور الانعقاد الثانى

١٠ يونية سنة ١٨٧١

افتتح هذا الدور فى الصيف متأخراً عن ميعاده بنحو ستة أشهر وجاء الخديو من مصيفه فى الاسكندرية لافتتاحه . ونظر المجلس فى الميزانية وانتهى دوره فى ١٦ أغسطس سنة ١٨٧١

ثم مر عام سنة ١٨٧٢ دون أن ينعقد فيه المجلس .

الدور الثالث

٢٦ يناير سنة ١٨٧٣ — ٢٤ مارس سنة ١٨٧٣.

وقد افتتح الدور كالمعتاد وبحث المجلس فى مشروع سكة حديد السودان ونظر الميزانية.

وقف الحياة النيابية سنتين

ويظهر أن الارتباك المالى فى سنتى ١٨٧٤ و ١٨٧٥ حال دون انعقاد المجلس فيهما . وكأنما كان وقف المجلس هاتين السنتين هو لتحضيره للقيام بالدور الخطير الذى قدر له أن يلعبه فى قضية مصر بعد أن تجمعت ذئاب المرابين حول سيد البلاد .

ولا ننس العوامل الفكرية التى ظهرت فى هذا العهد كانتشار الصحف وحملاتها على السياسة الاستعمارية وهبوط الفيلسوف السيد جمال الدين الأفغانى أرض مصر واجتماع أهل العلم به وظهور آثار النهضة العلمية والأدبية بأبهى مظاهرها مما كان له أثر كبير فى تطور الأفكار .

والمسيو « دوبلينير » مراقبين ماليين مع تحديد سلطتهما التنفيذية . ولكن الحكومة البريطانية رفضت مااقترحه من التوسع فى استخدام الأجانب فى الأعمال التنفيذية ورشحت الماجور « بارنج » (لورد كرومر فيما بعد) لتمثيلها فى لجنة الدين (فى مارس سنة ١٨٧٧) وفى أغسطس سنة ١٨٧٨

المجلس يعقد اجتماعاً غير عادى

فى طنطا

وبعد انقضاء أكثر من عامين دعى المجلس لعقد جلسة غير عادية فى أغسطس سنة ١٨٧٦ بمدينة طنطا التى وقع عليها الاختيار بمناسبة قيام المولد الأحمدى . وكان الغرض من الاجتماع البحث فى قانون المقابلة وهل يجرى أو لا يجرى العمل به . ولم يحضر الخديو افتتاح المجلس ولا تليت خطبة العرش ووافق الأعضاء على استمرار العمل بقانون المقابلة المذكور مع أن مرسوم ٧ مايو سنة ١٨٧٦ قضى بوقف تنفيذه .

الهيأة النيابية الثالثة

الدور الأول

نوفبر سنة ١٨٧٦ — مايو سنة ١٨٧٧

فى ٢٣ نوفبر سنة ١٨٧٦ أفتتح الخديو اجتماع المجلس وكان بصحبته الأمير محمد توفيق وزير الداخلية والأمير حسين كامل وزير المالية والأمير حسن باشا وزير الحربية وشريف باشا وزير الحقانية والخارجية وتليت خطبة العرش فأشارت إلى اجتماع طنطا وحضور المستر غوشن والمسيو جوبير وعرضت لمسألة تسوية الديون .

والمهم فى هذه الخطبة أن اسماعيل عملا بسنة التدرج فى ترقية المجلس ورفع مستواه جعل له حقاً ثابتاً فى الاشتراك فى إدارة شؤون الحكومة وتصريفها وذلك باعلانه أن ابقاء المقابلة مبنى على قرار مجلس شورى النواب فى اجتماع طنطا . مما يدلك على أن الرجل كان ميالا بفطرته إلى الشورى وأنه كان يرى من نفسه حافزا يحفزه لتوسيع العمل بها فى بلاده .

ثم انتهى الدور فى ١٦ مايو سنة ١٨٧٧

الدور الثانى

مارس سنة ١٨٧٨ — يونية سنة ١٨٧٨

فى ٢٨ مارس افتتح الخديو اجتماع المجلس بخطبة العرش وانتخب لرآسة المجلس

اجتمع مندوبو الدول فى لجنة الدين والمراقبان وغيرهم بصفة لجنة تحقيق وأصدروا تقريراً انتقدوا الحكومة فيه أشد انتقاد وطالبوا بادخال عدة اصلاحات . فرد اسماعيل على هذا التقرير بأنه سوف يحكم البلاد من الآن فصاعدا كأمير دستورى . وأصدر أمره بتعيين « ولسن » لوزارة

= جعفر مظهر باشا حكمدار السودان سابقاً بدلا من قاسم رسمى باشا المتوفى ولم ينظر المجلس فى الميزانية لأنها لم تكن وضعت بعد انتظارا لنتيجة مباحث لجنة التحقيق .

الدور الثالث

يناير سنة ١٨٧٩ — يولية سنة ١٨٧٩

هذا هو آخر أدوار الانعقاد فى عهد اسماعيل . فقد افتتح فى يوم الخميس ٢ يناير سنة ١٨٧٩ بعد أن بلغ التدخل الأوروبى مبلغه فى شؤون مصر المالية وبعد أن شكلت وزارة نوبار المختلطة فى أغسطس سنة ١٨٧٨ وجاءت لمواجهة المجلس فى دور انعقاده الثالث هذا .

ولقد استبشر الناس خيرا باجتماع المجلس وراحت الصحف تستثير حماسة الشعب وتلهب شعوره الوطنى بما كانت تنشره بأقلام قادة الأفكار الوطنية .

وافتتح الاجتماع وحضره الخديو يصحبه توفيق باشا والأمير حسن باشا ونوبار باشا والسير ريفرز ولسن والمسيو دوبلنيير وراتب باشا وزير الحربية ورياض باشا وزير الداخلية وعلى مبارك باشا وزير المعارف .

وتليت خطبة الافتتاح فكانت أقصر خطبة وهى تترجم فى إيجازها عما كان يجول فى صدر أسماعيل العظيم من روح التضجر والتبرم بسبب أعمال المرابين الأجانب . وهاهو نص تلك الخطبة :

« أبدى لكم ممنونيتى من اجتماعكم بهذا المجلس وأخبركم أن سبب اجتماعكم هو أن نظار حكومتى سيتذاكرون معكم فى بعض مسائل مالية وأشغال داخلية . فنرجو من المولى الكريم أن تتم المذاكرة فى ذلك على أحسن حال والله الموفق للصواب . »

ومع أن خطبة العرش كانت فى غاية الايجاز فان الرد عليها كما دون فى مضبطة ٦ يناير سنة ١٨٧٩ جاء مطولا وسامياً . وقد نوه فيه النواب بفضل اسماعيل فى تشييد الحياة النيابية وإبلاغها المستوى الذى وصلت إليه من تشكيل مجلس وزراء أصبح مسؤولا أمام الأمة .

المالية و « دوبلنيير » لوزارة الأشغال فى وزارة مسؤولة. وقد عمل ولسن بدوره على تخفيف الضائقة المالية بالحصول من بيت آل روتشيلد على قرض بمبلغ ٨٫٥٠٠٫٠٠٠ جنيه بضمان أراضى الأسرة الخديوية التى سبق أن فصلها اسماعيل عن أملاكه الخاصة .

جواب تاريخى للمجلس

وكأنما أراد الأعضاء أن يستبقوا الحوادث فجعلوا يخاطبون اسماعيل بلفظة «صاحب الجلالة» متخطين لقبه الرسمى وهو «صاحب السمو» . ولما كان بعض خصوم اسماعيل أرادوا أن يظهروا للملأ بأن مجلس شورى النواب هذا لم يكن إلا ألعوبة رأينا أن نثبت جوابه التاريخى على خطبة العرش . وها هو بنصه :

« نحن نواب الأمة المصرية ووكلاؤها ، المدافعون عن حقوقها ، الطالبون لمصلحتها ، التى هى فى نفس الأمر مصلحة الحكومة ، نرفع إلى مقام الحضرة الخديوية الفخيمة الشكر الجميل ، حيث عنيت بتشكيل مجلس شورى النواب ، الذى هو أساس المدنية والنظام ، وعليه مدار العمران ، وهو السبب الموجب لنوال الحرية التى هى منبع التقدم والترقى ، وهو الباعث الحقيقى على تلك المساواة فى الحقوق ، التى هى جوهر العدل وروح الانصاف .

« ونكرر الشكر لهذه الحضرة الجليلة حيث شكلت مجلس وزارة جعلته مسؤولا كافلا أمام الأمة تأييدا لمجلس النواب ، وتتميما له ، ولذلك حينما تعلقت إرادتها السامية بأن ينظر الوزراء فى أمور المالية والأشغال الداخلية ، دعت نواب الأمة ليتداولوا معهم فى ذلك ، حفظاً لحقوق الرعية ، ومصلحة الحكومة .

« وإنا نبث أيضاً عن الأمة عموماً ، وعنا خصوصاً ، مزيد الثناء على هذه الحضرة المعظمة ، لما تعطفت به من تشريف ركابها الرفيع لافتتاح هذا المجلس احتفالا به فى يوم ستجنى الأمة من غرسه ثمار الرفاهية والراحة .

« ونعلن من صميم الفؤاد سرورنا وكمال ابتهاجنا بما تشرفت به مسامعنا من خطاب جلالتكم الذى أنبأ عما انطوت عليه تلك السريرة الطاهرة الزكية من الميل الغريزى إلى إصلاح الأمة المصرية ، والرغبة الخالصة فى صعودها على معارج التقدم وترقيها إلى ذروة السعادة ونيلها الحرية فى تصرفاتها قولا وفعلا حيث أبانت عظمتكم أن الغرض =

ولا ريب فى أن الخديو بتعيينه وزيرين أجنبيين وقبوله أن يكون أميراً دستوريا قد رهن آخر وديعة بقيت له ألا وهى نفوذه الشخصى . ولكنه لم يكن ينوى حقيقة أن يتنازل عن النفوذ بل كان مراده أن يلقى على عاتق الوزيرين الأجنبيين تبعة الرفض المنتظر فى الخارج وتبعة

ـــ من اجتماع هذا المجلس هو المذاكرة مع نظار حكومتكم فى المسائل المتعلقة بالمالية والأشغال الداخلية ، فبعث فينا ذلك الخطاب روح العصر الجديد ، وأحيا آمال هذه الأمة التى لا تزال راجية أن تنال شرفها التليد الذى شهدت به التواريخ وأنبأت به الآثار بمساعى الحضرة الخديوية وهممها العلية . »

« وإنا لا نألو جهدا فى دقة النظر والعناية بما فيه منفعة الوطن ومصلحة الحكومة قياماً بأداء واجباتنا التى هى فى الحقيقة مقاصد ولى النعم .

« فليحى الخديو المعظم وأنجاله الكرام ولتحى الحرية تحت ظل رعايته وحمايته آمين . »

فهذا الخطاب التاريخى وهتاف الأعضاء للخديو وللحرية ، وإشارة النواب إلى تأليف الوزارة المسؤولة أمام الأمة، مما يعد تأييدا لمجلس النواب، وتخطى الأعضاء لقب « صاحب السمو » ومخاطبتهم الخديو بلفظ « جلالتكم » مما يدل على رغبة عميقة فى الوصول بمصر إلى مراتب الدول المستقلة وعلى رأسها ملك يلقب بصاحب الجلالة ، نقول إن هذا الخطاب يبين لك سمو روح النواب وقتئذ ومبلغ ما كان يساورها من الآمال فى الوصول بالبلاد إلى أسمى المراتب . وهو لعمرك خطاب تاريخى يصح أن يظل محفوظا كصفحة مجيدة فى سجل الجهاد القومى لما يتضمنه من الروح الوطنى السامى .

أعمال المجلس

الاصطدام بالسير ريفرز ولسن

ولما كان هذا الدور هو آخر أدوار الانعقاد فى عهد اسماعيل ونظراً لأن أهم الحوادث قد وقع فى أثنائه رأينا ألا نمر سراعا بأعماله كما فعلنا فى الأدوار الماضية بل أن نلجأ إلى شىء من التفصيل .

فلقد عنى المجلس بالشؤون المالية إذ وقف محمود بك العطار بجلسة ٥ يناير سنة ١٨٧٩ ونبه الحكومة إلى أن أغلب الأعضاء يريدون فتح بعض المسائل للمداولة فيها وأنهم كتبوا للوزارة بذلك طالبين منها عرض بياناتها ومشروعاتها ، وأنهم طلبوا تحرير ـــ

تخفيض المصروفات وزيادة الأيرادات فى الداخل وقد سلك الوزيران المذكوران مسلكا مساعدا على تحقيق هـذه الغاية فقد نسبا كل المتاعب إلى نفوذه الشخصى وفاتهما أن هذا النفوذ هو ضمانهما الوحيد للبقاء فى

ـــــــــــــــ

= استعجال لأرسال مشروعات المالية والأشغال الداخلية التى يقتضى النظر فيها .

ولكن وزارة المالية - وكان يتولاها السير ريفرز ولسن وقتئذ - تلكأت فى الرد وتعللت بعدم الانتهاء من تحضيرها وأنها مهتمة بإتمامها .

أما وزارة الأشغال ووزيرها المسيو دوبلنيير فانها أسرعت بإرسال تقريرها وطلبت اشتراك المجلس معها فى بحثها . وحضر المسيو دوبلنيير بعض الجلسات وتداول مع النواب فكان بذلك أقل خشونة من زميله السير ريفرز الذى لم يشأ الحضور إلى المجلس ، بل اقترح إرسال بعض النواب إلى وزارة المالية للاسترشاد بمعلوماتهم وتجاربهم ولمفاوضتهم فى بعض الشؤون المالية .

ومع أن النواب غضبوا لهذا المسلك فقد اقترح محمود بك العطار إرسال خمسة نواب على ألا يتقيد المجلس بأعمالهم وأقوالهم بل عليهم أن يعرضوا على المجلس بكامل هيأته ما يرونه ويسمعونه من ناحية الوزارة .

ولبث المجلس ينتظر مشروعات وزارة المالية فلم تصل ، مما جعل عبد السلام بك المويلحى يثير المسألة فى جلسة ٢٦ محرم وطلب استعجال إحضارها .

ثم تأخر السير ريفرز فى إرسالها مما جعل سبعة عشر نائباً يتقدمون إلى المجلس بإبداء السخط على هذا التلكؤ مع مضى عشرين يوما على افتتاح المجلس .

وأخيرا استقر رأى المجلس على وجوب حضور السير ريفرز ولسن لمناقشته . ولكن هذا تباطأ وظهرت نيته فى الامتناع عن مواجهة المجلس . ولذا صمم الأعضاء على المناقشة فى غيبته فيما عرضه النواب من المشروعات المالية وأهمها تخفيض الضرائب والغاء بعضها بعد أن بلغت نحو ٣٥٠ — ٥٥٠ قرشا فى السنة عن الفدان الواحد .

وأرسل المجلس بصورة من هذه المشروعات إلى وزارة الداخلية وانتظر ردها .

ومما يدلك على شدة نشاط النواب أنهم قرروا نقل مكان الاجتماع من القلعة إلى داخل المدينة وطلب أحدهم تكليف حكيمباشى المديرية بالكشف على العضو الذى يعتذر بالمرض عن حضور الجلسات .

واحتج المجلس فى جلسة ١٠ صفر على إغفال اسمه فى مرسوم ٦ يناير سنة ١٨٧٩ =

مركزيهما ولذا رأيا أن يسهلا مهمتهما الأدارية بابعاد الخديو عن أعمالها. وكان أكبر معضدلها فى هذه السياسة نوبار الأرمنى وهو الذى شجع عباس من قبل على المغالاة فى الأعمال الرجعية كما شجع اسماعيل على المغالاة فى

= الخاص بتخويل لجنة التحقيق الأوربية حق وضع مشروعات القوانين للبلاد ومن ثم تصبح نافذة بعد عرضها على مجلس الوزراء والتصديق عليها من الخديو بدون حاجة إلى عرضها على مجلس النواب . وقد طالب المجلس بأن يطلع على هذه المشروعات قبل إقرارها وتنفيذها لأنها من أخص شؤون الأهالى ومن المسائل التى أصبحت بمقتضى خطاب العرش من حقه الخوض فيها .

ودوت قاعة المجلس بالتصفيق والهتاف لهذا الاحتجاج الذى اقترحه عبد السلام بك المويلحى ومحمود بك العطار ووافق عليه بالاجماع وتقرر طلب دعوة رئيس الوزراء للحضور أمام المجلس للمفاوضة معه بشأنه .

وفعلا حضر نوبار فى جلسة ١٤ صفر وقدم احتراماته للمجلس فشكره الأعضاء . ثم أدلى ببيان مبهم محاولا التهرب من بحث الموضوع إذ قال إن الموضوع الذى أثاره المجلس سياسى يقتضى البحث فيه فى مجلس الوزراء ثم عرضه على ولى النعم وأنه ما كان يتردد فى الاجابة لو كان الأمر خاصاً بالداخلية أو المالية أو الحقانية أو الأشغال . ووعد بعرض هذه المسألة الدستورية على مجلس الوزراء .

ثم ظل يداور المجلس إلى أن قام عبد السلام بك المويلحى فخطب مؤيداً حقوق المجلس وقال إن المسألة نظراً لأنها سياسية فهى إذن أدعى إلى عدها من حقوق المجلس . ولكن نوبار تهرب بمهارته المعروفة وغير مجرى الحديث بالخوض فى ترتيب المحاكم واختيار الأشخاص اللائقين لتوليتهم مناصب القضاء ، وطلب إلى المجلس مساعدته على اختيار من تتوفر فيهم صفات العفة والصدق والحرية .

وتبين للمجلس فيما بعد أن نوبار إنما كان يرمى إلى اكتساب الوقت عند ما وعد بعرض المسألة الدستورية على مجلس الوزراء .

وأخذ التبرم بوزارة نوبار باشا يزداد يوماً بعد يوم كما مر بك . وساعد على نمو هذا التبرم تعطيل جريدتى التجارة لأديب اسحاق والوطن لميخائيل عبد السيد لموقفهما الوطنى ثم وقوع ثورة الضباط التى انتهت بسقوط الوزارة على نحو ما ذكرناه .

الأسراف فكان مسلك نوبار على حد ما جاء فى أحد الأمثال التركية إذ يقول (إذا ولى الصدارة العظمى أرمنى فابشر بالخراب العاجل) وقد كان نوبار فى نظر المصريين أجنبيا بقدر ما كان ولسن. كما أن ولسن أو دوبلنيير

ـــــــ

= ثم كان ما كان من تشكيل وزارة توفيق باشا وذهاب رياض باشا لمجلس النواب فى يوم ٢٧ مارس سنة ١٨٧٩ لتلاوة أمر الانفضاض وإصرار المجلس على استمرار جلساته بعد الرد البليغ الذى رد به النائب محمد راضى حيث شكر سعادة الوزير وأخبره بأنه لا يمكن صرف المجلس إلا إذا نظر فى المسائل التى حرر عنها إلى الوزارة وفى الميزانية .

وإلى هذه الجلسة التاريخية أشار مراسل التيمس فى القاهرة إذ كتب إلى صحيفته يبين لها فائدة هذا البرلمان للشعب فقال كما رواه المستر روذستين :

« ينبغى ألا تنظر بعين الازدراء إلى البرلمان ، بعد ما أظهره النواب من دلائل الحياة العديدة والجنوح إلى الاستقلال فى الرأى . وليس هذا بالأمر العديم الأهمية . »

وتلا هذا تقديم عريضة النواب للخديو فى ٢٩ مارس سنة ١٨٧٩ بالاحتجاج على مسلك الوزارة التوفيقية وامتهانها لحقوق المجلس وعقد الجمعية الوطنية فى دار البكرى والمطالبة بتشكيل وزارة برآسة شريف باشا وتشكيل هذه الوزارة فعلا وابتهاج الشعب بها وتقديم اللائحة الأساسية (الدستور) والوعد بتقديم اللائحة الانتخابية فيما بعد.

دستور سنة ١٨٧٩

فاذا ذكر الذاكرون الحياة النيابية ومنشأها وتطورها فى مصر من مجرد مجلس شورى النواب المتواضع المقيد السلطة إلى مجلس نواب عام يكون بنفسه جمعية تأسيسية تتولى وضع الدستور — نقول إذا ذكر الذاكرون ذلك فأخلق بهم ألا ينسوا ما لاسماعيل من اليد البيضاء والفضل الأكبر فى هذا كله . فدستور سنة ١٨٧٩ هو أول دستور يصح أن يقال إنه وضع « على أحدث المبادىء العصرية » . وإذا لم يكن قد صدر به مرسوم خديوى فهو مع ذلك دستور ويعتبر تقديم الحكومة إياه للمجلس مباشرة لأقراره مبالغة منها فى التعظيم من اختصاص المجلس وحرصها على رفعة شأنه .

وبمقتضى دستور سنة ١٨٧٩ أصبح للمجلس سلطة البرلمانات العصرية وأساسها حق إقرار القوانين وإقرار الميزانية وجعل الوزارة مسؤولة أمامه .

لم يختلفا فى شىء عن هذه الحشرة الأرمنية التى سمنت ونمت على حساب مصر . ولم يكن هذان المراقبان ومن معهما من مندوبى الدائنين فى نظر المصريين إلا كالرخم التى حطت على الجيفة بعد أن انتزع عينيها قناصو الامتيازات ومن عداهم من غربان الجيف .

= ومما يلفت النظر فى هذا الدستور انه خول أهالى السودان حق انتخاب ممثلين عنهم فى مجلس النواب أسوة بسائر سكان مصر . وهذا يدل على مارمى إليه المشرع من ربط القطرين ربطا لا إنفصام له .

وقد جاء الدستور الجديد فى نحو ٤٩ مادة وهو يختلف اختلافاً كلياً عن لائحة مجلس شورى النواب الذى أنشأه اسماعيل فى بداية حكمه . ومن أهم أحكام هذا الدستور جعل كل نائب وكيلا عن الأمة لا وكيلا عن دائرته الانتخابية فحسب ، وإطلاق الحرية للنواب للتكلم فى الشؤون العامة دون خوف من وعيد ، وحل مجلس النواب إذا اختلف مع الوزارة ولم تستقل هـذه ، بشرط إجراء انتخابات جديدة فى خلال أربعة شهور من يوم انفضاضه إلى يوم اجتماعه ، فان أيد المجلس الجديد رأى المجلس المنحل وجب تنفيذ رأى البرلمان . وترك أمر انتخاب رئيس المجلس ووكيليه إلى هيأة المجلس نفسها ، وتقرير علنية الجلسات ، وجعل مكافأة النائب عشرة آلاف قرش سنوياً ، مع العلم بأن دور الانعقاد هو من أول كيهك إلى برمهات (أى من ديسمبر - مارس) وتحريم الجمع بين وظيفة حكومية وعضوية المجلس ، والسماح لأى مصرى حائز لحقوق الانتخاب أن يعرض على المجلس بواسطة أحد النواب مايراه من الاقتراحات ، ووجوب عرض جميع اللوائح والقوانين والمنشورات الجارى العمل بها فى الحكومة فى أول اجتماع للمجلس للنظر فيها وتنقيحها وإصدار قرار فيها ثم عرضها على الخديو للتصديق عليها ، ولا يصبح القانون معمولا به إلا إذا وافق عليه مجلس النواب بندا بندا ، وللنواب حق تعديل وتنقيح وتغيير أى قانون ومن ضمنها هذه اللائحة الأساسية (مادة ٢٧ - وهذا أساس من أهم الأسس التى قام عليها دستور سنة ١٨٧٩) . ولا يعاد للمجلس فى أثناء دور انعقاده فى تلك السنة قانون رفضه مجلس النواب . وقد قررت المادة ٣٦ مبدأ مسؤولية الوزارة أمام مجلس النواب والتنبيه إلى وضع قانون لمحاكمة الوزراء وعرضه على مجلس النواب ، كما خولت المادة ٤٦ للنواب حق طلب تقديم الميزانية العمومية المستوفية (الأيرادات والمصروفات) إلى المجلس عقب افتتاح الدورة ، وتركت المادة ٤٨ =

على ان الأمر الذى يدعو حقا إلى الدهشة هو أن آلام المصريين وبؤسهم لم يدفعهم إلى الثورة ضد ظالميهم أجانب كانوا أم مصريين . فقد كان الأجانب يتناولون مرتباتهم ويتمتعون بالمعيشة وسط جالياتهم التى لا تسرى عليها قوانين البلاد دون أن يدفعوا مليما واحداً من الضرائب . كذلك فعلت الطبقة العليا (التركية) فقد كان همها جمع إيجارات أملاكها

= لمجلس النواب وحده حق تفسير أى إبهام فى مواد الدستور .

عدم صدور الدستور

ويشاء حظ مصر العاثر ألا يصدر المرسوم الخديوى بهذا الدستور العصرى لأن الدول الأوربية كانت ائتمرت بالخديو اسماعيل بما انتهى بمأساة تنازله عن العرش وجلوس ولى عهده الأمير توفيق باشا على الأريكة وإصدار دستور ٧ فبراير سنة ١٨٨٢ مكان دستور سنة ١٨٧٩ . وبديهى أن الدستور الجديد كان أكثر تقييدا لأنه وضع وشبح الثورة العرابية والاحتلال البريطانى يبدو للعيان .

ويمكن أن نجمل عهد اسماعيل من الناحية النيابيـة فى هذه الجملة البسيطة . وهى أن اسماعيل رأى البلاد محرومة من التمثيل النيابى فانشأ فى بداية عهده مجلس شورى النواب الذى ظل يترعرع تدريجاً ويحصل مع تقدم الزمن وارتفاع مستوى الأمة الأدبى على حقوق جديدة إلى أن كانت خاتمة المطاف وضع دستور سنة ١٨٧٩ الذى يعتبر بحق أرقى دستور عصرى عرفته مصر . أليس فى كل هذا ما ينطق بفضل ذلك الخديو العظيم ؟

عود إلى وزارة شريف باشا

نعود الآن إلى وزارة شريف باشا ونذكر كيفية اصطدامها بالدول . فقد قلنا إن باكورة أعمالها كانت إقرار مجلس شورى النواب على استمرار انعقاده وما ترتب على ذلك من سن دستور سنة ١٨٧٩ .

هذا من الناحية الداخلية أما فيما يختص بموقف الوزارة إزاء الدائنين ووكلائهم فان الدوائر الأجنبية لا فرق بين السياسة منها والمالية أثار ثائرها استعمال الخديو حقه باقالة الوزيرين الأجنبيين لاعتقادها أنه أصبح لها حق مكتسب بادماج وزيرين أوربيين فى الوزارة المصرية . ولذا بدأت تناوىء الوزارة الجديدة .

وتشبهت بالأجانب فى عدم دفع الضرائب . ولقد استطاع الخديو ان يجمع إيراداً بلغ فى سنة ١٨٧٨ مليونى جنيه . وهذه الأموال جمعت من الفلاحين طبعاً برغم سوء حالهم . ولقد تسرب إلى جيوب الدائنين الأجانب من التسعة الملايين جنيهات التى انتزعت من هؤلاء الفلاحين التعساء فى

محاولة عرقلة أعمال الوزارة

ففى يوم ٨ ابريل رفض السير بارنج والمسيو بليج دى بوجاس (عضوا صندوق الدين) قبول منصب المراقبين مؤقتاً حتى يرد رد حكومتهما . وفى يوم ١٠ منه رفعت لجنة التحقيق استقالتها الاجماعية إلى الخديو وكانت حجة الجميع أن الاصلاحات المالية لا يمكن تنفيذها إلا بتمثيل العنصر الأوربى فى الوزارة المصرية ! ثم سرت روح الاضراب بين كبار الموظفين الأجانب فى الحكومة كالمستر فتزجرالد مدير حسابات الحكومة والمسيو بلوم وكيل وزارة المالية والسير أوكلند كولفين مدير المساحة . أما رياض باشا وكيل اللجنة فقد عزل من منصبه .

ولسنا فى حاجة إلى الأسهاب بأن موقف لجنة التحقيق إزاء الوزارة الشريفية إنما قصد به الأحراج ليس غير . لأن الوزيرين المذكورين لم يدخلا الوزارة بصفة دائمة كلا بل كان بناء على اتفاق بين الخديو وبين حكومتى انجلترا وفرنسا بوقف العمل بنظام المراقبة الثنائية مؤقتاً على أن يستأنف عند عزل أحد الوزيرين بدون موافقة حكومته . وقد صرح السير ستافورد نورثكوت وزير المالية الانجليزية بهذا كما مر بك . وهو أيضاً ماقاله وزير خارجية فرنسا المسيو وادنجتون فى رسالته إلى القنصل الفرنسى بمصر بتاريخ ١٦ نوفمبر سنة ١٨٧٨ فقد جاء فيها : « طبقا للاتفاق المبرم بين فرنسا وانجلترا ومصر بتاريخ ١٤ اكتوبر الماضى قد أوقف العمل بنظام المراقبة الثنائية ولكن على شرط إعادته حتما إذا عزل أحد الوزيرين الفرنسى أو الانجليزى من منصبه من غير موافقة دولته » .

فحق اسماعيل فى إقالة أحد هذين الوزيرين أو كليهما معا كان حقا مقرراً ومعترفا به . ولم يكن ثمة مايدعو إلى التخوف من تشكيل الوزارة الشريفية لأنها لم تنقض تعهدات الخديو بل كانت هى التى اقترحت إعادة العمل بالمراقبة الثنائية طبقا للاتفاقات السابقة . ولكن لجنة التحقيق ظلت سادرة فى تعنتها . فلم يسع الخديو إلا قبول استقالة أعضائها .

سنة ١٨٧٨ مبلغ لا يقل عن السبعة ملايين جنيه . ولم يكن بوسع الفلاح طبعاً أن يدفع إلا ما يتناسب مع ما يملكه. وكان العمدة يجوب قريته شاهراً كرباجه في يده وبصحبته المرابي اليوناني . وإذ كانت يد الفلاح خالية من الأصفر الرنان — كما كانت حالتهم وقتذاك — لم يكن بد من انتزاع أثاث داره والاستيلاء على المخزون من تقاوي قمحه لا بل حتى ملبوساته جردوه منها. ولم

مرسوم ٢٢ ابريل
لتسوية الديون

ولعل أبلغ دليل على هذا التعنت الرسالة التي بعث بها المسيو وادنجتون إلى القنصل الفرنسي العام في مصر بتاريخ ٢٥ ابريل سنة ١٨٧٩ إذ قال مشيرا إلى المشروع المالي الذي تضمنته اللائحة الوطنية « إنه لا يختلف في النقط الجوهرية عن مشروع السير ريفرز ولسن . »

وقد قلنا إن لجنة التحقيق لم تقدم تقريرها الذي أعلنت فيه افلاس البلاد إلى الوزارة لأنها لم تكن شكلت بعد بل رفعته إلى الخديو . فلما تشكلت الوزارة وتسلمت التقرير ردت عليه بالمشروع الوارد في اللائحة الوطنية . ولكن لورد كرومر قال إن المشروع المذكور يستحيل تنفيذه لأنه يتضمن اقتراحا بتخفيض الفائدة على الديون من ٦ ٪ إلى ٥ ٪ مع الأمل باستئناف الدفع بسعر الفائدة الأعلى في المستقبل القريب ، هذا الى إغفال ذكر مخصصات السراى مع أن تقرير اللجنة حددها .

وفي يوم ٢٢ ابريل أصدر الخديو مرسوماً افتتحه بقوله « بناء على المحاضر والتقارير التي عرضت علينا من الأمة وما عرض من مجلس النظار أصدرنا أمرنا بموافقته واجراء تسوية ديون الحكومة على الوجه الآتي الخ

وفي هذا إشارة صريحة بأن نية الخديو باتت منعقدة على العمل بمشروع اللائحة الوطنية . وقد رأى الدائنون في اغفال ذكر مخصصات السراى تحديا صريحاً لحكومتي انجلترا وفرنسا لأنهم اعتبروه بمثابة عودة اسماعيل إلى عهد السلطة المطلقة . وإذ ذاك احتج أعضاء صندوق الدين على المرسوم ورفعوا على الحكومة قضية أمام المحاكم المختلطة .

مساعي شريف لطمأنينة الدائنين

وكان شريف في أثناء هذا يبذل كل ما في وسعه لطمأنينة الدائنين من ناحية القوانين التي يراد إصدارها . ففي يوم ٢٣ ابريل استصدر مرسوماً بانشاء مجلس شورى الحكومة مهمته وضع مشروعات القوانين على أن تكون غالبية أعضائه من الأجانب .

يكن ما يعثرون وقتئذ عليه من ذهب سوى ثمن حلى نسائه .

ولقد كان الموظفون البريطانيون من الامانة بحيث أنهم رأوا أن من الشجاعة أن يرفعوا عقيرتهم منبهين إلى أن رفض الدفع والاصلاح لامناص منهما خدمة للشعب . وقد أغضبتهم جد الغضب عملية قتل الأوزة التى تضع البيض الذهبى بانتزاع ريشها وهى على قيد الحياة واعتبروها عملية وحشية من جهة وغير رابحة من الجهة الأخرى ولكن الدائنين الفرنسيين

أول إنذار من انجلترا

ولكن حكومتى انجلترا وفرنسا أصرتا على موقف الرفض . وفى يوم ٢٥ ابريل تسلم السير فرانك لاسلز القنصل البريطانى العام من لورد سلسبرى ما يصح أن يسمى أول انذار بريطانى للخديو . وهو كما يأتى :

« إن سمو الخديو يعلم حق العلم أن الاعتبارات التى حملت حكومة جلالة الملكة على الاهتمام بمصائر مصر قد دفعتها على ألا تتبع سياسة أخرى عدا تنمية موارد البلاد وحكمها حكما صالحاً . وقد كانت حكومة جلالتها ترى إلى هذه اللحظة أن استقلال الخديو والاحتفاظ بأسرته من أهم الشروط التى تكفل تحقيق هذه الغاية . وقد تثبتت حكومة جلالتها من أن هذه الاحساسات هى أيضاً إحساسات الحكومة الفرنسية . ولهذا كله نرجح أن القرار الذى تعجل سموه بأخذه سواء فيما يختص بسياسة الأصلاح فى المستقبل أم فى الموقف الذى ينوى وقوفه إزاء الحكومتين ليس قرارا نهائياً . »

ثم راح وزير الخارجية يخبر قنصله بأن يوضح لسموه بأنه إذا استمر على رفض « مساعدة الوزيرين الأجنبيين اللذين قد تقترح الحكومتان وضعهما تحت تصرفه » فان انجلترا وفرنسا تشعر ان إذن بأن لهما مطلق الحرية فى التفكير فى « الترتيبات التى تكفل رخاء البلاد وحكمها حكما صالحاً . »

شريف يهدد بالاستقالة

فلما أطلع القنصلان الخديو على موقف حكومتيهما كما أشار إليه اللورد سلسبرى أجابهما اسماعيل بأن ليس فى مقدوره اجابة الطلب نظرا لتهيج الرأى العام . وأصر شريف على الرفض وهدد بالاستقالة إن سلم الخديو بمطالب الدول وأعاد الوزيرين . وقد ظاهر الخديو شريف وأيده فى موقفه . وهنا اشتدت الأزمة واستحكمت حلقاتها وأخذت الدول تفكر فى التخلص من الخديو وحمله على التنازل عن العرش .

لم يشاطروهم هـذا الراى بل اعتقدوا أن اسماعيل لاتزال لديه كنوز مخبوءة . ولقدكان ممثلوهم تحت سلطة حكومتهم التى كانت رهن إشارة دائنى مصر . وكان الموقف فى مؤتمر برلين وخاصة بعد إفشاء نبأ الأتفاق الذى عقده دزرائيلى خلسة فى صدد قبرص بحيث يجعل إظهار المقاومة للسياسةالفرنسية فىمصر عملامنافياً للحكمةالسياسية . لذلكلم يكن يستطاع عملأى شيء سوى الحصول علىالأيراد مع تخفيض المصروفات بشكلما .

الخديو يجس نبض السلطان

ويرجح أن الحكومة الأنجليزية بعثت إلى جلالة السلطان بصورة من إنذارها السابق الذكر . لأن أوربا كانت تعرف وقتئذ أن ليس فى وسعها مس الخديو بسوء إلا بموافقة السلطان . ومن هنا بدأ الفريقان يجسان نبض الاستانة .

وفى أول مايو سنة ١٨٧٩ بعثاسماعيلإلى مندو به فىالاستانة ابراهام بك الأرمنى مذكرة لعرضها على الصدر الأعظم . وقد تضمنت الرسالة وجهة نظر الخديو وكيفية تشكيل الوزارة المختلطة . وقد جاءت بين محتويات المذكرة هذه الفقرة البارزة :

« . . . وعلى عكس ما كانينتظرمنهما فان هذين الوزيرين ـ دوبلنيير وولسن ـ خصصا وقتهماوجهودهماللسياسة بدلا من تخصيصهما للعمل . فلقدسعيافىإبعاد الخديو منحكومته وأصرا فى الوقت نفسه على تحميله المسؤولية . وبطريقة عرفية محضة أبعدا من خدمة الحكومة كل رجل ذى تجربة أو نفوذ . ثم إنهما لم يتورعا عن جرح الشعور القومى برفضهما الزى الوطنى وبظهورهما فى وزارتيهما وفى الاجتماعاتالرسمية متقبعينبدلامن لبس الطربوش التقليدى معلنين فى نفس الوقت أنهما وزيران أجنبيان فهما لهذا السبب غير مكلفين بمراعاة شعور العنصر التركى . وقد كانا قدوة احتذى حذوها كافة الموظفين الأجانب . وبمجرد تربعهما فى كرسى الوزارة شرعا فى عزل عدد كبير من الموظفين الوطنيين. وقدحاولا تسويغ تصرفهماهذا بحاجة الخزانةإلىالاقتصاد ولـكنهما استبدلا أولئكالمعزولين بموظفينأجانب بمرتباتفادحة . كذلك لجأتالوزارة المختلطة نفسهاإلىتسريح الجزء الأكبرمنالجيشبدون دفع المرتبات المتأخرة لرجاله وأصبحت مستحقة . وبالجملة فان الوزارة المذكورة فقدت ثقة الأمة على مختلف طبقاتها . »

وهو مالم يكن ثمة من سبيل إلى تحقيقه إلا بفرض ضريبة على الطبقة المصرية الراقية وتسريح ضباط الجيش .

ولقد كان يستحيل طبعاً أن يوافق اسماعيل على اجراءات من هـذا القبيل أملاها عليه موظفان أجنبيان فى زى وزيرين مصريين . ولم تكن فى نيته الموافقـة على هذا بتاتا فلقد كان لديه من الدهاء والحنكة الشرقيـة ما يجعله يترك الخنازير تقتل نفسها بنفسها .

وسرعان ما شرع يحرض الأعيان على المعارضـة فى زيادة ضرائب

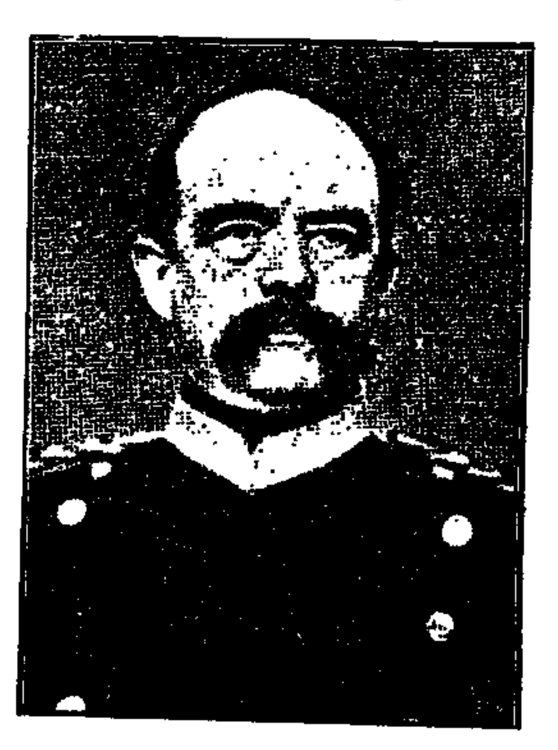
= ثم استطردت المذكرة فأشارت إلى ثورة الضباط فى ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ وكيف أنها أدت إلى سقوط وزارة نوبار ، ولكن الوزيرين ولسن ودوبلنيير حملا حكومتيهما على إرغام الخديو على اشتراك نوبار فى الوزارة بعد تعديلها ومن ثم اضطرا توفيق باشا رئيس الوزارة الجديد على قبول رياض باشا ناظرا للداخلية . ثم ختمت المذكرة بقولها إن الاستياء قد بلغ أشده فى البلاد مما حمل توفيق على تقديم استقالته ومن ثم تسلم شريف مقاليد الحكم حيث قوبلت وزارته بمظاهر الارتياح العام فى كافة أنحاء البلاد .

وقد علق المستر كرابيتس على هذه المذكرة التى عثر عليها فى محفوظات قصر عابدين بأنها وصفت مسلك الوزيرين الأجنبيين وصفاً صادقاً . ثم شفع جنابه تعليقه هذا بملاحظات الصدر الأعظم عند ماوقع نظره عليها . وقد عثر أيضاً فى محفوظات السراى على هذه الملاحظات . قال فخامة الصدر :

« إن الوقت حان فعلا لحل الوزارة القديمة لأننى أستخلص من هذه المذكرة أن مسلك الوزيرين لم يكن إلا بمثابة احتلال أوربى ومحاولة لاغتصاب سلطة الخديو . وليس يسعنى إلا تقديم أخلص التهانى لسمو الخديو لنجاح مجهوداته . وإنى أقر النظام الحاضر إذ بواسطته يكفل سموه مستقبل البلاد . وعليه أن يبذل مافى وسعه لصيانة ذلك النظام . . . . وستبذل حكومة جلالة السلطان كل تضحية وستعمل على تأييد الخديو إلى النهاية . »

ولا ريب فى أن هذه الرسالة المتضمنة رضا الصدر الأعظم عن سلوك اسماعيـل كانت مصدر ارتياح كبير لسموه . فعمل على تعزيز مركزه بتكليف ابراهام بأن يتشرف بمقابلة جلالة السلطان عند أول فرصة وأن يرفع إلى أسماعه الكريمة هذه العبارة :

الأراضى العشورية كما شجع الضباط على مقاومة أمر الاحالة على الاستيداع



البرنس بسمارك المستشار الحديدى

= « عند ما تشكلت وزارة نوبار لم يتورع عن إخبارنا بأن هـذا النظام (أى نظام المسؤوليـة الوزارية) قد أدخل إلى مصر بقصد تجربتـه فان نجح طبق فى بقية انحاء الامبراطورية العثمانية. نعم لقد بدأ ذلك النظام فى مصر متكئاً على ذراع المالية ولـكن السياسة هى غاية مرماه . » وليس شك فى أن أطماع المرابين يضاف إليها تخوف الدول الأوربية من نمو الحركة الوطنية المصرية واشتداد ساعدها بعد أن رأت من اسماعيل نصيراً كل ذلك كان من شأنه استعجال الفصل الختامى من هذه المأساة .

ظهور بسمارك على مسرح السياسة المصرية

ذلك أنه بعـد مرور عدة أسابيع على سقوط الوزارة الأوربية ظهر عامل جديد على المسرح السياسى وهو البرنس بسمارك . فان ذلك المستشـار الجديد لم يكتف بما أحرزه من الفوز العسكرى ضد فرنسا بل أراد أن يكسب لألمانيا فوزاً سياسيا بزجها فى غمار المسائل الدولية .

ثم كان أن وزير الحربية أرسل يدعو نحو ٢٠٠٠ ضابط للحضور إلى القاهرة لسبب تافه. فلما هبطوها انضم إليهم نحو ٥٠٠ من زملائهم الساخطين فى العاصمة و تألفت من هذا الجمع مظاهرة استياء عجزت حامية القاهرة عن تفريقها . ولما جاء هؤلاء الضباط الحانقون ومعظمهم من الجراكسة ومن إليهم من شذاذ الناس يطالبون بمرتباتهم المتاخرة أحالهم اسماعيل على «وزرائه» فكانت النتيجة الاعتداء على نوبار (كذا !). وما كادولسن يهرول

= فقد كلف قنصله فى ١٨ مايو سنة ١٨٧٩ بأن يحتج للخديو على مرسوم ٢٢ ابريل باعتباره مرسوما باطلا وأن سموه لا يملك اصدار قوانين مالية تمس مصالح الأجانب دون موافقة الدول طبقا للائحة ترتيب المحاكم المختلطة . فلما اطلعت الدول على وجهة نظر بسمارك بادرت بقبولها . ولذا رأينا قنصل النمسا فى اليوم التالى (١٩ مايو) يقدم احتجاجا باسم دولته ثم تلاه القنصل الأنجليزى فى ٧ يونية والقنصل الفرنسى فى ١١ منه والقنصل الروسى فى ١٢ منه والقنصل الأيطالى فى ١٥ منه . فكان جواب شريف باشا على هذه الاحتجاجات أنه أرسل للقناصل صوراً من مرسوم ٢٢ ابريل للتصديق عليه فكان جوابهم الرفض .

خاتمة المأساة

الدول تطلب تنازل الخديو

ويظهر أن انجلترا وفرنسا استشعرتا شيئاً من الخجل إذ رأتا ألمانيا وليست لها إلا مصالح ضئيلة فى مصر إذا قيست بمصالحهما ، قد سبقتهما إلى العمل الأيجابى . ولذا أرادتا أن تبزاها فى ذلك الميدان . فلم تكتفيا بطلب إلغاء المرسوم المشار إليه بل طلبتا تنازل الخديو .

فى يوم ١٩ يونية ذهب السير فرانك لاسلز قنصل انجلترا إلى قصر عابدين ليبلغ الخديو الرسالة الآتية الواردة من لورد سلسبرى وهى :

« اتفقت حكومتا فرنسا وانجلترا على أن تشيرا على سموكم بالتنازل عن العرش ومغادرة مصر . فاذا ما أصغيتم سموكم إلى هذه النصيحة تعمل الحكومتان المذكورتان سويا على أن تضمنا لكم مخصصات سنوية لائقة وألا يحدث أى تغيير فى نظام توارث العرش الذى يقضى بأن يكون الأمير توفيق باشا خلفا له . ولا ينبغى أن تخفى على سموكم =

إلى نجدته حتى أصابه ما أصاب زميله من المتجمهرين الذين ألقوا القبض عليهما وسجنوهما . هناك نزل اسماعيل من القصر وأطلق سراحهما فورا .

ـــأنه فى حالة رفض التنازل عن العرش أو إذا أرغمتم حكومتى لندن وباريس على مفاتحة السلطان رأسا فليس بسعكم الاعتماد على نيل المخصصات أو على صيانة نظام التوارث بحيث يكون الأمير توفيق خلفا لكم . »

فلما تسلم سموه هذا الانذار طلب مهلة للتفكير فى الأمر فأعطيت له مهلة ٤٨ ساعة. وفى يوم ٢١ يونية أبلغ الخديو قنصلى فرنسا وانجلترا أنه أحال المسألة إلى علم السلطان وأنه ينتظر أمره حتى إذا جاء الرد سيدعوهما لمقابلته لاخبارهما بالنتيجة إذ أنه لا يستطيع أن يتخلى عن تبعة حكم البلاد بدون أمر جلالته .

ويقول القنصل الأمريكى فى رسالة بعث بها إلى حكومته وقتذاك إن القنصل الفرنسى تغيظ من هذا الرد الغير منتظر فسأل الخديو « منذ أى زمن كنتم سموكم الخادم المطيع للباب العالى ؟ » فأجابه الخديو فوراً « منذ ولادتى ياسيدى . »

ثم جاء قنصل المانيا والقائم بأعمال القنصلية النمساوية فى اليوم التالى وطلبا تنازل الخديو وحذا حذوهما القنصل الأيطالى فى اليوم التالى .

وذكر القنصل الأمريكى أن القناصل لجأوا إلى الضغط بل إلى التهديد لحمل الخديو على التنازل عن العرش قبل وصول جواب السلطان . وقد تهددوه فى حالة الامتناع بحرمانه من المخصصات وبتولية عمه حليم باشا .

وتستطيع أن تفهم أنه بينما كان الساسة يستخدمون مختلف الوسائل لحمل اسماعيل على التنازل عن العرش كان سموه على اتصال مستمر بمندوبه ابراهام بك . ففى يوم ٢٢ يونية تسلم الخديو برقية من مندوبه بأنه قد سمع من عثمان باشا بأن الصدر الأعظم أخبره أن جلالة السلطان قال له إن كل مايتمناه ألا يحدث مايكدر الخديو وأن على سموه اذن أن يقدم فوراً لجلالته وللباب العالى أى اقتراح تتقدم به الدول . فالأولى بمولاى إذن أن يجيب القناصل بأنه خابر الباب العالى فى الأمر وأنه لا يستطيع فعل أى شىء قبل تلقى جوابه .

ووردت للخديو فى اليوم نفسه برقية أخرى من المندوب المذكور بأن مجلس الوزراء عقد اجتماعاً والمظنون أن السلطان سيحتج على موقف الدول لأنه بمثابة اعتداء على حقوق سيادته .

وقد أصيب الثوار والجنود بعدة جراح فى هذا الشجار (١٨ فبراير سنة ١٨٧٩)

وفى اليوم التالى طالب اسماعيل باسترداد سلطته الحكومية وإبعاد نوبار ليعود النظام سيرته الأولى. وبناء على إرشاد لورد «فيفيان» والماجور

= ثم وردت برقية ثالثة فى اليوم نفسه بأن الحكومة الشاهانية قد أرسلت احتجاجها لكل من فرنسا وانجلترا. وجاء فى البرقية الرابعة التى أرسلت فى ساعة متأخرة من هذا اليوم نفسه أن البرنس لوبانوف سفير الروسيا أخبر ابراهام بصفة سرية أن روسيا لم توافق على المسعى الذى قامت به انجلترا وفرنسا.

وكان طبيعياً أن تقوى هذه البرقيات من عضد اسماعيل وتشد أزره فأبرق إلى ابراهام فى اليوم نفسه يقول:

« إنى أعتمد كما اعتمدت دائماً على غيرتك وإخلاصك. فعليك أن تحيطنى علما - ليس يوماً بيوم - بل ساعة بساعة بكل مايحدث وبكل مايقال عن مصر فى دور السفارات وفى السراى وفى الباب العالى. فابذل كل ما استطعت من المجهود للحصول على هذه المعلومات وأبرق بها إلى تفصيلا وبلا تحفظ إذ من الضرورى فى الأحوال الراهنة أن ألم بكل التفاصيل مهما كانت دقيقة. »

وفى يوم ٢٣ يونية وصل إلى علم السلطان أن الخديو تنازل عن العرش. وقد انقضت ٢٤ ساعة قبل أن تكذب هذه الإشاعة رسمياً. ولكن هذا التكذيب لم يضع حداً لنشاط المندوب ابراهام. وبينما هو يقيم الدنيا ويقعدها لإحاطة الخديو بكل صغيرة وكبيرة وردته برقية من الخديو يشير فيه إلى التصرف الشاذ الذى بدا من جانب قناصل انجلترا وفرنسا وألمانيا وطلب إليه الذهاب فوراً إلى السراى لتحرى الحقيقة.

أما هذا التصرف الشاذ فقد رواه القنصل الأمريكى لحكومته إذ قال:

« فى ليلة ٢٤ يونية ذهب القنصل الألمانى (البارون دى سورما) والقنصل الفرنسى (المسيو تريكو) (ولم يذكر الكاتب اسم القنصل الانجليزى مع أن الخديو ذكره صراحة) إلى سراى عابدين فى الساعة الثانية صباحاً وطلبا إيقاظ الخديو. فاحدث مجيئهما فى تلك الساعة المتأخرة ذعراً بين سيدات القصر وخشين أن تكون هناك نية مبيتة لاغتيال الخديو. وقد ذكرا أنهما جاءا لإعطائه آخر فرصة للتنازل لابنه عن =

« بارنج » أيدته الحكومة البريطانية ضد ولسن وضد فرنسا . ثم تقرر فى النهاية ألا يكون اسماعيل رئيس مجلس الوزراء بل توفيق وريثه . ولقد أبعد نوبار ولكن فى مقابل ذلك استدعى فيفيان .

فهذا النجاح الذى أصابه اسماعيل شجعه على إعادة الكرة . وإذ كان

= العرش وإلا فلن تمضى بضع ساعات حتى تتم تولية الأمير حليم وإذ ذاك يكون قد سبق السيف العذل . فأخبرهما الخديو أنه يرى أن الوقت لا يزال فسيحاً للتنازل وأنه سيقابلهم فى الصباح ثم حياهم وانسحب إلى مخدعه . »

ونترك للقارئ الحكم على هذا التصرف الشاذ وهل كان لائقا .

فلما علم ابراهام من مولاه بهذا التصرف لم يضع الوقت سدا . وفى يوم ٢٦ يونية وصل إلى القاهرة الرد الآتى :

« لقد أذن لى جلالة السلطان أن أبرق لسموكم بأن ماذكره قنصلا انجلترا وفرنسا (وقد أغفل ذكر قنصل ألمانيا) لانصيب له من الصحة . وستصلكم التفصيلات بعد . »

وليس يوجد بين المحفوظات الملكية أى ذكر لهذه التفصيلات . ويلوح أن الحوادث كانت تسير بسرعة رؤى معها عدم وجود مسوغ لإرسال أنباء جديدة .

تولية الخديو توفيق

وفى ضحى يوم ٢٦ يونية — وبعد وصول برقية ابراهام السالفة الذكر — بعث السلطان إلى القاهرة برقيتين إحداهما باسم « اسماعيل باشا خديو مصر السابق » والأخرى باسم « توفيق باشا خديو مصر » .

وقد جاء فى البرقية الأولى ما يأتى :

« إن الصعوبات الداخلية والخارجية التى وقعت أخيراً فى مصر قد بلغت من خطورة الشأن حدا يؤدى استمراره إلى إيجاد المشاكل والمخاطر لمصر والسلطنة العثمانية . ولما كان الباب العالى يرى أن توفير أسباب الراحة والطمأنينة للأهلين من أهم واجباته ومما يقضى به الفرمان الذى خولكم حكم مصر ، ولما تبين أن بقاءكم فى الحكم يزيد المصاعب الحالية ، فقد أصدر جلالة السلطان « ارادته » بناء على قرار مجلس الوزراء باسناد منصب الخديوية إلى صاحب السمو الأمير توفيق باشا وأرسلت الارادة السنية فى تلغراف آخر بتنصيبه خديويا لمصر وعليه أدعو سموكم عند تسلمكم هذه الرسالة إلى التخلى عن حكم مصر احتراما للفرمان السلطانى » .

قد استرد بواسطة الجيش نصف سلطته فانه صمم الآن على استرداد النصف الثانى بواسطة جمعية الأعيان . وكان قد طال انتظار الناس لنشر التقرير الذى وضعته لجنة التحقيق وهو وإن لم يكن قد قدم بعد إلى الدول العظمى فقد كان معلوماً أنه يوصى بتخفيض الفائدة على الدين إلى خمسة فى المائة وتخفيض كافة المطالب بمقدار ٥٠ ٪ وإنكار الديون التى للملاك بمقتضى قانون المقابلة وزيادة الضريبة العشورية على الطبقات الغنية . وكان ينتظر بداهة أن يقيم الدائنون الأجانب الدنيا ويقعدوها احتجاجاً على أول وثانى الاقتراحات

= أما البرقية الأخرى فقد وصلت إلى الأمير توفيق باشا وتتضمن الارادة السنية باسناد منصب الخديوية إليه .

خرق السياسة العثمانية

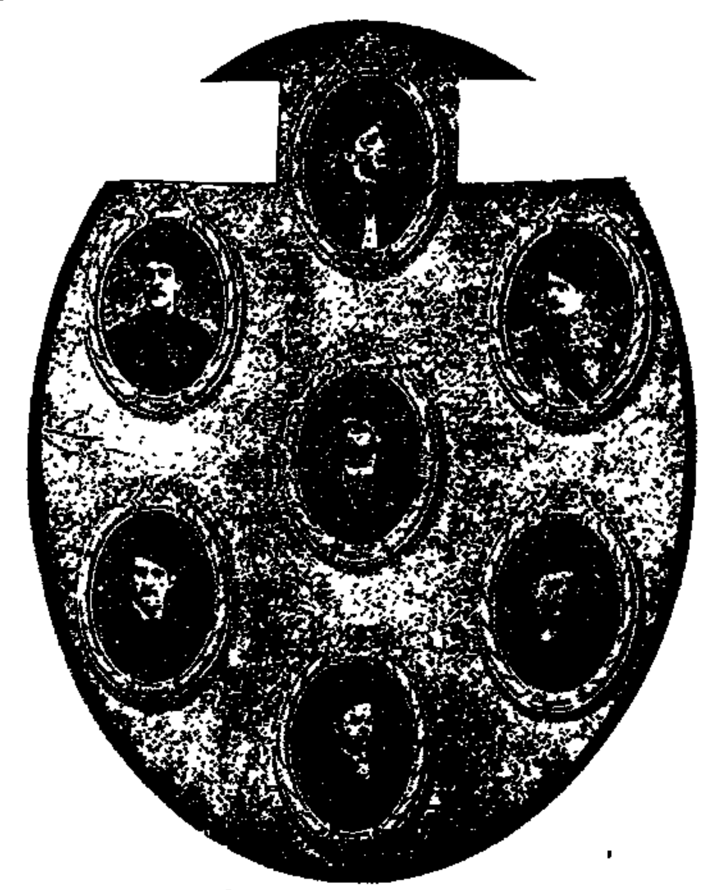
هنا أدرك اسماعيل أن المقاومة لم تعد تجدى نفعا . فلم يسعه إلا الأذعان . وليس يسع من يقرأ هذه الحوادث إلا أن يرى السياسة العثمانية بالخرق وقصر النظر . فهى قد نزلت على إرادة الدول الأجنبية التى كانت ترمى إلى تجريد الخديو من سلطته . وقد يكون فى إقدام تركيا على المطالبة بتنازل الخديو ما يتملق كبرياءها بعد أن ظل أمرها بخلع محمد على الكبير حبرا على ورق ، ولكنها بانزالها اسماعيل عن العرش تلبية لارادة دول أجنبية قد حفرت لنفسها هاوية لم تلبث أن ترددت فيها . فان نفس الدول التى تدخلت فى شؤون مصر لم تكتف بوادى النيل بل ماعتمت أن وجهت أنظارها شطر تركيا نفسها حتى ذاقت تركيا الأمرين من سياسة التدخل . ولعلها كانت تلوم نفسها على أنها أفسحت المجال للتدخل الأجنبى فيما يعتبر أنه من أخص شؤونها فى مصر . ولكن هيهات أن ينفع الندم !

* * *

أما اسماعيل فنحسب أنه ذكر فى هذه المحنة جده العظيم محمد على عند ما تألبت عليه الدول الأجنبية وفى مقدمتها تركيا . ولكن محمد على لم يحفل بتألبها ولا وهنت عزيمته لذلك . بل امتشق حسامه حتى نال لمصر استقلالها الداخلى بمقتضى معاهدة لندن .

فلو ظل الجيش المصرى فى نهاية حكم اسماعيل كما كان فى بدايته إذن لما اكترث الخديو بانضمام تركيا إلى الدول الأوربية ولا حفل « بارادة » السلطان . ولكن هكذا شاءت الأقدار .

بينما يثير الأعيان ضجة وأى ضجة ضد الاقتراحين الثالث والرابع .



صورة فريدة للخديو اسماعيل وسط أولاده الستة
وهم إلى يمينه توفيق لحسين وإلى يساره حسن فابراهيم وفوق محمود
وتحت فؤاد (جلالة الملك) *

اسماعيل ضحية الوطن والدستور

والآن وقد قررت تركيا انزال اسماعيل عن العرش فلابد من الوقوف هنيهة منحنى الرؤوس أمام تلك الصحيفة الذهبية الخالدة التى خطها ذلك الرجل الباسل حتى فى ساعة المحنة وكم كانت له صحائف ذهبية خالدة فى أيام العز والاقبال . نعم نقف مطأطىء الرؤوس أمام تلك العظمة وتلك الهمة الوثابة والوطنية النادرة التى استخفت بكل شىء وضحت بكل شىء ولم يفل من حدتها وعيد أو خوف من النفى والتشريد .

* مأخوذة من مجلة المصور

وكان يرجح أن تتخذ الضجة شكل هياج ضد المسيحيين وهنالك يتدخل الخديو والجمعية لانقاذ الموقف . وإلى هذا أشار «لاسل» المعتمد البريطانى فى تقرير له فى أول ابريل سنة ١٨٧٩ إذ قال : « يوجد هنا هياج شديد ويواصل الشيخ البكرى (نقيب السادة الأشراف) عقد الاجتماعات مع الأعيان والعلماء لاهاجة الخواطر ضد الوزيرين الأجنبيين (كذا !) . ثم زاد على ما تقدم فى ٤ ابريل قوله «يوجد اتصال وثيق بين الخديو وبين الأشخاص الرئيسيين الذين يحضرون تلك الاجتماعات التى يلوح أن غايتها حمل الشعب

= لقد كان بوسع اسماعيل — لو شاء — أن يظل على عرش مصر إلى آخر حياته ، فان الدائنين لم يضايقهم وجوده على العرش بقدر ما ضايقهم اسقاطه وزارة نوبار وتشكيل وزارة شريف على أساس دستور سنة ١٨٧٩ .

لأنه ما كاد أن يقتنع بسوء نية الدول الأوربية حتى نشط لمقاومتها . وقد أصرت الدول على بقاء الوزيرين الأجنبيين وأصر اسماعيل على الرفض وفى ذلك ما فيه من الشجاعة الخارقة والاستخفاف بالمخاطر .

ولو شاء لأحنى رأسه للقوة القاهرة ولكن نفسه الكبيرة جعلته يغامر بالعرش والتاج دفاعا عن استقلال البلاد ومناصرة للحركة الوطنية .

إن التاريخ لا يروى أمثلة كثيرة عن مقاومة الملوك لأصحاب المطامع الاستعمارية فمثل اسماعيل إذن هو من الأمثلة النادرة ولذا فهو خليق بأن يوضع فى صفوف الأبطال .

انظر بربك إلى رقعة مصر وملحقاتها فى عهد اسماعيل ثم فكر قليلا فى أن الخديو كان فى استطاعته الاحتفاظ بهذا الملك العريض لو أنه أحنى رأسه قليلا لضغط الدول الأجنبية صاحبة الحول والسلطان .

ولكنه أبى الاذعان والاستسلام وأبى فى سبيل استقلال بلاده إلا أن يصمد للمستعمرين ويستهدف لغضبهم ولو ضحى بعرشه وتاجه .

فاسماعيل هو ضحية كبرى فى سبيل الاستقلال والدستور واسماعيل هو الذى أغرم بحب بلاده حتى ضحى بثروته الخصوصية وتحمل غصص الاقتراض وما أدى اليه من تدخل الدول — كل ذلك لرفعها من مستواها المتواضع الى مستواها العظيم الذى بلغته فى عهده .

على تأييد المشروع المالى الذى يجهزه الخديو ليعارض به مشروع السير ريفرز ولسن وتشجيعهم على إرسال العرائض لسموه لتنفيذ الدستور التركى الذى أعلن فى سنة ١٨٧٧ وهو الذى ظل منذ ذلك الحين ورقة مهملة . أما الأغنياء فقد قيل لهم « إن مشروع ولسن لو دخل دور التنفيذ لضوعفت

= فاذا ذكر الذاكرون اسماعيل واصلاحاته وما خطه فى تاريخ مصر من صحف خالدة فليذكروا أمجد هذه الصحائف وأبلغها ، ليذكروا الصحيفة التى اختتم بها عهده الزاهر وحسبك صحيفة تتضمن التضحية بملك عظيم وعرش وتاج واختيار النفى فى سبيل رفع شأن الوطن ومقاومة المعتدين عليه .

إبلاغ إرادة السلطان لاسماعيل

ولما كانت رسالة السلطان بانزال الخديو عن العرش قد وردت إلى سراى عابدين فى ضحى يوم ٢٦ يونيه فقد وقع الاضطراب بين رجال البلاط وهلعت قلوبهم عند مارأوها مصدرة بعنوان « اسماعيل باشا خديو مصر السابق » .

وبهذه المناسبة ذكر الأستاذ الرافعى بك تفاصيل موجعة خاصة بالموقف المؤثر الذى وقفه الخديو فى الساعات الأخيرة قبل مغادرته البلاد . ومما يذكر بالفخر لاسماعيل أنه صمد لهذه المحنة وقابلها بما يليق برجل باسل مثله حتى أن خصومه لم يجدوا بدا من التنويه بموقفه ورجولته فى ساعة المحنة . وإنا لذاكرون هنا مجمل ما ذكره الأستاذ الرافعى بك ونعقبه بأقوال شهود العيان من الخصوم .

فعند ما وصلت رسالة السلطان اختلف رجال البلاط فى قصر عابدين فيمن يوصلها إلى الخديو . وفيما كان الجدل مستمرا اذا بشريف باشا رئيس الوزراء قد وصل فتسلم الرسالة وصعد بها إلى الطابق الثانى حيث سلمها إلى الخديو . فلما فضها وعلم فحواها قابلها بالصمت والجلد وكلف شريف باشا بدعوة الأمير توفيق باشا إليه فوراً .

فخرج شريف قاصداً سراى الاسماعيلية حيث كان الأمير توفيق وكان قد تلقى رسالة السلطان الثانية باسناد منصب الخديوية إليه . فبادر الأمير من فوره بالذهاب إلى سراى عابدين يصحبه شريف باشا . وصعد الأمير وحده إلى الطابق الثانى فتلقاه اسماعيل مخاطبا إياه « يا أفندينا » ثم سلمه سلطة الحكم وغادر اسماعيل قاعة العرش إلى دار الحرم .

الضرائب على الأراضي العشورية فتضيع بهذا المزايا الممنوحة لهم بمقتضى قانون المقابلة وأن . . . الغاية التى يسعى إليها الوزيران الأجنبيان هى تسليم البلاد للأجانب فيتعرض الدين الأسلامى وقتئذ للخطر » .

واقتنع اسماعيل بان ساعة العمل تدحانت عندما جاءه الوزيران الأجنبيان ليفهماه بدورهما خطورة هذا الهياج . فدعا إليه مندوبى الدول السياسيين

وفى منتصف الساعة السابعة من اليوم نفسه أقيمت فى سراى القلعة حفلة تولية الخديو توفيق بينما كان اسماعيل يتأهب للرحيل من البلاد . وفى ذلك يقول لورد كرومر فى ص ١٤٠ من الجزء الأول من كتابه « إن الموقف بين الوالد وولده كان مؤثراً جدا . وقد أبدى كل منهما شدة انفعاله . وكان من المرغوب فيه ألا تتأخر الأجراءات الخاصة بتولية الخديو الجديد . ولذا بدأت فورا . وفى منتصف الساعة السابعة من مساء يوم ٢٦ يونية سنة ١٨٧٩ أبرق السير فرانك لاسلز إلى لورد سلسبرى ينبئه بما حدث فقال :

« بمناسبة اعتلاء سمو الخديو توفيق العرش أطلقت المدافع مساء اليوم من القلعة حيث استقبل سموه رسمياً وفود المهنئين وفى طليعتهم رجال السلك السياسى والسلك القنصلى والوزراء وموظفى الحكومة وعدد كبير من أعيان الأهالى وكبرائهم » .

رحيل اسماعيل

٣٠ يونيه سنة ١٨٧٩

فى يوم الخميس ٢٦ يونية وصل الأمر بانزال اسماعيل عن العرش وفى يوم الاثنين ٣٠ منه غادر القاهرة إلى الاسكندرية حيث كانت « المحروسة » معدة لركوبه .

وكان يوم الرحيل يوماً مشهودا . فقد خرج الناس أفواجا أفواجا وكأنهم جاؤوا لتحية ذلك الأسد المحصور الذى آثر النفى على تسليم البلاد للأجانب . ومنذ الصباح الباكر زخرت سراى عابدين بجمهرة المودعين من كبار القوم وعليتهم .

وما كادت تنتصف الساعة الحادية عشرة حتى أقبل الخديو توفيق لوداع أبيه . وانقضت نصف ساعة فى وداع الابن لأبيه والوالد لولده .

وفى الساعة الحادية عشرة خرج الأب متوكئاً على ذراع ابنه توفيق . فركب العربة وإلى يساره توفيق . وتبعهما رتل من المركبات تقل كبار المودعين وأعيانهم وسار الموكب قاصدا المحطة حيث اصطف الجند على الجانبين يحيون مولاهم اسماعيل .

فى ٩ ابريل وابلغهم أن الحالة تتطلب علاجا عاجلا . فاستقال توفيق ثم أبلغ اسماعيل الوزيرين بانه نزولا على إرادة الأمة قد رأى أن يعهد إلى شريف باشا بتشكيل وزارة وطنية بحتة (٢٢ ابريل) وقد طلب إلى الماجور بارنج وزميله المندوب الفرنسى أن يستأنفا أعمالهما كمراقبين ولكنهما رفضا . ثم استقال بارنج وحذا حذوه عدد من الموظفين الأنجليز وصدرت الأوامر إلى شريف باعداد الدستور .

وداعه فى المحطة

وعند المحطة ترجل اسماعيل ووقف توفيق يودعه وعيناه مغرورقتان بالدموع . وفى وسط هذا المنظر المؤثر وقف اسماعيل يخطب المودعين خطاباً مؤثرا ثم التفت إلى توفيق يودعه ويعظه بهذه الكلمات المؤثرة المقتبسة من كتاب « مصر للمصريين » لسليم النقاش قال :

« لقد اقتضت إرادة سلطاننا المعظم أن تكون يا أعز البنين خديو مصر فأوصيك بأخوتك وسائر الآل برا . واعلم أنى مسافر وبودى لو استطعت قبل ذلك أن أزيل بعض المصاعب التى أخاف أن توجب لك الارتباك . على أنى واثق بحزمك وعزمك فاتبع رأى ذوى شوراك وكن أسعد حالا من أبيك . »

ويقول الذين شهدوا هذا المنظر أن كلمات اسماعيل أبكتهم جميعاً . وليس يفوتنا مغزى هذه الكلمات الحكيمة يلقيها ذلك العاهل العظيم فى ساعة الرحيل الأخير . فهو يعظ ابنه باتباع الشورى ويود لو استطاع ازالة بعض المصاعب التى كانت سبب هذه الرزايا .

سفره إلى الاسكندرية

ثم استقل القطار فوصل الاسكندرية فى الساعة الرابعة بعد الظهر وكان فى استقباله فى محطة القبارى محافظ الثغر وبعض الرؤساء والكبراء . فركب الزورق المعد له وتبعته زوارق المودعين حتى وصل إلى المحروسة . فلما وصلها أطلقت المدافع إيذاناً بوصوله ورفعت البوارج الحربية أعلامها تحية له واستقبل على ظهر الباخرة بعض المودعين .

وقد وصف القنصل البريطانى العام هذه المظاهر ونوه بما أبداه اسماعيل من الرجولة والشجاعة فى ساعة المحنة حتى انه كان يبتسم لمودعيه ويشكر لهم ما تجشموه=

وما لبث الانجليز أن فتحوا باب المفاوضات فبعث لورد سالسبرى إلى اسماعيل فى يوم ٢٥ ابريل برسالة طلب فيها إعادة الوزيرين الأجنبيين ثم أردفت هذه المذكرة بالمناقشة فى التدابير الأخرى الواجب اتباعها . ولا ريب فى أن الاجراءات الماهرة التى تتبع فى هذا العصر لتنظيم الاحتلال « الغير المنظور » لو طبقت وقتذاك لأدت إلى حل عملى بسهولة . ولكن تعقدت الأمور بسبب ما كان من التنافس بين انجلترا وفرنسا واقتناع مندوبى كل منهما بعدم انتظار فائدة من الجمعية أو فعل شىء ضد الخديو .

= من أجله من التعب والنصب . بل إن لورد كرومر نفسه اعترف بما كان يبدو من « الهيبة والجلال على اسماعيل وهو يصافح مودعيه » . وهكذا أسدل الستار على الفصل الأخير من هذه المأساة .

ذهابه إلى نابولى

ثم أقلعت به المحروسة إلى نابولى حيث أعد له ملك ايطاليا قصرا خاصا لسكناه هو وأسرته وحاشيته . ثم أخذ يتنقل بين عواصم أوربا . وقد روى السير ريفرز ولسن أنه قابله مرة فى إحدى سفراته فلم يلحظ منه أى حقد على أحد . بل بالعكس كان اسماعيل لا يذكر الناس جميعا إلا بالخير . وفى هذا ما فيه من معنى العظمة النفسية .

ذهابه إلى الآستانة

وفى سنة ١٨٨٨ انتقل إلى الاستانة حيث استقبل أفخم استقبال فأقام بقصر أمرجيان على البوسفور .

وفاته

وقد ظل مقيما فى الاستانة إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى فى يوم ٢ مارس سنة ١٨٩٥ وله من العمر ٦٥ عاماً . وقد حزنت عليه البلاد أكبر حزن . ثم نقل جثمانه إلى مصر فى يوم ١٠ مارس فى الباخرة « توفيق ربانى » تحرسها بأمر السلطان عبد الحميد البارجة العثمانية « عز الدين » واحتفل فى الاسكندرية ثم فى العاصمة بتشييع الجنازة احتفالا رسميا فخما . واشترك سمو الخديو السابق فى تشييع الجنازة فى الاسكندرية ثم عاد بقطاره إلى العاصمة . وكان بين المشيعين فى القاهرة بعد الجنود السوارى والموسيقى السوارى والبطارية السوارى وكبار التجار والأعيان الأجانب وموظفو النظارات والمصالح =

وفضلا عن ذلك فقد كانت اقتراحات اسماعيل أكثر ملاءمة للدائنين الأجانب مما اقترحته لجنة التحقيق كما عرف اسماعيل ذلك عندما احتاط لوصول اقتراحاته إلى أوربا قبل وصول اقتراحات اللجنة ولم تكن الانتقادات التي وجهت ضد اقتراحات اسماعيل حتى الصادرة من لورد كرومر نفسه

= الأميرية ورجال المحاكم المختلطة والأهلية والمحامون ومدير صندوق الدين وناظر ومراقبو الدائرة السنية ومديرو مصلحة الدومين ومديرو السكك الحديدية والرؤساء الروسيون وكبار ضباط جيش الاحتلال ووكلاء الدول والقناصل والنظار والمستشاران المالي والقضائي ومستشار نظارة الداخلية ثم سمو الخديو السابق عباس حلمي فأصحاب السمو الأمراء والغازي مختار باشا وحاشية السراي ورجال الغازي والعلماء والأعلام وحملة القماقم والمباخر والمصاحف ثم سرير الجنازة محمولا ومحاطا بحرس الخديو وموسيقى بيادة وأورطة بيادة وكوكبة من البوليس. وسارت الجنازة من ميدان المحطة حتى ميدان الأوبرا وهنا تركها سمو الخديو السابق والقناصل.

ثم استأنف الموكب السير من شارع البوستة فشارع محمد علي إلى الرفاعي حيث ووريت الجثة التراب.

وتبارى الشعراء في القاء المراثي ومن بينها مرثية المغفور له أحمد بك شوقي الغراء وقد ختمها بقوله:

إنما الموت منتهى كل حي	لم يصب مالك مع الملك خلدا
سنة الله في العباد وأمر	ناطق عن بقائه لن يردا
وإلى الله ترجع النفس يوما	صدق الله والنبيون وعدا

وأقيمت حفلة العزاء ثلاث ليال سويا في سراي القصر العالي وتصدر القاعة الكبرى البرنس حسين كامل (المغفور له السلطان حسين) والبرنس أحمد فؤاد (جلالة مولانا الملك) وأقبل أعضاء الأسرة الخديوية والنظار والقناصل وغيرهم يقدمون التعازي. وأعلن سمو الخديو السابق الحداد في المعية أربعين يوما.

وهكذا انتقلت إلى دار الخلد تلك الشخصية البارزة التي طمحت إلى تحقيق استقلال البلاد وما زالت دائبة في مسعاها حتى أوشكت — لولا تألب الدول الأجنبية — أن تحقق أمنيتها.



تشييع جنازة المغفور له ساكن الجنان اسماعيل باشا ويرى النعش إلى يسار الصورة

مقنعة بتاتاً . وبديهي أن المسألة الرئيسية لم تعد مسألة الرفض المالى بل كانت مسألة الأصلاح السياسى الذى كان كما لا يخفى يتطلب وقتاً فى حين أن بريطانيا وفرنسا كانتا شديدتى النفور من تحمل تبعة الحكم فى مصر بحيث أنه كان من رأيهما ترك حبل الأمور على الغارب مرة أخرى لولا عامل ثالث طرأ على الموقف واضطرهما للتدخل .

أخلاق اسماعيل وشخصيته

ولا بد من كلمة هنا عن أخلاق اسماعيل وشخصيته ومنها تستطيع أن تحكم على الرجل الذى قال فيه السير صمويل بيكر « إنه جاء قبل أوانه » . ولا نجد خيراً من أن نقتبس ما كتبه الأستاذ الرافعى بك فى هذا الصدد . وإنما ذكرنا أقوال حضرته لتكون أبلغ فى الأشادة بفضل هذا الخديو المظلوم . قال الأستاذ :

« كان اسماعيل بلا مراء آية فى الذكاء والفهم وسرعة الخاطر ، وقوة الذاكرة ، ومضاء العزيمة وعلو الهمة ، وكان شجاعاً ، لا يعرف الجبن والاحجام ، قوى الشخصية عظيم المهابة .

« أما ذكاؤه فكان يشع من عينيه البراقتين ، وقد لحظ هذا الذكاء وتبينه كل من عاشروه أو حادثوه من الأصدقاء والأعداء على السواء .

« كان يفهم مراد محدثه ويحيط بالأمور ويدرك الأشياء بسرعة خاطر تشبه البرق الخاطف وكان قوى الذاكرة ، يدهش محدثيه بقدرته على استيعاب التفاصيل والدقائق عن الحوادث الماضية ، كبيرها وصغيرها ، رغم مضى السنين على وقوعها .

« وتبدو لك قوة إرادته ومضاء عزيمته من الهمة التى كان ينفذ بها مشاريعه ، فلم يكن يعرف التردد والاحجام ، وإذا أراد أن ينجز عملا لا تقف فى سبيله عقبة إلا ذللها ، أما شجاعته فحسبك أن تتبينها من السياسة التى رسمها لنفسه فى السنوات الأخيرة من حكمه ، حين أدرك سوء نية الدول الأوربية واعتزم مقاومتها . وقد رأيت كيف وقف اسماعيل موقف المعارضة من الوزارة المختلطة وأتبع حيالها خطة المقاومة ـ وهى سياسة تقتضى حظاً كبيراً من الشجاعة والاستخفاف بالخاطر . وفى سبيل هذه المقاومة غامر بعرشه وضحى به فعلا . وقليل من الملوك من يضحون بعروشهم فى سبيل مقاومة المطامع الاستعمارية .

فان بسمارك طالما فاخر بان فى وسعه إيقاع الشجار بين انجلترا وفرنسا بسبب مصر وهذا ماجعله شديد الحرص على عدم ترك المسألة المصرية تحل من تلقاء نفسها. وقد حسب أن الفرصة سنحت له الآن لايقاع الشقاق بينهما ولتمكين ألمانيا من لعب دور رئيسى فى السياسة العليا بجعل المالية العليا مدينة لها بالجميل . ولقد روى المستر ولفرد بلنت فى كتابه « التاريخ السرى للاحتلال البريطانى » ص ٦٥ رواية تستند إلى أساس صحيح

= « وكان اسماعيل بلا نزاع محباً لبلاده ، راغباً فى تقدمها ، عاملا على أن يسير بها فى مضمار الحضارة والعمران ، ساعياً فى توسيع ملكها ، وإعلاء شأنها .

« فالذكاء وقوة الإرادة والشجاعة والاقدام والرغبة فى اعلاء شأن مصر هذه هى الصفات التى تمتاز بها شخصية اسماعيل

« ظهرت نتائج هذه الصفات فى مختلف الأعمال التى تمت على يده ، فقد سعى ووفق فى الحصول من تركيا على أقصى ما يمكن من الحقوق والمزايا ، كيما يصل بمصر إلى الاستقلال التام ، فهذه نزعة مجيدة تدل على شدة حبه لعظمة مصر ورفعة شأنها . (نرجو أن يذكر القارىء هنا انتقادات الأستاذ الرافعى بك لسياسة الفرمانات التى حصل بها اسماعيل على هذه الحقوق والمزايا) .

« واتجهت همته إلى توسيع أملاك مصر فى افريقيا ، فأكمل فتح السودان ووصل بحدود مصر إلى منابع النيل ، وشواطىء المحيط الهندى ، أى إلى حدودها الطبيعية ، وبذل فى هذا السبيل أقصى ما لديه من عزيمة وقوة ، وهى صفحة مجيدة من صحائف اسماعيل ، تزين تاريخه ، بقدر ما يزدان بها تاريخ مصر القومى .

« وعنى بقوة البلاد الحربية بتنظيم الجيش وإنشاء المدارس الحربية العالية وتسليح الجند بأحدث الأسلحة وتزويد الحصون والقلاع بالمدافع الضخمة .

« ووجه أيضاً همته إلى انهاض البحرية المصرية حربية كانت أو تجارية . فرفع علم مصر على مياه البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والأقيانوس الهندى .

« وله على العلم والأدب أياد بيضاء بما أنشأه من المدارس العالية والمعاهد العلمية ، وتجديده عهد البعثات ، فمدرسة الحقوق ، ومدرسة المهندسخانة ، ودار العلوم ، ومدارس البنات ، والمدارس الصناعية ، والمدارس الثانوية والابتدائية ، ودار الكتب ، والمتحف المصرى ، ودار الآثار العربية ، والجمعية الجغرافية ، والنهضة العلمية والأدبية ، والحركة =

ملخصها» أن ولسن قد أغضبه عزل اسماعيل إياه وإغضاء الحكومة البريطانية عن مناصرته فذهب إلى بيت آل روتشيلد فأدخل فى نفوسهم الذعر من احتمال ضياع القرض عليهم وهو القرض الذى لم يكونوا سددوا بعد إلى مصر إلا نصفه فقط وبقى النصف الثانى فى أيديهم ، وأن آل روتشيلد بعد أن يئسوا من حمل الحكومتين البريطانية والفرنسية على التدخل فى الأمر اضطروا للالتجاء إلى بسمارك » . ومهما كانت الأسباب التى ارتكن إليها المستشار الألمانى فانه فاجأ العالم بتصريح خطير

= الفكرية التى ظهرت فى عهده، ونهضة الصحافة ، والتاليف ، والطباعة والنشر ، تعترف بآثاره الخالدة .

« وأعمال العمران التى تمت على يده كفتح الترع ، وإقامة الجسور ، والعناية بزراعة القطن ، واستحداث مصانع السكر وإصلاح القناطر الخيرية ، وزيادة مساحة الأطيان الزراعية وإنشاء السكك الحديدية والكبارى ، والأسلاك البرقية ومصلحة البريد ، وتعمير المدن وتخطيطها ، وتنظيمها ، كل هذه الأعمال قد نهضت بعمران مصر وتقدمها .

« كل هذه مآثر عادت على البلاد بالخير العميم . وإن ننس لا ننس آخر صفحة ختم بها حياته السياسة ، إذ قاوم المطامع الاستعمارية التى بدت من الدولتين الانجليزية والفرنسية ، ولو أنه آثر الاذعان والاستسلام لبقى على عرشه يتمتع بهذا الملك العريض ولكنه أبى على الدول طلباتها ، وأصر على أن تكون الوزارة خالصة للمصريين ، واستجاب إلى مطالب الأحرار وعهد إلى شريف باشا تأليف وزارة وطنية خالية من العنصر الاوربى ، وأقر مبدأ مسؤولية الوزارة أمام مجلس شورى النواب .

« ولا شك أن موقفه فى هذا الصدد هو دفاع عن استقلال البلاد ومناصرة للحركة القومية . وفى هذا السبيل استهدف لغضب الدول الأجنبية حتى فقد العرش والتاج . فهو من هذه الناحية ضحية كبرى فى سبيل الاستقلال والدستور .

«اذ الأقدام على هذه التضحية الغالية ، وما أعقبها من النفى والتشريد والحرمان ، عمل جليل يزين تاريخ اسماعيل .

اتهم فيه اسماعيل بأنه « أخل إخلالا علنيا مباشراً بتعهد دولى . . . » إذ ذاك اضطرت بريطانيا العظمى وفرنسا إلى القيام بعمل حاسم لاستعادة مركزهما . ومن ثم كان تورطهما فى مطالبة اسماعيل فى يوم ١٩ يونية سنة ١٨٧٩ بالتنازل عن العرش .

ولا ريب فى أن اسماعيل لو أبى النزول على هذا الطلب لأيده سلطان تركيا . لأن الخليفة باعتباره الشخص الوحيد الذى لا تستطيع الدول الأجنبية خلع خديو مصر إلا عن طريقه كان شديد التردد فى التدخل ضد أمير مسلم بناء على تحريض دولتين مسيحيتين كانت كل منهما منهمكة وقتذاك فى حرب عوان ضد المسلمين .



= « فالصفحة التى ختم بها اسماعيل حياته السياسية جديرة بأن تسجل فى صحائف الحركة القومية بالفخار والاعجاب . »

هذا ما كتبه الأستاذ الرافعى بك متغنياً بصفات اسماعيل وأخلاقه . على أنه انتقل بعد ذلك إلى ما سماه صحيفة « الأخطاء والسيئات » فتولى انتقاده فى صدد مسألة الديون بما لا يخرج عما اقتبسناه عنه فى صفحات هذا الكتاب وتولينا الرد عليه فى مكانه .

* * *

على أن اسماعيل إذا كان قد وضع الأساس والدعائم فقد جاء بعده أبو الفاروق ليتمم البناء . وقد أصبحت مصر والحمد لله معترفا باستقلالها دولياً . وبعد أن كان النواب فى آخر دور انعقاد مجلس النواب يخاطبون اسماعيل « صاحب الجلالة » متخطين لقبه الرسمى وهو « صاحب السمو » فقد أصبح لمصر والحمد لله مليكها وهو جلالة مولانا الملك فؤاد كما أن البلاد فى عهده قد استعادت دستورها بعد أن ظل عشرات السنين معطلا .

تنبيه مهم

فى فصلين اثنين فقط حاول المستر يانج (مؤلف الكتاب الحاضر) أن يروى تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم اسماعيل باشا أى من سنة ١٧٦٠ إلى سنة ١٨٧٩ . وبديهى أن محاولة من هذا القبيل مهما كانت موفقة بالنسبة لما يسمونه « رؤوس موضوعات » فانها لا تتسع طبعاً لذكر التفاصيل التى قد تهم الرأى العام المصرى أكثر مما تهم الرأى العام الأنجليزى وهو الذى قصد المستر يانج إلى تنويره بذكر رؤوس الموضوعات .

وقد رأينا أن نسد النقص بذكر التفاصيل فى شكل حواشى مذكورة بالهامش ومقتبسة عن المصادر التى ألمعنا إليها فى سياق الحديث . ومن هنا سيجد القارىء فى الفهرست شيئا من التقديم والتأخير فى ترتيب الحوادث التى ذكرها المستر يانج والتى أوردناها فى الهامش .

فهرست الكتاب

صفحة

الفصل الأول

مولد مصر الحديثة

صفحة

الفصل الثانى

المفلسون والسماسرة

صفحة

صفحة

فهرست الصور

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

مراجع الكتاب

هذه أسماء الكتب التى اقتبسنا منها فى التعليقات التى بهامش الكتاب

الرقم	الكتاب	المؤلف
(١)	كتاب تاريخ مصر الحديث	تأليف المرحوم جورجى زيدان مؤسس الهلال
(٢)	كتاب مشاهير الشرق	
(٣)	« تقويم النيل	سعادة الأستاذ أمين باشا سامى
(٤)	« تاريخ الحركة القومية	الأستاذ عبد الرحمن الرافعى بك
(٦)	« عصر اسماعيل	
(٥)	« حقائق الأخبار عن دول البحار	المرحوم اسماعيل باشا سرهنك
(٧)	« مراسلات ويوميات ووثائق عن قناة السويس	المسيو فردينان دلسبس
(٨)	« مصر	المستر تيودور روذستين
(٩)	« اسماعيل الخديو المظلوم	القاضى كرابيتس
(١٠)	« السودان والنخاسة وغوردون	
(١١)	« مصر	المستر ستانلى لين بول
(١٢)	« مصر كما هى	المستر ماكوان
(١٣)	« مصر ـ الحكام الوطنيون والتدخل الاجنبى	البارون دى مالورتى
(١٤)	« انجلترا فى مصر	لورد ملنر
(١٥)	« اصلاح مصر	السير صموئيل بيكر
(١٦)	« الأسماعيلية	
(١٧)	« السيف والنار	سلاطين باشا
(١٨)	« البحر الزاخر فى تاريخ وأخبار الأوائل والأواخر	لصاحبه محمود باشا فهمى
(١٩)	« السياح والكتاب الفرنسيون الذين زاروا مصر	جان ـ مارى كاريه

(٢٠) كتاب مصر الحديثة . تأليف لورد كرومر
(٢١) « المسألة المصرية المسيو دوفريسينيه
(٢٢) « فصول من حياتى الرسمية السير ريفرز ولسن
(٢٣) « « « « أدوين دليون
(٢٤) « كشف الستار عن أسرار مصر مدام أولمب أدوار
(٢٥) « التاريخ السرى للاحتلال البريطانى للمستر ويلفرد بلنت
(٢٦) مذكرات دزرائيلى .
(٢٧) تقرير كيف عن مالية مصر بقلم المستر كيف
(٢٨) تقرير عن شؤون مصر للقنصل الأمريكى العام المستر بيردس
(٢٩) تقارير قنصل أمريكا العام المستر فارمان
وغيرها وغيرها

هذه السلسلة تضم :

- فتح العرب لمصر
- تاريخ مصر إلى الفتح العثماني
- الجيش المصري البري والبحري في عهد محمد علي
- تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي
- تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل
- تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر
- ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا
- تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل باشا (مجلد أول)
- تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل باشا (مجلد ثاني)

١٠ - ... مصر وأخبارها
١١ - تاريخ مصر الحديث مع فذلكة في تاريخ مصر القديم
١٢ - قوانين الدواوين
١٣ - تاريخ مصر من محمد علي إلى العصر الحديث
١٤ - الحكم المصري في الشام
١٥ - تاريخ الخديوي محمد باشا توفيق
١٦ - آثار الزعيم سعد زغلول
١٧ - مذكراتي
١٨ - الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم
١٩ - وادي النطرون ورهبانه وأديرته ومختصر البطاركة
٢٠ - الجمعية الأثرية المصرية في صحراء العرب والأديرة الشرقية
٢١ - الرحلة الأولى للبحث عن منبع البحر الأبيض (النيل الأبيض)
٢٢ - السلطان قلاوون (تاريخه - أحوال مصر في عهده - منشآته المعمارية)
٢٣ - ثروة مصر
٢٤ - المماليك في مصر
٢٥ - تاريخ دولة المماليك في مصر
٢٦ - سلاطين بني عثمان

مكتبة مدبولي
MADBOULI BOOKSHOP
٦ ميدان طلعت حــرب القاهرة ت ٥٧٥٦٤٢١
6 Talat Harb SQ. Tel: 5756421